فهرس

الجزء الأول

من

تفسير القرآن الحكيم

مصطلحات هذا الفهرس

١ — أنه قد روعي الترتيب الهجائي في الكلمة الثانية كالاولى وقدم المضاف على المعرف باللام

٢ — أن الاصفار التي عن يسار الارقام تشير الى إتمام أو إعادة المعنى في الصفحة التالية أو ما بعدها

٣ — ان الترتيب إنما هو على حسب النطق لا المادة

٤ — ان بعض المواد المكررة لم تذكر في كل موضع كجعل الدين عصبية جنسية وغير ذلك من أحوال أهل الكتاب واتباع المسلمين لسننهم ومباحث الايمان وآثاره والعمل والجزاء وسنن الله في الخلق

الطبعة الاولى في سنة ١٣٤٦ هـ

مطبعة المنار بمصر

﴿الفهرس العام لمسائل هذا الجزء﴾

(ب)

(ر - ز)

(ف. ق)

﴿ تم والحمد لله ﴾

﴿ تصحيح الغلط المطبعي بذكر الصواب وحده بما يعلم به الغلط ﴾

﴿ الرقمان المفصول بينهما بنقطتين هكذا ٢ : ٣ أولهما للصفحة والثاني للسطر. فان تكرر التصحيح في سطر آخر أو أكثر نذكر رقم السطر معطوفا بالواو والكلمة الناقصة تذكر مع مجاورها ﴾

في الصفحة الأولى س ٦ المتصوفين . وفي ٧ : ١٠ فيها ما تشغله ، ١٧ : ٢ والايضاح ، ١٩ : ٦ الاصطلاحية ٢١ : ٢١ اصطلحوا ٢٢ : ٢١ الصحابة ٣١ : ٥ واجب و ٧ لمعرفة ٣٢ : ٣ السور المكية و ١٦ السور ٣٥ : ١٢ ثقات ٤١ : ١ أجدر و ١٦ (٢٢ . ٤ ، ٤٢ : ١٣ وإذا و ١٦ باعتقاد كماله ٤٤ : ٢٠ وقيل (هي الثانية في أواخر السطر) ٤٧ : ٩ المبنى ٤٩ : ٢ الرحمن هو ٥٠ : ١ الاختياري ٥٣ : ١٢ ودونها مسلسلا بالأولية ٥٧ : ٦ إلى الذين ٦١ : ١٢ له كفوا ٦٤ : ١٩ وأملها و ١٣ و ١٦ وأما ٩٦ : ٨ تثنى ١٠٢ : ١١ ادعاء ١١١ : ٤ ولكنه في الدنيا ٤٧ : ٢ اختاروكم ١٢٠ : ٨ ومن أدلتها تعليل و ٩ فان تبتم و ١٠ فان الذي كان يعرض و ٢٢ الأثر ١٢١ : ١٠ حاله ١٢٨ : ١٢ والافتقار ١٣٦ : ٢٢ ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ ١٤٦ : ٣ حرمانهم ١٤٨ : ٣ لا يأتيه الباطل من ١٦٤ : ١٥ يستهزيء بهم ١٦٥ : ١٢ من كسبهم ١٧٠ : ١٢ الله ١٧٧ : ٢١ لئلا ١٨١ : ٤ وهم حرية ١٩٨ : ٩ تساوي سوره ٢٠٠ : ١٥ كسورة النجم وسورة القمر ٢٠٦ : ٥ القول و ١٧ ومن لم يؤمن ٢٠٩ : ٥ وقد سبقه إلى العدل والمساواة ٢١١ : ٦ الكيمياء و ٨ المقدرة و ١٨ تجري ٢١٢ : ٩ من علوم و ٢١ العلم منها ٢١٣ : ٨ يجد القاريء في تفسيرنا هذا و ٢٠ لصرحوا بالتوحيد ٢١٤ : ١ والولايات و ١٧ (أو ١٢ سنة) و ٢٣ رومي و ٢٤ (إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون) ٢٢٢ : ٩ وأصحها نسباً ٢٤٩ : ٣ فسواهن ، ٢٥٠ : ٥ (١٠ . ١٠١ وفي ١٩ هذه المدنية ٢٥٤ : ١٢ مالا يطاق ٢٥٨ : ٢٥ وسننه ٢٦١ : ١٣ سعة علمه ٢٦٢ : ١٩ الأعلى ٢٦٦ : ٣ بمعنى ٢٨٣ : ١٩ و ٢٠ فهكذا كان و ٢١ ابتدأ ٢٨٧ : ١٣ لأنها ٢٨٨ : ١٤ فانظر ٢٨٩ : ١١ إحياؤهم ٣٠٣ : ١٦ يزهى ٣٠٧ : ١٣ سنقرئك ٣١٩ : ١٠ عقب عليها ٣٢٢ : ٥ سينقرضون ٣٢٧ : ٥ ولذلك صح و ١٩ كالثورات ٣٣١ : ٢١ أخلاق ٣٣٥ : ٥ جريت عليه ٣٣٩ : ١٤ صاحب ٣٤٣ : ٧ الذين ٣٥٨ : ٥ (فاذ ٣٧٥ : ١ (تعملون) ٢ (يعملون) ٣٩٤ : ٢١ أثر ٣٩٨ : ١٤ ويضلوهم ٤٠٢ : ٦ ذلك الذي ٤٠٥ : ٤ بل يبينه ٤٢١ : ١٤ أحلامهم ٤٣٠ : ١٢ له ٤٣٥ : ٦ يرضاها ٤٤٠ : ١٦ الذين من قبلهم ٤٤٤ : ١٤ اتبعت ٤٥٠ : ٢٤ مقصود ٤٥١ : ٤ تمهيد ٤٥٤ : ٣ المتبادر ٤٥٧ : ١٢ شيئا ٤٦١ : ٧ أبيهم ابراهيم وولده ٤٦٣ : ٧ تجمعهم ٤٧٦ : ٩ واعتبادهم التأويل ٤٧٩ : ١٩ أحد ٤٨٣ : ١٥ بالتبليغ الشفوي

تفسير القرآن الحكيم

المشتهر باسم تفسير المنار

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول، الذي يبين حكم التشريع وسنن الله في الانسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر وقد أعرضوا عنها، وما كان عليه سلفهم المعتصمين بحبلها، مراعى فيه السهولة في التعبير، مجتنبا مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث يفهمه العامة، ولا يستغني عنه الخاصة

وهذه هي الطريقة التى جرى عليها في دروسه في الازهر حكيم ...

الأستاذ الامام

الشيخ محمد عبده

(رضي الله عنه)

الجزء الأول

(تأليف)

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

الطبعة الاولى في سنة ١٣٤٦ هـ

مطبعة المنار بمصر

فاتحة تفسير القرآن الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الّذي أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعلْ لهُ عِوجاً * قيّماً لِيُنذرَ بأساً شديداً مِنْ لَدُنهُ ويبشّرَ المؤمنينَ الذينَ يعملونَ الصّالحاتِ أنّ لهمْ أجراً حسناً ماكثينَ فيهِ أبداً * ويُنذِرَ الّذينَ قالوا اتّخذَ اللهُ ولداً * ما لهُمْ به مِنْ علمٍ ولا لآبائهمْ كبُرتْ كلمةً تخرُجُ من أفواههمْ إنْ يقولونَ إلاّ كذباً * (١٨:١-٥)

ألم. ذلكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فيه هُدًى لِلمُتّقينَ (٢:١) وإنْ كُنتمْ في رَيْبٍ مِمّا نزّلْنا على عبدنا فأْتُوا بسُورةٍ من مثلهِ وادْعوا شهداءَكم مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كنتم صادِقينَ * فإنْ لم تفعلوا ولَنْ تفعلوا فاتّقُوا النّارَ الّتي وَقودُها النّاسُ والحِجارةُ أُعِدّتْ للكافِرينَ (٢:٢٢و٢٣)

الم. اللهُ لا إلهَ إلا هوَ الحيُّ القيّومُ نزّلَ عليكَ الكِتابَ بالحقّ مُصدّقاً لما بينَ يديهِ وأنزلَ التّوراةَ والإنجيلَ من قبلُ هُدًى للنّاس وأنزلَ الفُرقانَ (٣:١) هُوَ الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ مِنهُ آياتٌ مُحكَماتٌ هُنّ أُمّ الكتاب وأُخرُ مُتَشابِهات ، فأمّا الّذينَ في قلوبهم زيْغٌ فيتّبِعُونَ ما تشابَهَ منهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله ، وما يعلم تأويلهُ إلا اللهُ ، والراسخونَ في العلمِ يقولونَ آمنا بهِ كلٌّ من عندِ ربّنا ، وما يذّكّرُ إلا أُولُوا الألبابِ (٣:٥)

أ لر. كتابٌ أُحكِمت آياتُه ثم فُصِّلت من لدن حكيمٍ خبير * أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذيرٌ وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمّى ويؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَه ، وإن تولَّوا فإني أخاف عليكم عذابَ يومٍ كبير * إلى الله مرجعكم وهو على كلِّ شيءٍ قدير (١١: ١—٤)

أ لر . تلك آياتُ الكتاب المبين * إنَّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقصُّ عليكَ أحسنَ القَصص بما أوحينا اليكَ هذا القرآنَ وإن كنتَ من قبله لمنَ الغافلينَ (١٢: ١—٣) لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنونَ (١٢: ١١١)

وكذلكَ أنزلنا اليكَ الكتاب ، فالذينَ آتيناهمُ الكتابَ يؤمنونَ به ومن هؤلاءِ مَن يؤمن به . وما يجحدُ بآياتنا إلاّ الكافرون * وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطُّه بيمينكَ ، إذاً لارتابَ المبطلونَ * بل هو آياتٌ بيّنات في صدورِ الذين أُوتوا العلمَ ، وما يجحدُ بآياتنا إلا الظالمونَ (٢٩: ٤٧ — ٤٩)

كتابٌ أنزلناه مباركٌ ليدّبَّروا آياته وليتذكَّرَ أُولوا الألبابِ (٣٨: ٢٨) أفلا يتدبَّرون القرآن ولو كانَ من عند غيرِ الله لوجدُوا فيه اختلافاً كثيراً (٤ : ٨١) اللهُ نزَّلَ أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُّ منه جلودُ الذين يخشونَ ربهم ثمَّ تلينُ جلودُهم وقلوبهم الى ذكر الله ،

ذلكَ هُدى اللهِ يَهدي بهِ من يَشاءُ ومن يُضلِلِ اللهُ فما له من هاد (٣٩ : ٢٣)
لَوْ أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية اللهِ وتلكَ
الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون (٥٩ : ٢١)

إنّ اللهَ وملائكتَه يصلون على النبيّ . يا أيها الذين آمنوا صلّوا
عليهِ وسلّموا تسليماً (٣٣ : ٥٦) ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم ولكن
رسولَ اللهِ وخاتمَ النبيّينَ وكانَ الله بكل شيءٍ عليما * يا أيها الذين آمنوا
اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبّحوه بكرةً وأصيلاً * هوَ الذي يُصلّي
عليكم وملائكتُه ليخرجكم من الظلمات الى النُّور وكان بالمؤمنين رحيما *
تحيّتهم يومَ يلقونه سلامٌ وأعدّ لهم أجراً كريماً *

أما بعد فيا أيها المسلمون ! ان الله تعالى أنزل عليكم كتابه هدى ونوراً ليعلمكم
الكتاب والحكمة ويزكيكم ، ويُعدّكم لما يَعدُكم به من سعادة الدنيا والآخرة ، ولم
ينزله قانونا دنيويا جافا كقوانين الحكام ، ولا كتابا طبيّا لمداواة الاجسام ، ولا
تاريخا بشريا لبيان الأحداث والوقائع ، ولا سفراً فنيّا لوجوه الكسب والمنافع ،
فان كل ذلك مما جعله تعالى باستطاعكم ، لا يتوقف على وحي من ربكم . وهذا
بعض ما وصف الله تعالى به كتابه في محكم آياته (* تدبرها سلفكم الصالح واهتدوا
بها فأنجز لهم ما وعدهم من سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة في مثل قوله (وعد الله
الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين
من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا
يعبدونني لا يشركون بي شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٢٤ : ٥٣)
وفي قوله (وكان حقّا علينا نصر المؤمنين (٣٠ : ٤٦) وقوله (ولن يجعل الله

*) اشارة إلى الآيات السابقة ولنا فتوى في حكمة إنزال القرآن اوردنا فيها
٢٤ آية من أمثال هذه الآيات و١٥ حديثا في معناها فتراجع في ص ٢٥٨ م ٨ من المنار

للكافرين على المؤمنين سبيلا (٤ : ١٤٠) وقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (٦٣ : ٨) وقوله (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين (٣ : ٣٩)

وعدهم الله تعالى هذه الوعود في حال قلتهم وضعفهم وفقرهم وبعدهم عن الملك والسلطان ، وأنجز لهم ماوعدهم بما قضاه وجعله أثراً للاهتداء بالقرآن ،

هدى الله بهذا القرآن العرب، وهدى بدعوتهم إليه أعظم شعوب العجم ، فكانوا به أئمة الامم ، فبالاهتداء به قهروا أعظم دول الارض المجاورة لهم : دولة الروم (الرومان) ودولة الفرس ، فهذه محوها من لوح الوجود بهدم سلطانها وإسلام شعبها ، وتلك سلبوها ما كان خاضعا لسلطانها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة ، ثم فتحوا الكثير من ممالك الشرق والغرب حتى استولوا على بعض بلاد أوربة وألفوا فيها دولة عربية كانت زينة الارض في العلوم والفنون والحضارة والعمران

حاربوا شعوبا كثيرة كانت أقوى منهم في جميع مايحتاج اليه القتال من عدد وعدد ، وسلاح وكراع ، وحصون وقلاع ، قاتلوها في عقر دارها ، ومستقر قوتها ، وهم بعداء عن بلادهم ، ناؤن عن مقر خلافتهم ، وإنما كانوا يفضلون أعداءهم بشيء واحد وهو صلاح أرواحهم الذي تبعه صلاح أعمالهم ، والروح البشري أعظم قوى هذه الارض سخر الله تعالى له سائر قواها ومادتها كما قال (٢ : ٢٨ هو الذي خلق لكم ما فى الارض جميعا (٤٥ : ١٢ وسخر لكم مافي السموات وما في الارض جميعاً منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

كان أرقى حكام الروم والفرس وغيرهم علما وفنا وأدبا وسياسة يفسد في الارض ، ويعبث بالمال والعرض ، أو كما قال الله تعالى (٢ : ٢٠٤ وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد) وكان المسلم العربي يتولى حكم بلد أو ولاية وهو لا علم عنده بشيء من فنون الدولة ولا من قوانين الحكومة ، ولم يمارس أساليب السياسة ، ولا طرق الادارة ، وإنما كل ما عنده من العلم بعض سور القرآن ، فيصلح من تلك الولاية فسادها ، ويحفظ أنفسها وأموالها وأعراضها ، ولا يستأثر بشيء من حقوقها، هذا وهو في حال حرب، وسياسة فتح ، مضطر لمراعاة تأمين المواصلات مع جيوش أمته وحكومتها ،

وسد الذرائع لا تتقاض أهلها. وإذا صلحت النفس البشرية أصلحت كل شيء تأخذ به وتتولى أمره ، فالانسان سيد هذه الارض وصلاحها وفسادها منوط بصلاحه وفساده ، وليست الثروة ولا وسائلها من صناعة وزراعة وتجارة هي المعيار لصلاح البشر ، ولا الملك ووسائله من القوة والسياسة ، فان البشر قد أوجدوا كل وسائل الملك والحضارة من علوم وفنون وأعمال بعد أن لم تكن — فهي إذاً نابعة من معين الاستعداد الانساني تابعة له دون العكس ، ودليل ذلك في العكس كدليله في الطرد، فاننا نحن المسلمين وكثيراً من الشعوب التي ورثت الملك والحضارة عن سلف أوجدهما من العدم ممن أضاعوهما بعد وجودهما بفساد أنفسهم

صلحت أنفس العرب بالقرآن إذ كانوا يتلونه حق تلاوته في صلواتهم المفروضة وفي تهجدهم وسائر أوقاتهم — فرفع أنفسهم وطهرها من خرافات الوثنية المذلة للنفوس المستعبدة لها ، وهذب أخلاقها وأعلى هممها ، وأرشدها إلى تسخير هذا الكون الارضي كله لها ، فطلبت ذلك فأرشدها طلبه إلى العلم بسننه تعالى فيه من أسباب القوة والضعف ، والغنى والفقر ، والعز والذل ، فهداها ذلك إلى العلوم والفنون والصناعات ، فأحيت مواتها ، وأبدعت فيها مالم يسبقه إليها غيرها ، حتى قال صاحب كتاب تطور الأمم من حكماء الغرب: ان ملكة الفنون لا تستحكم في أمة من الامم إلا في ثلاثة أجيال جيل التقليد وجيل الخضرمة وجيل الاستقلال، وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد

قد شاهدنا ولا نزال نشاهد في بلادنا ، أن طلب العلوم والفنون مع إهمال التربية المصلحة للنفس لم تحل دون استعباد الاجانب لنا ، كما جرى في دولتي الآستانة والقاهرة وغيرهما. نرى الرجل المتعلم المتفنن يتولى ولاية أو وزارة فيكون أول همه منها تأسيس ثروة واسعة لنفسه وولده لأجل التمتع بالشهوات واللذات والزينة ، وهكذا تفعل كل طبقة من رجال الدولة ، يستنزفون ثروة الامة بالرشى والحيل وأكل السحت، ويكون كل مافضل عن شهواتهم بل جل ماينفقونه عليها نصيب الاجانب ؛ وقد شرحنا هذه الموضوعات من قبل في مواضعها من المنار والتفسير فلا نطيل فيها هنا . وإنما طرقنا هذا الباب لنذكركم أيها القارئون لهذه

الفاتحة بوجوب فهم القرآن والاهتداء به ، وبأن فقهه يتوقف على تفسيره لمن لم يؤت من ملكة لغته وذوق أساليبها وروح بلاغتها ومن تاريخ الاسلام وسيرة الرسول ﷺ وهدي السلف الصالح ما يمكنه من فقهه بنفسه

انما يفهم القرآن ويتفقه فيه من كان نصب عينه ووجهة قلبه في تلاوته في الصلاة وفي غير الصلاة ما بينه الله تعالى فيه من موضوع تنزيله، وفائدة ترتيله ، وحكمة تدبره ، من علم ونور ، وهدى ورحمة ، وموعظة وعبرة ، وخشوع وخشية، وسنن في العالم مطردة . فتلك غاية إنذاره وتبشيره ، ويلزمها عقلا وفطرة تقوى الله تعالى بترك ما نهى عنه ،وفعل ما أمر به بقدر الاستطاعة ، فانه كما قال (هدى للمتقين)

كان من سوء حظ المسلمين أن اكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية، والهداية السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو ، ونكت المعاني ومصطلحات البيان،ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين ، وتخريجات الأصوليين ، واستنباطات الفقهاء المقلدين ، وتأويلات المتصوفين ، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض ، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات ، وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات، وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعة وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة ، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والارض من علوم الفلك والنبات والحيوان ، تصد قارئها عما أنزل الله لاجله القرآن .

نعم ان اكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن : فنون العربية لا بد منها واصطلاحات الاصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية أيضا كقواعد النحو والمعاني، وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه كل ذلك يعين على فهم القرآن

وأما الروايات المأثورة عن النبي (ص) وأصحابه وعلماء التابعين في التفسير فمنها ما هو ضروري أيضاً ، لان ما صح من المرفوع لا يقدم عليه شيء ، ويليه ما صح عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعاني اللغوية أو عمل عصرهم ، والصحيح من هذا

وذاك قليل . وأكثر التفسير المأثور قد سرى الى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب كما قال الحافظ ابن كثير ، وجل ذلك في قصص الرسل مع أقوامهم ، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم ، وفي تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ومدينة إرم ذات العماد وسحر بابل وعوج بن عنق ، وفي أمور الغيب من اشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها ، وجل ذلك خرافات ومفتريات صدقهم فيها الرواة حتى بعض الصحابة (رض) ، ولذلك قال الامام احمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي . وكان الواجب جمع الروايات المفيدة في كتب مستقلة كبعض كتب الحديث وبيان قيمة أسانيدها ثم يذكر في التفسير ما يصح منها بدون سند كما يذكر الحديث في كتب الفقه لكن يعزى الى مخرجه كما نفعل في تفسيرنا هذا

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : والاختلاف في التفسير على نوعين : منه مامستنده النقل فقط ومنه مايعلم بغير ذلك، والمنقول إما عن المعصوم أو غيره ، ومنه ماىمكن معرفة الصحيح منه من غيره ومنه مالا يمكن ذلك ، وهذا القسم - الذي لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه - عامته مما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا الى معرفته ، وذلك كاختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف واسمه ، وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة وفي قدر سفينة نوح وخشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ، ونحو ذلك . فهذه الامور طريقة العلم بها النقل ، فما كان منها منقولا نقلا صحيحاً عن النبي (ص) قبل ومالا بأن نقل عن اهل الكتاب ككعب ووهب وقف عن تصديقه وتكذيبه لقوله (ص) « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وكذا ما نقل عن بعض التابعين وان لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض . وما نقل عن الصحابة نقلا صحيحا فالنفس اليه أسكن مما ينقل عن التابعين لان احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولان نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصحابي بما يقوله كيف يقال انه اخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟

« واما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود كثير ولله الحمد وان قال الامام احمد ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي . وذلك لان الغالب عليها المراسيل . وأما مايعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم باحسان » .. ثم ذكر الجهتين اللتين هما مثار الخطأ (وإحداهما) حمل الفاظ القرآن على معاني اعتقدوها لتأييدها به أقول كجميع مقلدة الفرق والمذاهب في الاصول والفروع المتعصبين لها فانهم قد جعلوا مذاهبهم أصولا والقرآن فرعا لها يحمل عليها، وهذا شر أنواع البدع وتفسير القرآن بالرأي المذموم في الحديث (والثانية) التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن وهو الله عز وجل والمنزل عليه والمخاطب به ــ وفصل ذلك بما يراجع في محله

فانت ترى ان هذا الامام المحقق جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف انه من رواة الاسرائيليات ، وهذا في غير مايقوم الدليل على بطلانه في نفسه . وصرح في هذا المقام بروايات كعب الاحبار ووهب بن منبه مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوهما فكيف لو تبين له ماتبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شيء منه ولا حومت حوله ؟ ــ وكذا مانقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ــ يعنى بخلاف ما اتفق عليه أهل الرواية من علماء التفسير وغيره منهم فانه يكون أبعد من أن يكون عن أهل الكتاب . وانما الوقف فيما ينقل نقلا صحيحاً عن كتب الانبياء كالتوراة والانجيل التي عندهم، لا نصدقهم فيه لاحتمال انه مما حرفوا فيها ، ولا نكذبهم لاحتمال انه مما حفظوا منها ، فقد قال تعالى فيهم انهم (أوتوا نصيباً من الكتاب)

وأنت ترى أيضاً أنه لم يجزم بما روي عن الصحابة [رض] من ذلك وإنما قال إن النفس اليه أسكن مما ينقل عن التابعين لان احتمال سماعه من النبي ﷺ أقوى من احتمال سماعه من بعض أهل الكتاب لقلة رواية الصحابة عنهم ، وهذا ينقض قول من أطلق الحكم بان ماقاله الصحابي الثقة مما لا يعرف بالاستدلال بل بالنقل

له حكم الحديث المرفوع . وقد علم أن بعض علماء الصحابة رووا عن أهل الكتاب حتى عن كعب الاحبار الذي روى البخاري عن معاوية أنه قال «ان كنا لنبلو عليه الكذب» ومنهم أبوهريرة وابن عباس [رض] ومن الصحابة من روى عن بعض التابعين الذين رووا عن أهل الكتاب فالحق أن كل مالا يعلم الا بالنقل عن المعصوم من أخبار الغيب الماضي أو المستقبل وأمثاله لا يقبل في إثباته إلا الحديث الصحيح المرفوع الى النبي ﷺ وهذه قاعدة الامام ابن جرير التي يصرح بها كثيراً

هذا وإن كلام ابن تيمية لا ينقض قول الامام احمد فانه لم يعن به أنه لا يوجد في تلك الثلاثة رواية صحيحة البتة وانما يعني ان اكثرها لا يصح له سند متصل وما صح سنده الى بعض الصحابة يقل فيه المرفوع الذي يحتج به

وغرضنا من هذا كله ان أكثر ماروي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للانفس المنورة للعقول، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لاقيمة لها سنداً ولا موضوعاً ، كما أن المفضلين لسائر التفاسير لهم صوارف أخرى عنه كما تقدم

فكانت الحاجة شديدة الى تفسير تتوجه العناية الاولى فيه الى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه وما أنزل لأجله من الانذار والتبشير والهداية والاصلاح ، وهو ما ترى تفصيل الكلام عليه في المقدمة المقتبسة من دروس شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه . ثم العناية الى مقتضى حال هذا العصر في سهولة التعبير ، ومراعاة أفهام صنوف القارئين، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها الى غير ذلك مما تراه قريباً . وهو مايسره الله بفضله لهذا العاجز، وهاك موجزاً من نبأ تيسيره له

كنت من قبل اشتغالي بطلب العلم في طرابلس الشام مشتغلا بالعبادة ميالا إلى التصوف ، وكنت أنوي بقراءة القرآن الاتعاظ بمواعظه لأجل الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا . ولما رأيت نفسي أهلا لنفع الناس بما حصلت من العلم على قلته صرت أجلس إلى العوام في بلدنا أعظهم بالقرآن مغلبا الترهيب على الترغيب ، والخوف على الرجاء ، والانذار على التبشير، والزهد في الدنيا على القصد والاعتدال فيها،

في أثناء هذه الحال الغالبة علي ظفرت يدي بنسخ من جريدة العروة الوثقى في أوراق والدي فلما قرأت مقالاتها في الدعوة الى الجامعة الاسلامية وإعادة مجد الاسلام وسلطانه وعزته ، واسترداد ما ذهب من ممالكه ، وتحرير ما استعبد الاجانب من شعوبه ـ أثرت في قلبي تأثيراً دخلت به في طور جديد من حياتي، وأعجبت جد الاعجاب بمنهج تلك المقالات في الاستشهاد والاستدلال على قضاياها بآيات من الكتاب العزيز ، وماتضمنه تفسيرها مما لم يحوم حوله أحد من المفسرين على اختلاف أساليبهم في الكتابة ومداركهم في الفهم . وأهم ما انفرد به منهج العروة الوثقى في ذلك ثلاثة أمور :

(أحدها) بيان سنن الله تعالى في الخلق ونظام الاجتماع البشري، وأسباب ترقي الامم وتدليها ، وقوتها وضعفها (ثانيها) بيان أن الاسلام دين سيادة وسلطان، وجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ومقتضى ذلك أنه دين روحاني اجتماعي، ومدني عسكري ، وأن القوة الحربية فيه لأجل المحافظة على الشريعة العادلة ، والهداية العامة ، وعزة الملة ، لا لأجل الاكراه على الدين بالقوة (ثالثها) أن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم فهم أخوة لايجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة .

تلك المقالات التي حببت الي حكيمي الشرق ، ومجددي الاسلام ومصلحي العصر، السيد جمال الدين الحسيني الافغاني والشيخ محمد عبده المصري، وهما اللذان أنشآ جريدة العروة الوثقى في باريس سنة ١٣٠١ عقب احتلال الانكليز لمصر في أواخر سنة ١٢٩٩ وكان الكاتب لتلك المقالات العالية فيها هو الثاني ولكن بارشاد الاول وإدارته وسياسته، وهو استاذه في هذا المنهج ومربيه عليه

توجهت نفسي بتأثير العروة الوثقى إلى الهجرة إلى السيد جمال والتلقي عنه وكان قد جاء الاستانة فكتبت اليه بترجمتي ورغبتي في صحبته وأنه لايصدني عنها إلا إقامته في الاستانة لاعتقادي أنه لايستطيع طول المقام فيها وعللت ذلك بقولي « لان بلاد الشرق أمست كالمريض الاحمق يأبى الدواء ويعافه لانه دواء»

وبعد أن توفاه الله تعالى اليه فيها تعلق أملي بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده للوقوف على اختباره وآرائه في الاصلاح الاسلامي ، وما زلت أتربص الفرص

لذلك حتى سنحت لي في رجب سنة ١٣١٥ وكان ذلك عقب إتمام تحصيلي للعلم في طرابلس وأخذ شهادة العالمية أو التدريس من شيوخي فيها. فهاجرت الى مصر وأنشأت المنار للدعوة الى الاصلاح

اتصلت بالشيخ في الضحوة الصغرى لليوم الذي وصلت في ليله الى القاهرة فكان اتصالي به من أول يوم كاتصال اللازم البين بالمعنى الاخص بملزومه، وكان أول اقتراح لي عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التي وجدنا رَوحها ونورها في مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة . فقال ان القرآن لايحتاج الى تفسير كامل من كل وجه فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها مالم يتقنها بعض. ولكن الحاجة شديدة الى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لايتسع لتفسير كامل ، فاقترحت عليه أن يقرأ درساً في التفسير وكان ذلك في شعبان سنة ١٣١٥ ثم كررت عليه الاقتراح في رمضان ، وكان يعتذر بما أذكر أهمه هنا

زرته يوم الجمعة ١٣ رمضان فقرأ لي عبارة من كتاب إفرنسي في الطعن على الاسلام وطفق يردعليها بعد أن قال: إن هؤلاء الافرنج يأخذون مطاعنهم في الاسلام من سوء حال المسلمين مع جهلهم هم بحقيقة الاسلام. قال ان القرآن نظيف والاسلام نظيف وانما لوثه المسلمون بإعراضهم عن كل مافي القرآن واشتغالهم بسفساف الامور . وطفق يتكلم بهذه المناسبة في تفسير قوله تعالى (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعاً) وماذا كان ينبغي للمسلمين أن يكونوا عليه لو اهتدوا بها

ثم ذكر أن الطاعن ادعى أن المسلمين لم يعلمهم نبيهم من صفات الخالق إلا انه حاكم قاهر وسلطان عظيم قد أوجب الفتح على اتباعه لاجل قهر الأمم لا لأجل تربيتها ، وقال فأين هذا من تسمية النصارى خالقهم بالاب الدال على الرأفة والعطف؟؟ ثم طفق الاستاذ يرد على هذا القول بالكلام على اسم الرب وما فيه من معاني التربية والعطف، والتفرقة بينه وبين معنى الأب، وكون طلبه للولد بمقتضى شهوته لا محبته له وغير ذلك من شؤون الوالد التي ينزه الله تعالى عن الاتصاف بها وأطال في ذلك .

وههنا دار بيني وبينه ما أذكر ملخصه كما كتبته بعد مفارقة ذلك المجلس وهو : (قلت) لو كتبت تفسيراً على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر وتترك

كل ماهو موجود في كتب التفسير وتبين ما أهملوه . . .

قال : إن الكتب لاتفيد القلوب العمي فان دكان السيد عمر الخشاب مملوءة بالكتب من جميع العلوم وهي لا تعلم شيئا منها ، لا تفيد الكتب إلا إذا صادفت قلوبا متيقظة عالمة بوجه الحاجة اليها تسعى في نشرها . إذا وصل لأيدي هؤلاء العلماء كتاب فيه غير ما يعلمون لايعقلون المراد منه وإذا عقلوا منه شيئا يردونه ولايقبلونه ، وإذاقبلوه حرفوه الى مايوافق علمهم ومشربهم كما جروا عليه في نصوص الكتاب والسنة التى نريد بيان معناها الصحيح وما تفيده .

« إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء لأن نظر المتكلم وحركاته وإشارته ولهجته في الكلام — كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه ، وأيضا يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه فاذا كان مكتوبا فمن يسأل ؟ : ان السامع يفهم ٨٠ في المائة من مراد المتكلم ، والقارىء لكلامه يفهم منه ٢٠ في المائة على ما أراد الكاتب. ومع ذلك كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الازهر وبعض طلبة المدارس الاميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحد فيما أعلم مع أنها كان من حقها أن تكتب. وماعلمت أحداً كتب منها شيئا خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق ، وكانا يراجعاني في بعض مايكتبان، وأما المسلمون فلا

« قرأت تفسير سورة العصر في سبعة أيام وكل درس لايقل عن ساعتين أوساعة ونصف ، بينت فيها وجه كون نوع الانسان في خسر الامن استثنى الله تعالى ، وما المراد بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، مما لو جمع لكان رسالة حسنة في تفسير السورة، وماعلمت أحداً كتب من ذلك شيئا إلا أن يكون عبدالعزيز[1]

(قلت) إنه يوجد كثير من المتنبهين لحالة العصر والاسلام في البلاد المتفرقة وكثير منهم ما نبههم إلا (العروة الوثقى) وأنا لم أتنبه التنبه الذي أنا عليه إلا بها

(قال) إن بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرون على الكلام بأي موضوع أمام أي انسان ، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا، وهذه الخاصية كانت موجودة

١) قرأه بعد ذلك في الجزائر ثم كتبه باقتراحنا ونشرناه في المنار ووحده

عند السيد جمال الدين يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها وأنا كنت أحسده على هذا لانني تؤثر في حالة المجالس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام إلا إذا رأيت له محلا . وهكذا الكتابة ، فانني ربما أتصور أن أكتب بموضوع وعندما أوجه قواي لجمع مايحسن كتابته تتوارد على فكري معان كثيرة ووجوه للكلام جمة ، ثم يأتيني خاطر : لمن ألقى هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ فأتوقف عن الكتابة . وأرى تلك المعاني التي اجتمعت عندي قد امتص بعضها بعضا حتى تلاشت ، ولا أكتب شيئا .

« ان حالة المخاطب تؤثر بي جداً ، ولذلك لا أتكلم بشي عن حالة الاسلام عند ما أجتمع بهؤلاء العلماء لأن أفكارهم منصرفة عن ذلك بالكلية ، ولذلك لا يعملون شيئا مع سعة وقتهم . وعند قراءة التفسير كنت أتكلم على حسب حالة الحاضرين لأنني لا أطالع عند ما أقرأ[1] لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الاعراب أو كلمة غريبة في اللغة . فاذا حضرني جماعة من البلداء الخاملي الفكر أحلُّ لهم المعنى بكلمات قليلة . وإذا كان هناك من يتنبه لما أقول ويلقي له بالاً يفتح علي بكلام كثير

(قلت) إن الزمان لايخلو ممن يقدر كلام الاصلاح قدره وإن كانوا قليلين وسيزيد عددهم يوما فيوما ، فالكتابة تكون مرشداً لهم في سيرهم . وان الكلام الحق وان قل الآخذ به والعارف بشأنه لا بد أن يحفظ وينمو بمصادفة البيئة المناسبة له وهو مقتضى ناموس (أي سنة) الانتخاب الطبيعي ، كما حفظت (العروة الوثقى) فان أوراقها الاصلية الضعيفة قد بليت لكن مافيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة قد حفظت في الطروس والنفوس . الخ

ولم أزل به حتى أقنعته بقراءة التفسير في الازهر فاقتنع وبدأ بالدرس بعد ثلاثة أشهر ونصف أي في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منه في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شيء محيطا) من الآية ١٢٥ من سورة النساء فقرأه في خمسة أجزاء في ست سنين إذ توفي لثمان خلون من جمادى الاولى منها رحمه الله تعالى وأثابه

كانت طريقته في قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه في كتابة التفسير ، وهو

(١) لعله قال قبل أن أقرأ يعني انه لا يستعد لها بالمطالعة

أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الالفاظ والاعراب ونكت البلاغة ، وفي الروايات التي لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكأ في ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرها أو ينتقد منها مايراه منتقداً ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة .

وكنت أكتب في أثناء إلقاء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله وأحفظ ما أكتب لاجل أن أبيضه وأمده بكل ما أتذكره في وقت الفراغ ، ولم ألبث أن اقترح عليّ بعض الراغبين في الاطلاع عليه من قراء المنار في البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الاخوان بمصر أن أنشره في المنار فشرعت في ذلك في أول المحرم سنة ١٣١٨ وذلك في المجلد الثالث من المنار ، وكنت أولا أطلع الاستاذ الامام على ما أعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات ، ولا أذكر أنه انتقد شيئا مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضيا بالمكتوب بل معجبا به . على أنه لم يكن كله نقلا عنه ومعزواً اليه ، بل كان تفسيراً للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جلّ ما استفاده منها ، لذلك كنت أعزو اليه القول المنقول عنه إذا جاء بعد كلام لي في بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فاذا انتهى النقل وشرعت بكلام لي بعده قلت في بدئه (أقول) ولم يكن هذا التمييز ملتزما في أول الامر بل يكثر في الجزء الاول ما لا عزو فيه ومنه ما هو مشترك بين ما فهمته منه ومن كتب التفسير الاخرى أو من نص الآية على أنني عبرت عنه بأمالي مقتبسة

ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه إما قبل طبعه وهو الغالب وإما بعده وهو الاقل لم أكن أرى حرجا فيما أعزوه اليه مما فهمته منه وان لم أكن كتبته عنه في مذكرات الدرس ، لان إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو . وبعد أن توفاه الله تعالى صرت أرى من الامانة أن لا أعزو اليه الا ما كتبته عنه أو حفظته حفظا ، وصرت أكثر أن أقول : قال ما معناه ، أو ما مثاله ، أو ما ملخصه ، مثلا . على انني أعتقد أنه لو بقي حيا واطلع عليه لاقره كله ،

وقد بدأت في حياته بتجريد تفسير الجزء الثاني من المنار وطبعه على حدته وتوفي قبل طبع نصفه، فهو قد قرأ ماطبع منه مرتين. وقد اشتد شعوري بعد ذلك بان عليّ وحدي تبعة تأليف تفسير مستقل وتبعة ايداعه ماتلقيته عن هذا العالم الكبير المشرق البصيرة، وذي النصيب الوافر من إرث الله نبي الله داود عليه السلام الذي قال الله تعالى فيه (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وتبعة الامانة في النقل بالمعنى أثقل من تبعة تحري الفهم الصحيح وأدائه ببيان صحيح

وسبب البدء بطبع الجزء الثاني أن الأول كان مختصراً وغير ملتزم فيه ما التزمته فيما بعده من تفسير جميع عبارات الآيات وذكر نصوصها ممزوجة فيه ولذلك اقترحت على الاستاذ أن يعيد النظر فيه ويزيد فيه مايسنح له من زيادة أو إيضاح، ولاسيما ايضاح ماانتقد عليه اجماله من الكلام في الملائكة والشياطين وتأويل قصة آدم فقرأ النصف الأول منه بعد نسخه له وزاد فيه مايراه القارىء معزواً الى خطه ومميزاً بوضعه بين علامتين بهذا الشكل [ ] وزدت أنا في جميع الجزء زيادات غير قليلة صار بها موافقاً لسائر الاجزاء في أسلوبه وكنت أميز زيادتي الاخيرة عن أقوالي التي أسندتها الى نفسي أولا في حال حياة الاستاذ بقولي : وأزيد الآن، أو وأقول الآن ثم تركت ذلك واكتفيت بكلمة (أقول)

هذا وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الاكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين الى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر أو يقوي حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة، او يحل بعض المشكلات التي اعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن اليه النفس، وأستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به في نفسه، وفي النهوض باصلاح أمته، وتجديد شباب ملته : الذي هو المقصود بالذات منه، وأسأله أن يخصني والاستاذ بدعواته الصالحة ﴿ محمد رشيد رضا

مقدمة التفسير

﴿ المقتبسة من درس الاستاذ الامام بالمعنى مع البسط والايضاح ﴾

التكلم في تفسير القرآن ليس بالامر السهل وربما كان من أصعب الامور وأهمها وما كل صعب يترك ولذلك لاينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه . ووجوه الصعوبة كثيرة أهمها أن القرآن كلام سماوي تنزل من حضرة الربوبية التي لايكتنه كنهها على قلب أكمل الانبياء وهو يشتمل على معارف عالية ، ومطالب سامية، لايشرف عليها الا أصحاب النفوس الزاكية، والعقول الصافية ، وان الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال، الفائضين من حضرة الكمال ، ماياخذ بتلبيبه، ويكاد يحول دون مطلوبه ، ولكن الله تعالى خفف علينا الامر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه لانه انما أنزل الكتاب نوراوهدى مبيناللناس شرائعه وأحكامه ولا يكون كذلك الا اذا كانوا يفهمونه

والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس الى مافيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فان هذا هو المقصد الاعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله

التفسير له وجوه شتى (أحدها) النظر في أساليب الكتاب ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام وامتيازه على غيره من القول. سلك هذا المسلك الزمخشري وقد ألم بشيء من المقاصد

الاخرى ونحا نحوه آخرون (ثانيها) الاعراب وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا في بيان وجوهه وما تحتمله الالفاظ منها (ثالثها) تتبع القصص وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا في قصص القرآن ماشاؤا من كتب التاريخ والاسرائيليات ولم يعتمدوا على التوراة والانجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم بل أخذوا جميع ماسمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل (رابعها) غريب القرآن (خامسها) الاحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها وقد جمع بعضهم آيات الاحكام وفسروها وحدها ومن أشهرهم ابو بكر ابن العربي وكل من يغلب عليهم الفقه من المفسرين يعنون بتفسير آيات أحكام العبادات والمعاملات أكثر من عنايتهم بسائر الآيات (سادسها) الكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين ومحاجة المختلفين وللامام الرازي العناية الكبرى بهذا النوع (سابعها) المواعظ والرقائق وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعباد وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التي وضعها القرآن (ثامنها) مايسمونه بالاشارة وقداشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه للشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي. وانما هو للقاشاني الباطني الشهير وفيه من النزعات مايتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز

وقد عرفت ان الاكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهي ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي لهذا كان الذي نعني به من التفسير هو ماسبق ذكره

أي من فهم الكتاب من حيث هو دين ، وهداية من الله للعالمين، جامعة بين بيان مايصلح به أمر الناس في هذه الحياة الدنيا ، وما يكونون به سعداء في الآخرة ، - ويتبعه بلا ريب بيان وجوه البلاغة بقدر مايحتمله المعنى وتحقيق الاعراب على الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته - أي عند الحاجة الى ذلك كالمسائل التي عدوها مشكلة وربما نشير احيانا الى الاعراب من غير تصريح بعبارات النحو الاصلاحية كما تفعل ذلك في بعض نكت البلاغة أو قواعد الاصول حتى لا تكون الاصطلاحات شاغلا للقارئ عن المعاني صارفة له عن العبرة -

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر لا حاجة الى التفسير والنظر في القرآن لان الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنة واستنبطوا الاحكام منهما فما علينا الا ان ننظر في كتبهم ونستغني بها . هكذا زعم بعضهم ولو صح هذا الزعم لكان طلب التفسير عبثاً يضيع به الوقت سدى وهو على مافيه من تعظيم شأن الفقه مخالف لاجماع الامة من النبي صلى صلى الله عليه وسلم الى آخر واحد من المؤمنين ولا أدري كيف يخطر هذا على بال مسلم

الاحكام العملية التي جرى الاصطلاح على تسميتها فقهاً هي أقل ما جاء في القرآن وان فيه من التهذيب ودعوة الارواح الى ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة الى أوج المعرفة وارشادها الى طريقة الحياة الاجتماعية ما لا يستغني عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر وما هو أجدر بالدخول في الفقه الحقيقي ولا يوجد هذا الارشاد الا في القرآن ، وفيما أخذ منه كإحياء العلوم حظ عظيم من علم التهذيب ولكن سلطان القرآن

على نفوس الذين يفهمونه وتأثيره في قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لا يساهمه فيه كلام، كما أن الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام، ولم يفصح عنها عالم ولا امام، ثم ان أئمة الدين قالوا ان القرآن سيبقى حجة على كل فرد من أفراد البشر الى يوم القيامة ومن أدلة ذلك حديث « والقرآن حجة لك أو عليك » ولا يعقل الا بفهمه ، والاصابة من حكمته وحكمه ،

خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ولم يوجه الخطاب اليهم لخصوصية في أشخاصهم بل لانهم من أفراد النوع الانساني الذي أنزل القرآن لهدايته . يقول الله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم » فهل يعقل انه يرضى منا بأن لا نفهم قوله هذا ونكتفي بالنظر في قول ناظر نظر فيه لم يأتنا من الله وحي بوجوب اتباعه لا جملة ولا تفصيلا ؟ كلا انه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لا فرق بين عالم وجاهل. يكفي العامي من فهم قوله تعالى « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » الخ ما يعطيه الظاهر من الآيات وأن الذين جمعت أوصافهم في الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ، ويكفي في معرفة الاوصاف أن يعرف معني الخشوع والاعراض عن اللغو وما لا خير فيه والإقبال على ما فيه فائدة له دنيوية أو أخروية وبذل المال في الزكاة والوفاء بالعهد وصدق الوعد والعفة عن إتيان الفاحشة وأن من فارق هذه الاوصاف الى أضدادها فهو المعتدي حدود الله المتعرض لغضبه ، وفهم هذه المعاني مما يسهل على المؤمن من أي طبقة كان ، ومن أهل أي لغة كان ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه الى الخير ويصرفها عن الشر فان الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل

أنواع الضعف الذي نحن عليه . وهناك مرتبة تعلو على هذه وهي من فروض الكفاية

للتفسير مراتب أدناها أن يبين بالاجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ويصرف النفس عن الشر ويجذبها الي الخير وهذه هي التي قلنا أنها متيسرة لكل أحد « ولقديسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » وأما المرتبة العليا فهي لا تتم الا بأمور

(أحدها) فهم حقائق الالفاظ المفردة التي أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكتف بقول فلان وفهم فلان فان كثيراً من الالفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى « هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق » فما هذا التأويل[1] يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب فكثيرا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الاولى[2] فعلى

---

(١) لاأتذكر أن الاستاذ الامام ذكر معناه عند التمثيل وهو العاقبة ومايعد به (أي القرآن) من المثوبة والعقوبة أي ما يؤول اليه الامر في وعده ووعيده ويراجع تحقيق ذلك في تفسير التأويل والمتشابهات من أول سورة آل عمران

(٢) من ذلك لفظ الولي معناه في القرآن غالبا الناصر والموالي وأولياء الله أنصار دينه من أهل الايمان والتقوى . قد اصطلحوا بعد ذلك على أن الاولياء =

المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله والا حسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية (سيأتي تفسيره في الفاتحة) وغيره ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معني الآية فيعرف المعني المطلوب من بين معانيه. وقد قالوا ان القرآن يفسر بعضه ببعض وان أفضل قرينة تقوم على حقيقة معني اللفظ موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعني وائتلافه مع القصد الذي جاءله الكتاب بجملته

(ثانيها) الاساليب فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الاساليب الرفيعة وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه. نعم اننا لا نتسامى الى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة. ويحتاج في هذا الى علم الاعراب وعلم الاساليب (المعاني والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب. ترون في كتب العربية أن العرب كانوا مسددين في النطق يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع، أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم؟ كلا وانما هي ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عند ما اختلطوا بهم ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم لما فقدوه في مدة خمسين سنة من بعد الهجرة

(ثالثها) علم أحوال البشر ـ فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله

ــــــــ

= صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق ويتصرفون في الكون بما وراء الاسباب ولم يعرف الصحابة هذا المعني

آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه في غيره. بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه والسنن الإلهية في البشر وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ويحتاج في هذا الى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه

قال الاستاذ الامام: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى «٢ : ٢١٢ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» الآية - وهو لا يعرف أحوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها وهل كانت نافعة أم ضارة وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم (*)

أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن آياته في السموات والأرض وفي الآفاق والانفس وهو اجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما وأمرنا بالنظر والتفكر والسير في الارض لنفهم اجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة

(رابعها) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن فيجب على المفسر

(*) كتب الاستاذ الامام رحمه الله تعالى تفسيراً لهذه الآية جاء فيه بما لا يوجد في كتاب ونشر في الجزء الثاني من مجلد المنار الثامن أي مجلد سنة ١٣٢٣ ويراجع في الجزء الثاني من التفسير

القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم واسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها اذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه ؟ هل يكتفي من علماء القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد بأن يقولوا تقليداً لغيرهم أن الناس كانوا على باطل وأن القرآن دحض أباطيلهم في الجملة ؟ كلا . وأقول الآن يروى عن عمر (رض) انه قال ان جهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذي يخشى أن ينقض عرى الاسلام عروة عروة . اه بالمعنى والمراد أن من نشأ في الاسلام ولم يعرف حال الناس قبله يجهل تأثير هدايته وعناية الله بجعله مغيرا لأحوال البشر ومخرجاً لهم من الظلمات الى النور ، ومن جهل هذا يظن ان الاسلام أمر عادي . كما ترى بعض الذين يتربون في النظافة والنعيم يعدون التشديد في الامر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو لأنه من ضروريات الحياة عندهم ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة في تلك الأوامر وتأثير تلك الآداب من أين جاء

(خامسها) العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها

فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان (أحدهما) جافٌ مبعد عن الله وكتابه وهو ما يقصد به حل الالفاظ وإعراب الجمل وبيان ما ترمي اليه تلك العبارات والاشارات من النكت الفنية وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً وانما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما

و (ثانيهما) وهو التفسير الذي قلنا انه يجب على الناس على أنه فرض كفاية هو الذي يستجمع تلك الشروط لاجل أن تستعمل لغايتها، وهو ذهاب المفسر الى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والاحكام، على الوجه الذي يجذب الارواح ويسوقها الى العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معني قوله «هدى ورحمة» ونحوهما من الاوصاف. فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون وهو الاهتداء بالقرآن قال الاستاذ الامام وهذا هو الغرض الاول الذي أرمي اليه في قراءة التفسير

وتكلم الاستاذ الامام أيضا عن التفسير والتأويل في اصطلاح العلماء ثم بين عظيم شأن تفسير القرآن وفهمه بما مثاله : مثل الناطقين بالعربية الآن - من العراق الى نهاية بلاد مراكش - بالنسبة الى العرب في لغتهم كمثل قوم من الاعاجم مخالطين للعرب وجد في كلامهم بسبب المخالطة مفردات كثيرة من العربية فهؤلاء الاقوام أشد حاجة الى التفسير وفهم القرآن من المسلمين الاولين ولاسيما من كانوا في القرن الثالث حيث بدىء بكتابة التفسير وأحس المسلمون بشدة حاجتهم اليه، ولاشك ان من يأتي بعدنا يكون أحوج منا الى ذلك اذا بقينا على تقهقرنا ولكن اذا يسر الله لنا نهضة لإحياء لغتنا وديننا فربما يكون من بعدنا أحسن حالا منا.

التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون هو عبارة عن الاطلاع على ماقاله بعض العلماء في كتب التفسير على مافي كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن «٤ : ٨١ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم

معنى تستقر عليه أفهامهم في العلم بمعاني الكتاب ثم يبثونه في الناس ويحملونهم عليه، ولكنهم لم يطلبوا ذلك وانما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها، ويمارون فيها من يباريهم في طلبها ، ولا يخرجون لاظهار البراعة في تحصيلها عن حد الاكثار من القول، واختراع الوجوه من التأويل، والإغراب في الإبعاد عن مقاصد التنزيل ، ان الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه وانما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا وعن سنة نبيه الذي بينا لنا ما نزل الينا «١٦:٤٤ وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل اليهم »يسألنا هل بلغتكم الرسالة ؟ هل تدبرتم ما بُلِّغتم ؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم ؟ وهل عملتم بارشاد القران واهتديتم بهدي النبي واتبعتم سنته ؟ عجبا لنا ننتظر هذا السؤال ونحن في هذا الاعراض عن القرآن وهديه فياللغفلة والغرور

معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالى : أول ما يلقن الوليد عندنا من معرفة الله تعالى هو اسم « الله » تبارك وتعالى يتعلمه بالايمان الكاذبة كقوله : والله لقد فعلت كذا وكذا والله ما فعلت كذا : وكذلك القرآن يسمع الصبي ممن يعيش معهم أنه كلام الله تعالى ولا يعقل معنى ذلك ثم لا يعرف من تعظيم القرآن الا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم وذلك بأمرين

(أحدهما) اعتقاد ان آية كذا اذا كتبت ومحيت بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى ، وأن من حمل القرآن ، لا يقربه جن ولا شيطان، ويبارك له في كذا وكذا، الى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة، اكثر مما هو معروف للخاصة ، ومع صرف النظر عن صحة هذا

وعدم صحته نقول ان فيه مبالغة في التعظيم عظيمة جداً ولكنها (وبالأسف) لا تزيد عن تعظيم التراب الذي يؤخذ من بعض الاضرحة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها . أقول ونحو هذا ما يعلق على الاطفال من التعاويذ والتناجيس(*) كالخرق والعظام والتمائم المشتملة على الطلسمات والكلمات الاعجمية، المنقولة عن بعض الامم الوثنية ، هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه اذا جرينا على سنة القرآن عبادة للقرآن لا عبادة لله .

(ثانيها) الهزة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التي تصدر ممن يسمعون القرآن اذا كان القارئ رخيم الصوت حسن الأداء عارفاً بالتطريب على أصول النغم والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن وأعني بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصببه أساليب القرآن بعجائبها وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه . لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذاً جافاً لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر ، والفهم والتدبر .

لهذا كله يمكننا أن نقول ان الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية والضالين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لأن من أولئك من قال الله تعالى فيهم « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ومعرفة الحق أمر عظيم شريف نعم ربما كان

(*) النعاويذ جمع تعويذ ويقال عوذ جمع عوذة (كغرفة وغرف) وهو الرقية وما يعلق من كتابة وغيرها على الانسان للوقاية من العين والجن والفزع ، ومثلها التناجيس جمع تنجيس وتسمي العرب المعوِّذ الذي يعلق هذه الاشياء المنجس (بكسر الجيم المشددة) والمعلقة عليه المنجس (بفتحها)

اثم صاحبها مع الجحود أشد ولكنه يكون دائماً ملوماً من نفسه على الاعراض عن الحق وهذا اللوم يزلزل ما في نفسه من الاصرار على الباطل

كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجداً لما عنده من رقة الإحساس ولطف الشعور، فهل يقاس هذا بأي متعلم اليوم؟ أرأيت أهل جزيرة العرب كيف انضووا الى الاسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم من دقة الفهم، التي كانت سبب الانجذاب الى الحق، وأشار الاستاذ الامام هنا الي البنت الاعرابية التي فطنت لاشتمال الآية الآتية على أمرين ونهيين وبشارتين. ومجمل الخبر ان الاصمعي قال سمعت بنتاً من الأعراب خماسية أو سداسية تنشد

أستغفر الله لذنبي كله قتلت انساناً بغير حله

مثل غزال ناعم في دله وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها قاتلك الله ما أفصحك، فقالت ويحك أيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى « ٢٧:٧ وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين

لما رأى علماء المسلمين في الصدر الأول تأثير القرآن في جذب قلوب الناس الى الاسلام وأن الاسلام لا يحفظ الا به ولما كان العرب قد اختلطوا بالعجم وفهم من دخل في الاسلام من الاعاجم مافهمه علماء العرب أجمع كل على وجوب حفظ اللغة العربية ودونوا لها الدواوين ووضعوا لها الفنون. نعم ان الاشتغال بلغة الامة وآدابها فضيلة في نفسه ومادة من مواد حياتها ولا حياة لأمة ماتت لغتها ولكن لم يكن

هذا وحده هو الحامل لسلف الامة على حفظ اللغة بمفرداتها وأساليبها وآدابها وانما الحامل لهم على ذلك ماذكرنا .

ألف العلامة الاسفرايني كتاباً في الفرق ختمه بذكر أهل السنة ومزاياهم وعدمن فضائلهم التي امتازوا بها على سائر الفرق التبريز في اللغة وآدابها وبين ذلك بأجلى بيان . فأين هذه المزايا اليوم وأين آثارها في فهم القرآن ؟ بل وفهم ما دونه من الكلام البليغ ! وقد بينا وجه الحاجة في التفسير الى تحصيل ملكة الذوق العربي والى غير ذلك من الامور التي يتوقف عليها فهم القرآن اه

أقول الآن إن القرآن هو حجة الله البالغة على دينه الحق ، فلا بقاء للاسلام إلا بفهم القرآن فهما صحيحا ،ولا بقاء لفهمه الا بحياة اللغة العربية ، فان كان باقيا في بعض بلاد الاعاجم فانما بقاؤه بوجود بعض العلماء العارفين من التفسير ما يكفي لرد الشبهات عن القرآن عندهم وببقاء ثقة العامة بهم وبما يقولونه تقليداً لهم فيه، أو بعدم عروض الشبه لهم من دعاة الاديان الاخرى مع تأثير الوراثة والتقليد من قبيل مايسمى في العلم الطبيعي بحركة الاستمرار، ولهذا اتفق علماء الاسلام من العرب والعجم على حفظ اللغة العربية ونشرها كما تقدم وكان العلم والدين في أوج القوة بحياة اللغة العربية

كان جميع من دخل في الاسلام يشعر بأنه صار أخا لجميع المسلمين وان أمته هي الأمة الاسلامية لا العربية ولا الفارسية ولا القبطية ولا التركية . . . كما قال تعالى (٢١:٩٢وأن هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون) ومن البديهي ان وحدة الأمة لا تتم الا بوحدة اللغة ولا لغة تجمع المسلمين وتربطهم الا لغة الدين الذي جعلهم بنعمة الله اخوانا وهي العربية التي لم تعد خاصة بالجنس العربي اذا نظرنا الى الأجناس (المعبر

عنهم في اصطلاح المنطق بالاصناف) من جهة أنسابهم وأوطانهم ولهذا كان يجتهد مسلمو العجم في خدمة هذه اللغة كما يجتهد مسلمو العرب بلا فرق ويعدونها لغتهم لانها لغة القرآن التي تقوم بها حجته وهم من أمة القرآن كالعرب بلا فرق . قال تعالى (٤٩: ١٣ يا أيها الناس انا خلقنا كم من ذكر وانثى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم) وفي حديث جابر عند البيهقي وابن مردويه ان النبي (ص) قال في خطبة الوداع في وسط أيام التشريق « ياأيها الناس ألا إن ربكم واحد لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لاحمر على اسود الا بالتقوى » ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ ــ قالوا بلى يارسول الله ، قال ــ فيبلغ الشاهد الغائب »

٧ ثم حدثت في الاسلام عصبية الجنسية الجاهلية التي حرمها الاسلام وشدد في منعها بعد أن ضعف العلم والدين في المسلمين بضعف اللغة العربية فيهم حتى قام بعض الأعاجم في هذه السنين الاخيرة يدعون قومهم الى ترجمة القرآن بلغتهم والاستغناء عن القرآن العربي زاعما ان الاسلام دين ليس له لغة وغلا بعض هؤلاء في بغض العربية فدعا مسلمي قومه الى الاذان والصلاة والخطبة بلغتهم وقد أجمع المسلمون بالعمل على اقامة هذه الشعائر الاسلامية بلغة الاسلام العربية الى اليوم ، وكان من عاقبة هذا الضعف في العلم والدين ان بعض المسلمين في بلاد الاعاجم (كجاوه) التي يقل فيها العلماء العارفون بالدين ولغته القادرون على دفع الشبه عن القرآن صاروا يرتدون عن الاسلام لإيضاع دعاة النصرانية خلالهم وسؤالهم الفتنة بالتشكيك في القرآن والطعن فيه وأين من يفهه ويدافع عنه هناك ،ومنهم من صار

يفخر بسلفه من الوثنيين والمجوس حتى بفرعون الذي لعنه الله في جميع كتبه

أمرنا الله تعالى ان نتدبر القرآن ونعتبر به ونتذكر ونهتدي وان نعلم مانقوله في صلاتنا من آياته وأذكاره وا كد هذه المسائل في آيات كثيرة والامتثال لها والعمل بها لايكون الا بفهم العربية الفصحى وما لايتم الواجب الا به فهو واجب . وجعل الله تعالى القرآن معجزا للبشر ولا تقوم حجته في هذا عليهم الا بفهمه ولا يمكن فهمه الا بفهم العربية الفصحى ، فمعرفته العربية من ضروريات دين الاسلام ندعو اليها جميع المسلمين بدعائهم الى القرآن ،

واننا نعتقد ان المسلمين ما ضعفوا وزال ما كان لهم من الملك الواسع الا بإعراضهم عن هداية القرآن ، وانه لا يعود اليهم شيء مما فقدوا من العز والسيادة والكرامة الا بالرجوع إلى هدايته ، والاعتصام بحبله ، كما يرون ذلك مبينا في تفسير الآيات الكريمة الدالة عليه ، ولا يتم لهم ذلك الا بالاتفاق على إحياء لغته فالدعاء له دعاء لها (٨ : ٢٤ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول اذ دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ٢٥ واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ٢٦ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) وبالشكر تدوم النعم ، وكفرها مجلبة النقم ، ولذلك أرشدنا الله في فاتحة كتابه إلى الدعاء بان يهدينا صراط المنعم عليهم من الشاكرين ، وهانحن أولاء نبدأ بالمقصود بعون الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

(١)

هذه السورة مكية وآياتها سبع والفرق بين السورة المكية والمدنية هو ان المكية أكثر إيجازا لان المخاطبين بهم هم أبلغ العرب وأفصحهم وعلى الايجاز مدار البلاغة عندهم ، ثم ان معظمها تنبيهات وزواجر وبيان لاصول الدين بالاجمال وقد قلت في مقدمة الطبعة الثانية لجلد المنار الاول في أسلوب السور المكية ما نصه:

إن اكثر السور المكية لا سيما المنزلة في أوائل البعثة قوارع تصخ الجنان ، وتصدع الوجدان ، وتفزع القلوب الى استشعار الخوف ، وتدعّ العقول الى اطالة الفكر ، في الخطبين الغائب والعتيد ، والخطرين القريب والبعيد ، وهما عذاب الدنيا بالابادة والاستئصال ، أو الفتح الذاهب بالاستقلال ، وعذاب الآخرة وهو أشد وأقوى ، وأنكى وأخزى ، بكل من هذا وذاك أنذرت السور المكية أولئك المخاطبين اذا أصروا على شركهم ، ولم يرجعوا بدعوة الاسلام عن ضلالهم وافكهم ، ويأخذوا بتلك الأصول المجملة ، التي هي الحنيفية السمحة السهلة ، وليست بالشيء الذي ينكره العقل ، أو يستثقله الطبع ، وانما ذلك تقليد الآباء والأجداد ، يصرف الناس عن سبيل الهدى والرشاد ،

راجع تلك السورة العزيزة ولاسيما قصار المفصل منها كالحاقة ما الحاقة ، والقارعة ما القارعة ، واذا وقعت الواقعة ، واذا الشمس كورت ، واذا السماء انفطرت ، واذا السماء انشقت ، واذا زلزلت الارض زلزالها ، والذاريات ذروا ، والمرسلات عرفا ، والنازعات غرقا

تلك السور التي كانت بنذرها ، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها ، تفزعهم من سماع القرآن ، حتي يفروا من الداعي (ص) من مكان الى مكان (٧٤ : ٥٠ كأنهم حمر مستنفرة ٥١ فرت من قسورة ، ـ ١١٥ : ٥ ألا انهم يثنون صدورهم

ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) ثم الى السور المكية الطوال ، فلا تجدها تخرج في الأوامر والنواهي عن حد الاجمال ، كقوله عز وجل (١٧ : ٢٣ وقضى ربك أن تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا) — الى ٣٧ منها ، وقوله بعد إباحة الزينة وانكار تحريم الطيبات من الرزق (٧ : ٣٢ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون)

وأما السور المدنية ففي أسلوبها شيء من الاسهاب، ولاسيما في مخاطبة أهل الكتاب، لأنهم أقل بلاغة وفهما من العرب الاصلاء ولا سيما قريش ، وما فيها من الكلام في أصول الدين أكثره محاجة لهم (لأهل الكتاب) ونعي عليهم ، واثبات لتحريفهم ما نُزّل اليهم ، وابتداعهم فيه واعراضهم عن هدايته ، ونسيانهم حظا مما ذكروا به ، ودعوة لهم الى التوحيد الخالص توحيد الألوهية والربوبية ، وبيان لكون الاسلام الذي جاء به القرآن ، هو دين جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام،

وفي هذه السور المدنية أيضا بيان لما لا بد منه من الاحكام العملية في العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والسياسية والحربية ، ولأصول الحكومة الاسلامية والتشريع فيها ، كما تراه في طوال المفصل منها ، كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة.

وقد اختلف العلماء في المكي والمدني من السور فقيل المكي ما نزل في شأن أهل مكة وإن كان نزوله في أهل المدينة والمدني غيره ، وقيل المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة كالذي نزل في عام الفتح وفي حجة الوداع ، والصحيح الذي عليه الجمهور ان المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بالمدينة نفسها أو ضواحيها أو في مكة عام الفتح وعام حجة الوداع أو في غزوة من الغزوات .

فالسور المكية هي التي نزلت في أول الاسلام لاجل الدعوة اليه ولبيان أساس الدين وكلياته من الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ومن ترك الشرور والمعاصي والمنكرات المعروفة للناس بعقولهم وفطرتهم وفعل الخيرات والمعروف بحسب الرأي والاجتهاد الموكول الى القلوب والضمائر والسور المدنية هي التي

نزلت بعد الهجرة وكثرة المسلمين وتكوّن جماعتهم ببيان الاحكام التفصيلية كما قلنا آنفا ، وسترى ذلك مفصلا في القسمين تفصيلا

والسورة طائفة من القرآن مؤلفة من ثلاث آيات فأكثر لها اسم معروف بالتوقيف والرواية الثابتة بالأحاديث والآثار ، قيل ان اسمها مشتق من السور الذي يحيط بالبلد وقيل من السؤر المهموز ومعناه البقية وبقية كل شيء جزء منه فالمراد بها جزء معين من القرآن ، وقيل من التسور وهو العلو والارتفاع ، وقد رويت أسماء السور عن الصحابة مرفوعة وموقوفة ولكنهم لم يكتبوها في مصاحفهم لانهم لم يكتبوا فيها الا ألفاظ التنزيل لئلا يتوهم أحد من الناس إذا هم زادوا شيئا كأسماء السور أو لفظ « آمين » بعد الفاتحة أنه من التنزيل

هذا ـ ولفظ « الفاتحة » صفة مؤنث الفاتح قال الاستاذ الامام : سميت الفاتحة فاتحة لانها أول القرآن في هذا الترتيب (وتكلم عن لفظ الفاتحة وعن التاء فيه) وتسمى أم الكتاب وقالوا ان حديث النهي عن تسميتها هذا الاسم موضوع . ثم قال : يتكلمون عند الكلام عن السور على المكي والمدني وهو يفيد في معرفة الناسخ والمنسوخ وهي مكية خلافا لمجاهد فالاجماع على أن الصلاة كانت بالفاتحة لأول فرضيتها ولا ريب أن ذلك كان في مكة وقالوا هي المراد بالسبع المثاني في قوله تعالى « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » وهو مكي بالنص . وقال بعضهم انها نزلت مرتين مرة بمكة عند فرضية الصلاة واخرى بالمدينة حين حولت القبلة وكأن صاحب هذا القول أراد الجمع بين القولين وليس بشيء . وقال كثيرون انها أول سورة أنزلت بتمامها ،

أقول الآن ذكر الحافظ السيوطي في الاتقان أربعة أقوال في أول ما أنزل (أحدها) « ٩٦ اقرأ باسم ربك » رواه الشيخان وغيرهما من حديث عائشة (ثانيها) « ٧٤ يا أيها المدثر » رواه الشيخان عن سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبدالله . وجمعوا بين القولين بأن الاول هو أول ما نزل على الاطلاق وهو صدر سورة اقرأ والثاني أول سورة نزلت بتمامها أو الثاني أول ما نزل بعد فترة الوحي آمرا بتبليغ الرسالة . وقيل في الجمع غير ذلك كما في الاتقان (ثالثها) سورة الفاتحة قال

في الكشاف ذهب ابن عباس ومجاهد الى ان أول سورة نزلت (اقرأ) وأكثر المفسرين الى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب (قال السيوطي) وقال ابن حجر والذي ذهب اليه اكثر الأئمة هو الأول وأما الذي نسبه الى الأكثر فلم يقل به الا عدد أقل من القليل بالنسبة الى من قال بالأول . وحجته ما أخرجه البيهقي في الدلائل والواحدي من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة « اني اذا خلوت وحدي سمعت نداء فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا » فقالت معاذ الله ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . — وفي الحديث أنه اخبر ورقة بذلك وان ورقة أشار عليه بأن يثبت و يسمع النداء وانه (ص) لما خلا ناداه أي الملك « يا محمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين — حتى بلغ — ولا الضالين » قال السيوطي في الحديث هذا مرسل رجاله ثقاة ، ونقل عن البيهقي احتمال ان هذا بعد نزول صدر « اقرأ باسم ربك »

هذا ـ وأما الاستاذ الامام فقد رجح أنها أول مانزل على الاطلاق ولم يستثن قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » ونزع في الاستدلال على ذلك منزعا غريبا في حكمة القرآن وفقه الدين فقال ما مثاله :

ومن آية ذلك ان السنة الإلهية في هذا الكون سواء كان كون ايجاد أو كون تشريع ان يظهر سبحانه الشيء مجملا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجا وما مثل الهدايات الإلهية الا مثل البذرة والشجرة العظيمة فهي في بدايتها مادة حياة تحتوي على جميع أصولها ثم تنمو بالتدريج حتى تبسق فروعها بعد ان تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها . والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن وكل ما فيه تفصيل للاصول التي وضعت فيها ولست أعني بهذا ما يعبرون عنه بالاشارة ودلالة الحروف كقولهم ان أسرار القرآن في الفاتحة وأسرار الفاتحة في البسملة وأسرار البسملة في الباء وأسرار الباء في نقطتها فان هذا لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم

الرضوان ولا هو معقول في نفسه وانما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو الى سلب القرآن خاصته وهي البيان

(قال) وبيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لاجله أمور (أحدها) التوحيد لان الناس كانوا كلهم وثنيين وان كان بعضهم يدعي التوحيد (ثانيها) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة ووعيد من لم يأخذ به وانذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل ما للامة وما للافراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف في الارض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد المخالفين بالخزي والشقاء في الدنيا كما وعد بالجنة والنعيم وأوعد بنار الجحيم في الآخرة (ثالثها) العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس (رابعها) بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل الى نعم الدنيا والآخرة (خامسها) قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهريا لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر

= هذه هي الامور التي احتوى عليها القرآن وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاتحة مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ولا ريب فأما التوحيد ففي قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) لانه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى ولا يصح ذلك الا اذا كان سبحانه مصدر كل نعمة في الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخلق والايجاد والتربية والتنمية ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط بل فيه معنى التربية والانماء وهو صريح بأن كل نعمة يراها الانسان في نفسه وفي الآفاق منه عز وجل فليس في الكون متصرف بالايجاد ولا بالاشقاء والاسعاد سواه

= التوحيد أهم ماجاء لاجله الدين ولذلك لم يكتف في الفاتحة بمجرد الاشارة اليه بل استكمله بقوله (اياك نعبد واياك نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الامم وهي اتخاذ أولياء من دون الله تعتقد لهم

السلطة الغيبية ويدعون لذلك من دون الله ويستعان بهم على قضاء الحوائج في الدنيا ويتقرب بهم الى الله زلفى وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الاجمال

== وأما الوعد والوعيد فالأول منهما مطوي في « بسم الله الرحمن الرحيم » فذكر الرحمة في أول الكتاب — وهي التي وسعت كل شيء — وعد بالاحسان وقد كررها مرة ثانية تنبيها لنا على أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالك يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معا لأن معنى الدين الخضوع أي ان له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها لا حقيقة ولا ادعاء وأن العالم كله يكون فيه خاضعا لعظمته ظاهرا وباطنا يرجو رحمته ويخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن واما عقاب للمسيء وذلك وعد ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك (الصراط المستقيم) وهو الذي من سلكه فاز ومن تنكبه هلك وذلك يستلزم الوعد والوعيد

== وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله (اياك نعبد وإياك نستعين) أوضح معناها بعض الايضاح في بيان الامر الرابع الذي يشملها ويشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أي انه قد وضع لنا صراطا سيبينه ويحدده وتكون السعادة في الاستقامة عليه ، والشقاوة في الانحراف عنه ، وهذه الاستقامة عليه هي روح العبادة ويشبه هذا قوله تعالى « والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فالتواصي بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها وروح العبادة هي اشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة من فعل وكف وحركات اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلفوا هذه الاعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلا ما وانما الحركات

والاعمال مما يتوسل به الى حقيقة العبادة ومخ العبادة الفكر والعبرة

= وأما الاخبار والقصص ففي قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) تصريح بأن هنالك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم: وصائح يصيح ألا فانظروا في الشؤون العامة التي كانوا عليها واعتبروا بها . كما قال تعالى لنبيه يدعوه الى الاقتداء بمن كان قبله من الانبياء « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » حيث بين أن القصص انما هي للعظة والاعتبار . وفي قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) تصريح بأن غير المنعم عليهم فريقان فريق ضل عن صراط الله وفريق جاحده وعاند من يدعو اليه فكان محفوفا بالغضب الالهي والخزي في هذه الحياة الدنيا . و باقي القرآن يفصل لنا في أخبار الامم هذا الاجمال على الوجه الذي يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق عنادا ، والذين ضلوا فيه ضلالا ، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله .

فتبين من مجموع ما تقدم ان الفاتحة قد اشتملت اجمالا على الاصول التي يفصلها القرآن تفصيلا فكان إنزالها أولا موافقا لسنة الله تعالى في الابداع . وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما تقول ان النواة أم النخلة فان النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة لا كما قال بعضهم ان المعنى في ذلك أن الام تكون أولا ويأتي بعدها الاولاد

وأقول الآن : هذا ماقاله الاستاذ الامام مبسوطا موضحا ويمكن ان يقال ان نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لاينافي هذه الحكم التي بينها لانه تمهيد للوحي المجمل والمفصل خاص بحال النبي (ص) وإعلام له بأنه يكون وهو امي قارئا بعناية الله تعالى ومخرجا للاميين من أميتهم الى العلم بالقلم أي الكتابة وفي ذلك استجابة لدعوة ابراهيم (٢:١٢٨ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) فسر الاستاذ الامام الكتاب بالكتابة ثم كانت الفاتحة أول سورة نزلت كاملة وأمر النبي بجعلها أول القرآن وانعقد على ذلك الاجماع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٢) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣) ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٤) مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٥) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٦) ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٧) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ

لاأذكر ماقاله الاستاذ الامام في البسملة من حيث لفظها واعرابها وهل هي آية أو جزء آية من الفاتحة أو ليست منها فان الخلاف في ذلك مشهور وقد اختصر الاستاذ القول فيه اختصاراً وقال انها على كل حال من القرآن فنتكلم عليها كسائر الآيات

وأقول الآن اجمع المسلمون على ان البسملة من القرآن وأنها جزء آية من سورة النمل واختلفوا في مكانها من سائر السور فذهب الى انها آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة فقهائهم وقرائهم ومنهم ابن كثير، وأهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائي من القراء وبعض الصحابة والتابعين من أهل المدينة والشافعي في الجديد وأتباعه والثوري واحمد في أحد قوليه والامامية ومن المروي عنهم ذلك من علماء الصحابة عليّ وابن عباس وابن عمر وابو هريرة، ومن علماء التابعين سعيد بن جبير وعطاء والزهري وابن المبارك، واقوى حججهم في ذلك إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة سوى سورة براءة (التوبة) مع الامر بتجريد القرآن عن كل ماليس منه ولذلك لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة، وأحاديث منها ماأخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنزلت عليّ آنفا سورة فقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم » وروى ابو داود باسناد صحيح عن ابن عباس ان رسول الله (ص) كان لا يعرف فصل السورة - وفي رواية انقضاء السورة - حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم . واخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين . وروى الدار قطني من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) اذا قرأتم الحمدلله (أي سورة الحمدلله) فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم فانها أم القرآن والسبع المثاني و بسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها » وذهب مالك وغيره من علماء المدينة والاوزاعي وغيره من علماء الشام وأبو عمرو ويعقوب من قراء البصرة الى انها آية مفردة انزلت لبيان رءوس السور والفصل بينها وعليه الحنفية ، وقال حمزة من قراء الكوفة وروي عن احمد انها آية من الفاتحة دون غيرها ، وثمة أقوال أخرى شاذة

هذا - وقد قال الاستاذ الامام: القرآن إمامنا وقدوتنا فافتتاحه بهذه الكلمة ارشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها فما معنى هذا ؟ ليس معناه أن نفتتح أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به بل أن نقول هذه العبارة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فانها مطلوبة لذاتها

أقول الآن : الاسم هو اللفظ الذي يدل على ذات من الذوات كحجر وخشب وزيد أو معنى من المعاني كالعلم والفرح . وقال ابن سيده هو اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض . وقال الراغب الاسم ما يعرف به ذات الشيء وأصله. وقال كثيرون انه مشتق من السمو وان أصله سمو لان تصغيره سمي وجمعه اسماء. والسمو العلو كأن الاسم يعلو مسماه بكونه عنوانا له ودليلا عليه . وقال آخرون انه من السمة وهي العلامة وأصله وسم .وقال بعض الباحثين في الكلام والفلسفة ان الاسم يطلق على نفس الذات والحقيقة والوجود والعين وهي عندهم اسماء مترادفة . وهذا القول ليس من اللغة في شيء ولا هو من الفلسفة النافعة بل من الفلسفة الضارة وان قال الآلوسي بعد نقله عن ابن فورك والسهيلي « وهما ممن يعض عليه بالنواجذ » بل لا ينبغي أن يذكر مثل هذا القول الا لأجل النهي عن إضاعة الوقت في قراءة ما بني عليه من السفسطة في إثبات قول القائلين ان

الاسم عين المسمى وقد كتبوا لغوا كثيرا في هذه المسألة وقلما ترى أحد رضي كلام غيره فيها ولكن قد يرضيه كلام نفسه الذي يؤيد به ما لم يفهمه من كلام غيره

والحق ان الاسم هو اللفظ الذي ينطق به لسانك ويكتبه قلمك كقولك : الشمس أو زيد أو مكة. والمسمى هو الكوكب المعروف او الشخص المعين أو البلد المحدد، وقد يكون بعيدا عنك عند اطلاق الاسم. ولفظ « اسم » اسم لهذا النوع من اللفظ الذي يدل على الجواهر والاعراض دون الاحداث التي تسمى في النحو افعالا. ومدلوله مثل مدلول لفظ انسان يطلق على افراد كثيرة، كلفظ « الشمس » الذي تنطق به وتكتبه ، ولفظ « زيد » ولفظ مكة ، وغير ذلك من اسماء الموجودات فالاسم غير المسمى في اللغة وقد أخطأ من نسب الى سيبويه غير هذا كما قال ابن القيم بل قال في كتابه (بدائع الفوائد) ما قال نحوي قط ولا عربي ان الاسم عين المسمى ، وذكر بعض من قال باتحاد الاسم والمسمى بالتسمية وبين الخطأ في ذلك . وأن معنى « سبح اسم ربك الاعلى » سبح ربك ذاكرا اسمه الأعلى ومعنى « سبح باسم ربك » سبحه ناطقا باسمه العظيم

ومنشأ الاشتباه عند بعضهم أن الله تعالى أمرنا بذكره وتسبيحه في آيات وبذكر اسمه وتسبيح اسمه في آيات أخرى، فقال تعالى (٧٣ : ٨ واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا * ٧٦ : ٢٣ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا * ٢٢ : ٤ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ٦ : ١١٨ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين ١١٩ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه * ٢٢ : ٣٦ فاذكروا اسم الله عليها صواف) اي البدن عند نحرها . وقال تعالى (٣٢ : ٤١ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ٤٢ وسبحوه بكرة وأصيلا * ٢ : ١٢٧ فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم ـ فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا * ٣ : ١٩٠ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض * ٤ : ١٠٢ فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) وقال تعالى في التسبيح (٧ : ٢٠٥ ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته

ويسبحونه وله يسجدون) أي يسبحون ربك فعدى التسبيح بنفسه الى ضمير الرب كما عدّاه بنفسه الى اسم الرب في قوله تعالى (٨٧ : ١ سبح اسم ربك الأعلى) وبالباء في قوله (٥٦: ٩٦ فسبح باسم ربك العظيم) وقال (٥٧ : ١ سبح لله ما في السموات والأرض) ومثله كثير. وقال تعالى (فتبارك الله * ٢٥ : ١ تبارك الذي نزل الفرقان) كما قال (٥٥ : ٧٨ تبارك اسم ربك)

رأى بعضهم ان يجمع بين هذه الآيات بجعل الاسم عين المسمى، وأن ذكر الله وذكر اسمه وتسبيحه وتسبيح اسمه واحد، لأن اسمه عين ذاته، وان هذا خير من القول بأن لفظ « اسم » مقحم زائد. والصواب أن الذكر في اللغة ضد النسيان وهو ذكر القلب ولذلك قرنه بالتفكر في سورة آل عمران (٣: ١٩٠) وهما عبادتان قلبيتان، وقال (١٨ : ٢٤ واذكر ربك اذا نسيت) ويطلق الذكر أيضا على النطق باللسان لانه دليل على ذكر القلب وعنوان وسبب له، وانما يذكر اللسان اسم الله تعالى كما يذكر من كل الاشياء اسماءها، دون ذوات مسمياتها ، فاذا قال نار لا يقع جسم النار على لسانه فيحرقه، إذا قال الظمآن « ماء » لا يحصل مسمى هذا اللفظ في فيه فينقع غلته ، فذكر الله تعالى في القلب هو تذكر عظمته وجلاله وجماله ونعمه، وورد التصريح بالأمر بذكر نعمة الله وآلاء الله . وذكره باللسان هو ذكر اسمائه الحسنى واسناد الحمد والشكر والثناء اليها، وكذلك تسبيحه تعالى، فالقلب يسبحه باعتقاد وتذكر تنزيهه عما لا يليق به، واللسان يسبحه باضافة التسبيح الى أسمائه من غير ذكر للفظ الاسم . روى احمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم في مستدركه وابن حبان في صحيحه عن عقبة بن عامر قال لما نزلت « فسبح باسم ربك العظيم » قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجعلوها في ركوعكم » فلما نزلت « سبح اسم ربك الأعلى » قال « اجعلوها في سجودكم » والمراد أن يقولوا « سبحان ربي العظيم » « لا سبحان اسم ربي العظيم » فقد روى أحمد وأصحاب السنن الاربعة وصححه الترمذي عن حذيفة قال صليت مع النبي (ص) فكان يقول في ركوعه « سبحان ربي العظيم » وفي سجوده « سبحان ربي الأعلى » . ولهذا ورد في الكلام عن الذبائح ذكر اسم الله عليها « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه» وتقدم آنفا

ذكر عدة آيات في هذا ـ فعلم من هذا التحقيق أن الاسم غير المسمى وان ذكر الاسم مشروع، وذكر المسمى مشروع ، والفرق بينهما ظاهر كالصبح ، وكذلك التسبيح والتبارك ، فكما يعظم الله يعظم اسمه الكريم، فيذكر مقرونا بالحمد والشكر والثناء والتقديس. وقد صرحوا بأن تعمد إهانة أسماء الله تعالى في اللفظ والكتابة كفر لانه لايمكن أن يأتي من مؤمن اه ما زدته الآن

وقال الاستاذ الامام ما معناه: عندما تقول إنني أذكر اسم الله تعالى كالعزيز والحكيم لا تعني أنك تذكر لفظ « اسم » فلو كان قولهم ان المراد من الابتداء بالكلمة « بسم الله » التبرك باسم الله: هو الصوابَ لكان ينبغي أن يكون قولك « بالله الرحمن الرحيم » مثل « بسم الله الرحمن الرحيم » وقوله تعالى « باسم الله مجراها ومرساها » وقد قال بعضهم إن الاضافة هنا للبيان أي أفتتح كلامي باسم الله ولكن يقتضي أن يكون لفظ « الرحمن الرحيم » واردا على اللفظ وهو غير صحيح. وارادة أن الاسماء الثلاثة هي المبينة للفظ الاسم تمحل ظاهر فما المقصود اذاً من هذا التعبير ؟

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الامم ومنهم العرب وهو أن الواحد منهم اذا أراد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبته اليه ومنسلخاً عنه، يقول أعمله باسم فلان ويذكر اسم ذلك الامير أو السلطان لان اسم الشيء دليل وعنوان عليه ، فاذا كنت أعمل عملا لا يكون له وجود ولا أثر ، لولا السلطان الذي به أمر ، أقول ان عملي هذا باسم السلطان، أي انه معنون باسمه ولولاه لما عملته . فمعنى ابتديء عملي (بسم الله الرحمن الرحيم) انني أعمله بأمره وله لا لي ولا أعمله باسمي مستقلا به على انني فلان . فكأني أقول أن هذا العمل لله لا لحظ نفسي . وفيه وجه آخر وهو أن القدرة التي انشأت بها العمل هي من الله تعالى فلولا ما منحني منها لم أعمل شيئا ، فلم يصدر عني هذا العمل الا باسم الله ولم يكن باسمي اذ لولا ما آتاني من القوة عليه لم أستطع أن آتيه. وقد تم هذا المعنى بلفظ (الرحمن الرحيم) كما هو ظاهر . وحاصل المعنى أنني أعمل عملي متبرئاً من أن يكون باسمي بل هو باسمه تعالى لانني أستمد القوة والعناية منه وأرجو احسانه

عليه، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله، بل وما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله فلفظ. الاسم معناه مراد، ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضا، وكذلك كلٌّ من لفظ الرحمن والرحيم . وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل اللغات . وأقربه اليكم اليوم ما ترونه في المحاكم النظامية حيث يبتدءون الاحكام قولا وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديو فلان

ومعنى البسملة في الفاتحة أن جميع مايقرر في القرآن من الاحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه ليس لأحد غير الله فيه شيء اه

أقول هذا صفوة ماقرره في متعلق « بسم الله » ومعناها وههنا نظر آخر فيه وهو ان القرآن كان وحيا يلقيه الروح الامين في قلب النبي (ص) وكل سورة منه مبتدأة ببسملة ، فتعلق البسملة من ملك الوحي تعلم من أول آية نزل بها وهي قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » فمعنى البسملة الذي كان يفهمه النبي (ص) من روح الوحي: اقرأ يامحمد هذه السورة باسم الله الرحمن الرحيم على عباده أي اقرأها على انها منه تعالى لامنك فانه برحمته بهم انزلها عليك لتهديهم بها الى مافيه الخير لهم في الدنيا والآخرة . وعلى هذا كان يقصد النبي (ص) من متعلق البسملة انني اقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لاباسمي وعلى انها منه لامني فانما انا مبلغ عنه عز وجل (٩١:٢٨ وأمرت ان أكون أول المسلمين ٩٢ وأن أتلو القرآن) الخ

✓ اختصر الاستاذ الامام في الكلام على لفظ اسم ولفظ الجلالة لان الكلام فيهما مشهور. وقد تكلمنا على اللفظ الاول وهاك جملة صالحة في اللفظ الآخر العظيم:

لفظ الجلالة (الله) علم على ذات واجب الوجود قال : ابن مالك وضع معرفا وقيل أصله « إله » فحذفت همزته وأدخلت عليه الالف واللام، وقيل اصله الاله، والاله في اللغة يطلق على كل معبود ولذلك جمعوه على آلهة وما كل معبود سموه إلها يطلقون عليه اسم (الله) فان هذا الاسم الكريم كان خاصا في لغتهم بخالق السموات والارض وكل شيء . فالتعريف فيه خصصه بالواحد الفرد الكامل كما جعلوا لفظ « النجم » بالتعريف خاصا بالثريا ، فكان العربي في الجاهلية اذا سئل من خلقك أو من خلق السموات والارض ? يقول « الله » واذا سئل عن بعض

آلهتهم: هل خلقت اللات او العزى شيئا من هذه الموجودات ؟ يقول « لا » وقد احتج القرآن عليهم باعتقادهم هذا كما يأتي في محله . وانما كانوا يتوسلون بها الى الله و يعتقدون شفاعتها عنده

قال بعض العلماء أن لفظ « إله » من أله بمعنى عبد فهو بمعنى معبود ككتاب بمعنى مكتوب ، يقال أله يأله إلاهة وألوهة وألوهية كما يقال عبد يعبد عبادة وعبودة وعبودية فهو صفة بمعنى اسم المفعول ، وقيل هو من أله بمعنى تحير وقيل من وَله بمعنى تحير . وهو إذا استشكل من جهة اللفظ لانه تعالى منزه عن الحيرة يصح ان يقال من جهة المعنى ، والمراد انه سبب الحيرة لأن الناظرين اذا ارتقوا في سلم اسباب التكوين ينتهون عند درجة الحيرة في معرفة الموجد الاول الذي هو موجود بنفسه لا بسبب ولا علة سابقة عليه ، و به وجد كل ما عداه ، لا يستطيعون الوصول الى حقيقة هـذا الموجود العظيم الذي لا يعقل وجود هـذه الكائنات الممكنة الا بوجوده ، حتى ان الملاحدة الماديين لما بحثوا في أصل الموجودات ، وارتقوا الى معرفة البسائط التي تركبت منها الكائنات ، قالوا إنه لابد ان يكون لها منشأ وحدة مجهول الذات ، ذو قوة وحياة

والحاصل ان اسم الجلالة « الله » علم على ذات الباري سبحانه وتعالى تجري عليه الصفات ولا يوصف به . ولفظ « الآله » صفة . والجمهور على ان معناه الشرعي المعبود بحق ، ولذلك أنكر القرآن عليهم تسمية أصنامهم آلهة ، والتحقيق انه انكر عليهم تأليها وعبادتها ، لا مجرد تسميتها ، وقد سماها هو آلهة في قوله (١١ : ١٠٢ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك . وما زادوهم غير تتبيب) ولا يظهر في هذه الآية قصد الحكاية

ومما يترتب على قولنا ان لفظ الجلالة (الله) علم يوصف ولا يوصف به أن اسماء الله الحسنى صفات تجري على هذا الاسم العظيم ، ولكونها صفات وصفت بالحسنى . قال تعالى (٧ : ٧٩ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه) وتسند اليه تعالى افعال هذه الصفات فيقال : رحم الله فلانا ، ويرحمه الله ، والله ارحم فلانا ، ويقال . . . ادعها فيقال رحمة الله ورضوانه ومغفرته

(ان رحمة الله قريب من المحسنين) وهـذه الاسماء المشتقة كل منها يدل على ذات الله تعالى وعلى الصفة التي اشتق منها معا بالمطابقة ، وعلى الذات وحدها او الصفة وحدها بالتضمن، ولـكل منها لوازم يدل عليها بالالتزام، كدلالة الرحمن على الاحسان والانعام ، ودلالة الحـكيم على الاتقان والنظام ، ودلالة الرب على البعث والجزاء، لان الرب الكامل لا يترك مربوبيه سدى ، ومن عرف الاسماء الحسنى ، والصفات العليا ، عرف ان اسم الجلالة الاعظم (الله) يدل عليها كلها وعلى لوازمها الكمالية، وعلى تنزهه عن أضدادها السلبية ، فدل هذا الاسم الأعلى على اتصاف مسماه بجميع صفات الـكمال ، وتنزهه عن جميع النقائص ، فسبحان الله والحمدلله ولا إله الا الله والله اكبر ، اه ما احببت زيادته الآن

قال الاستاذ الامام مامعناه : والرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة وهي معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الاحسان الى غيره ، وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر، لانه في البشر ألم في النفس شفاؤه الاحسان والله تعالى منزه عن الآلام والانفعالات ، فالمعنى المقصود بالنسبة اليه من الرحمة أثرها وهو الاحسان . وقد مشى الجلال في تفسيره وتبعه الصبان على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد، وأن الثاني تأكيد للاول. ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم وما هي الا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها

(قال) : وأنا لاأجيز لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه ان في القرآن كلمة تغاير أخرى ثم تأتي لمجرد تأكيد غيرها بدون أن يكون لها في نفسها معنى تستقل به . نعم قد يكون في معنى الـكلمة مايزيد معنى الاخرى تقريرا أو ايضاحا ولـكن الذي لاأجيزه هو أن يكون معنى الـكلمة هو عين معنى الاخرى بدون زيادة، ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لاغير بحيث تكون من قبيل ما يسمى بالمترادف في عرف أهل اللغة. فان ذلك لايقع الا في كلام من يرمي في لفظه الى مجرد التنميق والتزويق . وفي العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها. وأما مايسمونه بالحرف الزائد الذي يأتي للتأكيد فهو حرف وضع لذلك ومعناه هو التأكيد وليس معناه معنى الـكلمة التي يؤكدها. فالباء في قوله تعالى « وكفى بالله شهيدا » تؤكد معنى اتصال الـكفاية بجانب

الله جل شأنه بذاتها ومعناها الذي وضعت له، ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك في الإعراب وكذلك معنى «من» في قوله « وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله » ونحو ذلك . أما التكرار للتأكيد أو التقريع أو التهويل فأمر سائغ في أبلغ الكلام عند ما يظهر ذلك القصد منه كتكرار جملة « فبأيّ آلاء ربكما تكذبان» ونحوها عقب ذكر كل نعمة . وهي عند التأمل ليست مكررة فان معناها عند ذكر كل نعمة : أفبهذه النعمة تكذبان . وهكذا كل ما جاء في القرآن على هذا النحو

والجمهور على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم، ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها، وبعضهم يقول إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم، والرحيم هو المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين. وكل هذا تحكم في اللغة مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقاً فصفة الرحمن تدل على كثرة الاحسان الذي يعطيه سواء كان جليلا أو دقيقاً . وأما كون أفراد الاحسان التي يدل عليها اللفظ الاكثر حروفا أعظم من أفراد الاحسان التي يدل عليها اللفظ الاقل حروفا ، فهو غير معنيّ ولا مراد . وقد قارب من قال ان معنى الرحمن المحسن بالاحسان العام ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين . ولعل الذي حمل من قال ان الثاني مؤكد للاول على قوله هذا هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه

قال الاستاذ الامام : والذي أقول ان صيغة فعلان تدل على وصف فعلي فيه معنى المبالغة كفعّال وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان. وأما صيغة فعيل فانها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل . والقرآن لا يخرج عن الاسلوب العربيّ البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تعلو عن مماثلة صفات المخلوقين. فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي افاضة النعم والاحسان، ولفظ الرحيم يدل على منشإ هذه الرحمة والاحسان وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ولا يكون الثاني مؤكداً للاول ، فاذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه انه المفيض للنعم فعلا لا يعتقد

منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما . لان الفعل قد ينقطع اذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وان كان كثيرا ، فعند ما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه، ويعلم ان لله صفة ثابتة هي الرحمة التي عنها يكون أثرها ، وان كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه اه

أقول قد سبق العلامة ابن القيم الى مثل هذ التفرقة ولكنه عكس في دلالة الاسمين الكريمتين . قال : وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنى بديع ، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، وكأن الأول الوصف ، والثاني الفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته أي صفة ذات له سبحانه ، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته ، أي صفة فعل له سبحانه ، فاذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما * إنه بهم رءوف رحيم) ولم يجيء قط رحمن بهم ، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ، ورحيم هو الراحم برحمته ، (قال رحمه الله تعالى) هذه النكتة لا تكاد تجدها في كتاب ، وان تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها .

وقال في كتاب آخر عند ذكر الاسمين الكريمين : وكرر أذانا (أي إعلاما) بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته ، فالرحمن الذي الرحمة وصفه ، والرحيم الراحم لعباده ، ولهذا يقول تعالى : وكان بالمؤمنين رحيما * انه بهم رؤف رحيم) ولم يجئ رحمن بعباده ولا رحمن بالمؤمنين ، مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن (فعلان) من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه للموصوف به . ألا ترى انهم يقولون غضبان للمتلئ غضبا وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك فبناء فعلان للسعة والشمول اه المراد منه

أقول إن هذه الامثلة تؤيد ما قاله الاستاذ الامام من ان صيغة (فعلان) تدل على الصفة العارضة ولا تدل على الدائم فاحتيج الى صيغة أخرى تدل على الصفة الثابتة الدائمة وهي صيغة (فعيل) فهذا اقوى ما قيل في نكتة الجمع بين الاسمين الكريمين بالصيغتين . ويليه دلالة احدهما على الرحمة بالقوة والآخر دلالة

عليها بالفعل . وهذا معنى آخر ألمّ به هذان الامامان ولكن ابن القيم جعل لفظ الرحيم هو الدال على الرحمة بالفعل بدليل الآيتين اللتين أوردهما، ولفظ الرحيم هو الدال عليها بالقوة لعدم تعلق مثل ذلك الظرف به، وهو قوي . وعكس محمد عبده وجمل ذلك من مدلول الصيغة باللزوم

﴿ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

قالوا: ان معنى الحمد الثناء باللسان وقيدوه بالجميل لان كلمة « ثناء » تستعمل في المدح والذم جميعا يقال: أثنى عليه شراً كما يقال أثنى عليه خيراً . ويقولون إن « أل » التي في الحمد هي للجنس في أيّ فرد من أفراده لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص لانه لا يصار الى كلّ منهما في فهم الكلام الا بدليل وهو غير موجود في الآية، ومعنى كون الحمد لله تعالى بأي نوع من أنواعه هو أن أيّ شيء يصح الحمد عليه فهو مصدره واليه مرجعه فالحمد له على كل حال

وهذه الجملة خبرية ولكنها استعملت لإنشاء الحمد ـ فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل في أي أنواعه تحقق فهو ثابت له تعالى وراجع اليه ، لانه متصف بكل ما يحمد عليه الحامدون ، فصفاته أجل الصفات ، واحسانه عمّ جميع الكائنات ، ولان جميع ما يصح أن يتوجه اليه الحمد مما سواه فهو منه جل ثناؤه ، اذ هو مصدر الكون كله ، فيكون له ذلك الحمد اولاً و بالذات . والخلاصة ان أيّ حمد يتوجه الى محمود مّا فهو لله تعالى سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه . وأما معنى الانشائية فهو ان الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء الى الله تعالى في الحال

هـذا ملخص ما قاله الاستاذ الامام ، وأقول الآن . التعريف المشهور بين العلماء للحمد انه الثناء باللسان على الجميل الاختياري ، اي الفعل الجميل الصادر عن فاعله باختياره أي سواء أسدى هذا الجميل الى الحامد أم لا . اه وأزيد عليهم انه قد يحمد غير الفاعل المختار تنزيلا له منزلة الفاعل في نفعه ، ومنه : أما يحمد السوق من ربح . وهذا هو المتبادر من استعمال اللغة . وحذف بعضهم قيد الاختيار ليدخل

في الحمد الثناء على صفات الكمال ولذلك وصف بعضهم الجميل الاختاري بقوله: سواء كان من الفضائل - أي الصفات الكمالية لصاحبها - او الفواضل - وهي مايتعدى أثره من الفضل الى غيرصاحب الفضل. والظاهر ان الحمد على الفضائل وصفات الكمال انما يكون باعتبار مايترتب عليها من الافعال الاختيارية. وما عدا هذا من الثناء تسميه العرب مدحا . يقال: مدح الرياض ومدح المال ومدح الجمال ولا يطلق الحمد على مثل هذه الاشياء ، وقيل هما مترادفان . والمقام المحمود للنبي صلى الله عليه وسلم هو ما يحمد فيه لما يناله الناس كلهم من خير دعائه وشفاعته على المشهور . وسيأتي تفسيره في موضعه ان شاء الله تعالى . وقد يقال ان ما ذكر هو الحمد الذي يكون من بعض الناس لبعض ، واما الله عز وجل فانه يحمد لذاته باعتبار انها مصدر جميع الوجود الممكن وما فيه من الخيرات والنعم ، او مطلقا خصوصية ، اه اذ ليست ذات احد من الخلق كذاته . ويحمد لصفاته باعتبار تعلقها وآثارها كما سترى بيانه في تفسير الرب والرحمن والرحيم

﴿ رب العالمين ﴾ يشعر هذا الوصف ببيان وجه الثناء المطلق ومعنى الرب السيد المربي الذي يسوس مسوده ويربيه ويدبره ولفظ « العالمين » جمع عالم بفتح اللام جمع جمع المذكر العاقل تغليباً وأريد به جميع الكائنات الممكنة ، أي إنه رب كل مايدخل في مفهوم لفظ العالم . وما جمعت العرب لفظ العالم هذا الجمع الا لنكتة تلاحظها فيه وهي أن هـذا اللفظ لا يطلق عندهم على كل كائن وموجود كالحجر والتراب وإنما يطلقونه على كل جملة متمايزة لافرادها صفات تقربها من العاقل الذي جمعت جمعه ، ان لم تكن منه ، فيقال عالم الانسان وعالم الحيوان وعالم النبات . ونحن نرى أن هذه الاشياء هي التي يظهر فيها معنى التربية الذي يعطيه لفظ « رب » لان فيها مبدأها وهو الحياة والتغذي والتولد ، وهذا ظاهر في الحيوان ، ولقد كان السيد (أي جمال الدين الافغاني) رحمه الله تعالى يقول : الحيوان شجرة قطعت رجلها من الارض فهي تمشي ، والشجرة حيوان ساخت رجلاه في الارض فهو قائم في مكانه يأكل و يشرب ، وان كان لا ينام ولا يغفل ،

هذا ملخص ما قاله الاستاذ الامام . وازيد الآن ان بعض العلماء قال ان

المراد بالعالمين هنا اهل العلم والادراك من الملائكة والانس والجن ، ويؤثر عن جدنا الامام جعفر الصادق عليه الرضوان ان المراد به الناس فقط كما يدل على هذا وذلك استعمال القرآن في مثل « أتأتون الذكران من العالمين » اي الناس ومثل « ليكون للعالمين نذيرا » ويرى بعضهم انه على هذا مشتق من العلم . ومن قال يعم جميع اجناس المخلوقات يرى انه مشتق من العلامة ، وربوبية الله للناس تظهر بتربيته اياهم ، وهذه التربية : قسمان تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال ابدانهم وقواهم النفسية والعقلية ــ وتربية شرعية تعليمية وهي ما يوحيه الى أفراد منهم ، ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل اذا اهتدوا به . فليس لغير رب الناس أن يشرع للناس عبادة ولا ان يحرم عليهم ويحل لهم من عند نفسه بغير اذن منه تعالى

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ تقدم معناهما وبقي الكلام في اعادتهما والنكتة فيها ظاهرة وهي أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به اليهم كجلب منفعة أودفع مضرة وانما هي لعموم رحمته وشمول احسانه . وثَمَّ نكتة أخرى وهي ان البعض يفهم من معنى الرب الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته واحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فذكر الرحمن وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما ، والرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله ابدا . فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب الى عباده فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة واحسان ليعلموا أن هذه الصفة هي التي ربما يرجع اليها معنى الصفات وليتعلقوا به ، ويقبلوا على اكتساب مرضاته ، منشرحة صدورهم ، مطمئنة قلوبهم ، ولا ينافي عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات في الدنيا ، وما أعدَّه من العذاب في الآخرة ، للذين يتعدون الحدود ، وينتهكون الحرمات ، فانه وان سُمِّيَ قهراً بالنسبة لصورته ومظهره ، فهو في حقيقته وغايته من الرحمة ، لأن فيه تربية للناس وزجرا لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية ، وفي الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم ، وفي الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم ، والوالد الرؤف يربي ولده بالترغيب فيما ينفعه والاحسان عليه اذا قام به ، وربما لجأ الى الترهيب والعقوبة اذا اقتضت ذلك الحال ، ولله المثل الأعلى لا إله الا هو واليه يرجعون

أقول الآن : انني لا ارى وجها للبحث في عد ذكر « الرحمن الرحيم » في سورة الفاتحة تكرارا او إعادة مطلقا . اما على القول بان البسملة ليست آية منها فظاهر ، وأما على القول بأنها آية منها فيحتاج الى بيان ، وهو ان جعلها آية منها ومن كل سورة يراد به ما تقدم شرحه آنفا من ان النبي (ص) كان يلقنها ويبلغها للناس على انها (أي السورة) منزلة من عند الله تعالى انزلها برحمته لهداية خلقه وأنه (ص) لا كسب له فيها ولاصنع، وانما هو مبلغ لها بأمر الله تعالى. فهي مقدمة للسور كلها الا سورة براءة المنزلة بالسيف وكشف الستار عن نفاق المنافقين، فهي بلاء على من أنزل اكثرها في شأنهم لا رحمة بهم . واذا كان المراد ببدء الفاتحة بالبسملة انها منزلة من الله رحمة بعباده فلا ينافي ذلك ان يكون من موضوع هذه السورة بيان رحمة الله تعالى مع بيان ربوبيته للعالمين ، وكونه الملك الذي يملك وحده جزاء العاملين على أعمالهم ، وانه بهذه الاسماء والصفات كان مستحقا للحمد من عباده ، كما انه مستحق له في ذاته ، ولهذا نسب الحمد الى اسم الذات، الموصوف بهذه الصفات ،

والحاصل ان معنى الرحمة في بسملة كل سورة هو ان السورة منزلة برحمة الله وفضله فلا يعد ما عساه يكون في أول السورة أو أثنائها من ذكر الرحمة مكررا مع ما في البسملة ، وإن كان مقرونا بذكر التنزيل كاول سورة فصلت (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم) لان الرحمة في البسملة للمعنى العام في الوحي والتنزيل، وفي السور للمعنى الخاص الذي تبينه السورة . وقد لاحظ هذا المعنى من قال ان البسملة آية مستقلة فاصلة بين السور . واما من قال أنها آية من كل سورة فمراده أنها تقرأ عند الشروع في قراءتها ، وأن من حلف ليقرأن سورة كذا لا يبر الا اذا قرأ البسملة معها ، وان الصلاة لا تصح الا بقراءتها أيضا

هذا ـ وأما حظ العبد من وصف الله بالربوبية فهو ان يحمده تعالى عليه وبشكره له باستعمال نعمه التي تتربى بها القوى الجسدية والعقلية فيما خلقت لأجله فليحسن تربية نفسه وتربية من يوكل اليه تربيته من أهل وولد ومريد وتلميذ ، وباستعمال نعمته بهداية الدين في تربية نفسه الروحية والاجتماعية وكذا تربية من

يوكل اليه تربيتهم . وأن لا يبغي كما بغى فرعون فيدعي أنه رب الناس، وكما بغى فراعنة كثيرون ولا يزالون يبغون بجعل أنفسهم شارعين يتحكمون في دين الناس بوضع العبادات التي لم ينزلها الله تعالى ، و بقولهم هذا حلال وهذا حرام من عند أنفسهم أو من عند أمثالهم ، فيجعلون أنفسهم شركاء لله في ربوبيته ، قال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وفسر النبي (ص) اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابا بمثل هذا .

• وأما حظ العبد من وصف الله بالرحمة فهو أن يطالب نفسه بأن يكون رحيما بكل من يراه مستحقا للرحمة من خلق الله تعالى حتى الحيوان الاعجم ، وان يتذكر دائما انه يستحق بذلك رحمة الله تعالى ، قال (ص) « انما يرحم الله من عباده الرحماء » رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح . وقال « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » رواه احمد وابو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عمر . ورويناه مسلسلا من طريق الشيخ ابي المحاسن محمد القاوقجي الطرابلسي الشامي . وقال (ص) من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة » رواه البخاري في الادب المفرد والطبراني عن أبي أمامة واشار السيوطي في الجامع الصغير الى صحته . ومما يدل على الترغيب في رحمة الحيوان والرفق به بغير لفظ الرحمة حديث « في كل ذات كبد حرّى أجر » رواه احمد وابن ماجه عن سراقة بن مالك ، واحمد أيضا عن عبدالله ابن عمرو . وهو حديث صحيح

ومن مباحث اللغة ان لفظ الرحمن خاص بالله تعالى كلفظ الجلالة . قالوا لم يسمع عن أحد من العرب أنه أطلقه على غير الله تعالى ، وكذلك لفظ « رحمن » غير معرّف، قالوا لم يرد اطلاقه على غير الله تعالى الا في شعر لبعض الذين فتنوا بمسيلمة الكذاب قال فيه * وانت غيث الورى لازلت رحمانا * وقيل ان هذا تعنت وغلو لا من الاستعمال المعروف عند العرب . وأما العرب فكانت تطلق لفظ رب على الناس يقولون : رب الدار ورب هذه الانعام مثلا لارب الانعام مطلقا . قال عبدالمطلب في يوم الفيل: أما الابل فانا ربها وأما البيت فان له ربا يحميه. وقال تعالى

في حكاية قول يوسف عليه السلام في مولاه عزيز مصر « انه ربي أكرم مثواي »
ويرى بعض العلماء ان هذا الاستعمال ممنوع في الاسلام واستدل بالنهي في الحديث
عن قول المملوك لسيده « ربي » والصواب أن يمنع ما ورد النص به كهذا الاستعمال
وما من شأنه الا يقال الا في الباريء تعالى كلفظ الرب بالتعريف مطلقا ولفظ رب
الناس رب المخلوقات رب العالمين وما أشبه ذلك .

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

قرأ عاصم والكسائي و يعقوب «مالك » والباقون «مَلِكِ» وعليها أهل الحجاز.
والفرق بينهما ان المالك ذو الملك بكسر الميم والملك ذو المُلك بضمها، والقرآن يشهد
للاولى بمثل قوله « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا» وللثانية بقوله « لمن المُلك اليوم »
قال بعضهم ان قراءة «مَلك» أبلغ لان هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة
والتدبير . وقال آخرون ان القراءة الأخرى أبلغ لان الملك هو الذي يدبر أعمال
رعيته العامة ولا تصرف له بشيء من شؤونهم الخاصة والمالك سلطته أعم . قال
الاستاذ الامام . وانما تظهر هذه التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان فلا ريب
ان مالكه هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه .

وأقول الآن الظاهر ان قراءة « ملك » أبلغ لان معناها المتصرف في أمور
العقلاء المختارين بالامر والنهي والجزاء ولهذا يقال ملك الناس ولا يقال ملك
الاشياء . قاله الراغب . وقال في « ملك يوم الدين » تقديره الملك في يوم الدين
لقوله « لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار » إه وانما كان هذا أبلغ لان السياق يدلنا
على ان المراد بالآية تذكير المكلفين بما ينتظرهم من الجزاء على أعمالهم رجاء ان
تستقيم أحوالهم . ومعنى مالك يوم الدين قد يستفاد من قوله « رب العالمين » على ان
مجموع القراءتين يدل على المعنيين فكلاهما ثابت ولكن القراءة في الصلاة بملك
يوم الدين تثير من الخشوع مالا تثيره القراءة الاخرى التي يفضلها بعضهم لانها تزيد
حرفا في النطق وورد في الحديث ان القاريء بكل حرف كذا حسنة ولكن فاتهم
ان حسنة واحدة تكون أكبر تأثيرا في القلب خير من مئة حسنة يكن دونها في التأثير .

و(الدّين) يطلق في اللغة على الحساب وعلى المكافأة وورد « كما تدين تدان » وقال الشاعر

ولم يبق سوى العدوا　　ن دنّاهم كما دانوا

وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة ، وعلى الطاعة، وعلى الإخضاع وعلى السياسة يقال : دِنته ، ودَينته فلانا (بالتشديد) أي وليته سياسته وهوقريب من معنى الإخضاع ، وعلى الشريعة وما يؤخذ العباد به من التكاليف . والمناسب هنا من هذه المعاني الجزاء والخضوع . وانما قال « يوم الدين » ولم يقل « الدين » لتعريفنا بأن للدين يوماً ممتازاً عن سائر الايام وهو اليوم الذي يلقى فيه كل عامل عمله و يوفّى جزاءه .

ولسائل أن يسأل : أليست كل الايام أيام جزاء وكل مايلاقيه الناس في هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم في أداء الحقوق والقيام بالواجبات التي عليهم ؟ والجواب بلى ان أيامنا التي نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا ولكن ربما لايظهر لأربابه الا على بعضها دون جميعها . والجزاء على التفريط في العمل الواجب انما يظهر في الدنيا ظهوراً تاماً بالنسبة الى مجموع الامة لا الى كل فرد من الافراد ، فما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم تراع سننه في خليقته الا وأحل بها العدل الإلهي ماتستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة . وأما الافراد فاننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين في الشهوات واللذات، نعم ان ضمائرهم توبخهم أحياناً وإنهم لا يسلمون من المنغصات، وقد يصيبهم النقص في أموالهم، وعافية أبدانهم، وقوة عقولهم، ولكن هذا كله لايقابل بعض أعمالهم القبيحة، لاسيما الملوك والامراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أمم وشعوب . كذلك نرى من المحسنين في أنفسهم وللناس من يبتلى بهضم حقوقه، ولا ينال الجزاء الذي يستحقه على عمله، فان كان قد ينال رضاء نفسه وسلامة أخلاقه وصحة ملكاته ، فما ذلك كل ما يستحق ، وفي ذلك اليوم يوفى كل فرد من أفراد العاملين جزاءه كاملا لايظلم شيئا منه ، كما قال الله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرّا يره »

علمنا الله انه رحمن رحيم ليجذب قلوبنا اليه ، ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا اليه الانجذاب المطلوب ؟ أليس فينا من يسلك كل سبيل ، لايبالي بمستقيم ومعوج ؟ بلى ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين، فعرفنا انه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم ، فكان من رحمته بعباده أن رباهم بنوعي التربية كليهما : الترغيب والترهيب ، كما تشهد بذلك آيات القرآن الكثيرة « نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الاليم »

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

ما هي العبادة ؟ يقولون هي الطاعة مع غاية الخضوع ، وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل ، وتجليه للافهام واضحاً لا يقبل التأويل ، فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه و يعرفون الحقيقة برسومها ، بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظي و يبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة ، التي شرحوا بها معنى العبادة ، فان فيها اجمالا وتساهلا . واننا اذا تتبعنا آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها و يقاربها في المعنى - كخضع وخنع وأطاع وذل - نجد أنه لا شيء من هذه الالفاظ يضاهي « عبد » ويحل محلها ويقع موقعها ، ولذلك قالوا ان لفظ « العباد » مأخوذ من العبادة فتكثر إضافته الى الله تعالى ، ولفظ « العبيد » تكثر اضافته الى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق ، وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى . ومن هنا قال بعض العلماء ان العبادة لا تكون في اللغة الا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه.

يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلوّا كبيراً حتى يفنى هواه في هواه، وتذوب ارادته في ارادته ، ومع ذلك لايسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ، و يبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والامراء فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين، دع سائر العابدين،ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة ، فما هي العبادة اذاً ؟

تدل الاساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب

من الخضوع بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها . وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق ادراكه ، فمن ينتهي الى اقصى الذل لملك من الملوك لا يقال انهُ عبده ، وإن قبّل موطئ أقدامه ، ما دام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم الا بالنسبة للذين يعتقدون أن الملك قوة غيبيةً سماوية أفيضت على الملوك من الملإ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لانهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهراً ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد ، الى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية .

للعبادة صور كثيرة في كل دين من الاديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى الذي هو روح العبادة وسرّها ، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه ، والاثر انما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا انه منشأ التعظيم والخضوع ، فاذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة ، كما ان صورة الانسان وتمثاله ليس انساناً

خذ اليك عبادة الصلاة مثلا وانظر كيف أمر الله بإقامتها ، دون مجرد الاتيان بها . واقامة الشيء هي الإتيان به مقوّماً كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره ، وآثار الصلاة ونتائجها هي ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقوله عز وجل « ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين » وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والالفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدي الى غايتها بقوله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » فسماهم مصلين لانهم أتوا بصورة الصلاة ، ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب الى الله تعالى المذكر بخشيته ، والمشعر للقلوب

بعظم سلطانه ، ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون . وذكر الاستاذ الامام أن الرياء ضربان : رياء النفاق وهو العمل لاجل رؤية الناس، ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ، ولا ملاحظة من يعمل له و يتقرب اليه به ، وهو ما عليه أكثر الناس ، فان صلاة أحـدهم في طور الرشد والعقل هي عين ما كان يحاكي به أباه في طور الطفولية عند ما يراه يصلي ـ يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولاعقل ، وليس لله شيء في هذه الصلاة . وقد ورد في بعض الأحاديث أن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعـداً وأنها تلف كما يلف الثوب البالي و يضرب بها وجهه . وأما الماعون فهو المعونة والخير الذي تقدم في الآية الاخرى أن من شأن الانسان أن يكون منوعا له الا المصلين

والاستعانة طلب المعونة وهي ازالة العجز والمساعـدة على اتمام العمل الذي يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه

ثم تكلم الاستاذ الامام على حصر العبادة والاستعانة في الله تعالى الذي دل عليه تقديم المفعول (اياك) على الفعل (نعبد) و(نستعين) فقال ما مثاله

أمرنا الله تعالى بأن لا نعبد غيره ، لان السلطة الغيبية التي هي وراء الاسباب ليست إلا له دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد فيعظم تعظيم العبادة ، وأمرنا بأن لا نستعين بغيره أيضا وهذا يحتاج الى البيان لانه أمرنا أيضا في آيات أخرى بالتعاون (٥:٢ وتعاونوا على البر والتقوى) فما معنى حصر الاستعانة به مع ذلك ؟

الجواب أن كل عمل يعمله الانسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الاسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية اليه ، وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه ، وقد مكن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الاسباب، وحجب عنه البعض الآخر، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ، ونبذل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة ، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضا على ذلك ، ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا الى القادر على كل شيء ، ونلجأ اليه وحده ، ونطلب المعونة المتممة للعمل

والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه ، اذ لا يقدر على ما وراء الاسباب الممنوحة لكل البشر على السواء الا مسبب الاسباب ، ورب الارباب ، فقوله تعالى « واياك نستعين » متمم لمعنى قوله « اياك نعبد » لان الاستعانة بهذا المعنى فزع من القلب الى الله وتعلق من النفس به ، وذلك من مخ العبادة ، فاذا توجه العبد بها الى غير الله تعالى كان ضرباً من ضروب العبادة الوثنية التي كانت ذائعة في زمن التنزيل وقبله ، وخصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم أولياء من دون الله ، واستعانوا بهم فيما وراء الاسباب المكتسبة لعامة الناس ، هي كالاستعانة بسائر الناس في الاسباب العامة ، فأراد الحق جل شأنه أن يرفع هذا اللبس عن عباده ببيان ان الاستعانة بالناس فيما هو في استطاعة الناس انما هو ضرب من استعمال الاسباب المسنونة ، وما منزلتها الا كمنزلة الآلات فيما هي آلات له ، بخلاف الاستعانة بهم ، في شؤون تفوق القدر والقوى الموهوبة لهم ، والاسباب المشتركة بينهم ، كالاستعانة في شفاء المرض بما وراء الدواء ، وعلى غلبة العدو بما وراء العدة والعُدة ، فان ذلك مما لا يجوز الفزع والتوجه فيه الى غير الله تعالى صاحب السلطان الاعظم ، على ما لا يصل اليه سلطان أحد من العالم

ضرب الاستاذ الامام مثلا لذلك الزارع يبذل جهده في الحرث والعذق وتسميد الارض وريها ، ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الارضية ، ومثّل بالتاجر يحذق في اختيار الاصناف ويمهر في صناعة الترويج ، ثم يتكل على الله فيما بعد ذلك . ثم قال : ومن هنا تعلمون ان الذين يستعينون بأصحاب الاضرحة والقبور على قضاء حوائجهم ، وتيسير أمورهم ، وشفاء أمراضهم ، ونماء حرثهم وزرعهم ، وهلاك أعدائهم ، وغير ذلك من المصالح ، هم عن صراط التوحيد نا كبون ، وعن ذكر الله معرضون

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة « واياك نستعين » الى امرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة . (أحدهما) أن نعمل الاعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا ، لأن طلب المعونة لا يكون الا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم

يوفه حقه ، أو يخشى أن لا ينجح فيه ، فيَطلب المعونة على اتمامه وكماله ، فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه ، ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز على النهوض به وحده ، يطلب المعونة من غيره على رفعه ، ولكن بعد استفراغ القوة في الاستقلال به ، وهذا الامر هو مرقاة السعادة الدنيوية ، وركن من أركان السعادة الأخروية . (وثانيهما) ما افاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك ، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص ، الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الاغيار ، ويفك اراداتهم من أسر الرؤساء الروحانيين ، والشيوخ الدجالين ، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين ، من الاحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حرًّا خالصاً وسيداً كريماً ، ومع الله عبدًا خاضعاً « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »

وأقول أيضا : ان عبادة الله تعالى هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لالوهيته، واستعانته هي غاية الشكر له في القيام بما يجب اربوبيته ، أما الاول فظاهر لانه هو الإله الحق فلا يعبد بحق سواه، وأما الثاني فلأنه هو المربي للعباد الذي وهب لهم جميع ماتكمل به تربيتهم الصورية والمعنوية ، ومن هنا تعلم ان ايراد ذكر العبادة والاستعانة بعد ذكر اسم الجلالة الاعظم ، واسم الرب الاكرم ، انما هو لترتبهما عليهما من قبيل ترتيب النشر على اللف . . والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله وتحل محله وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة ولذلك جمع القرآن بينهما في مثل قوله تعالى (ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه)

فهذه الاستعانة هي ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة ، فان من معنى العبادة الشعور بأن السلطة الغيبية التي هي وراء الاسباب العامة ، الموهوبة من الله تعالى لعباده كافة ، هي لله وحده كما تنطق به الآية التي استشهدنا بها آنفا على قرن العبادة بالتوكل ، فمن كان موحدا خالصا لا يستعين بغير الله تعالى قط ، فما كان من أنواع المعونة داخلا في حلقات سلسلة الاسباب كان طلبه بسببه طلبا من الله تعالى، ولكنه يحتاج في تحقق ذلك الى قصد وملاحظة وشهود قلبي، وما كان غير

داخل فيها يتوجه في طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب ، و بهذا البيان تعلم انه لا منافاة بين التوحيد والتوكل و بين الاخذ بالاسباب واقامة سنن الله تعالى فيها، بل الكمال والادب في الجمع بينهما، فالسيد المالك اذا نصب لعبده وخدمه مائدة يأكلون منها غدوا وعشيا، وجعل لهم خدما يقومون بأمرها لا يكون طلب الطعام منه الا بالاختلاف الى المائدة ، وانما ينبغي ان لا يغفلوا بها وبخدمها عن ذكر صاحب الفضل الذي أنشأها بماله وسخر أولئك الخدم للآكلين عليها، ولا عن حمده وشكره ، فهذا مثال مائدة الكون بأسبابه ومسبباته . والعبد اذا احتاج شيئا من الاشياء التي لم يجعلها سيده مبذولة لجميع عبيده في كل وقت ، طلبه منه دونه سواه ، فان أظهر الحاجة الى غيره كان ذلك من قلة ثقته بمولاه ، وجعل ذلك الغير في مرتبته أو أجدر منه بالفضل. هذا في العبيد مع السادة الذين لهم نظراء وأنداد ، فكيف اذا كان العبد الذي يتوجه الى غير مولاه ، لا يجد من يتوجه اليه سواه ، الا أمثاله من العبيد المحتاجين الى المولى مثله، لانه هو السيد الصمد، الذي ليس كفوًا أحد ؟

ثم ان لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى الاعانة على شيء له فيه كسب ليعينه على القيام به ، وفي هذا تكريم للانسان بجعل عمله أصلا في كل ما يحتاج اليه لاتمام تربية نفسه وتزكيتها، و إرشاد له الى أن ترك العمل والكسب ، ليس من سنة الفطرة ولا من هدي الشريعة ، فمن تركه كان كسولا مذموما، لا متوكلا محمودا . وبتذكيره من جهة أخرى بضعفه لكيلا يغتر فيتوهم انه مستغن بكسبه عن عناية ربه ، فيكون من الهالكين في عاقبة أمره

اذا تدبرت هذا فهمت منه نكتة من نكت تقديم العبادة على الاستعانة وهي ان الثانية ثمرة للاولى . ولا ينافي هذا ان العبادة نفسها مما يستعان عليه بالله تعالى ليوفق العابد للاتيان بها على الوجه المرضيّ له عز وجل . لا منافاة بين الامرين لان الثمرة التي تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التي تخرج منها شجرة أخرى . فالعبادة تكون سببا للمعونة من وجه، والمعونة تكون سببا للعبادة من وجه آخر، كذلك الاعمال تكوّن الاخلاق التي هي مناشيء الاعمال ، فكل منهما سبب ومسبب وعلة ومعلول ، والجهة مختلفة ، فلا دور في المسألة

وأقول أيضا ان نكتة تقديم « إياك » على الفعلين « نعبد ونستعين » هي افادة الاختصاص والحصر على المشهور الذي جرى عليه الاستاذ الامام كغيره فالمعنى اذا : نعبدك ولا نعبد غيرك ونستعينك ولا نستعين بسواك . وقد استخرج له بعض الغواصين على المعاني نكتا أخرى (منها) أن « إياك » ضمير راجع الى الله تعالى وقيل ان « إيّا » اسم ظاهر مضاف الى الضمير الذي هو الكاف ، فتقديمه على الوجهين يؤذن بالاهتمام به الذي هو العلة الاصلية العامة للتقديم في هذه اللغة. ومنها انه من الادب أيضا . ومنها ان افادة الحصر بهذا الاسم « او الضمير » المقدم على الفعل أبلغ من افادة الحصر بالضمير المتصل الذي يقرن به ما يدل على ذلك من الكلم ، كقولك : إنما نعبدك وإنما نستعينك ، او نستعين بك وحدك . واعادة إياك مع الفعل الثاني يفيد أن كلا من العبادة والاستعانة مقصود بالذات فلا يستلزم كل منهما الآخر .ذلك بأن الاستعانة بالله تعالى يجب ان تكون عامة في كل شيء . ومن الناس من لا يستعين بالله على شيء من أعماله الاختيارية زعما منهم أنهم يستقلون بذلك بدون اعانة خاصة منه تعالى كالقدرية . وافضل الاستعانة ما كان على الطاعة والخير وقد أخذ النبي (ص) بيد معاذ يوما وقال « والله اني لأحبك.. أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » . وقد روينا هذا المعنى في الاحاديث المسلسلة : قال لي شيخنا ابو المحاسن محمد القاوقجي في طرابلس الشام « اني احبك فقل اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » قال لي شيخنا محمد عابد السندي في الحرم النبوي الشريف « اني أحبك » الخ وذكر سنده الى النبي (ص)

﴿ (٥) إهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

ذكر الاستاذ الامام أولا ما قالوه في معنى الهداية لغة من أنها الدلالة بلطف على ما يوصل الى المطلوب . ثم بين انواعها ومراتبها فقال ما مثاله : منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها الى سعادته (أولاها) هداية الوجدان الطبيعي والالهام الفطري وتكون للاطفال منذ ولادتهم ، فان الطفل بعد ما يولد

يشعر بألم الحاجة الى الغذاء فيصرخ طالبا له بفطرته ، وعند ما يصل الثدي الى فيه يلهم التقامه وامتصاصه (الثانية) هداية الحواس والمشاعر وهي متممة للهداية الأولى في الحياة الحيوانية ويشارك الانسان فيهما الحيوان الأعجم ، بل هو فيهما أكمل من الانسان، فان حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الانسان فان ذلك يكمل فيه بالتدريج في زمن غير قصير ، ألا تراه عقب الولادة لا تظهر عليه علامات ادراك الاصوات والمرئيات ، ثم بعد مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات ، فيحسب البعيد قريبا فيمد يديه اليه ليتناوله وان كان قمر السماء ، ولا يزال يغلط حسه حتى في طور الكمال

(الهداية الثالثة العقل) خلق الانسان ليعيش مجتمعا ولم يعط من الالهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطي النحل والنمل فان الله قد منحها من الالهام ما يكفيها لان تعيش مجتمعة يؤدي كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها، ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد ، و بذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد

أما الانسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الالهام ، فحباه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والالهام وهي العقل الذي يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرا ، ويرى العود المستقيم في الماء معوجا، والصفراوي يذوق الحلو مرًّا . والعقل هو الذي يحكم بفساد مثل هذا الادراك

(الهداية الرابعة الدين) يغلط العقل في إدراكه كما تغلط الحواس ، وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى توردَه موارد الهلكة . فاذا وقعت المشاعر في مزالق الزلل ، واسترقت الحظوظ والاهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل ، فكيف يتسنى للانسان مع ذلك أن يعيش سعيدا ؟ وهذه الحظوظ والاهواء ليس لها حد يقف الانسان عنده ، وما هو بعائش وحده ، وكثيرا ما تتطاول به الى ما في يد غيره ، فهي لهذا تقتضي أن يعدو بعض أفراده على بعض، فيتنازعون ويتدافعون ، ويتجادلون ويتجالدون ، ويتواثبون ويتناهبون،

حتى يفني بعضهم بعضا ، ولا تغني عنهم تلك الهدايات شيئا ؟ فاحتاجوا الى هداية ترشدهم في ظلمات أهوائهم ، اذا هي غلبت على عقولهم ، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها ، ويكفوا أيديهم عما وراءها . ثم إن مما أودع في غرائز الانسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الاكوان ينسب اليها كل مالا يعرف له سببا ، لانها هي الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده ، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة ، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث الى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذي خلقه وسواه ، ووهبه هذه الهدايات وغيرها ، وما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية ؟ كلا إنه في أشد الحاجة الى هذه الهداية الرابعة ـ الدين ـ وقد منحه الله تعالى إياها

أشار القرآن الى أنواع الهداية التي وهبها الله تعالى للانسان في آيات كثيرة منها قوله تعالى « وهديناه النجدين » أي طريقي السعادة والشقاوة والخير والشر . قال الاستاذ الامام : وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين . ومنها قوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » أي دللناهم على طريقي الخير والشر فسلكوا سبل الشر المعبر عنه بالعمى . وذكر غير هاتين الآيتين مما في معناهما ، ثم قال

بقي معنا هداية أخرى وهي المعبر عنها بقوله تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره ، فالهداية في الآيات السابقة بمعنى الدلالة وهي بمنزلة إيقاف الانسان على رأس الطريقين المهلك والمنجي مع بيان مايؤدي اليه كل منهما ، وهي مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر . أما هذه الهدية فهي أخص من تلك والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين (١)

---

(١) هذا الفرق بين معنيي الهداية معروف في اللغة وبه يجاب عن التناقض الظاهري في قوله تعالى (وانك لتهدي الى صراط مستقيم) وقوله تعالى (انك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) فالهداية التي أثبتها للنبي صلى الله عليه وسلم هي الدلالة على الخير والحق، والتي نفاها عنه هي الثانية التي بمعنى الاعانة والتوفيق

ولما كان الانسان عرضة للخطإ والضلال في فهم الدين وفي استعمال الحواس والعقل على ماقدمنا كان محتاجا الى المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه في قوله « اهدنا الصراط المستقيم » فمعنى « اهدنا الصراط المستقيم » دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطإ . وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه ، الا لأن حاجتنا اليه أشد من حاجتنا الى كل شيء سواه ،

ثم بين معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه وقراءة السراط بالسين المهملة واشتقاقها على نحو مافي كتب اللغة والتفسير ، ومعنى المستقيم وهو ضد المعوَجّ وقال : ليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التمعج والتعاريج بل المراد كل مافيه انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي سالكه اليها . والمستقيم في عرف الهندسة أقرب موصل بين طرفين ، وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هو ظاهر بالبداهة . وإنما قلنا ان المراد بمقابل المستقيم كل مافيه انحراف لان كل من يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خط ذي تعاريج ، لان هذا الاخير قد يصل الى الغاية بعد زمن طويل . ولكن الاول لا يصل اليها أبدا ، بل يزداد عنها بعدا كلما أوغل في السير وانهمك فيه

وقد قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق او العدل أو الحدود ونحن نقول إنه جملة ما يوصلنا الى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . لِمَ سُمّيَ الموصل الى السعادة من ذلك صراطا وطريقا ؟ خذ الحق مثلا وهو العلم الصحيح بالله وبالنبوة وبأحوال الكون والناس ترَ معنى الصراط فيه واضحا ، لان السبيل أو الصراط ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي اقصدها . كذلك الحق الذي يبين لي الواقع الثابت في العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة . فالطريق الواضح للحس ، يشبه الحق للعقل والنفس ، سير حسي ، وسير معنوي ، كذلك إذا اعتبرت هذا المعنى في الحدود والأحكام تجده واضحا — قسمت أحكام الاعمال الى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان هذا مريحا لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا . فبيان الاحكام بالهداية الكبرى

وهي الدين كالطريق الواضح يسلك بالعمل . ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالاحكام وترجعها الى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يرديهم . وهذا التلاعب بالدين انما يصدر من علمائه . وضرب الاستاذ الامام لذلك مثلا أحـد الشيوخ المتفقهين سرق كتابا من وقف أحد الاروقة في الازهر مستحلا له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به وهو يحصل بوجود الكتاب عنده وأنه قد يفوت النفع ببقائه في الرواق حيث وضعه الواقف إذ لا يوجد فيه من يفهمه مثله بزعمه !! واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل ليس بقليل ولذلك كان الانسان محتاجا أشد الاحتياج الى العناية الالهية الخاصة لاجل الاستقامة والسير في تلك الهدايات الاربع سيرا مستقيما يوصل الى السعادة . لهذا نبهنا الله جل شأنه ان نلجأ اليه ونسأله الهداية ليكون عونا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا ، وأن تكون استعانتنا في ذلك به لا بسواه ، بعد أن نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد في معرفة ما أنزل الينا من الشريعة والاحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك . وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على خيري الدنيا والآخرة . فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين بعدان علمنا اختصاصه بالاستعانة في قوله « وإياك نستعين »

(صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ)

(قال الاستاذ) الصراط المستقيم هو الطريق الموصل الى الحق ولـكنه تعالى ما بينه بذلك كما بينه في نحو سورة العصر (١) وانما بينه باضافته الى من سلك هذا الصراط كما قال في سورة الانعام «فبهداهم اقتده» وقد قلنا ان الفاتحة مشتملة على اجمال ما فصل في القرآن حتى من الاخبار ، التي هي مَثُل الذكرى والاعتبار ، وينبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها تنطوي في اجمال هذه الآية

(قال) فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى . ونحن نقول ان الفاتحة أول سورة نزلت كما قال الامام علي رضي الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره ، لأنه تربى في حجر النبي صلى الله عليه وسلم وأول من

(١) قد فسر الاستاذ الامام سورة العصر تفسيرا يظهر به صدق قول الامام الشافعي : لولم ينزل غير هذه السورة لـكفت الناس ـــ تفسيرا لا تجد مثله في كتاب . وقد طبعناه على حدته

آمن به، وان لم تكن أول سورة على الاطلاق فلا خلاف في أنها من أوائل السور (كما مر في المقدمة) ولم يكن المسلمون في أول نزول الوحي بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وماهداهم الا من الوحي، ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذه السبيل سبيل من أنعم الله عليهم من قبلهم، فأولئك غيرهم، وانما المراد بهذا ماجاء في قوله تعالى « فبهداهم اقتده » وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الامم السالفة . فقد أحال على معلوم أجمله في الفاتحة وفصله في سائر القرآن بقدر الحاجة. فثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص، وتوجيه للانظار الى الاعتبار بأحوال الامم ، في كفرهم وإيمانهم ، وشقاوتهم وسعادتهم، ولا شيء يهدي الانسان كالمثلات والوقائع . فاذا امتثلنا الامر والارشاد، ونظرنا في أحوال الامم السالفة، وأسباب علمهم وجهلهم، وقوتهم وضعفهم، وعزهم وذلهم، وغير ذلك مما يعرض للامم - كان لهذا النظر أثر في نفوسنا يحملنا على حسن الاسوة والاقتداء بأخبار تلك الامم فيما كان سبب السعادة والتمكن في الارض، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار . ومن هنا ينجلي للعاقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات، وتأخذه الدهشة والحيرة اذا سمع ان كثيرا من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين، ويرغبون عنه ، ويقولون انه لا حاجة اليه ولا فائدة له. وكيف لا يدهش ويحار والقرآن ينادي بأن معرفة أحوال الامم من أهم مايدعو اليه هذا الدين ؟ « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات »

وههنا سؤال وهو : كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم، وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم، وأصلح لزماننا وما بعده ؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله في جميع الامم واحد ، وانما تختلف الاحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان ، وأما الاصول فلا خلاف فيها . قال تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » الآية وقال تعالى « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » الآية . فالايمان بالله وبرسله وباليوم الآخر، وترك الشر وعمل البر،

في التخلق بالاخلاق الفاضلة، مستوٍ في الجميع . وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه ، والاعتبار بما صاروا اليه ، لنقتدي بهم في القيام على أصول الخير . وهو أمر يتضمن الدليل على أن في ذلك الخيرَ والسعادة . على حسب طريقة القرآن في قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول ، والجمع بين السبب والمسبب . وتفصيل الاحكام التي هذه كلياتها بالاجمال نعرفه من شرعنا وهدي نبينا عليه الصلاة والسلام اه بتفصيل وايضاح

وأزيد هنا ان في الاسلام من ضروب الهداية ما قد يعد من الاصول الخاصة بالاسلام، ويرى انه مما يستدرك على ما قرره الاستاذ الامام ، كبناء العقائد في القرآن على البراهين العقلية والكونية ، و بناء الاحكام الادبية والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار والمفاسد ، وكبيان أن للكون سنناً مطردة تجري عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة ، وكالحث على النظر في الا كوان ، للعلم والمعرفة بما فيها من الحكم والاسرار ، التي يرتقي بها العقل وتتسع بها أبواب المنافع للانسان ، وكل ذلك مما امتاز به القرآن . والجواب عن هذا انه تكميل لاصول الدين الثلاث التي بعث بها كل نبي مرسل لجعل بنائه رصينا مناسباً لارتقاء الانسان . أما تلك الاصول وهي الايمان الصحيح وعبادة الله تعالى وحده وحسن المعاملة مع الناس فهي التي لاخلاف فيها

أما وصفه تعالى الذين انعم عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فالمختار فيه ان المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه، انصرافا عن الدليل ، ورضاء بما ورثوه من القيل ، و وقوفاً عند التقليد ، وعكوفاً على هوى غير رشيد ، وغضب الله يفسرونه بلازمه وهو العقاب ، و وافقهم الاستاذ الامام ، والذي ينطبق على مذهب السلف ان يقال انه شأن من شؤونه تعالى يترتب عليه عقوبته وانتقامه ـ وأن الضالين هم الذين لم يعرفوا الحق البتة، أولم يعرفوه على الوجه الصحيح الذي يقرن به العمل كما سيأتي تفصيله . وقرن المعطوف في قوله « ولا الضالين » بلا لما في « غير » من معنى النفي أي وغير الضالين ففيه تأكيد للنفي . وهو يدل على أن الطوائف ثلاث : المنعم عليهم، والمغضوب عليهم، والضالون . ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضا لانهم

بنبذهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها فلا يصلون منها الى مطلوب ، ولا يهتدون فيها الى مرغوب ، ولكن فرقا بين من عرف الحق فأعرض عنه على علم ، وبين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق لا يهتدي إلى الجادة الموصلة منها ، وهم من لم تبلغهم الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق ، فهؤلاء هم أحق باسم الضالين ، فان الضالّ حقيقة هو التائه الواقع في عماية لا يهتدي معها الى المطلوب ، والعماية في الدين هي الشبهات التي تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطإ

الاستاذ الامام : الضالون على أقسام (الاول) من لم تبلغهم الدعوة الى الرسالة، أو بلغتهم على وجه لا يسوق الى النظر. فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل ، وحرموا رشد الدين ، فان لم يضلوا في شؤونهم الدنيوية ضلوا لامحالة فيما تطلب به نجاة الارواح وسعادتها في الحياة الاخرى . على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة ما به يسعدون في الدنيا والآخرة معاً، فمن حرم الدين حرم السعادتين ، وظهر أثر التخبط والاضطراب في أعماله المعاشية، وحلّ به من الرّزايا ما يتبع الضلال والخبط عادة ، سنة الله في هذا العالم ولن تجد لسنته تبديلا .أما أمرهم في الآخرة فعلى أنهم لن يساووا المهتدين في منازلهم ، وقد يعفو الله عنهم . وهو الفعّال لما يريد

وأزيد في ايضاح كلام الاستاذ ان الذين حرموا هداية الدين لا يعقل أن يؤاخذوا في الآخرة على ترك شيء مما لا يعرف الا بهذه الهداية . وهذا هو معنى كونهم غير مكلفين، وعليه جمهور المتكلمين ، لقوله تعالى في سورة الاسراء « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ومن قال انهم مكلفون بالعقل لا يظهر وجه لقوله الا اذا أراد ان حالهم في الآخرة تكون على حسب ارتقاء أرواحهم بهداية العقل وسلامة الفطرة ، اذ لاشك ان من لم يبعث فيهم رسول يتفاوتون في ادراكهم وأعمالهم بتفاوت استعدادهم الفطري وما يصادفون من حسن التربية وقبحها . وبهذا يجمع بين القولين في تكليفهم وعدمه أو يفصل بينها . وما يعاملهم الله تعالى اياه في الآخرة على حسب حالهم في الخير والشر والفضيلة والرذيلة ـ يكون جزاء عادلا

على أعمالهم الاختيارية ويزيدهم من فضله ان شاء . وسأفصل هذا المعنى في تفسير الآيات المنزلة فيه ان شاء الله تعالى. وأعود الآن الى اتمام سياق الاستاذ ، قال :

(القسم الثاني) من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر ، فساق همته اليه ، واستفرغ جهده فيه ، ولكن لم يوفق الى الايمان بما دعي اليه ، وانقضى عمره وهو في الطلب ، وهذا القسم لا يكون الا أفرادًا متفرقة في الامم ولا يعم حاله شعباً من الشعوب ، فلا يظهر له أثر في أحوالها العامة ، وما يكون لها من سعادة وشقاء في حياتها الدنيا . أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الاشاعرة الى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى ، وينقل صاحب هذا الرأي مثله عن أبي الحسن الاشعري . واما على رأي الجمهور فلا ريب في أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذي أنكر التنزيل ، واستعصى على الدليل ، وكفر بنعمة العقل ، ورضي بحظه من الجهل ،

(القسم الثالث) من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها ، بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على أصولها ، فاتبعوا أهواءهم في فهم ماجاءت به من أصول العقائد ، وهؤلاء هم المبتدعة في كل دين ، ومنهم المبتدعون في دين الاسلام ، وهم المنحرفون في اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الاول ، ففرقوا الامة الى مشارب ، يغص بمائها الوارد ، ولا يرتوي منها الشارب ، (قال) واني أشير الى طرف من آثارهم في الناس : يأتي الرجل الى دوائر القضاء فيستحلف بالله العلي العظيم ، أو بالمصحف الكريم ، وهو كلام الله القديم ، أنه مافعل كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه ، فيأتيه المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقدلهم الولاية ، فيتغير لونه ، وتضطرب أركانه ، ثم يرجع في أليته ، ويقول الحق ، ويقر بأنه فعل ماحلف أولا أنه لم يفعله ، تكريماً لاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة ، اذا حلف باسمه كاذبا . فهذا ضلال في أصول العقيدة يرجع الى الضلال في الايمان بالله تعالى وما يجب له من الوحدانية في الافعال ، ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال في العقائد الاصلية بسبب البدع التي عرضت على دين الاسلام لطال المقال ، واحتيج إلى وضع مجلدات في وجوه الضلال ، ومن أشنعها أثرا ، وأشدها ضررا ،

خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر ، والاختيار والجبر ، وتحقيق الوعد والوعيد ، وتهوين مخافة الله على نفوس العبيد ،

اذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها أولا فيه يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين . وأما اذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن وحشرناها فيه أوّلا فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال لاختلاط الموزون بالميزان . فلا يدرى ما هو الموزون من الموزون به ـ أريد أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين ، لا أن تكون المذاهب أصلا والقرآن هو الذي يحمل عليها ، ويرجع بالتأويل أو التحريف اليها ، كما جرى عليه المخذولون ، وتاه فيه الضالون ،

(القسم الرابع) ضلال في الاعمال ، وتحريف للاحكام عما وضعت له ، كالخطإ في فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات ، والخطإ فهم الاحكام التي جاءت في المعاملات ، ولنضرب لذلك مثلاً : الاحتيال في الزكاة بتحويل المال الى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضي قليل من الحول الثاني ، حتى لاتجب الزكاة فيه ، ويظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ، ونجا من غضب من لاتخفى عليه خافية ، ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركناً من أهم أركان دينه ، وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض مايذهب به ويمحو أثره ، وهو محال عليه جل شأنه ـ

ثلاثة أقسام من هذا الضلال أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها في الامم فتختل قوى الادراك فيها ، وتفسد الأخلاق ، وتضطرب الاعمال ، ويحل بها الشقاء ، عقوبة من الله لابد من نزولها بهم ، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته تحويلا . ويعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الامم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها لما أحدثته في عقائدها وأعمالها مما يخالف سُنته ، ولا يتبع فيه سُنته .

لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده ، وتقويم العقول والاعمال بفهم ماهدانا اليه ، وأن يجنبنا طرق أولئك

الذين ظهرت فيهم آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه سواء كان ذلك عمداً وعناداً، أو غواية وجهلا

اذا ضلت الامة سبيل الحق ولعب الباطل بأهوائها ، فسدت أخلاقها واعتلت أعمالها ، وقعت في الشقاء لامحالة ، وسلط الله عليها من يستذلها ويستأثر بشؤونها، ولا يؤخر لها العذاب الى يوم الحساب ، وان كانت ستلاقي نصيبها منه أيضاً ، فاذا تمادى بها الغي وصل بها الى الهلاك ، ومحي أثرها من الوجود، لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر في أحوال من سبقنا ، ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الامم لنعتبر ونميز بين ما به تسعد الاقوام وما به تشقى . أما في الافراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال في هذه الحياة الدنيا ، فقد يستدرج الضال من حيث لا يعلم ، ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه ، وانما يلقى جزاءه « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والامر يومئذ لله » اه

فوائد في تفسير الفاتحة

كان غرضنا الاول من كتابة تفسير الفاتحة ونشره في المنار هو بيان ما نستفيده من دروس شيخنا الاستاذ الامام، مع شيء مما يفتح الله به علينا بالاختصار. فلذلك اختصرنا فيما كتبناه اولا ، ثم لما طبعنا تفسير الفاتحة على حدته مرة ثانية زدنا فيه بعض زيادات . وكان بدا لنا أن نجعل هذا التفسير مطولا مستوفى . ولهذا زدنا في تفسير الفاتحة هنا زيادات كثيرة كما نبهنا على ذلك في المقدمة . وبعد الفراغ من طبعه رأينا أن نعززه بالفوائد الآتية :

(حكمة ايثار ذكر الربوبية والرحمة في اول الفاتحة على سائر الصفات)

قد علمت ان اسم الجلالة (الله) هو اسم الذات الجامع لمعاني الصفات العليا ، وسائر الاسماء الحسنى ، والاصول من هذه الاسماء والصفات التي يرجع اليها غيرها وتعود اليها معانيها ولو بطريق اللزوم اربعة. اثنان منها ذاتيان وهما (الحي القيوم)

والاثنان الآخران فعليان وهما الرب والرحمن الرحيم ، وبتعبير أظهر أو أصح اثنان منهما لا يتعلقان بتدبير الخلق واثنان يتعلقان به ، فالحيّ ذو الحياة وهي بأعم معانيها الصفة الوجودية التي هي الأصل في معقولنا لجميع صفات الكمال في الوجود من صفات ذات وصفات أفعال كالعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام وهي الصفات التي يسميها علماء الكلام صفات المعاني ويجعلون عليها مدار معرفة الله تعالى مع الصفات السلبية التي يراد بها تنزيهه سبحانه وتعالى عما لا يليق من النقص ومشابهة الخلق وكالرحمة والحلم والغضب والعدل والعزة والخالقية والرازقية الخ وكمال الحياة يستلزم الاتصاف بهذه الصفات وبغيرها من صفات الكمال ،

والحياة في الخلق قسمان حسية ومعنوية فالاولى الحياة النباتية والحياة الحيوانية ولكل منهما صفات لازمة لها أعلاها في الحياة الثانية حياة الانسان التي من خواصها العلم والارادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وغير ذلك مما يفقده بالموت . والثانية الحياة العقلية والعلمية والروحية الدينية . ومن الشواهد القرآنية على هذه الحياة قوله تعالى (لينذر من كان حيًّا) وقوله (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) وكمال هذه الحياة للبشر لا يكون إلا في الآخرة وانما يكون الاستعداد له في الدنيا بتزكية النفس بالعلم والعمل

وحياة الخالق تعالى أعلى وأكمل من حياة جميع خلقه من الجن والانس والملائكة وهي لا تشبهها (ليس كمثله شيء) وإنما نفهم من إطلاقها اللغوي مع التنزيه أنها الصفة الذاتية الواجبة الأزلية الأبدية التي يلزمها اتصافه بما وصف به نفسه من صفات الكمال بدونها فهي لا يتوقف تعقلها على غيرها من الصفات ويتوقف تعقل جميع الصفات عليها وعبر عنها بعضهم بأنها تصحح له الاتصاف بصفات المعاني

وأما القيوم فاحسن ما قيل في تفسيره ما في معجم (لسان العرب) وهو القائم (أي الثابت المتحقق) بنفسه مطلقا لا بغيره وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور وجود شيء ولا دوام وجوده إلا به اهـ وسبقه إلى مثله غيره . وقولهم « القائم بنفسه » بمعنى قول المتكلمين « واجب الوجود » أي الذي وجوده ثابت بذاته لذاته غير مستمد من وجود آخر فهو يستلزم القدم الذي لا أول له والبقاء

الذي لا آخر له (هو الاول والآخر) وقولهم الذي يقوم به كل موجود معناه أنه لا وجود لشيء غيره ابتداء ولا بقاء إلا به ، فكل وجود سواه مستمد منه وباق بابقائه إياه (٣٥ : ٤١ ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) ومن كان هذا وصفه كان بالضرورة قادراً مريداً عليما حكيما ، فاذا كانت الحياة تصحح لصاحبها الاتصاف بهذه الصفات وغيرها وتدل عليها بقيد الكمال دلالة التزام فالقيومية تدل عليها دلالة تضمن بغير قيد

ولجمع هذين الاسمين الكريمين هذه المعاني وغيرها من معاني الكمال الا على كان القول بأنهما مع اسم الجلالة ـ ما يعبر عنه بالاسم الأعظم هو القول الراجح المختار عندنا . وانما فسرنا الاسمين الكريمين هنا وذكرهما استطرادي لا يدخل في تفسير الفاتحة لان أكثر القراء لا يفهم معانيهما التي يدل عليها لفظهما بطرق الدلالة الثلاث : المطابقة والتضمن والالتزام

وأما صفتا الربوبية والرحمة فهما الصفتان الدالتان على أن الله تعالى هو المالك المدبر لأمور العالم كلها ، وعلى أن رحمته تعالى تغلب غضبه ، وإحسانه الذي هو أثر رحمته يغلب انتقامه ، ومعنى الانتقام لغة الجزاء على السيئات ، فان كان جزاء على السيئة بمثلها كان انتقام حق وعدل ، وان كان باكثر من ذلك كان انتقام باطل وجور ، والله تعالى منزه عن الباطل والجور (ولا يظلم ربك أحداً) بل يتجاوز عن بعض السيئات ، ويضاعف جزاء الحسنات (٤٢ : ٢٥ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون * ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير * ٤ : ٤٠ ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) والآيات في الجزاء على السيئة بمثلها وعلى الحسنة بعشر أمثالها معروفة وكذا آية المضاعفة سبعمائة ضعف وما شاء الله تعالى

فمن شأن الرب المالك للعباد المدبر لامورهم المربي لهم أن يجازي كل عامل بعمله ، وينتقم للمظلوم من ظالمه . والجزاء بالعدل مخيف لأكثر الناس بل لجميع الناس ، فانه مامن أحد الا ويقصر فيما يجب عليه لربه ولنفسه ولأهله وولده بله من دونهم حقاً عليه ومكانة عنده ، ومن حقهم أن يغلب الخوف على الرجاء في

قلوبهم ، ولذلك قرن سبحانه صفة الربوبية بصفة الرحمة وعبر عنها باسمين لا باسم واحد : اسم الرحمن الدال على منتهى الكمال في اتصافه بها ، واسم الرحيم الدال على أنها من الصفات النفسية المعنوية مع تعلقها بالخلق تعلقاً تنجيزيا كقوله تعالى (٤ : ٢٨ ان الله كان بكم رحيما * (٣٣ : ٤٣ وكان بالمؤمنين رحيما) وبهذا التفسير ضمنا في التفرقة بين الاسمين ماقاله المحقق ابن القيم الى ما قاله شيخنا رحمها الله

وأما دلالة صفتي الربوبية والرحمة على جميع معاني صفات الافعال الالهية فظاهر فان رب العباد هو الذي يسدي اليهم كل ما يتعلق بخلقهم ورزقهم وتدبير شؤونهم من فعل دلت عليه أسماؤه الحسنى كالخالق الباري المصوّر القهار الوهاب الرزاق الفتاح القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم الرقيب المقيت الباعث الشهيد المحصي المبدىء المعيد المحيي المميت المقدم المؤخر المغني المانع الضارّ النافع وأمثالها . والرحمن في ذاته الرحيم بعباده لابد أن يكون توابا غفوراً عفواً رؤفا شكورا حليما وهابا

اذا علمنا هذا تجلت لنا حكمة وصف الله تعالى في أول فاتحة الكتاب العزيز بالربوبية والرحمة الدالتين على جميع صفات الأفعال دون الحياة والقيومية الدالتين على صفات الذات وغيرها — وهي والله أعلم بمراده أن الفاتحة ينظر فيها من وجهين (أحدهما) مادل عليه اسمها هذا أعني كونها فاتحة ومبدأ للقرآن (وثانيهما) أنها قد شرعت للقراءة في الصلوات كل يوم، وكل منهما يناسبه البدء بذكر ربوبية الله ورحمته

ذلك بأن القرآن كما قال الله في أول سورة البقرة (هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) الخ الآيات . فهم الذين يتلونه حق تلاوته ، وهم الذين يتدبرونه ويتعظون به ، وهم (الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) فالمناسب في حقهم أن تكون السورة الأولى وهي المثاني التي يثنونها دائماً في صلاتهم وفي بدء أورادهم القرآنية المسماة بالختمات مبدوءة بذكر الصفتين الجامعتين لمعاني الصفات التي تتعلق بتدبير الله سبحانه لشؤونهم، وبعدله في الحكم بينهم فيما يختصمون فيه، وبمجازاتهم على أعمالهم ، وبرحمته لهم واحسانه اليهم،

الدالتين على مايجب عليهم من شكره وتخصيصه بالعبادة والاستعانة، والتوجه اليه في طلب كمال الهداية ، وهاتان الصفتان هما الربوبية والرحمة . فبدء فاتحة القرآن بذكرهما في البسملة ثم في أثناء السورة مرشد لما ذكر ، مذكر للمصلي والتالي به. وكذا بدء كل سورة منه بالبسملة التي لم يوصف اسم الذات (الله)فيها بغير الرحمة الكاملة الشاملة ،هو إعلام منه سبحانه بأنه أنزله رحمة للعالمين ، كما قال مخاطبا لمن أنزله عليه (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) ولذلك لم تنزل البسملة في أول سورة التوبة التي فضحت آياتها المنافقين ، وبدئت بنبذ عهود المشركين، وشرع فيها القتال بصفة أعم مما أنزل فيما قبلها من أحكامه

وهذا الذي شرحناه يفند زعم بعض المتعصبين الغلاة في ذم الاسلام بالهوى الباطل أن رب المسلمين رب غضوب منتقم قهار ، ودينهم دين رعب وخوف ، بخلاف دين النصرانية الذي يسمى الرب أبا للاعلام بأنه يعامل عباده كمعاملة الاب لأولاده. وقد أشار شيخنا إلى هذا الزعم وفنده في تفسير اسم الرب. وسنذكر في فائدة أخرى المقابلة بين صلاة المسلمين بقراءة الفاتحة وصلاة النصارى بالصيغة المعروفة عندهم بالصلاة الربانية، وثبت في الحديث الصحيح ان الرب أرحم بعباده من الأم بولدها الرضيع ، وان جميع ما أودعه في قلوب خلقه من الرحمة جزء من مائة جزء من رحمته تبارك وتعالى ويجد القارىء تفصيل القول في سعة الرحمة الالهية في تفسير قوله عز وجل (١٥٦:٧ ورحمتي وسعت كل شيء) من سورة الاعراف

﴿ تفسير صفة الرحمة على مذهب السلف ﴾

ماقلناه عن شيخنا في معنى الرحمة (ص ٤٦) تبع فيه متكلمي الاشاعرة والمعتزلة ومفسريهم كالزمخشري والبيضاوي ذهولا. ومحصله أن الرحمة ليست من صفات الذات أوصفات المعاني القائمة بذاته تعالى لاستحالة معناها اللغوي عليه فيجب تأويلها بلازمها وهو الاحسان فتكون من صفات الافعال كالخالق الرازق . وقال بعضهم يمكن تأويلها بارادة الاحسان فترجع إلى صفة الارادة فلا تكون صفة مستقلة . وهذا القول من فلسفة المتكلمين الباطلة المخالفة لهدي السلف الصالح .

والتحقيق أن صفة الرحمة كصفة العلم والارادة والقدرة وسائر مايسميه الاشاعرة صفات المعاني ويقولون إنها صفات قائمة بذاته تعالى خلافا للمعتزلة . فان معاني هذه الصفات كلها بحسب مدلولها اللغوي واستعمالها في البشر محال على الله تعالى إذ العلم بحسب مدلوله اللغوي هو صورة المعلومات في الذهن، التي استفادها من ادراك الحواس أو من الفكر ، وهي بهذا المعنى محال على الله تعالى ، فان علمه تعالى قديم بقدمه غير عرض منتزع من صور المعلومات . وكذلك يقال في سمعه تعالى وبصره وقد عدوهما من صفات المعاني القائمة بنفسه ، والرحمة مثلها فى هذا

فقاعدة السلف في جميع الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله أن نثبتها له ونمرّها كما جاءت مع التنزيه عن صفات الخلق الثابت عقلا ونقلا بقوله عز وجل (ليس كمثله شيء) فنقول إن لله علماً حقيقياً هو وصف له ولكنه لا يشبه علمنا ، وإن له سمعاً حقيقياً هو وصف له لايشبه سمعنا ، وإن له رحمة حقيقية هي صفة له لاتشبه رحمتنا التي هي انفعال في النفس. وهكذا تقول في سائر صفاته تعالى فنجمع بذلك بين النقل والعقل. وأما التحكم بتأويل بعض الصفات وجعل اطلاقها من المجاز المرسل أو الاستعارة التمثيلية كما قالوا في الرحمة والغضب وأمثالها دون العلم والسمع والبصر وأمثالها فهو تحكم في صفات الله وإلحاد فيها ، فاما ان تجعل كلها من باب الحقيقة مع الاعتراف بالعجز عن ادراك كنه هذه الحقيقة والاكتفاء بالايمان بمعنى الصفة العام مع التنزيه عن التشبيه — واما أن تجعل كلها من باب المجاز اللغوي باعتبار أن واضع اللغة وضع هذه الالفاظ لصفات المخلوقين فاستعملها الشرع في الصفات الالهية المناسبة لها مع العلم بعدم شبهها بها من باب التجوز

وقد عبر الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى عن هذا المعنى أفصح تعبير فقال في كتاب الشكر من الاحياء : ان لله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة يصدر عنها الخلق والاختراع ، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى

مبادي اشراقها ، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس ، لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً ، فاستعاروا لها اسم القدرة ، فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا أن لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع اه

وقد رجع الامام أبو الحسن الاشعري شيخ المتكلمين والنظار إلى مذهب السلف في نهاية أمره وصرح في آخر كتبه وهو (الابانة) بذلك وأنه متبع للامام احمد بن حنبل شيخ السنة والمدافع عنها ، رحمهم الله أجمعين

﴿ معارضة نصرانية سخيفة ، للفاتحة الشريفة ﴾

عرف كل من ذاق طعم البلاغة العربيـة من مؤمن وكافر أن القرآن أبلغ الـكلام وأفصحه ، لم يكابر في ذلك مكابر ، ولم يجادل فيه مجادل ، وان الفاتحة من أعلاه فصاحة وبلاغة وجمعاً للمعاني الكثيرة في الالفاظ القليلة ، واشتمالا على مهمات الدين من صفات الله التي تجذب قلب من تدبرها الى حبه ، وتنطق لسانه بحمده ، وتعلي همته بتوحيده ، وتهذب نفسه بمعـاني أسمائه وصفاته ، وإحاطة ربوبيته وملكه ، وتذكره يوم الدين الذي يجزى فيه على عمله ، وتوجه وجهه الى السير على الصراط المستقيم في خاصـة نفسه ، وفي معاملة الله ومعاملة خلقـه ، وتذكره بالقدوة الصالحة في ذلك باضافة الصراط الذي يتحرى الاستقامة عليه ، ويسأل الله توفيقه دائماً له ، الى من أسبغ الله عليهم نعمـه ، ومنحهم رضوانه ، وجعلهم هداة خلقه بأقوالهم ، وأسوتهم الحسنة في أفعالهم ، ومُثُل الكمال في آدابهم وأخلاقهم ، من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وتحذره من شرار الخلق ، الذين يؤثرون الباطل على الحق ، ويفضلون الشر على الخير ، على علم منهم بذلك ، وهم المغضوب عليهم ، — أو على جهل به كالذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهم الضالون . وهـذا التحذير يتضمن حث

المسلم المتعبد بالفاتحة المكرر لها في صلاته على العناية بتكميل نفسه بتحري التزام الحق وعمل الخير، باحكام العلم وتربية النفس والتمرن على العمل الصالح

هذه السورة الجليلة التي ذكرناك أيها القاريء بمجمل مما فصلناه في تفسيرها يزعم أحد دعاة النصرانية في هـذا العصر أنها بمعزل من البلاغة بأن كل ما بعد الصراط المستقيم فيها « حشو وتحصيل حاصل » وما قبله يمكن اختصاره بما لايضيع شيئا من معناه ، كما فعله بعضهم - قال هذا القول داعية من المبشرين المأجورين من قبل جمعيات التبشير الانكليزية والاميركانية في كتاب لفقه في ابطال إعجاز القرآن بزعمه ، بل أنكر بلاغتـه من أصلها قال :

« وما أحسن قول بعضهم أنه لو قال : الحمد للرحمن ، رب الا كوان ، الملك الديان ، لك العبـادة وبك المستعان ، اهدنا صراط الايمان . لأوجز وجمع كل المعنى وتخلص من ضعف التـأليف والحشو والخروج عن الردي، كما بين الرحيم ونستعين » اه

أقول لقد كان خيراً لهذا المتعصب المأجور لاضلال عوام المسلمين على شرط أن لا يذكر اسمه في كتيبه ، ولا يفضح نفسه بين قومه ، أن يختصر لمستأجريه آلهتهم وكتبهم التي صدت جميع مستقلي الفكر من أقوامهم وشعوبهم عن دينهم بل صدت بعضهم عن كل دين ، فان اختصار الدراري السبع في السماء ، أهون من اختصار آيات الفاتحة السبع في الارض. وحسب العالم من فضيحته ايراد سخافته هذه وتشبيره بها لو كان حياً يمشي بين الناس

وأما العامي الجاهل ، الذي قد يغتر بقول كل قائل ، ولا سيما اذا كان في الطعن بغير دينه، فربما يحتاج الى التنبيه لبعض فضائح هذا الاختصار ، وان كانت لاتخفى على أولي الابصار ، ونكتفي منـه بما يلي :

(١) ان أول شيء اختصره هذا الجاهل المتعصب وجعل ذكره مطعنا في فاتحة القرآن اسم الجلالة الاعظم (الله) الذي لا يغني عنه سرد جميع اسماء الله الحسنى!! فانه هو اسم الذات، الملاحظ معه اتصاف تلك الذات بجميع صفات الكمال إجمالا

(٢) أنه اختصر اسم الرحيم وقد بينا فائدته وان اسم الرحمن لا يغني عنه ،

وأنى لمثله أن يعلمه ؟ ويراجع الفرق بينهما فيما تقدم

(٣) انه استبدل الاكوان بالعالمين وليس في هذا اختصار ، وانما فيه استبدال الذي هو أدنى، بالذي هو خير وأولى ، فان الاكوان جمع كون وهو في الاصل مصدر لا يجمع ، وله معان لا يصح اضافة اسم الرب اليها منها الحدث والصيرورة والكفالة ، ويطلقه عرب الجزيرة على الحرب لعلهم لا يستعملونه في غيرها ، وأما العالمون فجمع عالم وفي اشتقاقه التذكير بكونه علامة ودليلا على وجود خالقه ، وفي جمعه جمع العقلاء تذكير للقارئ بما في كلمة الرب من معنى تربيته جل جلاله وعم نواله للاحياء ولاسيما الناس ، وكونهم يشكرونه عليها بقدر استعمال عقولهم ، ولذلك قال بعض الأعلام ان لفظ العالمين عام مستعمل هنا في الخاص وهو عالم البشر، وراجع سائر تفسيره المتقدم

(٤) انه استبدل « كلمة » الديان بكلمة (يوم الدين) وهي لا تقوم مقامها ، ولا تفيد مافيها من المعاني المطلوبة لذاتها ، فان للديان في اللغة معاني منها القاضي والحاسب أو المحاسب والقاهر . وغاية مايفيده وصف الرب بأنه حاكم يدين عباده ويجزيهم . وأما يوم الدين فانه اسم ليوم معين موصوف في كتاب الله بأوصاف عظيمة هائلة، يحاسب الله فيه الخلائق ويحكم بينهم ويجزيهم ، والايمان بهذا اليوم ركن من أركان الدين ، وإضافة ملك ومالك اليه تفيد أن الأمر كله في ذلك اليوم له وحده فلا يملك أحد لأحد فيه شيئا من نفع ولا من كشف ضر كما تقدم تفصيله في تفسير الآية — فاستحضار هذه المعاني في النفس له من التأثير المقوي لعقيدة التوحيد المرغب في العمل الصالح المرهب الزاجر عن الشر ، ماليس لاسم الديان وحده ، ويكفي الانسان في الجزم بهذا مشاورة فكره ، ومراجعة وجدانه ، وإن لم يكن يعلم من فنون البلاغة شيئا ، وهل لهذا المبشر المتعصب فكر ووجدان ، يهديه إلى مايجهل من بلاغة القرآن ؟

(٥و٦) انه اختصر قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) بقوله هو: لك العبادة وبك المستعان. وهو أغرب ماجاء به وسماه ايجازاً ، فانه استبدل أربعاً بأربع، ولكنها أطول منها بزيادة حرف، وتنقص عنها في المعنى، فأين الايجاز؟ إنه مفقود لفظا ومعنى

اذا أراد بقوله : لك العبادة ـ انها كلها له تعالى في الواقع ونفس الأمر فالجملة غير صحيحة لأن الذين لايعبدونه وحده من البشر هم الأكثرون ، ومنهم النصارى قوم الطاعن في دين التوحيد وكتاب التوحيد الأعظم (القرآن) المبدلين لآية التوحيد البليغة . وان أراد أن العبادة مستحقة لله تعالى وحده فالمعنى صحيح ولكنه لايدل على أن القارىء ولا واضع الجملة من القائمين بهذا الحق له تعالى . وأما « إياك نعبد » فانها تفيد عرض عبادة القارىء مع عبادة جميع المؤمنين الموحدين عليه جل جلاله وتقربهم اليه بأنهم يعبدونه ولا يعبدون غيره

وأحيلك في الفرق بين تأثير هذا وذاك على الوجدان الذي ذكرتك به في النقد الذي قبله . دع مافي عرض المؤمن عبادته واستعانته على ربه في ضمن عبادة جميع المؤمنين واستعانتهم من ملاحظة أخوة الايمان وتكافل أهله ، ومن هضم الفرد لنفسه ، ورجاء القبول في ضمن الجماعة ، وغير ذلك مما يعلم من تفسير الآية ،

ومثل هذا يقال في مسألة الاستعانة ويمكن الزيادة عليه من جهة المعنى ومن جهة اللفظ ، ومنه اختياره المصدر الميمي الذي هو صيغة اسم المفعول (المستعان) على المصدر الاصلي وهو الاستعانة المناسب للفظ العبادة ، ومن جهة ارتباطه بما بعده فان طلبنا للهداية من الاستعانة التي أسندناها الى أنفسنا .

(٧) استبداله « صراط الايمان » بالصراط المستقيم ، وهذا أعم منه وأشمل ؛ لانه يشمل الايمان والاسلام والاحسان ، من العقائد والعبادات والآداب ، مع وصفه بالمستقيم الذي لاعوج فيه ، فان بعض الطرق الموصلة إلى المقاصد التي يسمى سالكها مهتديا إلى مقصده في الجملة ، قد يكون فيها عوج يعوق هذا السالك ، والمستقيم هو أقرب موصل بين طرفين ، فسالكه يصل إلى مقصده في أسرع وقت ، كذلك الطرق المعنوية منها الموصل إلى الغاية وغير الموصل ، ومن الموصل مايوصل بسرعة لعدم العائق ، ومايعتري سالكه الموانع واقتحام العقبات واتقاء العثرات

(٨) أن وصف الصراط المستقيم بكونه الصراط الذي سلكه خيار عباد الله المفلحين ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، مذكر لقارئه باولئك

الائمةالوارثين ، الذين يجب التأسي بهم ،والسعي للانتظام فيسلكهم ، والتصريح بكونه غير صراط المغضوب عليهم من المعاندين للحق ، وغير الضالين الزائغين عن القصد ، مذكر للقاريء بوجوب اجتناب سبلهم ، لئلا يتردى في هاويتهم .

***

أين من هذه المقاصد السامية ، الهادية الى تزكية النفس وإعدادها لسعادة الدنيا والآخرة ، صيغة الصلاة في ملة هذا المختصر المستأجر،وهي كما فيانجيل متى (٦ : ٩ — ١٣) « أبانا الذي فيالسموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين الينا ، ولا تدخلنا في تجربة ولكن نجنا من الشرير أمين اهـ زاد في نسخة الأميركان « لأن لك الملك والقوة والمجد إلىالأبد » وجعلوا هذه الزيادة بين علامتي الكلام الدخيل هكذا (   ) فمن ذا الذي زادها على كلام المسيح ؟

وقد يقول لهم من لا يؤمن بان هذه الصيغة منقولة نقلا صحيحاً عن المسيح عليه السلام ، أو من لا يؤمن به نفسه : إنها صلاة ليس فيها من الثناء على الله تعالى مافي فاتحة المسلمين ولا بعضه ، وطلب تقديس اسم الاب وإتيان ملكوته تحصيل حاصل ، فهو لغو لا يليق بالعاقل ، وذكره بصيغة الأمر باللام غير لائق ، — إن لم نقل في انتقاده ما هو أشد من ذلك ـ وأبعد من ذلك عن اللياقة والادب مع الرب تبارك وتعالى طلب كون مشيئته على الأرض كمشيئته في السماء ،وكونها بصيغة الامر باللام أيضاً ، فمشيئته تعالى نافذة في جميع خلقه من سمائه وأرضه بالضرورة فلا معنى لطلبها ، وطلب المساواة بين السماء والأرض فيها أن أريد به من كل وجه ، فهو تحكم لا يخفى مايترتب عليه .

وأما طلب الخبز الكفاف في كل يوم بصيغة الحصر فهو يفيد أن كل همهم وكل مطلبهم من ربهم ولو لدنياهم هو الخبز الذى يكفيهم ، فاين هذا من طلب الصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة على أكمل وجه ، ككونه نفس صراط خيار الناس دون شرارهم .

وأما طلب المغفرة فهو على كونه يليق أن يطلب منه تعالى ينتقد منه تشبيهها بمغفرة الطالب المذنب المسيء اليه من وجهين (أحدهما) أن مغفرة الله لعبده أجل وأعظم وأعم من مغفرة العبد لمثله (ثانيهما) أن الذي يغفر لجميع المسيئين اليه نادر ، ومن المشاهد أن أكثر الناس يجزون على السيئة اما بمثلها ، وإما باكثر منها ، فكيف يكلف هؤلاء بمخاطبة ربهم بالكذب عليه الذي حاصله أنهم يطلبون أن لا يغفر لهم ، لأنهم لا يغفرون للمسيئين اليهم .

قد يقولون نعم نحن نلتزم هذا لأن ديننا يوجب علينا أن نغفر لجميع من أذنب وأساء الينا ، ونعتقد أن ربنا لا يغفر لنا اذا لم نغفر لهم ، لان من علمنا هذه الصلاة قال بعدها (متى ٦ : ١٤ فانه إن غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي ١٥ وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم)

فنقول هذا التعبير يدل على وجوب مغفرة جميع الذنوب لجميع الناس عامة كانت أو خاصة ، فاين منكم يامعشر النصارى من يفعل ذلك ، وهل يوجد في الالف والالوف منكم واحد كذلك ألسنا نرى أكثركم ومن تعدونهم أرقاكم وتفتخرون بهم كالافرنج لا يغفرون لأحد أدنى زلة ، بل لا يكتفون بعقاب من يسيء إلى أحد منهم إذا كان من غيرهم بمثل ذنبه وانما يضاعفون له العقاب أضعافا بل ينتقمون من أمته كلها إذا كانت ضعيفة لا يمكنها أن تصدهم بالقوة ، فهم لا يمنعهم من الجزاء على السيئة باضعافها من السيئات ولا من ابتداء الظلم والعدوان إلا العجز .

(وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة والبسملة منها)

في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة أحاديث قولية صحيحة صريحة وجرى عليها العمل من أول الاسلام الى اليوم ، وإن تنازع بعض أهل الخلاف والجدل في تسمية هذا الواجب فرضاً وعده شرطا ، وأصح ماورد وأصرحه فيه ما رواه الجماعة كلهم من حديث عبادة بن الصامت (رض) أن النبي (ص) قال « لا صلاة لمن يقرأ بفاتحة الكتاب » وفي لفظ رواه الدار قطني باسناد صحيح « لا تجزيء صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وهو تفسير للفظ الجماعة ، فنفي الصلاة فيه نفي صحتها

ووجهه أن الحقيقة المؤلفة من عدة أركان ذاتية تنتفي بانتفاء ركن منها ، كقولك لاوضوء لمن لم يغسل يديه إلى المرفقين ، وقد أجمع المسلمون على العمل بهذا فلم يصل النبي (ص) ولا خلفاؤه وأصحابه ولا التابعون ولا غيرهم من الخلفاء وأئمة العلم صلاة بدون قراءة الفاتحة فيها ، وانما بحث الحنفية في تسمية قراءتها فرضا وعدها ركناً بناء على اصطلاحات لهم ردها الجمهور بأدلة صحيحة لامحل لتلخيصها هنا ، وأجابوا عن شبهاتهم النقلية أجوبة سديدة وأقواها قوله (ص) للمسيء صلاته « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » قالوا في الجواب عنه إنه ثبت في رواية أخرى أنه قال له « ثم اقرأ بأم القرآن » فهذا مفسر لما تيسر من القرآن، وان الفاتحة هي التي كانت متيسرة لجميع المسلمين ، لانهم كانوا يلقنونها كل من يدخل في الاسلام ، وقال بعضهم المراد بما يتيسر منه هنا مازاد عن الفاتحة ،وفي البخاري عن أبي قتادة أن النبي (ص) كان يقرأ الفاتحة في كل ركعة والاحاديث المصرحة بأنه كان يقرأ في الركعة الاولى أمّ القرآن وسورة كذا — وفي الثانية بعد أم القرآن كذا في صلاة كذا كثيرة

وأما كون البسملة آية من الفاتحة ، فأقوى الحجج المثبتة له كتابتها في المصحف الامام الرسمي الذي وزع نسخه الخليفة الثالث على الامصار برأي الصحابة وأجمعت عليه الامة وكذا جميع المصاحف المتواترة الى اليوم ، والخط حجة علمية كما قال العلامة العضد، وعليه جميع شعوب العلم والمدنية في هذا العصر لاحجة عندهم أقوى من حجة الكتابة الرسمية ، ثم إجماع القراء على قراءتها في أول الفاتحة وإن زعم بعضهم أنها آية مستقلة فان هذا رأي والعبرة بالعمل ، وهو اذا كان عاما مطرداً من أقوى الحجج . على أن تواترها عن واحد منهم تقوم ما به الحجة على باقيهم وعلى سائر الناس فانه اثبات بالتواتر لايعارضه نفي ما. وقد كنا ذكرنا هذه المسألة وآراء أهل الخلاف فيها ونزيدها إيضاحاً فنقول :

قد وردت أحاديث آحادية في اثبات ذلك ونفيه ترتب عليها اختلاف الفقهاء الذين جعلوا المسألة مسألة مذاهب ، ينصر كل حزب منهم أهل المذهب الذي ينسبون اليه (كل حزب بما لديهم فرحون) ولولا ذلك لاتفقوا لأن اثبات

البسملة في أول الفاتحة في جميع المصاحف المجمع عليها المتواترة حجة قطعية لاتعارض بأحاديث الآحاد وان صح سندها .

وأصرح الأحاديث التي استدلوا بها على كون البسملة ليست آية من الفاتحة ما رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص)« من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج » يقولها ثلاثا (أي كلمة« فهي خداج » أي ناقصة غير تامة كالناقة تلد لغير التمام) فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الامام فقال اقرأ بها في نفسك فأني سمعت رسول الله (ص) يقول « قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ماسأل فاذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله : حمدني عبدي . فاذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى عليّ عبدي . فاذا قال (مالك يوم الدين) قال : مجدني عبدي . وقال مرة : فوض الىّ عبدي . واذا قال(إياك نعبد وإياك نستعين) قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ماسأل . فاذا قال (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : هذا لعبدي ولعبدي ماسأل»

قال النافون إن الحديث يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة لأنها لو كانت منها لذكرت في الحديث ، وهو استدلال سلبي لايعارض القطعي المتواتر وهو اثباتها في المصحف وإجماع القراء على قراءتها معها عند البدء بالخمات، وثبوت التواتر بذلك، على أن عدم ذكرها في الحديث قد يكون لسبب اقتضى ذلك ومما يخطر في البال بداهة انه كما اكتفى من قسمة الصلاة بالفاتحة دون سائر التلاوة والاذكار والافعال اكتفى من الفاتحة بما لا يشاركها فيه غيرها من السور اذ البسملة آية من كل سورة غير (براءة)على التحقيق الذي يدل عليه خط المصحف، وثم سبب آخر لعدم ذكر البسملة في القسمة وهو انه ليس فيها إلا الثناء على الله تعالى بوصفه بالرحمة وهو معنى مكرر في الفاتحة وذكر في القسمة . والعمدة في عدم المعارضة ان دلالة الحديث ظنية سلبية واثبات البسملة ايجابي وقطعي كما تقدم ، واذا كان من علل الحديث المانعة من وصفه بالصحة مخالفة راويه لغيره من

الثقات فمخالفة القطعي من القرآن المتواتر أولى بسلب وصف الصحة عنه . على أن هذا الحديث هو المعارض بالاحاديث المثبتة لكون البسملة من الفاتحة .

واستدلوا أيضاً بحديث أبي هريرة المرفوع عن أحمد وأصحاب السنن قال « ان سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي (تبارك الذي بيده الملك) » قالوا وانما هي ثلاثون بدون البسملة. وأجيب بمثل ماقلناه آنفاً من أن عدد آيات السور باعتبار ما هو خاص بالسورة وهو مادون البسملة ويؤيده ماروي عن أبي هريرة من أن سورة الكوثر ثلاث آيات وقد روى أحمد ومسلم والنسائي من حديث أنس قال : بينا رسول الله (ص) ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ماأضحكك يارسول الله؟ فقال نزلت علي آنفاسورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم * انا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * ان شانئك هو الابتر) وهذا الحديث ناطق بأن البسملة من سورة الكوثر مع عدم عدها من آياتها لما ذكرنا ، فكونها آية من الفاتحة أولى : وهوأصح من حديث أبي هريرة في سورة الملك لأن البخاري أعله بان عباسا الجشمي راويه لا يعرف سماعه من أبي هريرة

واستدلوا بالاحاديث الواردة في عدم قراءة النبي (ص) وخلفائه لها في الصلاة وأصرحها قول عبد الله بن مغفل « صليت مع رسول الله (ص) ومع أبي بكر ، ومع عمر ، ومع عثمان . فلم أسمع أحداً منهم يقولها » يعني البسملة رواه أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه عن ابن عبد الله بن مغفل وهو مجهول فقد كان له سبعة أولاد وهذه علة تمنع صحة الحديث قالوا وقد تفرد به الجريري وقيل انه قد اختلط بأخرة . وقد يفسر بما ترى فيما قالوه في الحديث الذي بعده

وفي معناه حديث أنس في احدى الروايات قال « صليت مع النبي (ص) وابي بكر ، وعمر ، وعثمان فلم أسمع احداً منهم يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) رواه أحمد ومسلم (قال في المنتقى) وفى لفظ : صليت خلف النبي (ص) وخلف أبي بكر وعمر وعثمان فكانوا لايجهرون بيسم الله الرحمن الرحيم) رواه أحمد والنسائي باسناد على شرط الصحيح . ولأحمد ومسلم : صليت خلف النبي (ص)

وأبي بكر وعمر وعثمان وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا آخرها . ولعبد الله بن أحمد في مسند أبيه عن شعبة عن قتادة عن أنس قال : صليت خلف رسول الله وخلف أبي بكر وعمر وعثمان فلم يكونوا يستفتحون القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم . قال شعبة قلت لقتادة أنت سمعته من أنس؟ قال نعم نحن سألناه عنه . وللنسائي عن منصور ابن زازان عن أنس قال : صلى بنا رسول الله (ص) فلم يسمعنا قراءة بسم الله الرحمن الرحيم وصلى بنا أبو بكر وعمر فلم نسمعها منهما اه

قال الشوكاني في شرح الحديث : ورواية «فكانوا لا يجهرون » أخرجها أيضاً ابن حبان والدار قطني ، والطحاوي والطبراني ، وفي لفظ لابن خزيمة «كانوا يسرون » ـ وقوله كانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ـ هذا متفق عليه . وانما انفرد مسلم بزيادة : لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم . وقد أعل هذا اللفظ بالاضطراب وفسر بان جماعة من أصحاب شعبة رووه عنه به وجماعة رووه عنه بلفظ : فلم أسمع أحداً منهم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم . ثم نقل عن الحافظ أن بعضهم رواه باللفظين ومن خرج كل رواية

أقول وقد جمعوا بين الروايات بأن المراد بالاستفتاح بالحمد لله الاستفتاح بهذه السورة فقد صح التعبير عنها في حديث آخر بجملة الحمد لله .. وبأن عدم سماعها سببه عدم الجهر بها وقد يكون له سبب آخر وهو البعد عن أول الصف ومن العادة أن يكون صوت القاريء خافتا في أول القراءة وسبب ثالث وهو اشتغال المأموم عن السماع بالتحرم ودعاء الافتتاح

وقد عورض وأعلّ حديث أنس على اضطراب متنه بما يأتي عنه من مخالفته له في صفة قراءة النبي (ص) وبما رواه الدارقطني وصححه عن أبي سلمة قال سألت أنس بن مالك : أكان رسول الله (ص) يستفتح بالحمد لله رب العالمين ، أو ببسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال انك سألتني عن شيء ما أحفظه وما سألني عنه أحد قبلك . فقلت : أكان رسول الله (ص) يصلي في النعلين ؟ قال نعم . قالوا وعروض النسيان في مثل هذا غير مستنكر فقد حكى الحازمي عن نفسه انه حضر جامعاً

وحضره جماعة من أهل التميز المواظبين في ذلك الجامع فسألهم عن حال امامهم في الجهر والاخفات — قال وكان صيتاً يملأ صوته الجامع — فاختلفوا في ذلك فقال بعضهم يجهر ، وقال بعضهم يخفت اه

أقول ولم يختلف هؤلاء المصلون في صلاة واحدة ، بل في جميع الصلوات ، وسبب ذلك الغفلة والناس عرضة لها ولا سيما الغفلة عن أول صلاة الامام إذ يكون المأمومون مشغولين بمثل ما يشغله من الدخول فيها وقراءة دعاء الافتتاح كما تقدم آنفاً

وأما أحاديث اثبات كون البسملة من الفاتحة فمنها مارواه البخاري عن قتادة قال : سئل أنس كيف كانت قراءة النبي (ص) فقال كانت مدّاً ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ويمدُّ بالرحمن ويمدّ بالرحيم . وروى عنه الدارقطني من طريقين أن النبي (ص) كان يجهر بالبسملة

ومنها حديث أم سلمة أم المؤمنين (رض) أنها سئلت عن قراءة رسول الله (ص) فقالت : كان يقطع قراءته آية آية : بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * رواه احمد وأبو داود بهذا اللفظ وغيرهما

ومنها مارواه النسائي وغيره عن نعيم المجمر قال : صليت وراء أبي هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم قرأ بأم القرآن — وفيه يقول اذا سلم : والذي نفسي بيده إني لاشبهكم صلاة برسول الله (ص) وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال على شرط البخاري ومسلم وأقره الحافظ الذهبي وقال البيهقي صحيح الاسناد وله شواهد ، وقال ابو بكر الخطيب فيه : ثابت صحيح لا يتوجه عليه تعليل ، وروي عن ابي هريرة حديثان آخران بمعناه وثق بعضهم جميع رجالهما وتكلم بعضهم في بعضهم .

ومنها حديث علي كرم الله وجهه سئل عن السبع المثاني فقال (الحمد لله رب العالمين) قيل انما هي ست فقال (بسم الله الرحمن الرحيم) رواه الدارقطني واسناده كلهم ثقات لم يطعنوا في أحد منهم . وله حديثان آخران عنه وعن عمار ابن ياسر في اثبات جهر النبي (ص) بالبسملة في صلاته قد تكلموا في سندهما

ومنها حديث أنس سمعت رسول الله (ص) يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم رواه الحاكم وقال : ورواته عن آخرهم ثقات ، وأقره الحافظ الذهبي

وقد أورد الشوكاني في نيل الاوطار هذه الاحاديث الصحيحة وغيرها من الروايات الضعيفة الاسانيد الصحيحة المتون ، وذكر حمل الروايات الصحيحة من أحاديث النفي المعارضة لها على عدم الجهر بالبسملة من باب حمل المطلق على المقيد وهو ترك الجهر ثم قال :

« واذا كان محصل أحاديث نفي البسملة هو نفي الجهر بها ، فمتى وجدت رواية فيها اثبات الجهر قدمت على نفيه . قال الحافظ (ابن حجر) لا بمجرد تقديم رواية المثبت على النافي (أي كما هي القاعدة) لأن أنساً يبعد جداً أن يصحب النبي (ص) مدة عشر سنين ويصحب أبا بكر وعمر وعثمان خمساً وعشرين سنة فلا يسمع منهم الجهر بها في صلاة واحدة ، بل لكون أنس اعترف بأنه لا يحفظ هذا الحكم كأنه لبعد عهده به لم يذكر منه إلا الجزم بالافتتاح بالحمد لله جهراً فلم يستحضر الجهر بالبسملة فيتعين الأخذ بحديث من أثبت الجهر اه . أقول وقد تقدم نص الرواية عنه بنسيان هذا الحكم آنفاً فعد حديثه مضطربا لا يحتج به قال الحافظ ابن عبد البر بعد سرده روايات حديثه في الاستذكار هذا الاضطراب لا تقوم معه حجة .... وقد سئل عن ذلك أنس فقال : كبرت سني ونسيت . اه

وقد روى الطبراني في الكبير والاوسط في سبب ترك النبي (ص) للجهر بالبسملة في الصلاة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس انه (ص) كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، وكان المشركون يهزؤن بمكاء وتصدية ويقولون محمد يذكر إله اليمامة — وكان مسيلمة الكذاب يسمى رحمن — فأنزل الله (ولا تجهر بصلاتك) فتسمع المشركين فيهزؤا بك (ولا تخافت بهـا) عن أصحابك فلا تسمعهم . وقد قال في مجمع الزوائد إن رجاله موثقون . وقال الحكيم الترمذي : فبقي ذلك إلى يومنا هـذا على ذكر الرسم وإن زالت العلة ، وجمع به القرطبي بين الروايات

وقال ابن القيم فى زاد المعاد إن النبي (ص) كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم تارة ويخفيها أكثر مما جهر بها الخ وهذا القول معقول ، واذا صح أن سببه مارواه الطبراني واعتمده القرطبي والنيسابوري والحكيم الترمذى يكون ترك الجهر في أول الاسلام بمكة وأوائل الهجرة والجهر فيما بعده ، وقد علمت ما فى حديثي أنس وأبي قتادة المخالفين لهذا

ولا يغرّن أحداً قول العلماء ان منكر كون البسملة من الفاتحة أو من كل سورة لايكفر ومثبتها لا يكفر فيظن ان سبب هذا عدم ثبوتها بالدليل القطعي ، كلا انها ثابتة ولكن منكرها لا يكفر لتأوله الدليل القطعي بشبهة المعارضة التى تقدمت وبينا ضعفها وسنزيده بيانا والشبهة تدرأ حد الردة

وجملة القول أن اختلاف الروايات الآحادية فى الاسرار بالبسملة والجهر بها قوي ، وأما الاختلاف فى كونها من الفاتحة أو ليست منها فضعيف جداً جداً وان قال به بعض كبار العلماء ذهولا عن رسم المصحف الامام القطعي المتواتر والقراءات المتواترة التي لا يصح أن تعارض بروايات آحادية ، أو بنظريات جدلية. وأصحاب الجدل يجمعون بين الغث والسمين وبين الضدين والنقيضين ، وصاحب الحق منهم يشتبه بغيره ، وربما يظهر عليه المبطل بخلابته ، اذا كان ألحن بحجنه

وقد ذكر الرازي في تفسيره سبع عشرة حجة على اثبات كون البسملة من الفاتحة منها القوية والضعيفة وتصدى له الآلوسي محاولا دحضها تعصباً لمذهبه الذي تنحله في الكبر إذ كان شافعياً فتحول حنفياً تقربا إلى الدولة وصرح بهذا التعصب إذ قال هنا «على المرء نصرة مذهبه والذّب عنه » الخ وهذه كبرى زلاته ، المثبتة لعدم استقلاله بعدم طلبه الحق لذاته . حتى إنه مارى في حجة اثبات البسملة في أولها بخط المصحف المتواتر فجعلها دليلا على كونها من القرآن دون كونها من الفاتحة ، وهو من تمحل الجدل فلا معنى لكونها آية مستقلة في القرآن ألحقت بسوره كلها إلا واحدة، وليست في شيء منها ولا في فاتحته التي اقتدوا بها في بدء كتبهم كلها ، انه لقول واه تبطله عباداتهم وسيرتهم ، وينبذه ذوقهم ، لولا فتنة الروايات والتقليد فتعارض الروايات اغتر به أفراد مستقلون ، وبالتقليد فتن كثيرون ، ولله في خلقه شؤون .

على أن الآلوسي حكم وجدانه واستفتى قلبه في بعض فروع المسألة ، فأفتاه بوجوب قراءة الفاتحة والبسملة في الصلاة ، وخانه في كونها آية منها ، وأورد في حاشية تفسيره على ذلك اشكالا استكبره جد الاستكبار وما هو بكبير ، فنحن نذكر عبارتيه ، ونقفي عليهما بالرد عليه ، قال في تفسيره روح المعاني :

« وبالجملة يكاد أن يكون اعتقاد كون البسملة جزءاً من سورة [(١)] من الفطريات (!!) كما لايخفى على من سلم له وجدانه (!!) فهي آية من القرآن مستقلة ولا ينبغي لمن وقف على الاحاديث أن يتوقف في قرآنيتها ، أو ينكر وجوب قراءتها ويقول بسنيتها ، فوالله لو ملئت لي الارض ذهباً لاأذهب إلى هذا القول وإن أمكنني بفضل الله توجيهه (!!) كيف وكتب الاحاديث ملأى بما يدل على خلافه . وهو الذي صح عندي عن الامام (يعني امامه الحديد أبا حنيفة رحمه الله تعالى) والقول بأنه لم ينص بشيء ليس بشيء ، وكيف لاينص إلى آخر عمره في مثل هذا الامر الخطير الدائر عليه أمر الصلاة من صحتها أو استكمالها ، ويمكن أن يناط به بعض الاحكام الشرعية وأمور الديانات كالطلاق والحلف والعتق ، وهو الامام الاعظم ، والمجتهد الاقدم ، رضي الله عنه » ؟

وكتب في حاشيته عند قوله : فهي آية من القرآن مستقلة مانصه :

استشكل بعضهم الاثبات والنفي ، فان القرآن لايثبت بالظن ولا ينفى به ، وهو اشكال كالجبل العظيم (؟) وأجيب عنه أن حكم البسملة في ذلك حكم الحروف المختلف فيها بين القراء السبعة قطعية الاثبات والنفي معاً (!!) ولهذا قرأ بعضهم باثباتها وبعضهم باسقاطها ، وإن اجتمعت المصاحف على الاثبات ، فان من القراءات ماجاء على خلاف خطها كالصراط ومسيطر فانهما قرئا بالسين ولم يكتبا إلا بالصاد (وما هو على الغيب بضنين) تقرأ بالظاء ولم تكتب إلا بالضاد ففي

(١) كذا في الاصل المطبوع فى المطبعة الاميرية عن نسخته الخطية وهو تعبير ركيك كما ترى والجزء يصدق ببعض الآية كالذي في سورة النمل وهو لاخلاف فيه ولامعنى لجعله من قبيل الفطريات وانما الذى يقرب منها كونها آية من كل سورة الا براءة وأقوى منه كونها آية من الفاتحة .

البسملة التخيير . وتتحتم قراءتها في الفاتحة عند الشافعي احتياطاً (!!) وخروجا من عهدة الصلاة الواجبة بيقين لتوقف صحتها على ماسماه الشرع فاتحة الكتاب ، فافهم والله أعلم بالصواب» اه

أقول نعم ان الله أعلم بالصواب ، وقد وفق لعلمه أولي الالباب ، وهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب) دون الذين يستمعون القول فيتبعون منه ماوافق رواية فلان ورأي فلان ، ويوجبون على أنفسهم نصره ولو بتأويل مامضت به السنة العملية وثبت بنص القرآن ، ولولا عصبية المذاهب عند المقلدين ، والغرور بظواهر بعض الروايات عند الأثريين ، لما اختلف احد من الفريقين في هذه المسألة ونحمد الله تعالى أن اختلافهم فيها قولي جدلي لاعملي

سبحان الله ! ما أعجب صنع الله في عقول البشر ! أيقول السيد محمود الآلوسي العالم الذكي النزاع إلى استقلال الفكر في كثير من مسائل التفسير ، بالرغم من رضائه بمهانة جهالة التقليد : إن استشكال الجمع بين الاثبات والنفي القطعيين في مسألة البسملة « اشكال كالجبل العظيم » ؟ ثم يرضى بالجواب عنه بما يقرر به الجمع بين الاثبات والنفي القطعيين

سبحان الله ! ان الجمع بين النفي والاثبات هو التناقض الحقيقي الذي يعز ايراد مثال للمحال العقلي مثله، فكيف يصدر القول به عن عالم أو عن عاقل ؟

ان الاشكال الذي نظر اليه المفسر بعيني التقليد العمياوين فرآه كالجبل العظيم هو في نفسه صغير حقير ضئيل قميء خفي كالذرة من الهباء ، أو كالجزء لا يتجزأ من حيث كونه لايرى ولا يثبت إلا بطريقة الفرض ، أو كالعدم المحض

والجواب الحق انه لم ينف أحد من القراء كون البسملة من الفاتحة نفياً حقيقياً برواية متواترة عن المعصوم (ص) تصرح بأنها ليست من الفاتحة ـ كما يقول بعض الناس بشبهة عدم رواية بعض القراء لها ، وشبهة تعارض الروايات الآحادية التي ذكرنا أقواها والمخرج منها ـ أو ليست إلا جزء آية من سورة النمل كما زعم من لاشبهة لهم على النفي تستحق أن يجاب عنها

وانما أثبت بعض القراء بالروايات المتواترة أن البسملة آية من الفاتحة وبعضهم لم يرو ذلك بأسانيده المتواترة، وعدم نقل الاثبات للشيء ليس نفياً لذلك الشيء، لارواية ولادراية. وأعم من هذا ماقاله العلماء من أن بين عدم إثبات الشيء و بين إثبات عدمه بونا بعيداً كما هو معلوم بالضرورة . ولو فرضنا أن بعضهم روى التصريح بالنفي لجزمنا بأن روايته باطلة سببها أن بعض رجال سندها اشتبه عليه عدم الاثبات باثبات النفي إذ يستحيل عقلا أن يكون الامران المتناقضان قطعيين معاً ، ورواية الاثبات لا يمكن الطعن فيها ، وناهيك وقد عززت بخط المصحف الذي هو بتواتره خطاً وتلقينا أقوى من جميع الروايات القولية وأعصى على التأويل والاحتمال ، وأما القول بأنها آية مستقلة بين كل سورتين للفصل بينهما ماعدا الفصل بين سورتي الانفال وبراءة ، فما هو إلا رأي للجمع بين الروايات الآحادية الظنية المتعارضة ، ويمكن الجمع بغيره مما لا اشكال فيه ، إذ لو كانت البسملة للفصل بين السور لم توضع في أول الفاتحة ولم تحذف من أول براءة للعلة التي ذكرناها عنهم في هذا البحث فهي لا تتحقق إلا اذا كانت البسملة من السورة ، وزد على ذلك ماأوردناه من المعاني والحكم في بدء القرآن بها ، وماصح مرفوعاً من كونها هي السبع المثاني ،

وأما الجواب الذي نقله الآلوسي وارتضاه فلا يستغرب صدوره ولا اقراره ممن يثبت الجمع بين النقيضين المنطقيين ويفتخر بأنه يمكنه توجيه مايعتقد بطلانه . على أنه جواب عن اشكال غير وارد وبعبارة أخرى ليس جوابا عن اشكال إذ لا إشكال . والخلاف بين القراء في مثل السراط والصراط ومسيطر ومصيطر ، وضنين ، وظنين ، ليس خلافا بين النفي والاثبات كمسألة البسملة بل هي قراءات ثابتة بالتواتر ، فأما ضنين وظنين فهما قراءتان متواترتان - كمالك وملك في الفاتحة - كتبت قراءة الضاد في مصحف أبيّ وهو الذي وزع في الامصار وقرأ بها الجمهور ، وقراءة الظاء في مصحف عبدالله بن مسعود وقرأبها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي . ولكل منهما معنى وليستا من قبيل تسهيل القراءة لقرب المخرج كما سيأتي في بيان الفرق بين مخرجي الحرفين قريبا ، وأما السراط والصراط ومسيطر ومصيطر فلا فرق بينهما الا تفخيم السين وترقيقه وبكل منهما نطق بعض العرب وثبت به النص فهو من قبيل ما

صح من تحقيق الهمزة وتسهيلها ، ومن الامالة وعدمها ، فلا تنافي بين هذه القرآت فنعد اثبات احداها نفياً لمقابلتها كما هو بديهي . على ان خط المصحف أقوى الحجج فلو فرضنا تعارض هذه القراءات لكان هو المرجح ، ولكن لا تعارض ولله الحمد

نكتفي بهذا رداً لما في كلام الآلوسي وأمثاله من الخطأ فان غيره لا يعنينا في موضوعنا ولا سيما ما رجحه عن امامه وخالف فيه غيره ، وعلله باطلاقهم عليه لقب الامام الاعظم ، وزيادته هو عليهم لقب المجتهد الاقدم ، مع علمه بأن علماء الصحابة والتابعين أقدم منه اجتهادا ، وان هذه الالقاب وان صح معناها لا تقتضي عدم الخطأ ولا عدم النسيان ولا اهمال بعض المسائل المهمة . ونحن يسرنا أن يصح ما ذكره ، وأن يخطيء من أنكره ، فان من المصائب أن يوجد فى المسلمين عالم ينكر ما ثبت في خط المصحف المتواتر كتابة ورواية . وقد نقل الرازي ان أبا حنيفة ليس له نص فى المسألة «وإنما قال : يقرأ البسملة ويسر بها ، ولم يقل انها آية من أول السورة أم لا . (قال الرازي) وسئل محمد بن الحسن عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال : ما بين الدفتين كلام الله . قال (أي السائل له) فلمَ تسرّه ؟ قال فلم يجبني . وقال الكرخي :لا أعرف هذه المسألة بعينها لمتقدمي أصحابنا الا أن أمرهم باخفائها يدل على انها ليست من السورة . وقال بعض فقهاء الحنفية : تورع أبو حنيفة وأصحابه عن الوقوع في هذه المسألة لان الخوض في ان التسمية من القرآن أو ليست منه أمر عظيم ، فالاولى السكوت عنه اه

أقول : من الخطإ البين الاستدلال بأمر بعض الفقهاء باخفاء البسملة على كونها ليست من القرآن مع الاجماع على أن ما بين دفتي المصحف قرآن منزل من الله . على ان الروايات الصحيحة فى الاحاديث فيها الجهر بالبسملة والاسرار وروايات الجهر أقوى وأبعد عن التعليل والتأويل

وصفوة القول ان دلالة المصحف أقوى الدلالات ، ترجح على كل ما عارضها من الروايات ، ودلالتها قطعية ، تؤيدها الروايات المتواترة في إثباتها ، والاجماع العملي على قراءتها ، ولا ينافيها عدم رواية بعضهم لها . فالمسألة قطعية فى نفسها ، وانما جعلوها اجتهادية باختلاف الروايات الآحادية في قراءتها ، وقد علمت ما فيها والله الموفق للصواب

﴿ فضل الفاتحة وكونها هي السبع المثاني ﴾

قال الله تعالى في سورة الحجر مخاطباً لخاتم النبيين والمرسلين (١٥ :٧٥ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) وقد ثبت في الحديث الصحيح والآثار الصحيحة عن الصحابة والتابعين ان السبع المثاني هي سورة الفاتحة ، ومعنى كونها مثاني أنها تثنى وتعاد في كل ركعة من الصلاة لفرضيتها فيها كما تقدم ، وقيل معناه أنها يثنى فيها على الله تعالى بما أمر وقيل غير ذلك

فأما الحديث المرفوع في تفضيلها وكونها هي المرادة بالسبع المثاني فهو مارواه البخاري في مواضع من صحيحه وأصحاب السنن عن أبي سعيد بن المعلّى وروى نحوه مالك والترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة . ذكر أبو سعيد بن المعلى ان النبي (ص) قال له وهما في المسجد « لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد - وفي رواية قبل أن أخرج - (قال) ثم اخذ بيدي فلما أراد ان يخرج قلت له : ألم تقل « لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ » فقال « الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » وفي حديث أبي هريرة انه (ص) قال لأُبيّ بن كعب « أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الفرقان مثلها ؟ قال أبي ثم أخذ بيدي يحدثني وأنا أتبطأ مخافة ان يبلغ الباب قبل أن ينقضي الحديث ولما سأله عن السورة قال « كيف تقرأ في الصلاة ؟» فقرأت عليه أم الكتاب فقال « انها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » وفيه ازالة إشكال في حديث أبي سعيد بن المعلى وهو أن ظاهره يوهم انه لم يكن يعرف الفاتحة مع انه كان يصلي في ذلك اليوم وقبله فهو من الانصار - وقد علم من حديث أبي هريرة ان المراد بتعليمه هذه السورة تعليمه مافيها من الفضيلة على غيرها وكونها هي المرادة بآية سورة الحجر . وأما عطف القرآن على سبعاً من المثاني فهو من عطف الكل على الجزء أو العام على الخاص ، وقيل في توجيهه غير ذلك .

وقد تعلق برواية « الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني » من قالوا إن البسملة ليست من الفاتحة وعكس الآخرون قائلين إن المراد بالجملة الاولى لفظها على أنه اسم

السورة وإلا لما صح قوله هي السبع المثانى لانها آية واحدة وانما السبع المثاني هي آيات الفاتحة السبع وهي ليست سبعا الا بعد البسملة آية منها ، فكونها منها ثابت بالقرآن أي بآية سورة الحجر كما فسرها أعلم الناس به وهو الرسول الذي أنزله الله عليه ، و كبار أصحابه والتابعين والحديث يدل على تسميتها بالحمد لله رب العالمين ، اذ لا يصح معناه الا بذلك

وأما الآثار فقد فصلها السيوطي في الدر المنثور وأجملها الحافظ في الفتح مع بيان درجة أسانيدها بقوله : وقد روى الطبري باسنادين جيدين عن عمر ثم عن علي قال : السبع المثاني فاتحة الكتاب ـ زاد عن عمر تثني في كل ركعة، وباسناد منقطع عن ابن مسعود مثله ، وباسناد حسن عن ابن عباس أنه قرأ الفاتحة ثم قال (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) قال هي فاتحة الكتاب، وبسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة ـ ومن طريق جماعة من التابعين : السبع المثاني فاتحة الكتاب . ومن طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال السبع المثاني فاتحة الكتاب . قلت للربيع إنهم يقولون : انها السبع الطول (جمع طولى مؤنث أطول) قال لقد أنزلت هذه الآية ومانزل من الطول شيء . اه

يقول محمد رشيد : يعني أن سورة الحجر التي فيها هذه الآية قد نزلت بمكة قبل السور السبع الطول وهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة —المدنيات— والانعام والاعراف ويونس المكيات ، كذا قال بعضهم في السابعة إنها سورة يونس ، وقال آخرون هي الأنفال وبراءة — وعدهما سورة واحدة — وقال بعضهم إن الراوي نسي السابعة عن ابن عباس

والقول بأنها السبع الطول ، رواه النسائي والطبري والحاكم عن ابن عباس باسناد قوي كما قال الحافظ. ولا حاجة الى التفصيل فيه فانه مردود لمخالفته للحديث الصحيح المرفوع ، ولاقول لأحد مع قول الرسول (ص) ومنه يعلم أن قوة الاسناد لاقيمة لها تجاه الدليل القوي على بطلان متن الرواية

﴿ استدراك على تفسير المغضوب عليهم والضالين ﴾

ورد في الحديث المرفوع تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى، رواه احمد والترمذي وحسنه وابن حبان وصححه وغيرهم، ونقلنا عن شيخنا الاستاذ الامام (ص ٦٦) عزوه إلى بعضهم أي بعض المفسرين ، وهو يريد أن بعض المفسرين اختار أن هذا هو المعنى المراد ، وهو لم يكن يجهل أن هذا روي مرفوعا ولكنه كان يعلم مع هذا أن أكثر المفسرين فسروا اللفظين بما يدلان عليه لغة حتى بعض أهل الحديث منهم وكأنهم لم يروا أن الحديث صحيح، فقد قال البغوي الملقب بمحيي السنة في تفسيره (معالم التنزيل) بعد تفسيرهما بمدلولهما اللغوي : وقيل المغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى ، لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب فقال (من لعنه الله وغضب عليه) وحكم على النصارى بالضلال فقال (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) وقال سهل بن عبدالله : غير المغضوب عليهم بالبدعة ، ولا الضالين عن السنة . اه فعبر عن هذا القول بقيل الدال على ضعفه عنده ولم يستدل عليه بالحديث

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت ارادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون فى الضلالة لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى اه

وبعد كلام طويل في اعراب « غير » و« لا » قال : انما جيء بلا لتأكيد النفي لئلا يتوهم أنه معطوف على (الذين أنعمت عليهم) وللفرق بين الطريقتين ليجتنب كل واحدة منهما ، فان طريقة أهل الايمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم [1] ، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى — واستشهد بالآيتين اللتين استشهد بهما البغوي ، ثم ذكر

(١) يعني علم الدين وأساسه التوحيد

الحديث ورواياته وهو عند احمد والترمذى وكذا ابن حبان من طريق سماك بن حرب عن عدي بن حاتم قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه . وسماك ضعفه جماعة ووثقه آخرون ، واتفقوا على أنه تغير في آخر عمره بل خرف ، فما رواه في هذه الحال فلا جدال في رده بالاتفاق ، وأخرجه ابن مردويه عن أبي ذر أيضا بسند قال الحافظ في الفتح انه حسن. وقال ابن أبي حاتم انه لا يعرف في تفسيرهما بما ذكر خلافا يعني في المأثور . ومع هذا نقول ان ما ذكره المحققون من الوجوه الاخرى لا يعد مخالفة للمأثور الذي هو من قبيل تفسير العام ببعض أفراده من قبيل التمثيل لا التخصيص ولا الحصر بالاولى

﴿ التأمين بعد الفاتحة ﴾

عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال « اذا أمَّن الامام فأمنوا فان من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه » وقال ابن شهاب كان رسول الله (ص) يقول « آمين » رواه الجماعة إلا أن الترمذي لم يذكر قول ابن شهاب. وفي رواية « اذا قال الامام (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا امين ، فان الملائكة تقول آمين، وان الامام يقول آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه » رواه احمد والنسائي . وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله (ص) اذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الاول . رواه أبو داود وابن ماجه وقال حتى يسمعها أهل الصف الاول فيرتج بها المسجد . وعن وائل بن حجر قال سمعت رسول الله (ص) قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقال « آمين » يمد بها صوته . رواه احمد وأبو داود والترمذي اه منتقى الاخبار

وهذه الاحاديث كلها صحيحة وأخرجها غير من ذكر وزاد أبو داود في الاخير منها ورفع بها صوته . قال الحافظ ابن حجر وسنده صحيح ، وخطأ ابن القطان في اعلاله اياه بجهالة حجر بن عنبس وقال انه ثقة معروف قيل ان له صحبة وهنالك أحاديث اخرى في المسألة تبلغ مع هذه سبعة عشر حديثا وهذه أصحها

قال الشوكاني في نيل الأوطار عند شرح حديث أبي هريرة الأول: والحديث يدل على مشروعية التأمين قال الحافظ : وهذا الامر عند الجمهور للندب ، وحكى ابن بزيزة عن بعض أهل العلم وجوبه عملا بظاهر الأمر ، وأوجبته الظاهرية على كل من يصلي ، والظاهر من الحديث وجوبه على المأموم فقط لكن لا مطلقا بل مقيداً بأن يؤمّن الامام ، وأما الامام والمنفرد فمندوب فقط

(قال) وحكى المهدي في البحر عن العترة جميعاً ان التأمين بدعة ـ وقد عرفت ثبوته عن علي عليه السلام من فعله وروايته عن النبي (ص) في كتب أهل البيت وغيرهم ـ على أنه قد حكى السيد العلامة الامام محمد بن ابراهيم الوزير عن الامام المهدي محمد بن المطهر وهو أحد أئمتهم المشاهير انه قال في كتابه (الرياض الندية) إن رواة التأمين جم غفير — قال — وهو مذهب زيد بن علي وأحمد ابن عيسى اه وقد استدل صاحب البحر على ان التأمين بدعة بحديث معاوية ابن الحكم السلمي « إن هذه صلاتنا لا يصلح فيها شيء من كلام الناس » ولا يشك ان أحاديث التأمين خاصة وهذا عام ، وإن كانت أحاديثه الواردة عن جمع من الصحابة لا يقوى بعضها على تخصيص حديث واحد من الصحابة ـ مع انها مندرجة تحت تلك العمومات القاضية بمشروعية مطلق الدعاء في الصلاة لأن التأمين دعاء ، فليس في الصلاة تشهد ، وقد أثبتته العترة فما هو جوابهم في إثباته فهو الجواب في اثبات ذلك . على ان المراد بكلام الناس في الحديث هو تكليمهم لانه اسم مصدر كلم لا تكلم ويدل على ذلك السبب المذكور في الحديث اه

والمراد بقوله السبب المذكور في الحديث هو أن معاوية بن الحكم السلمي شمت عاطسا في الصلاة مع النبي (ص) فرماه القوم بأبصارهم فقال : واثكل أماه مالكم تنظرون إليّ ؟ الخ وجملة القول ان التأمين في الصلاة مشروع بنص الاحاديث الصحيحة الصريحة فلا وجه لمنعه بعموم أحاديث أخرى لا تنافيها ، ولو عارضتها لوجب ترجيحها عليها

واختلف في موضعه بالنسبة الى المأموم هل هو بعد قول الامام (ولا الضالين) أم عند قوله آمين . وهذا مبني على ان بين الحديثين في ذلك تعارضاً وهو غفلة

عن كون الامام انما يؤمن بعد قوله (ولا الضالين)كما صرح به فى رواية أحمد والنسائي لحديث أبي هريرة فمعنى الحديثين متفق ، وقوله (ص) « اذا أمّن الامام فأمنوا » مبني على ان من شأن الامام أن يؤمن عقب اتمام الفاتحة اتباعاً للسنة فلا مفهوم للشرط فيه .

﴿ فائدة في مخرجي الضاد والظاء وحكم تحريف الاول ﴾

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الاخلال بتحرير مابين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما وذلك ان الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الاضراس ، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، ولأن كلاً من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك، والله أعلم . وأما حديث: أنا أفصح من نطق بالضاد ــ فلا أصل له اه

وأقول ان أكثر أهل الامصار العربية قد أرادوا الفرار من جعل الضاد ظاء كما يفعل الترك وغيرهم من الأعاجم فجعلوها أقرب الى الظاء منها الى الضاد حتى القراء المجوّدون منهم . إلا أهل العراق وأهل تونس فهم على ما نعلم أفصح أهل الامصار نطقا بالضاد ، وانا نجد اعراب الشام وما حولها ينطقون بالضاد فيحسبها السامع ظاء لشدة قربها منها وشبهها بها، وهذا هو المحفوظ عن فصحاء العرب الأولين حتى اشتبه نقلة العربية عنهم في مفردات كثيرة قالوا أنها سمعت بالحرفين وجمعها بعضهم في مصنف مستقل ، والأشبه انه قد اشتبه عليهم أداؤها منهم فلم يفرقوا والفرق ظاهر ولكنه غير بعيد

وقد قرىء قوله تعالي في سورة التكوير (وما هو على الغيب بضنين) بكل من الضاد والظاء . والضنين البخيل . والظنين المتهم ، وفائدتهما نفي كل من البخل والتهمة . والمعني ماهو ببخيل في تبليغه فيكتم، ولا بمتهم فيكذب. قال في الكشاف : وهو في مصحف عبد الله بالظاء ، وفي مصحف أبيّ بالضاد ، وكان رسول الله (ص) يقرأ بهما . واتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب ، ومعرفة مخرجيهما مما لا بد

منه للقارىء ، فان أكثر العجم لايفرقون بين الحرفين ، وان فرقوا ففرقا غير صواب . وبينهما بون بعيد ، فان مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الاضراس من يمين اللسان ويساره ، وكان عمر بن الخطاب (رض) أضبط يعمل بكلتا يديه ، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه ، وهي احد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين . وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ، وهي أحد الاحرف الذولقية ، أخت الذال والثاء . ولو استوى الحرفان ، لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان ، واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب اه

وأقول صدق أبو القاسم الزمخشري في تحقيقه هذا كله الا قوله ان البون بين الحرفين بعيد ، فالفرق ثابت ولكنه قريب ، وهو يحصل باخراج طرف اللسان بالظاء من بين الثنايا كأختيه الثاء والذال ولا شركة بينه وبينهما الا في هذا

﴿ التوسع في الاستنباط من معنى الفاتحة ﴾

ان ما أوردناه أولا في تفسير الفاتحة من تلحيص لما فهمناه من دروس شيخنا ومما قرأناه في الكتب ، ثم مازدناه عليه في أصله وفي هذه الفوائد الزوائد فالغرض منه التفقه في معاني القرآن والاهتداء به . وقد اقتصدنا فيه فاقتصرنا على مالا يشغل القارىء عن المقصد . وقد أطال الفخر الرازي في استطرادات عديدة ، ومسائل مستنبطة من لوازم للمعاني قريبة أو بعيدة ، ولكنها تشغل مريد الاهتداء بالقرآن ، وأطال ابن القيم في أول كتابه (مدارج السالكين) القول في استنباط المسائل منها من طرق الدلالات الثلاث : المطابقة والتضمن والالتزام . وأخذ في الثالثة باللزوم البين بالمعنى الأعم وبالمعنى الأخص وباللزوم غير البين أيضاً : بل سمى كتابه : مدارج السالكين ، بين منازل (اياك نعبد واياك نستعين) وأجمل ذلك بقوله في خطبة الكتاب انه ينبه « على بعض ماتضمنته هذه السورة من هذه المطالب ، وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال ، وما تضمنته من منازل السائرين ، ومقامات العارفين ، والفرق بين وسائلها وغاياتها ، ومواهبها

وكسبياتها ، وبيان انه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ولا يسد مسدّها ، ولذلك لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها » اهـ

ومما ذكره في تفصيل ذلك فصول في الرد على أهل الوحدة والمجوس والقدرية والجهمية والجبرية ومنكري النبوات والقائلين بقدم العالم

والفرق بين هذه المستنبطات ومستنبطات الرازي أن أكثر تلك في المصطلحات العربية والعقلية والكلامية والفقهية ، و أكثر هذه في المقاصد الروحية التعبدية لتلك المصطلحات والعلوم ، فهي تزيد قارئها ديناً وإيمانا وتقوى ، ولكن لا يصح أن يسمى شيء منهما تفسير الفاتحة ، ولو كنا نعده تفسيراً لاقتبسناه أو لخصناه في هذه الفوائد

وللصوفية منازع فيها أبعد عن اللغة والنقل والعقل من كل ذلك ، جرّأت مثل الدجال ميرزا غلام أحمد القادياني الذي ادعى النبوة والوحي في هذا العصر وزعم انه المسيح الذي ينتظره أهل الملل في آخر الزمان ، جرأته على إدعاء دلالة البسملة على دعواه الباطلة ! ! (وقد فندنا شبهة أمثال هؤلاء فى تفسير قوله تعالى (٦ : ٣٨ ما فرطنا فى الكتاب من شيء)

وقد ذهب بعض المعاصرين مذهباً أبعد من هذا وذاك في تفسير الفاتحة وغيرها من القرآن ، فهو يرى أن تفسير لفظ العالمين (مثلا) يقتضي بيان كل ما وصل اليه علم البشر من مدلول هـذا اللفظ ، وان تفسير لفظي الرحمن والرحيم يقتضي بيان كل مايعرف من نعم الله واحسانه بخلقه والى خلقه من كل وجـه ، فاتباع هذا المذهب في تفسير الفاتحه أو آية أو كلمة منها لا يكمل إلا بكتابة ألوف من المجلدات يدوّن فيها كل ماوصل اليه علم جميع علماء الارض في أعيان العالم وصفاتها وأحوالها من أدنى الحشرات الى أرقى البشر من حكماء الصديقين ، والانبيـاء المرسلين ، وان عد مثل هذا من التفسير إضلال عن القرآن ، وانما يحسن في التفسير تذكير المؤمن بأن لا يغفل عن ذكر الله والتفكر في آياته ورحمتـه ونعمه في كل نوع من مخلوقاته ، عند النظر فيها ، والتفكر في آيات الله الدالة عليها

ونزع بعض الدجالين والمحرفين منزعا آخر سبقهم اليه اليهود وهو استنباط المعاني من أعداد حروف الهجاء بحساب الجمّل ، قال بعضهم ان القرآن يدل على

ان قيام الساعة سيكون في سنة١٤٠٧ للهجرة وهو عدد حروف بغتة من قوله تعالى « لاتأتيكم الا بغتة » ولهؤلاء في الحروف المقطعة في أوائل السور وفي أعدادها ضلالات لانضيع الوقت بكتابتها ، فلدلالة الألفاظ على المعاني طرق في اللغة لاتخرج عنها ، وليس هذا منها

﴿ ماينبغي تدبره واستحضاره من معاني الفاتحة وغيرها في الصلاة ﴾

إذا قمت أيها المسلم إلى الصلاة فوجه كل قلبك فيها إلى استحضار كل مايتحرك به لسانك من ذكر وتلاوة .

فاذا قلت « الله أكبر » فحسبك أن تذكر في قلبك أن الله تعالى أعظم من كل عظيم وأكبر من كل شيء فلا يصح أن يشغلك عن الصلاة له أو فيها شيء دونه ، وكل شيء دونه .

وإذا قرأت ماورد في ذكر الافتتاح فلا تشغل نفسك بغير معناه وهو ظاهر ، واذا استعذت بالله تعالى قبل القراءة عملا بعموم قوله تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) فتصور من معنى صيغة الاستعاذة أنك تلجأ الى الله تعالى وتعتصم به من وسوسة الشيطان الشاغلة عن الصلاة وما يجب فيها من التدبر لكتابه والخشوع والاخلاص له تعالى .

وإذا قرأت البسملة فاستحضر من معناها : أنني أصلي (باسم الله) ولله الذي شرع الصلاة وأقدرني عليها (الرحمن الرحيم) ذي الرحمة العامة التي وسعت كل شيء والخاصة بمن شاء من عباده المخلصين .

وإذا قلت (الحمد لله رب العالمين) فاستحضر من معناها أن كل ثناء جميل بالحق فهو لله تعالى استحقاقا وفعلا من حيث إنه الرب خالق العالمين ومدبر جميع أمورهم . . . (الرحمن) في نفسه (الرحيم) بخلقه (مالك يوم الدين) ذي الملك والتصرف دون غيره يوم محاسبة الخلق ومجازاتهم بأعمالهم فلايرجى غيره. واذا قلت (إياك نعبد) الخ فتذكر انك تخاطب هذا الرب العظيم كفاحا بما يجب أن

تكون صادقا فيه ومعناه نعبدك وحدك دون سواك بدعائك والتوجه اليك (وإياك نستعين) نطلب معونتك وحدك على عبادتك وعلى جميع شؤوننا ، بالعمل بما أعطيتنا من الأسباب ، وبالتوكل عليك وحدك عند العجز عنها (اهدنا الصراط المستقيم) دلنا وأوصلنا بتوفيقك ومعونتك إلى طريق الحق في العلم والعمل ، الذي لاعوج فيه ولازلل (صراط الذين أنعمت عليهم) بالايمان الصحيح والعمل الصالح وثمرتها وهي سعادة الدارين وتذكر إجمالا أولئك المنعم عليهم « من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين » وأن حظك من هذه الهداية لصراطهم انما يكون بالتأسي والاقتداء بهم في الدنيا ، ومرافقتهم في الآخرة « وحسن أولئك رفيقا » صراط الذين أنعمت عليهم فضلا وإحسانا منك (غير المغضوب عليهم) بايثارهم الباطل على الحق ، وترجيحهم الشر على الخير ، (ولا الضالين) عن طريق الحق والخير بجهلهم « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

وأنصح لك أيها التالي للقرآن في الصلاة وفي غير الصلاة أن تقرأه على مكث وتمهل ، بخشوع وتدبر ، وأن تقف على رءوس الآيات ، وتعطي القراءة حقها من التجويد والنغمات ، مع اجتناب التكلف والتطريب ، واتقاء الاشتغال بالالفاظ عن المعاني ، فان قراءة آية واحدة مع التدبر والخشوع ، خير لك من قراءة ختمة مع الغفلة . ومن المجربات أن تغميض العينين في الصلاة يثير الخواطر ، ولذلك كان مكروها - وان رفع الصوت المعتدل في الصلاة الجهرية ولاسيما صلاة الليل يطرد الغفلة ، ويوقظ راقد الخشية ، وإعطاء كل أسلوب حقه من الأداء والصوت يعين على الفهم ، ويستفيض ماغاض بطول الغفلة من شآبيب الدمع

(وراجع بحث تأثير التلاوة في أول تفسير
سورة الاعراف في الكلام
على الحروف المفردة)

سورة البقرة ٢

(جميعها مدنية بالاجماع ، ومنها آية نزلت على ما قيل في حجة الوداع ، وروي أنها آخر آي القرآن نزولا وهي (٢٨١ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) الخ ومعظمها نزل في أول الهجرة . وهي أطول جميع سور القرآن ، فآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات أو ست وعليه عد المصاحف المشهورة الآن . ولا حاجة الى بيان التناسب بينها وبين الفاتحة ، وان كان التناسب ظاهرا ، فانها لم توضع بعدها لاجله ، وانما وضعت في أول القرآن بعد فاتحته (التي كانت فاتحته بما لها من الخصائص التي بيناها في تفسيرها) لانها أطول سورة وتليها بقية السبع الطول بتقديم المدني منها على المكي ، لا الطولى فالطولى ، فان الانعام أطول من المائدة وهي بعدها ، والاعراف أطول من الانعام وقد أخرت عنها ، وقدمت الانفال على التوبه وهي أقصر منها ، وكلتاهما مدنيتان وانما روعي الطول في ترتيب سور القرآن في الجملة لا في كل الافراد . وروعي التناسب في ترتيب ذلك ، ويراه القارئ في محله من كل منها . ثم مزج المدني بالمكي في سائر السور ، لان اختلاف أسلوبيهما ومسائلهما أدنى إلى تنشيط القارىء وأنأى به عن الملل من التلاوة . وهذا من خصائص القرآن .

وقد رأينا أن نستدرك قبل الشروع في تفسيرها ما فاتنا في آخره من تلخيص ما اشتملت عليه من الدعوة الى الاسلام ، وما فيها من العقائد والاحكام ، وقواعد الدين وأصول التشريع ، فنقول

﴿ خلاصة سورة البقرة وما فيها من دعوة الاسلام وأحكامه وقواعده ﴾

دعوة الاسلام العامة :

بدأ الله عز وجل سورة البقرة بدعوة القرآن ، وكونه حقا لا مجال فيه لشك ولا ارتياب وجعل الناس تجاه هدايته ثلاثة أقسام

(١) المؤمنون وهم قسمان: الذين يؤمنون بالغيب بمجرد سلامة الفطرة ويقيمون ركني الدين: البدني الروحي، والمالي الاجتماعي - والذين يؤمنون به بتأثير إيمانهم بما أنزل من

قبله من كتب الرسل اذ يرونه أكمل منها هداية ، وأصح رواية ، وأقوى دلالة. ثم فصل هذه الاصول للايمان في آية (١٧٦ ليس البر الخ وآيتي (٢٨٤ و٢٨٥ لله مافي السموات وما في الارض) الخ

(٢) الكافرون الراسخون في الكفر وطاعة الهوى، الذين فقدوا الاستعداد للايمان والهدى

(٣) المنافقون الذين يظهرون غير مايخفون ، ويقولون مالا يفعلون ، (فهذه آياتها الاولى الى ٢٠ آية)

وقفى على هذا بدعوة الناس جميعا الى عبادة ربهم وحده ، وعدم اتخاذ الانداد له ، الذين يُحبون من جنس حبه ، ويُذكرون معه في مقامات ذكره ، ويُشركون معه في مخ العبادة ـ الدعاء ـ أويدعون من دونه ، (انظر الآيتين ٢١و ٢٢ وآيات الاسلام في قصة ابراهيم واسماعيل ووصية ابراهيم ويعقوب لأبنائهم من ١٢٤ — ١٣٨ كما يأتي ، والآيات التي سنشير اليها فى خطاب أمة الاجابة من ١٦٣ — ١٧١

ثم ثنى دعوة التوحيد بدعوة الوحي والرسالة واحتج على حقية هذه الدعوة بهذا الكتاب المنزل على عبده (محمد ﷺ) بتحدي الناس كافة بالاتيان بسورة من مثله ، مع التصريح القطعي بعجزهم أجمعين ، ورتب على هذا انذار الكافرين بالنار ، وتبشير المؤمنين بجنات تجري من تحتها الانهار ، وقفى على هذا ببيان بعض الادلة العقلية على الايمان ، وبخلاصة النشأة الآدمية وعداوة الشيطان للانسان. وتم ذلك بالآية ٣٩

ثم خص بني اسرائيل بالدعوة ، تاليا عليهم مالم يكن يعلمه محمد لولا وحيه تعالى له، فذكرهم بنعمه ، وأمرهم أن يؤمنوا بما أنزله على خاتم رسله ، ونهاهم أن يكون المعاصرون له منهم أول كافر به ، وحاجهم في الدين بتذكيرهم بأيام الله ، وبأهم الوقائع التي كانت لسلفهم مع كليمه ، من كفر وايمان ، وطاعة وعصيان ، ثم بالتذكير لهم وللعرب بهدي جدهم ابراهيم الخليل ، وبنائه لبيت الله الحرام مع ولده اسماعيل ، ودعائهما اياه تعالى أن يبعث في الاميين رسولا منهم ،

وبأن علماءهم يعرفون أن محمداً هو الرسول الذي دعا به ابراهيم وبشر به موسى كما يعرفون أبناءهم ، وبأن فريقا منهم يكتمون الحق وهم يعلمون ، أي والفريق الآخر يؤمنون به ، ويعترفون بوعد الله لابراهيم ثم لموسى بقيام نبي من أبناء أخوتهم مثله

بديء هذا السياق بالآية ٤٠ من السورة (يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) إلخ وانتهى بالآية ١٤٢ منها ، وتخلله بعض الآيات الموجهة للمؤمنين للاعتبار بمافيه من شؤون أهل الكتاب السابقين والحاضرين من اليهود بالتفصيل ومن النصارى بالاجمال ، إذ لم يكن أحدمنهم مجاوراً ولامخالطا للمسلمين في تلك الحال ، فان نزول البقرة كان في أول عهد الهجرة . وماتقدم يناهز نصف السورة ، وهو شطرها الخاص بأمة الدعوة ، والشطر الثاني قد وجه لأمة الاجابة

خطاب أمة الاجابة بموضوع الدعوة العام :

كان الانتقال من خطاب أهل الكتاب من أمة الدعوة إلى خطاب أهل القرآن من أمة الاجابة بذكر ماهو مشترك بين قوم موسى وقوم محمد من نسب ابراهيم والاتفاق على فضله وهدايته ، وكان العرب في الجاهلية يعترفون بذلك إجمالا كالمسلمين ، ثم بذكر أول مسألة عملية اختلف فيها القومان وهي مسألة القبلة ، فقد كان النبي (ص) يصلي بمكة إلى الكعبة المشرفة من جهة الشمال حيث تكون بينه وبين بيت المقدس في بلاد الشام ، وهو قبلة بني إسرائيل ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بين استقبال الكعبة التي هي في جنوبها ، وبيت المقدس الذي هو في شمالها ، فأعطى الله خاتم رسله سؤله بأمره بالتوجه إلى الكعبة وحدها ، ومسألة القبلة من شعائر الملة وخصائصها الدينية الاجتماعية ، حتى إن النصارى وهم في الأصل مع رسولهم (عيسي المسيح عليه السلام) من اتباع شريعة التوراة قد ميزوا أنفسهم دون اليهود بابتداع قبلة خاصة بهم غير قبلة عيسى رسولهم الذي اتخذوه إلها لهم وهي صخرة بيت المقدس .

بعد تأكيد أمر القبلة ، وانه من إتمام النعمة على هذه الأمة بيّن وظائف الرسول ﷺ وهي كما في دعاء ابراهيم تبليغ القرآن وتربية الامة ، وتعليمها الكتابة

والحكمة ، ومالم تكن تعلم من القضاء والسياسة وأمور الدولة . فقال تعالى (١٥١ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) ثم أمرهم بذكره وشكره تعالى، وبالاستعانة بالصبر والصلاة على النهوض بمهمات الأمور ، وذكر التطواف والسعي بين الصفا والمروة لمناسبة اقتضاها المقام، ولعن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى بعد تبيينه للناس في الكتاب ، واستثنى من تاب وأصلح وبين وأناب ، وسجل اللعنة على من مات على كفره وكونهم خالدين في النار لا يخفف عنهم العذاب .

ثم ذكر الاساس الاعظم للدين، وهو توحيد الآلهية ، بتخصيص الخالق سبحانه بالعبودية ، وهو قوله تعالى (١٦٣) وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وقرن ذلك بالتذكير بآياته الكثيرة الدالة عليه في السموات والارض ومابينهما . ثم ذكر مايقابل هذا التوحيد مقابلة التضاد ، وهو الشرك باتخاذ الانداد . والاعتماد فيه على تقليد الآباء والاجداد ، وشنع على المقلدين، والذين يدعون غير الله تعالى من المشركين، فجردهم من حلية العقل ، وشبههم بالصم البكم العمي . وانتهى هذا بالآية ١٧١

ثم أوجب على المؤمنين الأكل من أجناس جميع الطيبات وأمرهم بالشكر له عليها، وحصر محرمات الطعام عليهم في الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، واستثنى من اضطر اليها ، وانما ذكر هذا في سياق كليات الدين المجملة لابطال ما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من التحليل والتحريم فيها الذي هو حق الله تعالى بتحكيم الاهواء ، وقفى على هذا كله بوعيد الذين يكتمون ما أنزل الله ، ايذانا بوجوب الدعوة وبيان الحق على كل من آمن بالله ، وتحذيراً مما وقع بين أهل الكتاب من الاختلاف والشقاق والتحريف والنسيان لحظ عظيم مما أنزله الله

وختم هذا السياق العام ، ببيان أصول البر ومجامعه في الآية المعجزة الجامعة لكليات العقائد والآداب والاعمال : (١٧٦ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الخ

وقفى عليه بسياق طويل في الاحكام الشرعية الفرعية بدىء بأحكام القصاص في القتلى من آية (١٧٧) وانتهى بأحكام القتال وماتقتضيه من أمور الاجتماع

وقواعده في آخر الجزء الثاني من تجزئة القرآن الثلاثينية وسنذكر أنواعها

ثم عاد الكلام على بدئه في العقائد العامة من الرسالة والتوحيد وحججه والبعث، وفي الأحكام والآداب العامة التي هي سياج الدين ونظام الدنيا ، ورأسها الانفاق في سبيل الله وهي طريق الحق والخير وسعادة الدارين ، والاخلاص فيه وفي سائر الاعمال . ثم عاد الى الاحكام الفرعية العملية الى ماقبل ختم السورة كلها بالدعاء المعروف ، وهاك بيان ما في السورة من أنواع أحكام الفروع العملية

خطاب أمة الاجابة بالفروع العملية

كانت الاحكام الشرعية العملية منها تنزل على النبي (ص) عند استعداد الامة لها بالنسبة الى العبادات، عند الحاجة اليها في العمل بالنسبة الى المعاملات، والمذكور منها في سورة البقرة أنواع نلخصها فيما يلي :

(١) إقامة الصلاة وايتاء الزكاة بمدح أهلهما في الآية ٣ والامر بهما في الآية ١١٠

(٢) تحريم السحر ، وكونه فتنة وكفراً أو مستلزماً للكفر .

(٣) أحكام القصاص في القتلى وهو المساواة فيها وحكمته (آيتا ١٧٨ و ١٧٩)

(٤) الوصية للوالدين والأقربين (آيتا ١٨١ و ١٨٢)

(٥) أحكام الصيام مفصلة وقد نزلت في السنة الثانية للهجرة (آيات ١٨٣ — ١٨٧)

(٦) تحريم أكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها الى الحكام للاستعانة بهم على أكل فريق منها بالأثم كما هو الفاشي في هذه الازمنة (آية ١٨٨)

(٧) جعل الاشهر الهلالية هي المعتمد عليها في المواقيت الدينية للناس ومنها الصيام والحج وعدة النساء ومدة الايلاء (آية ١٨٩)

(٨) أحكام القتال وكونه ضرورة مقيدة بقتال من يقاتلنا ويهدد حرية ديننا دون غيرهم وبتحريم الاعتداء فيه ، وغايته منع الفتنة في الدين وهو الاكراه فيه والتعذيب والايذاء للصد عنه ، والمراد ما يسمى في عرف هذا العصر بحرية الاعتقاد والوجدان ، ومنه أحكام القتال في الشهر الحرام (آيات ١٩٠ — ١٩٥ و ٢١٦ — ٢١٨ . ثم ٢٢٤ — ٢٥٢)

(٩) الامر بانفاق المال في سبيل الله لأنه وسيلة للوقاية من التهلكة ، وهذا يتناول الانفاق للاستعداد للقتال الذي يرجى أن يكون سبباً للسلم ومنع القتال ، والسلامة من الهلاك ، ويتناول غير ذلك كمنع العدوان العام والخاص ، والنظم الضارة بالاجماع (آية ١٩٥) ثم الامر بالانفاق لاجل السلامة من هلاك الاخرة (في الآية ٢٥٤) ثم الترغيب في الانفاق والوعد بمضاعفة الاجر عليه سبعمائة ضعف وأكثر وبيان شرط قبوله وآدابه وضرب الامثال للاخلاص وللرياء فيه في سياق طويل (من آية ١٩٦-٢٠٣)

(١٠) أحكام الحج والعمرة (من آية ١٩٦-٢٠٣)

(١١) النفقات والمستحقون لها من الناس (٢١٥و٢١٩و٢٧٣)

(١٢) تحريم الخمر والميسر تحريماً ظنياً اجتهادياً راجحاً غير قطعي تمهيداً للتحريم الصريح بالنص القطعي (٢١٩)

(١٣) معاملة اليتامى ومخالطتهم في المعيشة (٢٢٠)

(١٤) تحريم نكاح المؤمنين المشركات ، وانكاح المشركين المؤمنات (٢٢١)

(١٥) تحريم إتيان النساء في المحيض وفي غير مكان الحرث ووجوب إتيانهن من حيث أمر الله بأي صفة كانت (٢٢٢و٢٢٣)

(١٦) بعض أحكام الأيمان بالله كجعلها مانعة من البر والتقوى والاصلاح ، وعدم المؤاخذة بيمين اللغو (٢٢٤و٢٢٥)

(١٧) حكم الايلاء من النساء (٢٢٦و٢٢٧)

(١٨) أحكام الزوجية من الطلاق والرضاعة والعدة وخطبة المعتدة ونفقتها ومتعة المطلقة (٢٢٨ - ٢٣٧و٢٤١)

(١٩) حظر الربا والامر بترك ما بقي منه والاكتفاء برءوس الاموال منه وايجاب إنظار المعسر أي امهاله الى ميسرة (٢٧٥ - ٢٨٠)

(٢٠) أحكام الدين من كتابة وإشهاد وشهادة وحكم النساء والرجال فيها والرهان ووجوب أداء الأمانة وتحريم كتمان الشهادة (٢٨٢و٢٨٣)

(٢١) خاتمة الاحكام العملية الدعاء العظيم في خاتمة السورة

﴿ الاصول والقواعد الشرعية العامة في سورة البقرة ﴾

(القاعدة الاولى) ان اتباع هدى الله المنزل على رسله وهو الدين موجب للسعادة بأن أصحابه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهذا وعد يشمل الدنيا والآخرة لإطلاقه ولكنه في الدنيا فهو اضافي مطرد في الامم وإضافي مقيد غير مطرد في الافراد ، وفي الآخرة حقيقي مطرد للجميع ، وموجب لشقاء من أعرض عنه بعد بلوغ دعوته على وجهها على نسبة مقابله في الدارين والشاهد عليه قوله تعالى لآدم ومن معه (قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدى ـ الآية ٣٨ والتي بعدها ٣٩ ـ وراجع معناها في سورة طه (فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) الآية (٢٠ : ١٢٣ وما بعدها إلى ١٢٨ فهي موضحة لما أردناها

(القاعدة الثانية) قوله تعالى (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) الآية ٤٠ وهي مقيدة اسعادة الدين بأنها انما تحصل باقامته . فالله يقول (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) في باب الاطلاق ، ويقول في باب التقييد (ان تنصروا الله ينصركم) وهذا شاهد على التقييد الذي ذكرناه في القاعدة الاولى ، ومثله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا) راجع الآيات ٨٤ ـ ٨٦

(القاعدة الثالثة) قوله تعالى (٤٤ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) وهي صريحة في أن هذا مخالف للمنقول الشرعي وهو الكتاب ، وللمعقول الفطري إذ لا يخفى على عاقل قبح عمل من يأمر غيره بالخير وهو يتركه ، أو ينهاه عن فعل مايضره من الشر وهو يفعله ، وانه يقيم بذلك الحجة على نفسه ، ولا يكون أهلا لان يمتثل أمره ونهيه

(القاعدة الرابعة) قوله تعالى في مقام الانكار على بني اسرائيل (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) صريح في وجوب ترجيح الاعلى على الادنى وايثار الخير على الشر ، و الارشاد إلى طلب ما هو خير وأفضل مما يقابله وفي طلب المعالي والكمال في أمور الدنيا والآخرة . وفي معناه قوله تعالى (١٣٠ ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه)

(القاعدة الخامسة) قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا ـ الآية ٦٢ صريح في ان أصول دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله هذه الثلاثة: الايمان بالله، والايمان باليوم الآخر وما فيه من الجزاء، والعمل الصالح — ومنه ماذكر في آية ٨٣ من ميثاق بني اسرائيل فثمرة الايمان منوطة بالثلاثة.

(القاعدة السادسة) ان الجزاء على الايمان والعمل معا، لأن الدين إيمان وعمل. ومن الغرور أن يظن المنتمي إلى دين نبي من الانبياء، أنه ينجو من الخلود في النار بمجرد الانتماء، والشاهد عليه ماحكاه الله لنا عن بني إسرائيل من غرورهم بدينهم ومارد به عليهم حتى لا نتبع سننهم فيه وهو (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ـ آية ٨٠ ـ ٨٢ وماحكاه عن اليهود والنصارى جميعا من قولهم (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم) الخ الآيتين ١١١ و١١٢ ولكننا قد اتبعنا سننهم شبراً بشبر وذراعا بذراع مصداقا لما ورد في الحديث الصحيح. وانما نمتاز عليهم بأن المتبعين لهم بعض الامة لا كلها، وبحفظ نص كتابنا كله وضبط سنة نبينا في بيانه، وبأن حجة أهل العلم والهدى منا قائمة الى يوم القيامة.

(القاعدة السابعة) ان شرط الايمان الاذعان النفسي لكل ماجاء به الرسول الذي يلزمه العمل عند انتفاء المانع، ومأخذه قوله تعالى (٨٣ واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل) الى آخر آية ٨٦ وقوله (١٠٠ أو كلما عاهدوا عهدا) الآية فمن ترك بعض العمل بجهالة فهو فاسق الى أن يتوب. ومن تركه لعدم الاذعان له كان كافراً به، والكفر بالبعض كالكفر بالكل، والشاهد عليه قوله تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) الآية وليس هذا من الكفر العملي الذي لايخرج به صاحبه من الملة الذي استشهدوا له بحديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الخ كما قال بعض العلماء لان هذا النوع هو من عمل الافراد الذي تغلبهم عليه داعية طبيعية كالشهوة والغضب ـ ومانحن فيه عبارة عن عدم العمل بالشرع الآلهي لعدم الاذعان له، كاستباحة قتل فريق من الامة ونفي فريق آخر من وطنه بمحض اتباع الهوى، والطمع في عرض الدنيا، لا بجهالة عارضة يغلب فيها الفرد على أمره، ثم يثوب اليه رشده فيتوب إلى ربه

(القاعدة الثامنة) النسخ أو الانساء للآيات الآلهية التي يؤيد الله بها رسله كما يقتضيه سياق قوله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها) اقرأها ومابعدها (١٠٦ و ١٠٧) أو للآيات التشريعية كما فهم الجمهور كلاهما من رحمة الله بجعل البدل خيراً من الاصل ، أو مثله على الاقل ، وتكون الخيرية في المثل التنويع وكثرة الآيات

(القاعدة التاسعة) قوله تعالى (١٢٠ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) آية للنبي كاشفة عن حال أهل الملتين في عصره ، ولا تزال مطردة في أمته من بعده ، وقد اغتر زعماء بعض الشعوب الاسلامية فحاولوا ارضاء بعض الدول بما دون اتباع ملتهم من الكفر فلم يرضوا عنهم ، ولو اتبعوا ملتهم لاشترطوا أن يتبعوهم في فهمها وصور العمل بها ، حتى لايبقى لهم أدنى استقلال في دينهم ولا في أنفسهم .

(القاعدة العاشرة) أن الولاية العامة الشرعية حق أهل الايمان والعدل ، وأن الله تعالى لن يعهد بامامة الناس وتولي أمورهم للظالمين ، فكل حاكم ظالم فهو ناقض لعهد الله تعالى ـ راجع قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام بعد ابتلائه بما ظهر به استحقاقه للامامة (١٢٣ قال إني جاعلك للناس إماما .قال : ومن ذريتي. قال لاينال عهدي الظالمين)

(القاعدة الحادية عشرة) ان الايمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل كما أنزله يقتضي الوحدة والاتفاق ، وترك الاهتداء به يورث الاختلاف والشقاق ، وشواهده من السورة قوله تعالى (١٣٧ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق) وقوله (١٧٦ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) وقوله (٢١٣ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين إلخ .

(القاعدة الثانية عشرة) الاستعانة على النهوض بمهمات الامور بالصبر والصلاة قال تعالى (٤٥ واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقوله عز وجل (١٥٣ ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) وهذه قاعدة جليلة راجع تفصيلها في تفسيرنا الآيتين وأمثالها

(القاعدة الثالثة عشرة) بطلان التقليد للآباء والاجداد والمشايخ والمعلمين والرؤساء ، لانه جهل وعصبية جاهلية ، والشواهد عليه في هذه السورة وغيرها عديدة أظهرها هنا ماحكاه تعالى لنا عن تبرؤ المتبوعين من الاتباع يوم القيامة في آيتي (١٦٦ و ١٦٧) وقوله عز وجل (١٧٠ وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وإن في تحريم التقليد وتصريح الكتاب العزيز بأن الله تعالى لا يقبله ولا يعذر صاحبه به في الآخرة لتأكيداً شديداً لايجاب العلم الاستقلالي الاستدلالي في الدين، وهو لا يقتضي الاجتهاد المطلق في جميع مسائل التشريع ، أعني — الاستنباط العام بوضع الأحكام ، لكل مايحتاج اليه الأفراد والحكام — وإن في إطلاق مقلدة المصنفين من خلف القرون الوسطى القول بإيجاب تقليد المجتهدين في أمور الدين ، وتحريم الأخذ بالدليل فيه — لاشتراطهم فيه استعداد كل مستدل مستقل للتشريع لافتياتا على دين الله ، ونسخا لكتاب الله ، وشرعا لم يأذن به الله ، خلاصته تحريم العلم وإيجاب الجهل ، وهذا منتهى الافساد للفطرة والعقل ، وهو أقطع المدى لأوصال الاسلام ، وأفعل المعاول في هدم قواعد الايمان، وعلة العلل لانتشار البدع التي ذهبت بهداية الدين ، واستبدلت بها الخرافات ودجل الدجالين .

(القاعدة الرابعة عشرة) اباحة جميع طيبات المطعم الطبيعية بحسب أفرادها ، وإيجاب الاكل منها بحسب جنسها ، وامتناع التحريم الديني العام لما لم يحرم الله تعالى منها ، وذلك قوله تعالى (١٦٨ ياأيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا) وقوله (١٧٢ ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) الآية . وقوله بعدها (١٧٣ انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) فحصر المحرمات في هذه الاربعة . ومثله في سورة الانعام والنحل من السور المكية ، وفي سورة المائدة المدنية تفصيل في الميتة بجعل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع منها ، اذا ماتت بذلك ولم تدرك تذكيتها . وقيدت آية الانعام الدم بالمسفوح

(القاعدة الخامسة عشرة) اباحة المحرمات للمضطر اليها، بشرط أن يكون غير باغ لها، ولا عاد فيها بتجاوز قدر الضرورة أو الحاجة منها. وذلك قوله تعالى في تتمة الآية الاخيرة

من شواهد القاعدة التي قبل هذه (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم) وليست القاعدة مقصورة على محرمات المطاعم بل عامة لكل مايتحقق الاضطرار اليه لاجل الحياة واتقاء الهلاك ولم يعارضه مثله أو ماهو أقوى منه . فالزنا ليس ممايضطر الناس اليه لذلك كما قال العلماء ، ومن اضطر الى رغيف مضطر مثله فليس له أن يرجح نفسه على صاحب اليد وهومالك الرغيف

(القاعدة السادسة عشرة) بناء الدين عباداته وغيرها على أساس اليسر ، ورفع الحرج والعسر - كما علل سبحانه به رخصة الفطر فى رمضان بقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ومثله تعليل رخصة التيمم برفع الحرج كما فى سورة المائدة . وهذه القاعدة أوسع مما قبلها ، لأن هذه فى ترك الواجب ، الى بدل عاجل أو آجل ، وتلك فى استباحة المحرم ولو موقتا ، فان ترك الواجبات أهون من فعل المنهيات ، لقوله (ص) « فاذا أمرتكم بشيء فاءتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فدعوه » رواه الشيخان وهذا اللفظ لمسلم وهو من أثناء حديث . وسبب هذا أن الترك أهون على غير المضطر من الفعل لان الاصل عدمه :

(القاعدة السابعة عشرة) عدم تكليف مالا يطاق وهذه أصل للتين قبلها والنص فيها قوله تعالى في آخر آية من السورة (٢٨٦ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) ووسع الانسان مالا حرج فيه عليه ولا عسر ، لانه ضد الضيق ، ولذلك كانت هذه اوسع مما قبلها وأصلا لها ، فالله لم يكلفنا في دينه وشرعه مالا طاقة لنا به ، ولا يدخل في وسعنا امتثاله بغير عسر ولا حرج ، فاذا عرض العسر عروضا بأسبابه العادية كالاضطرار لاكل الميتة والدم المسفوح وكالمرض والسفر اللذين يشق فيهما الصوم واستعمال الماء في الغسل والوضوء أو يضر ، ترك الاول بنية القضاء ، والثاني الى الى التيمم المبيح للصلاة ، ولا تترك الصلاة نفسها لعسر أحد شروطها وعدم عسرها في نفسها ، وهي لا تعسر من حيث هي توجه الى الله تعالى ومناجاة له بكتابه وذكره ودعائه ، فان شق على المصلي بعض أفعالها كالقيام استبدل به القعود فان شق عليه القعود صلى مضطجعا أو مستلقيا ،

(القاعدة الثامنة عشرة) حظر التعرض للهلكة ، في قوله تعالى (١٩٥ ولا تلقوا بأيديكم

الى التهلكة) فلا يجوز للمؤمنين ولاسيما جماعتهم أن يتعمدوا إلقاء أنفسهم الى الهلاك بعيهم واختيارهم — ويلزمه وجوب اجتناب أسباب التهلكة من فعلية وتركية - وبتعبير المناطقة من سلبية وايجابية - ويدل عليه ذكر هذا النهي عقب الامر بالانفاق في سبيل الله لما يحتاج اليه الدفاع من النفقات الكثيرة ، ولاسيما في هذا العصر الذي تعددت فيه آلات القتال ووسائله وعظمت نفقاتها فصارت الامم العزيزة تنفق الملايين من الجنيهات على وسائل الحرب البرية والبحرية والجوية . وفروع هذه القاعدة كثيرة .

(القاعدة التاسعة عشرة) اتيان البيوت من أبوابها لامن ظهورها ، أي طلب الاشياء بأسبابها دون غيرها ، فلا تجعل العادة عبادة ، ولا العبادة عادة ، ولا تطلب فنون الدنيا من نصوص الدين « أنتم أعلم بأمر دنياكم » كما قال خاتم النبيين ، وأصل هذه القاعدة مايدل عليه قوله تعالى (١٨٩ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقي واءتوا البيوت من أبوابها) فللزراعة والتجارة والصناعة وفنون الحرب وآلاته وأسلحته أبواب لا يصل اليها إلا من يدخل منها، ولعقائد الدين وعباداته وآدابه وحلاله وحرامه أبواب معروفة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولاصول تشريعه السياسي أبواب من النصوص والاجتهاد معروفة أيضاً ، فما اعتيد في هذه القرون الاخيرة من قراءة صحيح البخاري في المساجد لاجل النصر على الأعداء مخالف لهذه القاعدة ، وليس من المخالف لها الدعاء وتوجه المقاتلة الى الله لنصرهم، بعد اعداد مااستطاعوا من القوة لعدوهم، فان الدعاء من أسباب القوة المعنوية .

(القاعدة العشرون) حرية الدين والاعتقاد ومنع الاضطهاد الديني ولو بالقتال حتى يكون الدين كله لله ومنع الاكراه على الدين . وذلك قوله تعالى (١٩٣ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلاعدوان إلا على الظالمين)

الفتنة اضطهاد الانسان لأجل دينه بالتعذيب والقتل والنفي كما فعل المشركون بالمسلمين في صدر الاسلام ولذلك قال في آيات القتال التي نزلت قبل هذه في سورة الحج (٢٢ : ٣٩ أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ٤٠ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) الخ

ولذلك مهد لهذه الغاية هنا بقوله قبلها (١٩١ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) ثم قفى عليها بقوله (٢١٧ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا) الآية.

وأما النهي عن الاكراه في الدين حتى الاسلام فقوله تعالى (٢٥٦ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي) وقد ذكرنا في تفسيرها ما رواه المحدثون ومصنفو التفسير المأثور من سبب نزولها وملخصه أنه كان لدى بني النضير من يهود المدينة أولاد من أبناء الصحابة ربوهم وهودوهم فلما أمر النبي (ص) باجلائهم لتواتر إيذائهم أراد المسلمون أن يأخذوا أبناءهم منهم ويكرهوهم على الاسلام فنزلت الآية فقال النبي (ص) « قد خير الله أصحابكم ، فان اختاروهم فهم منهم وان اختاروكم فهم منكم »

ومع هذه النصوص لا يزال يوجد حتى في المسلمين من يصدق افتراء أعداء الاسلام بانه قام بالسيف والاكراه على الدين ، وأن النبي ﷺ هو الذي كان يبدأ المشركين بالقتال ؟ ؟

﴿ القاعدة الحادية والعشرون ﴾ أن القتال شرع فى الاسلام لمصلحتين أو ثلاث ـ الاولى ـ الدفاع عن المسلمين وأوطانهم فان المشركين أخرجوا النبي ومن كان آمن معه من أهل مكة ثم بدؤهم بالقتال وساعدهم عليهم أهل الكتاب وما زالوا يبدؤنهم ويقاتلونهم حتى عجزوا وذلك قوله تعالى (١٩٠ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) ـ الثانية ـ تأمين حرية الدين ومنع الاضطهاد فيه وهو قوله (١٩٣ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) هذا ما نزل في هذه السورة — الثالثة — ما في سورة التوبة من تأمين سلطان الاسلام وسيادته بدفع المخالفين له للجزية.

(القاعدة الثانية والعشرون) أن من شأن المسلمين طلب ما هو أثر لازم للاسلام من سعادة الدنيا والآخرة معاً كما تقدم في القاعدة الاولى وانما تتحقق

الغايات ولوازم الامور بطلبها والسعي لها .

فليس من هديه أن يترك المسلمون الدنيا ومعايشها وسياستها ويكونوا فقراء أذلاء ، تابعين للمخالفين لهم من الاقوياء ـ ولا أن يكونوا كالانعام لاهمّ لهم الا في شهواتهم البدنية ، وكالوحوش التي يفترس قويها ضعيفها. وهذا الجمع بين الامرين مقتضى الفطرة ، والاسلام دين الفطرة، وذلك هو ما أرشدنا الله اليه بقوله(٢٠٠ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ٢٠١ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) الخ

(القاعدة الثالثة والعشرون) أن الأحكام الاجتهادية التي لم تثبت بالنص القطعي الصريح رواية ودلالة لاتجعل تشريعاً عاماً الزامياً بل تفوض الى اجتهاد الافراد في العبادات الشخصية والتحريم الديني الخاص بهم ـ والى اجتهاد أولي الامر من الحكام وأهل الحل والعقد في الأمور السياسية والقضائية والادارية ومأخذه آية (٢١٩ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) ووجهه أن هذه الآية تدل على تحريم الخمر والميسر بضرب من الاجتهاد في الاستدلال، وهو أن ما كان إثمه وضرره أكبر من نفعه فهو محرم يجب اجتنابه ، وذلك ما فهمه بعض الصحابة فامتنعوا من الخمر والميسر . ولكن النبي (ص) لم يلزم الأمة هذا بل أقرّ من تركهما ومن لم يتركهما على اجتهادهما الى أن نزل النص القطعي الصريح في تحريمهما والأمر باجتنابهما في سورة المائدة ـ فحينئذ بطل الاجتهاد فيهما ، وأهرق كل واحد من الصحابة ما كان عنده من الخمر وصار النبي (ص) يعاقب من شربها .

وبناء على هذه القاعدة كان يعذر كل أحد من سلف الامة من خالفه أو خالف بعض الاخبار والآثار الاجتهادية غير القطعية رواية ودلالة ، ولم يوجبوا على أحد أن يتبع أحداً في اجتهاده كما يفعل الخلف المقلدون

وبناء على هذه القاعدة لم يقبل الامام مالك رحمه الله تعالى من المنصور أولا ولا من هارون الرشيد ثانياً أن يحمل المسلمين على العمل بكتبه ولا بالموطأ الذي هو أصح ما رواه من الاخبار المرفوعة وآثار الصحابة وواطأه عليه جمهور من علماء عصره .

﴿ القاعدة الرابعة والعشرون — الى السابعة والعشرين ﴾ بناء أمور الزوجية والبيوت وتربية الاولاد على أربع دعائم :

(١) قيام النساء بالأمور التي تقتضيها وظيفتهن كالرضاعة وغيرها من أمور تربية الاطفال ، ويقوم الزوج بالنفقة كلها

(٢) أن لايكلف كل منهما ماليس في وسعه مما يدخل في حدود وظيفته والواجب عليه

(٣) لايضار أحد منهما بالولد ولا بغيره بالاولى ، والمضارة دون تكليف ما ليس في الوسع

(٤) ابرام الامور غير القطعية بالتراضي والتشاور

وهذه القواعد ظاهرة صريحة في آية (٢٣٣ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لاتكلف نفس إلا وسعها ، لاتضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك، فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) ولو عمل المسلمون بهذه القواعد وأمثالها من أحكام الكتاب والسنة لكانوا أسعد الأمم في بيوتهم ، ولما وجد من أعدائهم ولا من زنادقتهم من يهذي باسناد ظلم النساء الى الاسلام ، أو حاجة المسلمين إلى تقليد غيرهم في شيء من اصلاح البيوت (العائلات)

﴿ القاعدة الثامنة والعشرون ﴾ جعل سد ذرائع الفساد والشر وتقرير المصالح وإقامة الحق والعدل في تنازع الناس بعضهم مع بعض — مناطا للتشريع وأصلا من أصول الاحكام الاجتهادية ، وذلك أن الله تعالى عال به شرعه للقتال، ومنته على نبيه داود وجنده بالنصر على عدوهم وما ترتب عليه من إيتائه الحكم والنبوة إذ قال (٢٥١ فهزموهم بأذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض . ولكن الله ذو فضل على العالمين) وفي معناه تعليل الاذن للمسلمين في القتال أول مرة بآيات سورة الحج التي استشهدنا بها في القاعدة العشرين (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ومساجد وصلوات يذكر فيها اسم الله كثيرا)

وما هنا أعم لأنه يشمل درء هذه المفسدة في الدين وغيرها من الفساد الديني والدنيوي ، وهو المتأخر في النزول

(القاعدة التاسعة والعشرون) أن الايمان بلقاء الله تعالى في الآخرة والاعتصام بالصبر الذي هو من أركان البر وكماله من ثمرات الايمان سببان من أسباب نصر العدد القليل على العدد الكثير وذلك قوله عز وجل (٢٥٠ قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

﴿ القاعدة الثلاثون ﴾ تحريم أكل أموال الناس بالباطل في « آية ١٨٨ » وهي أصل لكل المحرمات ومنها عليل تحريم الربا بعد الأمر بترك ما كان باقياً لأصحابه منه لدى المدينين بقوله تعالى (٢٨١ فان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) فان الذي يقرض المحتاج بالربا إلى أجل اذا حل قال له : إما أن تقضي وإما أن تربي . فان لم يجد ما يقضي به أنسأ له في الدين الى أجل آخر بمثل الربا الأول فاذا حل الأجل الثاني قال له : إما أن تقضي وإما أن تربي — وهلم جرا — فكل ما يأخذه من هذه الزيادات باطل لا مقابل له وهو ظلم . وأما العقود والمعاملات التي لا ظلم فيها بأكل مال أحد المتعاقدين بالباطل فليست من الربا

﴿ القاعدة الحادية والثلاثون ﴾ أن عمل كل انسان له أو عليه لا يجزى الا به ولا يجزى به سواه ، فلا ينفعه عمل غيره ولا يضره ، وذلك قوله تعالى في خاتمة هذه السورة « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ويعززها قوله تعالى في الآية التي وردانها آخر آية نزلت من القرآن، وأمر النبي (ﷺ) بوضعها بعد آيات الربا من هذه السورة وهي (٢٨١ واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وان لم ترد بصيغة الحصر وفيه آيات كثيرة . فقد سبق بيان هذه القاعدة من قواعد العقائد في بعض السور المكية التي نزلت قبلها كقوله تعالى في سورة النجم (٣٨:٥٣ وألا تزر وازرة وزر أخرى ٣٩ وأن ليس للانسان إلا ما سعى) الخ وكقوله في سورة الانعام (١٦٥:٦ ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) ويجد القارىء في تفسير هذه الآية من الجزء الثامن ما يؤيد هذه القاعدة من الشواهد وما جعلوه معارضاً لها مخصصاً لعمومها

من انتفاع الميت والحي بعمل غيره وما يصح منه ومالا يصح وكون الصحيح منه لاينافي عموم القاعدة

(القاعدة الثانية والثلاثون) بيان بطلان الشفاعة الوثنية التي كانت أساس شرك العرب ومن قبلهم وهي التقرب إلى غير الله تعالى بالدعاء وغيره ليشفعوا لهم عند الله تعالى فيكشف مابهم من ضر ، ويؤتيهم ما طلبوا من نفع ، وزاد عليهم مشركو أهل الكتاب والمؤمنين بالبعث الاعتماد على الشفعاء بالنجاة من عذاب الآخرة قال تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله) الآية وقد نفى الله تعالى هذه الشفاعة بقوله من هذه السورة خطابا لهذه الأمة (٢٥٣ ياأيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقوله في خطاب بني إسرائيل (٤٧ واتقوا يوما لاتجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) وفي معناها آية ١٢٢ . وأما الشفاعة الثانية في الأحاديث فهي غير هذه ولا تنافي التوحيد وكون الشفاعة لله جميعا وسيأتي بيانها

(القاعدة الثالثة والثلاثون) بناء أصول الدين في العقائد وحكمة التشريع على إدراك العقل لها واستبانته لما فيها من الحق والعدل ومصالح العباد ، وسد ذرائع الفساد ، والشاهد عليه من هذه السورة قوله تعالى في الاستدلال على توحيده بآياته فى السموات والارض ومابينهما (١٦٤ إن في خلق السموات والارض .. الى قوله — ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) ثم قوله فى إبطال التقليد (١٧٠ واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون ؟) وكذلك قال تعالى بعد ذكر طائفة من الأحكام العملية (٢٤٢ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون)

﴿ يقول محمد رشيد ﴾ هذا مافتح الله به عليّ بتصفح صحائف السورة دون تلاوتها ، ويمكن الزيادة عليه بالتأمل فيها وتدبرها ، وانما وعدنا بتلخيصها بالاجمال دون التفصيل ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل :

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الٓمٓ (٢) ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ

(الم) هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به ، ولا يضر وضع الاسم الواحد (كألم) لعدة سور لأنه من المشترك الذي يعيّن معناه اتصاله بمسماه . وحكمة التسمية والاختلاف في (الم) و (المص) نفوّض الأمر فيها الى المسمي سبحانه وتعالى. [ويسعنا فى ذلك ماوسع صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم ، وليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطع فيخترع مايشاء من العلل ، التي قلما يسلم مخترعها من الزلل .]

هذا ملخص ماقاله شيخنا الاستاذ الامام. وأقول الآن ـ أولا ـ إن هذه الحروف تقرأ مقطعة بذكر أسمائها لا مسمياتها فنقول : أَلِفْ ، لامْ ، مِيمْ ، ساكنة الأواخر لأنها غير داخلة في تركيب الكلام فتعرب بالحركات ـ ثانيا ـ إن عدم اعرابها يرجح أن حكمة افتتاح بعض السور المخصوصة بها للتنبيه لما يأتي بعدها مباشرة من وصف القرآن والاشارة الى إعجازه لأن المكي منها كان يتلى على المشركين للدعوة الى الاسلام ، ومثل هذه السورة وما بعدها لدعوة أهل الكتاب اليه وإقامة الحجج عليهم به ، وسيأتي توضيح ذلك بالتفصيل في تفسير أول سورة (المص ـ الاعراف) ـ ثالثاً ـ اقتصر على جعل حكمتها الاشارة الى إعجاز القرآن بعض المحققين من علماء اللغة وفنونها كالفراء وقطرب والمبرد والزمخشري وبعض علماء الحديث كشيخ الاسلام أحمد تقي الدين ابن تيمية والحافظ المزي ، وأطال الزمخشري في بيانه وتوجيهه بما يراجع في كشافه ، وفي تفسير البيضاوي وغيره ـ رابعاً ـ إن أضعف ماقيل في هذه الحروف وأسخفه ان المراد بها الاشارة بأعدادها في حساب الجمل الى مدة هذه الأمة أو مايشابه ذلك. وروى ابن إسحق

حديثاً في ذلك عن بعض اليهود عن النبي (ص) وهو ضعيف من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله ـ خامساً ـ يقرب من هذا ما عني به بعض الشيعة من حذف المكرر من هذه الحروف وصياغة جمل مما بقي منها في مدح علي المرتضى كرم الله وجهه أو تفضيله وترجيح خلافته وقوبلوا بجمل أخرى مثلها تنقض ذلك كما وضحناه في مقالاتنا (المصلح والمقلد) ـ سادساً ـ انه لايزال يوجد في الناس حتى علماء التاريخ واللغات منهم من يرى ان في هذه الحروف رموزاً الى بعض الحقائق الدينية والتاريخية ستظهره الأيام .

﴿ ذلك الكتاب ﴾ الكتاب بمعنى المكتوب وهو اسم جنس لما يكتب . والمراد بالكتاب هذه الرقوم والنقوش ذات المعاني . والاشارة تفيد التعيين الشخصي أو النوعي . وليس المراد هنا نوعاً من أنواع الكتب بل المراد كتاب معروف معهود للنبي (ص) بوصفه . وذلك العهد مبني على صدق الوعد من الله بأنه يؤيده بكتاب (* [تام كامل كافل لطلاب الحق بالهداية والارشاد ، في جميع شؤون المعاش والمعاد] فأشار بذلك اليه . ولا يضر انه لم يكن موجوداً [كله وقت نزول أمثال هذه الاشارة ، فقد يكفي في صحتها وجود البعض . وقد كان نزل من القرآن جملة عظيمة قبل نزول أول هذه السورة وأمر النبي (ص) بكتابتها فكتبت وحفظت ، فالاشارة اليها اشارة اليه] بل يكفي في صحة الاشارة أن يشار الى سورة البقرة نفسها لأنه يصح فيها وصف «هدى للمتقين» والأول أشبه ، والاشارة الى الكتاب كله عند نزول بعضه اشارة الى أن الله تعالى منجز وعده للنبي (ص) باكمال الكتاب كله

ومن حكمة الاشارة اليه بهذا الكتاب (أي المكتوب المرقوم) ان النبي (ص) أمر بكتابته دون غيره فهو الكتاب وحده ، ولا يضر انه عند النزول لم يكن مكتوبا بالفعل لأنك تقول أنا أملي كتابا أو هلم أمل عليك كتابا . والاشارة البعيدة بالكاف يراد بها بعد مرتبته في الكمال ، وعلوها عن متناول قريحة شاعر أو مقول خطيب قوال ، والبعد والقرب في الخطاب الالهي إنما هو بالنسبة الى

*) كل ما وضع بين هاتين العلامتين [ ] فهو زيادة كتبها شيخنا بخطه في حواشي نصف الأول من هذا الجزء كما تقدم في مقدمتنا

المخلوقين ، ولا يقال ان شيئاً بعيداً عنه تعالى أو قريبا منه في المكان الحسي لأن كل الأشياء بالنسبة اليه تعالى سواء . وانما القرب منه والبعد عنه تعالى معنوي وهو أقرب الينا من أنفسنا بعلمه

﴿ لاريب فيه ﴾ الريب والريبة الشك والظنة (التهمة) والمعنى ان ذلك الكتاب مبرّأ من وصمات العيب فلا شك فيه ، ولا ريبة تعتريه ، لا من جهة كونه من عندالله تعالى ، ولا في كونه هادياً مرشدا ، ويصح أن يقال إنه في قوة آياته ، ونصوع بيناته ، بحيث لايرتاب عاقل منصف، غير متعنت ولا متعسف، في كونه هداية مفاضة من سماء الحق ، مهداة الى الخلق ، على لسان أميّ لم يسبق له قبله الاشتغال بشيء من علومه ، ولا الاتيان بكلام يقرب منه في بلاغته ، ولا في أسلوبه حتى بعد نبوته ، ـ ولهذا قال فيما يأتي قريباً (٢٢ وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وحاصله انه كذلك في كل من نظمه وأسلوبه وبلاغته ، ومن معانيه وعلومه وتأثيره في الهداية ـ لايمكن أن توجه اليه الشبهة ، أو تحوّم حوله الريبة، سواء أشك في ذلك أحد بجهالته وعمى بصيرته ـ أو بتكلفه ذلك عناداً أو تقليداً ـ أم لا

﴿ هدًى للمتقين ﴾ خبر بعد خبر[1] والهدى مصدر في الأصل كالتقى والسرى . والمراد بالهداية هنا الدلالة على الصراط المستقيم مع المعونة الخاصة والأخذ باليد على ماتقدم في تفسير المراد من (اهدنا الصراط) لأن كونه هادياً للمتقين بالفعل غير كونه هادياً ـ دالا ـ لسائر الناس من غير مراعاة أخذهم بدلالته ، واستقامتهم على طريقته ، وكلمة «المتقين» من الاتقاء والاسم التقوى وأصل المادة : وقى يقي . والوقاية معروفة المعنى وهو البعد أو التباعد عن المضر أو مدافعته ، ولكن نجد هذا الحرف مستعملا بالنسبة الى الله تعالى كقوله (فاياي فاتقون ـ واتقوا الله ـ واتقون يا أولي الالباب لعلكم تفلحون) فمعنى اتقاء الله

« ١ » بعض القراء يقف على لفظ «ريب» ويجعل «فيه هدى للمتقين» جملة مستقلة وهو ضعيف خلاف المتبادر من النظم . ويرجح قراءة الجمهور وتفسيرهم أول سورة [illegible] (الم . تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين)

تعالى اتقاء عذابه وعقابه ، وانما تضاف التقوى الى الله تعالى تعظيما لأمر عذابه وعقابه ، وإلا فلا يمكن لأحد أن يتقي ذات الله تعالى ولا تأثير قدرته ، ولا الخضوع الفطري لمشيئته.

ومدافعة عذاب الله تعالى تكون باجتناب مانهى واتباع ما أمر ، وذلك يحصل بالخوف من العذاب ومن المعذب ، فالخوف يكون ابتداء من العذاب وفي الحقيقة من مصدره ، فالمتقي هو من يحمي نفسه من العقاب ـ ولا بد في ذلك أن يكون عنده نظر ورشد يعرف بهما أسباب العقاب والآلام فيتقيها

وأقول الآن ان العقاب الالهي الذي يجب على الناس اتقاؤه قسمان: دنيوي وأخروي وكل منهما يتقى باتقاء أسبابه ، وهي نوعان: مخالفة دين الله وشرعه ، ومخالفة سننه في نظام خلقه. فأما عقاب الآخرة فيتقى بالايمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، والعمل الصالح ، واجتناب ماينافي ذلك من الشرك والكفر والمعاصي والرذائل، وذلك مبين في كتاب الله وسنة رسوله (ص) وأفضل مايستعان به على فهمهما واتباعهما سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الاولين من آل الرسول وعلماء الامصار ، وأما عقاب الدنيا فيجب أن يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله تعالى في هذا العالم ولا سيما سنن اعتدال المزاج وصحة الأبدان وأمثلتها ظاهرة ، وسنن الاجتماع البشري ، فاتقاء الفشل والخذلان في القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها ، واتقان آلاتها وأسلحتها، التي ارتقت في هذا العصر ارتقاء عجيبا. وهو المشار اليه بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده (٨ : ٤٥ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاصبروا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ٤٦ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) ونحن نبين معنى التقوى في القرآن في كل موضوع بما يناسبه كالتقوى في الأكل من الطيبات في سورة المائدة (٥:٩١) ومثله في سياق تحريم الخمر منها (آية ٩٦) وغير ذلك فيراجع كل شيء في موضعه . وقال شيخنا في بيان المراد بهؤلاء المتقين مامعناه :

كان من الجاهليين من مقت عبادة الاصنام وأدرك ان فاطر السموات والارض لا يرضيه الخضوع لها ، وان الآله الحق يحب الخير ، ويبغض الشر ، فكان منهم من اعتزل الناس لذلك . وكانوا لا يعرفون من عبادة الله إلا الالتجاء والابتهال وتعظيم جانب الربوبية، وذلك ما كان يسمى صلاة في اسانهم - وبعض الخيرات التي يهتدي اليها العقل في معاملات الخلق

وكان من أهل الكتاب من وصفهم الله تعالى بمثل قوله (٣ : ١١٣ من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ١١٤ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) وبقوله (٥ : ٨٢ ولتجدنَّ أقربهم مودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قِسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون * ٨٣ وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيضُ من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) فأمثال هؤلاء من الفريقين هم المراد بالمتقين . ولا حاجة الى تخصيص ماجاء في وصفهم بالمؤمنين منهم بعد الاسلام أو بالمسلمين، بل أولئك هم الذين كان في قلوبهم اشمئزاز مما عليه أقوامهم، وفي نفوسهم شيء من التشوف الى هداية يهتدون بها ، ويشعرون باستعدادهم لها ، اذا جاءهم شيء من عند الله تعالى . فالمتقون في هذه الآية اذن هم الذين سلمت فطرتهم فأصابت عقولهم ضربا من الرشاد ووجد في أنفسهم شيء من الاستعداد لتلقي نور الحق يحملهم على توقي سخط الله تعالى والسعي في مرضاته ، بحسب ما وصل اليه علمهم ، وأداهم اليه نظرهم واجتهادهم

(٢) ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ

الايمان هو التصديق الجازم المقترن باذعان النفس وقبولها واستسلامها ، وآيته العمل بما يقتضيه الايمان عند عدم الصارف الذي يختلف باختلاف درجات المؤمنين في اليقين . والغيب ما غاب علمه عنهم ، كذات الله تعالى وملائكته والدار

الآخرة · وإقامة الصلاة الاتيان بهذه العبادة الروحية البدنية على أكمل وجه ممكن . وللصلاة صورة وروح ، فصورتها عبادة الاعضاء وروحها عبادة القلب ، كما يعلم مما يأتي ، وجمهور المفسرين على ان هـذه الآية في المسلمين من العرب أو مطلقاً ، ومابعدها فيمن أسلم من أهل الكتاب خاصة وفسرهما شيخنا تفسيراً هو أقرب الى مدلول النظم وان كان أبعد عن الروايات فقال ما مثاله :

الناس قسمان ماديٌّ لا يؤمن إلا بالحسيات ، وغير مادي يؤمن بما لايدركه الحس أي بما غاب عن المشاعر متى أرشد اليه الدليل أو الوجدان السليم. ولاشك ان الايمان بالله، وملائكته - وهي جنود غائبة لها مزايا وخواص يعلمها سبحانه وتعالى - وباليوم الآخر إيمان بالغيب . ومن لايؤمن بالله لايمكن أن يهتدي بالقرآن، ومن يتصدى لهدايته لابد له أن يقيم الحجة العقلية على أن لهذا العالم إلهاً متصفاً بصفات الكمال التي لاتتحقق الالوهية إلا بها ثم يقنعه بأن هذا القرآن هداية من لدنه تعالى

لذلك وصف الله المتقين الذين يهتدون بالقرآن بقوله: ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ والايمان بالغيب هو الاعتقاد بوجود وراء المحسوس — وقد كتب الاستاذ الامام في صاحبه مانصه — :

[وصاحب هذا الاعتقاد ، واقف على طريق الرشاد ، وقائم على أول النهج ، لايحتاج إلا الى من يدله على المسلك ويأخذ بيده الى الغاية ، فان من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل ، وان كانت لا يأتي عليها الحس ، اذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السموات والارض المستعلي عن المادة ولواحقها ، المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله ، سهل عليه التصديق وخف عليه النظر في جلي المقدمات وخفيها ، واذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التي استأثر الله بعلمها كعالم الملائكة مثلا لم يشق على نفسه تصديق ماجاء به الخبر بعد ثبوت النبوة - لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف في مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون في القرآن هدى لهم

[وأما من لايعرف من الموجود إلا المحسوس ويظن أن لاشيء وراء المحسوسات وما اشتملت عليه ، فنفسه نفر من ذكر ما وراء مسهوده أو مايسبه مشهوده ،

وقلما تجد السبيل الى قلبه اذا بدأته بدعواك ، نعم قد توصلك المجاهدة بعد مرور الزمان في ايراد المقدمات البعيدة ، والاخذ به في الطرق المختلفة ، الى تقريبه مما تطلب ، ولكن هيهات أن ينصرك الصبر ، أو يخضعه القهر ، حتى يتم لك منه الامر ، فمثل هذا اذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه ، ولم يجمل من نفسه وقعه ، فكيف يجد فيه هداية ، أو منقذاً من غواية ؟

[ولما كان الايمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدي الذي لم يأخذ من النفس الا ما أخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر في الافعال ، لانه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحظه وجدان القلب ، بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذي يسمونه ايمانا لا يفيد في اعداد القلب للاهتداء بالقرآن — لما كان هذا شأنهم منّ الله علينا ببيان يشعر بحقيقة ما أراده تعالى من معنى لايمان] فذكر علامات المؤمنين بالغيب الذين ينتفعون بهداية القرآن بالجمل الآتية ، قال ،

﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ الخ الصلاة اظهار الحاجة والافتقار الى المعبود بالقول أو العمل أو كليهما وهو المراد بقولهم « الصلاة معناها الدعاء » لان اظهار الحاجة الى العظيم الكريم ولو بالفعل فقط التماس للحاجة واستدرار للنعمة ، أو طلب لدفع النقمة ، أرأيتم أولئك الذين يقفون بين أيدي الملوك ناكسي رءوسهم حاني ظهورهم ، وتارة يقعون على أقدامهم يقبلونها ، أليس الباعث على هذا العمل اما خوف من عقوبة يطلبون به دفعها ، واما حذر على نعمة يتوقون سلبها ورفعها ، فيلتمسون بقاءها ، ويرجون زيادتها ونماءها ؟

هذه الصلاة كانت توجد عند بعض الجاهليين وهم الذين كانوا يعرفون بالحنيفيين والحنفاء ، وعند بعض أهل الكتاب . وكتب الاستاذ في وصفها مانصه :

[والصلاة بالمعنى الذي ذكرناه قد ظهر في الاسلام في أفضل أشكاله وهو تلك الصلاة التي فرضها الله على المسلمين فان هذه الاقوال والافعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم على النحو الذي جاءت به السنة المتواترة من أفضل ما يعبر به عن الاحساس بالحاجة الى المعبود وشعور الانفس بعظمته لو أقامها المصلون وأتوا بها على وجهها] ولذلك قال (ويقيمون الصلاة) ولم يقل يصلون

وفرق بينهما فان الصلاة متى حدثت بكيفية مخصوصة يقال لمن يؤديها بتلك الكيفية انه صلى وان كان عمله هذا خلواً من معنى الصلاة وقوامها المقصود من الهيئة الظاهرة ، فاحتيج الى لفظ يدل على هذا المعنى الذي به قوام الصلاة ، وهو ما عبر عنه القرآن بلفظ الاقامة . وقد قالوا ان اقامة الصلاة عبارة عن الاتيان بجميع حقوقها من كمال الطهارة واستيفاء الاركان والسنن . وهو لا يعدو وصف الصورة الظاهرة ، وانما قوام الصلاة الذي يحصل بالاقامة هو التوجه إلى الله تعالى والخشوع الحقيقي له ، والاحساس بالحاجة اليه تعالى ، وكتب شيخنا عند تفسير الصلاة هنا بما تقدم أخذاً عنه مانصه :

[فاذا خلت صورة الصلاة من هذا المعنى لم يصدق على المصلي أنه أقام الصلاة فانه قد هدمها باخلائها من عمادها ، وقتلها بسلبها روحها ، ومن غريب مزاعم من يسمون أنفسهم بالمسلمين : أن حضور القلب في جميع أجزاء الصلاة واستشعار الخشية من أصعب ماتتجشمه النفس ، بل يكاد يكون مستحيلا لغلبة الخواطر على ذهن المصلي . هذا وأخشى أن يكون هذا جحوداً لمعنى الصلاة ، وانما عرض لهم هذا الوهم الباطل من شدة الغفلة ، واستحكام العلة ، واني أدلهم على طريقة لو أخذوا بها لشغلوا بمعنى الصلاة حتى عن الصلاة نفسها ، تلك الطريقة هي أن لا ينطق المصلي بلفظ إلا وهو يستورد معناه على ذهنه ، فاذا قال (الحمد لله رب العالمين) يستحضر معنى الحمد وإضافته إلى ذات تعالى الله مع وصفه بالربوبية ، لجميع الاكوان العلوية والسفلية . واذا قال مثل (مالك يوم الدين) تصور معنى الملك وتعلقه بذلك اليوم يوم الجزاء ، وهكذا — فاذا أخذ المصلي على نفسه أن يتصور المعاني من ألفاظها التي ينطق بها فقد أقام الصلاة ، أما وهو ينطق ولا يفقه ولا يلحظ بذهنه معنى لفظ مايقول فكيف يزعم أنه يصلي فضلا عن أنه يقيم الصلاة ؟]

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أقول : الرزق فى اللغة النصيب والعطاء ويطلق على الحسي والمعنوي كالمال والولد والعلم والتقوى . ويخص بأمور المعاش بقرينة حالية أو لفظية ، وقال علماء أهل السنة : الرزق ما انتفع به حلالا كان أو حراماً وخصه

المميّزة بالحلال . ونفاق الشيء كنفاده . وأنفقه جعله ينفق بصرفه واخراجه من يده . وقال الجمهور : ان الانفـاق هنا يشمل النفقة الواجبة على الأهل والولد وذي القربى وصدقة التطوع اذ الآية نزلت قبل فرض الزكاة المعينة . وقوله تعالى (ومما رزقناهم) يدل على ان النفقة المشروعة تكون ببعض مايملك الانسان لا كل مايملك — فهو ركن من أركان الاقتصاد . والانفاق فى سبيل الله أظهر آيات الايمان الصحيح ، وقال شيخنا شارحا ذلك على طريقته بما مثاله :

هـذا الوصف من أقوى أمارات الايمان بالغيب ، لأن كثيراً من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم ومتى عرض لهم مايقتضي بذل شيء من المال لله تعالى يمسكون ولا تسمح أنفسهم بالبذل، وليس المراد بالانفاق هنا مايكون على الاهل والولد ، ولا مايسمونه بالجود والكرم، كقرى الضيوف ابتغاء عوض كالشهرة والجاه ، أو الانس بالاصحاب ، لأن هذا ليس من آثار الايمان بالغيب ، وانما هو الانفاق الناشيء عن شعور بأن الله تعالى هو الذي رزقه وأنعم عليه به ، وأن الفقير المحروم عبد لله مثله ، وأنه حرم من سعة العيش لضعف أو حرمان من الاسباب التي توصل إلى الرزق . [أو عن احساس بأن مصلحة من مصالح المسلمين ومنفعة من منافعهم العامة لاتقوم أو لاتصل اليهم الا ببذل المال ، وقد أوجب الله على من أوتي المال أن ينفق منه في ذلك السبيل وهو أفضل سبل الله] فمن يجد من نفسه داعية لبذل أحب الاشياء اليه وهو ماله ابتغاء مرضاة الله تعالى وقياما بشكره ، ورحمة لأهل العوز والبائسين من خلقه ، فهو لاشك مستعد لقبول هداية القرآن أتم الاستعداد ، حتى اذا مادعي اليه لبى وأجاب ، وأسلم إلى الله تعالى وأناب .

فهذا بيان حال الفرقة الاولى ممن يهتدي بالقرآن فعلا ويشملها لفظ المتقين بالمعنى السابق ، وكان منهم بعض العرب الحنفاء ، وبعض أهل الكتاب الصلحاء ، كما سبق بيانه . والمراد من كون القرآن هدى لهذه الفرقة أنها مستعدة لقبوله ، ومهيأة للاسترشاد به ، لان الايمان الاجمالي بالله وبحياة أخرى بعد هذه الحياة يوفى الناس فيها أجورهم بحسب أعمالهم البدنيـة والنفسية ، واتقاء مايحول دون

السعادة في هذه الحياة بحسب الاجتهاد الناقص والتعليم الذي لم يقتنع به العقل ، ولم تسكن اليه النفس ، قد هيأهم لقبول القرآن وأن يقتبسوا من نوره مايذهب بظلمات الجهل والحيرة ، ويمنح الارواح ماتتشوف اليه بمقتضى الفطرة .

وبعدأن بين حال هذه الفرقة التي يكون الكتاب هدى لها [يخرجها من ظلمات الشك إلى نور اليقين ، وينكب بها عن مهاب رياح الفكر إلى مستقر السكينة ، ومستكن الطمأنينة، بما تتعرفه النفس من جانب القدس ـ] عطف عليها بيان حال الفرقة التي اهتدت به فعلا، وصار اماما لها تتبعه في جميع أعمالها، دون أن تغمض عينها عنه . بعد أن أضاء لها ماأضاء منه ، فقال عز من قائل

(٤) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

أقول روي عن ابن عباس (رض) أن المراد بالمؤمنين هنا من يؤمن بالنبي والقرآن من أهل الكتاب ، وبالمؤمنين فيما قبلها من يؤمن من مشركي العرب . واختاره ابن جرير وآخرون . وعن مجاهد وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة ان المؤمنين في الآيتين قسم واحد وهو كل مؤمن وانما تعدد مايؤمنون به فالعطف فيها عطف الصفات لا عطف الموصوفين . وثم قول ثالث شاذ وهو ان الآيتين في مومني أهل الكتاب . وقد بينا قول شيخنا وسيأتي شرحه . والمراد على كل رأي من قوله تعالى ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل اليك ﴾ الايمان التفصيلي بكل ما أنزله الله تعالى في القرآن وأما قوله ﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ فيكفي فيه الايمان الاجمالي. وقال شيخنا ما مثاله :

هذه هي الطبقة الثانية من المتقين وأعيد لفظ (الذين) لتحقيق التمايز بين الطبقتين . وهذه الطبقة أرقى من الطبقة الاولى لأن أوصافها تقتضي الاوصاف التي أجريت على تلك وزيادة ، فالقرآن يكون هدى لها بالاولى ، ومعنى كونه هدى لها أنه يكون إمامها في أعمالها وأحوالها ، لاتحيد عن النهج الذي نهجه لها ، كما ذكرنا

ماكل من أظهر الايمان بما ذكر مهتدبا القرآن . فالمؤمنون بالقرآن على ضروب شتى، وترى بيننا كثيرين ممن اذا سئل عن القرآن قال: هو كلام الله ولاشك . ولكن اذا عرضت أعماله وأحواله على القرآن نراها مباينة له كل المباينة . القرآن ينهى عن الغيبة والنميمة والكذب ، وهو يغتاب ويسعى بالنميمة ولا يتأثم من الكذب. القرآن يأمر بالفكر والتدبر وهو كما وصف القرآن المكذبين بقوله تعالى فيهم : (الذين هم في غمرة ساهون) لا يفكر في أمر آخرته، ولا في مستقبله ولا مستقبل أمتـه ، ولا يتدبر الآيات والنذر ، ولا الحوادث والعبر .

ان المؤمن الموقن المذكور في الآية الكريمة هو الذي يزين أعماله وأخلاقه باستكمال ماهدى اليه القرآن دائماً ، ويجعله معياراً يعرض عليه تلك الاعمال والاخلاق ليتبين هل هو مهتد به أم لا ؟ مثال ذلك الصلاة يصفها القرآن بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقال في المصلين (إن الانسان خلق هلوعا * اذا مسه الشر جزوعا * واذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين)

فبين أن الصلاة تقتلع الصفات الذميمة الراسخة التي تكاد تكون فطرية ، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، ولم تقتلع من نفسه جذور الجبن والهلع ، وتصطلم جراثيم البخل والطمع ، فليعلم أنه ليس مصلياً في عرف القرآن ، ولا مستحقا لما وعد عباده الرحمن .

أما لفظ الانزال فالمراد به ماورد من جانب الربوبية الرفيع الاعلى، وأوحى الى العباد من الارشاد الالهي الاسمى، وسمي انزالا لما في جانب الألوهية من ذلك العلو: علو الرب على المربوب ، والخالق على المخلوقين ، الذين لا يخرجون بالتكريم والاصطفاء عن كونهم عبيداً خاضعين . وقد سمى القرآن غير الوحي من اسداء النعم الالهية انزالا فقال (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) فنكتفي بهذا من معنى الانزال ، وهو مايفهمه كل عربي ، من حاضر وبدوي .

وأقول الآن: إنني كنت اكتفيت بهذا القدر في تفسير الانزال ، تحامياً لما في المسألة من خلاف وجدال ، ولكنني سدت في التفسير الى فصل المقال في مسائل النزاع، ونزيد عليه أن انزال الحديد فيه أقوال أخرى للسلف والخلف كقوله تعالى

﴿ وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج ﴾ أوضحها أن المراد انزال الاحكام المتعلقة بها .
وقيل ان الحديد نزل من الجنة مع آدم . ومن المعلوم أن الانزال في اصل اللغة هو نقل الشيء من مكان عال الى مادونه ، ويطلق العلو مجازاً في الأمور المعنوية ، فهو علو مكان وعلو مكانة . ومن الثاني (وان فرعون لعال في الارض)

والتحقيق أن علو المكان الحسي أمر نسبي يختلف باختلاف موقع الناس من الاشياء ، والجهات كلها أمور نسبية لاحقيقية ، وأن الله سبحانه وتعالى فوق جميع خلقه بائن منهم بلا تشبيه ولا تمثيل ، لا متصل بشيء ولا حال فيه ، مستو على عرشه بالمعنى الذي أراده ، وهذا وجه تسمية مايأتي من لدنه انزالا ، فملك الوحي كان يتلقى الوحي منه عز وجل وينزل به من السماء الى الارض فيتلقاه منه النبي ﷺ ولا نعلم صفة تلقي الملك عن الله تعالى لانه من الغيب الذى نؤمن به مجملا كما بلغناه ، ولا صفة تلقي النبي ﷺ من جبريل لانه من شأن النبوة ولسنا بأنبياء ، وهو من الصلة بين عالم الغيب والشهادة . ولكن الله وصف لنا تكليمه للبشر بقوله (٤٢ : ٥١ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء) الآية ـ وقوله (٢٦ : ١٩٣ نزل به الروح الأمين ١٩٤ على قلبك لتكون من المنذرين ١٩٥ بلسان عربي مبين) ووصفه لنا رسوله (ص) في جوابه لمن سأله عنه وهو الحارث بن هشام المخزومي فقال « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ماقال . وأحيـانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي مايقول » رواه الشيخان من حديث عائشة (رض) ثم قال تعالى :

﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ أما لفظ (الآخرة) فقد ورد في القرآن كثيراً والمراد به الحياة الآخرة أو الدار الآخرة حيث الجزاء على الاعمال ، ويتضمن كل ماوردت به النصوص القطعية من الحساب والجزاء بالجنة وبالنار

وأما اليقين فهو الاعتقاد المطابق للواقع الذي لا يقبل الشك ولا الزوال ، فهو اعتقادان ـ اعتقاد أن الشيء كذا ، واعتقاد أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا .

وأقول الآن هـذا ماقاله شيخنا في الدرس ، وهو عرف علماء المعقول من المنطقيين والمتكلمين . وقد جاريناه عليه في مواضع ، وأما اليقين في اللغة فهو

الاعتقاد الجازم في غير الحسيات والضروريات كما صرحوا به ، فالجزم بخبر الصادق والاعتقاد المبني على الادلة والامارات يسمى يقينا إذا كان ثابتاً لاشك فيه . وفي لسان العرب أن اليقين العلم وإزاحة الشك وتحقيق الامر ، وهو نقيض الشك ، والعلم نقيض الجهل اه فالايمان الشرعي يشترط فيه اليقين اللغوي فقط وهو التصديق الجازم الذي لاشك فيه ولا تردد ، ولا ملاحظة طرف راجح على طرف مرجوح فان هذا هو الظن . واليقين المنطقي أكمل . وهو مابنى عليه شيخنا ما يأتي مبسوطا لا ملخصا ، قال مامعناه :

[وصفهم بانهم موقنون بالآخرة لأنهم مؤمنون بالقرآن ولم يصف بهذا الوصف الطائفة الاولى لأنها وإن كانت تؤمن بالغيب وتتوجه إلى الله تعالى بالصلاة المخصوصة بها وتنفق مما رزقها الله ، فذلك لاينافي أنها في حيرة من أمر البعث والجزاء ، وكذلك كانت قبل الايمان بالقرآن. وكان من هداية القرآن لها أن خرج بها من غمرات تلك الحيرة

لايعتد بما دون اليقين في الايمان ، وقد قال الله تعالى في اعتقاد قوم : (٥٣ : ٢٨ ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا) وإذا لم يكن الظان موقناً وعلى نور من ربه في اعتقاده فما حال من هو دونه من الشاكين والمرتابين ؟ . ويعرف اليقين في الايمان بالله واليوم الآخر بآثاره في الاعمال :

إننا نرى الرجل يأتي إلى المحكمة بدعوى زور يريد أن يأكل بها حق أخيه بباطل أو يجامل آخر بشهادة زور ، أو ينتقم بها من ثالث ، وهو يعلم أنه مزور ومبطل فيقال له : اتق الله ان أمامك يوما (يعض الظالم فيه على يديه) فيقول أعوذ بالله انه أعلم أن أمامي يوما ، وأن أمامي شبراً من الأرض (يعني القبر) والدنيا لاتغني عن الآخرة . ويحلف اليمين الغموس باسم الله تعالى أنه محق في دعواه أوفي شهادته، ثم يظهر التحقيق أنه مزور ، ويضطره الى الاعتراف والاقرار بذلك ، فكأن الايمان بالله واليوم الآخر عنده خيال يلوح في ذهنه عند ما يريد الخلابة والخداع لأجل أكل الحقوق أو إرضاء الهوى، ولا يظهر له أثر في أعماله وأحواله كأثر الاعتقاد ببعض المشايخ الميتين كما بينا ذلك من قبل

[فمثل هذا الايمان ـ وإن تعارف الناس على تسميته تلك ـ ليس من الايمان الذي يقوم على ذلك المعنى من الايقان ، ويظهر أثره في الجوارح والاركان.]

ثم قال بعد كلام في آثار اليقين : اليقين إيمانك بالشيء والاحساس به من طريق وجدانك كانك تراه [بان يكون قد بلغ بك العلم به أن صار مالكا لنفسك مصرفا لها فى أعمالها ، ولا يكون العلم محققاً للايمان على هذا الوجه حتى تكون قد أصبته من إحدى طريقتين (الاولى) النظر الصحيح فيما يحتاج فيه الى النظر كالايقان بوجود الله ورسالة الرسل ، وذلك بتخليص المقدمات ، والوصول بها إلى حد الضروريات ، فانت بعد الوصول إلى ماوصلت اليه كأنك راء ماستقر رأيك عليه

(والطريق الأخرى) خبر الصادق المعصوم بعد أن قامت الدلائل على صدقه وعصمته عندك ، ولا يكون الخبر طريقا لليقين حتى تكون سمعت الخبر من نفس المعصوم ﷺ أو جاءك عنه من طريق لاتحتمل الريب ، وهي طريق التواتر دون سواها ، فلا ينبوع لليقين بعد طول الزمن بيننا وبين النبوة إلا سبيل المتواترات التي لم يختلف أحد في وقوعها ، فالايقان بالمغيبات كالآخرة وأحوالها والملأ الاعلى وأوصافه ، وصفات الله التي لايهتدي اليها النظر [1] لايمكن تحصيله إلا من الكتاب العزيز ، وهو الحق الذي جاءنا من الله لاريب فيه ، فعلينا أن نقف عند ماأنبأ به من غير خلط ولا زيادة ولا قياس .

وأكد الايقان بالآخرة بقوله (هم) اهتماماً بشأنه وليبين أن الايقان بالآخرة خاصة من خواص الذين آمنوا بالقرآن وبما أنزل قبله من الكتب لايشركهم فيه سواهم . وقد علمت أنه لابد أن يكون الموقن به من أحوال الآخرة قطعيا . فهذه الاضافات التي أضافوها على أخبار الغيب وخلقوا لها الاحاديث بل أضافوا اليها أيضا أقوال أهل الكتاب وأشياء اخرى نسبوها إلى السلف ، وبعض

(١) يعني ان صفات الربوبية منها ما يعرف بالنظر والاستدلال كعلمه تعالى وقدرته ومشيئته وحكمته ووحدته ومنها مالايعرف به بل يتوقف على الوحي وخبر المعصوم عنه ، ومنها ماجعله المتكلمون من المتشابهات كالرضى والغضب والوجه واليد وسيأتي بيانه في محله . وراجع تفسير المتشابهات في تفسير أوائل سورة آل عمران

غرائب جاءت على لسان المتسبين للتصوف لاتدخل فيما يتعلق به اليقين، بل الجهل بالكثير منها خير من العلم به ، فانما الوصف الذي يمتاز به أهل القرآن هو اليقين، ولا يكون اليقين إلا حيث يكون القطع وأما الظن فهو وصف من عابهم القرآن وأزرى بهم فلا علاقة له بأحوالهم[1]

(٥) أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

ههنا اشارتان والمشار اليه عند الجمهور واحد وهو ما في الآيتين السابقتين من المؤمنين من غير أهل الكتاب والمؤمنين منهم ، وكرر الاشارة للاعلام بأنه لابد من تحقق الوصفين لتحقق الحكم بأنهم على هدى وانهم هم المفلحون . كذا قال بعضهم وهو تكلف ظاهر وكذا قولهم ان تنكير هدى هنا للتعظيم . وشيخنا قد جعل الاشارتين لنوعي المؤمنين المذكورين في الآية السابقة بأسلوب اللف والنشر المرتب

قال إن الاشارة الاولى ﴿ اولئك على هدى من ربهم ﴾ في هذه الآية للفرقة الاولى وهم الذين ينتظرون الحق لأنهم على شيء منه — كما يدل عليه تنكير « هدى » الدال على النوع — وينتظرون بيانا من الله تعالى ليأخذوا به ولذلك تقبلوه عند ماجاءهم . فقد أشعر الله قلوبهم الهداية بما آمنوا به من الغيب ، وأقاموا الصلاة بالمعنى الذي سبق ، وأنفقوا مما رزقهم الله ، وأما الفرقة الثانية وهم المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ فعلى هدى تشرك فيه تلك الفرقة الاولى لكن على وجه أكمل لانها مؤمنة بالقرآن وعاملة به . وقوله « على هدى » تعبير يفيد التمكن من الشيء كتمكن المستقر عليه كقولهم « ركب هواه » ولقد كان أفراد تلك الفرقة (أي الاولى) على بصيرة وتمكن من نوع الهدى الذي كانوا عليه، فان كان هذا غير كاف لاسعادهم وفلاحهم ، فهو كاف لاعدادهم وتأهيلهم لهما بالايمان التفصيلي المنزل ولذلك قبلوه عند ما بلغتهم دعوته

والى الفرقة الثانية وقعت الاشارة الثانية ﴿ واولئك هم المفلحون ﴾ كما هو ظاهر ، وهم المفلحون بالفعل لاتصافهم بالايمان الكامل بالقرآن وبما تقدمه من

[1] بين القطع والظن المنطقيين يقين هو اليقين اللغوي كما تقدم

الكتب السماوية واليقين بالآخرة — لامطلق الايمان بالغيب اجمالا ، ويرشد إلى التغاير بين مرجع الاشارتين ترك ضمير الفصل «هم» في الأولى وذكره في الثانية. ولوكان المشار اليه واحداً لذكر الفصل في الاولى، لأن المؤمنين بالقرآن هم الذين على الهدى الصحيح التام فهو خاص بهم دون سواهم ، لكنه اكتفى عن التنصيص على تمكنهم من الهدى بحصر الفلاح فيهم . ومادة الفلح تفيد في الاصل معنى الشق والقطع ومثلها مادة الفلج بالجيم والفلخ بالخاء والفلذ والفلع والفلغ والفلق والفل والفلم . ويطلق الفلاح والفلج على الفوز بالمطلوب ، ولكن لايقال أفلح الرجل اذا فاز بمرغوبه عفواً من غير تعب ولامعاناة ، بل لابدَّ في تحقيق المعنى اللغوي لهذه المادة من السعي إلى الرغيبة والاجتهاد لادراكها ، فهؤلاء ماكانوا مفلحين إلا بالايمان بما أنزل إلي النبي ﷺ وما أنزل من قبله. وباتباع هذا الايمان بامتثال الاوامر واجتناب النواهي التي نيط بها الوعد والوعيد فيما أنزل اليه (ص) مع اليقين بالجزاء على جميع ذلك في الآخرة ، ويدخل في هذا كله ترك الكذب والزور وتزكية النفس من سائر الرذائل كالشره والطمع والجبن والهلع والبخل والجور والقسوة وما ينشأ عن هذه الصفات من الافعال الذميمة، وارتكاب الفواحش والمنكرات، والانغماس في ضروب اللذات. كما يدخل فيه الفضائل التي هي اضداد هذه الرذائل المتروكة وجميع ماسماه القرآن عملا صالحا من العبادات وحسن المعاملة مع الناس [والسعي في توفير منافعهم العامة والخاصة مع التزام العدل والوقوف عند ماحدده الشرع القويم ، والاستقامة على صراطه المستقيم]

وجملة القول أن الايمان بما أنزل إلى النبي ﷺ هو الايمان بالدين الاسلامي جملة وتفصيلا ، فما علم من ذلك بالضرورة ولم يخالف فيه مخالف يعتد به فلا يسع أحداً جهله، فالايمان به ايمان، والاسلام لله به اسلام، وانكاره خروج من الاسلام، وهو الذي يجب أن يكون معقد الارتباط الاسلامي وواسطة الوحدة الاسلامية، وما كان دون ذلك في الثبوت ودرجة العلم فموكول الى اجتهاد المجتهدين، ولا يصح أن يكون شيء من ذلك مثار اختلاف في الدين

زاد الاستاذ هنا بخطه عند قولنا اجتهاد المجتهدين مانصه :

[أو ذوق العارفين أوثقة الناقلين بمن نقلوا عنه ليكون معتمدهم فيما يعتقدون بعد التحري والتمحيص . وليس لهؤلاء أن يلزموا غيرهم ما ثبت عندهم ، فان ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به لا يمكن لغيره أن يشعر بها حتى يكون له مع المنقول عنه في الحال مثل ما للناقل معه ، فلا بدّ أن يكون عارفا بأحواله وأخلاقه ودخائل نفسه ، ونحو ذلك مما يطول شرحه ويحصل الثقة للنفس بما يقول القائل]

وأقول : معنى هذا ان بعض أحاديث الآحاد تكون حجة على من تثبت عنده واطمأن قلبه بها ، ولا تكون حجة على غيره يُلزم العمل بها ، ولذلك لم يكن الصحابة (رض) يكتبون جميع ماسمعوا من الاحاديث ويدعون اليها مع دعوتهم الى اتباع القرآن والعمل به وبالسنة العملية المتبعة المبينة له إلا قليلا من بيان السنة كصحيفة علي كرم الله وجهه المشتملة على بعض الاحكام كالدية وفكاك الأسير وتحريم المدينة كمكة . ولم يرض الامام مالك من الخليفتين المنصور والرشيد ان يحملا الناس على العمل بكتبه حتى الموطأ . وانما يجب العمل بأحاديث الآحاد على من وثق بها رواية ودلالة . وعلى من وثق برواية أحد وفهمه لشيء منها أن يأخذه عنه ، ولكن لا يجعل ذلك تشريعا عاما . وأما ذوق العارفين ، فلا يدخل شيء منه في الدين ، ولا يعد حجة شرعية بالاجماع ، الا ما كان من استفتاء القلب في الشبهات ، والاحتياط في تعارض البينات .

---

(٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

قال الاستاذ : كان الذي تقدم بيانا من الله تعالى لصنفين من الناس لهم في القرآن هداية ولنفوسهم الى الاهتداء به انبعاث (الاول) من الصنفين أولئك الذين يبلغهم لأول مرة وهم ممن يخشى الله ويهاب سلطانه وفي أصول اعتقادهم الايمان بما وراء الحس على ما تقدم (والثاني) أولئك الذين آمنوا بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله

[وهذا الصنف قد يجتمع مع الذي قبله فيمن كانوا متقين مؤمنين بالغيب، ثم آمنوا بالنبي وبما جاء به ، وقد يفترق الصنفان فيمن بقي إلى اليوم لم تبلغه الدعوة وهو على تلك الاوصاف ، ومن ولد من آباء مؤمنين ثم صدق إيمانه بعد أن بلغ رشده وملك عقله]

أما هاتان الآيتان فقد بينتا حال طائفة ثالثة من الناس وهم الكافرون ، ثم يبين قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الخ حال طائفة أخرى أخص منها وهم المنافقون، الذين يظهر من أقوالهم وفي بعض أفعالهم أنهم مؤمنون ، ولكنهم في حقيقة أمرهم كافرون ، بل شر من الكافرين [فهذه أقسام أربعة ينقسم اليها الناس اذا بلغهم القرآن ونظروا فيه ، ودعوا إلى الايمان به والاخذ بهديه]

بين الله تعالى لنبيه أنه اذا كان يوجد في الناس من لا يؤمن بالقرآن فليس هذا عيباً وتقصيراً في هداية الكتاب ، وانما العيب فيهم لا في الكتاب ، لأنه هداية كسائر الهدايات الطبيعية التي أعرض الناس وعموا عنها [كهداية العقل والسمع والبصر ونحوها مما أكرم الله به هذا النوع البشري ، وقد يحكم الرجل بأن في العمل مضرة تلحق به ، ومع ذلك يعدل عن حكمه انتهازاً للذة زينها له حسه أو وهمه ، ويأتي ذلك العمل على ما يعلم من سوء مغبته ، فاحتقار الرجل لعقل نفسه لا يعد عيباً في تلك الموهبة الالهية ولا يحط من شأن النعمة فيها. أنظر إلى رجل يغمض عينيه ويمشي في طريق لا يعرفها فيسقط في حفرة وتتحطم عظامه ، هل ينقص ذلك من قدر بصره ، ويبخس من حق الله في الاحسان به ، على هذا الذي لم يرد أن يستعمله فيما خلق له] ففي الكلام تسلية لأهل الحق وسيدهم هو النبي ﷺ فهو تسلية له أولا وبالأولى

قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أقول هذا بيان لحال القسم الثاني من أقسام الناس تجاه هداية القرآن وقد قطعه وفصله مما قبله فلم يعطفه عليه الاشارة الى ما بينهما من طول شقة الانفصال وعدم المشاركة في شيء ما ، بخلاف القسم الثالث الآتي فان لهم حظاً منه في الدنيا ولمن يتوب منهم حظ في الآخرة أيضا ،

والكفر في اللغة ستر الشيء وتغطيته وإخفاؤه ، ولذلك وصف به الليل والبحر

والزراع في قوله تعالى (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) لأنهم يغطون الحب بالتراب ـ وفعله من باب نصر . وقال الفارابي وتبعه الجوهري من باب ضرب وهو خطأ كما في المصباح ـ ومن المجاز كفر النعمة بعدم شكرها وذكرها تنويهاً بها . وكذا الكفر بالله أو بوحدانيته وصفاته ، أو كتبه ورسله وماجاؤا به عن الله تعالى، أي انكاره وعدم التصديق به والاذعان له ولاسيما الشرك في عبادته ـ كل ذلك من ضروب الستر والتغطية السلبية في الامور المعنوية فهو مجاز لغة . وحقيقة شرعيه في معناه الشرعي المشار اليه آنفا . والمراد بالذين كفروا هنا من علم الله تعالى أن الكفر رسخ في قلوبهم حتى فقدوا الاستعداد للايمان وقال شيخنا : الكفر هنا عبارة عن جحود ماصرح الكتاب المنزل أنه من عند الله أو جحود الكتاب نفسه ، أو النبي الذي جاء به ، وبالجملة ماعلم من الدين بالضرورة [بعد مابلغت الجاحد رسالة النبي (ص) بلاغا صحيحاً ، وعرضت عليه الادلة على صحتها لينظر فيها فأعرض عن شيء من ذلك وجحده عناداً أو تساهلا أو استهزاءاً نعني بذلك أنه لم يستمر في النظر حتى يؤمن] ولم نسمع أن أحداً من الصحابة (رضي الله تعالى عنهم) كفر أحداً بما وراء هذا . فما عداه من الافاعيل والاقاويل المخالفة لبعض ما أسند إلى الدين ولم يصل العلم بأنه منه إلى حد الضرورة ـ أي لم يكن سنده قطعياً كسند الكتاب ـ فلا يعد منكره كافراً إلا اذا قصد بالانكار تكذيب النبي ﷺ فمتى كان للمنكر سند من الدين يستند اليه فلا يكفر [وإن ضعفت شبهته في الاستناد اليه مادام صادق النية فيما يعتقد ولم يستهن بشيء مما ثبت بالقطع وروده عن المعصوم ﷺ]

وقد تجرأ بعض المتأخرين على تكفير من يتأول بعض الظنيات ، أو يخالف شيئاً مما سبق الاجتهاد فيه ، أو ينكر بعض المسائل الخلافية ، فجرؤا الناس على هذا الأمر العظيم، حتى صاروا يكفرون من يخالفهم في بعض العادات، وإن كانت من البدع المحظورات [ثم هم على عقائد الكافرين ، وأخلاق المنافقين ، ويعملون عمل المشركين ، ويصفون أنفسهم بالمؤمنين الصادقين]

والكافرون أقسام : (منهم) من يعرف الحق وينكره عناداً وهؤلاء هم الاقلون

ولا ثبات لهم ولا قوام، وكان منهم في زمن النبي ﷺ جماعة من المشركين واليهود ولم يلبثوا أن انقرضوا

قال الاستاذ : كنت قلت في هذا المعنى كلمة جديرة بأن تحفظ وهي « إن جحود الحق مع العلم به كاليقين في العلم[1] كلاهما قليل في الناس »

(ومنهم) من لا يعرف الحق ولا يريد ولا يحب أن يعرفه وهم الذين قال الله تعالى فيهم (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) فهؤلاء كلما صاح بهم صائح الحق فزعوا ونفروا ، وأعرضوا واستكبروا ، ففي أنفسهم شعور بالحق ولكنهم يجدون فيها زلزلة ، كلما لاح لهم شعاعه يحجبونه عن أعينهم بأيديهم ، وسبب ذلك أنهم لم يستعملوا أنظارهم في فهم الحق، ويخافون لو استعملوها أن ينقصهم شيء مما يظنونه خيراً وينوهمونه معقوداً بعقائدهم التي وجدوا عليها آباءهم وساداتهم

(ومنهم) من مرضت نفسه واعتل وجدانه، فلا يذوق للحق لذة ، ولا تجد [illegible] فيه رغبة ، بل انصرف عنه الى هموم أخر ملكت قلبه وأسرت فؤاده ، كالهموم التي [illegible]بت أغلب الناس اليوم على دينهم وعقولهم ، وهي ما استغرقت كل ما [illegible] لديهم من عقل وادراك ، واستنفدت كل ما يملكون من حول وقوة ، في سبيل كسب مال أو توفير لذة جسمانية ، أو قضاء شهوة وهمية ، فعمي عليهم كل سبيل سوى سبيل استهلكوا فيه ، فاذا عرض عليهم حق أو ناداهم اليه مناد ، رأيتهم لا يفهمون ما يقول الداعي ولا يميزون بين ما يدعو اليه ، وبين ما هم عليه ، فيكون حظ أحد منهم الاستهزاء والاستهانة بأمره ، فاذا وعدهم أو أوعدهم النذير ، قالوا لا نصدق ولا نكذب حتى ننتهي الى ذلك المصير ، وهذا القسم كالذي قبله [illegible] الناس في كل زمان ومكان ، خصوصاً في الامم التي [illegible] حول [illegible] أذهانها عين نضرة ، وتنبعث من أنفسهم [illegible] في [illegible] لا هم لهم الا فيما يملأ بطونهم و [illegible] وشهواتهم .

(1) يعني اليقين [illegible] الذي [illegible] العلم به [illegible] الضرورة كما تقدم [illegible] المؤمنين [illegible] زمان

ويصح جمع هذين القسمين تحت قسم واحد وهو قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين، والقسم الاول هو قسم المعاندين المكابرين]

فكل من هذه الفرق ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم[1] أم لم تنذرهم ﴾ الانذار الاخبار والاعلام بالشيء المقترن بالتخويف مما يترتب عليه من فعل يتضمن ذمه وطلب تركه أو ترك لأمر يتضمن مدحه وطلب فعله، نصاً أو اقتضاء، والسواء اسم مصدر بمعنى الاستواء . والمعنى أن الذين كفروا ولم يدخلوا في قسم المستعدين للايمان لرسوخهم في الكفر ، يستوي الانذار وعدمه بالنسبة اليهم في الواقع ، فالذي يعرض عن النور مع العلم به ويغمض عينيه كيلا يراه بغضاً له لذاته أو تأذيا به، أو عناداً وعداوة لمن دعاه اليه ـ ماذا يفيده النور ، وماذا يعيب النور من اعراضه ؟ والذي لايعرف النور ولا يحب أن يعرفه لأن فساد طبيعته وخبث تربيته أناه عنه وأبعده ، وجعله يألف الظلمة كالخفاش ،[أو أفسد الجهل وجدانه فأصبح لايميز بين نور وظلمة ، ولا بين نافع وضار ،ولا بين لذيذ ومؤلم ،ماذا عساه يفيده النور مهما سطع، أو يؤثر فيه الضوء مهما ارتفع] ﴿ لا يؤمنون ﴾ أقول :هذه جملة مفسرة لتساوي الانذار وعدمه في حقهم لافي حقه (ص) وحق دعاة دينه ، فهم يدعون كل كافر الى دين الله الحق لانهم لا يميزون بين المستعد للايمان وغير المستعد له إذ هو أمر لا يعلمه الا الله تعالى

ثم وصف سبحانه فقدهم لهذا الاستعداد ، ورسوخهم في الكفر الذي لم يبق

(١) في اجتماع مثل هاتين الهمزتين قراآت تتعلق بالاداء دون المعنى : قرأها الكوفيون وابن ذكوان بتحقيق الهمزتين وهي لغة بني تميم ، وأهل الحجاز يخففون فقرأ الحرميان من القراء وأبو عمرو وهشام بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية وأبو عمرو وقالون واسماعيل عن نافع وهشام يدخلون بينهما ألفا في هذه الحالة وابن كثير لايدخل . وروي عن هشام تحقيقهما مع إدخال الف بينهما . وعن ورش كابن كثير وكقالون ابدال الثانية الفا فيلتقي ساكنان على غير حده وفاقا للكوفيين وخلافا للبصريين . والبصريون انما يمنعون جعله قياسا ولكنهم لا يستطيعون رد ما ثبت بالتواتر سماعا ولا سيما القرآن .

معه محل لغيره بهـذا التعبير البليغ ﴿ ختم الله على قلوبهـم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ قال الراغب : الختم والطبع يقال على وجهين : مصدر ختمت وطبعت وهو تأثير الشيء كنقش الخاتم والطابع (والثاني) الأثر الحاصـل عن النقش ، ويتجوز بذلك تارة في الاستيثاق من الشيء والمنع منه اعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والابواب نحو (ختم الله على قلوبهم * وختم على قلبه وسمعه) — الى أن قال — فقوله (ختم الله على قلوبهم) ... اشارة الى ما أجرى الله به العادة أن الانسان اذا تناهي في اعتقاد باطل وارتكاب محظور ـ ولا يكون منه تلفت بوجه الى الحق — يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي ، وكأنما يختم بذلك على قلبـه . وعلى ذلك (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) أه المراد منه

وأقول ان مراده ان هذا التعبير مثل لمن تمكن الكفر في قلوبهم حتى فقدوا الدواعي والاسباب التي تعطفهم الى النظر والفكر في أدلة الايمان ومحاسنه . ختم الله على قلوبهم فلا يدخلها غير مارسخ فيها ، وعلى أسماعهم فلا يسمعون آيات الله المنزلة سماع تأمل وتفقه ، وقوله (وعلى أبصارهم غشاوة) جملة معطوفة على جملة (ختم) والغشاوة ما يغطى به الشيء ومعنى هذه المادة : غ ش ي ـ التغطية والمراد أن أبصارهم لا تدرك آيات الله المبصرة الدالة على الايمان ، فكل من الفريقين لا يرجى ايمانه. وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى سمعهم الى الله تعالى لانه بيان لسنته تعالى في أمثالهم ، وعبر عنه بالماضى للدلالة على أنه أمر قد فرغ منه ، وهو لا يدل على أنهم مجبورون على الكفر ، ولا على منع الله تعالى اياهم منه بالقهر ، وانما هو تمثيل لسنته تعالى في تأثير تمرنهم على الكفر وأعماله في قلوبهم بانه استحوذ عليها وملك أمرها حتى لم يعد فيها استعداد لغيره كما تقدم مثله عن الراغب . ويوضح ما قلناه قوله تعالى في سورة المنافقين (٦٣ : ٣ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) وقوله في اليهود من سورة النساء (٤ : ١٥٤ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم : قلوبنا غلف . بل طبع الله عليها بكفرهم فلا

يؤمنون الا قليلا) فذكر أن الطبع على قلوبهم انما هو بسبب كفرهم وتلك المعاصي التي أسندها اليهم وقوله تعالى في سورة الجاثية (٤٥ ٢٢ أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ـ فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) فقد ذكر من فعله المسند اليه أنه اتخذ الهه هواه، ومن صار هواه معبوده لايفيد معه شيء . وقد صرح هنا بأن الغشاوة على بصره من جعل الله تعالى ولم يصرح بذلك فى آية البقرة التي نفسرها، والمعنى واحد . ولشيخنا الاستاذ الامام دقائق في هذه التعبيرات ادخرها الله تعالى له وهي مع هذا تغنيك عن تماري الاشعرية والمعتزله في الايات تعصبا لمذاهبهم. قال :

يقولون إن الختم والطبع والرين ألفاظ تجري على شيء واحد وهو : تغطية الشيء والحيلولة بينه وبين ما من شأنه أن يدخله ويمسه ، والقلوب مراد بها العقول ، والمراد بالسمع الأسماع ، وإفرده لأن أصله مصدر ومن شأن المصادر أن لاتجمع ، وقد لوحظ هنا الأصل ، والابصار العيون التي تدرك المبصرات من الاشكال والألوان

(قال) وأنا أرى في مسألة هذا الجمع والافراد رأيا آخر إذ لو صح ماقيل فن البصر أيضاً مصدر فلماذا جمعه . والذي أراه أن العقل له وجوه كثيرة في إدراك المعقولات فليس الناس فيه سواء ، فجمع لاختلاف الناس فيه ، وأنواع تصرفهم في وجوهه ، بخلاف السمع فان اسماع الناس تتساوى في إدراك المسموعات ، فلا تتشعب تشعب العقول في إدراك المعقولات . وأما الابصار فهي مثل العقول في التشعب ، وعدم تعين للعقول في ادراكها ، لأن أنواع المبصرات كثيرة فتعطي للعقل مواد كثيرة . والسمع لايدرك الا الصوت ، وليس في الكلام عند النقل طريق من طرق العلم اليقيني الا المتواتر بخلاف مانقطع فيه بالضرورة من طريق العقل والبصر فهو كثير ، كالاوليات [1] كحكم بأن الجزء أصغر من الكل

---

[1] الاوليات هي القضايا الضرورية التي يحكم العقل بها بمجرد تصور طرفيها بدون حاجة الى شيء آخر فهي أخص من الضروريات مطلقا

وأن النقيضين لايجتمعان ولا يرتفعان، والقضايا التى قياساتها معها [١] ــ من المعقولات المحضة . والتجريبات والحدسيات [٢] يشترك فيها العقل والبصر ، والقسم الأعظم من المشاهدات سبيل الادراك فيه البصر . فالعقول والابصار بمنزلة ينابيع كثيرة تنبجس من كل منها عيون للعلم مختلفة ، بخلاف السمع فانه ينبوع واحد لا اختلاف فيما يصدر عنه] فالحاصل أن العقول والابصار تتصرف في مدركات كثيرة فكانها صارت بذلك كثيرة فجمعت، وأما السمع فلا يدرك الا شيئاً واحداً فأفرد

سأله سائل : كيف هذا وقد قالوا إن السمع أفضل من البصر ؟ فقال انا لاأتكلم في التفضيل ، ذلك الى الله ورسوله ، وانما أشرح موجوداً وأبين مناسبة اللفظ له ، [وان المشاهدة قاضية بأن العقل لامنتهى لتصرفه ، وبأن أقل ماقيل في البصر انه يدرك الالوان، والاشكال ، والمقادير ، والسمع لايدرك الا الاصوات فقط ، كما أن الذوق لايحس الا بالمذوقات وحدها ، وان كان مايصل من طريق السمع قد يتضمن حكاية عن معقول أو مبصر ، ولكن وروده على الحكاية لا بغير من حقيقته، فهو معقول أو مبصر . فمن ذكر لك برهانا على حقيقة علمية فانما تسمع منه الاصوات والحروف . وأما فهمك المقدمات ووصولك منها الى النتائج فهو من طريق عقلك لا من طريق سمعك ، فان كان حديث الافضلية يستند الى أن جميع المدركات قد يمكن أن يعبر عنها بالكلام ــ وهو مسموع ــ فقد بينا لك ما فيه، ويعارضه أن جميع ضروب الكلام يصح أن تكتب وطرق فهمها من الرقم

(١) هي ما يحكم العقل فيه بواسطة لا تغيب عن الذهن عند تصور طرفي القضية كقولنا: الاربعة زوج بسبب وسط حاضر فى الذهن وهو الانقسام بمتساويين

(٢) هي ما يحتاج العقل في الجزم بالحكم فيها الى تكرار التجربة حتى تثبت بعد ستة مرة بعد أخرى . والحدسيات هي ما يجزم العقل بالحكم فيها بسبب تكرار المشاهدة كجزمنا بأن [illegible] ضاغطة رافعة ونور القمر مستفاد [illegible] ويكن هذا من اصطلاح علم المنطق ونحن نحامي أمثال هذه الاصطلاحات [illegible] وفيما عندنا في التفسير [illegible] نقله [illegible] .

انما هو البصر ، والحق أن المعول عليه في تعدد الطريق ليس مايكون من قبيل الحكاية ، بل مايكون من طبيعة القوة]

وأما انطباق الكلام على تلك الاقسام السابقة وبيان حرمانهم وكونهم كما وصفوا ـ فهو بالنسبة إلى الطائفة التي عاندت الحق وهي تعرفه ـ ظاهر ، لأنهم لما عاندوا الحق لانه لم يأت على أيديهم [فقد طبع على قلوبهم بطابع ذلك العناد نفسه ، فانه قد حيل بين عقولهم وادراك مايصيرون اليه بالاصرار على الباطل من ضعف أمر وفساد حال في الدنيا ، وشقاء وخلود في نكال الآخرة ، ثم هم قد حجبوا به عن ادراك مايتبع] ذلك الحق من المعارف والحقائق الاخرى ، فقد ختم على قلوبهم بالنسبة الى ماحجبوا عنه

وأما الختم على سمعهم فلأنهم صموا عن سماع الحق واسماع القول افهمه ، فمن أعرض عن فهم الحق فهو لم يسمع الا صوتا لم ينفذ شيء من معناه الى موضع الادراك الحقيقي منه ، فقد ختم على سمعه فلا ينفذ اليه شيء ينتفع به

وأما الابصار فانما كانت عليها غشاوات عند هؤلاء الجاحدين ، لأن فائدة البصر ، هي التوقي من الخطر ، والعبرة بما يبصر ، فمن لم ينظر في الآيات الكونية التي تقع تحت بصره كل يوم كأنه لم يبصر شيئاً منها فقد ضرب على بصره بغشاوة . [وأما بالنسبة الى القسمين الآخرين اللذين جمعا تحت قسم واحد وهو قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين كما سبق فالختم على القلوب والسمع والابصار ظاهر لأنهم لم ينتفعوا بشيء من هذه القوى حتى في فهم مايعرض عليهم ، ورؤية مايقع تحت حواسهم] والكلام كله ضرب من التمثيل يعرفه اللسان وتعهده اللغة . والمعنى هو مابينا والله أعلم . [ولما كان حديث الختم تمثيلا لفقد حقيقة الفهم والحرمان من فوائد تلك المواهب الالهية : مواهب العقل والسمع والابصار ـ كان اسناده الى الله تأكيداً لمعنى الحرمان ، وتقريراً لمصيبة الخسران ، لان ماختم بيد الله لاتفضه يد سواه]

وأما النكتة في استعمال الختم مع القلب والسمع ، والغشاوة مع البصر ، فهي أن الختم من شأنه أن يكون على المكنون المستور . وهكذا موضع حس السمع ، وموضع الادراك من العقل ، والاسماع في ظاهر الخلقة ، وأما البصر فالحاسة منه

ظاهرة منكشفة (قال) ومثل هـذه الدقائق هي المرادة بقول صاحب التلخيص « ولـكل كلمة مع صاحبتها مقام »

﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ أقول : العذاب اسم لما يؤلم ويذهب بعذوبة الحياة من ضرب ووجع وجوع وظمأ. قال الراغب : واختلف في أصله فقال بعضهم هو من قولهم: عَذَبَ الرجلُ اذا ترك المأكل (زاد غيره من شدة العطش) والنوم فهو عاذب وعذوب ، فالتعذيب في الأصل هو حمل الانسان أن يعذب ، أي يجوع ويسهر . وقيل أصله من العذب ، فعذبته : أزلت عذب حياته . على بناء مرضته وقذيته[1] وقيل أصل التعذيب إكثار الضرب بعذبة السوط أي طرفه اهـ وقال البيضاوى العذاب كالنكال بناء ومعنى تقول أعذب عن الشيء ونكل عنه ـ اذا أمسك. ومنه الماء العذب لأنه يقمع العطش ويردعه ، ولذلك يسمى نُقاخا وفراتا ثم اتسع فأطلق على كل ألم فادح وإن لم يكن عقابا يردع الجاني عن المعاودة الخ والعظيم ضد الحقير فهو فوق الكبير الذى هو ضد الصغير . وتنكير العذاب هنا للاشارة الى انه نوع منه مبهم مجهول عند أهل الدنيا ، بناء على أن المراد به عذاب الآخرة التي هي من عالم الغيب . وقال شيخنا تبعاً للجمهور : التنكير فيه للتعظيم والتهويل ووصفه مع ذلك بعظيم يدل على أنه بالغ حد العظمة كما وكيفاً . فهو شديد الايلام ، وطويل الزمان . وهل هذا العذاب في الدنيا أم في الآخرة ؟ قال في آية أخرى (لهم في الدنيا خزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) فيؤخذ من هذه الآية ومن آيات أخرى أن الاعراض عن هدى الاسلام ، وما أرشد اليه من إصلاح المعاش والمعاد ، جزاؤه الضنك والضيق وفقد العزة والسلطة فى الدنيا ، والعذاب العظيم فى العقبى.

وهنا سأله سائل : هل الآية نص فى التكليف بالمحال ؟ فقال لا ، وأنا لاأحب أن أحشر المسائل الخلافية في تفسير القرآن بل أحب أن أبين المعنى الذي كان يفهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وما كان يخطر على بال أحد منهم التكليف بالمحال . على ان الاتفاق واقع بين الأئمة بل بين الامة على أن التكليف

(١) يقال قذيته أو قذيت عينه أي أخرجت القذي منها فالهمزة للازالة

بالمحال غير واقع ، وان الله (لا يكلف نفساً الا وسعها) كما صرح به الكتاب وتضافرت عليه الاحاديث النبوية ، فما بقي من مواضع الخلاف لا يمس نصوص الكتاب العزيز الذي (لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

( ) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٩) يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٠) فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ

قدمنا ان الكلام من أول السورة في القرآن وأقسام الناس بازائه وذكرنا منهم ثلاث فرق - فرقتان لهما فيه هدى (إحداهما) المتقون وبيّن حالهم بقوله (الذين يؤمنون بالغيب) الخ ومنهم الذين كانوا يدعون الحنيفيين والمنصفون من أهل الكتاب الذين كانوا ينتظرون اشراق نور الحق ليهتدوا به كما تقدم . (والثانية) هي المذكورة في قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) الخ وهم كل من آمن بالنبي ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم على التحقيق

وبينا انه يوجد بازاء هاتين الطائفتين طائفتان أخريان لا ترجى هدايتهما بالقرآن . الاولى منهما هي المشروح حالها في قوله تعالى (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) الخ وهي كما قسمنا تنقسم الى قسمين - جاحدين لا يسمعون ، ومعاندين يعرفون الحق ولا يذعنون .

وهذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها الآن هي المبينة لحال الفرقة الرابعة وهي فرقة من الناس توجد في كل آن وفي كل عصر . وليست الآيات كما قيل في تلك النفر من المنافقين الذين كانوا في عصر التنزيل ، ولذلك قال تعالى في بيان حالهم (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) ولم يقل عنهم انهم يقولون مع ذلك وآمنا بمحمد . وما كان القرآن ليعنى بأولئك النفر الذين

لم يلبثوا ان انقرضوا كل هذه العناية ويطيل في بيان حالهم أكثر مما أطال في الاصناف الثلاثة الذين هم سائر الناس

نعم ان الآيات على عمومها تتناول من كان منهم في عصر التنزيل تناولا أوليا وتصف حالهم وصفا مطابقا ، وهي مع ذلك عبرة عامة شاملة لمن مضى ولمن يجيء من هذا الصنف الى يوم القيامة ، وقد كان ويكون من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس ومن كل طائفة تدعي انها على دين ، ولم يحك عنهم دعوى الايمان بالأنبياء والاعمال الصالحة ـ مع أن منهم الذين يدعون ذلك ـ لان الايمان باليوم الآخر يتضمن ذلك ، فهو انما يعرف من قبل الانبياء ، وهذا من ضروب ايجاز القرآن التي بلغت حد الاعجاز

قد يقال : كان في أولئك القوم من كانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر كمنافقي اليهود فلم كذبهم ونفى عنهم الايمان نفياً مطلقاً مؤكداً بدخول الباء في خبر «ما» فقال ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ أي بداخلين في جماعة المؤمنين الصادقين البتة . وهو أبلغ من نفي فعل الايمان المطابق للفظهم والمقيد بالايمان بالله وباليوم الآخر — والجواب ان اعتقادهم التقليدي الضعيف لم يكن له أثر في أخلاقهم وأعمالهم ، فلو حصّل ما في صدورهم ، ومحص ما في قلوبهم ، وعرفت مناشيء الاعمال من نفوسهم ، لوجد أن ما كان لهم من عمل صالح كصلاة وصدقة فانما مبعثه رئاء الناس ، وحب السمعة ، وهم من وراء ذلك منغمسون في الشرور ، كالافساد والكذب والغش والخيانة والطمع وغير ذلك من الرذائل التي حكاها عنهم الكتاب ونقلها رواة السنة ، وهذه الاعمال تدل على أنهم لا يؤمنون بالله كما يحب ويرضى أن يؤمن به ، وهو أن يشعر المؤمن بعظيم سلطانه ، ويعلم أنه سبحانه مطلع على سره واعلانه ، لانه مهيمن على السرائر ، وعالم بما في الضمائر ، فيرضيه بظاهره وباطنه . بل كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات يظنون انهم يرضون الله تعالى بذلك . ولذلك قال فيهم:

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ أقول الخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه له لتنزله عما هو بصدده من قولهم : خدع الضب اذا توارى في جحره ، وضب خادع ـ اذا أوهم الحارس اقباله عليه ثم خرج من باب آخر ،

وأصله الاخفاء . هذا ماحرره البيضاوي وقد جعله الراغب أعم فلم يعتبر فيا يخفيه الخادع أن يكون مكروها ، وهذا المعنى لا يمتنع اسناده الى الله تعالى والى المؤمنين وهو ماتدل عليه صيغة المشاركة « يخادعون » وقالوا انه محال على الله وغير لائق بالمؤمنين بل يستقبح لانه عمل المنافقين ، وقد جاء في سورة النساء (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ولما كان إخفاء شيء عن الله تعالى محالا فسروا مخادعتهم لله هنا وهناك بأنه خداع في الصورة لا في الحقيقه وذلك انه شرع أن يعاملوا معاملة المؤمنين ولكنهم لا يجزون جزاءهم في الآخرة بل يكونون في الدرك الأسفل من النار - فمعاملتهم الظاهرة غير جزاءهم المغيب عنهم في الآخرة، كما أن عملهم الظاهر غير كفرهم الخفي في أنفسهم ، فالجزاء من جنس العمل ، ولكن عملهم خداع - ومقابله حق صورته صورة الخداع ، ولكنه لاغش فيه لأن النصوص صريحة في كفر المنافقين - والتحقيق ان فعل المشاركة هنا خاص بالفاعل المسند اليه فعله وهم المنافقون ، وصيغة « فاعل » لاتطرد فيها المشاركة بالفعل كعاقبت اللص، وقد تكون مقدرة أو باعتبار الشأن أو القصد ، ومن التكلف قول بعضهم انه عبر عن مخادعتهم للرسول ﷺ بمخادعة الله تعالى

وقال شيخنا : العمل الظاهر الذي لا يصدقه الباطن اذا قصد به ارضاء آخر يسمى في اللغة مداجاة ومداراة ومخادعة ، فان كان يقصد به المخادعة فظاهر ، والا فيكفي لصحة الاطلاق ان العمل عمل المخادع ، لا عمل الطائع الخاضع ، وهذا مراد القرآن من مخادعة هؤلاء الذين هم من أهل الكتاب المؤمنين بالله ايمانا ناقصا ، لم يقدروا الله فيه حق قدره ، ويستحيل أن يقصد المؤمن بالله تعالى مخادعته، ولكنهم لجهلهم بالله ظنوا به ماسوغ وصفهم بما ذكرنهم .

قال تعالى ﴿ وما يخدعون الا أنفسهم ﴾ أقول: وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (ومايخادعون الا أنفسهم) وهو دليل على ماقلنا آنفا في صيغة « فاعل » والمشاركة هنا للاشارة إلى أنهم هم الخادعون المخدوعون ، وقراءة الجمهور (يخدعون) نص في ان مخادعتهم لله وللمؤمنين لا تأثير لها فيهما فهي بالنسبة اليهما صورية وفي الحقيقة ان القوم يخدعون أنفسهم لان ضرر عملهم خاص بهم ، وعاقبته وبال عليهم

وحدهم . وقال الاستاذ في الدرس فيها مامثاله :

اذا رجع الانسان الى نفسه، وأصغى لمناجاة سره، يجد عند مايهم بعمل شيء ان في قلبه طريقين ، وفى نفسه خصمين مختصمين، أحدهما يأمره بالعمل وسلوك الطريق الأعوج ، وآخر ينهاه عن العوج ، ويأمره بالاستقامة على المنهج ، ولا يترجح عنده باعث الشر ، ولا يجيب داعى السوء ، الا اذا خدع نفسه بعد المشاورة والمذاكرة المطوية فيها ، وصرفها عن الحق ، وزين لها الباطل ، وهذه الشؤون النفسية فى غاية الخفاء ، تكون المنازعة ثم المخادعة ثم الترجيح ويمر ذلك كله كلمح البصر ، وربما لا يلتفت اليه الانسان بفكره ، ولذلك قال ﴿ وما يشعرون ﴾ فان الشعور هو ادراك ماخفي.

أقول قال الراغب بعد ذكر الشعر (بفتح الشين وسكون العين وفتحها) من مفرداته وشعرت أصبت الشعر ، ومنه استعير شعرت كذا أي علمت علماً هو في الدقة كإصابة الشعر ومنه يسمى الشاعر شاعراً لفطنته ودقة معرفته ، فالشعر في الاصل اسم للعلم الدقيق في قولهم : ليت شعري . وصار في التعارف اسما للموزون المقفى من الكلام اهـ

أقول ويناسب هذا الشعار بالكسر للكساء الباطن الذي يمس شعر الانسان . والمعروف في كتب اللغة ان شعر به (كنصر وكرم) يشعر شعرا (بالكسر والفتح) وشعوراً معناه علم به وفطن له وأدركه . والفطنة تتعلق بالأمور الدقيقه . وأطلق بعض المفسرين ان الشعور إدراك المشاعر أي الحواس الحس والتحقيق أنه ادراك مادق من حسي وعقلي ، فلا تقول شعرت بحلاوة العسل وبصوت الصاعقة وبألم كية النار ، وانما تقول : أشعر بحرارة مافى بدني ، وبملوحة أو مرارة فى هذا الماء ، اذا كانت قليلة ـ وبهينمة وراء الجدار. وماورد في القرآن من هذا الحرف يدل على هذا المعنى أي ادراك مافيه دقة وخفاء .

فمعنى نفي الشعور عن المنافقين في مخادعتهم لله تعالى انهم يجرون في كذبهم وتلبيسهم وريائهم على ماألفوا وتعودوا ، فلا يحاسبون أنفسهم عليه، ولا يراقبون الله فيه ، وما كلهم يؤمنون بوجود الله واحاطة علمه، ومن يؤمن بوجوده لم يتربّ على خشيته ومراقبته، ولا يفكر فيما يرضيه وفيما يغضبه، فهو يعمل عمل المخادع له وما يشعر بذلك.

وأما مخادعتهم المؤمنين فظاهرة لأنهم اتخذوهم أعداء وهم عاجزون عن اظهار عداوتهم ، فأعمالهم التي يقصدون بها أرضاء المؤمنين كلها خداع ورياء، وقد فصل شيخنا سر مخادعتهم وفلسفتها ببيان على جلي فقال ما معناه :

هؤلاء المغرورون اذا عرض زاجر الدين بينهم وبين شهواتهم قام لهم من أنفسهم مايسهل لهم أمره من أمل في الغفران، أو تأويل الى غير المراد ، أوتحريف الى مايخالف القصد من الخطاب ، وذلك بما رسخ في نفوسهم من ملكات السوء المغشاة بصور من العقائد، الملونة بما قد يتجلي للاعين فيما يسمونه ايمانا ، وماهم في الحقيقة بمؤمنين ، وانما هم خادعون مخدوعون ، ولكنهم لما عمي عليهم من أمر أنفسهم لايشعرون ، لأن ذلك يمر في أنفسهم وهم عنه غافلون .

وفرق ظاهر بين ماتستحضره النفس من المعلومات وتستعرضه عندما تسئل عنه، وماهو راسخ فيها من تلك المعلومات ، بصيرورته ملكة في النفس متصرفة في الارادة باعثة لها على العمل ، فمن العلوم ماهو ثابت في النفس ممتزج بها ، [على النحو الذي ذكرنا فيتبع امتزاجه هذا تمكن ملكات أخر تصدر عنها الاعمال وهي مايعبر عنه بالاخلاق والصفات كالكرم والشجاعة ونحوهما فانها انما تنطبع في النفس تبعا للعلم الذي يلائمها] وهو العلم الحقيقي الذي تصدر عنه الاعمال وربما يغفل الانسان عنه ولا يلاحظه عندما يعمل. وفرق بين ملاحظة العلم واستحضاره، وبين وجوده وتحققه في نفسه ،

ومن العلوم مايلاحظ الانسان أنه عنده فهو صورة عند النفس تستحضره عند المناسبة ويغيب عنها عند عدمها، لأنه لم يُشربه القلب ولم يمتزج بالنفس فيصير صفة من صفاتها الراسخة التي لاتزايلها | وهذا النوع من العلم يتعلق بما تعلق به النوع الاول ، كعلم الحلال والحرام الذي يحصله طلبة الفقه الاسلامي مثلا ، وكعلم مزايا الفضيلة ورزايا الرذيلة الذي يحزنه طلاب علوم الآداب والاخلاق والنظار في كتب الأواخر والأوائل لتغزير مادة العلم وتوسيع مجال القول وتوفير مقدرة على حسن المنطق ونحو ذلك ، فهذا العلم كالأداة المنفصلة عن العامل ، تبقى في خزانة الخيال، تستحضره النفس عند ماتدفعها الشهوة الى تزيين

ظاهر المقال، لا إلى تحسين باطن الحال، ولن يكون لهذا الضرب من العلم أدنى أثر في عمل من أعمال صاحبه . وتسميته علما لانه يدخل في تعريفه العام « صورة من الشيء حاضرة عند النفس » وعند التدقيق لاترتفع به منزلته إلى أن يندرج في معنى العلم الحقيقي] فاستحضار هذا العلم كاستحضار الكتاب واللوح وإدراك مافيه ،ثم الذهول عنه ونسيانه عند الاشتغال بشيء آخر :

فهؤلاء ـ الذين يخدعون أنفسهم ويخادعون الله تعالى ـ عندهم علم حقيقي تنبعث عنه أعمالهم وان كان باطلا في نفسه ، وهو تصديقهم بما في شهواتهم ، من المصلحة لذواتهم ، وهو الذي رجح عندهم اختيار مافيه قضاؤها والانصباب الى ماتدعو اليه، وهو ماأنساهم ما كانوا خزنوا في أنفسهم من صور الاعتقادات الدينية، فأبعدهم ذلك عن الاعتقاد الحقيقي الذي يعتد به وجعله رسما مخزونا في الخيال، لاأثر له في الافعال، يدّعونه بألسنتهم ، وتكذبهم في دعواهم أعمالهم وأحوالهم، ولذلك نسبهم إلى الدعوى القولية ولم يقل فيهم ،ماقال في ذلك الفريق الاول (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) فانه هناك ذكر ايمانهم وقفى عليه بذكر العمل الذي يشهد له ، ومن هنا يعلم ما الايمان الذي يعتد به القرآن ، وهو يظهر لمن يقرأ القرآن ليحاسب به نفسه ، ويزن ايمانه وأعماله بما حكم به على إيمان من قبله وأعمالهم، لا لمن يقرؤه على أنه قصة تاريخية مات من يحكي عنها، واستثنى القاريء نفسه ممن حُكم عليهم فيها

فان كان مات من كانوا اسبب النزول فالقرآن حي لايموت، ينطبق حكمه ويحكم سلطانه على ناس في كل زمان [فكل مؤمن بالله واليوم الآخر ومع ذلك يصدر في عمله عن شهواته، ولا يمنعه ايمانه عن ركوب خطيئاته، فاعتقاده انما هو خيال، لا يعلو عن لفظ في مقال، ودعوى عند جدال، فاذا ركن الى هذا المعتقد فهو خادع لنفسه، مخادع لربه ، يظن أن علام الغيوب ، لا ينظر الى ما في القلوب]

﴿ في قلوبهم مرض ﴾ عهد عند العرب التعبير عن العقول بالقلوب والمرض هو مايطرأ على العقول فيضعف تعقلها وادراكها، والشك والوهم من أعراض هذا المرض، فهو ظلمة تعرض للعقل فتقف بشعاعه أن ينفذ الى ماوراء التكاليف والاحكام من الاسرار والحكم. وهذا النفوذ هو اعته في الدين الذي يسوق النفس

الى الاخذ به ظاهراً وباطناً. وقد عبر القرآن عن فقد أمثال هؤلاء لهذا بقوله (لهم قلوب لايفقهون بها) وربما كان التعبير عن العقول بالقلوب في مثل هذا المقام، لان القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذي هو السائق الى الاعمال [يظهر لك ذلك بما تجده من اضطراب قلبك عند اشتداد الخوف أو اشتداد الفرح ، فانك تحس بزيادة ضرباته وشدة نبضاته] فصورة الاعتقاد اذا تناولها العقل من طريق التقليد والتسليم ، فجعلها في زاوية من زوايا الدماغ ، لم يكن لها سلطان على القلب ولا تأثير في الوجدان ، واعتقاد لا يصحبه هذا السلطان ولا يصدر عنه هذا التأثير ، لا يعتد الله تعالى به ولا يستفيد الانسان منه كما تقدم آنفا ، فمن لم يطرق الايمان قلبه بقوة البرهان، ولم يحل مذاقه منه في الوجدان، بحيث يكون هو المصرف له في أعماله، لاينفعه إيمانه ، الا اذا تمرن على الاعمال الصالحة عن فهم واخلاص ، حتى يحدث لقلبه الوجدان الصالح ، فأهل اليقين يبعثهم يقينهم على العمل الصالح ، وأهل التقليد تلحقهم أعمالهم الصالحة بأهل اليقين في الانتفاع بايمانهم ، وهذا الفريق الذي تحكى عنه الآيات ، وتصفه بالكذب والخداع ، قد فقد الامرين معا ، ولا صحة للقلب إلا بهما ، فمن فقدهما مرض ولا يلبث مرضه أن يقتله .

قال الاستاذ الامام ما معناه : ولضعف العقل أسباب منها ماهو فطري كما هو حال أهل البله والعته ، وهو الذي لا يكاف صاحبه ولا يلام ، ومنها مايكون من فساد التربية العقلية كما هو حال المقلدين الذين لا يستعملون عقولهم ، وإنما يكتفون بما عليه قومهم من الأوهام والخيالات، ويرين على قلوبهم ما يكسبونه من السيآت، ومايكونون عليه من التقاليد والعادات ، ولا يعتنون بما أمر الله من تمزيق هذه الحجب، وإزالة هذه السحب، للوقوف على ماوراءها من مخدرات العرفان، ونجوم الفرقان وشموس الايمان ، بل يكتفون بما حكى الله عنهم في قوله (إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) حتى يجيء اليوم الذي يقولون فيه (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) .

أقول : إن المرض في أصل اللغة خروج البدن عن اعتدال مزاجه وصحة أعضائه فيختل به بعض وظائفها وأعمالها ، وتعرض الآلام لها . ويطلق مجازاً

على اختلال مزاج النفس ، ومايخل بكمالها من نفاق وجهل ، وارتياب وشك ، وغيرذلك من فساد الاعتقاد الحق ، واضطراب حكم العقل وفساد الخلق ، والمرض هنا من النوع الثاني كما تقدم آنفا وخصه شيخنا بمنافقي اليهود فقال مامعناه : كان في قلوبهم مرض قبل مجيء النذير ، وبيان الرشد من الغي ، عند ما كانوا في فترة حظهم من الكتب قراءة ألفاظها ، ومن الاعمال إقامة صورها ، ﴿ فزادهم الله مرضا ﴾ بعد ماجاءهم البرهان المنير ببعثة البشير النذير ، ووجدوا منه زعزعة في أنفسهم ، ولكن أخذتهم العزة بالاثم فأبوا الايمان ، ونبوا عن القرآن ، [وزاد تمسكهم بما كانوا عليه واشتد حرصهم عليه] فكان شعاع النور الذي جاء به الرسول عمى في أعينهم ، ومرضا على مرضهم ، ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي عذاب مؤلم فوق هذه الامراض ، وأليم صيغة فعيل من ألم يألم فهو أليم وصف به العذاب نفسه ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ [في دعواهم الايمان بالله واليوم الآخر ، فانهم لم يصدقوا باعمالهم ، مايزعمونه من حالهم]

أقول وأمامرض منافقي المدينة من العرب فهو الشك في نبوته ﷺ كما روي عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما وعن الاول أنه النفاق . وعن بعض تلاميذه الرياء . وحسبك في زيادة مرضهم قوله تعالى (٩:١٢٥ واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا ؟ — الى قوله — وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون)

أقول قرأ عاصم وحمزة والكسائي يكذبون بالتخفيف أي بسبب كذبهم ، وقرأ الباقون (يكذّبون) بالتشديد أي ولهم عذاب أليم بسبب تكذيبهم النبي ﷺ والحكمة في القراءتين ، اثبات جمعهم للرذيلتين ، أي الكذب في دعوى الايمان ، وتكذيب النبي عليه الصلاة والسلام ، والثانية سبب الاولى ، وهم انما كانوا يكذبونه في أنفسهم ، وفيما بينهم اذا خلوا الى شياطينهم . والعذاب عقوبة عليهما معا ، أي على التكذيب وهو الكفر ، وعلى الكذب في دعوى الايمان وهو النفاق . وهؤلاء في باطنهم شر من الذين كفروا عنادا من رؤساء قريش ، فانهم لم يكونوا يكذبونه ﷺ وإنما كانوا يجحدون جحود استكبار . قال تعالى (فانهم لايكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

قال شيخنا : والقراءة الاولى هي المشهورة والعذاب فيها مقرون بالكذب لا بالتكذيب . وقد يقال : لم جعل العذاب جزاء الكذب دون الكفر ؟ والجواب أن الكفر داخل في هذا الكذب وانما اختير لفظ الكذب في التعبير للتحذير عنه ، وبيان فظاعتــه وعظم جرمه ، ولبيان أن الكفر من مشتملاته ، وينتهي اليه في غاياته ، ولذلك حذر القرآن منه أشد التحذير ، وتوعد عليه أسوأ الوعيد ، وما فشا الكذب في قوم الافشت فيهم كل جريمة وكبيرة ، لانه ينشأ من دناءة النفس وضعف الحياء والمروءة ، ومن كان كذلك لا يترك قبيحاً إلا بالعجز عنه ، نعوذ بالله تعالى من عمله ومنه . اه بالمعنى وقد علمت ان السؤال لا يرد الا على قراءة التشديد

---

(١١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١٢) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ

تنطق هذه الآيات بأن ماعليه هذا الصنف من الغرور بما عنده من التقاليد قد سول له الباطل وزين له سوء عمله فرآه حسنا، وشوه في نظره كل حق لم يأته على لسان رؤسائه ومقلديه بنصه التفصيلي فهو يراه قبيحاً ، وقد صورت الآيات هذا الغرور بما حكته عن بعض أفراده وهو : ﴿ واذا قيل لهم لاتفسدوا في الارض ﴾ بما تصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاً، وتنفرون الناس عن اتباع محمد ﷺ والاخذ بما جاء به من الاصلاح ، الذي يجتث أصول الفساد، ويصطلم جراثيم الالحاد ، ويحيي ما أماته البدع من إرشاد الدين ، ويقيم ماقوضته التقاليد من سنن المرسلين ، ﴿قالوا انما نحن مصلحون﴾ بالتمسك بما استنبطه الرؤساء ، وماكان عليه الاسلاف والعرفاء من تعاليم الانبياء ، فانهم أعرف بسنتهم، وأدرى بطريقتهم، فكيف [illegible] ، ونذر مايؤثره آباؤنا وشيوخنا عنهم ، ونأخذ بشيء جديد، [illegible]

هكذا شأن كل مفسد: يدعي أنه مصلح في نفس افساده ، فان كان على بينة من افساده عارفاً أنه مضل ـ وإنما يكون كذلك إذا كان افساده لغيره لعداوة منه له ـ فانما يدعي ذلك لتبرئة نفسه من وصمة الافساد بالتمويه والموار بة . وإن كان مسوقا الى الافساد بسوء التقليد الاعمى الذي لاميزان فيه لمعرفة الاصلاح من الافساد الا الثقة بالرؤساء المقلدين ، فهو يدعيه عن اعتقاد ولا يريد أن يفهم غير ماتلقاه عنهم . وان كان أثر تقليدهم ، والسير على طريقتهم ، مفسداً للأمة في الواقع ونفس الامر ، لان الوجود والحقيقة الواقعة لاقيمة لها ولا اعتبار في نظر المقلدين، بل هم لايعرفون مناشيء الفساد ومصادر الخلل، ولا مزالق الزلل، لانهم عطلوا نظرهم الذي يميز ذلك، وأرادوا أن يوقعوا غيرهم بهذه المهالك، بصدهم عن سبيل الاسلام، الداعي الى الوحدة والائتام ، فكان ذلك منهم دعاء الى الفرقة والانفصام، والثبات على عبادة الملائكة أو البشر أو الاصنام، وأي افساد في الارض أعظم من التنفير عن اتباع الحق، وعن الاعتصام بدين فيه سعادة الدارين، والارض انما تفسد وتصلح بأهلها؟ ولذلك قال تعالى﴿ الا إنهم هم المفسدون ﴾فابتدأ الكلام المؤكد لاثبات افسادهم بكلمة « ألا » التي يراد بها التنبيه والايقاظ وتوجيه النظر، وتدل على اهتمام المتكلم بما يحكيه بعدها ﴿ ولكن لايشعرون ﴾ بأن هذا افساد غرز في طبائعهم ، بما تمكن فيها من الشبهة بتقليد رؤسائهم الذين أشربوا عظمتهم ، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا معاندين ولا مرائين ، وأنهم على اعتقاد ضعيف لايشهد له العمل كما تقدم في تفسير آية (يخادعون الله)

واذا كانت الآيات في وصف طائفة من الناس توجد في كل أمة كما قدمنا فليحاسب بها نفسه كل مسلم يعتقد أن القرآن إمامه، وان فيه هدى له ، فانها حجة على كثير ممن يدعون الاسلام بالقول ويعملون بخلاف ماجاء به، ويتبعون غير سبيله .

وأقول الآن : هذه جملة ما قرره شيخنا في الدرس واضعا نصب عينيه منافقي اليهود ولا سيما فقهائهم الذين كانوا مجاورين للنبي ﷺ في المدينة، وشدة الشبه بينهم وبين فقهاء السوء ولاسيما فقهاء عصرنا هذا ـ ولذلك نبه لعموم الآيات وشمولها لهم عوداً على بدء ، وانما مراده بنفي الرياء عنهم انهم يعتقدون ماقالوا هنا،

وهو لا ينفي رياءهم في غيره من أقوالهم وأفعالهم. وقد كان لاولئك الأحبار والرؤساء من الافساد غير ماذكر ومنه إغراء المشركين بقتال النبي ﷺ والمؤمنين ووعدهم بمساعدتهم عليه ، وهذا افساد كبير في الارض ، وكانوا يستبيحونه بأنه توسل الى حفظ سلطتهم ورياستهم المهددة باتباع محمد ﷺ

ولم يذكر فيما كتبت عنه رأيه فيمن سألهم وقال لهم ماذكر وأجابوه بهذا الجواب هل هو الله تعالى أو الرسول ﷺ أو المؤمنون ؟ وهي الاحتمالات التي ذكرها المفسرون ـ وزاد بعضهم رابعا وهو أن يكون بعضهم سأل بعضا لما كانوا عليه من اختلاف الحال وتباين الآراء كما قال تعالى فيهم (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) فأي مانع لنهي بعضهم لبعض عن نكث ماعاهدهم عليه النبي ﷺ من اقرارهم على دينهم وحفظ أموالهم وأنفسهم بأن لا يؤلبوا عليه المشركين ولا يساعدوهم عليه ـ وأن يقولوا للناكثين المفسدين ان الحرب فساد عظيم لا يؤمن ان يتعدى الينا شرها فيطير من شررها ما نحترق به ، فدعوا تأليب قوم محمد عليه ؟ ـ ثم أي مانع يمنع أن يجيبهم أولئك المفسدون ككعب بن الاشرف : انما نحن مصلحون بمساعدة قومه عليه لاننا نخشى منه ما لانخشى منهم ، فقد عشنا معهم أجيالا لم ينازعنا منهم أحد في صحة ديننا لانهم لا يدعون الى شركهم ولا يحتقرون مانحن عليه من الدين ، بل يروننا فوقهم في العلم ، ومنهم من يعطينا أولاده لنربيهم ولا يكرهون أن نلقنهم ديننا ، وأما محمد فيقول انا ضللنا عن ديننا نفسه ويعيبنا بتحريف سلفنا وخلفنا لكتابنا ، وبما كان من مخازي تاريخنا ، كقتل الانبياء ، ونكث العهود ، وأكل السحت . فاذا كان له الغلب على مشركي قومه لا نأمن ان يبقى لنا ديننا ومكانتنا السامية في بلاد العرب ، وان هو حفظ عهده انا ، ولم يغدر فيقاتلنا ، فكيف اذا هو غدر بنا وقاتلنا بعد الفراغ من قومه ؟

هذا أقرب إلى المعقول مما قاله المفسرون في السؤال والسائل ، وفيه وجه آخر اراه أقوى ، وهو أن السؤال والجواب مفروضان فرضا . والمراد بيان حالهم في هذا الامر وما تنطوي عليه جوانحهم بصيغة السؤال والجواب التي هي أقوى أساليب الكلام تنبيها للاذهان ، وتوجيها لها الى الاحاطة بمعاني الكلام ، ولذلك يستعملها العلماء

في بيان مهمات المسائل ، وحل عويص المشاكل ، يقولون : اذا قيل كذا قلنا كذا، وان سئلنا عن هذا أجبنا بكذا . وأما الفرق بين الشرطين في مثل هذا الاسلوب فالبلاغة تقتضي ان يكون السؤال باذا عما كان سببه قويا من شأنه ألا يسكت عنه، ويصدر بان اذا كان سببه ضعيفا ولكنه محتمل فيجاب عنه احتياطا

ثم أقول : ان ما تقدم مبني على ان السؤال والجواب في بيان حال منافقي اليهود ، وهو المختار عند شيخنا . وقد ورد في التفسير المأثور جعله في بيان حال منافقي المدينة من العرب كعبدالله بن ابيّ بن سلول وحزبه . فانهم كانوا يفسدون في الارض بالتشكيك في الدين ، وبتفريق كلمة المؤمنين ، كما فعلوا في غزوة أحد ثم في غزوة تبوك فكان هذا شأنهم وان كانت الغزوتان بعد نزول هذه السورة . وروي تفسير افسادهم بالكفر والمعاصي وما قلناه منه ولكنه أخص وهو المتبادر . ودعواهم ان هذا اصلاح كدعواهم الايمان ، وكل مفسد وضال يسمي افساده وضلاله بأسماء حسنة كما يسمون الشرك بالله في زماننا بدعاء غيره توسلا ... وعن ابن عباس انهم كانوا يقولون: إنما نريد الاصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب

ثم صورت الآيات ذلك الجهل والغرور في الفريقين بصورة أخرى أشد تشويها مما قبلها ، لان تلك صورتهم في عملهم ، وهذه صورتهم في جوهر إيمانهم ، وهي

﴿ واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ﴾ الذين تعتقدون كمالهم، وترون تعظيمهم واجلالهم، كابراهيم وموسى وعيسى وأتباعهم ، الذين كان الايمان راسخا في جنانهم ، ومؤثراً في وجدانهم، ومصرفا لأبدانهم ،أو كعبدالله بن سلام وأمثاله من علمائكم،

﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ أقول : المراد بالسفه الطيش وخفة العقل وضعف الرأي . ومن لوازمه سوء التصرف . ومنه قيل : زمام سفيه : كثير الاضطراب لمرح الناقة ومنازعتها اياه – وثوب سفيه : رديء النسج ،واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل، وفي الامور الدنيوية والاخروية. فقيل سفه نفسه، ويعنون بالسفهاء أتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الواقفين عند ما كان عليه ، المعرضين عن غير ما أنزل اليه ، لما تضمنه الامر من الشهادة لهم بانهم في إيمانهم كاتباع أولئك

الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم سلف اليهود الذين كان الكلام معهم ، و كانوا يفتخرون بما يتناقلونه من سيرتهم . فرد الله تعالى عليهم بقوله :

﴿ ألا إنهم هم السفهاء ﴾ أي وحدهم دون من عرّضوا بهم ، لأن لهم سلفاً صالحا تركوا الاقتداء بهم ، زعماً أن المتأخر ، لايمكن أن يكون على هدى المتقدم ، لأنه يصعب أو يتعذر عليه اللحاق به ، واحتذاء عمله ، لعلوه في الدرجة ، وبعده في المنزلة ، وأن حظهم من سلفهم انتظار شفاعتهم ، وإن لم يسيروا على سنتهم ، فأي الفريقين أجدر بلقب السفيه ؟ أهم أولئك اليهود الذين لهم أسوة صالحة ولكنهم لايهتدون بها وهذه حالهم من سوء العقيدة وقبح العمل؟ أم من لاسلف له إلا عبدة الاوثان ، وقلبه مع ذلك مطمئن بالايمان ، وأعماله تشهد له بالاحسان ، كالصحابة الذين هداهم الله بنور الاسلام ، فكانوا كأتباع أولئك الانبياء الكرام ، بل ربما سبقوهم بالفضائل ، وزادوا عليهم في الفواضل ، ؟ لاشك أن أولئك المفسدين بعد ما تقدم لهم من سلف صالح ، ودين قيم ، هم السفهاء ، دون هؤلاء العقلاء

﴿ ولكن لا يعلمون ﴾ أن السفه محصور فيهم ، ومقصور عليهم ، وانما عندهم شعور مّا بأنهم ركبوا هواهم ، ولم يتبعوا هدي سلفهم ولا هداهم ، ينتحلون له العلل الضعيفة ، ويتمحلون له الاعذار السخيفة ، فهو لم يصل إلى حد العلم الذي تتكيف به النفس. ويكفي في اثبات سفههم ، أنهم يعرفون حسن حال سلفهم ، ويعترفون به ولكن لايقتدون بهم ، ولا يقتفون أثرهم ، وانما يعتمدون في نجاتهم وسعادتهم على تلك الاماني والتعلات ، كقولهم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) وقولهم (نحن أبناء الله وأحباؤه) وشعبه وأصفياؤه ، ولا يصح نفي الشعور عنهم في هذا المقام مع ذلك الاعتراف ، وانما هو نفي العلم الكامل الذي يزيل الشبه ويذهب بالعلل ، ويبعث على الاقتداء بالعمل

وهذا أيضاً حجة على كثير من اللابسين لباس الاسلام وهم من هذا الصنف يعتقدون كمال سلفهم ، ولا يقتدون بهم ، وانما يطمعون في سعادة الدنيا والآخرة بانتسابهم إلى أولئك السلف العظام ، ولكونهم من أمة النبي عليه الصلاة والسلام ، وهي خير الامم ، بشهادة الله في القدم ، ولكنهم لايعلمون أنها فضلت سواها

بكونها أمة وسطاً تقوم على جادة الاعتدال ، في العقائد والاخلاق والاعمال ، وتسعى في اصلاح البشر ، بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . كما سيأتي في تفسير (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وتفسير (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ، وليس عند هؤلاء السفهاء شيء من هذه الصفات ، إلا الاماني والتعلات .

وأزيد في هذا السياق الذي شرحت به قول شيخنا في الدرس تذكيرهؤلاء المرضى القلوب من المسلمين ، الذين اتبعوا سنن من قبلهم في هذا كما اتبعوهم في غيره « شبراً بشبر وذراعا بذراع » كما ورد في حديث الصحيحين ـ أزيد فيه تذكيرهم بقوله تعالى في أهل الكتاب الآتي في هذه السورة (لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون) وقوله فيهم وفي أفضل سلف هذه الامة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم: (٤: ١٢٢ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً) الآيات

ثم أقول ان جريان هذا السؤال والجواب في منافقي العرب أظهر مما قبله ـ فعبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه من منافقي المدينة كانوا أبعد عن الايمان وأدنى الى مخادعة الله ورسوله والمؤمنين من منافقي اليهود في أنفسهم وقومهم ومع المؤمنين . ولا شك أنهم كانوا يعدون المؤمنين الصادقين سفهاء الاحلام ، في اتباعهم للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، أما المهاجرون منهم فلأنهم عادوا قومهم وأقاربهم وهجروا وطنهم وتركوا ديارهم ليكونوا تابعين له . وأما الانصار فلأنهم شاركوا المهاجرين في ديارهم وأموالهم . وكون هذا من السفه عند غير المؤمن بهذا الرسول ﷺ وما جاء به ظاهر جلي ، ولذلك نفى عنهم الشعور بأنهم هم السفهاء دون المؤمنين ، ويؤيد ما قلته ما حكاه الله تعالى عنهم في سورتهم بقوله (٦٣:٧ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السموات والارض ، ولكن المنافقين لا يفقهون)

هذا ـ واننا أشرنا الى نكتة اختلاف التعبير في نفي الشعور عن المنافقين في موضعين ونفي العلم في موضع واحد من هذه الآيات وأزيد عليه في نكتة نفي العلم الآن ما ينبه الاذهان الى دقة التعبير في القرآن . وهو ان أمر الايمان لا يتحقق

الا بالعلم اليقيني ، فموضوعه علمي ، ثم ان ثمرته السعادة في الدنيا والآخرة ، ولا يدرك ذلك إلا من علم حقيقته . فنفى عنهم العلم بأنهم هم السفهاء فيما رموا به المؤمنين بالسفاد بشبهة انهم أخطأوا مصلحتهم ومصلحة قومهم الانصار ومصلحة أمتهم العربية في اتباع النبي ﷺ لان عدم العلم بذلك سببه عدم العلم بكنه الايمان وعاقبته . ومن جهل الملزوم كان بلوازمه أجهل ، فكأنه قال : ولكن لا يعلمون ما الايمان حتى يعلموا ان المؤمنين سفهاء غاوون ، أو عقلاء راشدون ، لان الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، وهم جاهلون به ويجهلون أنهم جاهلون

ومن مباحث الاداء في الآيات ما في اجتماع الهمزتين من آخر السفهاء واول « ألا » من قراءة تحقيقهما بالنطق بهما معاً وقراءتي تحقيق الاولى وتليين الثانية وعكسه ، وقراءة بعضهم بهمزة واحدة وكذلك أمثالها من كل همزتين في كلمتين

---

(١٤) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٥) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

الآيات التي تقدمت في وصف هذا الصنف من الناس الذي قلنا إنه يوجد في كل أمة وملة وفي كل عصر ، كانت عامة تصور حال أفراده في كل زمان ومكان ، وكان أسلوبها ظاهراً في العموم كقوله (يخادعون) الخ وقوله : وإذا قيل لهم كذا -- قالوا كيت وكيت . وأما قوله تعالى

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ الآية ، فهو وصف قد يختص ببعض أفراد هذا الصنف ممن كان في عصر التنزيل ، جاء بعد الاوصاف العامة وحكي بصيغة الماضي لكن كالتصريح بتوبيخ تلك الفئة من هذا الصنف ، التي بلغت من التهتك في النفاق ، والفساد في الاخلاق ، أن تظهر بوجهين ، وتتكلم بلسانين ، وما بلغ كل أفراد الصنف ، هذا المبلغ من الفساد والضعف

ولهذه الخصوصية في الآية قال بعض الواهمين : إن جميع تلك الآيات في منافقي ذلك العصر . وقد مر تفنيده فلا نعيده . على أن هذه الفئة أيضاً توجد في كل عصر وزمان ، يكون فيه لأهل الحق قوة وسلطان ، والحكاية عنها بصيغة الماضي الواقع لاتنافي ذلك . لأن « اذا » تدل على المستقبل، فمعنى الفعل مستقبل، وانما اختيرت صيغة الماضي لتوبيخ أولئك الافراد وايذانهم بأن بضاعة النفاق والمداجاة ، لاتروج في سوق المؤمنين لانها مزجاة ، وأن استهزاءهم مردود اليهم، ووباله عائد عليهم،

كان أولئك النفر يدهنون في دينهم ، فاذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا بما أنتم به مؤمنون ، ﴿ واذا خلوا الى شياطينهم ﴾ من دعاة الفتنة وعمال الافساد وأنصار الباطل ، الذين يصدون عن سبيل الحق بما يقيمون أمامه من عقبات الوساوس والاوهام ، ومايلقون فيه من اشواك المعايب وتضاريس المذام ، وقال مفسرنا (الجلال) انهم الرؤساء ، والصواب ما قلنا ، وكم من رئيس مغمول ، لما في نفسه من الضعف والخمول ، لاينصر اعتقاده ، وإن كان معترفا بأن فيه رشاده ، وفي عزته عزه واسعاده . وكم من مرءوس شديد العزيمة ، قويّ الشكيمة ، يكون له في نصر ملته ، والمدافعة عن أمته ، مايعجز عنه الرؤساء ، ولا يأتي على أيدي الامراء ،

وللذبابة في الجرح الممدّ يدٌ　تنال ماقصرت عنه يد الاسد

﴿قالوا إنا معكم انما نحن مستهزءون﴾ أي إنا معكم على عقيدتكم وعملكم، وانما نستهزئ بالمسلمين ودينهم، فكشف القرآن عن هذا التلون وهذه الذبذبة ، وقابلهم عليها بما هدم بنيانهم، وفضح بهتانهم، فقال ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ أصل الاستهزاء الاستخفاف وعدم العناية بالشيء في النفس، وان أظهر المستخف الاستحسان والرضا تهكما. وهذا المعنى محال على الله تعالى ، والمحال بذاته يصح إطلاق لازمه ، والمستهزئ بانسان في نحو مدح لعمله واستحسان لعمله مع اعتقاد قبحه ، غير مبال به ولا معتن بعلمه ولا بعمله ، حيث لم يرجعه عنه ولم يكرهه عليه ، ويلزمه استرسال المستهزأ به في عمله القبيح فمعنى:

الله يستهزي بهم [أنه يمهلهم فتطول عليهم نعمته ، وتبطيء عنهم نقمته] ثم يسقط من أقدارهم ويستدرجهم بما كانوا يعملون ﴿ ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ والعمه عمى القلب وظلمة البصيرة وآثره الحيرة والاضطراب ، وعدم الاهتداء للصواب ،

أقول : هذا ملخص سياق الدرس وقال الراغب : العمه التردد في الامر من التحير . يقال عمه فهو عمه وعامه وجمعه عمه (بالتشديد) اه والاستهزا فعل الهزء (بسكون الزاي وضمها) وقصده بالعمل . وهو اسم من هزئت به ومنه ، وفي لغة هزأت (فهو من بابي تعب ونفع) واستهزأت به أي استخففت به وسخرت منه .

وقال البيضاوي : والاستهزاء السخرية والاستخفاف ، يقال . هزأت به واستهزأت بمعنى ، ـ كأجبت واستجبت ـ وأصله الخفة من الهزؤ وهو القتل السريع ، يقال هزا فلان اذا مات ، وناقته تهزا به ، أي تسرع وتخف . وقال الراغب : الهزء مزح في خفية وقد يقال لما هو كالمزح . ثم قال : والاستهزاء ارتياد الهزؤ وإن كان قد يعبر به عن تعاطيء الهزؤ كالاستجابة في كونها ارتيادا للاجابة وان كان يجري مجرى الاجابة . ثم قال بعد ذكر آيات من الشواهد : والاستهزاء من الله في الحقيقة لا يصح كما لا يصح من الله اللهو واللعب تعالى الله عنه . وقوله (الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) أي يجازيهم جزاء الهزؤ ، ومعناه أنه أمهلهم مدة ثم أخذهم مغافصة (أي مفاجأة على غرة) فسمى إمهاله اياهم استهزاء من حيث أنهم اغتروا به اغترارهم بالهزؤ فيكون ذلك كالاستدراج من حيث لا يعلمون . اه وأشهر الاقوال ان معناه يجازيهم بالعقاب علي استهزائهم أو يعاملهم معاملة المستهزىء بهم . (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) الآية وقال تعالى (ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * واذا مروا بهم يتغامزون — الى قوله — فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون) وقيل ان استهزاءه تعالى بهم اجراؤه أحكام المسلمين عليهم فى الدنيا كما مر في خداعه لهم

والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان . مأخوذ من طغيان الماء وهو تجاوز

فيضانه الحد المألوف . والمدّ الزيادة في الشيء متصلة به ، يقال مد البحر زاد وارتفع ماؤه وانبسط . ومده الله قال تعالى (والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) ومدّ البحر يقابله الجزر وهو انحسار مائه عن الساحل ونقصان امتداده . ويسمى السيل مداً من قبيل التسمية بالمصدر ، ومنه المدة من الزمان ، والمدد (بالتحريك) للجيش . يقال مده وأمده . قال تعالى (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا * حتى اذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة — فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا) وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى في تفسير قوله تعالى من سورة الانعام (٦ : ١٠٩ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) والمعنى ان سنة الله تعالى في الذين وصلوا الى هذه الغاية من فساد الفطرة

هو ما بينه بقوله فيهم : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ المشار اليه بأولئك هم الذين بينت حالهم الآيات السابقة بأنهم يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين الخ وهو صريح في أن طغيانهم وعمههم من كسبهم ، ولم يجبروا عليه بخلق ربهم . قال الاستاذ وقد فسروا « اشتروا » باستبدلوا وهو غير سديد لان بين اللفظين فصلا في المعنى وكلنا نعتقد — والحق ما نعتقد — أن القرآن في أعلى درج البلاغة لا يختار لفظاً على لفظ من شأنه أن يقوم مقامه ، ولا يرجح أسلوبا على أسلوب يمكن تأدية المراد به ، الا لحكمة في ذلك وخصوصية لا توجد في غير ما اختاره ورجحه . ووجه اختيار « اشتروا » على استبدلوا أن الاول أخص من وجهين

(أحدهما) أن الاستبدال لا يكون شراء إلا اذا كان فيه فائدة يقصدها المستبدل منه سواء كانت الفائدة حقيقية أو وهمية

(وثانيهما) أن الشراء يكون بين متبايعين بخلاف الاستبدال ، فاذا أخذت ثوبا من ثيابك بدل آخر يقال إنك استبدلت ثوبا بثوب ، فالمعنى الذي تؤديه الآية أن أولئك القوم اختاروا الضلالة على الهدى لفائدة لهم بازائها يعتقدون الحصول عليها من الناس ، فهو معاوضة بين طرفين يقصد بها الربح ، وهذا هو معنى الاشتراء والشراء ، ومثلها البيع والابتياع ، ولا يؤديه مطلق الاستبدال

ذلك بأنه كان عندهم كتب سماوية فيها مواعظ وأحكام، وفيها بشارة بأن الله

يرسل اليهم نبياً يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصر التقاليد، وأغلال التقيد بارادة العبيد ، ويرعى جميع الامم بقضيب من حديد ،فيرجع للعقول نعمة الاستقلال ، ويجعل إرادة الافراد هي المصرفة للأعمال، فكان عندهم بذلك حظ من هداية العقل والمشاعر وهداية الدين والكتاب ، ولكن نجمت فيهم الاحداث والبدع ، وتحكمت فيهم العادات والتقاليد ، وعلا سلطان ذلك كله على سلطان الدين ، فضلّ الرؤساء في فهمه ، بتحكيم تقاليدهم في أحكامه وعقائده ، بضروب من التحريف والتأويل .وأهمل المرءوسون العقل والنظر في الكتاب بحظر الرؤساء وأثرتهم، فكان الجميع على ضلالة في استعمال العقل وفي فهم الكتاب ، بعد أن كانا هدايتين ممنوحتين لهم لاسعادهم، وكانت المعاوضة عند الفريقين في ذلك بالمنافع الدنيوية: للرؤساء المال والجاه والتعظيم والتكريم باسم الدين ، وللمرؤسين الاستعانة بجاه رؤساء الدين على مصالحهم ومنافعهم، ورفع أثقال التكاليف، بفتاوى التأويل والتحريف . هكذا استحبوا العمى على الهدى - وهو العقل والدين — رغبة في الحطام ، وطمعاً في الجاه الكاذب ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ في الدنيا اذ لم تثمر لهم ثمرة حقيقية، بل خسروا وخابوا باهمالهم النظر الصحيح الذي لا تقوم المصالح ولا تحفظ المنافع إلا به . واسناد الربح إلى التجارة عربيّ في غاية الفصاحة لأن الربح هو النماء في التجر، وهذه المعارضة هي التي من شأنها أن تثمر الربح ، فاسناده اليها نفياً أو اثباتاً اسناد صحيح لايحتاج إلى التأويل [كأنه قيل فلم يكن نماء في تجارتهم.على أن ذلك التأويل المعروف من أن اسناد الربح إلى التجارة لأنها سببه والوسيلة اليه وأن العبارة من المجاز العقلي ـ تأويل يتفق مع البلاغة ولا ينافيها ، ولا زال المجاز العقلي من أفضل مايزين البلغاء به كلامهم، ويبلغون به مايشاءون من تفخيم معانيهم] ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ في دينهم لأنهم لم يأخذوه على وجهه ، ولم يفهموه حق فهمه، أو ما كانوا مهتدين في هذه التجارة ، لأنهم باعوا فيها ماوهبهم الله من الهدى والنور بظلمات التقاليد وضلالات الاهواء والبدع التي زجوا أنفسهم فيها — أو ما كانوا مهتدين في طور من الاطوار ، ولامس الرشد قلوبهم في وقت من الاوقات ، لأنهم نشؤا على التقليد الاعمى من أول وهلة ، ولم يستعملوا عقولهم قط في فهم

اسراره ، واقتباس أنواره . ولا يذهبن الوهم إلى أن اشتراء الضلالة بالهدى يفيد أنهم كانوا مهتدين ثم تركوا الهدى للضلالة فيتناقض أول الآية مع آخرها ، إذ ليس كل من منح الهدى يأخذ به فيكون مهتديا ، وهؤلاء حملوه ، فباعوه ولم يحملوه ، وينظر إلى هذا الاشتراء ويشبهه الاستحباب في قوله تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) والله أعلم

ومن مباحث الاداء قراءة حمزة والكسائي (الهدى) بالامالة أي جعل مدها بين الالف والياء وهي لغة بني تميم ، وعدم الامالة لغة قريش وهي الفصحى ، ولما كان يعسر على لسان من اعتادها تركها أذن الله تعالى بها فيما اقرأ جبريل النبي ﷺ ×

(١٧) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٨) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ

أقول المثل بفتحتين والمثل بالكسر والمثيل كالشبه والشبه والشبيه وزنا ومعنى في الجملة ، وهو من مثل الشيء مثولا اذا انتصب بارزاً فهو ماثل . ومثل الشيء (بالتحريك) صفته التي توضحه وتكشف عن حقيقته أو مايراد بيانه من نعوته وأحواله . ويكون حقيقة ومجازاً ، وأبلغه تمثيل المعاني المعقولة بالصور الحسية وعكسه ، ومنه الامثال المضروبة وتسمى الامثال السائرة وسيأتي تحقيق معناها في تفسير (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما) ومنه مايسميه البيانيون الاستعارة التمثيلية وهو خاص بالمجاز . والتمثيل أمثل أساليب البلاغة وأشدها تأثيراً في النفس ، واقناعا للعقل ، قال تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) وما رأيت أحداً من علماء البلاغة وفاه حقه من البيان المقنع الا امامهم الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة) وهاك ماكنت كتبت في تفسير هذا المثل ثم مابعده اجمالا ، ثم تفصيلا مقتبساً معانيه من دروس أستاذنا الامام :

هذا مثل من مثلين ضربهما الله في هذه الآيات للصنف الثالث من الناس الذين قرع القرآن أبواب قلوبهم . وكان من عناية الله تعالى في بيان حاله ان

تقتضي على ذلك التفصيل في شأن فرقه وأطوارهم بضرب المثل الذي يقصد به تجلي المعنى في أتم مجاليه ، وتأثر النفوس بما أودع فيه ، ناهيك بما في التنقل في الاساليب من توجيه الذهن إلى سابق القول ودعوة الفكر إلى مراجعة ما مضى منه . ولولا أن بلاء هذا الصنف عظيم ، وداءه دفين ، وعلاجه متعسر - لأنه متولد من الدواء الذي كان يجب أن تكون فيه الصحة ونعمة العافية — لما كان من البلاغة ولا من الحكمة ، أن يعنى بشأنه كل هذه العناية ، كما قلنا في تزييف رأي من ذهب إلى أن الكلام في تلك الشرذمة من المنافقين في عصر التنزيل

ضرب الله تعالى لهذا الصنف في مجموعه مثلين ، ينبآن بانقسامه إلى فريقين، خلافاً لما في أكثر التفاسير في أن المثلين لفريق واحد ، وأن معناهما وموضوعهما واحد

(الاول) من آتاهم الله ديناً وهداية عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها، وصلح حالهم بها ، أيام كانوا مستقيمين على الطريقة ، آخذين بارشاد الوحي واقفين عند حدود الشريعة ، ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم في الاخذ بها ظاهراً وباطناً ، ولم ينظروا في حقائق ماجاءهم ، بل ظنوا أن ماكان عند سلفهم من نعمة وسعادة ، انما كان أمراً خصوا به أو خيراً سيق اليهم ، لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم ، وإن كان ذلك العمل لم يخالط سرائرهم ، ولم تصلح به ضمائرهم ، فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع في نفوسهم مجالا لغيرها ، ولذلك لم يتفكروا قط في كونهم أحرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم ، لأن حفظ الموجود ، أيسر من ايجاد المفقود ، بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذي اهتدى من قبلهم بما فيه من شموس العرفان ، ونجوم الفرقان ، لزعمهم أن فهمه لايرتقي اليه إلا أفراد من رؤساء الدين ، يؤخذ بأقوالهم ماوجدوا ، وبكتبهم اذا فقدوا

فمثل هذا الفريق من الصنف المخذول في فقده لما كان عنده من نور الهداية الدينية ، وحرمانه من الاهتداء بها بالمرة، وانطماس الآثار دونها عنده - مثل من استوقد ناراً الخ . والوجه في التمثيل أن من يدعي الايمان بكتاب نزل من عند ربه قد طلب بذلك الايمان أن توقد له نار يهتدي بها في الشبهات ، ويستضيء

بها في ظلمات الريب والمشكلات، ويبصر على ضوئها ماقد يهجم عليه من مفترسة الاهواء والشهوات، فلما أضاءت ماحوله بما أودعته من الهدى والرشاد، وكاد بالنظر فيها يمشي على هداية وسداد، هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث، وعصب عينيه شيطان الغرور، فذهب عنه ذلك النور، وأطبق عليه جو الضلالة، بل طفىء فيه نور الفطرة، وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه، فهو بمنزلة الاعمى الاصم الذي لا يبصر ولا يسمع

وأما الفريق الثاني فقد ضرب الله له المثل في قوله (أو كصيب من السماء) الخ، وهو الذي بقي له بصيص من النور ، فله نظرات ترمي إلى مابين يديه من الهداية أحياناً ، ولمعاني التنزيل لمعان يسطع على نفسه الفينة بعد الفينة، ويأتلق في نظره الحين بعد الحين ، عند ماتحركه الفطرة ، أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه ، ولكنه من التقاليد والبدع في ظلمات حوالك ، ومن الخبط فيها على حال لاتخلو من المهالك ، وهو في تخبطه يسمع قوارع الانذار الالهي ويبرق في عينيه نور الهداية ، فاذا أضاء له ذلك البرق السماوي سار ، واذا انصرف عنه بشبه الضلالات الغرارة قام وتحير لايدري أين يذهب . ثم انه ليعرض عن سماع نذر الكتاب ودعاة الحق كمن يضع أصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع ارشاد المرشد ولا نصح الناصح ، يخاف من تلك القوارع أن تقتله، ومن صواعق النذر أن تهلكه،

هذا هو شأن فريقي هذا الصنف بما يشير اليه المثلان اجمالا . وفي تفسير الآيات تفصيل ماأشرنا اليه

قال تعالى ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ العرب تستعمل لفظ «الذي» في الجمع كلفظي «ما» و«من» ومنه قوله تعالى (وخضتم كالذي خاضوا) وإن شاع في الذي الافراد لأن له جمعاً وقد روعي في قوله «استوقد» لفظه، وفي قوله «ذهب الله بنورهم » معناه ،والفصيح فيه مراعاة اللفظ أولا ،ومراعاة المعنى آخراً. والتفنن في ارجاع الضمائر متفرعة ضرب من استعمال البلغاء ، بقرر المعنى في الذهن ويهبه فضل تمكن وتأكيد ،بمايحدث فيه من الروية والتوجه إلى الاحاطة بمعاني المختلفات،

أقول: استوقد النار طلب وقودها بفعله أو فعل غيره، وقالوا انه بمعنى أوقدها، ويرجع الى الاول بأنه طلب باضرامها وايرائها أن تقد . يقال وقدت النار تقد وتوقدت واتقدت واستوقدت (لازم) ومعنى الجملة في منافقي اليهود قد تقدم آنفاً بالاجمال وسيجيء تفصيله . وأما منافقو العرب — الذين قال تعالى فيهم من سورتهم (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا) الآية — فيقال فيهم : مثلهم وصفتهم في اسلامهم أولا وكفرهم آخراً كمثل فريق من الناس أوقد ناراً لينتفع بها في ليلة حالكة الظلام، ويبصر ماحوله مماعساه يضره ليتقيه، أو ينفعه ليجتنيه ﴿ فلما أضاءت ماحوله ﴾ يقال ضاءت النار والشمس وأضاءت (لازم) ويقال ضاء المكان وأضاءته النار أي أظهرته بضوئها . قال العباس (رض) في النبي ﷺ

وأنت لما ظهرت أشرقت الار ض وضاءت بنورك الافق

والمعنى المتبادر : فلما أضاءت النار ماحوله من الأمكنة والأشياء وتمكن من الانتفاع بها والاستضاءة بنورها ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ باطفاء نارهم بنحو مطر شديد نزل عليها ، أو عاصف من الريح جرفها وبددها ، وهذا بالنسبة الى المثل ، وأما بالنسبة الى المضروب فيهم المثل من العرب فالنور نور الاسلام الذي أضاء قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) وذهابه في الدنيا ماعرض لهم من الشك أو الجزم بالكفر حتى لم يعودوا يدركون منافعه وفضائله ، وأما ذهابه بعدها فأوله الموت فان المنافق يرى بالموت او قبيل خروج روحه منزلته بعدها ، وبعده ظلمة القبر أي حياة البرزخ ، وبعدها موقف الحساب والجزاء (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم ـ قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم، وغرتكم الاماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) الخ الآية التالية ، وفي هاتين الآيتين أصدق بيان للمراد من ذهاب الله بنورهم، وكونه ليس اجبارا لهم على الكفر ولا عبارة عن سلبهم التمكن من الايمان ، وانما هو تعبير عن سنة الله تعالى في عاقبة فتنتهم لأنفسهم الخ .

وقال شيخنا في تطبيق المثل على اليهود وأمثالهم من هذه الامة ما معناه :
استوقدوا بفطرتهم السليمة نار الهداية الالهية بتصديقهم ، فلما أضاءت لهم بروقها، ووضح لهم طريقها، فاجأتهم التقاليد الموروثة، وباغتتهم العادات المألوفة ، وشغلهم ما يتوهمونه فيها من المنافع والفوائد، وما يتوقعونه في الاعراض عنها من المصارع والمفاسد ، عن الاستعانة بذلك الضوء على سلوك ذلك الصراط المستقيم ، والتفرقة بين نهاره المشرق وظلمات ليلها البهيم، بل استبدلوا هذا الديجور، بذلك الضياء والنور ، وهذا هو معنى ذهاب نورهم. وانما قال (ذهب الله بنورهم) ولم يقل ذهب نورهم، أو أذهب الله نورهم - للاشعار بأن الله تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه عند ما استوقدوا النار فأضاءت، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التى فطر الناس عليها ، معتقدين صحة شريعته التي دعا الناس اليها ، وبأنه تخلى عنهم عند ما نكبوا عن تلك السبيل، وعافوا ذلك المورد السلسبيل ،

ولا شك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع الله تعالى مرضية في التوجه اليه وقصد اتباع هداه ، والاستضاءة بنوره الذي وهبه اياه ، فاذا أعرض عنه وكله الله إلى نفسه، وذهب بنوره . واذا ذهب النور لا يبقى إلا الظلمة ، وما كان هؤلاء في ظلمة واحدة ، ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض ، متعددة بتعدد أنواع التقاليد التي فتنوا بها ، وبتعدد أنواع الهداية التي أعرضوا عنها ، ولذلك قال

﴿ وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ شيئا. حذف مفعول يبصرون ايذانا بالعموم ، أي لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ولا يرون طريقا من طرقها، لأنه صرف عنايته عنهم بتركهم سننه ، واهمالهم هدايته ، ووكلهم إلى أنفسهم . ويا ويل من وكله الله إلى نفسه ، وحرمه توفيقه ، نسأل الله العافية

هذا المثل مضروب لفريق لا ترجى هدايته ، لانه سد على نفسه جميع أبواب الهداية فلا يثق بعقله ولا بحواسه ولا بوجدانه اذا خالفت تقاليده - وعدم الابصار بذهاب النور غير كاف لتمثيل هذا اليأس والحرمان، لجواز أن يلوح بارق، أو يذر شارق، أو يصيح طارق ، فتكون الهداية ، وتنكشف الغواية ، ولذلك عقبه بقوله تعالى

﴿ صم بكم عمي ﴾ أي انهم فقدوا منفعة السمع الذي يؤدي الى النفس ما يلقيه

المرشدون اليها من الحجج القاطعة ، والدلائل الناصعة ، فلا يصيخون إلى وعظ واعظ ، ولا يصغون لتنبيه منبه ، * فما أضيع البرهان عند المقلد * بل لا يسمعون وإن أصاخوا ، ولا يفقهون إن سمعوا ، فكأنهم صم لم يسمعوا ـ وفقدوا منفعة الاسترشاد بالقول وطلب الحكمة من معاهدها ،فلا يسألون بيانا ،ولا يطلبون برهانا، وفقدوا خير منافع الأبصار ، وهو نظر الاستفادة والاعتبار ،فلا يرون مايحل بهم من الفتن فينزجروا ، ولا يبصرون ما تتقلب به أحوال الأمم فيعتبروا ، ﴿ فهم لا يرجعون ﴾ عن ضلالتهم ،ولا يخرجون من ظلماتهم، لأن من وقع في أرض فلاة في ليلة مظلمة وفقد فيها جميع حواسه لايمكنه أن يسمع صوتا يهتدي به، ولا أن يصيح هو لينقذه من يسمعه، ولا أن يرى بارقا يؤمه ويقصده، فهو لا يرجع من تيهه ، بل يظل يعمه في الظلمات ، حتى يفترسه سبع ضار ،أو يصل إلى شفا جرف هار ،فينهار به في شر قرار، (وماللظالمين من أنصار)

---

(١٩) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (٢٠) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ . إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هذا هومثل الفريق الثاني من هذا الصنف من الناس ، الذي كان أفراده ولايزالون فتنة للبشر ، ومرضاً في الامم ،وحجة على الدين،لانهم بغرورهم بتقاليدهم التي اكتفوا بها من دينهم الموروث،يعيثون بعتوهم، ويلهون بخيالاتهم ، ويجنون على مشاعرهم ومداركهم فيضعفونها ، ويصارعون الفطرة الالهية فيصرعونها ، حتى يكون بعضهم كالجمادات (صم بكم عمي) كما تقدم في المثل الاول ، ويدنف بعض الآخر الظلمة بطول التقليد ، ويكون أفراده في نور البرهان كالخفافيش في نور الشمس ، ولكنهم أمثل من الفريق الذي ضرب له المثل الاول ،

لان فيهم بقية من الرجاء ورمقاً من الحياة ، يوجههم إلى الاقتباس من نور الهداية كلما أضاءت لهم بروقها ، والمشي في الجادة كلما استبانوا طريقها ، ولكن تحول دون ذلك ظلمات التقاليد العارضة ، وتقف في السبيل عقبات البدع المعارضة ، وقد بعدهم لاستماع قوارع الآيات التي تنذرهم بما حرفوا ، وصوادع الحجج التي تبين لهم كيف انحرفوا ، ولا يصدهم عنها إلا أنها تزعجهم إلى ترك ماصنفوا وألفوا ، وهجر ما أحبوا وألفوا ، وعدم المبالاة بسنة الآباء ، وقلة الاحتفال بعظمة الرؤساء ، فهم يتراوحون بين الخوف والرجاء ، مذبذبين بين أهل الجحود وأهل اليقين (لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) ، ولا ينقطع منهم الأمل ، حتى ينقطع بهم الأجل ،

ألا تراهم عند مايقرع أسماعهم من كتاب ربهم مايبين فساد سيرتهم ، والتواء طريقتهم ، كقوله تعالى في النعي على أمثالهم ، وحكاية مالم يرضه من أقوالهم (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون) الخ : وقوله في بيان ندمهم على التقليد ، عند مايحل بهم الوعيد ، (ربنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا) يأخذهم الزلزال ، ويتولاهم الاضطراب والقلق ، وتنشق لهم الظلمة عن فلق ، ويلمع في نفوسهم نور الهداية الفطرية فيمشون فيه خطوات ، ثم تحيط بهم الظلمات ، وينقطع بهم الطريق كما ألمعنا آنفا . وأسباب غلبة الظلمات على النور ، هي موافقة ماعليه الجمهور ، والاخلاد الى الهوى ، وتفضيل عرض هذا الادنى ، وانتظار المغفرة ولو تأولوه في معنى الشفاعة ، وتمني الربح من غير بضاعة (يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون : سيغفر لنا - وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه - ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لايقولوا على الله الا الحق ودرسوا مافيه ؟) بلى هو عندهم مدروس بجدليات النحو والكلام ، ولكنه دارس الصوى والاعلام ، المنصوبة لهداية القلوب والاحلام . ومقروء بالتجويد والانغام ، ولكنه متروك الحكم والأحكام ، يقرؤنه اكتساب الحطام ، ولمعرفة الحلال والحرام ، ولا يتلونه لاصلاح القلب واللسان ، بتزكية النفس وتغذية الايمان ، ويكتبونه لشفاء الأبدان من الاسقام ، لا لشفاء مافي الصدور من الاوهام والآثام ، ولو كان له أنصار يدعون اليه ، وهداة يعتصمون به ويعولون عليه ، لتبددت الظلمات أمام الانوار ، ومحت آية الليل آية النهار .

تلك الارشادات الالهية بمنزلة المطر الذي ينزل من السماء، والزلزال والاضطراب الذي أشرنا اليه بمنزلة الرعد، واستبانة الصراط المستقيم الذي يلمع في أنفسهم من ذلك كالبرق، والعادات والتقاليد والشهوات والخوف من ذم الجماهير عند العمل بما يخالفهم كالظلمات التي تصد عن سلوك الطريق بل تعميه على طالبه وتحجبه عنه، ولذلك قال تعالى في تمثيل حال هذا الفريق ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ أي قوم نزل بهم صيب، ووصفه بأنه من السماء مع العلم بأن الصيب لا يكون إلا من السماء للاشعار بأنه أمر لا يملكون دفعه وليس ملاكه في أيديهم، ومن المعهود عند بلغاء العرب التعبير عما يلم بالناس مما لادافع له بأنه نزل من السماء، ولا جرم أن تلك السوانح التي تسنح في الافكار، والالهامات الالهية، لأصحاب الفطرة الزكية، التي يكون من أثرها ماأشار المثل اليه، وتقدم التنبيه عليه، هي أمر وهبي واقع، ماله من دافع .

قال تعالى في وصف الصيب ﴿ فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ الظلمات هي ظلمة الليل وظلمة السحب وظلمة الصيب نفسه، والرعد هو الصوت المعروف الذي يسمع في السحاب عند اجتماعه أحياناً، والبرق هو الضوء الذي يلمع في السحاب في الغالب، وقد يلمع من الافق حيث لاسحاب، وقال مفسرنا الجلال السيوطي: إن الرعد ملك أو صوته، والبرق سوطه يسوق به السحاب، كأن الملك جسم مادي لان الصوت المسموع بالآذان من خصائص الاجسام، وكأن السحاب حمار بليد لا يسير إلا اذا زجر بالصراخ الشديد والضرب المتتابع. وماذكرناه هو الذي كان يفهمه العرب من اللفظين، وهو الذي يفهمه الناس اليوم. ولا يجوز صرف الالفاظ عن معانيها الحقيقية إلا بدليل صحيح، ولاسيما اذا صرفت عن معاني من عالم الشهادة الذي يعرفه الواضعون والمتكلمون، الى معاني من عالم الغيب لا يعلمها الا الله تعالى ومن أعلمهم الله تعالى إياها بالوحي، ولكن أكثر المفسرين ولعوا بحشو تفاسيرهم بالموضوعات التي نص المحدثون على كذبها، كما ولعوا بحشوها بالقصص والاسرائيليات التي تلقفوها من أفواه اليهود وألصقوها بالقرآن لتكون بياناً له وتفسيراً، وجعلوا ذلك ملحقا بالوحي، والحق الذي لامرية فيه انه لا يجوز إلحاق شيء بالوحي غير ماتدل

عليه ألفاظه وأساليبه، إلا ماثبت بالوحي عن المعصوم الذي جاء به ثبوتاً لا يخالطه الريب

أقول : هذا ماقاله الاستاذ في الرعد والبرق رداً على الجلال فيما تبع فيه ماروي في التفسير المأثور عن بعض الصحابة والتابعين، ولا يصح منه شيء، وأمثله ماروا‌ه الترمذي بسند ضعيف من سؤال اليهود للنبي (ص) . وقد رأينا السيوطي لم يذكر من هذه الروايات شيئاً في تفسير الآية من كتابه (الدر المنثور) المخصص لنقل المأثور، وكذلك ابن كثير، وكأن هذا عده من الاسرائيليات مع عدم صحة الرواية فيه . وفسرهما البغوي بمفهومهما اللغوي فقال في الرعد « هو الصوت الذي يسمع من السحاب » وفي البرق « هو النار التي تخرج منه » ثم قال: قال علي وابن عباس وأكثر المفسرين الرعد اسم ملك يسوق السحاب . والبرق لمعان سوط من نور يزجر به الملك السحاب وقيل الصوت زجر السحاب وقيل تسبيح الملك ، وقيل الرعد نطق الملك والبرق ضحكه . وقال مجاهد الرعد اسم الملك ويقال لصوته أيضاً رعد ، والبرق اسم ملك يسوق السحاب. وقال شهر بن حوشب الرعد ملك يزجي السحاب فاذا تبددت ضمها فاذا اشتد غضبه طارت من فيه النار فهي الصواعق . وقيل الرعد انخراق الريح بين السحاب ، والاول أصح اه ولم يذكر الحديث المرفوع لأنه أضعف عنده مما ذكره فيما يظهر

أقول ولا شك عندي في أن هذه الاقوال كلها مما كان يذيعه مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه بين المسلمين، من الصحابة والتابعين ، ولو صح في حديث مرفوع بسماع صحيح لايحتمل أن يكون من الاسرائيليات لما وقع فيه مثل هذا الخلاف ولأمكن حمله على أن المراد به الاشارة الى أن هذه المظاهر الكونية تقع بفعل ملك موكل بالسحاب، ولكن لاحاجة الى ذلك مع عدم صحة شيء في المسألة. والملائكة من عالم الغيب وهم لا يراهم الناس الا اذا تمثلوا لنبي أو ولي على سبيل المعجزة أو الارهاص كتمثل الروح للسيدة مريم عليها السلام، ورؤية الصحابة لجبريل في حضرة النبي ﷺ بصورة رجل يسأل عن الايمان والاسلام والاحسان. والبرق من عالم الشهادة لامن عالم الغيب .

وقول البغوي : وقيل الرعد انخراق الريح بين السحاب — يريد به قول

فلاسفة اليونان الذي اغتر به بعض المسلمين ، قال البيضاوي: والرعد صوت يسمع من السحاب . والمشهور أن سببه اضطراب اجرام السحاب واصطكاكها اذا حدتها الريح من الارتعاد اه . وهو قول باطل والسحاب بخار لا يحدث اضطرابه صوتا .

وقال تعالى في أصحاب الصيب ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾ الصاعقة هي ما كان يعرفه العرب ويعرفه كل واحد وهو ما ينزل في أثناء المطر والبرق والرعد فيصعق ما ينزل به بأن يهلك أو يلحقه ضرر ، وما تفسيرنا للبرق والرعد والصاعقة مع كونها معروفة لكل الناس إلا لأن المفسرين صرفوا أفهامهم عن المعروف إلى غيره ، كما حكي عن (ارسطو) حكيم قدماء اليونان أن تلاميذه سألوه عن تعريف الحركة فقام ومشى ، وما أنطقهم بالسؤال عنها على بداهتها إلا أنهم اعتادوا ان يسمعوا من الفلاسفة أقوالا في الامور الجلية ، تجعلها غامضة خفية .

وأما حقيقة البرق والرعد والصاعقة وأسباب حدوثها فليس من مباحث القرآن لأنه من علم الطبيعة (أي الخليقة) وحوادث الجو التي في استطاعة الناس معرفتها باجتهادهم ، ولا تتوقف على الوحي ، وانما ذكر الظواهر الطبيعية في القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال ، وصرف العقل الى البحث الذي يقوى به الفهم والدين ، والعلم بالكون ينمي ويضعف في الناس ويختلف باختلاف الزمان ، فقد كان الناس يعتقدون في بعض الازمنة ان الصواعق تحدث من أجسام مادية لما كانوا يشمونه في محل نزولها من رائحة الكبريت وغيره ، ورجعوا عن هذا الاعتقاد في زمن آخر ملاحظين أن تلك الرائحة لا تكون دائما في محل الصاعقة . وقد ظهر في هذا الزمان ان في الكون سيالا يسمونه الكهرباء من آثاره ماترون من التلغراف والتليفون والترامواي ، وهذه الاضواء الساطعة في البيوت والاسواق ، من غير شموع ولا زيت ولا ذبالة وانما تكون باتصال سلكين دقيقين كالخيوط التي تخاط بها الثياب ، أحدهما يحمل أو يوصل السيال الكهربائي الذي يسمونه الموجب ، والآخر يوصل السيال المسمى بالسالب ، وباتصال السلكين ، يتولد النور من تلاقي السيالين . وبانقطاعهما أو انفصال بينهما ينفصل السيالان فينقطع الضوء من المصابيح والحركة من الآلات .

والكهربائية موجودة في كل شيء ، والبرق في السحاب يتولد من اتصال نوعيها الموجب والسالب بقدرة الله تعالى، كما يتولد في الارض بعمل الانسان وقد استنزل بعض علماء الكهربائية قبس الصاعقة من السحاب إلى الارض، والصاعقة من أثر الكهربائية ، وهي تفريغ السحاب طائفة منها في مكان لجاذب في الارض يجذبه ، وكثيراً ما حصل الصعق لعمال التلغراف ، لما بين السحاب والاسلاك من الجاذبية. ومعرفة الناس بالسبب الحقيقي للصواعق هداهم إلى حفظ الابنية الشاهقة منها باتخاذ القضيب المعروف الذي يسمى قضيب الصاعقة ، فلا تنزل الصواعق على بناء رفع فوقه هذا القضيب ، ولا مجال في تفسير القرآن للتطويل في أمثال هذه المسائل الطبيعية لانها تطلب من فنونها الخاصة بها ، فلنعد الى بيان المثل

استحضر حال قوم مشاة في فلاة من الارض نزل عليهم بعد ما أقبل ظلام الليل صيب من السماء قصفت رعوده، ولمعت بروقه، وتصور كيف يهوون بأصابعهم الى آذانهم كلما حدث قاصف من الرعد ليدفعوا شدة وقعه بسد منافذ السمع برءوس الأنامل ، وعبر عن الانامل بالاصابع هذا التعبير المجازي اللطيف للاشعار بشدة عنايتهم بسد آذانهم ، ومبالغتهم في ادخال أناملهم في صماليخها ، كأن كل واحد منهم يحاول بما دهمه من الخوف أن يغرس أصبعه كلها في أذنه، حتى لا يكون للصوت منفذ الى سمعه، لما يحذره على نفسه من الموت الزؤام ، ومعالجة الحمام ، وهذا هو الجبن الحالع ، ومنتهى حدود الحماقة ، لان سد الآذان ليس من اسباب الوقاية من أخذ الصاعقة ونزول الموت ، والموت فقد الحياة بمفارقة الروح للبدن ، وخلق الله له عبارة عن تقديره أو عن قبضه للروح وتوفيه للنفس

وقوله تعالى ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ يرشدنا في أثناء شرح المثل وتقريره إلى حال من ضرب فيهم المثل لئلا يذهلنا ما نتصوره من حال المشبه به عن حال المشبه المقصود بالذات . وهو ان التصامم والهروب من سماع آيات الحق والحذر من صواعق براهينه الساطعة أن تذهب بتقاليدهم التي يرون حياتهم الملية مرتبطة بها لا يفيدهم شيئاً ، لان الله تعالى محيط بهم ، ومطلع على سرائرهم ، وعالم بما في

ضمائرهم ، وقادر على أخذهم اينما كانوا ، وفي أي طريق سلكوا ، فلا يهربون من من برهان الا ويفاجئهم برهان آخر ، كالغريق يدفعه موج ويتلقاه موج حتى يقذف به إلى ساحل النجاة ، أو يدفعه إلى هاوية العدم ، ولهذا قال (محيط بالكافرين) ولم يقل محيط بهم أقول : فوضع الاسم المظهر موضع المضمر للايذان بأنهم إنما كانوا كذلك بكفرهم ، وان ذلك يرد في أمثالهم. والمراد بالاحاطة هنا إحاطة القدرة، فمن لم يمته بأخذ الصاعقة أماته بغيرها * تنوعت الاسباب والموت واحد * والمحيط بالشيء لايمكن أن يفوته وينفلت من قبضته

﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ﴾ إذا لمع البرق بشدة مفاجئا من هو في ظلمة فانه يؤثر في بصره تأثيراً يكاد يخطفه، والخطف هو الأخذ بسرعة، ولكنه يتبين به جزءاً من الطريق فيمشي فيه خطوات ثم يعتكر عليه الظلام ، وتستحوذ عليه المخاوف والاوهام ، فيقف في مكانه ، أو يعود البرق الى لمعانه ، ويحاكي هذا من حال الممثل بهم انه عند ما يدعوهم الداعي الى أصل الدين ، ويوضح لهم سبب ماهم فيه من البلاء المبين ، ويتلو عليهم الآيات البينة ، ويقيم لهم الحجج القيمة ، على أنهم تنكبوا الصراط السوي ، وأصيبوا بالداء الدويّ ، يظهر لهم الحق فيعزمون على اتباعه ، وتسير أفكارهم في نوره بعض خطوات ، ولكن لا يعتمون ان تعود اليهم عتمة التقليد وظلمة الشهوات ، وغلبة الاهواء والشبهات ، فتقيد الفكر وإن لم تقف سيره وانما تعود به الى الحيرة — كما تقدم في أول الكلام — ثم يتكرر النظر في تضاعيفها بطريق الالتفات والالمام . وفيه انهم على سوء الحال وخطر المآل، لم تنقطع منهم الآمال، كما انقطعت من أصحاب المثل الاول الذين وصفوا بالصم البكم

العمي ولذلك قال فيهم ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ حتى لا ينجع فيهم وعظ واعظ ولا تفيدهم هداية هاد ، ولم يقل انه ذهب بنورهم كما ذهب بنور أولئك وسلبهم كل أنواع الهدى والرشاد ، فوقع اليأس من رجوعهم الى الحق . وقوله تعالى (ولو شاء الله) الخ رجوع الى بيان حال من ضرب فيهم المثل، لا من تتمة المثل، وقد

كنى عنهم بالضمير هنا لان المثل قد تم، بعدما ذكرهم في قوله (والله محيط بالكافرين) بالوصف الذي اقتضى التمثيل. هذا ماقاله شيخنا وهو أحد قولين للمفسرين، ومنهم من جعله تتمة للمثل نفسه، والمقصود من ضرب فيهم المثل ،على ان كلا من المعنيين صحيح لاينافي الآخر ، وكلام بعضهم يمنع الجمع فقد قال البغوي : ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم الظاهرة . كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة اه وهو خطأ بياني فان الباطنة هي المقصود من الظاهرة بأسلوب التشبيه البليغ وهو الاستعارة . ومع هذا قد جعله شيخنا في صنف منهم غير الموصوفين بقوله صم بكم عمي وكلامه أظهر

﴿ ان الله على كل شيء قدير ﴾ ليس عندي عن أستاذنا شيء في هذه الجملة ومعناها واضح لايحتاج إلى تفسير ولكن قال بعض المفسرين: ان قدير بمعنى قادر ومثله في كل صيغة مبالغة في أسمائه تعالى لانه لا تفاوت فيها. وفيه أن المبالغة في الكلام ، لاجل التأثير فى الافهام ، فقوله (علام الغيوب) أبلغ من قوله (عالم الغيب) ولكل منها موقع ، وهنا لما هدد المنافقين بأنه لوشاء أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ، علله بأنه على كل شيء قدير للاعلام بأن تعلق مشيئته، يتصل به تعلق قدرته ، فما شاء كان قطعاً لانه لا يعجزه شيء، وتأثير الاسباب في مسبباتها منوط بمشيئته تعالى

﴿ تنبيه صادع ، في تطبيق القرآن على ماهو واقع ﴾

(وظهور معاني الامثال المضروبة للمنافقين، في كثير من العلماء والعامة من المسلمين)

عقب الاستاذ تفسير هذه الآيات بتنبيه، ارتاع له الخامل والنبيه ، ذلك انه بيّن أن القرآن هاد ومرشد الى يوم القيامة ، وان معانيه عامة شاملة ، فلا يعد ويوعد ويعظ ويرشد أشخاصا مخصوصين ، وانما نيط وعده ووعيده وتبشيره وإنذاره بالعقائد والاخلاق والعادات والاعمال التي توجد في الامم والشعوب ، فلا يغترن أحد بقول بعض المفسرين : ان هذه الآيات نزلت في المنافقين الذين كانوا في عصر النبي ﷺ فيتوهم انها لاتتناوله وان كانت منطبقة عليه ، لانه لم يتخذ القرآن اماما وهاديا ، ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خلقت له ، بل اكتفى

عن ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه ،في كل ماهم فيه ، ذكر ذلك عند بيان وجه الاتصال بين الآيات السابقة وما بعدها فقال بعد تلاوة الآية التالية مامعناه :

(٢١) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

في الناس المنادون هنا وجهان (أحدهما) انهم الذين يقولون : آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ذلك الايمان الذي يملك القلب ويصرف النفس في الاعمال وهو المقبول عند الله تعالى ، وانما هم آخذون بتقاليد ظاهرية ليس لها ذلك الأثر الصالح في أخلاقهم وأعمالهم ، فهم يخادعون الله تعالى بالتلبس ببعض صور العبادات والاقوال و« ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم»[١] والكلام على هذا لا يزال في الصنف الرابع من أصناف البشر المخاطبين بالقرآن كما تقدم فلا حاجة الى بيان وجه الاتصال بين الآيات

(الوجه الثاني) ـ وهو الراجح ـ أن الخطاب عام للناس كافة ووجه الاتصال بين الآيات على هذا انه لما بين تعالى في أصناف الناس هذا الصنف الذي احتقر أفراده نعم الله تعالى عليهم ، واستعظموها وأكبروها على من قبلهم ، فحرموا أنفسهم من أجل المزايا الانسانية ، وأجلوا سلفهم حتى رفعوهم الى مرتبة الربوبية ، خاطب الناس عامة بأن يعبدوه ملاحظين معنى الربوبية والخالقية التي تشملهم ومن قبلهم من السلف فتنظمهم جميعاً في سلك العبودية للخالق تعالى شأنه ، ولا يكون كذلك الصنف الخاسر الكفور نعم المشاعر والعقل وهداية الدين ، اذ لم يستعملوا عقولهم في فهم ماأنزل عليهم ، بل اكتفوا بتقليد بعض

«١» حديث صحيح رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعا وفي رواية أخرى لمسلم « ان الله لا ينظر الى اجسادكم ولا الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم »

رؤسائهم وعلمائهم ، زاعمين انه لايقوى على فهم كتاب الله تعالى غيرهم ، كأن الله تعالى أنزل كتبه وخاطب بها نفراً معدودين في وقت محدود ، ولم يجعله هداية عامة للامة ، وإنما ألزم سائر الناس في سائر الاوقات الا كتفاء باتباع أولئك الرؤساء وأتباعهم وأتباع أتباعهم وهلمجرا [1] ثم تركوا اتباعهم اتكالا على شفاعتهم واكتفاء بالانتساب اليهم ، وزعما أن الله أعطاهم مالا يعطي مثله لأحد سواهم ، وان عملوا مثل عملهم ، تعالى الله عن الظلم والمحاباة وهو ذو الرحمة التي لاتنتهي وذو الفضل العظيم

هذا النداء الالهي المشعر بأن نسبة الناس الاولين الى الله تعالى كنسبة الآخرين واحدة : هو الخالق وهم المخلوقون ، وهذا المستحق للعبادة وهم المأمورون بها أجمعون ، ـ حجة علينا وعلى جميع من استنّ بسنة ذلك الصنف من قبلنا (قال شيخنا) وأخصّ طلاب علوم الدين بالذكر [2] فينبغي للطالب أن يوجه نفسه الى فهم القرآن ويحملها على الاهتداء به ، فاذا هو فعل ذلك تظهر عليه آداب الاسلام التي أشار اليها الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله « أدبني ربي فأحسن تأديبي [3] وانما كان أدبه القرآن [4] ومن اشتغل بهذا حق الاشتغال وصل الى معرفة أمراض

«١» مما يرد به عليهم أن الذين يكتبون ويعلمون كثيرون فاذا زعم المقلد أن الله تعالى أمر باتباعهم من غير نظر ولا استدلال وهم غير معينين فلا شك ان اتباع أي مذهب أو دين واجب ولا فرق بين سني ومبتدع ولا بين مسلم وكافر

(٢) قد خص طلاب العلوم بالذكر لانه يرى ان علماء الازهر وأمثالهم من كبار الشيوخ هم الفريق الميئوس منهم من شرح حالهم بل قال لي ان من تطول مدة طلبه للعلم في الازهر وأمثاله فانه يفقد الاستعداد للعلم

«٣» رواه العسكري في الامثال من حديث علي كرم الله وجهه مرفوعا وسنده ضعيف ومعناه كما قالوا صحيح

« ٤ » يشير الاستاذ إلى حديث عائشة عند أحمد ومسلم وغيرهما وقد سالها سعد بن هشام عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال قلت بلى ، قالت : فان خلق نبي الله كان القرآن

المسلمين الحاضرة ، ومنابع البدع التي فشت فيهم ، ومثارات الفتن التي فرقتهم ، ويعرف علاج ذلك . وان من ذاق حلاوة القرآن لاينظر في كتاب ولا ينلقى علما[1] الا مايفتح له باب الفهم في القرآن أو مايفتح له بابه القرآن فيجده مرآته ، وما عدا ذلك مبعد عنه ، والبعد عن القرآن هو عين البعد عن الله تعالى ، وذلك هو الضلال البعيد

كل ماأمرنا به القرآن وأرشدنا الى النظر فيه فالاشتغال به اشتغال بالقرآن، فاذا قال : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) فذلك تنبيه وارشاد الى الاعتبار بما في خلقنا في الحكم والاسرار ، وينبغي لنا البحث عنها كما قال في آية أخرى : (وفي الارض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون) والى الاعتبار بتاريخ من قبلنا كما قال في آية أخرى : (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) وأمثال ذلك كثير

لا يتعظ الانسان بالقرآن فتطمئن نفسه بوعده وتخشع لوعيده إلا اذا عرف معانيه ، وذاق حلاوة أساليبه ، ولا يأتي هذا الا بمزاولة الكلام العربي البليغ مع النظر في بعض النحو كنحو ابن هشام وبعض فنون البلاغة كبلاغة عبد القاهر[2] وبعد ذلك يكون له ذوق في فهم اللغة يؤهله لفهم القرآن . قال الامام أبو بكر الباقلاني : من زعم انه يمكنه أن يفهم شيئاً من بلاغة القرآن بدون أن يمارس البلاغة بنفسه فهو كاذب مبطل

«١» قد يقال ان هذا انما يصح في العلوم الشرعية ووسائلها من الفنون العربية دون العلوم العقلية والكونية والاجتماعية والصواب ان هذه العلوم تفتح من ابواب الفهم في القرآن مالا يفتحه علم الفقه وعلم الكلام وستأتي الاشارة الى ذلك

«٢» يعني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لان كلا منهما مصداق جلي لاسمه فهو يعلم قارئه البلاغة بعبارته ومباحثه ويعينه على جعلها ملكة في نفسه وذوقا له باسلوبه وبلاغته. ولذلك حثنا الاستاذ على طبعهما وقرأهما لطلاب البلاغة في الجامع الازهر. وأما مختصر السعد ومطوله فلا يتعلم قارئهما الا الاصطلاحات الجافة التي تفسد ملكة البيان وتبعد بقارئها عن ذوق البلاغة

فهل يصلح لمسلم بلغ ورشد وطلب العلم أن لايجعل القرآن إمامه ويتخذه نورا يمشي به في الناس ويهتدي به في ظلمات البدع

أمامنا عقبتان كؤدان لا نرتقي عما نحن فيه الا باقتحامهما ، وهما الكسل وتسجيل القصور على أنفسنا بجهل قيمة نعم الله تعالى علينا ، وصاحب هاتين الحلتين يمقت كل من يرشده الى الخير ويهديه للحق، لانه يكلفه ضد طبعه، فلا يرى مهربا من الاعتراف بضلاله وغيه ، الا بالقدح بمرشده وناصحه

على كل منا أن ينظر فى نفسه وينظر في القرآن العظيم ويزن به ماهوعليه من العقائد والاخلاق والاعمال ، فان رجح به ميزانه فهو مسلم حقيقي فليحمد الله تعالى ، والا فليسع فيما يكون به الرجحان

لابد لنا في النظر الطويل والفكر القويم فيما نحن فيه، فمن لم يتفكر لم يهتد الى الحق ، ومن لم يهتد اليه فهو ضال، (فماذا بعد الحق الا الضلال)

هذا ماتذكرناه من التنبيه الذي قلنا إن الاستاذ قفى به على تفسير الآيات التي وردت في صنفي المنافقين ومرضى القلوب بازاء القرآن ووصل به بينها وبين قوله تعالى(ياأيها الناس اعبدوا ربكم) الآيات . وهاك تفسيرها بالتفصيل

﴿ ياأيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ أقول إن الله تعالى قد افتتح هذه السورة بذكر كتابه القرآن وكونه حقاً لاريب فيه . وذكر بعدذلك أصناف البشر تجاهه من المهتدين به بالقوة وبالفعل ، ومن الكافرين الذين فقدوا الاستعداد للهدى ، ومن المنافقين المذبذبين بين المؤمنين والكافرين ، وفيه مايفهم منه أن هؤلاء متفاوتون منهم المستعد للاخلاص في الايمان ومن فقد الاستعداد له ، وحكمة بيان حال الميئوس من إيمانهم أنهم ليسوا حجة على هداية القرآن بل هو حجة عليهم

بعد هذا التمهيد جاءت هذه الآية والآيات الاربع بعدها مصرحات بدعوة جميع الناس إلى دين الله تعالى الحق ببيان أصوله وأسسه وهى (١) توحيد الالوهية بعبادة الله تعالى وحده مع ملاحظة توحيد الربوبية (٢) القرآن آيته الكبرى ودينه التفصيلي، (٣) نبوة محمد ﷺ المرسل بهذا القرآن . (٤) الجزاء في الآخرة على الكفر وأعماله بالنار، وعلى الايمان وأعماله بالجنة .

تقدم تحقيق معنى العبادة ومعنى الرب في تفسير سورة الفاتحة. وبدء الدعوة بالأمر بعبادة الله تعالى وحده هو سنة جميع المرسلين. قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدو الله واجتنبوا الطاغوت) فكان كل رسول يبدأ دعوته بقوله (ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وذلك أن جميع تلك الامم كانت تؤمن بان الله خالق الخلق هو ربهم ومدبر أمورهم، وإنما كان كفرهم الأعظم بعبادة غير الله تعالى بالدعاء الذي هو ركن العبادة الاعظم في وجدان جميع البشر، وبغير الدعاء والاستغاثة من العبادات العرفية، كالتقرب إلى المعبود بالنذور وذبح القرابين أو الطواف والتمسح به إن كان جسما أو تمثالا لملك أو بشر أو حيوان أو قبراً لانسان، ومنهم من كان ينكر البعث أيضاً، ولما كان المخاطبون بالدعوة هنا أولا وبالذات في ضمن الدعوة العامة وهم اليهود والعرب في المدينة وماحولها يؤمنون برب العالمين ووحدانيته ويعبدون غيره إما بدعائه مع الله أو من دون الله وإما بجعله شارعاً يتبعونه فيما يصدره من أحكام التعبد أو الحرام والحلال — لما كانوا كذلك احتج على دعوتهم إلى توحيد الله تعالى بالتعبير بلفظ رب مضافا اليهم فقال (اعبدوا ربكم) ووصفه بما يدل على انفراده بالربوبية من الصفات المسلمة عندهم وهي الخلق والتكوين والرزق فقال ﴿ الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ الى آخر الآية التالية — أي اذا كان ربكم هو الذي خلقكم وخلق من قبلكم وهو الذي سخر لكم السماء والأرض لرزقكم ومنافعكم فيجب أن تعبدوه وحده ولا تشركوا بعبادته أحدا من خلقه فتجعلونه مساويا له وتفضلونه على أنفسكم تفضيلا من نوع تفضيل الخالق على المخلوق والرب على المربوب.

وهاك تفصيل ذلك بما كتبته من سياق درس شيخنا مفصلا له تفصيلا :

يقول تعالى (ياأيها الناس) الذين يدّعون الايمان بالله قولا بأفواههم ولم يمس الايمان الحق سواد قلوبهم، ولا كان له سلطان على أرواحهم، ويدعون الايمان باليوم الآخر ولم يستعدوا له بتهذيب أنفسهم واصلاح أعمالهم، وإنما يأتون ببعض صور العبادات بحكم العادات الموروثة، وقلوبهم مشغولة عن الله الذي لاتفيد العبادة عنده إلا بالتوجه اليه وابتغاء مرضاته، والشعور بعظمته وجلاله، فهم يخادعون الله بهذه الظواهر التي لامعنى لها، والصور التي لاروح فيها، وانما يخدعون في

الحقيقة أنفسهم لأن أعمالهم هذه لا تفيدهم في الدنيا عزة وسعادة ولا تنجيهم في الآخرة

ويا أيها الناس الذين لم يرزؤا بهذا الخذلان ، ولم يبتلوا بهذا الافتتان ، سواء كانوا من أهل الكفر أو من أهل الايمان ، (اعبدوا ربكم) جميعا عبادة خشوع واخلاص وأدب وحضور كانكم تنظرون اليه وترونه ، فان لم تكونوا ترونه فانه يراكم ، وينظر دائما الي محل الاخلاص منكم وهو قلوبكم ، واستعينوا على إشعار نفوسكم هذا الخشوع والحضور والاخلاص في العبادة باستحضار معنى الربوبية فانه هو ربكم الذي أنشأكم فيما لا تعلمون (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) وغذاكم بنعمه ، ونماكم بكرمه ، كما فعل مثل ذلك بسلفكم الصالح فشكروه وعبدوه وحده مقرين بهذه التربية ، ومعظمين لهذه المنة ، فليدع ذلك الصنف احتقار النعم التي هو فيها والاقتصار على تعظيم نعمة الله على السلف فقط فان هذا الرب العظيم (الذي خلقكم و) خلق (الذين من قبلكم) قد رباكم كما ربى سلفكم ، ووهبكم من الهدايات مثلما وهبهم ، فمن شكر منهم ومنكم زاده نعماء ومن كفر بهذه النعم جعلها عليه نقما ، ليكون عبرة ومثلا للآخرين ، وذلك من رحمته بالعالمين ، وقد أقسم تعالى على ذلك في كتابه المجيد، فقال (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد) وفي القصاص حياة لأولي الألباب، ومايتذكر الامن أناب .

هكذا أمر الله تعالى عباده أجمعين ، بان يعبدوه وحده مخلصين له الدين ، وأرشدهم باعلامه اياهم أنه ساوى بينهم وبين من قبلهم في المواهب الخلقية ـ الى الاستقلال بالعمل ، وقدر نعمته عليهم قدرها ، ليعلموا أن كل النعم التي تكتسب بالشكر — وهي ماعدا النبوة — مقدورة لهم ، كما كانت مقدورة لمن قبلهم ، وأنهم اذا زادوا على سلفهم شكراً يزادون نعما ، وما الشكر الا استعمال المواهب والنعم فيما وهبت لأجله ، فالذين يقولون إننا لا نقدر على فهم الدين بأنفسنا من الكتاب والسنة لأن عقولنا وأفهامنا ضعيفة ، وانما علينا أن نأخذ بقول من قبلنا من آبائنا ، لأن عقولهم كانت أقوى ، وكانوا على فهم الدين أقدر ، بل لا يكن

أن يفهمه غيرهم ، أولئك كافرون بنعمة العقل ، وغير مهتدين بهذه الآية الناطقة بالمساواة في المواهب وسعة الرحمة والفضل . وكذلك الذين يتخذون وسطاء بينهم وبين الله تعالى لأجل التقريب اليه زلفى بغير ماشرعه لهم من الدين وماجاء به الانبياء عليهم الصلاة والسلام ـ وهم الوسائل في الهداية والارشاد ـ أو لأجل الشفاعة لهم عنده لينالوا جزاء ماشرعه من الدين ، من غير طريق العمل به واتباع المرسلين ـ قد احتقروا نعم الله تعالى ولم يهتدوا بهذه الآية لأنهم قد جعلوا لله أنداداً يبغون أن ينالوا بأشخاصهم، ما حكم الله بأن يطلبه الناس بإيمانهم وأعمالهم، فجعلوا هؤلاء الانداد شركاء لله يغنونهم عن شريعته شعروا بذلك أم لم يشعروا

يقول تعالى لجميع عباده ، اعبدوني ملاحظين معنى الربوبية ، والمساواة في المواهب الخلقية، الَّتي تؤهلكم للسعادة الحقيقية ﴿ لعلكم تتقون ﴾ فان العبادة على هذا الوجه هي التي تعدكم للتقوى ، ويرجى بها بلوغ غاية الكمال القصوى ،

قال الاستاذ : الشائع ان لعل للترجي في ذاتها وإذا وقعت في كلام الله تعالى يكون معناها التحقيق ، وعرض القائلين بهذا تنزيه الله سبحانه عن الترجي بمعناه اللغوي الآتي ، ولكنه رميٌ للكلام بدون بيان ، وحقيقته ان لعل للترجي ولكنها تستعمل للإعداد والتهيئة للشيء وفي هذا معنى الترجي ، فحيث وقعت (لعل) في القرآن فالمراد بها هذا المعنى الأخير كما فسرناها به آنفا ، وهو يستلزم التحقيق [لان الإعداد بما تأتي « لعل » بعده أمر محقق لا ريبة فيه] فان العبادة على الوجه الذي أرشدت اليه الآية من ملاحظة معنى الربوبية الخ ماتقدم شرحه تطبع في النفس ملكة خشية الله وتعظيمه ومراقبته ، وتعلي همة العابد وتقوى عزيمته وإرادته ، فتزكو نفسه وتنفر من المعاصي والرذائل ، وتألف الطاعات والفضائل ، وهذه هي التقوى وإذا قلنا ان الرجاء متعلق بالناس فالاعداد فيه ظاهر ومتحقق إذ لو لم يخلقهم مستعدين للتقوى لما اتقاه منهم أحد

ومعنى الترجي في أصل اللغة توقع حصول الشيء القريب بحصول سببه والاستعداد له ، سواء كان الاستعداد كسبيا أو طبيعيا فاستعملنا « لعل » المعبرة عن التوقع في سببه وهو الاستعداد أو الاعداد الذي هو جعل المرء مستعداً ،

والتعبير عن المسبب بلفظ السبب شائع في استعمال اللغة ، وقد عدوا الترجي والتمني من الأخبار وصيغهما صيغ انشاء فقط

وأقول ان ماذكره من الاعداد صحيح ولكنه غير مطرد والتحقيق أن الترجي عبارة عن كون الشيء مأمولا بما يذكر من سببه غير مقطوع به لذاته بل يتبع قوة أسبابه مع انتفاء الموانع ويتعلق تارة بالمتكلم وتارة بالمخاطب وتارة بالمتكلم عنه وتارة بغيرهما فتأمل قوله تعالى (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وقوله حكاية عن قوم موسى (لعلنا نتبع السحرة) وقوله (وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب) الخ وقوله لموسى وهارون (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقد علم ان هذا مقطوع بعدم وقوعه عند الله ولكن الرجاء فيه متعلق بموسى وهارون أي (فقولا له قولا لينا) راجيين به أن يتذكر أو يخشى لا قولا غليظا منفراً . وتأتي لعل للاشفاق وإفادة التحذير من أمر وقعت أسبابه فكان بها مظنة الوقوع كقوله تعالى لرسوله ﷺ (فلعلك باخع نفسك) الآية وقوله (فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك) الآية .

لما ذكر الله عباده بنعمة الايجاد ونعمة المساواة في المواهب التي تقتضي التقوى وعدم إطراء السلف برفعهم إلى مقام الربوبية كما وقع من الذين (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) ذكرهم ثانيا ببعض خصائص الربوبية، التي

تقتضي الاختصاص بالعبودية ، فقال ﴿ الذي جعل لكم الارض فراشا ﴾ بما مهدها وجعلها صالحة للافتراش والاقامة عليها والارتفاق بها ،أي فهو القادر على جلائل الفعال ، العظيم الذي يستحق العبادة والاجلال ، المنعم بجميع النعم ،الجدير بأعلى

مراتب الشكر ، جعل الأرض بقدرته فراشا لأجل منفعتكم ﴿ والسماء بناء ﴾ متماسكا لكيلا تقع على الأرض فتسحقكم . السماء مجموع مافوقنا من العالم : والبناء وضع شيء على شيء بحيث يتكون من ذلك شيء بصورة مخصوصة : وقد كون الله السماء بنظام كنظام البناء . وسوى اجرامها على هذه الصفة المتاهدة وأمسكها بسنة الجاذبية فلاتقع على الارض ،ولا يصطدم بعضها ببعض، إلا إذا جاء يوم الوعيد ،

وبطل نظام هذا العالم ليعود في خلق جديد ، والواجب ملاحظته في هذا المقام هو تصور قدرة الله تعالى وعظمته ، وسعة فضله ورحمته

ثم بعد ان امتن بنعمة الايجاد ، ونعمة الفراش والمهاد ، ونعمة السماء ، التي هي كالبناء ، ذكر نعمة الامداد ، الذي تحفظ به هذه الاجساد ، وهي مادة الغذاء ، التي بها النمو والبقاء ، فقال ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ الثمرات ما يحصل من النبات نجما كان أو شجراً : يصلح الزارع والغارس الارض ، ويبذر البذر ، ويغرس الفسيل ، ويتعاهد ذلك بالسقي والعذق ، فيكون له كسب في رزقه ، ولكنه ليس له كسب في إنزال المطر الذي يسقي به ، ولا في تغذية النبات بماء المطر أو النهر المجتمع من المطر ، وبأجزاء الارض وعناصرها الأخر ، ولا في تولد خلاياه التي بها نموه ، ولا في اثماره اذا أثمر ، وانما كل ذلك بيد الله القدير – فعلينا أن نتفكر في ذلك لنزداد تعظيما له واجلالا فلا نعبد معه أحداً

وبعد أن عرّفنا الله تعالى بأنفسنا ، وبنعمته علينا وعلى سلفنا ، وبعد ان عرّفنا ذاته الكريمة ، بآثار رحمته ومننه العظيمة ، وصرنا جديرين بأن نعرف ان العبد عبد فلا يُعبد ، وان الرب رب فلا يشرك به ولا يجحد ، قال تفريعا وترتيبا على ماسبق ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ من سلفكم المخلوقين مثلكم تطلبون منهم ما لا يطلب إلا منه ، وهو كل ماتعجزون عنه ، ولا يصل كسبكم اليه ، لاتفعلوا ذلك فانهم في الخلق والعبودية مثلكم

الأنداد جمع ند بكسر النون وفسر بالشريك وهو في اللغة المضارع والكفؤ ، يقال فلان ند فلان ومن أنداد فلان أي يضارعه ويماثله ولو في بعض الشؤون . والانداد الذين اتخذوا في جانب الله هم الذين خضع الناس لهم وصمدوا اليهم في بعض الحاجات ، لمعنى يعتقده فيهم الخاضعون المخاطبون بترك الانداد أولا وبالذات ، وهم مشركو العرب وأهل الكتاب ، فالعرب كانت تسمي ذلك الخضوع والصمد عبادة اذ لم يكن عندهم وحي ينهاهم عن عبادة غير الله فيتحاموا هذا اللفظ «العبادة» ويستبدلوا به لفظ التعظيم أو التوسل مثلا تأويلا لظاهر نص التنزيل . وأما أهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أنداداً وأربابا فكانوا يؤولون فلا يسمون

هذا الاتخاذ عبادة ولا أولئك المعظمين آلهة أو أنداداً أو أربابا. وفرق بين الاتخاذ بالفعل والتسمية بالقول، والجميع متفقون على أنه لاخالق الا الله ولا رازق الا الله وانما كانوا يسمون دعاءهم غير الله والتقرب اليه توسلا واستشفاعا ، ويسمون تشريعهم لهم العبادات وتحليلهم لهم المنكرات ، وتحريمهم عليهم بعض الطيبات ، فقها واستنباطا من التوراة . إلا أن من النصارى من لا يتحامون التصريح بعبادة السيدة مريم وبعض القديسين استعمالا للفظ في مدلوله اللغوي

وصور العبادة تختلف عند الامم اختلافا عظيما وأعلاها عند المسلمين الاركان الخمسة والدعاء . وقالوا كل عمل غير محظور تحسن فيه النية لله تعالى فهو عبادة ، كأن المعنى الذي يجعل جميع الاعمال عبادة هو التوجه إلى الله تعالى وحده وابتغاء مرضاته ، ولها عند أهل الكتاب صور أخرى، والمؤولون يخصون هذه الصور بالله تعالى واذا ابتدعوا صورة فيها معنى العبادة يسمونها باسم آخر يستحلونها بل يستحبونها به ، ولكنهم لايخرجون بالتسمية أوالتأويل عن حيز من يتخذ من دون الله أنداداً كما ذكر الله عنهم في قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) ولم يكن منهم سوى التوسل بهم والاخذ في الدين بقولهم تقليداً لهم بدون فهم لما جاء على لسان الوحي كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ وقدماء الفرس جعلوا لله نداً في الخلق والايجاد فقالوا : إن للخير إلهاً هو الاله الاول ، وإن للشر إلهاً يضاده ، وليس النهي في الآية عن هذا الند الشريك لان المخاطبين لا يدينون به كما قلنا وتدل عليه الآيات الكثيرة

لذلك وصل النهي بقوله عز وجل ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أي والحال انكم تعلمون انه لاند له لأنكم اذ سئلتم من خلقكم وخلق من قبلكم ؟ تقولون الله ، واذا سئلتم من يرزقكم من السموات والارض ومن يدبر الامر؟ تقولون الله. فلماذا تستغيثون إذن بغير الله وتدعون غير الله ؟ ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التي لاتضر ولا تنفع وادعيتم أنهم شفعاؤكم عند الله ؟ ومن أين جاءكم أن التقرب والتوسل إلى الله يكون بغير ماشرعه من الدين حتى قلتم (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله) ؟

يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم ، وخلق وسائطكم وشفعاءكم ،

وأعدكم جميعاً للتقوى، التي تقربكم اليه زلفى، وساوى بينكم في أنواع المواهب إلا أنه خص الانبياء عليهم السلام بالوحي ليعلموكم ما اخطأ نظركم ورأيكم فيه، فعليكم أن تهتدوا بما جاؤا به، فان صد المرؤسين عن ترك تقاليدهم واتباع الوحي من غير زيادة فيه ولا نقصان منه خوفهم الرؤساء فقد آثروا رؤساءهم على الله وجعلوهم له أنداداً ، وإن صد الرؤساء عن هذا الاتباع توقع زوال المنفعة والجاه لدى المرؤسين فقد اتخذوهم أنداداً، فالند هو المكافيء والمثل، وأنتم بتركيكم الحق لخوفهم ورجائهم تفضلونهم على الله تعالى وتجعلونه أقل الانداد تعظيما ، ففروا رحمكم الله إلى الله ، ولا تخافوا غيره ولا ترجوا سواه ، فمدار على من يعرف الله ، أن يؤثر رضاء أحد على رضاه ، لا فرق بين رئيس ومرءوس ، وتابع ومتبوع ، بل هذا لا يقع من مؤمن حقيقي لأن الله تعالى يقول (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)

---

(٢٣) وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * (٢٤) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ

قلنا إن الكلام من أول السورة في القرآن وتفصيل أحوال الناس في الايمان به وعدمه ، وهذه الآية دليل على عدم الخروج عن هذا الموضوع في كل ما تقدم فالآيات متصل بعضها ببعض كحبات من الجوهر نظمت في سلك واحد ، فانه بعد ماذكر المتقين الذين يهتدون بالقرآن وعلاماتهم ، وبين خصائصهم وصفاتهم ، وذكر الجاحدين المعاندين ، وماهم عليه من العمى عن جلية الحق المبين، وما رزئوا به من الصمم المعنوي حتى لا يسمعون الحجج والبراهين ، وما أصيبوا به من البكم بالنسبة لقول الحق أو سؤال المرشدين ، ثم ذكر المذبذبين بين ذلك فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وذكر فرقهم وأصنافهم ، وبين خلائقهم وأوصافهم، وضرب لهم الامثال ، ونضلهم في ميدان الجدال ، بسهام الحجج النافذة، وسيوف

البراهين القاطعة — بعد هذا كله تحداهم بالكتاب الذي يدعو اليه ويناضل عنه ويكافح دونه (ذلك الكتاب الذي لاريب فيه) فقال

﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ أي ياأيها الناس عليكم بعد أن تنسلُّوا من مضيق الوساوس، وتتسللوا من مآزق الهواجس، وتنزعوا ماطوقكم به التقليد من القلائد ، وتكسروا مقاطر ماورثتم من العوائد ، أن تهرعوا إلى الحق فتطلبوه ببرهانه، وأن تبادروا إلى مادعيتم إليه فتأخذوه بزبانه، فان خفي عليكم الحق بذاته، فهذه آية من أظهر آياته ،وهي عجزكم عن الاتيان بسورة مثل سور القرآن من رجل أمي مثل الذي جاءكم به ، وهو عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ، وإن عجزتم عن الاتيان بسورة من مثله تساوي سورة في هدايتها ،وتضارعها في أسلوبها وبلاغتها ، وأنتم فرسان البلاغة ، وعصركم أرقى عصور الفصاحة ، وقد اشتهر كثيرون منكم بالسبق في هذا الميدان ، ولم يكن محمد ﷺ ممن يسابقكم من قبل في هذا الرهان ، لانه لم يؤت هذا الاستعداد بنفسه، ولم يتمرن عليه أو يتكلفه لمباراة أهله ، ـ فاعلموا أن ماجاء به بعد أربعين سنة فأعجزكم بعد سبقكم لم يكن إلا بوحي إلهي ، وامداد سماوي ، لم يسم عقله الى علمه ، ولا بيانه إلى أسلوبه ونظمه ،

وعبر عن كون الريب بإن للايذان بأن من شأن هذا التنزيل أن لايرتاب فيه [١] لان الحق فيه ظاهر بذاته ، يتلألأ نوره في كل آية من آياته ، ولكن

اذا لم تكن للمرء عين صحيحة   فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

«١» هذا مبني على قاعدة معروفة في العربية وهي أن شرط « إذا » يقتضي الوقوع وشرط « إن » يقتضي عدم الوقوع أو الشك فيه، وكذا ماشأنه عدم الوقوع لذاته وإن وقع لعارض كما في هذه الآية ومر توضيح هذا الشأن في تفسير (لاريب فيه) ومثله ماشأنه عدم الوقوع أو ماينزل منزلته لا لذاته بل بسبب آخر كالممنوع شرعاً فمن شأنه ألا يقع من مؤمن مذعن للشرع وإن وقع لضعف في الايمان وتغلب للشهوات كقوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) وقوله (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) ويراجع تفصيل هذه القاعدة في (دلائل الاعجاز) للامام عبدالقاهر الجرجاني

والتنزيل من مادة النزول كالانزال وتقدم تفسيره إلا أن صيغة (التفعيل) الدالة على التدريج أو التكثير، تفيد أن القرآن نزل نجوما متفرقة وهو الواقع وصيغة أنزل لا تنافيه

وقوله تعالى (من مثله) فيه وجهان (أحدهما) أن الضمير في « مثله » للقرآن المعبر عنه بقوله (مما نزلنا) (والثاني) أنه لعبدنا قال شيخنا وهو أرجح بدليل من الداخلة على «مثله» الدالة على النشوء ، أي فان كان أحد ممن يماثل الرسول بالأمية يقدر على الاتيان بسورة فليفعل قال تعالى ﴿ وادعوا شهداء كم ﴾ الذين يشهدون لكم أنكم أتيتم بسورة من مثله وهؤلاء الشهداء هم غير الله تعالى بالضرورة أي ادعوا كل من تعتمدون عليه ليشهد لكم ﴿ من دون الله ﴾ أو ادعوا كل أحد غير الله تعالى ليؤيد دعواكم كما أيد الله تعالى دعوة عبده محمد ﷺ ، وانظروا هل يغنيكم دعاؤكم شيئاً ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في دعواكم [أن عندكم فيه ريباً، وانما يصدق المرتاب في ريبه اذا خفيت الحجة، وغلبت الشبهة، وكان جاداً في النظر ، فهو يقول إن كنتم صدقتم في أنكم مرتابون فلديكم ما يمحص الحق فجدوا في الفكر ، ولا تتوانوا في النظر ، وتدبروا هذا الكتاب وهاهو ذا معروض عليكم، وأتوا بسورة واحدة من مثل هذا النبي الامي ، فاذا أمكن لكم ذلك فلخاطر الريب أن يمر بنفوسكم ، وإلا فما وجه إعراضكم عن دعوته ، وإبطائكم عن تلبيته ،]

(اقول) هذا محصل سياق الاستاذ في الدرس وقد قرأه بعد كتابتنا له وكتب العبارة الأخيرة لا يضاحه بخطه بعد طبع التفسير في المنار. وترجيحه كون الضمير في مثله للنبي ﷺ خاص بهذه الآية وهو لا ينافي العجز عن الاتيان بسورة مثل سور القرآن من غير الأميين ورجح الجمهور الاول لموافقة الآيات الأخرى في هذا التحدي. وأول ما نزل في هذا المعنى قوله تعالى في سورة الاسراء (١٧ : ٨٨ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ثم نزل بعدها آية يونس (١٠ : ٣٨ أم يقولون افتراه قل فاءتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) ثم آية هود (١١: ١٣ أم يقولون افتراه قل فاءتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من

دون الله ان كنتم صادقين) وهذه السور الثلاث نزلت بمكة متتابعات كما رواه العلماء بهذا الشأن ولكن في رواية عن ابن عباس ان سورة يونس مدنية والرواية الاخرى هي الموافقة لقول الجمهور ولأسلوبها فانه أسلوب السور المكية .

وقال بعض علماء الكلام ان الله تعالى تحدى الناس أولا بالقرآن في جملته في آية الاسراء ثم تحداهم بعشر سور مثله في آية هود ، ثم تحداهم بسورة واحدة مثله في آية يونس وكل ذلك بمكة ، ثم بسورة من مثله في آية البقرة بالمدينة. وهذا ترتيب معقول، لو ساعد عليه تاريخ النزول، والظاهر أن التحدي في سورتي يونس وهود خاص ببعض أنواع الاعجاز وهي مايتعلق بالاخبار كقصص الرسل مع أقوامهم، وهو من أخبار الغيب الماضية التي لم يكن لمن أنزل عليه القرآن علم بها ولا قومه كما قال تعالى عقب قصة نوح من سورة هود (١١ : ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وكما قال في سورة القصص عقب قصة موسى (٢٨ : ٤٤ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الامر) إلى آخر الآية ٤٦ وكما قال في سورة آل عمران عقب قصة مريم (٣ : ٤٤ ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك) الآية .

ولعل وجه التحدي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة هو ارادة نوع خاص من أنواع الاعجاز ، وهو الاتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة وازالة شبهة تخطر بالبال ؛ بل بعض الناس أوردها على الاعجاز بالبلاغة والاسلوب ، وهي ان الجملة أو السورة المشتملة على القصة يمكن التعبير عنها في اللغة بعبارات مختلفة تؤدي المعنى ولابد أن تكون عبارة منها ينتهي اليها حسن البيان مع السلامة من كل عيب لفظي أو معنوي يخل بالفهم أو التأثير المطلوب فمن سبق إلى هذه العبارة أعجز غيره عن الاتيان بمثلها لان تأليف الكلام في اللغة لايحتمل ذلك ، ومن الامثال التي وضحوا بها هذه الشبهة قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟) قالوا ان هذه الجملة تحتمل بالتقديم والتأخير بضعة تراكيب أفصحها وأبلغها وأسلمها من الضعف والابهام تركيب

الآية . ولكن القرآن عبر عن بعض المعاني وبعض القصص بعبارات مختلفة الاسلوب والنظم من مختصر ومطول ، والتحدي بمثله لا يظهر في قصة مخترعة مفتراة بل لا بد من التعدد الذي يظهر فيه التعبير عن المعنى الواحد والقصة الواحدة بأساليب مختلفة وتراكيب متعددة كما نرى في سوره فتحداهم بعشر سور مثله في هدايتها وبلاغتها وأسلوبها واشتمالها على الحكم والعبر والاسوة الحسنة المعينة على التربية والتهذيب كما هو شأن القرآن في قصصه. كأنه يقول أدع لكم ما في سور القصص من الاخبار عن الغيب ، وأتحداكم انتم وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الاتيان بعشر سور مثل سور القرآن في قصصها ، مع السماح لكم بجعلها قصصا مفتراة من حيث موضوعها ، فان جئتم به مثل سوره القصصية ، في سائر مزاياها اللفظية والمعنوية ، فأنا أعترف لكم بدحض حجتي عليكم

وأما اكتفاؤه في سورة يونس بعدها بالتحدي بسورة واحدة في مقام الرد على قولهم « افتراه » فلأنه لم يقيده بكونها مفتراة ، لا من باب التخفيف عليهم بالواحدة بعد عجزهم عن العشر ، فيدخل فيه خبر الغيب والتزام الصدق .

فعلم من هذا التفصيل ان التحدي باعجاز القرآن لذاته في جملته والتحدي ببعض انواع إعجازه في عشر سور مثله وبسورة مثله — كلاهما ثابت في السور المكية قبل نزول آية البقرة وسورتها بعد الهجرة في المدينة المنورة، ولما كان كفار المدينة الذين يوجه اليهم الاحتجاج اولا وبالذات هم اليهود وهم يعدون اخبار الرسل في القرآن غير دالة على علم الغيب تحداهم بسورة من مثل النبي ﷺ في أميته ليشمل ذلك وغيره مع بقاء التحدي المطلق بسورة واحدة مثله على إطلاقه غير مقيد بكونه من مثل محمد ﷺ وسيأتي بحث وجوه هذا الاعجاز قريبا

ثم قال تعالى ﴿ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ الخ أي فان لم تأتوا بسورة من مثله، ونجثتوا دليله من أصله ، وما أنتم بفاعلين ، لان هذا ليس في طاقة المخلوقين ، فاتقوا النار التي أعدت لا مثالكم من الكافرين، الذين يجحدون الحق بعد البرهان المبين، وقوله تعالى (ولن تفعلوا) جملة معترضة بين الشرط وجوابه ، وهي مقصودة هنا في ذاتها لما فيها من تقوية الدليل ، وتقرير عجزهم بما يثير حميتهم ويغريهم

بتكلف المعارضة ، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا النفي الاستقبالي المؤكد أو المؤبد من عاقل كالنبي عليه الصلاة والسلام في أمر ممكن عقلا لولا أن أنطقه الله الذي خصه بالوحي ، وهو الذى يعلم غيب السموات والارض ، بأنه غير ممكن لأحد

وعبر عن نفي وقوع الفعل منهم بان التي يعبر بها عما يشك في شرطه، أو يجزم المتكلم بعدم وقوعه ، ومقتضى القاعدة أن يكون الشرط هنا باذا لأن المحقق انهم لن يفعلوا كما صرحت به الآية مع القطع بأن الله تعالى منزه عن الشك ، ولكن القواعد التي تذكر في علم البلاغة قد ينظر فيها إلى حال المخاطب لا حال المتكلم ، والمعول عليه هو مايقصد المتكلم أن يبلغه من نفس المخاطب ويودعه في ذهنه ، فهينا يخاطب الله المرتابين ، والذين هم في جحودهم وعنادهم كالواثقين الموقنين ، خطابا يؤذن أوله بان عدم الاتيان بما تحداهم به مشكوك فيه ، ولازمه أن المعارضة جائزة منهم، وداخلة في حدود إمكانهم، خاطبهم بهذا مراعاة لظاهر حالهم التي تومىء إلى القدرة على المعارضة ، وتشير إلى امكان الاتيان بالسورة ، ثم كر على هذا الايذان بل الايهام بالنقض بلا تلبث ولا تريث، وأبطل مراعاة الظاهر بل حولها إلى تهكم ، بالنفي المؤكد الذي ذهب بذلك الذماء ، واستبدل اليأس بالرجاء ، كأنه يقول ان إعراضكم عن الايمان ، بعد سماع هذا القرآن ، الذي أفاض العلوم على أمي لم يترب في معاهد العلم ، وأظهر معجزات البلاغة على من لم تكن يعرف منه التبرير بها في نثر ولا نظم ، يدل على أنكم تدعون استطاعة الاتيان بسورة من مثله وما أنتم بمستطيعين ، ولو استعنتم عليه بجميع العالمين ، (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)

كان يتحداهم بمثل هذه الآيات الصادعة التي تثير النخوة، وتهيج الغيرة، مع علو كعبهم في البلاغة ورسوخ عرقهم في أساليبها وفنونها ، في عصر ارتقت فيه دولة الكلام ، ارتقاء لم تعرف مثله الايام ، حتى كانوا يتبارون فيه ويتنافسون، ويباهون ويفاخرون ، ويعقدون لذلك المجامع ويقيمون الاسواق، ثم يطيرون بأخبارها في الآفاق ، ومع هذا لم يتصد أحد منهم للمعارضة ، ولم ينهض بليغ

من مصاقعهم إلى المناهضة، (أقول) بل تواتر عنهم ماكان «من الاعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم، والفزع إلى المقارعة بأسنة أسلهم»(١) وسفك دمائهم بأسيافهم، وتخريب بيوتهم بأيديهم، أفلم يكن الاجدر بمداره قريش وفحولها، وغرر بني معد وحجولها، أن يجتمعوا على تأليف سورة ببلاغتهم التي كانوا يتبارون فيها بسوق عكاظ وغيرها من مجامع مفاخراتهم ويؤثروا هذا على سوق الخميس بعد الخميس من صناديدهم الى يثرب لقتال محمد ﷺ ومن آمن به «رض» في بدر وأحد ووراء الخندق لو كان ذلك مستطاعا لهم؟ ومثل هذا يقال في اليهود الذين كانوا بجواره في المدينة فأمنهم على دينهم وأموالهم وأعراضهم، فأبوا إلا إعانة مشركي قومه عليه حتى اضطروه إلى قتالهم، وإخراج بقية السيف من ديارهم، فلاشك أن الله تعالى قد رفع هذا الكلام إلى درجة لايرتقي البشر اليها، وهو تعالى جده العالم بمبلغ استطاعتهم، والمالك لأعنة قدرتهم،

قال المتكلمون في بلاغة القرآن اننا نجده لم يلتزم شيئا مما كانوا يلتزمون بسجعهم وإرسالهم، ورجزهم واشعارهم، بل جاء على النمط الفطري، والاسلوب العادي، الذي يتسنى لكل انسان أن يحذو مثاله، ولكنهم عجزوا فلم يأتوا ولن يأتي غيرهم بسورة من مثله، ثم نلاحظ أيضاً أن القرآن بهذا الاسلوب قد تحدي به كل من بلغه من العرب على تفرق ديارهم، وتنائي أقطارهم، وأرسل الرسول إلى الاطراف يدعو الناس الى الايمان به، فعمت الدعوة وبلغت مبلغها، ولم ينبر أحد للمعارضة كما قلنا. ألا يدل هذا على نهاية العجز وعمومه، واحساس كل بليغ بالضعف في نفسه عن الانبراء لمباراته، والتسامي لمحاكاته، وعلى أن الله تعالى جعله فوق القدر، خارقا لما يعتاد من كسب البشر؟ بلى، وان لهذا الاعجاز وجهين أحدهما كونه معجزا بذاته لأنه في مرتبة لايمكن لبشر أن يرتقي اليها، وثانيهما أنه جاء على لسان أمي لبث أربعين سنة لم يوصف بالبلاغة ولم يؤثر عنه شيء من العلم. وقد ذكروا وجوها أخرى للاعجاز ينطوي عليها القرآن منها قوله هنا (ولن تفعلوا) بناء على أن المخبر هو الله تعالى عالم الغيب ومايكون في

(١) هذه الجملة من خطبة أساس البلاغة

المستقبل . ومن فائدة هذا القول في عهد نزوله ، وقبل ظهور تأويله ، ان قرعه لسمع من لا يؤمن بالغيب يقتضي أشد التحريض على المعارضة التي يظهر بها العجز ويقوم البرهان ، بالاعجاز المقتضي للايمان، لولا مكابرة المستكبرين لوجدانهم ، وجحود ألسنتهم لما استيقنته قلوبهم ، (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وأما من يؤمن بالغيب ويعتقد الخوارق فما عليه إلا أن ينتهي إلى عجزه ويبادر إلى الايمان به وبرسالة من أنزل عليه ، للعلم القطعي بأنه لايمكن لعاقل أن يجزم بذلك إلا اذا كان مطلعاً على الغيب،فهو خبر عن الله عز وجل .

قال تعالى مخاطبا للفريقين بعد تسجيل العجز عليهم ﴿ فاتقوا النار ﴾ وهي موطن عذاب الآخرة نؤمن بها لأنها من عالم الغيب الذي أخبر الله تعالى به ولا نبحث عن حقيقتها ، ولا نقول انها شبيهة بنار الدنيا ولا إنها غير شبيهة بها ، وإنما نثبت لها جميع الاوصاف التي وصفها الله تعالى بها كقوله ﴿ التي وقودها الناس والحجارة ﴾ المراد بالحجارة الاصنام كما في قوله تعالى (انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم) ولا يسبقن إلى الفهم أنها لاتوجد إلا بوجود الناس والحجارة اذ يصح أن يكونوا وقودها بعد وجودها . والوقود بالفتح ماتوقد به النار ، وبالضم مصدر وقد ، وسمع المصدر بالفتح أيضا

وقال بعضهم في تفسير (وقودها) إن الناس باعمالهم وعبادة بعضهم بعضا وانحرافهم عن صراط الحق المستقيم ، والحجارة بعبادة الناس لها ـ سببان في إيجاد النار وإعدادها لهم ، فبذلك كانوا كالوقود الذي تضرم به النار ، وفي الكلام تقديم السبب وهو الناس والحجارة على المسبب وهو قوله تعالى (أعدت للكافرين) وبهذا التفسير يظهر الحصر في جملة (وقودها الناس والحجارة) فانها اسمية معرفة الطرفين، وخص الحجارة بالذكر لأنها أظهر المعبودات عند العرب

والمراد بالكافرين الذين لايجيبون دعوة الانبياء عليهم السلام والذين ينحرفون عن أصولها بعد الاخذ بها لبدع يبتدعونها ، وتقاليد يحدثونها ،

وتأويلات يلفقونها . فهؤلاء هم الذين أعدت وهيئت النار لهم لانهم الذين يستحقون الخلود فيها ، ومن وردها وروداً وانتهى الي موطن آخر فذلك الموطن هو الذي أعد له . وليس بعد الدنيا موطن الا الجنة جعلنا الله من أهلها بالتوفيق للتقوى ، أو النار نعوذ بالله منها ومما يقرب اليها من قول وعمل

﴿ فصل في تحقيق وجوه الاعجاز ، بمنتهى الاختصار والايجاز ﴾

إعجاز القرآن قد ثبت بالفعل ، وتواتر فيه النقل ، وحسبك منه وجود ما لا يحصى من المصاحف في جميع الاقطار التي يسكنها المسلمون وكذا في غيرها ووجود الالوف من حفاظه في مشارق الارض ومغاربها وهي تحكي لنا هذه الآيات في التحدي باعجازه ، ولو وجد له معارض أتى بسورة مثله لتوفرت الدواعي على نقلها بالتواتر أيضاً ، بل لكانت فتنة ارتد بها المسلمون على أدبارهم

ولما كان إعجازه لمزايا فيه تعلو قدرة المخلوق علماً وحكماً وبياناً للعلم والحكمة حار العلماء في تحديد وجه الاعجاز بعد ثبوته بالعلم اليقيني الذي بلغ حد الضرورة في ظهوره ، حتى قال بعض علماء المعتزلة ان إعجازه بالصرفة ، يعنون ان الله تعالى صرف قدرة بلغاء العرب الخلص في عصر التنزيل عن التوجه لمعارضته فلم يهتدوا اليها سبيلا ، ثم تسلسل ذلك في غيرهم واستمر إلى عصرنا هذا ، وهذا رأي كسول أحب أن يريح نفسه من عناء البحث وإجالة قدح الفكر في هذا الامر ، وللباحثين فيه أقوال ، كتبت فيها فصول وألفت فيها رسائل وكتب ، وقد عقدت هذا الفصل عند طبع هذا الجزء من التفسير لبيانها وإيضاحها ، لما علمت من شدة حاجة المسلمين أنفسهم اليها ، دع أمر دعوة غيرهم أو الاحتجاج عليهم بها .

اعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه

(الوجه الاول) اشتماله على النظم الغريب ، والوزن العجيب ، والاسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب في مطالعه وفواصله ومقاطعه . هذه عبارتهم وأوردوا عليها شبهتين وأجابوا عنهما ، وحصروا نظم الكلام منثوره مرسلا وسجعاً ، ومنظومه قصيداً ورجزاً ، في أربعة أنواع لا يمكن عد نظم القرآن وأسلوبه

واحداً منها ، كما يدل عليه كلام الوليد بن المغيرة من أكبر بلغاء قريش الذين عاندوا النبي ﷺ وعادوه استكباراً ، وجاحدوه استعلاء واستنكاراً . أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس قال : ان الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال ياعمّ إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه فانك أتيت محمداً لتعرض لما قِبله ، قال قد علمت قريش أني من أكثرها مالا ، قال فقل فيه قولا يبلغ قومك انك منكر له ، قال وماذا أقول؟ فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر مني ، لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا ، ووالله ان لقوله الذي يقول لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه مغدق أسفله[1] وانه ليعلو وما يعلى ، وانه ليحطم ماتحته . قال والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه . قال فدعني أفكر ، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره . وكان هذا سبب نزول قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيداً) الآيات

ولعمري ان مسألة النظم والاسلوب لاحدى الكبر ، وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر ، ولم يوفها أحد حقها ، على كثرة ما أبدؤا وأعادوا فيها ، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد ، وانما هو مائة أو أكثر : القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر : من السبع الطوّل التي تزيد السورة فيه على المائة وعلى المائتين من الآيات — إلى السور المثين — إلى الوسطى من المفصل إلى مادونها من العشرات فالآحاد كالثلاث الآيات فما فوقها ، وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين ، المعين على الفهم المفيد للتأثير ، على اختلافها في الفواصل ، وتفاوت آياتها في الطول والقصر ، فمنها المؤلف من كلمة واحدة ومن كلمتين ومن ثلاث ، ومنها المؤلف من سطر أو سطرين أو بضعة أسطر ، ومنها المتفق في أكثر الفواصل أو كلها ، ومنها المختلف في السورة الواحدة منها ، وهي على مافيها متشابه وغير متشابه في النظم ، متشابهة كلها في مزج المعاني العالية بعضها ببعض ، من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى ، وآياته في الانفس والآفاق ، والحكم والمواعظ والامثال ،

(١) وفي رواية : وإن أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق إلخ

وبيان البعث والمآل ، ودار الابرار ودار الفجار ، والاعتبار بقصص الرسل والاقوام ، واحكام العبادات والمعاملات والحلال والحرام ».

يقول قائل ان أساليب جميع الفصحاء والبلغاء متفاوتة كذلك ، لايشبه أسلوب منها أسلوبا ، ولا يستويان منظوما ولا منثوراً ، فمجرد اختلاف الاسلوب والنظم لايصح أن يعد معجزاً ، (ونقول) من قال هذا فقد أبعد النجعة ، وأوغل في مهامة الغفلة ، فمهما تختلف منظومات الشعراء فلن تعدو بحور الشعر المنقولة عن المتقدمين ، والتوشيحات والازجال المعروفة عند المولدين ، ومهما تختلف خطب الخطباء والمترسلين من الكتاب، والمؤلفين في العلوم والشرائع والآداب، فلن تعدو أنواع الكلام الاربعة التي بدأنا القول بها ، ولا يشبه شيء من هذه ولا تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها ولكل منهم نظم وأسلوب خاص

فان شئت أن تشعر سمعك وذوقك بالفرق بين نظم الكلام البشري ونظم الكلام الالهي فات بقارىء حسن الصوت يسمعك بعض أشعار المفلقين ، وخطب المصاقع المفوّهين، من المتقدمين والمتأخرين ، بكل ما يستطيع من نغم وتحسين ، ثم ليتل عليك بعد ذلك بعض سور القرآن المختلفة النظم والاسلوب. كسورة النجم وسورة الرحمن وسورة الواقعة وسورة الحديد (مثلا) ثم حكم ذوقك ووجدانك في الفرق بينها في أنفسها . ثم في الفرق بين كل منها وبين كلام البشر في كل أسلوب من أساليب بلغائهم ، وتأثير كل من الكلامين في نفسك ، بعد اختلاف وقعه في سمعك .

بل تأمل المعنى الواحد من المعاني المكررة في القرآن ، لاجل تقريرها في الأنفس ونقشها في الاذهان ، كالاعتبار بأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم من مختصر ومطول ، وافطن لاختلاف النظم والأساليب فيها . فمن المختصر ما في سور الذاريات والنجم والقمر والفجر ، ومن المطول مافي سور الاعراف والشعراء وطه ، لعلك ان تدبرت هذا تشعر بالبون الشاسع بين كلام المخلوقين وكلام الخالق، وبحكم بهذا الضرب من الاعجاز حكما ضروريا وجدانياً لاتستطيع ان تدفعه عن نفسك ، وان عجزت عن بيانه بقولك

ومن اللطائف البديعة التي يخالف بها نظم القرآن نظم كلام العرب من شعر ونثر ، أنك ترى السور ذات النظم الخاص والفواصل المقفاة تأتي في بعضها فواصل غير مقفاة فتزيدها حسناً وجمالا وتأثيراً في القلب ، وتأتي في بعض آخر آيات مخالفة لسائر آيها في فواصلها وزنا وقافية ، فترفع قدرها وتكسوها جلالة وتكسبها روعة وعظمة ، وتجدد من نشاط القاري ، وترهف من سمع المستمع ، وكان ينبغي للخطباء والمترسلين أن يحاكوا هذا النوع من محاسنه ، وإن كانوا يعجزون عن معارضة السورة في جملتها ، أو الصعود إلى أفق بلاغتها ، ومن أعجب هذه السور أوائل سور المفصل بل المفصل كله . قال شيخنا الاستاذ الامام : كان المعقول أن يحدث القرآن في هذه اللغة من البلاغة في البيان فوق ما أحدثه بدرجات

إعجاز القرآن ببلاغته

(الوجه الثاني) بلاغته التي تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفي عصر تنزيله وفيما بعده ، ولم يختلف أحد من أهل البيان في هذا ، وإنما أورد بعض المخالفين بعض الشبه على كون بلاغة كل سورة من قصار سوره بلغت حد الاعجاز فيه ، والقائلون به لا يحصرون اعجاز كل سورة فيه ، ويتحقق التحدي عندهم بإعجاز بعض السور القصيرة بغيره . كأخبار الغيب في سورة الكوثر التي هي أقصر سُوره ، على ان مسيلمة تصدى لمعارضتها بمحاكاة فواصلها ، فجاء بخزي كان حجة على عجزه وصحة اعجازها .

ومن النـاس من لا يفقه سر هذه البلاغة ويماري فيما كتب علماء المعـاني والبيان من قواعدها ، زاعمين أنه يمكن حمـل كل كلام عليها ، وأن الاحالة على الذوق فيها إحالة على مجهول ، لا تقوم به حجة ولا يثبت به مدلول ، لان الذوق المعنوي كالحسي خاص بصاحبه « من ذاق عرف » وسبب هذا جهلهم اللغة العربية الفصحى نفسها ، فقد مرت القرون في اثر القرون على ترك الناس لمدارسة الكلام البليغ منها واستظهاره واستعماله ، واقتصار مدارس الامصار على قراءة كتب من النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع هي أدنى ما وضع في فنونها فصاحة وبيانا ، وأشدها عجمة وتعقيداً ، وهي الكتب التي اقتصر مؤلفوها على

سرد القواعد بعبارة فنية دقيقة بعيدة عن فصاحة أهل اللغة وعن بيان المتقدمين الواضعين لهذه الفنون ومن بعدهم إلى القرن الخامس كالخليل وسيبويه وأبي علي وابن جني وعبد القاهر الجرجاني ، حتى صار أوسع الناس علماً بهذه الفنون أجهل قراء هذه اللغة بها . وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ منها ، بله الاتيان بمثله ، فمن لم يقرأ من كتب البلاغة إلا مثل السمرقندية وشرحي جوهر الفنون وعقود الجمان فشرحي التلخيص للسعد التفتازاني وحواشيهما لا يرجى أن يذوق للبلاغة طعماً ، أو يقيم للبيان وزناً ، فأنى يهتدي إلى الاعجاز بهما سبيلاً ، أو ينصب عليه دليلاً ؟ وانما يرجى هذا الذوق لمن يقرأ أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز للامام عبد القاهر فانهما هما الكتابان اللذان يحيلانك في قوانين البلاغة على وجدانك ، وما تجد من أثر الكلام في قلبك وجنانك فترى أن علمي البيان شعبة من علم النفس ، وأن قواعدهما يشهد لها الشعور والحس ، ولكن لا بد مع ذلك من قراءة الكثير من منظوم الكلام البليغ ومنثوره واستظهار بعضه مع فهمه ، كما قرر حكيمنا ابن خلدون في الكلام على علم البيان من مقدمته

فهذا هو الاصل في تحصيل ملكة البلاغة فهماً وأداء ، والقوانين الموضوعة لها مستنبطة من الكلام البليغ وليس هو مستنبطاً منها ، وقد عكست القضية منذ القرون الوسطى حتى ساغ لمستقل الفكر أن يقول في الكتب التي أشرنا اليها وهي التي تقرأ في مدرسة الجامع الازهر وأمثالها : إن قواعدها تقليدية لا يمكن أن يعلم بها تفاضل الكلام إذ يمكن حمل كل كلام عليها ، ولذلك كان أكثر الناس مزاولة لها أضعفهم بياناً ، وأشدهم عياً وفهاهة

فمعرفة مكانة القرآن من البلاغة لا يحكمها من الجهة الفنية والذوقية إلا من أوتي حظاً عظيماً من مختار كلام البلغاء المنظوم والمنثور ، من مرسل ومسجوع ، حتى صار ملكة ، وذوقاً ، واستعان عليه بفهم فلسفته بمثل كتابي عبد القاهر والصناعتين لأبي هلال العسكري والخصائص لابن جني ، وأساس البلاغة للزمخشري ، ومغني اللبيب لابن هشام هذه مقدمات البلاغة ونتيجتها الملكة ولها غاية يمكن العلم بها من التاريخ ، وهي ما كان للقرآن من التأثير في الامة العربية ، ثم فيمن حذقها من الاعاجم أيضاً الحد الصحيح للبلاغة في الكلام هي أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع باصابة

موضع الاقناع من العقل ، والوجدان من النفس (وقد يعبر عنهما بالقلب) ولم يعرف في تاريخ البشر أن كلاما قارب القرآن في قوة تأثيره في العقول والقلوب، فهو الذي قلب طباع الامة العربية وحولها عن عقائدها وتقاليدها، وصرفها عن عاداتها وعداواتها ، وصدف بها عن اثر تها وثاراتها، وبدلها بأميتها حكمة وعلما، وبجاهليتها أدبا رائعا وحلما ، وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بعقائدها وفضائلها ، وعدلها وحضارتها ، وعلومها وفنونها

اهتدى إلى هذا النوع من اعجازه بعض حكماء أوربة مستنبطا له من هذه الغاية التاريخية وبينه في الرد على من زعم من دعاة النصرانية أن محمداً ﷺ لم يؤت مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات المعجزة فقال ما معناه : إن محمداً كان يتلو القرآن مولهاً مدلهاً، خاشعا متصدعا(١) فيفعل في جذب القلوب إلى الايمان به ، فوق ما كانت تفعل جميع آيات الانبياء من قبله .

وقد رأينا وروينا عن بعض أدباء هذه اللغة من غير المسلمين أنهم يذهبون في بعض ليالي رمضان إلى بعض بيوت معارفهم من المسلمين ليسمعوا القرآن ويمتعوا ذوقهم العربي وشعورهم الروحاني الادبي بسماع آياته المعجزة، وقد شهد له أهل العلم والانصاف منهم بهذا الاعجاز في النظم والاسلوب ، والبلاغة يغوص تأثيرها في أعماق القلوب، ولكنهم لم يفقهوا دلالة ذلك على أنه من عند الله عز وجل، وسنبينه في آخر هذا البحث

ولو شئت أن أورد الشواهد على هذا الوجه، لخرجت عن الاختصار الذي التزمته في هذا الفصل ، وانك لتجد من التنبيه على عجائبها في كل جزء من هذا التفسير ما لا تجده في غيره حتى الدقه في معانى مفرداته ، وتحديد الحقائق في جمله ، ومزج المعاني الكثيرة في أسلوبه ، ولطف التناسب بين آياته وبين سوره . ومن أعجبها ضروب المجازه التي انفرد بها، وكثرة تكراره للمعنى الواحد بعبارات لا يملها قارىء ولا سامع وقد نبهنا في هذا التفسير للكثير منها. ومن العجب غفلة أكثر طلاب البلاغة عنها

«١» قوله مولها الخ ترجمة لكلمة افرنسية معناها في حال يؤثر فيها الكلام في نفسه وفي نفس سامعه تأثيراً يملك عليهما أمرهما أي فيكون في قراءته فاعلا منفعلا، وهاديا مهديا

إعجاز القرآن بما فيه من علم الغيب ×

(الوجه الثالث) اشتماله على الاخبار بالغيب من ماض كقصص الرسل مع أقوامهم وقد تقدم بعض الكلام فيه ، ومن حاضر في عصر تنزيله كقوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) الآية وفيها خبران عن الغيب ظهر صدقهما بعد بضع سنين من نزول الآية ، وكان الصديق « رض » راهن بعض المشركين على صدق الخبر فربح الرهان ، وكقوله تعالى (سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم) الآية ، وقوله (قل للمخلفين من الاعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقوله (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون) وهذه الثلاثة في سورة الفتح وفيها غيرها أيضاً ، وفي سورة التوبة أمثالها من الاخبار عما في قلوب المنافقين وعما سيقولون في بعض المسائل ، ومن أظهر هذه الاخبار وعده تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل في قوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ووعده بحفظ الرسول في قوله (والله يعصمك من الناس) دع ما تكرر في عدة سور من وعد الله لرسوله وللمؤمنين ، ومن وعيده للكافرين ، كقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) وكان الاستاذ الامام يقول ان الله تعالى لما ينجز لنا وعده هذا كله بل بعضه ولا بد من إتمامه بسيادة الاسلام في العالم كله حتى أوربة المعادية له . وروي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) الآية أنه قال انها نبأ غيبي عمن يأتي بعده ، بل ورد هذا المعنى في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ أيضا . وتجد بيان ذلك في تفسيرها من سورة الانعام ، ومنه ظهور مصداقها في حرب الامم الكبرى الاخيرة .

فهذه الاخبار الكثيرة بالغيب دليل واضح على نبوة نبينا وكون القرآن من

عند الله تعالى إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه، ولا يمكن معارضتها بما يصح بالمصادفة أو القرائن أحياناً من أقوال الكهان والعرافين والمنجمين، فان كذب هؤلاء أكثر من صدقهم، ان صح تسمية ما يتفق لهم صدقا منهم، ولكن الناس لا يحصون عليهم أقوالهم، ولا يبحثون عن حيلهم وتلبيساتهم فيها، وانما يذكرون بعض ذلك اذا اقتضته الحال كتشنيع أبي تمام على المنجمين في زعمهم أن عمورية لاتفتح إلا عند نضج التين والعنب، في قصيدته المشهورة التي مطلعها *السيف أصدق أنباء من الكتب* ويقول فيها :

سبعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

وقد قتل في عصرنا وزير من وزراء مصر فوجد الناس في تقويم (نتيجة) تلك السنة لأحد المنجمين نبأ عن قتله ومن شأن هذا التقويم أن يكون طبع قبيل دخول السنة التي قتل فيها، وقد بحث بعض المدققين في ذلك فتبين له ان صاحب هذا التقويم قد طبع الورقة التي ذكر فيها هذا النبأ بعد وقوع القتل ووضعها فيه موضع ورقة أخرى أخرجها منه فأحرقها، ولكن كان قد بيع بعض النسخ من التقويم فوجد المدقق المشار اليه بعضها، على ان دأب هؤلاء المنجمين أن يعبروا عما يتوقعون من أنباء المستقبل بآرائهم وبقرائن الاحوال وأخبار الصحف الدورية برموز وكنايات واشارات يفسرون بها الوقائع باهوائهم، فان لم يجدوها تحتمل شيئاً منها كتموها، وتعذر على غيرهم تكذيبهم فيها، وأما مايعرفه الفلكيون بالحساب كالخسوف والكسوف ومطالع الكواكب ومغاربها فليس من التنجيم ولا من علم الغيب في شيء

إعجاز القرآن بسلامته من الاختلاف

﴿ الوجه الرابع ﴾ سلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف خلافاً لجميع كلام البشر وهو المراد بقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وإننا نجد كبار العلماء في كل عصر يصنفون الكتاب فيسودون، ثم يصححون ويبيضون، ثم يطبعون وينشرون، ثم يظهر لهم ولغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والاغلاط اللفظية والمعنوية ولاسيما اذا طال الزمان، وهذا أمر مشهور في جميع الامم

(فان قيل) إن غير المؤمنين بالقرآن قد استخرجوا منه بعض الاختلاف والتعارض فاضطر علماء المسلمين إلى الجواب عنها بما يزعمون أنه دفع الايراد، وأظهر بطلان الانتقاد، وإن المسلم يقبل ذلك منهم تقليداً، وان لم يكن في نفسه سديداً، (قلت) إذا كانت عين الرضى متهمة فعين السخط أولى بالتهمة، وإننا إذا لم نلتفت إلى كلام أعداء القرآن الذين يخترعون التهم أو يزينونها بخلابة قول – ولا إلى المقلدين من المسلمين، وعرضنا ماذكر من ظواهر الاختلاف على فريق المستدلين المستقلين من الفريقين نرى انه ليس في القرآن تعارض حقيقي معنوي يعد مطعنا صحيحاً فيه ، ويرى الناظر في تفسيرنا هذا وفي مجلتنا (المنار) بيان كل ماعلمناه من ذلك مع الجواب المعقول عنه، ولكن هذا النوع من الاعجاز انما يظهر في جملة القرآن وفي السور الطويلة منه لا في كل سورة، فان سلامة السورة القصيرة من ذلك لا يعد أمراً معجزا يتحدى به

إعجاز القرآن بالعلوم الدينية والتشريع

(الوجه الخامس) اشتماله على العلوم الالهية ، وأصول العقائد الدينية ، وأحكام العبادات ، وقوانين الفضائل والآداب ، وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي، الموافقة لكل زمان ومكان، وبذلك يفضل كل ماسبقه من الكتب السماوية، ومن الشرائع الوضعية ، ومن الآداب الفلسفية ، كما يشهد بذلك أهل العلم المنصفون من جميع الامم الشرقية والغربية ، من آمن منهم بكونه من عند الله تعالى أنزله على رسوله الامي ، ومن لم يكون بذلك ، حتى كبراء السياسيين من خصوم الدول الاسلامية كلورد كرومر عميد الدولة البريطانية بمصر فانه شهد في تقريره السنوي الاخير عن مصر بنجاح الاسلام الباهر في التشريع الديني دون التشريع الاجتماعي والسياسي. وعلل الاخير بأن ماوضع منذ أكثر من الف سنة لا يمكن أن يوافق مصالح جميع الناس الآن وفي كل آن ، فكتبت اليه يومئذ كتابا سألته فيه هل يعني بأحكام الشريعة الكتاب والسنة أم الفقه الذي وضعه العلماء ومزجوا فيه آراءهم بما يأخذونه عنهما وخالف فيه بعضهم بعضاً ؟ وانه ان كان يعني الكتاب والسنة فأنا مستعد لاظهار خطئه له. فكتب إلي كتابا قال فيه: «انني عنيت بما كتبت مجموع القوانين

الاسلامية التي تسمونها الفقه لأنها هي التي تجري عليها الاحكام ولم أعن الدين الاسلامي نفسه . » الخ

ولا شك ان هذا الوجه من أظهر وجوه الاعجاز فان علوم العقائد الالهية والغيبية والآداب والتشريع الديني والمدني والسياسي هي أعلى العلوم، وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الافراد القليلون ، فكيف يستطيع رجل أمي لم نقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقاً وكمالا ، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئاً منها ، ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحياً من الله تعالى؟

إعجاز القرآن بعجز الزمان عن إبطال شيء منه

(الوجه السادس) ان القرآن يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان والانسان ويصف خلق السموات وشمسها وقمرها ودراريها ونجومها والارض والهواء والسحاب والماء من بحار وأنهار وعيون وينابيع ، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الامم ، وبيان لطريق التشريع السوي الأمم ، وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ ثلاثة عشر قرنا ونيف ، ثم عجزت هذه القرون ، التي ارتقت فيها جميع العلوم والفنون ، ان تنقض بناء آية من آياته ، أو تبطل حكما من أحكامه ، أو تكذب خبراً من أخباره ، وهي التي جعلت فلسفة اليونان دكا ، ونسخت شرائع الامم نسخا ، وتركت سائر علوم الاوائل قاعاً صفصفا، ووضعت لأخبار التاريخ قواعد فلسفية، ورجعت في تحقيقها إلى ما عثر عليه المنقبون من الآثار العادية، وحكمت فيها أصول العمران، وما يسمونه سنن الاجتماع، بحيث لم يبق لعلماء الاوائل كتابا غير مدعثر الاعضاد ، ساقط العماد

وهذا النوع من أنواع الاعجاز، غير ما تقدم من سلامته من التعارض والاختلاف ، فتلك في الماضي، وهذه في الحاضر والمستقبل، ذاك الاختلاف يقع من الناس بقلة العرفان، وضعف البيان، أو بما يطرأ على صاحبه من الذهول والنسيان ، يريد بيان شيء فيخونه قلمه ولسانه، ويعوزه ان يحيط بأطرافه ، وأن يجليه تمام التجلي لقارىء كلامه أو سامعه،

ثم يقول فيه قولا آخر على علم فتواتيه العبارة فيؤدي المراد ، فيختلف ما أبدأ مع ما أعاد ، أو يقول القول ثم ينساه ، فيأتي بما يخالفه في معناه ، أو يتكلم بما لا يعلم ، فيهرف بما لا يعرف ، وذلك عيب في الكلام وضعف في المتكلم هو من شأن البشر

ان ما يأخذه الناس من المسائل العلمية والفلسفية بالتسليم في زمانهم ثم يظهر ما يبطل تلك المسلمات ، وينقض ما بنيت عليه من النظريات ، لا يعد عيبا في قائله ، ولا ضعفا في بيانه ، وان كان موضوعه بيان تلك المسائل نفسها ، لانه مما لا يسلم منه البشر ، وأما من يتكلم في بعض مسائل الموجودات لبيان العبرة فيها ، أو الحث على الاستفادة منها ، لا لبيان حقيقتها في نفسها ، أو صفاتها الفنية عند أهل فنها ، فهو لا يكلف أن يبين تلك الحقيقة أو تلك الصفات التي لا تتعلق بغرضه من الكلام بالاصطلاحات العلمية والفنية ، وقد ينتقد منه هذا إذا كان مما يصرف السامع عن مراده منه ، أو يوجب نقصا في استفادته منه ، كما هو شأن الذين يعظون دهماء الناس من جميع الطبقات ويضربون لهم الامثال بآيات الله تعالى ونعمه فيما سخر لهم من المخلوقات ، فاذا كان هذا النوع من الكلام الذي لا يعاب فيه مخالفته للمسائل الفنية — وقد يعاب فيه تكلف موافقتها — جاء مع ذلك إما موافقا وإما غير مخالف لمعارف أهل العصر الذي خوطب أهله به ، ثم تبين ان بعض هذه المعارف كانت جهلا ، وظهر أنه هو موافق لما تجدد من العلم الحق والتشريع العدل او غير مخالف له ؛ فلا شك في أن هذه تعد له مزية خارقة للمعتاد في البشر ، وقد ثبت هذا للقرآن وحده ، فهو كتاب مشتمل على كثير من امور العالم الكونية والاجتماعية مرت العصور وتقلبت أحوال البشر في العلوم والاعمال ولم يظهر فيه خطأ قطعي في شيء منها ، لهذا صح ان تجعل سلامته من هذا الخطإ ضربا من ضروب إعجازه للبشر ، وان لم يكن هذا مما تحدى به الرسول ﷺ من عجز البشر عن مثله ، لانه لم يكن ليظهر الا من بعده ، فادخر ليكون حجة على أهله

(فان قيل) ان الطاعنين في الاسلام من الملاحدة ودعاة النصرانية يزعمون ان العلوم والفنون العصرية ، من طبيعية وفلكية وتاريخية ، قد نقضت بعض آيات القرآن في موضوعها ، وان التشريع العصري أقرب إلى مصالح البشر من تشريعه

(قلت) اننا قد اطلعنا على أقوالهم في ذلك فألفينا ان بعضها جاء من سوء فهمهم

أو فهم بعض المفسرين، ومن جمود الفقهاء المقلدين، وبعضها من التحريف والتضليل . وقد رددنا نحن وغيرنا ماوقفنا عليه منها. وإنما العبرة بالنقض الذي لا يمكن لأحد أن يماري فيه مراء ظاهراً مقبولا ، ولو وجد شيء من هذا في القرآن لاضطرب العالم له اضطرابا عظيما، كما أن العبرة في التشريع بما جمع بين المصلحة العامة والفضيلة والرحمة، والتشريع الاسلامي يفضل التشريع الاوربي المادي بهذا ويسبقه الى السؤال والمساواة

﴿فان قيل﴾ إن كهنة أهل الكتاب يدعون مثلكم أن كتبهم المقدسة سالمة من التعارض والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة ويتكلفون مثلكم لرد مايورده عليهم علماء الكون والمؤرخون مخالفا لتلك الكتب

(قلت) ان هذا النوع من مخالفة كلام الخالق لكلام الخلق يجب أن يكون مشتركا بين القرآن وغيره من الكتب الالهية كالتوراة والانجيل ،لو بقيت كما أنزلت من غير تحريف ولاتبديل ، ومن المعلوم من التاريخ بالقطع عندنا وعندهم أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في التابوت (صندوق العهد) واخذ الميثاق على بني اسرائيل بحفظها كما هومنصوص في آخر سفر (تثنية الاشتراع) قد فقدت من الوجود عند ما أغار البابليون على اليهود وأحرقوا هيكل بيت المقدس،والتوراة الموجودة الان يرجع أصلها إلى ما كتبه عزرا الكاهن بأمر ارتحشستا ملك فارس الذي أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى أورشليم وأذن له أن يكتب لهم كتابا من شريعة الرب وشريعة الملك ،ولذلك تكثر فيها الالفاظ البابلية كثرة فاحشة،وقد بينا تحقيق ذلك فى تفسير أول سورة آل عمران وبعض آيات من سورة النساء والمائدة. كما بينا ان انجيل المسيح عليه السلام لم يدون في عصره ولم ينقل عنه وعن الحواريين كما نقل القرآن تواتراً بالحفظ والكتابة ،ولا كنقل الحديث بالاسانيد المتصلة،وانما ظهرت هذه الاناجيل التي هي قصص مختصرة له واشتهرت بعد ثلاثة قرون كما ظهر عشرات غيرها فاعتمد أربعة منها رؤساء الكنيسة التي أسسها قسطنطين ملك الروم الذي تنصر تنصراً سياسياً وأدخل النصرانية في دور جديد ممزوج بالوثنية ورفضوا الباقي كما بيناه مفصلا في الآيات التي أشرنا اليها آنفا في الكلام على التوراة

إعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر

(الوجه السابع) اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق، وهذه مرتبة فوق ما ذكرناه في الوجه السادس من عدم نقض تقدم العلوم لشيء مما فيه ، ولا تدخل في المراد من أخبار الغيب المبينة في الوجه الخامس وان كان لبعضها اتصال بقصص الرسل عليهم السلام ونحن ننبه على كل ما علمناه من هذا النوع في محله من تفسيرنا هذا، ونشير هنا الى بعضه

فمن ذلك قوله تعالى (١٥: ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) كانوا يقولون فيه إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة في السحاب بما يكون سبباً لنزول المطر بتلقيح ذكور الحيوان لاناثه ، ولما اهتدى علماء أوربة إلى هذا وزعموا انه مما لم يسبقوا اليه من العلم صرح بعض المطلعين على القرآن منهم بسبق العرب اليه . قال مستر (اجنيري) المستشرق الذي كان أستاذ اللغة العربية في مدرسة اكسفورد في القرن الماضي: ان أصحاب الابل قد عرفوا ان الريح تلقح الاشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوربة بثلاثة عشر قرنا .اه نعم ان أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى اناثها ولكنهم لم يكونوا يعلمون ان الرياح تفعل ذلك ولم يفهم المفسرون هذا من الآية بل حملوها على المجاز

ومنه قوله تعالى (٢١: ٣٠ أو لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) أي أكذب الذين كفروا بآياتنا ولم يعلموا ان السموات والارض كانتا مادة واحدة ففتقناهما وخلقنا منها هذه الاجرام السماوية التي تظلهم ، وهذه الارض التي تقلهم ، وهذه المادة هي المبينة في قوله تعالى (٤١: ١١ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) الخ وهذا شيء لم يكن يعرفه العرب ولا غيرهم من أهل الارض . وكذلك خلق كل الاشياء من الماء وهو أصرح في الآية مما قبله

ومنه قوله تعالى (٥١ : ٤٩ ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين) وقوله (١٣: ٣ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وهذه السنة الالهية في النبات

أصل لسنة التلقيح المذكورة آنفا فان المراد بها ان الريح تنقل مادة اللقاح من الذكر إلى الانثى كما تقدم ، وفي هذا المعنى عدة آيات أعمها وأغربها وأعجبها قوله تعالى (٣٦:٣٦ سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)

ومنه قوله تعالى (١٥:١٨ والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) ان هذه الآية هي أكبر مثار للعجب بهذا التعبير (موزون) فان علماء الكون الاخصائيين في علوم الكيميا والنبات قد أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة في كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدرة من اعشار الغرام والمليغرام وكذلك نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات ، أعني ان هذا التعبير بلفظ «كل» المضاف إلى لفظ «شيء» الذي هو أعم الألفاظ العربية الموصوف بالموزون ـ تحقيق لمسائل علمية فنية لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر ، ولا يمكن بيان معناها بالتفصيل إلا بتصنيف كتاب مستقل

ومنه قوله تعالى (٣٩.٥ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) تقول العرب كار العمامة على رأسه إذا أدارها ولفها، وكورها بالتشديد صيغة مبالغة وتكثير، فالتكوير في اللغة إدارة الشيء على الجسم المستدير كالرأس ، فتكوير الليل على النهار نص صريح في كروية الارض وفي بيان حقيقة الليل والنهار على الوجه المعروف في الجغرافية الطبيعية عند أهلها . ومثله قوله تعالى (يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا)

ومنه قوله تعالى (٣٦ : ٣٨ والشمس تجري لمستقر لها ـ الى قوله ـ وكل في فلك يسبحون) فهو موافق لما ثبت في الهيئة الفلكية مخالفا لما كان يقوله المتقدمون

ومنه الآيات المتعددة الواردة في خراب العالم عند قيام الساعة وكون ذلك يحصل بقارعة تقرع الارض قرعا، وتصخها فترجها رجا، وتبس جبالها بسا، فتكون هباء منبثا ، وحينئذ تتناثر الكواكب، لبطلان ما بينها من سنة التجاذب، والآيات في هذا وفيما قبله تدل دلالة صريحة على بطلان ما كان يقوله علماء اليونان ومقلدتهم من علماء العرب في الافلاك والكواكب والنجوم، وعلى اثبات ما تقرر في الهيئة الفلكية العصرية في ذلك وفي نظام الجاذبية العامة ، ويجد القاريء تفصيل هذا في عدة مواضع من هذا التفسير

فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب حتى ان المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد ، أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة ـ فاظهار ترقي العلم لحقيقتها المبينة فيه مما يدل على انها موحى بها من الله تعالى .

هذه أمثلة من مسائل العلوم الكونية والفنون الطبيعية التي خطرت بالبال عند الكتابة من غير تفكر ولا مراجعة الا لاعداد الآيات والسور ولا بدَّ من تعزيزها ببعض الامثلة الخاصة بالتاريخ ، وليس التاريخ من حيث هو تاريخ حد العلوم التي تطلب من الكتاب الالهي ، ولم يذكر فيه شيء منه بقصد سرد حوادث التاريخ ، وانما جاء ماجاء فيه من ذكر أمم الرسل للعظة والاعتبار ، وبيان سنن الله تعالى في الامم والاقوام ، وتثبيت قلب خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، كما أن ذكر السموات والارض وما بينهما وما في الارض من المواليد الثلاثة لم يذكر شيء منه لبيان حقائق الموجودات في أنفسها ، وانما ذكرت في سياق آيات الله تعالى الدالة على علمه وقدرته وحكمته ورحمته وفضله على عباده الخ وقد تضمن كل من هذا وذاك بدقة التعبير واعجاز البيان ، آيات أخرى تظهر آناً بعد آن ، دالة على أنواع من اعجاز القرآن ، وكونه وحياً من الرحمن ، فكتابه تعالى مظهر لقوله (كل يوم هو في شان)

أكتفي من هـذا النوع الذي له علاقة بالتاريخ بمسألة عظيمة الشأن تشتمل على شواهد كثيرة منـه وهي حكم القرآن الحق على التوراة والانجيل اللذين كان يدين الله تعالى بهما أعظم شعوب الارض مكانة في العالم وأوسعهم علماً وحضارة ولا يزال الكثيرون منهم يقدسونهما . مع بيان بعضهم لما نقض العلم منها وكذا سائر الكتب التي يعبرون عن مجموعها بالعهدين القديم والجديد .

ماهذا الحكم الذي صدر من عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، على لسان عبده ورسوله النبي الامي الذي لم يقرأ في حياته سفراً ، ولم يكتب سطراً ، ولم يحط بشيء من أخبار التاريخ خبراً ؟ ملخص هذا الحكم أن أهـل الكتاب من

اليهود والنصارى قد أوتوا نصيباً منه ونسوا نصيبا وحظا منه، فلم يحفظوه كله، ولم يضيعوه كله، وأنهم حرفوا ما أوتوه عن مواضعه تحريفا لفظيا ومعنويا كما يفيده الاطلاق[1] وأنهم غلوا في دينهم فزادوا فيه مالم يأذن به الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، يحلون لهم ويحرمون عليهم مالم يشرعه الله، وأنهم قصروا في إقامته من جهة أخرى فعملوا بما يوافق أهواءهم منه وتركوا ما يخالفها كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، وأن اليهود قالوا على مريم بهتانا مبينا، والنصارى غلوا فيها غلواً عظيما، فقالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقالوا ثالث ثلاثة (وما من إله إلا إله واحد) الخ ما نطقت به الآيات التي يجد القارئ تفصيلها مع تفسيرها الحق المؤيد بالتاريخ الصحيح الذي حققه علماء أوربة وغيرهم بعد الاسلام، المصدق للقرآن الحكيم في حكمه الذي كان مجهولا بتفصيله عند جميع الناس[2] وقد قام في هذه السنين بعض كبار رجال الدين في بلاد الانكليز يكتبون في الجرائد ماقرروه في جمعيات الكنائس من أن الانجيل لايثبت ألوهية المسيح وقد نشرنا بعض مااطلعنا عليه في الجرائد الانكليزية من هذه التحقيقات وسننشر غيره في مجلتنا الاسلامية (المنار)

وقد ثبت عندنا أن مستقلي الفكر من أهل أوربة بين مؤمن بما جاء به القرآن من حقيقة أمر المسيح وهو أنه بشر ممتاز بروح قدسية من الله ونبي له ولكن أكثرهم لا يعلمون انه مما جاء به القرآن — وبين كافر به — وأما عقيدة الكنيسة بربوبيته وألوهيته فهي محصورة في رجالها وعامة المقلدين لهم، وقد أخبرني قسيس كبير من الكاثوليك حرمته الكنيسة وأخرجته من طغمة كهنتها ان كبار علمائها موحدون كالمسلمين ولولا خشية ارتداد العوام لصرحوا به وبنفي التثليث كبعض قسوس البروتستنت

«١» راجع تفسير الآية الثالثة من السورة الثالثة في الجزء الثالث من التفسير (ص١٦٥—١٥٩) وراجع تفسير الآية ٤٤ من السورة ٤ (ص١٣٦ من الجزء الرابع) والآية ١٥ من السورة ٥ (ص ٢٨٢ من الجزء ٦)

«٢» راجع تفسير سورة المائدة وانظر في فهرس الجزء السادس من التفسير كلمات أهل الكتاب والتوراة والانجيل

ولا يزال الموحدون يكثرون في أوربة الولايات المتحدة الامير كانية عاما بعد عام، ويقربون من الايمان بالقرآن (الله أكبر الله أكبر ، انهم سوف يفعلون)

فمن أين جاءت هذه الحقائق لمحمد بن عبدالله الأمي بعد ثلاث وأربعين سنة عاش معظمها في عزلة عن العالم وعلومه ،رعى في أوائلها الغنم في جبال مكة وشعابها، واتجر في أثنائها سنين قليلة قلما كان يعاشر فيها أحداً ، وهي التي ظل المسلمون يجهلون مراد القرآن منها بالتحقيق والتفصيل حتى بعد فتحهم للعالم واطلاعهم على علومه وتواريخه إلى أن وصل علم التاريخ وغيره إلى الدرجة المعروفة

كان بعض أهل الكتاب والملاحدة من غيرهم يرون أن أكبر الشبهات على ما في القرآن من قصص الرسل وأقوامهم حسبانها مقتبسة من هذه الكتب المقدسة عند القوم ومما كانوا عليه من التقاليد والمذاهب، باحتمال أنه ﷺ سمعها من بعضهم في أثناء سفره بالتجارة إلى الشام . وكانوا يعدون ماخالف تلك الكتب من آيات القرآن خطأ سببه عدم جودة الحفظ أو خطأ من سمع النبي ﷺ ذلك منهم أو تعمداً منهم لغشه كما غش بعض اليهود الذين ادعوا الاسلام خداعا بعض الصحابة والتابعين بأخبار كثيرة أدخلوها في تفسير القرآن وكتب الوعظ والرقائق

وكان من الادلة على دحض هذه الشبهة أنه لا يعقل أن يكون محمد ﷺ تلقى كل هذه القصص عن بعض أهل الكتاب في رحلته إلى الشام مع عمه أبي طالب وهو ابن تسع سنين أو ١٠ سنة، ولا في رحلته مع ميسرة مولى خديجة (رض) وهو وإن كان في هذه الرحلة شابا له ٢٥ سنة إلا أنه لم ينفرد دون ميسرة وسائر تجار قريش لدراسة ولا غيرها ، بل لم يلبثوا إلا أياما في بلدة (بصرى) باعوا واشتروا وعادوا ، ولا يعقل أن يكون سمع فيها أخبار جميع الرسل سراً أو جهراً ،وحفظها من هذه الكتب حفظا ، ثم لخصها بعد عشرين سنة تقريباً في هذه السور — ولم يجد أهل مكة عليه شبهة في هذا الباب إلا وقوفه أحيانا على قين (حداد صانع للسيوف) رومي كان بمكة فقالوا : انه هو الذي يعلمه ، وهو لم يكن يحسن العربية وفيه نزل (ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر : لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وقد تقدم في مسألة اشتمال القرآن على

أخبار الغيب الماضية من هـذا البحث تصريح الآيات بأنه ﷺ لم يكن يعلم ماقصته السور منها ولا قومه ، ولم يمكن لاحد من خصومه المشركين أن يكذب أو يماري في ذلك

هذا وإن مالخصناه هنا من حكم القرآن عليها يثبت أنه حكم عليّ نزل من فوق السموات العلى: حكم العليم الحكيم الحكم العدل المهيمن ، وأن تحقيق المحققين من مؤرخي الامم وتحقيق العقلاء من البشر قد أثبت ما أثبته هـذا الحكم ، وقد نفى مانفاه ، أليس هذا أنصع برهان على كونه حكم الله ، لاحكم عبده محمد بن عبدالله ؟ بلى والله ، ثم بلى والله ، لا يماري في ذلك إلا متعصب أضله الله

ومن قرأ التوراة والانجيل ثم قرأ بما في القرآن من أخبار الرسل يرى أمراً آخر ، يرى أن القرآن بين صفوة ما فيها من صحة عقيدة ، ومن أدب وفضيلة ، ومن عبرة وموعظة ، ومن أسوة بالاخبار حسنة ، وسكت عن كل ما فيهما مما ينافي ذلك ويخل به ، أو يجعل أفضل البشر قدوة سيئة ، وصرح بنقض ما طرأ على أهل الكتاب من نزغات الشرك والوثنية . فان فرضنا تنزلا أن هذا من صنع محمد بن عبدالله الامي ، أفلا يكون برهانا على أنه هو في شخصه أرقى من جميع الانبياء والمرسلين علما وعقلا وهداية وارشاداً ؟ بلى ولكن كيف يعقل حينئذ أن يكونوا أنبياء مرسلين ، وموحى اليهم من الله أو ملهمين ؟ الحق أن نفي نبوته ﷺ يقتضي نفي النبوة وابطال الرسالة من أصلها ، لانها هي التي تعقل لذاتها ، وانما يظهر ثبوت غيرها بالتبع لثبوتها ، وانا رأينا بعض الكافرين بالوحي ، من الباحثين المستقلي الفكر ، يفضلون محمداً ﷺ على جميع الخلق ، ومنهم الدكتور شبلي شميل السوري المشهور فقد صرح بذلك قولا وكتابة ، وأثبته نظما ونثرا ،

وقد آن أن نبين وجه دلالة القرآن على نبوته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، ومن آمن به وشاركهم في الاهتداء بهديه من بعده إلى يوم القيامة

وجه دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ

(تمهيد) الايمان بالنبوة والرسالة ، يبنى على الايمان بالربوبية والالهية ، فلا يخاطب باثباتها والدليل عليها إلا من يؤمن بالله تعالى وصفاته من العلم والحكمة والمشيئة والقدرة وتدبير أمر العالم ، وأكثر البشر يؤمنون بوجود الخالق المدبر صاحب السلطان الغيبي لأنه مما أودع في الفطرة البشرية ، ولا يعقل هذا النظام المشاهد في العالم بدونه ، كما هو مقرر في مواضعه ، ولكن الكثيرين يخطئون في فهم صفاته والكلام في تدبيره وتقديره ، لاختلاف انظارهم وتقاليدهم في ذلك . والذين حرموا هذا الايمان قسمان : همج من سكان الغابات الوحشية ، وأصحاب شبهات طارئة ، ومثل الاول مثل الخداج الذي يولد ناقصاً . ومثل الثاني مثل من يصاب ببعض مشاعره أو أعضائه ، ومراكز الادراك في المخ يصاب بعضها بالمرض أو الضعف دون بعض ، فلا يغترن أحد من المتقين بكفر بعض المتفنين لبعض العلوم والفنون ، الذين شغلتهم الصنعة عن الصانع ، كما شغل حب ليلي مجنون بني عامر عن شخصها ، حتى قيل انها زارته فلم يحفل بها.

وأكثر الذين يؤمنون بالله تعالى يؤمنون بالرسل الذين خصهم الله بنوع من العلم والهدى بغير تعلم ولا كسب ، وأيدهم بآيات منه دانت لها عقول المستعدين للهداية وخضعت قلوبهم فآمنوا واهتدوا ، وكانت حالهم البشرية بعد الايمان والهدى خيراً مما كانوا عليه هم وآباؤهم قبل ذلك صلاحا ، وقد بعث الله تعالى رسلا إلى جميع الامم دعوها إلى أصول الدين الثلاثة المبينة في قوله تعالى (٢:٦٢ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

فالرسل عليهم السلام كانوا متفقين في الدعوة الى الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، وانما كانوا يختلفون في تفصيل الاعمال الصالحة والشرائع المصلحة بحسب اختلاف استعدادا ممهم ، وقد طرأت على اتباعهم من بعدهم بدع وثنية وخرافية وضاعت أكثر تعاليمهم من الامم القديمة ، وانما بقيت بقية صالحة منها عند المتأخرين من اليهود والنصارى فيها من الشوائب ما أشرنا اليه آنفا ، وكذلك بقيت في جميع

الاديان القديمة آثار تاريخية تدل على توحيد الله تعالى كما نراه في تاريخ قدماء المصريين والفرس واليونان ووثني الهند واليابان والصين

ومما حفظ من أخبار أنبياء بني اسرائيل أن الله تعالى أيدهم بالاخبار عن بعض المغيبات ، وايد المرسلين منهم كموسى وعيسى عليهم السلام أجمعين بآيات أخرى من خوارق العادات، فقامت بها حجتهم على الناس فآمن بها المستعدون، وكابرها المعاندون المتكبرون ، واعرض عنها المقلدون الجامدون .

(المقصد) قد اختلف علماء الكلام في وجه دلالة المعجزة على نبوة من ظهرت على يديه ورسالته — اي على كون مايدعو اليه من العقائد والفضائل والاعمال الصالحة وحياً من رب العالمين ـ فقال بعضهم انها دلالة عقلية ، ورجح الاكثرون انها وضعية ، بمعنى أن تأييد الله تعالى إياه بعد التحدي بها في معنى قوله تعالى « صدق عبدي فيما يبلغ عني » ومن المعلوم الذي لا مراء فيه ان الذين آمنوا بالرسل في عصرهم وبعد عصرهم من العقلاء والاذكياء وجدوا في انفسهم اعتقاداً اضطراريا بأن ظهور مالا يقدر عليه غير الله تعالى على ايديهم عقب ادعائهم مادعوه وطلبهم من الله تعالى ان يصدقهم ويعطيهم آية تدل على تصديقه اياهم فيه ـ دليل على أنه هو الذي فعله لاجل تصديقهم ، فسم الدلالة عقلية أو سمها وضعية أو اجمع بين التسميتين إن شئت

وقال العلماء ان الله تعالى كان يعطي كل رسول من الآيات ما يناسب حال قومه وأهل عصره فلما كان قوم فرعون أهل علوم رياضية وطبيعية ، وأولي سحر وصناعة ، آتى رسوله موسى آيات كان العلماء والسحرة أعلم الناس بأنها من عند الله لا من كسب موسى ولا من صناعته ، ولما كان الرومانيون أولي السلطان في قوم عيسى والسيادة في بلادهم أهل علم واسع بالطب آتاه من الآيات إبراء الاكمه والابرص وإحياء الميت ، ولما كانت العرب قد ارتقت في لغتها فصاحة وبلاغة إلى درجة لم تتفق لغيرها ، لان أذكياءها قد وجهوا جميع قواهم العقلية والخيالية إلى إتقانها ، جعل الله تعالى آية محمد الكبرى اليهم كتابا معجزاً لهم ولسائر الخلق في نظمه

وأسلوبه وفصاحته وبلاغته ، فقامت عليهم الحجة به بأقوى مما قامت آيات موسى وعيسى على قومهما . وفي هـذا القول من التقصير في حجة القرآن ماعلمت

والحق الذي يقال في هـذا المقام : ان ما أيد الله تعـالى به رسله من الآيات الكونية كان مناسباً لحال زمان كل منهم وأهله ، وقامت الحجة على من شاهد تلك الآيات في عهده ، ثم على من صدق المخبرين من بعده ، وقد علم الله تعالى ان سلسلة النقل ستنقطع ، وان ثقة بعض المتأخرين به ولا سيما بعد انقطاع سلسلته ستضعف ، وان دلالتها على الرسالة ستنكر ، — فجعل الآية الكبرى على اثبات رسالة خاتم النبيين علمية دائمة لاتنقطع ، وهي هذا الكتاب المعجز للخلق بما فيه من أنواع الاعجاز السبعة التي ذكرناها، وبيّنا ان كل واحد منها آية بينة لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وكان مستقلا مطلقا من سر النظريات المادية وقيود التقليد . اذ لا يتصور عاقل يؤمن برب العالمين أن يصدر هذا الكتاب المشتمل على هذا القدر السنيم[1] من المعاني ، في هذا الاسلوب البديع والنظم المنيع من المباني ، من رجل أمي ولا متعلم أيضاً ، الا ان يكون وحياً اختصه به الرب عز وجل، ناهيك به وقد جزم بعجز الانس والجن عن أن يأتوا بمثله، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، فهذا التحدي حجة مستقلة على نبوة محمد ﷺ بصرف النظر عن المتحـدى به ما هو ، وكل نوع من تلك الانواع السبعة الثابتة للقرآن حجة مستقلة في نفسها ، وحجة أنهض وأقوى باعتبار أمية من جاء بها ، فان أمكن تمحل المراء والجدل في بعض الوجوه التي ذكرناها لاعجازه فهل يمكن ذلك في جملتها أو في كل منها ؟ كلا

سبق لنا أن ضربنا مثلا لنبوته ﷺ رجلا ادعى في بلاد كثرت فيها الامراض أنه طبيب وان دليله على ذلك انه ألف كتابا في علم الطب يداوي المرضى بما دوّنه فيه فيبرؤن، فاطلع عليه الاطباء البارعون فشهدوا بأنه خير الكتب في هذا العلم وما يتعلق به من عمل ، ثم عرض عليـه من لا يحصى عدداً من المرضى وقبلوا ما وصفه لهم من الادوية فبرؤا من عللهم وصاروا أحسن الناس صحة، فهل يمكن المراء في صحة هذه الدعوى مع هذين البرهانين العلمي والعملي ؟ كلا . وإن

«١» السنيم هو الجامع بين الطول والحسن من سنم سنوما وسناعة

العلم بطب الارواح ، أعلى وأعز منالا من العلم بطب الاجساد ، وان معالجة أمراض الاخلاق وأدواء الاجتماع ، أعسر من مداواة أعضاء الافراد ، ومن المعلوم بالضرورة ان القرآن مشتمل على العقائد الصحيحة والاداب العالية وأصول التشريع الاجتماعي والمدني، وان النبي (ص) عالج به أمة عريقة في الشقاق وحمية الجاهلية ، غريقة في الجهل والامية ورذائل الوثنيـة ، فشفيت واتحدت وتعلمت الكتاب والحكمة ، وسادت الامم ، من بدو وحضر ، مع انه كان أميا لم يتعلم شيئا من العلوم ، ولم يتمرس بسياسة الشعوب ،

كفاك بالعلم في الأمي معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

لو استدل ذلك الطبيب الجسداني على صحة دعواه بعمل غريب غير مألوف للناس ولكن لاعلاقة له بالطب لأمكن المراء في صحة دعواه ـ كذلك شأن هذا النبي في ادعائه انه مرسل من الله لهداية البشر ، فان كتابه العلمي المؤيد بنجاح العمل به ، ادل على كونه وحيا أوحاه الله اليه من جعل عصاه حية أو احيائه ميتا لان هذين على غرابتهما ليسا من موضوع الارشاد والتعليم ، كما أنهما ليسا من موضوع الطب ، فهما ان دلا على صدق الرسول فدلالتهما ليست في أنفسهما والاتيان بعمل خارق للمألوف في العادة من سنن الكون ، هو دون الاتيان بالعلوم العالية الالهية والتشريعية من غير تعليم ، فكيف بالاتيان بانباء الغيب الماضي والمستقبل ؟ فكيف بصلاح حال من عملوا بهذه العلوم دينا ودنيا ؟ فالقرآن اذاً برهان على ان ما فيه الطب الروحاني الاجتماعي وحي من الرب المدبر الحكيم لايماري فيه إلا معاند مكابر ، أو مقلد جاهل

أما المكابرون الذين يجحدون الحق وهم يعلمون فأمثال رؤساء المشركين ورؤساء اليهود في زمن البعثة المحمدية الذين ثقـل على طبـاعهم ترك رياستهم ، وصيرورتهم أتباعا مساوين لفقراء المسلمين ومواليهم ، ولا يخلو هذا العصر من أناس منهم ، وأما المقلدون فعوام أهل الاديان والمذاهب في كل عصر الذين لا ينظرون في دليل ولو كان حسياً . وكذلك المفتونون ببعض شبهات الماديين من الملاحدة وعلماء الطبيعة الذين قلدوهم في الكفر بالله تعالى كما قال الشاعر في أمثالهم

عمي القلوب عموا عن كل فائدة   لانهم كفروا بالله تقليداً

فهؤلاء المنكرون لوجود الخالق لا كلام لنا معهم في مسألة النبوة والوحي الا بعد أن نتكلم معهم أولا في اثبات وجود الخالق وصفات ربوبيته ، ولكن أكثر منكري النبوة يؤمنون بوجود الله تعالى وانما يستبعدون معنى الوحي ، وليس ببعيد في نظر العقل.

الوحي في اللغة إعلام في خفاء . ووحي الله تعالى إلى أنبيائه علم يخصهم به من غير كسب منهم ولا تعلم من غيرهم ، بل هو شيء يجدونه في أنفسهم من غير تفكر ولا استنباط مقترنا بعلم وجداني ضروري بأن الذي ألقاه في قلوبهم هو الرب القادر على كل شيء ، وقد يتمثل لهم ملك فيلقنهم ذلك العلم ، وقد يكون بغير وساطة ملك . قال تعالى (٢٦ : ١٩١ وانه لتنزيل رب العالمين ١٩٢ نزل به الروح الأمين ١٩٣ على قلبك لتكون من المنذرين) فأي استحالة أو بُعد في هذا عند من يؤمن برب العالمين ، وعلمه وحكمته وقدرته في المخلوقين؟

وعرفه شيخنا في رسالة التوحيد « بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين من قبل الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة ، والاول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت .(قال) ويفرق بينه وبين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى مايطلب على غير شعور منها من اين أتى ، وهو اشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » ثم بيّن إمكان هذا ووقوعه وأسباب شك بعض الناس فيه وتفنيد شبهاتهم عليه بما يراجع في الرسالة نفسها

وأما تمثل الملك فكانوا يكتفون في إثباته بقولهم إنه ممكن في نفسه وقد أخبر به الصادق فوجب تصديقه . ونقول اليوم إن العلوم الكونية لم تبق شيئا من أخبار عالم الغيب غريباً ، الا وقربته الى العقل بل الى الحس تقريبا ، بل ظهر من الاختراعات المادية المشاهدة في هذا العصر ، ماكان يعد عند الجماهير محالا في نظر العقل ، لا غريبا فقط . فاذا كان الانسان الكيميائي يحلل الاجسام الكثيفة حتى تصير غازات لا ترى من شدة لطفها ، ويكثف العناصر اللطيفة فتكون كالجامدة بطبعها فكيف يستغرب تكثيف الملك لنفسه وهو من الارواح ذات المرّة والقوة العظيمة بأخذه من مواد العالم المنبثة فيه هيكلا على صورة الانسان مثلا ؟ دع مخترعات

الكهرباء العجيبة التي لا يوجد شيء مما أخبر به الرسل من عالم الغيب الا وفيها نظير له يقربه من الحس لا من العقل وحده ، وهل الكهرباء الاقوة مسخرة للملائكة ؟ ودع ما يثبته الالوف من علماء الامم كلها من تمثل بعض أرواح البشر لبعض الناس في صور كصور الاجساد ، وهو يوافق المأثور عندنا عن الامام مالك من أئمة الفقهاء في صفة الروح ووقائعه عند الصوفية كثيرة ، ومن ينكر ما يحكى من وقوع هذا لا ينكر إمكانه في نفسه ، ولا الرجاء في ثبوته في يوم ما بحيث يشاهده جميع الناس.

خلاصة ماتقدم أن دلالة القرآن على نبوة محمد (ص) لها وجهان (أحدهما) ما قيل في دلالة الآيات الكونية لبعض الانبياء السابقين كناقة صالح وعصا موسى وإحياء عيسى للميت وهو ان كلا منها أمر جاء على غير المعتاد من مقدور البشر واستدل به صاحبه على نبوته ورسالته فكان تصديقا من الله تعالى له ، وتكذيبا وخذلانا منه تعالى لمن كذبه، وهذا الوجه من الدلالة خارج عن موضوع النبوة والرسالة ولذلك اختلف فيه علماء النظر كما تقدم آنفا

﴿الوجه الثاني﴾ - وهو يجتمع مع الاول - مأخوذ من معنى النبوة والرسالة وهو أنها هداية عليا للبشر لا تغنيهم عنها هدايات الحواس الظاهرة والباطنة ولا هداية العقل ، فان هذه هدايات شخصية فردية وتلك هداية لنوع الانسان في جملته ، وقد اكتفينا في هذا الاستطراد بتمثيلها بطب الأبدان ليفهمها كل قارىء وسامع ، وانما يفهمها الفهم التام من طريقه العلمي من يقف على ما اشتمل عليه القرآن من آيات الهداية وكونه أعلى وأكمل من كل مانقل عن الانبياء السابقين على ما في نقله من التواتر القطعي وما في نقلها من الضعف - ومن طريقه العملي من عرف تاريخ الاسلام وما كان من تأثير القرآن في هداية العرب ثم هداية غيرهم من الأمم ، وعرف تأثير هداية الانبياء السابقين في أممهم ، - على ما بين النقلين من التفاوت أيضاً -

ولا يمتري أحد من العقلاء في كون العلم الذي موضوعه هداية الأمم والشعوب ونقلها من حال دنيوية الى حال أعلى وأكمل منها هو من العلوم العالية التي يقل في الناس من يحذقها ويكون إماماً مبرزاً فيها ، وان عمل من يتدارسونه في الكتب به أعسر مسلكا، واوعر طريقا، وان فلاح العاملين به المتمرسين بوسائله قلما يتفق إلا

لأفراد أتيح لهم من الاسباب ونفوذ الحكومات مالم يتح لغيرهم ، فما بالك بالجمع بين هذا وبين العلم والعمل في سبيل الهداية الروحية والاستعداد لسعادة الآخرة والنجاح التام معاً على ما فيهما مع عدم سبق الاستعداد لهما بعلم ولا عمل ؟

وجملة القول ان موضوع الرسالة تعليم وإرشاد إلهي يملك الوجدان ، وتذعن له النفس بالايمان ، فيكون هداية تزع صاحبها عن الباطل والشر ، وتوجهه الى الحق والخير ، وإن القرآن قد بلغ مرتبة الكمال فيها ، فاهتدت به الأمم والشعوب ، فمن كان يؤمن بها على علم بحقيقتها ، لا تقليداً لآبائه وقومه فيها ، لا يسعه أن يؤمن بالتوراة أو الانجيل أو الفيدا أو غيرهن من الكتب المنسوبة الى المرسلين الاولين ولا يؤمن بالقرآن ، وهو أكملها في موضوعها وأصحها الى من جاء به

الله اكبر ان دين محمد وكتابه اقوى واقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلا

ومن كان يؤمن بالله تعالى وأنه هو الرب الخالق للعالم بأكمل نظام ، المدبر لأمور العباد بالحكمة والاحكام ، وانه هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتأمل في تاريخ النبي (ص) المنقول نقلا مستفيضاً ومتواتراً ، فلا يسعه أن يزعم أن بعثة محمد الأمي العربي وإتيانه بهذا القرآن ، المشتمل على ما أشرنا إليه من ضروب الاعجاز ، قد كان من أمور التعاليم البشرية الكسبية ، وما حدث به من الهداية التي قلبت تاريخ البشر كان من الأمور العادية ، بل لا يسعه اذا أنصف إلا أن يؤمن بأن هذه الحادثة الانقلابية في دين الأمم ودنياها قد كانت بعناية خاصة من الرب الحكيم العليم ، المدبر الرحيم ، وانه هو الذي أفاض هذا القرآن الحكيم على قلب ذلك الرجل الأمي بعد أربعين سنة قضاها في قومه لم يؤثر عنه شيء من مثل علومه ولا مما يقرب من أسلوبه وبلاغته

هذا وإن لتحقيق هذه الدلالة العلمية على النبوة والرسالة مقدمات علمية وفلسفية مستنبطة من حاجة البشر — في كمالهم النوعي في الدنيا وفي استعدادهم للحياة الأبدية — الى هداية الرسالة ، وقد عقد شيخنا الاستاذ الامام لهذا البحث فصلا طويلا في رسالة (التوحيد) سلك فيه مسلكين (أحدهما) مبني على عقيدة خلود

النفس البشرية وكونها لا تزول من الوجود بالموت المعهود، وهي عقيدة اتفقت عليها كلمة البشر من المليين موحديهم ووثنييهم والفلاسفة إلا قليلا من الماديين الجدليين الذين لا يعتدون إلا بمدركات الحس (وثانيهما) مأخوذ من طبيعة الانسان في حياته الاجتماعية

بين الاستاذ في الأول ان الانسان محتاج بمقتضى تلك العقيدة والشعور النوعي العام بالبقاء والانتقال من طور الى آخر في الحياة الى هداية يستعد بها للحياة الآخرة الباقية وهي من عالم الغيب الذي لا يدرك من أمره شيئاً فيستقل عقله في العلم بما يجب عليه من الاستعداد له ، فلا بد أن تكون هذه الهداية من عند الله تعالى الذي خلقه للبقاء الذي يعقله في الجملة ، لا للزوال والعدم المحض الذي لا يعقل ولا يتصور ولا يتخيل، وانما عاقبة الموت انحلال هذه الصور الجسدية ، وتفرق هذه المركبات المادية . فالله هو العليم بما يصلح به حاله في تلك الحياة ، وتأبى حكمته ورحمته وجوده واتقانه لكل شيء خلقه وتنزهه عن الباطل والعبث أن يحرمه هذه الهداية

وبين في الثاني إن هذه الحياة الاجتماعية الانسانية لا يستقيم فيها التعاون بين الافراد ولا بين الجماعات إلا بالأخذ بتعاليم اعتقادية وأدبية وعملية لا تختلف فيها الاهواء والشهوات لأن الوازع فيها نفسي وجداني لصدورها عن الرب الحكيم العليم ، بوحي أوحاه الى من اختصه بهذا الفضل العظيم، ولولا ان طال هذا الاستطراد في تفسير الآية لأوردت هذا الفصل برمته هنا فهو في المسألة الحجة البالغة والحكمة وفصل الخطاب

إلا انني أقول ان أعلم الحكماء الغربيين في هذا العصر قد بينوا في مباحثهم في طبائع البشر ان الانسان اذا ترك الى مداركه الحسية ونظرياته العقلية وتسلل من وجدان الدين والإلهام الالهي بالحياة الأخرى يكون أشقى من جميع أنواع الحيوان الأعجم ويكون جل شقائه من نظرياته العقلية ، فهو اذا فكر في هذه الحياة القصيرة التي تساورها الآلام الشخصية من جسدية ونفسية والآلام المنزلية (العائلية) والقومية والوطنية والدولية ـ يراها عبئاً ثقيلا ، ويرى من السخف أو الجنون أن يحمل شيئا منها مختاراً لأجل زوجة أو ولد أو وطن أو أمة ـ ويرى ان الطريقة المثلى في الحياة أن لا يتعرض لألم من هذه الآلام فلا يتزوج

ولا يعمل أدنى عمل ولا يتكلف أدنى تعب لاجل غيره ، وأن يطلب لذاته الجسدية من أقرب الطرق اليها ، وينتظر الموت للاستراحة من هذه الحياة ، فان أبطأ عليه ونزلت به آلام يشق عليها احتمالها من مرض أو فقر مدقع أو ذل مخز فليبخع نفسه ويتعجل الموت انتحاراً

كل فضائل الانسان من الصبر على المكاره والجهاد في سبيل الزوجة والولد والأمة والوطن وإسداء المعروف وسائر أعمال البر لا يبعث النفس عليها إلا الايمان بالله وبالجزاء على الاعمال في حياة خير من الحياة الدنيا ، كما قرره البرنس بسمارك عظيم أوربة في عصره في بيان الباعث للجندي على بذل نفسه في الحرب وانه وجدان الدين وفي قوله عن نفسه انه لولا الايمان لما خدم الامة الالمانية في ظل عاهلها وهو يكره الملوك لانه جمهوري بالطبع . ـ ولئن انتصرت الافكار المادية على الهداية الدينية انتصاراً تاما كاملا ليتحولن جميع ما اهتدى اليه البشر من أسرار الكون والفنون والصناعات الى ذرائع الفتك والتدمير ، وبئس المثوى والمصير ، وهو ما جزم هربرت سبنسر شيخ فلاسفة اوربة الاجتماعيين بأن سيكون عاقبة انتشار الافكار المادية في أوربة : صرح به لشيخنا عند التقائه به في انكلترة

فجملة القول ان الدين هو الهداية العليا للانسان التي أفيضت على بعض خواصه وهم الرسل من أفق أعلى من عقله وحواسه فكانت أستاذاً مرشداً له فيهما لكيلا يستعملهما فيما يضره في سيرته الشخصية والاجتماعية ، وهاديا له إلى السعادة الأخروية ، وان القرآن أكمل الكتب الالهية التي أوحاها الى رسله لبيانه وهاخلقه ، أكملها هداية وإرشاداً ، وأصحها تاريخا وإسنادا ، ولذلك كان خاتمة لها ، وكان آية دائمة ومعجزة ثابتة بأسلوب عبارته وبما اشتمل عليه ، مما مرت الاشارة إليه . ولكن ماطرأ على دول خلافته العربية من الضعف والانحلال صد الناس عنه ، وسيرجعون الى إحياء لغته ، وتعميم دعوته ، فينقذ الله به العالم من مصائبه المادية التي أوشكت أن تودي به (ولتعلمن نبأه بعد حين)

خاتمة البحث فيمن عارضو القرآن

نختم هذا البحث بكلمة فيمن حاولوا معارضة القرآن ، وقد كان من دأب علماء المسلمين احصاء كل مايبلغهم في الدين والعلم والادب وتدوينه وعزوه

الى أهله ، حتى إن دعاة النصرانية يقرؤن كتب علمائنا وينقلون منها كل طعن في الاسلام ويؤيدونه ، ويكتمون رد علماء المسلمين عليه أو يذكرون منه ما يرونه ضعيفا ويوردونه مورد الهزو والسخرية لتنفير ضعفاء العلم أو العقل من المسلمين عنه .
وقد أجمع رواة الآثار والتاريخ على أن فحول البلغاء من مشركي العرب لم تسم نفس أحد منهم الى معارضة القرآن مع شدة حرصهم على صد الناس عن الاسلام ، وعن الرسول عليه الصلاة والسلام — كما تقدم — اللهم الا أن بعضهم نقل عن مسيلمة الكذاب أنه عارض سورة الكوثر وهي أقصر سورة منه ليثبت لدى غوغائه أنه يوحى اليه كمحمد (ص) فقال كما في التفسير الكبير للفخر الرازي وغيره :

« إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وهاجر ، ان مبغضك رجل كافر »

وقد تعلق بهذا بعض دعاة النصرانية في رسالة له في الطعن على اعجاز القرآن ولكنه أوردها بألفاظ أخرى وزعم أنها فصيحة متناسبة المعنى ، بعد أن طعن في سورة الكوثر وزعم أنه سأل علماء المسلمين عن بلاغتها وإعجازها فلم يستطع أحد أن يجيبه ، (وهو هو الذي نقلنا عنه معارضة سورة الفاتحة ص ٨٧) وهذه عبارته أو روايته :

« إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وجاهر ، ولا تعتمد قول ساحر »

ولا شك أن هذا التغيير جاء من جاهل باللغة العربية الفصيحة ، ولا سيما لغة ذلك العصر ، وهو مع ذلك سخيف العقل ، فمن سخف عقله إتيانه بكلمة الجواهر هنا وترتيب الامر بالصلاة على اعطائها ، وفرض هذا وحيا لمسيلمة المدعي للنبوة ، مع أنه لا يوجد نقل بأن الله أعطاه جواهر معروفة تذكر بلام التعريف ، ولا غير معينة فتذكر بلام الجنس ، ثم إنه لا مناسبة للامر بالمجاهرة بالصلاة هنا وهي المشاركة في جهر الشيء أو الجهر بالقول ، وأما الفقرة الاخيرة فليست مما يقوله عربي قح لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى إذ لم يكن عند العرب أقوال للسحرة تعتمد أو لا تعتمد إن صح ان يقال هذا ، وانما السحرة أناس مفسدون محتالون ، فعالون لا قوالون
ولو فرضنا أن هذه الالفاظ التي غيرها من السورة صحيحة ومناسبة المقام ومقتضى الحال لما صح أن يكون بها معارضا لها بل مقلدا أو ناقلا فهو ضرب من الاقتباس مع التصرف ،

كمن يغير قافية أبيات من الشعر بمعناها أو بمعنى آخر كقول الشاعر :

ما لمن تمت محاسنه * أن يعادي طرف من رمقا
لك أن تبدي لنا حسناً * ولنا أن نعمل الحدقا
قدحت عيناك زند هوى * في سواد القلب فاحترقا

غيرت قوافيها لفظا لا معنى بالبداهة فقلت

ما لمن تمت محاسنه * أن يعادي طرف من مقلا
لك أن تبدي لنا حسنا * ولنا أن نعمل المقلا
قدحت عيناك زند هوى * في سواد القلب فاشتعلا

«مقل» نظر بمقلته . ثم غيرتها أيضا بكلمات: نظر ، أو بصرا — النظرا — فاستعرا — فهل أكون بهذا معارضا للاصل، وفي طبقة صاحبه من غزل الشعر ؟

إعجاز سورة الكوثر

وأما السورة فهي في أفق أعلى مما قال مسليمة الكذاب، ومما عزاه اليه المبشر الجاهل المخادع ، حتى لو فرض أنه قال ما قال من تلقاء نفسه

« الكوثر » في السورة لا يوجد في اللغة مايحكيه أو يحل محله فيها إذ معناه الكثير البالغ منتهى حدود الكثرة في الخير حسياً كان كالمال والرجال والذرية والاتباع ، أو معنويا كالعلم والهدى والصلاح والاصلاح ، ويشمل الكثير من خيري الدنيا والآخرة . وهو يطلق على السخي الجواد أيضا

وأما موقعه في أول السورة وموقع كلمة « الأبتر » في آخرها اللذان اقتضتها البلاغة وتأبى أن يحل غيرهما محلها فهو أن رؤساء المشركين المستكبرين كانوا يحقرون أمر النبي ﷺ لفقره وضعف عصبيته ويتربصون به الموت أو غيره من الدوائر زاعمين أن ماله من قوة التأثير في الانفس بتلاوة القرآن يزول بزوال شخصه كما قال تعالى (٥٢ : ٣٠) أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون (٣١) قل تربصوا فاني معكم من المتربصين) وكانوا يقولون عند ما رأوا أبناءه يموتون : بتر محمد ، أو صار أبتر ، أي انقطع ذكره بانقطاع ولده وعصبته، وكانوا يعدون الفقر وانقطاع العقب مطعنا في دينه ودليلا على توديع الله له وعدم عنايته به تبعا لاستدلالهم بالغنى

و كثرة الولد على رضاء الله تعالى وعنايته كما حكى عنهم سبحانه بقوله (٣٤ : ٣٥ .وقالوا نحن أكثر أموالا و أولاداً وما نحن بمعذبين) وقد أبطل الله تعالى بهذه السورة شبهتهم ، ودحض حجتهم، وجعل فألهم شؤما عليهم، بما بين من عاقبة أمرهم وأمره، قال ما تفسيره بالايجاز

(إنا) بما لنا من القدرة على كل شيء (أعطيناك) أيها الرسول من خيري الدنيا والآخرة (الكوثر) الذي لا يحد كثرته ولا تحصر ، من الدين الحق ، وهداية الخلق ، ومالا يحصى من الاتباع ، ومالا يحصر من الغنائم والنصر على الاعداء ، ومالا ينقطع من الذرية التي تنسب اليك فتذكر بذكرهم ، ويصلي ويسلم عليك وعليهم ، ثم من الشفاعة العظمى يوم الفزع الاكبر، والحوض الذي يرده المؤمنون في الحشر ، فلفظ الكوثر يشمل كل هذا وغيره ، وانما يكون كل نوع منه في وقته ، وكان الاخبار به في أول الاسلام من البشارة ونبإ الغيب، وذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه كقوله(أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أو على معنى الانشاء ... فأين هذا اللفظ في نفسه وفي موافقته لمقتضى الحال من كلمة « الجماهر » التي استبدلها به مسيلمة الكذاب ، وهي بالضم الشيء الضخم ـ أو كلمة الجواهر التي ذكرها المشرالمرتاب السباب ، وهي كذب لا مناسبة له؟

ووصل تعالى هذه البشارة العظمى بالأمر بشكرها فقال (فصل لربك) ومتولي أمرك الذي من عليك بهذه النعم وحده مخلصاً له الدين (وانحر) ذبائح نسكك له وحده، — فهو كقوله تعالى (٦:١٦٢ قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) وهذا يدل على أنه سيكون له الغلب على المشركين الذي يتم بفتح مكة وبحجه ونسكه مع اتباعه ـ وقد كان ـ ونحر (ص) في حجة الوداع مائة ناقة ، فهذه بشارة خاصة بعد تلك البشارة العامة ، وكلاهما من أنباء الغيب

ثم قفى على ذلك ببشارة ثالثة هي تمام الرد على أولئك الطغاة المغرورين باموالهم وأولادهم أوردها مفصولة غير موصولة بالعطف على ما قبلها لأنها جواب عن سؤال تقديره : وماذا تكون عاقبة شانئيه ومبغضيه الذين رموه بلقب الابتر وتربصوا به الدوائر لما يرجون من انقطاع ذكره واضمحلال دعوته ؟ فأجاب (ان شانئك) أي

مبغضك وعائبك بالفقر وفقد العقب (هو الابتر) من دونك - وهذا اخبار آخر بالغيب قد صح وتحقق بعد كر السنين، ولفظ شانيء مفرد مضاف فمعناه عام فهو يشمل العاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأمثالهم ممن نقل عنهم ذلك القول فيه (ص) لفظا أو موافقة لاخوانهم المجرمين فقد بتروا كلهم وهلكوا، ثم نسوا كأنهم ماوجدوا، وزال ما كانوا يرجون من بقاء الذكر بالعظمة والرياسة وكثرة الولد والعصبية، فلم يعد أحد منهم يذكر بخير، ولا ينسب له عقب

فأنت ترى أن هذه السورة على إيجازها في منتهى الفصاحة والبلاغة قد جمعت من المعاني الكثيرة الصحيحة ومن أنباء الغيب التي فسرها الزمان ما تعد به معجزة بينة الاعجاز، وفيها من المعاني واللطائف غير ما ذكرنا فيراجع تفسيرها في مفاتح الغيب وغيره من المطولات

أنبياء العجم الكاذبون

هذا وانه قد ظهر في القرنين الماضي والحاضر دجالون من ايران فالهند ادعى بعضهم انه المهدي وبعضهم أنه نبي يوحى اليه وشارع جديد فإله معبود، وبعضهم أنه المسيح المنتظر. وقد الف كل منهم رسائل وكتبا عربية، ادعى أنها وحي من الله وانها معجزة للانام، على اعترافهم بنبوة محمد (ص) وان القرآن كتاب الله عز وجل. وقد ضل بكل منهم اناس من الاعاجم الذين لا يفهمون العربية فهماً صحيحا، ثم تألفت لهم أحزاب وعصبيات بمساعدة الاجانب المستعمرين الطامعين في القضاء على الاسلام والمسلمين وصار لهم ثروة يستميلون بها الناس. وقد رددنا عليهم في المنار ورد عليهم غيرنا من العلماء بما ظهر به جهلهم وكذبهم، وسخافتهم فيما اغتروا به من وحي الشياطين لهم

وقد كان لاعرضهم دعوى كتاب سماه الكتاب الاقدس حاول فيه محاكاة القرآن في فواصل آياته وفي أنباء الغيب - ولكن اتباعه الاذكياء لم يجدوا بداً من اخفاء هذا الكتاب، وجمع ما كان تفرق من نسخه المطبوعة في الاقطار، وما يدري إلا الله ماذا يفعلون فيه بعد أن يثقوا بأنهم استردوا سائر نسخه من تصحيح وتنقيح، وابرازه في يوم من الايام في ثوب جديد، وهذا العمل يؤكد

انفراد القرآن بالاعجاز ، وكونه هو حجة الله الباقية الى آخر الزمان .

(٢٥) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

لما بين تعالى في الآية السابقة ما أعده للكافرين الذين قامت عليهم الحجة فجحدوا بها ، أراد أن يبين في هذه الآية نصيب مقابل هؤلاء ، وهم الذين ظهر لهم الدليل فآمنوا ، ولاح لهم نور الهداية فاهتدوا ، فالكلام متصل بعضه ببعض ولذلك عطف الجملة على ماقبلها ، لأنها متممة لفائدتها ، إذ لابد بعد بيان جزاء الكافرين ، من بيان جزاء المؤمنين ، والارشاد ترهيب وترغيب ، والخطاب يصح أن يكون للنبي ﷺ خاصة ، وأن يكون عاما لكل من يسمع الامر من أهله ، وقالوا إن الاخير هو المعروف في لسان العرب والمفهوم عندهم من أمثال هذا الخطاب كقوله تعالى (نبيء عبادي) وقوله (واضرب لهم مثلا . . .) فهو في عمومه جار مجرى الامثال ، والمخاطب الاول به هو الرسول على كل حال

قال تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ ولم يذكر بماذا آمنوا لان متعلق الايمان كان معروفا عند المخاطبين وهو الله تعالى وصفاته التي ورد بها النقل الصريح ، وأثبتها العقل الصحيح ، والوحي ومن جاء به ، والبعث والجزاء . فهذه هي الاصول التي كان يدعو اليها الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمن صدقهم فيها كان مؤمنا ويصدق بما يتبع ذلك من التفصيل (قال الاستاذ) ولابد في تحقق الايمان من اليقين ، ولا يقين الا ببرهان قطعي لا يقبل الشك والارتياب ، ولا بد أن يكون البرهان على الالوهية والنبوة عقليا ، وإن كان الارشاد اليها سمعيا ، ولكن [لا ينحصر البرهان العقلي المؤدي إلى اليقين في تلك الادلة التي وضعها المتكلمون ، وسبقهم الى كثير منها الفلاسفة الاقدمون ، وقلما تخلص مقدماتها من خلل ، أو تصح

طرقها من علل، بل قد يبلغ أمي علم اليقين بنظرة صادقة في ذلك الكون الذي بين يديه ، أو في نفسه اذا تجلت بغرائبها عليه ، وقد رأينا من أولئك الاميين ، مالا يلحقه في يقينه آلاف من أولئك المـ ...نين، الذين أفنوا أوقاتهم في تنقيح المقدمات وبناء البراهين ، وهم أسوأ حالا من أدنى المقلدين]

(وأقول) كان الاستاذ قد أطلق اشتراط البرهان العقلي هنا كما أطلقه في مواضع أخرى تقدم بعضها والبحث فيه ثم قيده هنا بما بين به خطأ بعض المتكلمين في اشتراطهم البراهين المنطقية التي سموها قطعية على مافيها من خلل وعلل. والحق أن اطمئنان القلب بما جاء به الرسول ﷺ من غير تردد ولا اضطراب كاف في النجاة في الآخرة ، وان أفضل الأدلة ما أرشد اليه القرآن من النظر في آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق ، فبداهة العقل فيه كافية عند سلم الفطرة الذي لم يبتل بشكوك الفلاسفة وجدليات المتكلمين ولا بتقليد المبطلين . هذا وان اطلاق الايمان وذكر المؤمنين وما أعد لهم من غير وصله بذكر متعلقاته معهود في القرآن لأن المتعلق معلوم للسامعين كما قلنا ، وهو بالنسبة لمن لم يؤمنوا مادعاهم اليه النبي ﷺ اجمالا من الاصول، وأما المؤمنون فقد عرفوه مفصلا تفصيلا

ثم وصف المؤمنين الذين يستحقون البشارة بقوله ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ وأطلق في هذا أيضا كما أطلق في كثير من الآيات لان العمل الصالح معروف عند الناس بالاجمال ، وذلك كاف في الترغيب فيه وجعله تابعا للايمان متصلا به، ولازما من لوازمه ، وبين الاعمال الصالحة بالتفصيل في آيات كثيرة كقوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الخ وكالآيات في أول سورة (المؤمنون) وآخرها وآخر سورة الفرقان وأوائل سورة المعارج وغير ذلك . كأن الله تعالى يقول ان العمل الصالح معروف عند الناس لانه أودع في نفوسهم مايميزن به بين الخير والشر ، ولكن بعضهم يضل بانحراف يطرأ على نفسه فيخرجها عن الاعتدال الفطري ثم يضل بضلاله آخرون فتكون التقاليد والعادات الناشئة عن هذا الضلال هي الميزان عند الضالين في معرفة الصلاح والفساد والخير والشر لا أصل الهداية الفطرية ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « كل مولود يولد على

الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » رواه الشيخان وغيرهما ـ يعني أن الانسان لو ترك ونفسه لاهتدى الى الحق مادام بعيدا عن التقاليد والعادات. وقد بلغ فساد الطباع وانحراف الفطرة في بعض الامم مبلغا كادوا يخرجون به عن طور البشر كمتنطعي البراهمة اذ ذهبوا الى أن كمال الارواح وسعادتها انما هو في تعذيب الابدان وحرمانها من لذاتها . ولذلك جدوا في البعد عن اللذات الجسمانية بانواعها فمالوا عن سنن الاعتدال ، ومنوا أبدانهم وعقولهم بالفساد والاعتلال ، وكبعض كفرة العرب وطائفة من البراهمة إذ زعموا أنه لاخير الا في اللذة البدنية ولا شر إلا في الألم الجسداني ، فالسعادة والكمال عندهم في البعد عن الآلام البدنية ، والتمتع بالشهوات الحسية ، فمثل هؤلاء المرضى النفوس المحرومين من الكمال الروحي والعقلي كمثل من غلبت عليه الصفراء فصار يذوق الحلو مراً ، وان من المرضى من يشتهي في طور النقه مالا يشتهي في حال الصحة والاعتدال ، وكذلك الحبالى في مدة الوحم

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

فالخير والشر والصلاح والفساد والحق والباطل والفضيلة والرذيلة كل ذلك معروف في الجملة حتى عند الاشرار ولذلك يدعون الخير والصلاح وينكرون ماهم عليه فاطلاق القول بذكر الاعمال الصالحات ليس مبهما عندهم ، ولا خطابا بغير مفهوم ، وانما يحتاج معتل الفطرة الى التفصيل في ذلك ، وذكر الامارات والدلائل التي تميز بين الصالحين والفاسقين ، والمحقين والمبطلين ، ولهذا نزلت آيات البيان والتفصيل التي أشرنا الى بعضها آنفا : وبها ينقطع تلبيس الاغبياء ، واعتذار الجهلاء ، وحق القول بأن الذى يستحق هذه البشارة هو من جمع بين الايمان والعمل الصالح الذي يرشد اليه الفطره السليمة ، ويهدي الى تحديده الكتاب العزيز وسنة الرسول المتبعة

بشرهم ﴿ أن لهم جنات ﴾ ورد لفظ الجنة والجنات كثيراً في مقابلة النار ، والجنة في اللغة البستان والجنات جمعها ، وليس المراد بهما مفهومها اللغوي فقط وانما هما دارا الخلود في النشأة الآخرة ، فالجنة دار الابرار والمتقين ، والنار دار الفجار والفاسقين ، فنؤمن بهما بالغيب ولا نبحث في حقيقة أمرهما ، ولا نزيد

على النصوص القطعية فيها شيئا لأن عالم الغيب لايجري فيه القياس

ومما وصف الله تعالى به الجنات قوله ﴿تجري من تحتها الانهار﴾ والمناسبة ظاهرة فان البساتين حياتها بالانهار . (قال شيخنا) وهل سميت دار النعيم جنة وجنات على سبيل التشبيه وذكرت الانهار ترشيحا له أم سميت بذلك لانها مشتملة على الجنات تسمية للكل باسم البعض ؟ الله أعلم بمراده [وأقول] لولم يرد فى هذا المقام الاذكر الجنة أو الجنات لوجب التفويض وامتنع الترجيح أما وقد ذكر في آيات أخرى أنواع من الشجر المثمر وذكر الثمرات ، فقد تعين ترجيح الشق الثاني ، والا كان هربنا من تشابه أسرى الالفاظ عالم الغيب بعالم الشهادة من كل وجه ، الى تأويلات الباطنية المعطلين لدلالتها من كل وجه ،

ألم تر الى ربك كيف ذكر من شأن أهل تلك الجنات فيها أنهم ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا﴾ كلمة من الاولى للابتداء والثانية للتبعيض ، أي كلما رزقوا من الجنات رزقا من بعض ثمارها ﴿ قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ﴾ أي هذا الذي وعدنا به في الدنيا جزاء على الايمان والعمل الصالح ، فهو كقوله تعالى (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) وذهب الجلال وغيره الى اختيار أن معناه تشبيه ثمرات الآخرة بثمرات الدنيا لأنها مثلها في اللون والشكل والرائحة وإن كانت تفضلها في الطعم واللذة فقوله تعالى ﴿وأتوا به متشابها﴾ بيان لسبب القول على هذا التفسير ، أي أتوا بما ذكر من الرزق في الدنيا والآخرة متشابها بعضه يشبه بعضا ، ومحصله أنهم عند مايؤتون برزق الجنة يبادرون إلى الحكم بأنه غير ماوعدوا به وأنه عين رزق الدنيا ، لان التشابه يكون سبب الاشتباه عليهم ، ولكنهم يعرفون الفرق بعد ذلك بالطعم لان فرقا عظيما بين لذة رزق الدنيا ورزق الجنة. والتعبير بكلما ينافي هذا التفسير لان الاشتباه إنما يكون في المرة الاولى ، ثم يعرفون التفاوت معرفة تذهب به وتمنع من الحكم بأن هذا عين ذاك ، أما بالنسبة لافراد النوع الواحد من الثمار فبالاختبار ، وأما بالنسبة لما بعد النوع الاول من الانواع فبالقياس عليه . وما ذهب اليه الجلال مناف للبلاغة في المعنى أيضا لان

تشابه رزقي الدنيا والآخرة في الالوان والروائح واختلافه في الطعم فقط ليس فيه كبير تشويق لان اللذة في التنقل ، ثم إن أطوار الجنة مخالفة لأطوار الدنيا ، والتشويق للناس انما يكون بحسب ماعهدوا واعتادوا وألفوا . واننا نعلم أن الاكل في الدنيا لاجل حفظ البنية من الانحلال، ولا انحلال في دار الخلد والبقاء ، فلا بدّ أن يكون الاكل والشرب هناك على ماورد لحكمة أخرى ، أوهو لتحصيل لذة لا نعرفها لأنها من أحوال عالم الغيب ، وانما نؤمن بماورد ونفوض أمر حقيقته وحكمته إلى الله تعالى . ومما ورد أنه لذة أعلى من لذات الدنيا [أقول] بل قال ابن عباس رضي الله عنه ليس في الدنيا مما في الجنة الا الأسامي. وفي حديث الصحيحين المرفوع عن الله عز وجل « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر » وهو تفسير قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون)

وذهب بعض المفسرين إلى ماقلناه أولا من أن ذلك الرزق هو عين ماوعدوا به جزاء على أعمالهم فكلما رزقوا ثمرة منه يذكرون الوعد الالهي شكراً لله على توفيقهم لذلك العمل الذي له أعدّ هذا الجزاء كما تفيده آية (وقالوا الحمد لله) التي ذكرناها آنفًا ، فهو من قبيل ارتباط الموعود به بالموعود عليه كأن الاعمال عين الجزاء (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقوله تعالى بعد ذلك (وأتوا به متشابهاً) تأكيد وتقرير لما تضمنه قولهم وهذا هو الراجح الذي اختاره شيخنا ، وهنالك قول ثالث وهو أن رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها في صورته ، ويختلف في طعمه ولذته ، وهو المتبادر من اللفظ

ثم قال ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أي مبالغ في تطهيرهن وتزكيتهن فليس فيهن مايعاب من خبث جسدي حتى ماهو في الدنيا طبيعي كالحيض والنفاس، ولا نفسي كالمكر والكيد وسائر مساويء الاخلاق، لانهن طهرن كل نوع من أنواع التطهير . ونساء الجنات من المؤمنات الصالحات وهن المعروفات في القرآن بالحور العين، وصحبة الازواج في الآخرة كسائر شؤونها الغيبية نؤمن بما أخبر به الله تعالى منها لا نزيد فيه ولا ننقص منه ، ولا نبحث في كيفيته ، وانما نعرف بالاجمال أن أطوار الحياة

الآخرة أعلى وأكمل من أطوار الحياة الدنيا كما تقدم ، ونحن نعلم أن الحكمة في لذة الازواج بالمصاحبة الزوجية المخصوصة هي التناسل وانماء النوع، ولم يرد أن في الآخرة تناسلا ، فلا بد أن تكون لذة المصاحبة الزوجية هناك أعلى ، وحكمتها أسمى ، وانا نؤمن بها ولا نبحث في حقيقتها كما تقدم في بحث رزق الجنة

(اقول) هذا ملخص ماقاله الاستاذ على طريقته المثلى في الايمان بالغيب من غير قياس لعالمه على عالم الشهادة وهو لاينافي كون الانسان في الآخرة يكون إنسانا لا ملكا ، وإنما تكون لذاته الانسانية أكمل مما كان في الدنيا وأسلم من المنغصات ومنها الطعام والشراب والمباشرة الزوجية فتنبه، وثبت في الحديث الصحيح «ان أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون » قالوا فما بال الطعام؟ قال «جشاء ورشح كرشح المسك، ويلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفَس» رواه مسلم عن جابر بن عبدالله وفي معناه أحاديث أخرى . وفي الصحيح أيضاً ان لكل رجل في الجنة زوجين اثنتين ـ قال العلماء احداهن من نساء الدنيا والأخرى من نساء الجنة وما ورد من كثرتهن لا يصح منه شيء

ثم قال ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ الخلود في اللغة طول المكث ومن كلامهم خلد في السجن كما في الأساس، وفي الشرع الدوام الأبدي أي لايخرجون منها ولا هي تفنى بهم فيزولوا بزوالها ، وانما هي حياة أبدية لانهاية لها ، وفقنا الله لما يجعلنا من خيار أهلها من العلوم الصحيحة ، والاعمال الصالحة ، التي ترتقي بها الارواح ، ونستعد لذلك الفلاح

(٢٦) إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ

الآيات متصلة بما قبلها لم يختلف النظم ولم يخرج الكلام عن الموضوع الاصلي

وهو الكتاب الذي لا ريب فيه ، وحال الناس في الايمان به وعدم الايمان ،ولا فصل في صحة هذا الوصل بين أن يكون الكلام رداً على اليهود الذين أنكروا ضرب الامثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت كما يروى عن ابن عباس ، أورداً على المنافقين الذين أنكروا الامثال في الآيات السابقة بمستوقد النار والصيب من السماء زاعمين أنه لايليق بالله ضرب الامثال ، أو يكون المراد بالمثل القدوة تقريراً لنبوة النبي ﷺ . أما على الاول فيقال إنه انما نص هنا على نفي الاستحياء من ضرب أي مثل ، ولم يذكر ذلك هناك عند تمثيل الاولياء الذين اتخذوهم من دون الله بالذباب والعنكبوت لان المقام هنا مقام ذكر الاعتراض الموجه على القرآن ، فيكون هذا مقام رد شبه المكابرين عنه ، وأما على الثاني والثالث فهو أظهر،على أنه لاحاجة في فهم الآية إلى ماقالوه في سببها ، فان لم تكن رداً لما قيل فهي رد لما قد يقال ، أو يجول في خواطر أهل المكابرة والجدال ، والمجاحدة والمحال

والاستحياء قال صاحب الكشاف إنه من الحياء وهو انكسار وتغير في النفس يلم بها اذا نسب اليها أو عرض لها فعل تعتقد قبحه ، وفي الحالة الثانية يكون مانعاً من الفعل الذي يعرض ، يقال فلان يستحيي أن يفعل كذا ، أي إن نفسه تنكسر فتنقبض عن فعله ، ويقال إنه استحيا من عمل كذا ، أي إن نفسه انفعلت وتألمت عند ماعرض عليه عمله فرآه شيناً أو نقصاً . ويقال حيي بهذا المعنى كأنه أصيب في حياته ، كما يقال نسي اذا أصيب في نساه ، — وهو عرق يسمونه عرق النسا بفتح النون — و حشي اذا أصيب في حشاه . وقالوا ان الحياء ضعف في الحياة بما يصيب موضعها وهو النفس ، فمعنى عدم استحياء الله تعالى أنه لايعرض له ذلك الانكسار والانفعال ، ولا يعتريه ذلك التأثر والضعف فيمتنع من ضرب المثل ، بل هو يضرب من الامثال المادية والمطابقة لحال الممثل به مايعلم أنه يجلي الحقائق ويؤثر في القلوب . ولكن صاحب الكشاف وغيره أرادوا أن يجعلوا الآية دليلا على اتصاف الله تعالى بالحياء ، فقالوا إن النفي خاص ومثله اذا ورد على شيء يدل على أن ذلك الشيء قابل للاتصاف بالمنفي ، فمن لاقدرة له على شيء لاينفى عنه ، لاتقول إن عيني لاتسمع وأذني

لاترى ، وقالوا إن معنى نفي الاستحياء هو أن الله تعالى لايرى من النقص أن يضرب مثلا بعوضة فما دونها لأنه خالق كل شيء ، وقد ورد في الحديث نسبة الحياء إلى الله تعالى ، والنافون له يؤولون ماورد بأثره وغايته

أقول هذا مؤدى ماقاله الاستاذ في الدرس، والحديث في وصفه تعالى بالحياء مروي عن يعلى بن أمية وعن سلمان الفارسي أخرجهما احمد وأبوداود والاول النسائي والثاني الترمذي وابن ماجه والحاكم وحسنوهما . والتحقيق أن الحياء انفعال النفس وتألمها من النقص والقبيح بالغريزة الفضلى غريزة حب الكمال فهو كمال لها خلافا لأولي الوقاحة الذين يعدونه ضعفا ونقصا. وانما النقص الافراط في هذه الصفة بحيث تضعف عن الاقدام على الشيء الحسن النافع اتقاء لذم من لايعرف حسنه أو لايعترف به

والمثل في اللغة الشبه والشبيه وضربه عبارة عن إيقاعه وبيانه وهو في الكلام أن يذكر لحال من الاحوال مايناسبها ويشابهها ويظهر من حسنها أو قبحها ماكان خفياء ولما كان المراد به بيان الاحوال كان قصة وحكاية، واختير له لفظ الضرب لأنه يأتي عند ارادة التأثير وهيج الانفعال كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعا ينفذ أثره إلى قلبه ، وينتهي إلى أعماق نفسه ، ولكن في الكلام قلبا حيث جعل المثل هو المضروب وانما هو مضروب به . هذا الذي قاله الاستاذ وهو أبلغ في المعنى من جعل الضرب للمثل كضرب القبة والخيمة أو ضرب النقود .

واذا كان الغرض التأثير فالبلاغة تقضي بأن تضرب الامثال لما يراد تحقيره والتنفير عنه بحال الاشياء التي جرى العرف بتحقيرها ، واعتادت النفوس النفور منها ، ومثل هذا لايخفى على بليغ، ولا على عاقل أيضا ، ولذلك قال بعضهم : إن المنكرين لم يروا في القرآن شيئاً يعاب فتمحلوا بقولهم هذا

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً انه لدميم

وجروا في ذلك على عادة المتحذلقين المتكيسين[1] إذ يتحامون ذكر الالفاظ التي مدلولاتها حقيرة في العرف، واذا اضطروا لذكرها شفعوها بما يشفع لها كقولهم «أجلكم الله» واذا كان شأن المثل ماذكرنا وكان ذكر الاشياء التي ينفر منها من

(١) أي المتكلفين للحذق والكيس وهو الظرف يقال تكيس وتكايس

ذكرنا في الامثال التي يراد منها التنفير، هو الابلغ في التأثير الذي هو روح البلاغة وسرها، كان قوله تعالى ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ مبينا لشأن من شؤون كماله عز وجل في كتابه العزيز، وقاضيا على الذين يتحامون ذكر البعوضة وأمثالها بنقص العقل، وخسران ميزان الفضل، والمراد بما فوق البعوضة ما علاها وفاقها في مرتبة الصغر ومنها جنة النسم (الميكروبات) التي لا ترى إلا بالنظارات المكبرة (ميكرسكوب) وكانوا يضربون المثل بمخ النملة، وفي كلام بلغائهم: أسمع من قراد، وأطيش من فراشة، وأعز من مخ البعوضة. والمعنى ان الله تعالى لا يترك ضرب مثل مّا من الامثال حياء منه سواء كان بعوضة أو أصغر منها حجما، وأقل عند الناس شأنا،

ثم ذكر تعالى أن الناس في ذلك فريقان ﴿فاما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ لانه ليس نقصا في حد ذاته وقد جاء في كلامه تعالى فهو ليس نقصا في جانبه، وإنما هو حق لانه مبين للحق ومقرر له، وسائق إلى الاخذ به، بماله من التأثير في النفس، وذلك أن المعاني الكلية تعرض للذهن مجملة مبهمة فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرها، والمثل هو الذى يفصل اجمالها، ويوضح ابهامها، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها، ومشكاة الهداية ونبراسها، ورحم الله تعالى عبد القاهر الجرجاني امام البلاغة والواضع الاول لعلمي المعاني والبيان، ومؤلف أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لتحقيق اعجاز القرآن، حيث قال في كتابه الاول

«واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل اذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الاصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من اقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب اليها، واستثار لها من أقاصي الافئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا،

«فان كان مدحا كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهز للعطف، وأسرع للالف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة المادح، وأقضى له

بغرر المواهب والمنائح ، وأسير على الالسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر ،
«وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ،
«وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر .
«وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد ،
«وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفلّ ، وفي عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث
« وان كان وعظا كان أشفى للصدر ، وأدعى الى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلي الغياية ، ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ، ويشفي الغليل » الخ

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ فيجادلون في الحق بعد ما تبين ، ويمارون بالبرهان وقد تعين ، فيخرجون من الموضوع ، ويعرضون عن الحجة ، ويتتبعون الكلم المفردة ، حتى اذا ظفروا بكلمة لا يستعذبها ذوق المتظرفين ، ولا تدور على ألسنة المتكلفين ، أظهروا العجب منها ، وطفقوا يتساءلون عنها ﴿ فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ ولو أنصفوا لعرفوا ، ولكنهم ارتابوا في الحق فانصرفوا ، (وكان الانسان أكثر شيء جدلا) يذهب به جدله الى قياس رب العالمين ، بمتنطعي المتأدبين . وينكر على ربه المثل والقياس ، ولا ينكره على نفسه وعلى الناس

قال تعالى في جوابهم ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ أي يضل بالمثل أو بالكلام المضروب فيه المثل أولئك الذين يجعلونه شبهة على الانكار والريب ، ويهدي به الذين يقدرون الاشياء بغاياتها ، ويحكمون عليها بحسب فائدتها . وأنفع الكلام ما جلى الحقائق ، وهدى الى أقصد الطرائق ، وساق النفوس بقوة التأثير ، الى حسن المصير (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) فهؤلاء العالمون هم المؤمنون الذين يعلمون أنه الحق من ربهم وهم المهديون به ، وأما الذين قالوا (ماذا أراد الله) الخ ، أي الذين ينكرون المثل لكفرهم فهم الضالون به ، وقد بين شأنهم بقوله تعالى ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ فعرفت علة ضلالهم وهي الفسوق أي الخروج عن هداية الله تعالى في سننه في خلقه التي هداهم اليها بالعقل والمشاعر ، وبكتابه بالنسبة

إلى الذين أوتوه ، وليس المراد بالفاسقين ماهو معروف في الاصطلاحات الشرعية وهم العصاة بمادون الكفر من المعاصي فانه لا يصح هنا ، وتلك الاصطلاحات حادثة بعد التنزيل ، وقد كان التعبير يضل مشعراً بأن المثل هو منشأ الاضلال والهداية بذاته ، فنفى ذلك بهذه الجملة ليبين أن منشأ الضلال راسخ فيهم وفي أعمالهم وأحوالهم

ثم إن الآية تشعر بأن المهتدين في الكثرة كالضالين مع أن هؤلاء أكثر وكأن الحكمة في التسوية افادة أن المؤمنين المهديين على قلتهم أجل فائدة وأكثر نفعاً وأعظم آثاراً من أولئك الكفار الفاسقين الضالين على كثرتهم لأن المؤمنين كما قيل * قليل اذا عدوا كثير اذا شدوا * ولذلك جعل الواحد في القتال بعشرة في حال القوة والعزيمة ، وباثنين في حال الضعف ، قيل هو ضعف البدن ، وقيل بل ضعف البصيرة ، ولقد كان من أثر ذلك العدد القليل من المؤمنين الاولين ، أن سادوا جميع العالمين

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى المجد حتى عدّ ألف بواحد

ان الكرام كثير في البلاد وإن قلوا كما غيرهم قلّ وإن كثروا

وأما وجه تقديم الاضلال على الهداية فلان سببه ومنشأه من الكفر متقدم في الوجود ، وانما جاءت الآيات المبينة بالامثال لاخراجهم مما كانوا فيه من ظلمات الباطل إلى نور الحق ، فزادت الفاسقين رجساً على رجسهم ، لأن نور الفطرة قد انطفأ من أنفسهم ، بتماديهم في نقض العهد ، وقطع الوصل والافساد في الارض ، كما في الآية التالية لهذه . وقد علم بما ذكرنا أن في الآية لفاً ونشراً غير مرتب فان الضلال ذكر اولا وهو للفريق الثاني ، والهدى ذكر آخرا وهو للفريق الاول

هذا وإن ماتقدم تقريره في ضرب المثل وضلال قوم به وهداية آخرين ، هو مبني على أن المراد به المثل الكلامي كما عليه الجمهور ، أخذاً مما ورد في سبب النزول ، وتقدم عن بعضهم أن المراد بالمثل في الآية القدوة الذي يؤتم به ويهتدى بهديه ، وهذا المعنى المثل معروف وقد نطق به القرآن في قوله تعالى (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) وقوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون) وقال فيه (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني اسرائيل) فهذه الآية تهدينا

إلى فهم قوله تعالى (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما) وأن المراد به دحض شبهة الذين أنكروا نبوة النبي ﷺ وصلاحيته لأن يكون مثلا يقتدى به ، وهي أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الاسواق وهم المشركون ، والذين أنكروا أن يكون من العرب وهم اليهود .

وقد حكى هذه الشبهة عنهم في آيات كثيرة كأنهم يقولون : اذا كان بشراً مثلنا فكيف يدعي أنه رسول من الله يجب اتباعه ، ومثل كامل ضرب للاقتداء به ؟ (أأنزل الذكر عليه من بيننا) ولأي شيء لم يرسل الله ملكا ؟ ومنهم من قال (لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً) وقد أقام الله الحجة على هؤلاء بقوله (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) الخ ، وأتبعها بوعيد من أعرض عن الايمان بعد قيام البرهان وهم الكافرون ، وبشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المؤمنون ، وبعد تقرير الحجة وهي تحديهم بسورة من مثله كرّ على شبهتهم بالنقض وهي استبعاد أن يكون بشر رسولا من عنده ، ومحصله أن الله تعالى خالق كل شيء فيجعل ماشاء من المنفعة والفائدة فيما شاء ومن شاء من خلقه ويضرب به مثلا للناس يهتدون به ، وليس هذا نقصاً في جانب الالوهية فيستحيي من ضربها مثلا ، بل من الكمال والفضل أن يجعل في المخلوقات الضعيفة والمحتقرة في العرف كالبعوض فوائد ومنافع ، فكيف يستنكر أن يجعل من الانسان الكامل الذي كرمه وخلقه في أحسن تقويم مثلا وإماما يقتدي به قومه ويهتدون بهديه ؟ وبقية الكلام في الآية على هذا الوجه في معنى المثل هو نحو ما تقدم تقريره ، أو ظاهر منه أتم الظهور. [فان الذين آمنوا يعلمون أن هذا الامام الذي نصبه للناس مهما يكن ضعيفا قبل أن يقويه ببرهانه هو الحق الذي ثبت تأييده من ربهم ، والكافرون يقولون لمَ لم يبعث إلى الناس من هو خير منه في نظرهم ؟ وماذا يريد بأن يجعل لهم قدوة في أضعفهم وأهونهم؟ وهكذا تقول في قوله: يضل به كثيراً] الخ

وقد عهد من أهل البصيرة الاقتداء بالحيوانات والاستفادة من خصالها وأعمالها ، ويحكى عن بعض كبار الصوفية أنه قال : تعلمت المراقبة من القط ، وعن بعض حكماء المسلمين أنه قرأ كتابا نحواً من ثلاثين مرة فلم يفهمه فيئس منه وتركه

فرأى خنفسة تتسلق جداراً وتقع فعدّ عليها الوقوع فزاد على ثلاثين مرة ولم تيأس حتى تمكنت بعد ذلك من تسلقه والانتهاء إلى حيث أرادت ، فقال : لن أرضى أن تكون هذه الخنفساء أثبت مني وأقوى عزيمة ، فرجع الى الكتاب فقرأه حتى فهمه . ويقال إن (تيمور لنك) كانت تحدثه نفسه بالملك من أول نشأته ، على ما كان من فقره ومهانته ، فسرق مرة غنما (وكان لصا) ففطن له الراعي فرماه بسهمين أصابا كتفه ورجله فعطلاهما ، فأوى الى خربة وجعل يفكر في مهانته ويوبخ نفسه علي طمعها في الملك ، ولكنه رأى نملة تحمل تبنة وتصعد الى السقف وعند ماتبلغه تقع ثم تعود وظلت على ذلك عامة الليل حتى نجحت في الصباح ، فقال في نفسه والله لاأرضى بأن أكون أضعف عزيمة وأقل ثباتا من هذه النملة ، وأصرّ على عزمه حتى صار ملكا وكان من أمره ما كان

(٢٧) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

وصف الضالين بالفسوق ثم بين من حال فسوقهم نقض العهد الموثق ، وقطع مايجب أن يوصل ، والافساد في الارض ، وسجل بذلك عليهم الخسران وحصرهم في مضيقه ، بحيث لا يسلم منه إلا من رجع عن فسوقه ، (اقول) فعلم بهذا ان المراد باسناد الاضلال اليه تعالى في الآية السابقة بيان سنته تعالى في اصحاب هذه الاعمال من الفساق وهو انهم يضلون حتى بما هو سبب من اشد اسباب الهداية تأثيرا وهو المثل المذكور بسبب رسوخهم في الفسق ونقضهم للعهد الخ . وليس المعنى انه تعالى خلق الضلال فيهم خلقا واجبرهم عليه اجبارا

العهد هنا لفظ مجمل لم يتقدم الآيات مايشعر به ، ولم يتل فيما تلاها مايبينه ، وكذلك ماأمر الله به أن يوصل، ليس في سابق الآيات ولا في لاحقها مايفسره ويبين المراد منه ، فما المعنى الذي يتبادر منهما الى افهام المخاطبين ، ويصح أن يؤخذ من حال أولئك الفاسقين، الذين أنكروا على الله أن يضرب مثلا يقتدى به

من البشر أو من العرب، أو الذين أنكروا الوحي لمجيء الامثال القولية فيه بما يعد حقيراً من المخلوقات في عرف المتكبرين والمتظرفين منهم؟ دل ذكر العهد والسكوت عما يفسره، واطلاق ماأمر الله به أن يوصل بدون بيان مايفصله، على أن الله تعالى ماوصفهم إلا بما هم متصفون به، ولا حاجة إلى بيان المجمل بالقول اذا كان الوجود قدتكفل ببيانه، والواقع قد فسره بلسانه، يرشد إلى فهم العهد الالهي هنا ماقلناه في معنى الفسوق فان الفاسقين هم ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ فاذا كان معنى الفسوق الخروج عن سنن الله تعالى في خلقه التي هداهم اليها بالعقل والمشاعر، وعن هداية الدين بالنسبة إلى الذين أوتوه خاصة، فعهد الله تعالى هو ماأخذهم به بمنحهم مايفهمون به هذه السنن المعهودة للناس بالنظر والاعتبار، والتجربة والاختبار، أو العقل والحواس المرشدة اليها، وهي عامة، والحجة بها قائمة على كل من وهب نعمة العقل وبلغ سن الرشد سليم الحواس، ونقضه عبارة عن عدم استعمال تلك المواهب استعمالا صحيحا حتى كأنهم فقدوها وخرجوا من حكمها، كما قال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لايبصرون بها، ولهم آذان لايسمعون بها، أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وكما قال فيهم أيضا (صم بكم عمي فهم لايعقلون)

هذا هو القسم الاول من العهد الالهي وهو العام الشامل، والاساس للقسم الثاني المكمل الذي هو الدين، فالعهد فطري خلقي، وديني شرعي، فالمشركون نقضوا الاول، وأهل الكتاب الذين لم يقوموا بحقه نقضوا الاول والثاني جميعا، وأعني بالناقضين من أنكر المثل من الفريقين . والميثاق اسم لما يوثق به الشيء ويكون محكما يعسر نقضه، والله تعالى قد وثق العهد الفطري بجعل العقول بعد الرشد قابلة لادراك السنن الالهية في الخلق، ووثق العهد الديني بما أيد به الانبياء من الآيات البينات، والاحكام المحكمات، وقد وثق العهد الاول بالعهد الثاني أيضا، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله فاسق عن سننه في تقويم البنية البشرية وانمائها، وابلاغ قواها وملكاتها حد الكمال الانساني الممكن لها

وأما قوله ﴿ ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ﴾ ففيه من الاجمال نحو ما في نقض العهد،

وليس هو بمعناه على طريق التأكيد ، وإنما هو وصف مستقل جاء متمما لما سبقه وهذا الامر نوعان : أمر تكوين وهو ماعليه الخلق من النظام والسنن المحكمة ، وقد سمى الله تعالى التكوين أمراً عما عبر عنه بقوله (كن) وأمر تشريع وهو ماأوحاه إلى أنبيائه وأمر الناس بالاخذ به ، ومن النوع الاول ترتيب النتائج على المقدمات ، ووصل الأدلة بالمدلولات ، وإفضاء الاسباب الى المسببات ، ومعرفة المنافع والمضار بالغايات ، فمن أنكر نبوة النبي بعدماقام الدليل على صدقه ، أو أنكر سلطان الله على عباده بعد ماشهدت له بها آثاره في خلقه ، فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل بمقتضى التكوين الفطري — وكذلك من أنكر شيئاً مما علم أنه جاء به الرسول . لانه إن كان من الاصول الاعتقادية ففيه القطع بين الدليل والمدلول ، وإن كان من الاحكام العملية ففيه القطع بين المبادىء والغايات ، لان كل ما أمر الدين به قطعاً فهو نافع ومنفعته تثبتها التجربة والدليل ، وكل مانهى عنه حتما فلا بد أن تكون عاقبته مضرة ، فالذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه هم الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل غايته ، أما بالنسبة إلى الايمان بالله تعالى وبالنبوة فيقطعون ماأمر به بمقتضى التكوين والنظام الفطري ، وأما بالنسبة إلى الاحكام فيقطعون ما أمر به في كتبه أمر تشريع وتكليف ، وصلة الارحام تدخل في كل من القسمين

اذا كان مشركو العرب قد نقضوا عهد الفطرة وقطعوا ماأمر الله به أن يوصل بمقتضاها بتكذيبهم النبي ﷺ وإيذائه وهو ذو رحم بهم . فالمكذبون من أهل الكتابين قد قطعوا صلات الامرين كما نقضوا العهدين . فان الله تعالى قد بشرهم في الكتب المنزلة على أنبيائهم بالنبي ﷺ لانه ذكر للمبشر به صفات وأعمالا وأحوالا تنطبق عليه أتم الانطباق فحرفوا وأولوا واجتهدوا في صرفها عنه وهم متعمدون (وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) ومنهم من يحمل تلك الصفات والعلامات على غيره ، ومنهم ينتظر مبعوثا آخر يجيء الزمان به

التعبير بالقطع هنا أبلغ من التعبير بالنقض ولذلك جاء بعده متمما له ، كأن عهد الله تعالى إلى الناس حبل محكم الطاقات موثق الفتل ، وكأن هذا الحبل قد وصل بحكمة أمر التكوين وحكم أمر التشريع بين جمع المنافع التي تنفع الناس ،

فلم يكتف أولئك الفاسقون المنكرون للمثل الذي ضربه الله لعباده بنقض حبل العهد الالهي ، وحل طاقاته ونكث فتله حتى قطعوه قطعا ، وأفسدوا بذلك نظام الفطرة ونظام الهداية الدينية أصلا وفرعا ، ولذلك عقب هذا الوصف بقوله ﴿ ويفسدون في الارض ﴾ وأي افساد أكبر من افساد من أهمل هداية العقل وهداية الدين ، وقطع الصلة بين المقدمات والنتائج ، وبين المطالب والأدلة والبراهين ، من كان هذا شأنه فهو فاسد في نفسه ووجوده في الارض مفسد لاهله ، لأن شره يتعدى كالاجرب يعدي السليم . ولذلك ورد في السنة النهي عن قرناء السوء ، والمشاهدة والتجربة مؤيدة للسنة ومصدقة لها ، خصوصا اذا قعدوا في سبيل الله يصدون عنها ويبغونها عوجا ، فان افسادهم يكون أشد انتشاراً وأشمل خساراً

ولما كان افساد هؤلاء عاما للعقائد والاخلاق والاعمال لان علته فقد الهدايتين هداية الفطرة وهداية الدين — سجل عليهم الخسران وحصره فيهم بقوله ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة : أما خسرانهم في الدنيا فهو ظاهر لارباب البصائر الصافية ، والفضائل السامية ، ولكنه يخفى على الاكثرين ، بالنسبة إلى الاغنياء من أولئك الخاسرين ، يرونهم متمتعين بلذات الدنيا وشهواتها ، فيحسبون أنهم مغبوطون سعداء بها ، فيكون هذا الحسبان من آلات الافساد . ولو سبروا أغوارهم ، وبلوا أخبارهم ، لأدركوا أن ماهم فيه من ظلمة النفس وضيق العطن وفساد الاخلاق ينغص عليهم أكثر لذاتهم ، ويقذف بهم إلى الافراط الذي يولد الامراض الجسدية والنفسية ، ويثير في نفوسهم كوامن الوساوس ، ويجعل عقولهم كالكرة تتقاذفها صوالجة الاوهام ، وأن حب الراحة يوقعهم في تعب لا نهاية له ، وهو تعب البطالة والكسل أو العمل الاضطراري . ومن لا يذوق لذة العمل الاختياري لا يذوق لذة الراحة الحقيقية ، لان الله تعالى لم يضع الراحة في غير العمل ، وانما سعادة الدنيا بصحة الجسم والعقل وأدب النفس الذي يرشد اليه الدين ، فمن فقد هذه الاشياء فقد خسر الدنيا والآخرة و (ذلك هو الخسران المبين)

(٢٨) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٩) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الكلام متصل بما قبله ومرتبط به ارتباطا محكما والخطاب للفاسقين الذين يضلون بالمثل فانه وصفهم أولا بنقض العهد الالهي الموثق ، وقطع ما أمر به سبحانه أن يوصل ، سواء كان الامر أمر تكوين وهو السنن الكونية ، أو امر تشريع وهو الديانة السماوية ، ثم بعد هذا البيان جاء بهذا الاستفهام التعجبي عن صفة كفرهم مقترنا بالبرهان الناصع على انه لا وجه له ، ولا شبهة تسوغ الاقامة عليه ، فقال ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ اي بأي صفة من صفات الكفر بالله تعالى تأخذون ، وعلى أية شبهة فيه تعتمدون ، وحالكم في موتتيكم وحياتيكم تأبي عليكم ذلك ولا تدع لكم عذراً فيه؟ وبين هذه الحال بقوله ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ أي والحال انكم كنتم قبل هذه النشأة الاولى من حياتكم الدنيا أمواتا منبثة اجزاؤكم في الارض ، بعضها في طبقتها الجامدة وبعضها في طبقتها السائلة وبعضها في طبقتها الغازية (الهوائية) لافرق في ذلك بينها وبين أجزاء سائر الحيوان والنبات ، فخلقكم أطوارا من سلالة من طين ، فكنتم بالطور الأخير في أحسن تقويم ، وفضلكم على غيركم بما وهبكم من العقل والادراك ، وما سخر لكم من الكائنات ﴿ ثم يميتكم ﴾ بقبض الروح الحي الذي به نظام حياتكم هذه فتنحل أبدانكم بمفارقته إياها وتعود الى أصلها الميت وتنبث في طبقات الارض وتدغم في عوالمها ، حتى ينعدم هذا الوجود الخاص بها ﴿ ثم يحييكم ﴾ حياة ثانية كما أحياكم بعد الموتة الاولى بلا فرق الا ما تكون به الحياة الثانية أرقى في مرتبة الوجود وأكمل لمن يزكون أنفسهم في تلك ، وأدنى منها وأسفل فيمن يدسونها ويفسدون فطرتها (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)

﴿ ثم اليه ترجعون ﴾ فينبئكم بما عملتم ، ويحاسبكم على ما قدمتم ، ويجازيكم به .
وأقول أن تراخي الارجاع الى الله تعالى عن حياة البعث عبارة عن تأخير الحساب والجزاء وطول زمن الوقوف والانتظار كما ورد في حديث الشفاعة العظمى وغيره .
فاذا كان هذا شأنكم معه وهذا فضله عليكم، وهذا مبدأكم وذلك منتهاكم ، فكيف تكفرون به وتنكرون عليه أن يضرب لكم مثلا تهتدون به ،ويبعث فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياته ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون من قيام مصالحكم في حياتكم الأولى، وسعادتكم في حياتكم الأخرى ؟

لايقال كيف يحتج عليهم بالحياة الثانية قبل الايمان بالوحي الذي هو دليلها ومثبتها ؟ لانه احتجاج على مجموع الناس بما عليه الاكثرون منهم ، ولا عبرة بالشذاذ المنكرين للبعث في هذا المقام لان الاحتجاج بالحياة الاولى بعد الموتة الاولى كاف للتعجب من كفرهم بالله وانكارهم عليه أن يضرب مثلا ما لهداية الناس زعما أن هذا لايليق بعظمته ، فان من أوجد هذا الانسان الكريم ، وجعله في أحسن تقويم، وركب صورته من تلك الذرات الصغيرة، والنطفة المهينة الحقيرة ، والعلقة الدموية أو الدودية، والمضغة اللحمية، (لايستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) والكلام مسوق لابطال شبه منكري المثل والقرآن الذي جاء به ، لا لابطال شبه منكري البعث بلوامع شهبه، ثم إن تمثيل احدى الحياتين بعد الموت بالاخرى داحض لحجة من يزعم عدم إمكان الثانية، لان ماجاز في أحد المثلين جاز في الآخر، والكلام في اثبات الوحي الالهي للنبي المرسل من البشر والايمان بالبعث تابع له

ثم بعد بيان بعض آياته في أنفسهم بذكر المبدأ والمنتهى ذكرهم بآياته في الآفاق فقال ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ﴾ فالكلام على اتصاله وترتيبه، وانتظام جواهره في سلك أسلوبه ، فليس في قوله كيف تكفرون الخ انتقال لاثبات البعث كما قال بعض المفسرين ، غفلة عن هذا الاتصال المتين ، ولعمري ان وجوه الاتصال بين الآيات ، وما فيها من دقائق المناسبات ، لهي ضرب من ضروب البلاغة ، وفن من فنون الاعجاز ، اذا أمكن للبشر الاشراف عليه ، فلا يمكنهم البلوغ اليه ، والكلام في البعث في القرآن كثير جداً فلا حاجة الى الاسراع اليه هنا

يصور لنا قوله تعالى (خلق لكم) قدرته الكاملة ، ونعمه الشاملة ، وأي قدرة أكبر من قدرة الخالق ؟ وأي نعمة أكمل من جعل كل ما في الارض مهيئاً لنا ، ومعداً لمنافعنا ؟ وللانتفاع بالارض طريقان (أحدهما) الانتفاع باعيانها في الحياة الجسدية (وثانيهما) النظر والاعتبار بها في الحياة العقلية، والارض هي مافي الجهة السفلى ، أي ما تحت أرجلنا ، كما أن المراد بالسماء كل مافي الجهة العليا أي فوق رءوسنا ، وإننا ننتفع بكل مافي الارض برها وبحرها من حيوان ونبات وجماد ، ومالا تصل اليه أيدينا ننتفع فيه بعقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته . والتعبير بفي يتناول مافي جوف الارض من المعادن بالنص الصريح

(وأقول هنا) إن هذه الجملة هي نص الدليل القطعي على القاعدة المعروفة عند الفقهاء « ان الاصل في الاشياء المخلوقة الاباحة » والمراد إباحة الانتفاع بها أكلا وشربا ولباساً وتداويا وركوبا وزينة ، وبهذا التفصيل تدخل الاشياء التي يضر استعمالها في بعض الاشياء وينفع في بعض ، كالسموم التي يضر أكلها وشربها وينفع التداوي بها ، وليس لمخلوق حق في تحريم شيء أباحه الرب لعباده تدينا به إلا بوحيه وإذنه (قل ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا * قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون)؟ ومايحظره الطبيب على المريض من طعام حلال في نفسه ومايمنع الحاكم العادل الناس من التصرف فيه من المباحات لدفع مفسدة أو رعاية مصلحة ـ فليس من التحريم الديني للشيء ولا يكون دائماً ، وإنما يتبعان في ذلك كما يأمران به بحق وعدل مادامت علته قائمة

قال تعالى ﴿ ثم استوى الى السماء ﴾ يقال استوى الى الشيء إذا قصد اليه قصداً مستويا خاصا به لايلوي على غيره . وقال الراغب اذا تعدى استوى بإلى اقتضى الانتهاء إلى الشيء إما بالذات وإما بالتدبير ، والمراد ان ارادته توجهت إلى مادة السماء كما قال في سورة فصلت (ثم استوى الى السماء وهي دخان) الخ

﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ فأتم خلقهن من تلك المادة الدخانية فجعلهن سبع سموات تامات منتظمات الخلق . وهذا الترتيب يوافق ما كان معروفا عند اليهود عن سيدنا موسى عليه السلام من أن الله تعالى خلق الارض أولا ، ثم

خاق السموات والنور، ولا مانع من الأخذ بظاهر الآية فان الخلق غير التسوية ألا ترى ان الانسان في طور النطفة والعلقة يكون مخلوقا ولكنه لا يكون بشرا سويا في أحسن تقويم كما يكون عند انشائه خلقا آخر، وسنبين ان شاء الله تعالى عند تفسير قوله تعالى (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما) أن العالم كان شيئا واحدا ثم فصله الله تعالى بالخلق تفصيلا، وقدره تقديراً، فلا مانع اذن من أن يكون خلق الارض وما فيها سابقا على تسوية السماء سبعا، نعم ان هذا من أسرار الخلقة التي لا نعرفها وربما يتوهم أن هذه الآية تناقض أو تخالف قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء وأنوارها (٧٩: ٣٠ والارض بعد ذلك دحاها) والجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن البعدية ليست بعدية الزمان ولكنها البعدية في الذكر وهي معروفة في كلام العرب وغيرهم فلا بعد في أن تقول فعلت كذا لفلان وأحسنت عليه بكذا وبعد ذلك ساعدته في عمل كذا كما تقول وزيادة على ذلك ساعدته في عمله، تريد نوعا آخر من أنواع الاحسان، من غير ملاحظة التأخر في الزمان (ثانيهما) أن الذي كان بعد خلق السماء هو دحو الارض أي جعلها ممهدة مدحوة قابلة للسكنى والاستعمار لا مجرد خلقها وتقدير أقواتها فيها، وخلق الله وتقديره لم ينقطع من الارض ولا ينقطع منها مادامت وكذلك يقال في غيرها

(وأزيد على ذلك الآن) أن الدحو في أصل اللغة دحرجة الاشياء القابلة للدحرجة كالجوز والكرى والحصا ورميها ويسمون المطر الداحي لانه يدحو الحصى وكذا اللاعب بالجوز. وفي حديث أبي رافع كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحي وهي أحجار أمثال القرصة كانوا يحفرون ويدحون فيها بتلك الاحجار، فان وقع الحجر فيها غلب صاحبها وإن لم يقع غُلب، ذكره في اللسان وقال بعده والدحو هو رمي اللاعب بالحجر والجوز وغيره. وأقول إن ماذكره وأعاد القول فيه من لعبة الدحو بالحجارة المستديرة كالقرصة لايزال مألوفا عند الصبيان في بلادنا ويسمونه لعب الاكرة، ويحرفها بعضهم فيقول الدكرة. وقال الراغب في مفردات القرآن قال تعالى (والارض بعد ذلك دحاها) أي أزالها عن مقرها

كقوله (يوم ترجف الارض والجبال) وهو من قولهم دحا المطر الحصى الخ ، ولكن فرقا بين دحو الارض ودحرجتها من مكانها عند التكوين ، ورجفها قبيل خرابها عند قيام الساعة ، وقد يكون المراد به ـ والله أعلم ـ أنه دحاها عند ما فتقها هي والسموات من المادة الدخانية التي كانت رتقا وفيه دلالة أو إشارة ـ على الاقل ـ إلى أنها كرة أو كالكرة في الاستدارة ، ولا يبعد أن يكون المراد بدحوها ودحرجتها حركتها بقدرته تعالى في فلكها (وكل في ذلك يسبحون) وهذا لا ينافي ماقيل من ان معناه بسطها أي وسعها ومد فيها ، وأنه سطحها أي جعل لها سطحا واسعا يعيش عليه الناس وغيرهم ، فمن جعل مسألة كرويتها وسطحها أمرين متعارضين بقول بكل منهما قوم يطعنون في الآخرين فقد ضيقوا من اللغة والدين واسعا بقلة بضاعتهم فيهما معا

وحاصل القول أن الله تعالى خلق هذه الارض وهذه السموات التي فوقنا بالتدريج وما أشهدنا خلقهن ، وانما ذكر لنا ماذكره للاستدلال على قدرته وحكمته وللامتنان علينا بنعمته ، لا لبيان تاريخ تكوينها بالترتيب ، لان هذا ليس من مقاصد الدين ، فابتداء الخلق غير معروف ولا ترتيبه إلا أن تسوية السماء سبع سماوات يظهر أنه كان بعد تكوين الارض ، ويظهر أن السماء كانت موجودة الا أنها لم تكن سبعا ، ولذلك ذكر الاستواء اليها وقال (فسواهن سبع سموات) فنؤمن بأنه فعل ذلك لحكم يعلمها وقد عرض علينا ذلك لنتدبر ونتفكر ، فمن أراد أن يزداد علما فليطلبه من البحث في الكون [وعليه بدراسة ما كتب الباحثون فيه من قبل ، وما اكتشف المكتشفون من شؤونه وليأخذ من ذلك بما قام عليه الدليل الصحيح لا بما يتخرص به المتخرصون ، ويخترعونه من الاوهام والظنون] وحسبه أن الكتاب أرشده إلى ذلك وأباحه له

هذه الاباحة للنظر والبحث في الكون بل هذا الارشاد اليها بالصيغ التي تبعث الهمم وتشوق النفوس ككون كل مافي الارض مخلوقا لنا محبوسا على منافعنا هو مما امتاز به الاسلام في ترقية الانسان فقد خاطبنا القرآن بهذا على حين أن أهل الكتاب كانوا متفقين في تقاليدهم وسيرتهم العملية على أن العقل والدين ضدان

لايجتمعان ، والعلم والدين خصمان لايتفقان ، وأن جميع مايستنتجه العقل خارجا عن نص الكتاب فهو باطل

ولذلك جاء القرآن يلحُّ أشد الالحاح بالنظر العقليّ ، والتفكر والتدبر والتذكر ، فلا تقرأ منه قليلا الا وتراه يعرض عليك الأكوان ويأمرك بالنظر فيها واستخراج اسرارها ، واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها (١٠ : قل انظروا ماذا في السموات والارض ٢٩ : ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ٤٦:٢٢ أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ١٧:٨٨ أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً . واكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به ، ومن فوائد الحث على النظر في الخليقة للوقوف على أسرارها بقدر الطاقة ، واستخراج علومها لترقية النوع الانساني الذي خلقت هي لاجله ـ مقاومة تلك التقاليد الفاسدة التي كان عليها أهل الكتاب فأودت بهم وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به

كانت أوروبا المسيحية في غمرة من الجهل، وظلمات من الفتن، تسيل الدماء فيها أنهاراً لأجل الدين ، وباسم الدين وللاكراه على الدين ، ثم فاض طوفان تعصبها على المشرق ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبسا من دين الاسلام وعلوم أهله ، فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا إن لنا الحق في أن نتفكر ، وأن نعلم وأن نستدل ، فحاربهم الدين ورجاله حربا عوانا انتهت بظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله ، وبعدَ غسل الدماء المسفوكة قام منذ مائتي سنة إلى اليوم رجال منهم يسمون هذه المدنية القائمة على دعائم العلم : المدنية المسيحية ، ويقولون بوجوب محق سائر الاديان ومحوها بعد انهزامها من امام الدين المسيحي لأنها لا تتفق مع العلم وفي مقدمتها الدين الاسلامي ، وحجتهم على ذلك حال المسلمين ، نعم إن المسلمين أمسوا وراء الامم كلها في العلم حتى سقطوا في جاهلية أشد جهلا من الجاهلية الاولى ، فجهلوا الارض التي هم عليها ، وضعفوا عن استخراج منافعها ، فجاء الاجنبي يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون ، وكتابهم قائم على صراطه يصيح بهم (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا *ـ وسخر لكم مافي السموات

وما في الارض جميعا منه ـ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا)الاية وأمثال ذلك ولكنهم (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) الا من رحم الله ، ولو عقلوا لعادوا ، ولو عادوا لاستفادوا ، وبلغوا ما أرادوا ، وها نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلهم يرجعون ، ولا نيأس من روح الله (انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

ثم ختم الآية سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أي فهو المحيط بكيفية التكوين وحكمته، وبما ينفع الناس بيانه ، وإذا كان العاقل يدرك أن هذا النظام المحكم لا يكون إلا من عليم حكيم فكيف يصح له أن ينكر عليه أن يرسل من يشاء من خلقه لهداية من شاء من عباده ؟ فهذا الآخر يتصل بأول الآية في تقرير رسالة النبي ﷺ وإبطال شبه الذين أنكروا أن يكون البشر رسولا، والذين أنكروا أن يكون من العرب رسول ، لان قصارى ذلك كله اعتراض الجاهلين ، على من هو بكل شيء عليم

(٣٠) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

(تمهيد للقصة ومذهب السلف والخلف في المتشابهات)

إن أمر الخلقة وكيفية التكوين من الشؤون الالهية التي يعز الوقوف عليها كما هي ، وقد قص الله علينا في هذه الآيات خبر النشأة الانسانية على نحو ما يؤثر عن أهل الكتاب من قبلنا ، ومثل لنا المعاني في صور محسوسة، وأبرز لنا الحكم والاسرار باسلوب المناظرة والحوار ، كما هي سنته في مخاطبة الخلق ،وبيان الحق، وقد ذهب الاستاذ إلى أن هذه الآيات من المتشابهات التي لا يمكن حملها على ظاهرها ، لانها بحسب قانون التخاطب اما استشارة وذلك محال على الله تعالى ، واما إخبار منه سبحانه للملائكة واعتراض منهم ومحاجة وجدال ، وذلك لا يليق بالله تعالى

أيضاً ولا بملائكته ، ولا يجامع ماجاء به الدين من وصف الملائكة ككونهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقد أورد الإستاذ مقدمة تمهيدية لفهم القصة فقال ما مثاله :

أجمعت الامة الاسلامية على أن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقات (١) وقدقام البرهان العقلي والبرهان النقلي على هذه العقيدة فكانت هي الاصل المحكم في الاعتقاد الذي يجب أن يرداليه غيره ، وهو التنزيه ، فاذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء ينافي ظاهره التنزيه فللمسلمين فيه طريقتان

(إحداهما) طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه النقل كقوله تعالى (ليس كمثله شيء) وقوله عز وجل (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وتفويض الامر إلى الله تعالى في فهم حقيقة ذلك مع العلم بأن الله يعلمنا بمضمون كلامه مانستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ويأتينا في ذلك بما يقرب المعاني من عقولنا ويصورها لخيلاتنا

(والثانية) طريقة الخلف وهي التأويل يقولون إن قواعد الدين الاسلامي وضعت على أساس العقل فلا يخرج شيء منها عن المعقول فاذا جزم العقل بشيء وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لايراد به ظاهره ولابد له من معني موافق يحمل عليه فينبغي طلبه بالتأويل (قال الاستاذ) وأنا على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته وعالم الغيب . واننا نسير في فهم الآيات على كلا الطريقتين لانه لا بد للكلام من فائدة يحمل عليها لان الله عز وجل لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى

(وأقول) أنا ـ مؤلف هذا التفسير : انني ولله الحمد على طريقة السلف وهديهم عليها أحيا وعليها أموت إن شاء الله تعالى وانما أذكر من كلام شيخنا ومن كلام غيره ومن تلقاء نفسي بعض التأويلات لما ثبت عندي باختباري الناس أن ما انتشر في الامة من نظريات الفلاسفة ومذاهب المبتدعة المتقدمين والمتأخرين جعل قبول مذهب السلف واعتقاده يتوقف في الغالب على تلقيه من الصغر بالبيان الصحيح

(١) كان الاصل انه تعالى ليس بجسم ولا يشبه الاجسام ـ وهو قاصر

وتخطئة مايخالفه ، أو داول ممارسة الرد عليهم ، ولا نعرف في كتب علماء السنة أنفع في الجمع بين النقل والعقل من كتب شيخي الاسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى ، واني اقول عن نفسي انى لم يطمئن قلبي بمذهب السلف تفصيلا الا بممارسة هذه الكتب

فنحن قد سمعنا بآذاننا شبهات على بعض الآيات والاحاديث لم يسهل علينا دفعها واقناع أصحابها بصدق كلام الله وكلام رسوله الا بضرب من التأويل، وأمثال تقربها من عقولهم ومعلوماتهم أحسن التقريب ، وقد غلط كثير من علماء الكلام والمفسرين في بيان مذهب السلف وفي معاني التفويض والتأويل، وتجد تفصيل ذلك لنافي أوائل تفسير سورة آل عمران كما أخطأ من قالوا إن الدليل العقلي هو الاصل فيرد اليه الدليل السمعي ويجب تأويله لأجل موافقته مطلقا، والحق كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية: إن كلا من الدليلين إما قطعي واما غير قطعي، فالقطعيان لايمكن أن يتعارضا حتى نرجح أحدهما على الآخر ، واذا تعارض ظني من كل منهما مع قطعي وجب ترجيح القطعي مطلقا ، واذا تعارض ظني مع ظني من كل منهما رجحنا المنقول على المعقول لأن ماندركه بغلبة الظن من كلام الله ورسوله أولى بالاتباع مما ندركه بغلبة الظن من نظرياتنا العقلية التي يكثر فيها الخطأ جداً، فظواهر الآيات في خلق آدم مثلا مقدم في الاعتقاد على النظريات المخالفة لها من أقوال الباحثين في أسرار الخلق وتعليل أطواره و نظامه مادامت ظنية لم تبلغ درجة القطع

وينبغي أن تعلم أيها القارىء المؤمن أن من الخير لك أن تطمئن قلبا بمذهب السلف ولا تحفل بغيره ، فان لم يطمئن قلبك الا بتأويل يرضاه أسلوب اللغة العربية فلا حرج عليك ، فان الله لايكلف نفسا إلا وسعها ، وأئمة علماء السلف قد تأولوا بعض الظواهر كما فعل الامام احمد وغيره في آيات المعية . وآخرون في غيرها ، والذي عليك قبل كل شيء أن توقن بأن كلام الله كله حق ، والا تؤوّل شيئا منه بسوء القصد . وكذا ماصح عن رسوله (ص) من أمر الدين بغير شبهة . والتفسير الموافق للغة العرب لايسمى تأويلا وانما يجب .. تنزيه الخالق وعدم تشبيه عالم الغيب بعالم الشهادة من كل وجه

إذا تقرر هذا فهاك تفسير هذا السياق بماقرره شيخنا في الازهر قال ما مثاله:

أما الملائكة فيقول السلف فيهم انهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم وببعض عملهم فيجب علينا الايمان بهم ، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم ، فنفوض علمها الى الله تعالى، فاذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك ولكننا نقول انها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور إذ لو كانت كذلك لرأيناها، واذا ورد أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار فاننا نستدل بذلك على أن في الكون عالما آخر ألطف من هذا العالم المحسوس وأن له علاقة بنظامه وأحكامه ، والعقل لايحكم باستحالة هذا بل يحكم بامكانه لذاته ، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به

(قال الاستاذ) وقد بحث أناس في جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم ولكن من وفقهم الله تعالى على هذا السر قليلون ، والدين إنما شرع للناس كافة، فكان الصواب الاكتفاء بالايمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته لان تكليف الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق ، ومن خصه الله تعالى بزيادة في العلم فذلك فضله يؤتيه من يشاء ، فقد ورد في الصحيح عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في هذا العلم اللدني الخاص وقد سئل هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء من العلم فقال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبداً فهما في القرآن الخ وأما ذلك الحوار في الآيات فهو شأن من شؤون الله تعالى مع ملائكته صوره لنا في هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب ، ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا ، وأن هناك معاني قصدت إفادتها بهذه العبارات وهي عبارة عن شأن من شؤونه تعالى قبل خلق آدم وأنه كان يعد له الكون ، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الانسان ، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله

وأما الفائدة فيما وراء البحث في حقيقة الملائكة وكيفية الخطاب بينهم وبين الله تعالى فهي من وجوه

(أحدها) ان الله تعالي في عظمته وجلاله يرضي لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه ، ومايخفى عليهم من أسراره في خلقه ، ولا سيما عند الحيرة ،

والسؤال يكون بالمقال ويكون بالحال والتوجه الى الله تعالى في استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سنته تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العملي والاستدلال العقلي والالهام الالهي) وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروفة لأحد من البشر فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك

(ثانيا) إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه مايخفى على الملائكة فنحن أولى بأن يخفى علينا، فلا مطمع للانسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلا

(ثالثها) أن الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم، وأجابهم عن سؤالهم لاقامة الدليل، بعد الارشاد الى الخضوع والتسليم، وذلك أنه بعد أن أخبرهم بأنه يعلم مالا يعلمون علم آدم الاسماء ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتي بيانه

(رابعها) تسلية النبي ﷺ عن تكذيب الناس، ومحاجتهم في النبوة بغير برهان على إنكار ما أنكروا وبطلان ماجحدوا، فاذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لايعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين، وبالانبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين، أي فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين، وترشد المسترشدين، وتأتي أهل الدعوة بسلطان مبين، وهذا الوجه هو الذي يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها. وكون الكلام لايزال في موضوع الكتاب وكونه لاريب فيه وفي الرسول وكونه يبلغ وحي الله تعالى ويهدي به عباده وفي اختلاف الناس فيهما، ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها مع كون الجميع في سياق موضوع واحد

وأما الخلف فمنهم من تكلم في حقيقة الملائكة ووضع لهم تعريفا ومنهم من أمسك عن ذلك وقد اتفقوا على أنهم يدركون ويعلمون. والقصة على مذهبهم وردت مورد التمثيل لتقرب من أفهام الخلق ماتفيدهم معرفته من حال النشأة الآدمية، ومالها من المكانة والخصوصية : أخبر الله الملائكة بأنه جاعل في الارض خليفة، ففهموا من ذلك أن الله يودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة أن يكون

ذا ارادة مطلقة واختيار في عمله غير محدود، وأن الترجيح بين مايتعارض من الاعمال التي تعن له تكون بحسب علمه ، وأن العلم اذا لم يكن محيطا بوجوه المصالح والمنافع فقد يوجه الارادة إلى خلاف المصلحة والحكمة وذلك هو الفساد ، وهو متعين لازم الوقوع ، لان العلم المحيط لايكون إلا لله تعالى ، فعجبوا كيف يخلق الله هذا النوع من الخلق وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون ، أو بلسان الحال والتوجه اليه لاستفاضة المعرفة بذلك وطلب البيان والحكمة، وعبر الله عن ذلك بالقول لأنه هو المعهود بالاستعلام والاستفهام عند البشر الذين أنزل القرآن لهدايتهم ، كما نسب القول إلى السموات والارض في قوله(قالتا أتينا طائعين) .

فأول ما ألقي اليهم من الالهام أو غيره من طرق الاعلام هو وجوب الخضوع والتسليم ، لمن هو بكل شيء عليم ، لان مايضيق عنه علم أحد ويحار في كيفيته يتسع له علم من هو أعلم منه ، ومن شأن الانسان أن يسلم لمن يعتقد أنه فوقه في العلم مايتصدى له مهما يكن بعيد الوقوع في اعتقاده ، ومثل الاستاذ لذلك بمشايخ الصوفية مع مريديهم ،

ومن ذلك اعتقاد جماهير الناس في بلاد الحضارة والصناعات في هذا العصر إمكان أمور وأعمال لم يكن أحد يتصور امكانها من قبل إلا بعض كبار علماء النظر ، فاذا قيل إنهم يحاولون عمل كذا فانهم يصدقونهم ، وإن لم يعقلوا كيف يعملونه

فان الذين يصنعون سلكا لنقل الاخبار بالكهرباء إلى الاماكن البعيدة في دقيقة أو دقائق قليلة يصدقون بأنهم يوصلون تلك الاخبار من غير سلك ، وقد كان ، ويصدقون بامكان إيجاد آلة تجمع بين نقل الصوت ورؤية المتكلم وهو ما يحاولون الآن ، وإذا قال لنا أهل هذه الصناعة إن ذلك ممكن الحصول صدقناهم فيما يقولون من غير تردد ، وليس تصديقنا تقليداً ولا تسليما أعمى كما يقال بل هو تصديق عن دليل ركنه قياس ما يكون على ماقد كان بعد العلم بوحدة الوسائل . والملائكة أعلم منا بشأن الله في أفعاله وانه العليم الحكيم ، فهم وإن فاجأهم العجب من خلق الخليفة يردهم إلي اليقين أدنى التنبيه ، ولذلك كان قوله تعالى (إني أعلم مالا تعلمون) جوابا مقنعا أي اقناع

على أن هذا النوع من التسليم للعالم القادر ربما لايذهب بالحيرة ولا يزيل الاضطراب من نفس المتعجب وإنما تسكن النفس ببروز ذلك الامر الذي كانت تعجب من بروزه الى عالم الوجود ووقوفها على أسراره وحكمه بالفعل ، ولذلك تفضل الله تعالى على الملائكة با كمال علمهم بحكمته في خلق هذا الخليفة الانساني وسره عند طلوع فجره (علم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة) كما سيأتي، فعلموا أن في فطرة هذا الخليفة واستعداده علم مالم يعلموا ، وتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة في الارض ، وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته ومقامه ، وناهيك بمقام العلم وفائدته ، وسر العالم وحكمته

فعلمنا أن السلف والخلف متفقون على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من شؤون المخلوقين ، وعصمة ملائكته عما لا يليق بهم من الاعتراض أو الانكار ، فلا فرق في هذه النتيجة بين تفويض وتسليم ، وتأويل وتفهيم ، والله بكل شيء عليم ، وهاك تفسير الآيات بالتفصيل

قد علمت مما تقدم أن الآيات متصلة بما قبلها من الكلام في الكتاب ومن جاء به ومن دعي اليه ، فهي تجلي حجة الرسول ودعوته من حيث إن الملائكة اذا كانوا محتاجين الى العلم ويستفيدونه بالتعلم من الله تعالى بالطريقة التي تناسب حالهم فالبشر أولى بالحاجة الى ذلك منهم لان طبيعة البشر جبلت على أن يكتسبوا كل شيء اكتسابا ، وهي من جهة أخرى تسلية له ﷺ ببيان أن البشر أولى من الملائكة بانكار مالم يحيطوا بعلمه حتى يعلموا ، وأنهم جبلوا على أن يتوبوا ويرجعوا بعد ان يخطئوا ويذنبوا ، وان الافساد في الارض وجحود الحق ومناصبة الداعي اليه ليس بدعا من قومه ، وإنما هو جبلة أهل الفكر وطبيعة البشر

ثم ان للمفسرين في (الخليفة) مذهبين: ذهب بعضهم الى أن هذا اللفظ يشعر بأنه كان في الارض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق ، وأنه انقرض ، وأن هذا الصنف الذي أخبر الله الملائكة بأن سيجعله خليفة في الارض سيحل محله ويخلفه ، كما قال بعد ذكر اهلاك القرون (ثم جعلناكم خلائف في الارض

من بعدهم) وقالوا ان ذلك الصنف البائد قد أفسد في الارض وسفك الدماء وان الملائكة استنبطوا سؤالهم بالقياس عليه ، لان الخليفة لابد أن يناسب من يخلفه ويكون من قبيله كما يتبادر الى الفهم ، ولكن لما لم يكن دليل على أنه يكون مثله من كل وجه وليس ذلك من مقتضى الخلافة أجاب الله الملائكة بأنه يعلم مالا يعلمون مما يمتاز به هذا الخليفة على من قبله ، وماله سبحانه في ذلك من الحكمة البالغة (قال الاستاذ) وإذا صح هذا القول فليس آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الارض وانما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه في الذات والمادة ، وتخالفها في بعض الاخلاق والسجايا .

هذا أحسن ما يجلى فيه هذا المذهب وأكثر ما قالوه فيه قد سرى الى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم ، ومنه أنه كان في الارض قبل آدم خلق يسمون بالحن والبن ، أو الطم والرم ، والاكثرون على أن الخلق الذين كانوا في الارض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن ، والقائلون منهم بالحن (بالمهملة) والبن قالوا انهم كانوا قبل الجن وقالوا ان هؤلاء عاثوا في الارض فساداً فأبادهم الله (كما تقدم آنفا) وقالوا إن الله تعالى أرسل اليهم إبليس في جند من الملائكة فحارب الجن فدمرهم وفرقهم في الجزائر والبحار. وليس لهم في الاسلام سند يحتج به على هذه القصص ، ولكن تقاليد الامم الموروثة في هذه المسألة تنبيء بامر ذي بال ، وهي متفقة فيه بالأجمال ، الا وهو ما قلناه من أن آدم ليس أول الاحياء العاقلة التي سكنت الارض .

هذا هو المذهب الاول في تفسير الخليفة ، وذهب الآخرون الى أن المراد إني جاعل في الارض خليفة عني ، ولهذا شاع أن الانسان خليفة الله في أرضه ، وقال تعالى (ياداود انا جعلناك خليفة في الارض) والظاهر والله أعلم أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته ولكن ما معنى هذه الخلافة وما المراد من هذا الاستخلاف ؟ هل هو استخلاف بعض الانسان على بعض أم استخلاف النوع على غيره ؟

جرت سنة الله في خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء منه في ذلك وكما أن الانسان أظهر أحكام الله وسننه ،

الوضعية (أي الشرعية لان الشرع وضع الهي) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما في كل ما ميز الله به الانسان على سائر المخلوقات : نطق الوحي ودل العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعا مختلفة ، وخص كل نوع غير نوع الانسان بشيء محدود معين لا يتعداه ، فأما مالا نعرفه الا من طريق الوحي كالملائكة فقد ورد في الآيات والاحاديث مايدل على أن وظائفه محدودة قال تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون* وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون * والصافات صفا ، فالزاجرات زجراً * والنازعات غرقا ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمراً) على قول من قال ان المراد بها الملائكة الى غير ذلك مما يدل على أنهم طوائف لكل طائفة وظيفة محدود ، وورد في الاحاديث أن منهم الساجد دائما والراكع دائما الى يوم القيامة

وأما مانعرفه بالنظر والاختبار فهو حال المعدن والجماد ولا علم له ولا عمل ، وحال النبات وانما تأثير حياته في نفسه فلو فرض أن له علماً وارادة فهما لا أثر لهما في جعل عمل النبات مبيناً لحكم الله وسننه في الخلق ، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها، فكل حي من الاحياء المحسوسة والغيبية فان له استعداداً محدوداً، وعلما إلهامياً محدوداً ،وعملا محدوداً ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لاحد لعلمه وارادته ، ولا حصر لاحكامه وسننه ، ولا نهاية لأعماله وتصرفه .

وأما الانسان فقد خلقه الله ضعيفا كما قال في كتابه (وخلق الانسان ضعيفا) وخلقه جاهلا كما قال (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر، وموضع لعجب المتعجب، لانه مع ضعفه يتصرف في الاقوياء، ومع جهله في نشأته يعلم جميع الاسماء ، يولد الحيوان عالما بالالهام ماينفعه وما يضره، وتكمل له قواه في زمن قليل ، ويولد الانسان وليس له من الالهام إلا الصراخ بالبكاء ، ثم يحس ويشعر بالتدريج البطيء بالنسبة إلى غيره من الحيوان ،ويعطى قوة أخرى تتصرف بشعوره واحساسه تصرفا يكون له به السلطان على هذه الكائنات ، فيسخرها ويذللها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة هي التي يسمونها العقل ولا يعقلون

سرها ، ولا يدركون حقيقتها وكنهها ، فهي التي تغني الانسان عن كل ماوهب للحيوان في أصل الفطرة من الكساء الذي يقيه البرد والحر ، والاعضاء التي يتناول بها غذاءه والتي يدافع بها عن نفسه ويسطو بها على عدوه ، وغير ذلك من المواهب التي يعطاها الحيوان بلا كسب ، حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان ،وسيكون له من ذلك مالا يصل اليه التقدير والحسبان

فالانسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولامحدود الرغائب ولامحدود العلم ولا محدود العمل ، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفا لاحد له باذن الله وتصريفه ، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والاحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته، وملكه الارض وسخر له عوالمها — أعطاه أحكاما وشرائع حدّ فيها لأعماله وأخلاقه حداً يحول دون بغي أفراده وطوائفه بعضهم على بعض ، فهي تساعده على بلوغ كماله لانهاسامر شدومرب للعقل الذي كان له كل تلك المزايا فلهذا كله جعله خليفته في الارض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة

ظهرت آثار الانسان في هذه الخلافة على الارض ونحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن والنبات ، وفي البر والبحر والهواء،فهو يتفنن ويبتدع ، ويكتشف ويخترع ، ويجدّ ويعمل،حتى غير شكل الارض فجعل الحزن سهلا ،والماحل خصبا ، والخراب عمرانا ، والبراري بحاراً أو خلجانا ، وولد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن كالليمون المسمى «يوسف أفندي» فان الله تعالى خلقه بيد الانسان وأنشأه بكسبه،وقد تصرف في أبناء جنسه من أنواع الحيوان كما يشاء بضروب التربية والتغذية والتوليد ، حتى ظهر التغير في خلقتها وخلائقها وأصنافها ، فصار منها الكبير والصغير، ومنها الاهلي والوحشي ، وهو ينتفع بكل نوع منها ويسخره لخدمته كماسخر القوى الطبيعية وسائر المخلوقات. أليس من حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى أن جعل الانسان بهذه المواهب خليفته في الارض،يقيم سننه: ويظهر عجائب صنعه، وأسرار خليقته ، وبدائع حكمه ومنافع أحكامه ؟ وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الانسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم ؟ واذا كان الانسان خليفة بهذا المعنى فكيف تعجب الملائكة منه

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض خليفة ﴾ بادروا إلى السؤال واستفهام الاستغراب و﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فيغفل بذلك عن تسبيحك وتقديسك ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ بلا غفلة ولافتور ؟ لاشك أن هذا السؤال نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة وما يقتضيه من العلم غير المحدود والارادة المطلقة ، وكون هذا العلم المصرف للارادة لايحصل إلا بالتدريج ، وكون عدم الاحاطة مدعاة للفساد ، والتنازع المفضي إلى سفك الدماء كما تقدم .

نعم إن هذا العلم الواسع لايعطاه فرد من أفراد الانسان ولامجموع النوع دفعة واحدة فيشابه علمه علم الله تعالى ، وكلما أوتي نصيباً منه ظهر له من جهله مالم يكن يعلم ، وكلما أعطي حظا من الأدب والعقل ظهر له ضعف عقله ، ولله درّ الشافعي حيث قال:

كلما أدّبني الدهـ ـر أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددت علما زادني علمـا بجهلي

فهو على سعة علم لم يؤت من العلم الالهي إلا قليلا ، وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الالهي ، ولذلك أجاب الله الملائكة بالعلم ﴿ قال إني أعلم مالا تعلمون ﴾ فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم ، ثم أظهر لهم أن الانسان يكون خليفة بالعلم وما يتبعه فقال

---

(٣١) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ (٣٢) قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٣) قَالَ يٰآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

تقدم في بيان معنى الخليفة أن علم الملائكة وعلمهم محدودان ، وأن علم

الانسان وعمله غير محدودين ، وبهذه الخاصة التي فطر الله الناس عليها كان الانسان أجدر بالخلافة من الملائكة ، وهذه هي حجة الله البالغة على الملائكة التي بينها لهم بعد ما نبههم إلى علمه المحيط بما لا يعلمون فقال ﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ﴾ أي أودع في نفسه علم جميع الاشياء من غير تحديد ولا تعيين ، فالمراد بالاسماء المسميات عبر عن المدلول بالدليل لشدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر . والعلم الحقيقي انما هو ادراك المعلومات أنفسها والالفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح، فهي تتغير وتختلف والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف

[قال الاستاذ] ثم إن الاسم قد يطلق اطلاقا صحيحا على ما يصل إلى الذهن من المعلوم أي صورة المعلوم في الذهن ، وبعبارة أخرى ما به يعلم الشيء عند العالم، فاسم الله مثلا هو ما به عرفناه في أذهاننا ، بحيث يقال إننا نؤمن بوجوده ، ونسند اليه صفاته ، فالاسماء هي ما به نعلم الاشياء وهي العلوم المطابقة للحقائق . والاسم بهذا الاطلاق هو الذي جرى الخلاف في أنه عين المسمى أو غيره ، وقد كان اليونانيون يطلقون على ما في الذهن من المعلوم لفظ الاسم ، والخلاف في أن ما في الذهن من الحقائق هو عينها أو صورتها مشهور كالخلاف في أن العلم عين المعلوم أو غير المعلوم ، وأما الخلاف في أن الاسم الذي هو اللفظ عين المسمى أو غيره فهو ما أخطأ فيه الناظرون لعدم الدقة في التمييز بين الاطلاقات لبداهة أن اللفظ غير معناه بالضرورة ، والاسم بذلك الاطلاق الذي ذكرناه هو الذي يتقدس ويتبارك ويتعالى (سبح اسم ربك الاعلى * تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام) فاسمه جل شأنه ما يمكننا أن نعلم منه ما نعلم من صفاته ، وما يشرق في أنفسنا من بهائه وجلاله ، ولا مانع من أن نريد من الاسماء هذا المعنى وهو لا يختلف في التأويل عما قالوه من ارادة المسميات ولكنه على ما نقول أظهر وأبين

(وأقول) تقدم لنا في أول سورة الفاتحة ان اسم الله تعالى يسبح ويعظم ومنه إسناد التسبيح إليه قولا وكتابة. وتسبيحه وتعظيمه بدون ذكر اسمه خاص بالقلب . ومن تعمد إهانة اسم الله تعالى يكفر كمن يتعمد إهانة كتابه

ثم إن الذي يتبادر إلى الفهم من صيغة التعليم هو التدريج قال تعالى (ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) وما كان ذلك إلا تدريجاً وهذا ظاهر في جميع الآيات التي فيها لفظ التعليم كقوله (وعلمك مالم تكن تعلم) وقوله (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) إلى غير ذلك — ولكن المتبادر من تعليم آدم الاسماء انه كان دفعة واحدة اذا أريد بآدم شخصه بالفعل أو بالقوة ولذلك قال شيخنا:

علم الله آدم كل شيء ولا فرق في ذلك بين أن يكون له هذا العلم في آن واحد أو في آنات متعددة والله قادر على كل شيء ، ثم إن هذه القوة العلمية عامة للنوع الآدمي كله ، ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الاسماء من أول يوم فيكفي في ثبوت هذه القوة لهم معرفة الاشياء بالبحث والاستدلال ، علم الله آدم الاسماء على نحو ما بينا ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ أي أطلعهم اطلاعا اجماليا بالالهام الذي يليق بحالهم على مجموع تلك الاشياء ولو عرضت على نفوسهم عرضاً تفصيلياً لعلموها ولم يكن علمهم محدوداً والحال أنه عرضها عليهم وسألهم عنها سؤال تعجيز ﴿ فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ المسميات والغرض من الانباء بأسمائها الابانة عن معرفتها ومعنى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي إن كان هناك موقع للدهشة والاستغراب من جعل الخليفة في الارض من البشر ، وكان ماطرق نفوسكم وطرأ على أذهانكم أولا حالا محله ، ومصيباً غرضه ، ولما تعرفوا حقيقة مايمتاز به الخليفة ، فأنبئوني بأسماء ماعرضته عليكم ﴿ قالوا سبحانك ﴾ أي تنزيهاً لك ، فلفظ سبحان مصدر قلما يستعمل إلا مضافا كمعاذ الله ، وهو منصوب بفعل مقدر ، والمعنى نقدسك و ننزهك أن يكون علمك قاصر أفتخلق الخليفة عبثاً ، أو تسألنا شيئاً نفيده وأنت تعلم أننا لانحيط بعلمه ، ولا نقدر على الانباء به ، وكلمة « سبحانك » تهدي إلى هذا فكأنها جملة وحدها ، وهذه هي البلاغة مضروب سرادقها ، متمرة حدائقها ، متجلية حقائقها ، على أن القصة وردت مورد التمثيل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وبعد تنزيه الباري تبرؤا من علمهم إلى علمه تعالى وحكمته فقالوا ﴿ لاعلم لنا إلا ما علمتنا ﴾ وهو محدود لايتناول جميع الاسماء ولا يحيط بكل المسميات ﴿ انك أنت العليم ﴾ بخلقك ﴿ الحكيم ﴾ في صنعك

[قال الاستاذ] إن هذه التأكيدات (١) تشعر بأن سؤال الاستغراب الاول كان يتنسم منه شيء وكذلك الجواب عن (أنبئوني) بقولهم (لا علم لنا) ولذلك ختموا الجواب بالتبرؤ من كل شيء والثناء على الله تعالى بالعلم الثابت الواجب لذاته العلية ، والحكمة البالغة اللازمة له ، فقد تقدم في تفسير الفاتحة أن صيغة (فعيل) تدل غالباً على الصفات الراسخة اللازمة ، فكان جواب الملائكة بهذا مؤذناً بأنهم رجعوا إلى ماكان يجب أن لا يغفل مثلهم عنه، وهو التسليم لسعة علم الله وحكمته حتى يبلغ الكتاب أجله

﴿ قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم ﴾ فكان الانباء كما أراد الله تعالى وذكره لأجل ترتيب الحكم عليه بقوله ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم قال ﴾ الله تعالى للملائكة ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والارض ﴾ ومن كان هذا شأنه فلا يخلق شيئاً سدى، ولا يجعل الخليفة في الارض عبثاً ﴿ وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ﴾ والذي يبدونه هو مايظهر أثره في نفوسهم ، وأما مايكتمون فهو مايوجد في غرائزهم وتنطوي عليه طبائعهم

وقد علم مما تقدم أن كل هذه الاقوال والمراجعات والمناظرات يفوض السلف الامر إلى الله تعالى في معرفة حقيقتها ، ويكتفون بمعرفة فائدتها وحكمتها ، وقد تقدم بيان ذلك . وأما الخلف فيلجؤون إلى التأويل ، وأمثل طرقه في هذا المقام التمثيل ، وقد مضت سنة الله في كتابه بأن يبرز لنا الاشياء المعنوية ، في قوالب العبارة اللفظية ، ويجلي لنا المعارف المعقولة ، بالصور المحسوسة ، تقريباً للافهام ، وتسهيلا للاعلام ، ومن ذلك أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا ، وما أدعته فطرتنا ، مما نمتاز به على غيرنا من المخلوقات ، فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم التي خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق لتظهر حكمة الله فينا ، ولعلنا نشرف على معنى اعلام الله الملائكة بفضلنا ، ومعنى سجودهم لاصلنا (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتفكرون)

«١» في التنزيه تأكيد معنوي وكذلك في نفي العلم عن أنفسهم لذاتها واثبات ما أعطاها الله فقط ثم يلي ذلك التأكيد اللفظي بإن والجملة الاسمية وضمير الفصل «أنت» والمعنوي بصيغتي المبالغة في العلم والحكمة ــ المؤلف

(٣٤) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

بعد ماعرف الله الملائكة بمكانة آدم ووجه جعله خليفة في الارض أمرهم بالخضوع له وعبر عن ذلك بالسجود فقال ﴿واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ وهو سجود لا نعرف صفته، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجود عبادة إذ لا يعبد إلا الله تعالى، والسجود في اللغة التطامن والخضوع والانقياد وأعظم مظاهره الخرور نحو الأرض للأذقان ووضع الجبهة على التراب، وكان عند بعض القدماء من تحية الناس للملوك والعظماء ومنه سجود يعقوب وأولاده ليوسف عليهم السلام . والسجود لله تعالى قسمان سجود العقلاء المكلفين له تعبداً على الوجه المشروع ـ وسجود المخلوقات كلها لمقتضى إرادته فيها قال تعالى (١٣:١٥ ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها) الآيه وقال (والنجم والشجر يسجدان) وفي معناهما آيات . ﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ أي سجدوا كلهم أجمعون إلا ابليس وهو فرد من أفراد الملائكة كما يفهم من الآية وأمثالها في القصة إلا آية الكهف فانها ناطقة بأنه كان من الجن (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلا جوهريا يميز أحدهما عن الآخر وانما هو اختلاف أصناف، عند ما تختلف أوصاف، كما ترشد اليه الآيات . فالظاهر أن الجن صنف من الملائكة وقد أطلق في القرآن لفظ الجنة على الملائكة على رأي جمهور المفسرين في قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) وعلى الشياطين في آخر سورة الناس [وعلى كل حال فجميع هؤلاء المسميات بهذه الاسماء من عالم الغيب لا نعلم حقائقها ولا نبحث عنها ولا نقول بنسبة شيء اليها مالم يرد لنا فيه نص قطعي عن المعصوم ﷺ] وصف الله تعالى إبليس بأنه ﴿ أبى ﴾ السجود والانقياد ﴿ واستكبر ﴾

فلم يمتثل أمر الحق ترفعاً عنه، وزعماً بأنه خير من الخليفة عنصراً، وأزكى جوهراً، كما حكى الله تعالى عنه في غير هذه السورة (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) والاستكبار بمعنى التكبر وهو الظهور بصفة الكبرياء التي من آثارها الترفع عن الحق، وكأن السين والتاء للاشعار بأن الكبر ليس من طبيعة إبليس ولكنه مستعد له، ثم قال تعالى بعد وصفه بالاباء والاستكبار ﴿ وكان من الكافرين ﴾ قال بعض المفسرين كان من حق الترتيب أن يقال كان من الكافرين واستكبر وأبى لأن الكفر عنده سبب الاستكبار والاستكبار سبب الاباء، ومثل هذا المفسر يعلل مخالفة الترتيب الطبيعي في النظم برعاية الفاصلة (قال الاستاذ) ولكن نظم الآية جاء على مقتضى الطبيعة في الذكر فانه يفيد أن الله تعالى أراد أن يبين الفعل أولا لانه المقصود بالذات وهو الاباء ثم يذكر سببه وعلته وهو الاستكبار ثم يأتي بالاصل في العلة والمعلول والسبب والمسبب وهو الكفر.

(أقول) وقال بعض المفسرين ان كان هنا بمعنى صار، وخطأه ابن فورك وقال ان الاصول ترده، ووجهه عند قائله: وصار بهذا الاباء والاستكبار من جملة الكافرين، لما علم من أنه لم يكن قبل هذا العصيان المتضمن للاعتراض على الرب سبحانه من الكافرين، وقد جعل بعضهم مناط كفره هذا الاعتراض على ربه عز وجل لان المعصية وحدها لا تقتضي الكفر كما تدل عليه النصوص وفيه أن ذلك في معصية المسلم وهو المذعن لامر الله ونهيه اذا غلبه غضب أو شهوة فعصى، وهو لا يلبث أن يندم ويتوب. وعصيان إبليس رفض للاذعان والاستسلام ابتداء وهو كفر بغير نزاع، ككفر الذين صدقوا الرسل بقلوبهم ولم يتبعوهم عناداً واستكبارا (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) والجمهور ان المعنى وكان في علم الله من الكافرين

ثم إن الاستاذ أعاد هنا ملخص ما تقدم بيانه في وجه اتصال الآيات بما قبلها وكون الكلام في القرآن والرسول الذي جاء به وتسليته بهذه القصة ثم توسع في الكلام عن الملائكة فقال ما مثاله ملخصا: تقدم أن الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته، وانما نؤمن به باخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه، وتقدم أن القرآن ناطق بان الملائكة أصناف لكل صنف وظيفة وعمل، ونقول الآن

إن إلهام الخير والوسوسة بالشر مما جاء في لسان صاحب الوحي (ص) وقد اسندا الى هذه العوالم الغيبية ، وخواطر الخير التي تسمى الهاما وخواطر الشر التي تسمى وسوسة كل منهما محله الروح فالملائكة والشياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية المعروفة لنا [لان هذه لو اتصلت بأرواحنا، فانما تتصل بها من طرق أجسامنا ، ونحن لا نحس بشيء يتصل بابداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعي الخير من النفس، فاذن هي من عالم غير عالم الابدان قطعا] والواجب على المسلم في مثل الآية الايمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على أنها حكاية تمثيل ثم الاعتبار بها بالنظر في الحكم التي سيقت لها القصة

(وأقول) إن اسناد الوسوسة الى الشياطين معروف في الكتاب والسنة ، وأما اسناد إلهام الحق والخير الى الملائكة فيؤخذ من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام، ومن حديث الشيخين في المحدَّثين وكون عمر منهم ـ والمحدثون بفتح الدال وتشديدها الملهمون ـ ومن حديث الترمذي والنسائي وابن حبان وهو « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) قال الترمذي حسن غريب لا نعلمه مرفوعا إلا من حديث أبي الاحوص . والرواية إيعاد في الموضعين كما أن الآية من الثلاثي في الموضعين فما قالوه في التفرقة بين الوعد والايعاد أغلبي فيما يظهر وإلا فهو غير صحيح . واللمة بالفتح الالمام بالشيء والاصابة .

(قال الاستاذ) وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معنى الملائكة وهو أن مجموع ماورد في الملائكة من كونهم موكلين بالاعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ انسان وغير ذلك فيه ايماء الى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن الا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال في الحيوان والانسان ، فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الآلهية في ايجاده فانما قوامه بروح الهي

سمي في لسان الشرع ملكا ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية اذا كان لا يعرف من عالم الامكان الا ماهو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة ،والامر الثابت الذي لانزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لايمكن لعاقل أن ينكره ، وان أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا وزعم أنه لادليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعياً لأن هذه الاسماء لم ترد في الشرع ـ فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الاسماء عن المسميات [وان كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لايدرك كنهه، والذي لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها . ولا يعلم الا الله على م يختلف الناس وكل يقر بوجود شيء غير مايرى ويحس ويعترف بأنه لايفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى ادراك كنهه ، وماذا على هذا الذي يزعم أنه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيّب عنه لو قال أصدق بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لاأقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك مايرد على لسان صاحب الوحي ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون ؟]

يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عند مايهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعا كأن الامر قد عرض فيها على مجلس شورى ، فهذا يرد وذاك يدفع ، واحد يقول افعل وآخر يقول لاتفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين،ويترجح أحد الخاطرين،فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكراً ـ وهو في الحقيقة معنى لايدرك كنهه، وروح لاتكتنه حقيقتها ـ لايبعد أن يسميه الله تعالى ملكا (أو يسمي أسبابه ملائكة) أو ماشاء من الاسماء فان التسمية لاحجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الارادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع ؟

(وأقول) إن الامام الغزالي سبق إلى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال انه سمي ملكا فانه بعد ماقسم الخواطر إلى محمود ومذموم قال « ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث ، ومهما اختلفت

الحوادث دل ذلك على اختلاف الاسباب ، هذا ماعرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الاسباب ، فمها استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لانوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً ، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً ، والذي يتهيأ به لقبول الشر يسمى اغواء وخذلانا ، فان المعاني المختلفة تحتاج إلى أسامي مختلفة» اه المراد منه فليراجعه في كتاب شرح عجائب القلب من الاحياء ، ثم قال الاستاذ الامام مامعناه

فاذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الاشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الارض ودبرها بماشاء من القوى الروحانية التي بها قوامها و نظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ماحدد له من الاثر الذي خص به ، خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعداً للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الارض، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد الذي لاحد له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في هذه الارض، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بابليس وهي القوة التي [لزها الله بهذا العالم لزاً ، وهي التي تميل بالمستعد للكمال أو بالكامل إلى النقص وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم ، أو تقطع سبيل البقاء ، وتعود بالموجود إلى الفناء ، أو التي] تعارض في اتباع الحق ، وتصد عن عمل الخير ، وتنازع الانسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته ، فيصل إلى مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعداً للوصول اليها [تلك القوة التي ضللت آثارها قوما فزعموا أن في العالم إلها يسمى إله الشر ، وما هي بإله ولكنها محنة إله لايعلم أسرار حكمته إلا هو]

(قال) ولو أن نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين مايمنعها من ذلك والعمدة على اطمئنان القلب، وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق

(وأقول) ان غرض الاستاذ من هذا التأويل الذي عبر عنه بالايماء وبالاشارة

اقناع منكري الملائكة بوجودهم ، بتعبير مألوف عدمهم تقبله عقولهم ، وقد اهتدى به كثيرون ، وضل به آخرون فأنكروه عليه وزعموا أنه جعل الملائكة قوى لاتعقل فرد عليهم كتابة بما نصه بحروفه :

[ولست احيط علما بما فعلت العادة والتقاليد في انفس بعض من يظنون انهم من المتشددين في الدين اذ ينفرون من هذه المعاني كما ينفر المرضى او المخدجون من جيد الاطعمة التي لا تضرهم ، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم ، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى والمخدجين بأضر طعام يفسد الاجسام ، ويزيد السقام . لا اعرف ما الذي فهموه من لفظ روح او ملك ، وما الذى يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة ، أليس الروح في الآدمي مثلا هذا الذي يظهر لنا في افراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والارادة والعمل ، واذا سلبوه سلبوا مايسمى بالحياة ؟ أو ليست القوة هي ماتصدر عنه الآثار فيمن وهبت له ، فاذا سمي الروح لظهور أثره قوة ، أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا ، فهل يضر ذلك بالدين ، او ينقص معتقده شيئا من اليقين ؟

ألا لا يسمى الايمان ايمانا ، حتى يكون إذعانا ، ولا يكون كذلك حتى يستسلم الوجدان ، وتخشع الاركان ، لذلك السلطان الذي تعلق به الايمان ، ولا يكون كذلك حتى يلقي الوهم سلاحه ، ويبلغ العقل فلاحه ، وهل يستكمل ذلك لمن لا يفهم مايمكنه فهمه ، ولا يعلم ما يتيسر له علمه ؟ كلا انما يعرف الحق أهله ، ولا يضل سبله ، ولا يعرف أهل الغفلة . لو ان مسكينا من عبدة الالفاظ من اشدهم ذكاء واذربهم لسانا ، اخذ بما قيل له إن الملائكة اجسام نورانية قابلة للتشكل (١)

«١» هذا هو التعريف المشهور في كتب الكلام وغيرها وأول مايعترض به عليه أنه لايصح فيه معنى الجسم في اللغة ولكنه صار مألوفا وإن لم يكن مفهوما

ثم تطلع عقله الى ان يفهم معنى نورانية الاجسام، وهل النور وحده له قوام يكون به شخصاً ممتازا بدون ان يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبالة المصباح او سلك الكهرباء، ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد ان يتقلب في اشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك، ألا يقع في حيرة، ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله، أليس مثل هذه الحيرة يعد شكا؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون ابواب الغيب يطرف لما لا يستطيع النظر اليه، لكنها حيرة من اخذ بقول لا يفهمه، وكلف نفسه علم ما لا تعلمه. فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة ايمانا صحيحا، واطمأنت بإيمانه نفسه، واذعن له قلبه، ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به عقله، كما هو شأن صاحب الايمان الصحيح

فليرجع هؤلاء الى انفسهم ليعلموا أن الذي وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف، لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة، هؤلاء لم يشرق في نفوسهم ذلك السر الذي يعبر عنه بالنور الالهي، والضياء الملكوتي، واللألاء القدسي، أو ما يماثل ذلك من العبارات. لم يسبق لنفوسهم عهد بملاحظة جانب الحق، ولم تكتحل أعين بصائرهم بنظرة الى مطلع الوجود منه على الخلق، ولو علموا أن العالم بأسره فان في نفسه، وان ليس في الكون باق كان أو يكون إلا وجهه الكريم، وأن ما كثف من الكون وما لطف، وما ظهر منه وما بطن، انما هو فيض من جوده، ونسبة الى وجوده، وليس الشريف منه الاما أعلى بذكره منزلته، ولا الخسيس إلا ما يبن لنا بالنظر الى الاول نسبته، فان كل مظهر من مظاهر الوجود فى نفسه

واقع موقعه ، ليس شيء أعلى ولا أحط منه ،فان كان كذلك ولا بدّ أن يكون كما قدره ـ لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لأنفسهم أن تجول في تلك الشؤون حتى تصل الى مستقر الطمأنينة حيث لا ينازع العقل شيء من وساوس الوهم، ولا تجد طائفا من الخوف، ثم لا يتحرجون من اطلاق لفظ مكان لفظ

هذه القوى التي نرى آثارها في كل شيء يقع تحت حواسنا ، وقد خفيت حقائقها عنا ، ولم يصل ادق الباحثين في بحثه عنها الا إلى آثار تجل اذا كشفت ، وتقل بل تضمحل اذا حجبت ، وهي التي يدور عليها كمال الوجود ،وبها ينشأ الناشيء ، وبها ينتهي الى غايته الكامل، كما لا يخفى على نبيه ولا خامل ، أليست أشعة من ضياء الحق ؟ اليست اجل مظهر من مظاهر سلطانه ؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وان كانت آثارها من عالم الشهادة ؟ الا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها لا ندرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا ؟ ألا تراها توافي باسرارها ،من ينظر في آثارها، ويوفيها حق النظر في نظامها؟ يستكثر من الخير بما يقف عليه من شؤونها، ومعرفة الطريق الى استدرار منافعها ؟

أليس الوجود الالهي الاعلى من عالم الغيب وآثاره في خلقه من عالم الشهادة ؟أليس هو الذي وهب تلك القوى خواصها ،وقدر لها آثارها؟ لم لا تقول ايها الغافل: انه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها؟ ولم قصرت معنى الحياة على ما تراه فيك وفي حيوان مثلك؟ مع انك لو سئلت عن هذا الذي تزعم انك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا، ولا لفعله تصريفا ؟ لم لا تقول كما قال الله وبه نقول(تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهنّ وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ؟

افلا تزعم ان لله ملائكة في الارض وملائكة في السماء ؟ هل عرفت اين تسكن ملائكة الارض ، وهل حددت امكنتها ، ورسمت مساكنها ، وهل عرفت اين يجلس من يكون منهم عن يمينك ، ومن يكون عن يسارك ، هل ترى اجسامهم النورانية تضيء لك في الظلام ، او تؤنسك اذا هجمت عليك الاوهام ، فلو ركنت الى انها قوى او ارواح منبثة فيما حولك ، وما بين يديك وما خلفك ، وان الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك ، وبالعبارة التي تلقفتها عنهم ، كيلا يوحشك عما يدهشك ، وترك لك النظر فيما تطمئن اليه نفسك من وجوه تعرّفها . افلا يكون ذلك أروح لنفسك ، وأدعى الى طمأنينة عقلك ، افلا تكون قد ابصرت شيئا من وراء حجاب ، ووقفت على سر من أسرار الكتاب ، فان لم تجد في نفسك استعداداً لقبول اشعة هذه الحقائق وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض في ادراك الحقيقة ويقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون بالكتاب الذى آمنت به ، ويؤمنون بالرسول الذي صدقت برسالته ، وهم في ايمانهم أعلى منك كعبا ، وأرضى منك ربهم نفسا ، ألا ان مؤمنا لو مالت نفسه الى فهم ما انزل اليه من ربه على النحو الذي يطمئن اليه قلبه كما قلنا كان من دينه في ثقة ، ومن فضل ربه في سعة] اه

هذا ما كتبه شيخنا في توضيح كلامه في تقريب مايفهمه علماء الكائنات من لفظ القوى ـ الى مايفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة ، ولا يفقهه من هؤلاء إلا من له إلمام بما يقوله أولئك في القوى وإسناد كل احداث الكائنات وتطوراتها إليها مع اعترافهم بجهل كنهها ، وإلمام أيضاً بما كان يقوله قدماء اليونان من أن لكل نوع من أنواع الموجودات إلهاً أو رباً مدبراً هو المسبب لظاهراته وكل هذه الارباب

خاضعة للرب الاله الأكبر الذي يرجع إليه الأمر كله ، فالمعنى العام عند الأولين والآخرين هو ان أحداث هذا العالم وتغيراتها وتطوراتها والنظام فيها كلها لا بد له من سبب خفي غير أجزاء مادتها ، فالتعبير عن ذلك عند المتقدمين قد وصل إلينا باصطلاحات تدل على الشرك برب العالمين ، وتعبير الماديين المتأخرين يدل على التعطيل . وتعبير القرآن وما ثبت في السنة هو الذي حرر الحقيقة التي يمكن إذعان العقلاء لها وهي ان الفاعل الحقيقي واحد ، وان نظام كل شيء قد ناطه سبحانه بموجودات روحية خفية ذات قوى عظيمة جداً سميت الملائكة ، فالاستاذ الامام يقول ان التسمية وحدها لا تعطى أحداً علم الحقيقة ، وان من فهم الحقيقة لايحجبها عنه اختلاف التسمية ، واراد بهذا أن يحتج على الماديين ويقنعهم بصحة ماجاء به الوحي من طريق علمهم المسلم عندهم ، كما صرح به فيما مر في صفحة ٢٦٨ فأنكره عليه عباد الالفاظ وهم لا يعقلون مراده ، وهو بمثل هذه الأساليب في الاقناع بحقية الدين كان حجة لله في هذا العصر حتى قال له أحد نوابغ رجال القضاء الاذكياء انك بتفسيرك للقرآن بالبيان التي يقبله العقل ولا يأباه العلم قد قطعت الطريق على الذين يظنون انه قد اقترب الوقت الذي يهدمون فيه الدين ويستريحون من قيوده وجهل رجاله وجمودهم .

وإنني أنا قد جربت هذه الطريقة التي استنكروها عليه في إقامة الحجة على بعض المنكرين لوجود الله تعالى فلم يستطيعوا لها دحضاً . ذلك بأن علماءهم انما ينكرون إلـه اللاهوتيين وكذا إلـه المتكلمين لا إلـه الخليقة . فاذا قلت لهم هل تعقلون ان هذا النظام الدقيق في كل نوع من المخلوقات ووحدة النظام العام في مجموعها كلها قد وجدا بالمصادفة وليس لهما مصدر وجودي ؟ يقولون لا بل لا بد لذلك من مصدر لكننا نجهل حقيقته ، حينئذ كنت أقول لهم وهذا أس عقيدة الاسلام وهو اننا نجهل كنه رب العالمين وانما نعرفه بآثاره في خلقه فالفرق بيننا لفظي ذلك . وإن ترتيب النظم يلتئم مع التأويل الذي أورده الاستاذ الامام في السياق فان هذه المعاني التي وردت بصيغة الحكاية وبرزت في صورة التمثيل جاءت عقب قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً) وبقي شيء واحد لم يصرح به

في الدرس وقد سبقت الاشارة إليه ، وهو أن كل قوة من قوى هذه الارض وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعاً للانسان، وخلق الانسان مستعداً لتسخيره لمنفعته، إلا قوة الاغراء بالشر ، وناموس الوسوسة بالاغواء الذي يجذب الانسان دائماً إلى شر طباع الحيوان ، ويعيقه عن بلوغ كماله الانساني ، فالظاهر من الآيات أن الانسان لا يغلب هذه القوة ولا يخضعها مهما ارتقى وكمل، وقصارى ما يصل إليه الكاملون هو الحذر من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها، بأن لا يكون لها سلطان على نفس الكامل تجعله مسخراً لها وتستعمله بالشرور كما قال تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال عز وجل (إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ثم زاد الاستاذ هنا قوله : [أما سلطان تلك القوة في الفناء وقطع حركة الوجود إلى الصعود فلا يستطيع اخضاعه لقدرته من البشر كامل ، ولا يقاوم نفوذه عامل ، وانما ذلك لله وحده . وهذا حكمها في الكائنات ، إلى أن تبدل الارض غير الارض والسموات] فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل التقوى والبصيرة وأن يعيذنا من الشيطان الرجيم

---

(٣٥) وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٦) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٧) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

مجمل الآيات السابقة أن هذا العالم لما استعد لوجود هذا النوع الانساني واقتضت الحكمة الالهية إيجاده واستخلافه في الارض آذن الله تعالى الارواح المنبثة في الاشياء لتدبيرها ونظامها بذلك ، وأن تلك الارواح فهمت من معنى كون الانسان خليفة أنه يفسد النظام ويسفك الدماء ، حتى أعلمها الله تعالى بأن

علمها لم يحط بمواقع حكمته ، ولا يصل إلى حيث يصل علمه تعالى . ثم أوجد آدم وفضله بتعليمه الاسماء كلها ، على أن كل صنف من تلك الارواح لا يعلم إلا طائفة منها ، ولذلك أخضع له تلك الارواح إلا روحا واحداً هو مبعث الشر ومصدر الاغواء فقد أبى الخضوع ، واستكبر عن السجود ، لما كان في طبيعته من الاستعداد لذلك ، والاستعداد في الشيء انما يظهر بظهور متعلقه ، فلا يقال : اذا كان لكل روح من هذه الارواح والقوى الغيبية علم محدود فكيف ظهر من الروح الابليسي مالم يسبق له وهو مخالفة الامر بالسجود لآدم والتصدي لاغوائه ؟ لا يقال ذلك لأنه كان مستعداً لهذا العصيان والاباء فلما أمر عصى ، ولما وجد خلقا مستعداً للوسوسة اتصل به ووسوس اليه ، كما أن ألوان ورق الشجر والزهور موجودة كامنة في البزرة ولكنها لا تظهر إلا عند الاستعداد لها ببلوغ الطور المحدود من النمو

ومجمل الآيات اللاحقة أن الله تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بها ، ونهاهما عن الاكل من شجرة مخصوصة وأخبرهما أن قربها ظلم ، وأن الشيطان أزلهما عنها فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم إلى ضده ، ثم إن آدم تاب إلى الله من معصيته فقبله ، ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع هدى الله وشقاءه بتركه . وقد تقدم أن الآيات كلها قد سيقت للاعتبار ببيان الفطرة الالهية التي فطر عليها الملائكة والبشر ، وتسلية النبي ﷺ عما يلاقي من الانكار ، وتقدم وجه ذلك في الآيات السابقة ، وأما وجهه في هذه الآيات فظاهر وهو أن المعصية من شأن البشر ، كأنه يقول فلا تأس يامحمد على القوم الكافرين ولا تبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ، [فقد كان الضعف في طباعهم ينتهي اليهم من أول سلف لهم تغلب عليهم الوساوس ، وتذهب بصبرهم الدسائس ، انظر ماوقع لآدم وما كان منه ، وسنة الله مع ذلك لا تتبدل ، فقد عوقب آدم على خطيئته باهباطه مما كان فيه ، وإن كان قد قبل توبته ، وغفر هفوته] فالمعصية دائماً مجلبة الشقاء ، وقد استقر أمر البشر على أن سعادتهم في اتباع الهداية الالهية وشقاءهم في الانحراف عن سبلها .

وأما تفسير هذه الآيات بالتفصيل فقد اختلف علماء المسلمين من أهل السنة

وغيرهم في (الجنة) هل هي البستان أو المكان الذي تظلله الاشجار بحيث يستتر الداخل فيه كما يفهمه أهل اللغة أم هي الدار الموعود بها في الآخرة؟ والمحققون من أهل السنة على الاول . قال الامام أبو منصور الماتريدي في تفسيره المسمى بالتأويلات: نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمين فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ولا دليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم

وبهذا التفسير تنحل اشكالات كثيرة وهي (١) إن الله خلق آدم في الارض ليكون هو ونسله خليفة فيها فالخلافة مقصودة منهم بالذات فلا يصح أن تكون عقوبة عارضة (٢) انه لم يذكر أنه بعد خلقه في الارض عرج به إلى السماء ولو حصل لذكر لانه أمر عظيم (٣) إن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المؤمنون المتقون فكيف دخلها الشيطان الكافر الملعون (٤) انها ليست محلا للتكليف (٥) أنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها (٦) أنه لا يقع فيها العصيان . وبالجملة إن الاوصاف التي وصفت بها الجنة الموعود بها لا تنطبق على ما كان في جنة آدم ، ومنه كون عطائها غير مجذوذ ولا مقطوع وغير ذلك

(أقول) وقد أجاب بعضهم عن بعض هذه الاشكالات ولكل من الفريقين اشكالات وأجوبة أطال في بيانها ابن القيم في (حادي الارواح) ولم يرجح شيئاً ولذلك مال بعضهم الى الوقف وما اختاره شيخنا أقوى وقد قال به أبو حنيفة وتبعه أبو منصور . وقد كان ظهر لي عند كتابة تفسير الآيات شيء آخر لم يذكره الاستاذ الامام ولم أره في كتب التفسير وهو أن القول بأن آدم أسكن جنة الآخرة يقتضي أن تكون الآخرة هي الدار الاولى والدنيا فتكون التسمية للدارين غير صحيحة وينافي أيضاً كون الجنة دار ثواب يدخلها المتقون جزاء بما كانوا يعملون

كما ورد في الآيات الكثيرة . وقد قال تعالى ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ ولم يقل (ادخل) ولو انتقل من الارض التي خلق فيها إلى الجنة لقال هذا أو مابمعناه مما يشير إلى الانتقال فقوله (اسكن) يشير إلى أن الخلقة كانت في تلك الجنة أو بالقرب منها ، وقوله ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ اباحة للتمتع بتلك

الجنة والتنعم بما فيها أي كلا منها أكلاً رغداً واسعاً هنيئاً من أي مكان منها إلا شيئاً واحداً نهاهما عنه بقوله ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ لانفسكما بالوقوع فيما يترتب على الاكل منها، ولم يعين الله تعالى لنا هذه الشجرة فلا نقول في تعيينها شيئاً، وانما نعلم أن ذلك لحكمة اقتضته، ولعل في خاصية تلك الشجرة ماهو سبب خروجهما من حال إلى حال، وربما كان في الأكل منها ضرر، أو كان النهي ابتلاء وامتحاناً منه تعالى ليظهر به مافي استعداد الانسان من الميل إلى الاشراف على كل شيء واختباره، وإن كان في ذلك معصية يترتب عليها ضرر[1]

قال تعالى ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ أي حولهما وزحزحهما عن الجنة أو حملهما على الزلة بسبب الشجرة وقرأ حمزة (فأزالهما) والشيطان ابليس الذي لم يسجد ولم يخضع وقد وسوس لهما بما ذكر في سورتي الاعراف وطه حتى أوقعهما في الزلل وحملهما على الاكل من الشجرة فأكلا ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ أي من ذلك المكان أو النعيم الذي كانا فيه فكان الذنب متصلا بالعقوبة اتصال السبب بالمسبب ثم بين الله تعالى كيفية الاخراج بقوله ﴿ وقلنا اهبطوا ﴾ يعني آدم وزوجه وإبليس فلا حاجة لتقدير ارادة ذرية آدم بالجمع كما فعل مفسرنا (الجلال) فان العداوة في قوله عز وجل ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ تنافي هذا التقدير فان العداوة بين الانسان والشيطان لا بين الانسان وذريته. والاصل في الهبوط أن يكون من مكان عال إلى أسفل منه، ولذلك احتج به من قال إن آدم كان في السماء، وقد يستعمل في مطلق الانتقال أو مع اعتبار العلو والسفل في المعنى. وقال الراغب الهبوط الانحدار على سبيل القهر ولا يبعد أن تكون تلك الجنة في ربوة فسمى الخروج منها هبوطاً أو سمي بذلك لان ما انتقلوا اليه دون ما كانوا فيه أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد، كقوله تعالى لبني اسرائيل (اهبطوا مصراً)

ثم قال تعالى ﴿ ولكم في الارض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أي إن استقراركم في الارض وتمتعكم فيها ينتهيان إلى زمن محدود وليسا بدائمين ففي الكلام فائدتان

«١» راجع تفسير المسألة في سورة الاعراف (ج ٨) تجد فيه ما ليس هنا

(احداهما) أن الارض ممهدة ومهيأة للمعيشة فيها والتمتع بها (والثانية) أن طبيعة الحياة فيها تنافي الخلود والدوام فليس الهبوط لأجل الابادة ومحو الآثار ، وليس للخلود كما زعم ابليس بوسوسته إذ سمى الشجرة المنهي عنها (شجرة الخلد وملك لا يبلى) يعني أن الله أخرجهم من جنة الراحة إلى أرض العمل لا ليفنيهم ، وعبر عن ذلك بالاستقرار في الارض ، ولا ليعاقبهم بالحرمان من التمتع بخيرات الارض ، وعبر عن ذلك بالمتاع ، ولا ليمتعهم بالخلود وعبر عن ذلك بكون الاستقرار والمتاع إلى حين

ثم قال ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ أي ألهمه الله إياها فأناب اليه بها وهي كما في سورة الاعراف (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) تاب آدم بذلك وأناب الى ربه ﴿ فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ﴾ أي قبل توبته ، وعاد عليه بفضله ورحمته ، وبين سبب ذلك بأنه تعالى هو التواب أي الذي يقبل التوبة كثيرا فمهما يذنب العبد ويندم ويتب يتب الرب عليه ، وبأنه هو الرحيم بعباده مهما يسيء أحدهم بما هو سبب لغضبه تعالى ويرجع إليه فانه يحفه برحمته . وكل ما ورد في هبوط آدم وحواء من تعيين الأمكنة فهو من الاسرائيليات الباطلة

وبقي مما يتعلق بهذا التفسير مسألتان قد أكثر الناس الكلام فيهما وهما مسألة خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم ، ومسألة عصمة آدم ، فأما الاولى فليس في القرآن نص فيها ولا يلزمنا حمل قوله تعالى (وخلق منها زوجها) على ذلك لاجل مطابقة سفر التكوين فان القصة لم ترد في القرآن كما وردت في التوراة التي في أيدي أهل الكتاب حكاية تاريخية ، وانما جاء القرآن بموضع العبرة في خلق آدم واستعداد الكون لان يتكمل به ، وكونه قد أعطي استعداداً في العلم والعمل لانهاية لهما ليظهر حكم الله ويقيم سننه في الارض فيكون خليفة له ، وكونه لا يسلم من داعية الشر والتأثر بالوسوسة التي تحمل على المعصية . ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين وانما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره لم يبين الزمان والمكان كما بينا في سفر التكوين ، وكان بيانهما سبباً لرفض الباحثين في الكون وتاريخ الخليقة لدين

النصرانية ، لان العلم المبني على الاختبار والمشاهدة أظهر خطأ ماجاء من التاريخ في التوراة ، ووجدت للانسان آثار في الارض تدل على أنه أقدم مما حددته التوراة في تاريخ تكوينه ، فقام فريق من أهل الكتاب يركب التعاسيف في التأويل ، وفريق يكفر بالكتاب والتنزيل

(أقول) فان قلت ان النبي ﷺ قال في حديث أبي هريرة في الصحيحين في تعليل التوصية بالنساء « فان المرأة خلقت من ضلع » قلنا انه على حد قوله تعالى (خلق الانسان من عجل) كما قالوا في شرحه . وسيأتي في تفسير القصة من سورة الاعراف . ولم يتعرض شيخنا في الدرس لقوله تعالى (وخلق منها زوجها) ولكنه كتب بعد ذلك وقبل ماستراه عنه في تفسير سورة النساء مانصه :

[وأما قوله تعالى في سورة النساء (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) وفي سورة الاعراف (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها) فقد قال غير واحد من المفسرين إن المعنى من جنسها كما قال في سورة الروم (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فان المعنى هناك على أنه خلق أزواجا من جنسنا ولا يصح أن يراد أنه خلق كل زوجة من بدن زوجها كما هو ظاهر]

(قال) وأما مسألة عصمة آدم فالجري على طريقة السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه كسائر ماورد في القصة مما لايركن العقل إلى ظاهره ، ولنا أن نقول إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه (فنسي ولم نجد له عزما) والاتفاق أنما هو على العصمة عن مخالفة الاوامر بعد النبوة . وقد يكون الذي وقع من آدم نسيانا ، فسمي تفخيما لأمره عصيانا ، والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة ، فان جعلنا الكلام كله تمثيلا لحديث الاخلال بالعصمة مما لايمر بذهن العاقل

وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه : إن القرآن كثيراً مايصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب ، أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير ، فهو يدعو بها الاذهان ، إلى ماوراءها من المعان ،

كقوله تعالى (يوم تقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه، وانما هو تمثيل لسعتها و كونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ، ونحوه قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) والمعنى في التمثيل الظاهر

(أقول) وهذا الامر يسمى أمر التكوين ، ويقابله أمر التشريع ، وانما سمي أمر التكوين للتعبير عنه في التنزيل بقوله تعالى (انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فهو تصوير لتعلق إرادة الربوبية بالايجاد ، ولا أذكر عن أحد من المفسرين المتبعين للأثر تصريحاً بأن الاوامر في قصة آدم من أمر التكوين إلا الحافظ ابن كثير فانه ذهب في تفسير (قال فاهبط منها) من سورة الاعراف الى أن الأمر فيه أمر قدري كوني ، ومثله مافي معناه من قصة آدم ومن الآيات الاخرى من مخاطبة إبليس للرب وجوابها في شأن اغوائه للبشر وانظاره الى يوم القيامة .

(قال الاستاذ الامام مامثاله) وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا : إن اخبار الله الملائكة بجعل الانسان خليفة في الارض هو عبارة عن تهيئة الارض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه و نظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الارض — وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الارض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعداداً في العلم والعمل لا حد لها هو تصوير لما في استعداد الانسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الارض — وتعليم آدم الاسماء كلها بيان لاستعداد الانسان لعلم كل شيء في هذه الارض وانتفاعه به في استعمارها — وعرض الاسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الارواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته — وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الارواح والقوى له ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك — وإباء ابليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الانسان عن اخضاع روح الشر وابطال داعية خواطر السوء التي هي مثار التنازع والتخاصم والتعدي والافساد في الارض — ولولا ذلك لجاء على الانسان زمن يكون فيه

أفراده كالملائكة بل أعظم، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري .هذا ملخص ماتقدم في سابق آيات القصة

وأما التمثيل فيما نحن فيه منها فيصح عليه أن يراد بالجنة الراحة والنعيم ، فان من شأن الانسان أن يجد في الجنة التي هي الحديقة ذات الشجر الملتف مايلذ له من مرأى ومأكول ومشروب ومشموم ومسموع ، في ظل ظليل ، وهواء عليل ، وماء سلسبيل ، كما قال تعالى في القصة من سورة طه (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى) ويصح أن يعبر عن السعادة بالكون في الجنة وهو مستعمل، ويصح أن يراد بآدم نوع الانسان كما يطلق اسم أبي القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب ، وكان من قريش كذا يعني القبيلة التي أبوها قريش ، وفي كلام العرب كثير من هذا

ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة كما عبر الله تعالى في مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة وفسرت بكلمة التوحيد، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر . وفي الحديث تشبيه المؤمن بشجرة النخل — ويصح أن يكون المراد بالامر بسكنى الجنة وبالهبوط منها أمر التكوين فقد تقدم أن الامر الالهي قسمان: أمر تكوين وأمر تكليف

والمعنى على هذا أن الله تعالى كون النوع البشري على مانشاهد في الاطوار التدريجية التي قال فيها سبحانه (وقد خلقكم أطواراً) فأولها طور الطفولية [1] وهي لاهم فيها ولا كدر، وانما هي لعب ولهو، كأن الطفل دائماً في جنة ملتفة الاشجار، يانعة الثمار، جارية الانهار، متناغية الاطيار ، وهذا معنى (اسكن أنت وزوجك الجنة) وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الآدمي للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشئون البشرية ، فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين ، أي انه تعالى خلق البشر ذكوراً وإناثاً هكذا — وأمرهما

---

[1] المتبادر من الأطوار في الآية هو خلق الأفراد من سلالة من طين ثم جعله نطفة فعلقة فمضغة الخ كما في سورة المؤمنون ، وما ذكره الاستاذ أطوار لنوع الانسان

بالاكل حيث شاءا عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير — والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر ، وأن الفطرة تهدي إلى قبحه ووجوب اجتنابه ، وهذان الالهامان اللذان يكونان للانسان في الطور الثاني وهو طور التمييز هما المراد بقوله تعالى (وهديناه النجدين) ووسوسة الشيطان وازلاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة التي تلابس النفوس البشرية فتقوي فيها داعية الشر ، أي إن إلهام التقوى والخير أقوى في فطرة الانسان أو هو الاصل ، ولذلك لا يفعل الشر إلا بملابسة الشيطان له ووسوسته اليه — والخروج من الجنة مثال لما يلاقيه الانسان من البلاء والعناء بالخروج عن الاعتدال الفطري — وأما تلقي آدم الكلمات وتوبته فهو بيان لما عرف في الفطرة السليمة من الاعتبار بالعقوبات التي تعقب الافعال السيئة ورجوعه إلى الله تعالى عند الضيق والتجائه اليه في الشدة . وتوبة الله تعالى عليه عبارة عن هدايته إياه الى المخرج من الضيق ، والتفلت من شرك البلاء ، بعد ذلك الاعتبار والالتجاء ، وذكر توبة الله على الانسان ترد ما عليه النصارى من اعتقاد أن الله تعالى قد سجل معصية آدم عليه وعلى بنيه إلى أن يأتي عيسى ويخلصهم منها وهو اعتقاد تنبذه الفطرة ، ويرده الوحي المحكم المتواتر

فحاصل القول أن الاطوار الفطرية للبشر ثلاثة : طور الطفولية وهو طور نعيم وراحة ، وطور التمييز الناقص وفيه يكون الانسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان ، وطور الرشد والاستواء وهو الذي يعتبر فيه بنتائج الحوادث ، ويلتجيء فيه عند الشدة إلى القوة الغيبية العليا التي منها كل شيء واليها يرجع الامر كله ، فالانسان في افراده مثال للانسان في مجموعه (قال الاستاذ) كان تدرج الانسان في حياته الاجتماعية ابتداء ساذجا سليم الفطرة ، قويم الوجهة ، مقتصراً في طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونا على دفع ماعساه يصيبه من مزعجات الكون وهذا هو العصر الذي يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبي

ثم لم يكفه هذا النعيم المرفه فمد بعض أفراده أيديهم إلى تناول ما ليس لهم طاعة للشهوة ، وميلا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائماً في نفوس سائرهم فثار النزاع ، وعظم الخلاف ، واستنزل الشقاء ، وهذا هو الطور الثاني وهو معروف في تاريخ الامم

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ، ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للاعمال تنتهي اليها نزعات الشهوات، ويقف عندها سير الرغبات ، وهو طور التوبة والهداية إن شاء الله

(وأقول الآن) إن توبة آدم عليه السلام بناء على تفسير القصة بحمل الكلام على الحقيقة قد كانت بالرجوع إلى الله واعترافه مع حواء بظلمهما لأنفسهما وطلبهما المغفرة والرحمة منه تعالى ، لا بمجرد تدبر العقل ووزن الخير والشر بميزان الفكر الخ ماقاله شيخنا هنا تبعاً لبعض علماء الاجتماع من المؤرخين، وقد بين هو في بحث الحاجة إلى الرسالة من رسالة التوحيد أن عقل البشر لا يستقل بوضع حدود للاعمال تنتهي اليهـا نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الاهواء والرغبات ، بل لابد له من تشريع إلهي لذلك ، ولكنه أوجز هنا فترك المسألة مبهمة مظلمة ، واننا نرى أن طور العقل والفكر قد بلغ في هذا العصر مرتقى لم يعرف في التاريخ مايقاربه ، ووضع علماؤه وحكماؤه شرائع وقوانين لايقاف التنازع والتخاصم عند حد لا يتفاقم شره ، ثم نرى أعلم هذه الامم ودولها مبعث الشرور والشقاوة ، والخبث والرياء والحروب والفتن ، فلا هداية إلا هداية الدين الإلهي الذي تذعن له الانفس بمحض العبودية لله تعالى

(قال) وبقي طور آخر أعلى من هذه الاطوار، وهو منتهى الكمال وأعني به طور الدين الالهي والوحي السماوي الذي به كمال الهداية الانسانية. وبيانه في قوله تعالى

---

(٣٨) قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

أمرهم الله تعالى بالهبوط مرتين فالاولى بيان لحالهم في أنفسهم بعد الهبوط من تلك الجنة أو الخروج من ذلك الطور وهو أن حالهم تقتضي العداوة والاستقرار في الارض والتمتع بها ، وعدم الخلود فيها ، والثانية بيان لحالهم من حيث الطاعة

والمعصية وآثارهما ، وهي ان حالة الانسان في هذا الطور لاتكون عصياناً مستمراً شاملا ، ولا تكون هدى واجتباء عاماً ـ كما كان يفهم لو اقتصر على ذكر توبة الله على آدم وهدايته واجتبائه ـ وانما الامر موكول إلى اجتهاد الانسان وسعيه، ومن رحمة الله تعالى به أن يجعل في بعض أفراده الوحي ويعلمهم طرق الهداية ، فمن سلكها فاز وسعد ، ومن تنكبها خسر وشقي، هذا هو السر في إعادة ذكر الهبوط لا أنه أعيد للتأكيد كما زعموا

قال تعالى ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً ﴾ أي فقد انتهى طور النعيم الخالص والراحة العامة وادخلوا في طور لكم فيه طريقان: هدى وضلال ، إيمان وكفران، فلاح وخسران ﴿ فاما يأتينكم مني هدى﴾ من رسول مرشد وكتاب مبين ﴿ فمن تبع هداي ﴾ الذي أشرعه ، وسلك صراطي المستقيم الذي أحدده ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ من وسوسة الشيطان ، ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على فوت مطلوب ، أو فقد محبوب ، لأنهم يعلمون بهذه الهداية أن الصبر والتسليم مما يرضي الله تعالى ويوجب مثوبته ، ويفتح للانسان باب الاعتبار بالحوادث ، ويقويه على مصارعة الكوارث ، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاته ، وأفضل تعزية عما فقده

قال الاستاذ الامام ماملخصه : الخوف عبارة عن تألم الانسان من توقع مكروه يصيبه، أو توقع حرمان من محبوب يتمتع به أو يطلبه، والحزن ألم يلمّ بالانسان اذا فقد مايحب ، وقد أعطانا الله جل ثناؤه الطمأنينة التامة في مقابلة ماتحدثه كلمة (اهبطوا) من الخوف من سوء المنقلب ، وما تثيره من كوامن الرعب ،فالمهتدون بهداية الله تعالى لايخافون مما هو آت، ولا يحزنون على مافات، لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الخيرات ، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة ، ومن كانت هذه وجهته، يسهل عليه كل مايستقبله، ويهون عليه كل ماأصابه أو فقده ؛ لأنه موقن بأن الله يخلفه ، فيكون كالتعب في الكسب ، لايلبث أن يزول بلذة الربح الذي يقع أو يتوقع

واذا قال قائل إن الدين يقيد حرية الانسان ويمنعه بعض اللذات التي يقدر على التمتع بها، ويحزنه الحرمان منها، فكيف يكون هو المأمن من الاحزان، ويكون باتباعه الفوز وبتركه الخسران؟ فجوابه إن الدين لايمنع من لذة إلا اذا كان في إصابتها ضرر على مصيبها، أو على أحد اخوانه من أبناء جنسه الذين يفوته من منافع تعاونهم اذا آذاهم أكثر مما يناله بالتلذذ بايذائهم، ولو تمثلت لمستحل اللذة المحرمة مضارها التي تعقبها في نفسه وفي الناس، وتصور مالها من التأثير في فساد العمران لو كانت عامة، وكان صحيح العقل معتدل الفطرة، لرجع عنها متمثلا بقول الشاعر

* لا خير في لذة من بعدها كدر *

فكيف اذا كان مع ذلك يؤمن باليوم الآخر ويعلم ان هذه المحرمات تدنس الروح فلا تكون أهلا لدار الكرامة في يوم القيامة

(قال الاستاذ) وليست سعادة الانسان في حرية البهائم بل في الحرية التي تكون في دائرة الشرع ومحيطه فمن اتبع هداية الله فلا شك انه يتمتع تمتعا حسنا ويتلقى بالصبر كل ما أصابه، وبالطمأنينة مايتوقع أن يصيبه، فلا يخاف ولا يحزن

يريد أن رجاء الانسان فيما وراء الطبيعة هو الذي يقيه من تحكم عوادي الطبيعة فيه، وبدون ذلك الرجاء تتحكم فيه أشد مما تتحكم في البهائم التي هي أقوى منه طبيعة (وخلق الانسان ضعيفا) فالتماس السعادة بحرية البهائم، هو الشقاء اللازم، وقد صرح بلفظ التمتع الحسن أخذا من قوله تعالى (وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله) الآية. فالآيات الدالة على ان سعادة الدنيا معلولة للاهتداء بالدين كثيرة جدا وقد حجبها عن كثير من المسلمين قولهم في الكافرين: لهم الدنيا ولنا الآخرة، يغالطون أنفسهم بحجة القرآن عليهم. وآيات سورة طه في قصة آدم أوضح في المراد من آيات البقرة وهي قوله عز وجل (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى) الايات

قال تعالى ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ (اقول) الآيات جمع آية وهي

كما قال الجمهور العلامة الظاهرة قال الراغب وحقيقته لكل شيء ظاهر ملازم لشيء باطن يعرف به ويدرك بادراكه حسياً كان كاعلام الطرق ومناور السفن أو عقليا كالدلائل المؤلفة من مقدمات ونتيجة اه بالمعنى (قال) واشتقاق الآية إما من أيٍّ فانها هي التي تبين أيًّا من أي، والصحيح انها مشتقة من التأيي الذي هو التثبت والاقامة على الشيء اه اقول بل أصله قصد آية الشيء أي شخصه ومنه قول الشاعر :

تتأيا الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

أي تتحرى الطير وتقصد خروجه صباحا الى القتال او الصيد لثقتها بما سبق من التجارب بأن تستشبع مما يترك لها من الفرائس

وأطلقت الآية على كل قسم من الاقسام التي تتألف منها سور القرآن العظيم وتفصله عن غيره فاصلة يقف القاريء عندها في تلاوته. ويميزها الكاتب له ببياض أو بنقطة دائرة أو ذات نقش أو بالعدد . والعمدة في معرفة الآيات بفواصلها التوقيف المأثور عن النبي ﷺ وإن كان أكثرها يدرك من النظم ، والآيات تطلق في القرآن على هذه وهي الآيات المنزلة من عند الله تعالى لانها دلائل لفظية على العقائد والحكم والاحكام والآداب التي شرعها لعباده كما تدل في جملتها على كونها من عند الله تعالى لاشتمالها على ماتقدم بيانه من وجوه اعجاز البشر عن مثلها. وتطلق أيضاً على كل مايدل على وجود الخالق تعالى وقدرته ووحدانيته وصفات كماله من هذه المخلوقات، ومن نتائج العقول وبراهينها، أو على غير ذلك من السنن والعبر

وهذه الآية مقابل قوله قبله (فمن اتبع هداي) الخ ، أي وأما الذين لم يتبعوا هداي وهم الذين كفروا بنا وكذبوا بآياتنا المبينة لسبيل ذلك الهدى — كما قال قبل قصة آدم (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم) ـ أو :وأما الذين كفروا بآياتنا اعتقاداً ، وكذبوا بها لسانا ، فجزاؤهم مايأتي، والتكذيب كفر سواء أكان عن اعتقاد بعدم صدق الرسول أو مع اعتقاد صدقه وهو تكذيب الجحود والعناد الذي قال الله لرسوله ﷺ في أهله (فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) كما أن الكفر القلبي قد يوجد مع تصديق اللسان كما هي حال المنافقين . والمعنى كما قرره شيخنا بالاختصار ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا

التي نجعلها دلائل الهداية وحجج الارشاد بأن جحدوا بها وأنكروها ، ولم يذعنوا لصدقها ، اتباعا لخطوات الشيطان وعملا بوسوسته ، وذهابا مع اغوائه

﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ تقدم تفسير الخلود في آخر الآية ٢٥ وأقول ان هذه الجملة تدل على الحصر أو الاختصاص الاضافي أي أولئك الكافرون المكذبون البعداء هم دون متبعي هداي أصحاب النار وأهلها هم فيها خالدون لا يظعنون عنها . أي وهم في خوف قاهر ، وحزن مساور ، وقد فسر الجلال الآيات بالكتب المنزلة ، وهو يصح في القرآن فانه آية على نفسه ، وعلى صدق من جاء به ، وسائر الكتب تحتاج إلى آية تدل على أنها من عند الله تعالى

(قال الاستاذ) بعد تفسير الكفر بالجحود ، والتكذيب بالانكار : وكل منهما يأتي في فرق من الناس ، فمنهم من لا تقوى ولا إيمان له وهم الذين لا يؤمنون بالغيب لأنه ليس عندهم أصل للنظر فيما جاءهم فهؤلاء منكرون وهم مكذبون لان التكذيب يشمل عدم الاعتقاد بصدق الدعوى التي جاء بها الرسول واعتقاد كذبها، والجحود قد يأتي من المعتقد قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)

فهذا هو الطور الاخير للانسان بعد ما وكل الى كسبه ، وجعل فلاحه وخسرانه بعمله ، فمن لطف الله به أن أيده بهداية الدين بعد هداية الحس والوجدان والعقل، فبهذه الهدايات يرتقي بالتدريج ماشاء الله تعالى

---

(٤٠) يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ (٤١) وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ (٤٢) وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٣) وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ

لا يزال الكلام في الكتاب وكونه لاريب فيه وبيان احوال الناس وأصنافهم في أمره وقد قلنا ان التفنن في مسائل مختلفة منتظمه في سلك موضوع واحد هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التي لم تسبق لبليغ ، ولن يبلغ شأوه فيها بليغ : ذكر الكتاب وانه لاريب فيه ، ثم ذكر اختلاف الناس فيه فابتدأ بالمستعدين للايمان به المنتظرين للهدى الذي يضيء نوره منه ، وثنى بالمؤمنين ، وثلث بالكافرين ، وقفى عليهم بالمنافقين . ثم ضرب الامثال لفرق الصنف الرابع ثم طالب الناس كلهم بعبادته ، ثم أقام البرهان على كون الكتاب منزلا من الله على عبده محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحدى المرتابين بما أعجزهم ، ثم حذر وأنذر ، وبشر ووعد ، ثم ذكر المثل والقدوة وهو الرسول ، وذكر اختلاف الناس فيه كما ذكر اختلافهم في الكتاب ، ثم حاج الكافرين ، وجاءهم بانصع البراهين ، وهو أحياؤهم مرتين واماتتهم مرتين ، وخلق السموات والارض لمنافعهم ، ثم ذكر خلق الانسان وبين اطواره ، ثم طفق يخاطب الامم والشعوب الموجودة في البلاد التي ظهرت فيها النبوة تفصيلا ، فبدأ في هذه الآيات بذكر اليهود للمعنى الذي نذكره . والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه ، وحسن اتساقه في سبكه ، فهو دائر على قطب واحد في فلكه ، وهو الكتاب ، والمرسل به ، وحاله مع المرسل اليهم . قال تعالى :

﴿ يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ (أقول) اسرائيل لقب نبي الله يعقوب ابن نبيه اسحق ابن نبيه وخليله ابراهيم (ع . م) قيل معناه الامير المجاهد مع الله . والمراد ببنيه ذريته من اسباطه الاثنى عشر ، وأطلق عليهم لقبه في كتبهم وتواريخهم كما تسمى العرب القبيلة كلها باسم جدها الأعلى . ولما كانت سورة البقرة اول السور المدنية الطول وكان جل يهود بلاد العرب في جوارها دعاهم الله تعالى فيها الى الاسلام واقام عليهم الحجج والبراهين وبين لهم من حقيقة دينهم وتاريخ سلفهم ما لم يكن يعلمه احد من قومه المحاورين لهم فضلا عن أهل وطنه بمكة المكرمة. قال شيخنا في سياق درسه مامثاله :

« اختص بني اسرائل بالخطاب اهتماما بهم لانهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب

السماوية والمؤمنة بالانبياء المعروفين ، ولانهم كانو اشد الناس على المؤمنين ، ولان في دخولهم في الاسلام من الحجة على النصارى وغيرهم اقوى مما في دخول النصارى من الحجة عليهم ، وهذه النعمة التي اطلقها في التذكير لعظم شأنها هي نعمة جعل النبوة فيهم زمنا طويلا (اوأعم) ولذلك كانوا يسمون شعب الله كما في كتبهم ، وفي القرآن ان الله اصطفاهم وفضلهم ، ولاشك ان هذه المنقبة نعمة عظيمة من الله منحهم اياها بفضله ورحمته فكانوا بها مفضلين على العالمين من الامم والشعوب وكان الواجب عليهم ان يكونوا اكثر الناس لله شكرا ، واشدهم لنعمته ذكرا ، وذلك بان يؤمنوا بكل نبي يرسله لهدايتهم ، ولكنهم جعلوا النعمة حجة الاعراض عن الايمان ، وسبب ايذاء النبي عليه السلام ، لانهم زعموا ان فضل الله تعالى محصور فيهم ، وانه لا يبعث نبيا إلا منهم ، ولذلك بدأ الله تعالى خطابهم بالتذكير بنعمته ، وقفى عليه بالامر بالوفاء بعهده ، فقال

﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ عهد الله تعالى اليهم يعرف من الكتاب الذي نزله إليهم ، فقد عهد اليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وأن يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم ، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه ، وعهد اليهم أن يرسل اليهم نبياً من بني اخوتهم أي بني اسماعيل يقيم شعباً جديداً . هذا هو العهد الخاص المنصوص ، ويدخل في عموم العهد عهد الله الاكبر الذي أخذه على جميع البشر بمقتضى الفطرة وهو التدبر والتروي ، ووزن كل شيء بميزان العقل والنظر الصحيح ، لا بميزان الهوى والغرور ، ولو التفت بنو اسرائل إلى هذا العهد الالهي العام ، أو إلى تلك العهود الخاصة المنصوصة في كتابهم ، لآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوا النور الذي أنزل معه وكانوا من المفلحين ، ولا حاجة إلى تخصيص العهد بالايمان بالنبي ﷺ كما فعل مفسرنا (الجلال) فان الايمان داخل في العهد العام وهو من افراد العهد الخاص فلا دليل على قصر عموم العهد المضاف عليه

هذا هو عهد الله وأما عهدهم فهو التمكين في الارض المقدسة والنصر على الامم الكافرة والرفعة في الدنيا وخفض العيش فيها. هذا هو الشائع في التوراة التي بين أيديهم ، ولا شك أن الله تعالى قد وعدهم أيضا بسعادة الآخرة ، ولكن

لا دليل على هذا في التوراة إلا الاشارات ولذلك ظنّ بعض الباحثين أن اليهود لا يؤمنون بالبعث ، ومع هذا يقول (الجلال) كغيره إن هذا العهد هو دخول الجنة ويقتصر عليه

ولما كان من موانع الوفاء بالعهد الذي فشا تركه في شعب اسرائيل خوف بعضهم من بعض لما بين الرؤساء والمرؤسين من المنافع المشتركة عقب الامر بالوفاء بقوله ﴿ وإياي فارهبون ﴾ أي إن كنتم تخافون فوت بعض المنافع، ونزول بعض المضار بكم اذا خالفتم الجماهير واتبعتم الحق، فالاولى أن لا تخافوا ولا ترهبوا إلا من بيده أزمة المنافع كلها ، وهو الله الذي أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى أو النعم كلها، وهو وحده القادر على سلبها، وعلى العقوبة على ترك الشكر عليها، فارهبوه وحده لا ترهبوا سواه

ثم انتقل من الامر بالوفاء بعموم العهد إلى العهد الخاص المقصود من السياق فقال تعالى جل شأنه ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ﴾ من تعليم التوراة وكتب الانبياء كالتوحيد والنهي عن الفواحش والمنكرات والأمر بالمعروف وما يتصل بهذا من الارشاد الموصل إلى السعادة، فاذا نظرتم في القرآن ووجدتموه مصدقا لما معكم من مقاصد الدين الالهي وأصوله ووعود الانبياء وعهودهم ، تعلمون أن الروح الذي نزل به هو عين الروح الذي نزل بما سبقه ، وتعلمون أنه لا غرض لهذا النبي الذي يدعوكم إلى مثل ما دعاكم اليه موسى والانبياء إلا تقرير الحق ، وهداية الخلق، بعد ما طرأ من ضلالة التأويل، وجهالة التقليد ، فبادروا إلى الايمان بهذا الكتاب الذي قامت به الحجة عليكم من وجهين (أحدهما) إعجازه (وثانيهما) كونه مصدقا لما معكم ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ أي ولا تبادروا إلى الكفر به والجحود له مع جدارتكم بالسبق اليه ، وهذا الاستعمال معروف في الكلام البليغ لهذا المعنى لا يقصد بالأولية فيه حقيقتها . والخطاب عام لليهود في كل عصر وزمان

ثم قال ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ﴾ الآيات هي الدلائل التي أيد بها النبي ﷺ وأعظمها القرآن فهو كقوله تعالى (اشتروا الضلالة بالهدى) أي

لا تعرضوا عن الايمان بهذا النبي وما جاء به وتستبدلوا بهدايته هذا الثمن القليل وهو مايستفيده رؤساؤكم من المرؤسين من مال وجاه أوقعاهم في الكبر والغرور، وما يتوقعه المرؤسون من الزلفى والحظوة بتقليد الرؤساء واتباعهم وما يخشونه اذا خالفوهم من المهانة والذلة ، وانما سمي هذا الجزاء قليلا لان كل ماعدا الحق قليل وحقير بالنسبة اليه وكيف لايكون قليلا وصاحبه يخسر عقله وروحه قبل كل شيء لاعراضه عن الآيات البينات ، والبراهين الواضحات، ثم إنه يخسر عز الحق وما يكون له من الشأن العظيم وحسن العاقبة ، ثم إنه يخسر مرضاة الله تعالى وتحل به نقمه في الدنيا وعقوبته في الآخرة ، وختم هذه الآية بشبه ماختم به ماقبلهاوذلك قوله ﴿ وإياي فاتقون ﴾ وليس في هذه مع سابقتها تكرار ولاشبه تكرار كما يتوهم، فقد حل كل من القولين محله ، ولا مندوحة عن واحد منهما لان استبدال الباطل بالحق انما كان منهم لاتقاء الرئيس فوت المنفعة من المرءوس ، واتقاء المرءوس غضب الرئيس ، فدحض هذه الشبهة بالامر بتقوى الله وحده الذي بيده قلوب العباد وجوارحهم ، وهو المسخر لهم في أعمالهم ، وبيده الخير كله ، وهو على كل شيء قدير

ثم قال ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ بينت هذه الآية مسلكهم في الغواية والاغواء في سياق النهي عنه فقد جاء في كتبهم التحذير من أنبياء كذبة يعيشون فيهم ويعملون العجائب ، وجاء فيها أيضاً أنه تعالى يبعث فيهم نبياً من ولد اسماعيل يقيم به أمة، وأنه يكون من ولد الجارية (هاجر) وبين علاماته بما لا لبس فيه ولا اشتباه ، ولكن الاحبار والرؤساء كانوا يلبسون على العامة الحق بالباطل فيوهمونهم أن النبي ﷺ من الانبياء الذين نعتتهم الكتب بالكذبة (حاشاه) ويكتمون مايعرفون من نعوته التي لاتنطبق على سواه ، وما يعلمون من صفات الانبياء الصادقين وما يدعون اليه ، وكله ظاهر فيه عليه الصلاة والسلام بأكمل المظاهر

ومن اللبس أيضاً مايفتريه الرؤساء والاحبار فيكون صاداً لهم عن سبيل الله وعن الايمان بنبيه عن ضلال وجهل وهو لبس أصول الدين بالمحدثات والتقاليد التي زادوها على الكتب المنزلة بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض

المتقدمين وأفعالهم ، فكانوا يحكون هذه الزيادات في الدين حتى في كتب الانبياء ويعتذرون بأن الاقدمين أعلم بكلام الانبياء وأشد اتباعا لهم فهم الواسطة بينهم وبين الانبياء ، وعلى من بعدهم الاخذ بما يقولون دون ما يقول الانبياء الذين يصعب عليهم فهم كلامهم بزعمهم ، ولكن الله لم يقبل هذا العذر منهم فأسند اليهم ذلك اللبس وكتمان الحق الموجود في التوراة إلى اليوم ، وكذلك لا يقبل الله ممن بعدهم ترك كتابه لكلام الرؤساء بحجة أنهم أكثر علماً وفهماً ، فكل ما يعلم من كتاب الله تعالى يجب العمل به ، وانما يسأل الانسان أهل الفهم عما لا يعلم منه ليعلم فيعمل

ثم قال جل ثناؤه ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ فبعد الدعوة إلى الايمان اليقيني دعاهم إلى العمل الصالح على الوجه النافع المرضي لله تعالى وكانوا ضلوا عنه بالتمسك بالظواهر والوقوف عند الرسوم فقد كانوا يصلون ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة لأن الاقامة هي الاتيان بالشيء مقوما كاملا وهي في الصلاة التوجه إلى الله تعالى بالقلب والخشوع بين يديه والاخلاص له في الذكر والدعاء والثناء ، فهذا هو روح الصلاة الذي شرعت لأجله ولم تشرع لهذه الصورة فان الصورة تتغير في حكم الله تعالى على ألسنة أنبيائه لأنها رابطة مذكرة ، فلم تكن للانبياء صورة واحدة للصلاة ، ولكن هذا الروح لا يتغير فهو واحد لم يختلف فيه نبي ولم ينسخ في دين

ثم أمر بعد الصلاة التي تطهر الروح وتقربها من الله تعالى بالزكاة التي هي عنوان الايمان ومظهر شكر الله على نعمه والصلة العظيمة بين الناس . وقد عهد في القرآن قرن الامر باتيان الزكاة بالامر باقامة الصلاة ، ومن أقام الصلاة لا ينسى الله تعالى ولا يغفل عن فضله ، ومن كان كذلك فهو جدير ببذل المال في سبيله ، مواساة لعياله ومساعدة على مصالحهم التي هي ملاك مصلحته ، فان الانسان انما يكتسب المال من الناس بحذقه وعمله معهم فهو لم يكن غنياً إلا بهم ومنهم ، فاذا عجز بعضهم عن الكسب لآفة في فكره ونفسه أو علة في بدنه ، فيجب على الآخرين الأخذ بيده ، وأن يكونوا عوناً له حفظا للمجموع الذي ترتبط مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر ، وشكراً لله على ما ميزهم به من النعمة ، وظاهر أن الغني في حاجة دائمة

إلى الفقير كما أن الفقير في حاجة اليه، ولكن النفوس تمرض فتغفل عن المصلحة في بذل المال ومساعدة الفقير والضعيف مبالغة وغلوا في حب المال الذي هو شقيق الروح كما يقولون ، لهذا جعل الله بذل المال والانفاق في سبل الخير علامة من علامات الايمان ، وجعل البخل من آيات النفاق. والكفر كما سيأتي في بعض الآيات

قال الاستاذ الامام: إن البخل- ومنبعه القسوة على عباد الله تعالى، والحرص على المال استرسالا في الشهوات، وميلا مع الاهواء - لايجتمع مع الايمان الصحيح في قلب واحد قط . وليس لأحد أن يزعم أنه يؤمن بالله وبما أنزل على رسله من الاوامر والنواهي حتى يقوم بما أمر الله فيما طلب منه على مايحب الله ويرضى

ثم أمر بعد اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالركوع مع الراكعين والركوع صورة الصلاة أو جزء من أجزائها ، وقد أخره ولم يصله بالصلاة لحكمة جليلة لا لرعاية للفاصلة كما زعم بعض المفسرين ، فليس من الجائز أن يكون في القرآن مايعرض فيه اخلال بالمعنى لاجل رعاية الفاصلة ، بل هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس فكيف يقع في كلام الله تعالى ؟ وانما وردت هذه الاوامر الثلاثة مرتبة كما يحب الله تعالى فاقامة الصلاة في المرتبة الاولى من عبادة الله تعالى لانها روح العبادة والاخلاص له ، ويليها إيتاء الزكاة لانها تدل أيضاً على زكاء الروح وقوة الايمان، وأما الركوع وهو صورة الصلاة البدنية أو بعض صورتها أشير به اليها فهو في المرتبة الثالثة فرض للتذكير بسابقيه وما هو بعبادة لذاته ، وانما كان عبادة لأنه يؤدّى امتثالا لأمر الله تعالى واظهاراً لخشيته ، والخشوع لعظمته ، ولكنه قد يصير عادة لا يلاحظ فيها امتثال ولا اخلاص فلا يعد عند الله شيئاً وإن عده أهل الرسوم كل شيء ، بخلاف إقامة الصلاة بالمعنى الذي ذكرناه وإيتاء الزكاة ، ولا يخفى أن الفصل بين معنى الصلاة وصورتها بالزكاة فيه تعظيم لشأن الزكاة وسنتكلم على الزكاة والانفاق في سبيل الله بالتفصيل في تفسير آية أخرى إن شاء الله تعالى

---

(٤٤) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٥) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

الْخَٰشِعِينَ (٤٦) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ

الكلام موجه إلى بني اسرائيل وقد تقدم في الآيات السابقة أن الله ذكرهم بنعمته ، وأمرهم بالوفاء بعهده، وأن يرهبوه ويتقوه وحده ، وأن يؤمنوا بالقرآن، ونهاهم أن يكونوا أول كافر به ، وأن يشتروا باياته ثمنًا قليلا ، وأن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموه عمداً . ثم أمرهم باقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وطفق في هذه الآيات يوبخهم على سيرتهم المعوجة في الدين ، ويهديهم إلى طريق الخروج منها

اليهود كسائر الملل يدعون الايمان بكتابهم والعمل به ، والمحافظة على أحكامه والقيام بما يوجبه ، ولكن الله تعالى علمنا أن من الايمان — بل مما يسمى في العرف إيمانا - مالا يعبأ به ، فيكون وجوده كعدمه ، وهو الايمان الذي لا سلطان له على القلب، ولا تأثير له في اصلاح العمل ، كما قال (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) وكانت اليهود في عهد بعثته عليه الصلاة والسلام قد وصلوا في البعد عن جوهر الدين إلى هذا الحد . كانوا - ولا يزالون - يتلون الكتاب تلاوة يفهمون بها معاني الالفاظ ، ويجلون أوراقه وجلده ، ولكنهم ما كانوا يتلونه حق تلاوته ، لان الذين يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به كما قال تعالى وعلى الوجه الذي يرضاه تعالى : يتلون ألفاظه وفيها البشارة بالنبي ﷺ ويأمرون بالعمل بأحكامه وآدابه من البر والتقوى ، ولكن الاحبار القارئين الآمرين الناهين ما كانوا يبينون من الحق إلا مايوافق أهواءهم وتقاليدهم ، ولا يعملون بما فيه من الاحكام إلا اذا لم يعارض حظوظهم وشهواتهم . فقد عهد الله اليهم في الكتاب أنه يقيم من إخوتهم نبيا يقيم الحق [1] وفرض عليهم الزكاة ،

(١) يشير إلى مافي الفصل الثامن عشر من سفر تثنية الاشتراع: ١٧ قال لي الرب أحسنوا فيما تكلموا ١٨ أقيم - وفي ترجمة أخرى «سوف أقيم» لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ماأوصيه به ١٩ ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه » وفي ترجمة أخرى « فانا أكون المنتقم من ذلك » ولم يبعث بعد موسى نبي مثل موسى في نبوته أي إنه صاحب شريعة مستقلة غير محمد عليه الصلاة والسلام

ولكنهم كانوا يحرفون البشارة بالنبي ﷺ ويؤولونها ، ويحتالون لمنع الزكاة فيمنعونها، وجعلت لهم مواسم واحتفالات دينية تذكرهم بما آتى الله أنبياءهم من الآيات ومامنحهم من النعم لينشطوا إلى إقامة الدين والعمل بالكتاب. ولكن القلوب قست بطول الامد ففسقت النفوس عن أمر ربها. وهذه التوراة التي بين أيديهم لاتزال حجة عليهم، فلوسألتهم عما فيها من الآمر بالبر والحث على الخير لاعترفوا وما أنكروا، ولكن أين العمل الذي يهدي اليه الايمان ، فيكون عليه أقوى حجة وبرهان

كذلك كان شأن أحبار اليهود وعلمائهم في معرفة ظواهر الدين بالتفصيل وكان عامتهم يعرفون من الدين العبادات العامة والاحتفالات الدينية وبعض الامور الاخرى بالاجمال ، ويرجع المستمسك منهم بدينه في سائر أموره الى الاحبار فيقلدهم فيما يأمرونه به ، وكانوا يأمرون بما يرونه صوابا فيما ليس لهم فيه هوى، وإلا لجأوا إلى التاويل والتحريف والحيلة ليأخذوا من الالفاظ ما يوافق الهوى ويصيب الغرض، فاذا وجه الخطاب في قوله تعالى ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ الى حملة الكتاب فذلك لان الامر والنهي وظيفتهم، واذا كان عاما فذلك لان شأن العامة فيما يعرفون من الدين بالاجمال كشأن الرؤساء فيما يعرفون بالتفصيل ، ولا يكاد يوجد أحد لا يأمر بخير ولا يحث على بر فاذا كان الآمر لا يأتمر بما يأمر به فالحجة قائمة عليه بلسانه

وبخ الله هؤلاء القوم على أنهم كانوا يأمرون الناس بالبر كالاخذ بالحق ومعرفته لأهله وعمل الخير والوعد عليه بالسعادة مع الغفلة عن أنفسهم وعدم تذكيرها بذلك ، وما أجمل التعبير عن هذه الحالة بنسيان الانفس ، فان من شأن الانسان أن لا ينسى نفسه من الخير ولا يحب أن يسبقه أحد إلى السعادة ، كأنه يقول : إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البر ووعيده على تركه فكيف نسيتم أنفسكم ﴿ وانتم تتلون الكتاب ﴾ وتأمرون الناس باتباعه وتعرفون منه مالا يعرفه المأمورون ؟ أفيعملون مع نقص العلم بفائدة العمل، ولا تعملون على كمال العلم وسعته ؟ ولما كان هذا غير معقول قفّى على استفهام التوبيخ بقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يعني ألا يوجد فيكم عقل يحبسكم عن هذا السفه فان من له مسكة من العقل لا يدعي كمال العلم بالكتاب والايمان اليقيني به والقيام بالارشاد اليه : هذا

كتاب الله ، هذه وصايا الله ، هذا أمر الله ، قد وعد العامل به السعادة في الدنيا أو الآخرة أو كليهما ، فخذوا به واستمسكوا بعراه ، وحافظوا عليه ، - ثم هو لا يعمل ولا يستمسك ؟

مثل من كانت هذه حاله كمثل رجل أمامه طريق مضيء نصبت فيه الاعلام والصوى بحيث لا يضل سالكه ، ثم هو يسلك طريقا آخر مظلما طامس الاعلام وكلما لقي في طريقه شخصا نصح له أن لا يمشي معه ، وأن يرجع إلى طريق الهدى الذي تركه ، أو مثل ساغب يدعو الناس الى المائدة الشهية ، ويبيت على الجوع والطوى ، أو صادٍ يدل العطاش على مورد الماء ولا يرد معهم

اذا كان هذا لا يقع من صحيح العقل فكذلك أمر المؤمن بشعب الايمان وعدم الائتمار بها ، مع تذكرها وتلاوة كلام الله فيها . فلا بد لتعقل هذا من القول بأن الايمان بالوعد على البر والوعيد على الفجور غير يقيني عند الآمر المخالف . ويؤيده أن القوم كانوا عقلاء في كسب المال وحفظ الجاه الدنيوي وانما ضلوا من جهة الدين بأخذه على غير وجهه

الخطاب عام لليهود الذي كان هذا حالهم وعبرة لغيرهم لانه منبيء عن حال طبيعية للامم في مثل ذلك الطور الذي كانوا فيه ، ولذلك كان القرآن هداية للعالمين الى يوم الدين ، لا حكاية تاريخ يقصد بها هجاء الاسرائيليين ، فلتحاسب أمة نفسها في أفرادها ومجموعها لئلا يكون حالها كحال من ورد النص فيهم فيكون حكمها عند الله كحكمهم ، لان الجزاء على أعمال القلوب والجوارح ، لا لمحاباة الاشخاص والاقوام أو معاداتهم ،

(فان قيل) إن من يأمر غيره بالبر وينسى نفسه قد يكون متكلا في ترك العمل على الشفاعات والمكفرات ، كالاذكار والصدقات ، لا أنه يترك لعدم اليقين في الايمان ، واذا أمر غيره بالبر مع هذا فذاك لانه يلاحظ المكفرات في شأن نفسه ولا يلاحظها في شأن غيره (نقول) ان العالم بالدين لا يخفى عليه أن حكم الله تعالى واحد عام فكيف يحتم البر على غيره ويوهمه أنه لا يقربه من رضوان الله

ويبعده من سخطه الاهو ، وينسى نفسه فلا يحتم عليها ذلك ؟ ثم كيف يجهل أن الشفاعات والاعمال الصالحة التي ورد أنها تكفر السيئات لا يصح أن تكون مثبطة عن عمل البر أو سببا لتركه لانه خلاف المقصود من الدين ؟ فهل يكون فرع من فروع الدين هادما لاصوله وسائر فروعه ؟ كل ذلك كان ينبغي أن يكون بعيداً عن العالم بالدين الذي يتلو كتاب الله تعالى ولكن هذا الضرب من الخذلان يعرض لارباب الاديان عند فساد حال الامم فنبه الله تعالى عليه بهذا التعبير اللطيف وهو نسيان النفس مع تلاوة الكتاب فكأن الزاعم أنه مؤمن ولا يعمل عمل الايمان ، نسي أنه هو الذي يزعم الايمان ، وصاحب هذا النسيان يمضي في العمل القبيح من غير فكر ولاروية بل انبعاثا مع الحظوظ والشهوات التي حكمها في نفسه ، وملكها زمام عقله وحسه ، ولكنه لايلاحظها في غيره عند مايعرض عليه عمله السيء أو يراه معرضا عن عمل البر ولذلك يعظه ويذمه

بعد مابين سوء حالهم وأن عقلهم لم ينفعهم والكتاب لم يذكرهم ، أرشدهم إلى الطريقة المثلى للانتفاع بالكتاب والعقل والعمل بالعلم النافع فان العمل السيء الذي سببه نسيان النفس ليس طبيعيا كالنفس لايمكن دفعه ومقاومته بل هو اختياري

وسببه عارض تمكن إزالته بما أرشد الله اليه في قوله ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ قال الاستاذ الامام : أمر بالصبر وهو كما قال المفسر حبس النفس على ماتكره . ونقول بعبارة أوضح هو احتمال المكروه بنوع من الرضى والاختيار والتسليم ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان كما يقول العامة في أمثالهم . . وذكر مثلا بمعنى قول الشاعر

صبرت ولا والله مالي طاقة على الصبر لكني صبرت على الرغم

والصبر الحقيقي المبني على التسليم يحصل بتذكر وعد الله تعالى بالجزاء الحسن للصابرين على أعمال البر التى تشق على النفس وعن الشهوات المحرمة التي تصبو اليها ، ويتذكر أن المصائب من فعل الله وتصرفه في خلقه فيجب الخضوع له والتسليم لأمره ، ومن عجيب أمر هذا الصبر أنه يقي الانسان من الخسران متى حسن فى كل شيء كما تفيده سورة (العصر) ويؤيده الاختبار ، وقد اشتهر أن « من صبر ظفر » وربما أتينا على شيء من معنى الصبر وأنه قوة من قوى النفس

تدخل النظام في كل عمل من أعمالها — في موضع آخر

الاستعانة بالصبر تكون بالالتفات إلى الاسباب التي تأفك الناس وتصرفهم عن صراط الشريعة كاتباع الشهوات ، والولوع باللذات ، والبعد عن المؤلمات ، ثم بالقياس بينها وبين مارغب الله فيه، أو أوعد بالعقاب على فعله، ثم بملاحظة أن ما أوعد الله تعالى به أولى بأن يتقى ، وما وعد به أولى بأن يرجى ويطلب ، وضرب الاستاذ لمن يفقدون الصبر فيقعون في الخسران مثلا صاحب الحاجة يهزه الطيش والتسرع الى قضاء حاجته ويفقد الصبر على مرارتها فيكذب لاعتقاد أن حاجته تقضي فيدفع المضرة أو يجلب المنفعة بالكذب ، وأنه بالصدق يفوته هذا ، فيقترف جريمة الكذب لهذا الاعتقاد ، وهو ظان بل واهم ، ومتى اقترفه مرة هان عليه فيعود اليه فيكون كذابا [ومتى عرف بذلك ضاعت الثقة به وفسد حاله وأصبح يجد الحاجة إلى الصدق أشد مما كان منها إلى الكذب] ويؤيد ماقاله الاستاذ الامام حديث « لايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » رواه الشيخان عن ابن مسعود ، واذا ذكر مثل هذا الرجل أو تذكر من تلقاء نفسه الوعيد على الكذب وما ورد في ذلك من آيات في كتاب الله وآثار عن رسول الله ﷺ وآله وأصحابه ومن تبعهم باحسان ، وما يجلبه لصاحبه من مقت الله وغضبه ، يسبق إلى ذهنه المكفرات (ومثلها الشفاعات وسعة العفو والمغفرة) كالاستغفار قبل النوم مائة مرة ، وقول كذا من الذكر بعد صلاة الصبح كذا وكذا مرة فلا يبقى للوعيد معها أثر، إذ يذعن بأن ذنبه يغفر لامحالة ، وينسى سبب المغفرة الحقيقي وهو التوبة النصوح والرجوع إلى الله تعالى ، وأن العفو عن غير التائب الاواب إلى الله تعالى مجهول بالنسبة إلى علمنا وإن كان جائزاً عقلا، فاننا لم نطلع على مافي علم الله تعالى فنعلم أننا ممن يعفو عنهم

[وكيف نترك ماجاء عن الله في كتابه وعلى لسان نبيه من النصوص القاطعة الدالة على أن لعنة الله مسجلة على الكاذبين وهي بعمومها لاتدع لوهم مجالا في نزول سخط الله بالكاذب، ثم نخترع لأنفسنا تعلة نتوكأ عليها في ارتكاب هذه الجريمة ونسندها إلى سعة عفو الله ، أو إلى مجمل من القول لايبينه إلا تلك النصوص القاطعة؟ إن هذا إلا

خبال أو تصوير خيال ، أو فقد للايمان بصحة تلك النصوص القاطعة نعوذ بالله]

(وأقول) انما جعل شيخنا جريمة الكذب مثلا لاستباحة فاسدي الدين للمعاصي لانه في معناه العام أكبر الكبائر وشر الرذائل حتى ان الكفر والشرك شعبة منه ولانه ليس مما تغلب المرء عليه سورة غضب أو ثورة شهوة بل يقترف بالتروي والتعمد ولانه مع ذلك عام فاش في جميع طبقات الناس في عصرنا هذا حتى العلماء والوزراء ومن فوقهم. ومن العجائب اننا سمعنا بآذاننا وقرأنا ورويناعن اعداء الاصلاح وأهله من افتراء الكذب علي دعاته مالا تستطيع عقولنا له تأويلا إلا بما كتبه شيخنا في هذه العبارة من الخبال في أنفسهم التي فسدت فطرتها .أو من فقد الايمان بصحة النصوص إما فقداً تاماً عاما وإما فقداً خاصاً بالحال التي يفترون فيها الكذب وغيره من الجرائم على حد ماورد في الحديث المتفق عليه « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » الخ على أحد التأويلات له . ووجه العجب والغرابة في هذا النوع من الكذب أنه بحسب الظاهر انتصار للدين ودفاع عنه وهو هدم له.

ثم أقول ان مثل من يقترف السيئات معتمداً على العفو والشفاعة كمثل من يرتكب الجرائم في ملأ من الناس وعلى رءوس الاشهاد متعرضا لقبض الشرطة عليه وسوقه إلى المحكمة لتحكم عليه بعقوبة الجريمة اعتماداً على أن الامير أو السلطان قد يعفو عنه بعد الحكم عليه بالعقوبة ومثل هذا لايختلف اثنان في حمقه .والله تعالى قد بين لنا شرط نفع الأعمال الصالحة في مغفرة الذنوب وهو اقترانها بالتوبة الصحيحة كقوله في حكاية دعاء الملائكة للمؤمنين (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) الآيات وقوله (ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) وقوله (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) ، أما الشفاعة فحسبك قوله فيها (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) مع الجزم بأنه تعالى لايرضى بالكذب ولا بغيره من الجرائم . ومن يأذن تعالى لهم بالشفاعة لايعلمهم غيره عز وجل

ثم قال الاستاذ الامام مامعناه : ومن الناس من يكتفي بالاعتذار عن ذنوبه وجرائمه بأنه غير معصوم ، وذكر بعض الشواهد عمن يظن أن لهم في الدين قدم صدق ، وقال إن من هذا رأيه يتصور ان الصدق واتباع الحق ا ا هو شأن طائفة

معدودة من البشر وهم الانبياء عليهم السلام ، وكل من عداهم فليس من شأنه أن يثبت على عمل صالح ، ويكتفي بهذه التكأة في تسلية نفسه وتجريئها على الجرائم ، وكفى بهذا حمقاً ، فليس يلزم من كون غير النبي ليس معصوما أن يكون إلف مآثم ، وحلف جرائم ، وخدن عظائم ، ولو لزم أن يكون الناس هكذا لكانت الشرائع عبثاً ، والتهذيب لغواً ، ولفسدت الارض وخرب العمران

[وهل يصح في حكم العقل أن يقال إن الشرائع والحدود وضروب الوعد والوعيد لم ينعم الله بتشريعها إلا لأجل المعصومين؟ وهل يحتاج المعصوم إلى وعد أو وعيد وما فائدتهما بالنسبة اليه، وقد أيقن بتوفيق الله له وأنه لا يأتي أمراً يخالف ما أمر به، ولا يقترف شيئا مما نهي عنه ؟ ثم كيف لا يكون لغير المعصومين نصيب في الوعيد ولا الزجر مع أنهم أحق الناس بالردع وأحوجهم إلى التخويف من سوء العاقبة]

وأما الاستعانة بالصلاة فهي أقرب إلى حصول المأمول وارجاع النفس إلى الله تعالى لما لها من التأثير في الروح ولكنها أشق على النفس الامارة بالسوء ، ولذلك قال تعالى ﴿ وانها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ أي لثقيلة شديدة الوقع كقوله (كبر على المشركين ماتدعوهم اليه) إلا على المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى فهؤلاء هم الذين يستفيدون بالصلاة الصبر وكل الخلائق الحسنة لما تعطيه الصلاة من مراقبة الله تعالى كما قال عز وجل (ان الانسان خلق هلوعا * اذا مسه الشر جزوعا* واذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين) فمن خواص الصلاة الصبر ونفي الجزع ، ومن خواصها النهي عن الفحشاء والمنكر ، ومن خواصها الجود والسخاء ، ـ فالمصلي الحقيقي هو البار الحقيقي الذي لا يترك الحق لاجل شهوة ، ولا لما يعرض له في معاملاته مع الخلق من خوف وخشية . هذا أثر صلاة الخاشعين بالاجمال ولذلك قال تعالى (قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون)

ثم وصف الخاشعين وصفا يناسب المقام ويظهر وجه الاستعانة به فقال ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون ﴾ أي الذين يتوقعون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء وانهم اليه راجعون بعد البعث لا مرجع لهم الى

غيره ـ قال شيخنا فالايمان بلقاء الله تعالى هو الذي يوقف المعتقد عند حدوده ، ولو لم يكن الاعتقاد يقينياً ، فان الذي يغلب على ظنه أن هذا الشيء ضار يجتنبه أو أنه نافع يطلبه ، ولذلك اكتفى هنا بذكر الظن ، وقد فسر الظن مفسرنا (الجلال) باليقين لأنه الاعتقاد المنجي في الآخرة وفاته أن الاكتفاء بالظن أبلغ في التقريع والتوبيخ كأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يقرءون الكتاب لا يصل إيمانهم بالله وبكتابه إلى درجة الظن الذي يأخذ صاحبه بالاحتياط (أقول) بل هو تقليد عادي محض كالعادات القومية والوطنية فهو لا ينجي صاحبه في الآخرة

(٤٦) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ

تقدم تذكير بني إسرائيل بالنعمة في آية قبل هذه الآية مقرونا بالامر بالوفاء بعهد الله وبالوعد بالجزاء عليه والأمر بالخشية منه والرهبة له وحده، (وهي آية ٣٩) وتلاها آيات أمرهم فيها بالايمان بالقرآن ونهاهم عن لبس الحق بالباطل وكتمانه . ثم أمرهم باقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم وبخهم على نسيان أنفسهم من البر مع أمرهم للناس به وتلاوتهم الكتاب الداعي اليه، ودلهم على الطريق التي لو سلكوها عوفوا من هذا النسيان ، تلك الطريق هي الاستعانة بالصبر والصلاة التي فقدوها بفقد روحها وهو الاخلاص والخشوع . وبعد هذا عاد إلى التذكير بالنعمة نوع من التفصيل فان النعمة في الآية الاولى مجملة والاجمال ينبه الفكر إلى الذكر في الجملة ، فاذا تلاه التفصيل والبيان كان على استعداد تام لكمال الفهم [فيكون التذكر أتم والتأثر أقوى ، والشكر على النعمة أرجى]

ثم طلب منهم أن يذكروا نعمته عليهم وتفضيله إياهم على الناس إحياء لشعور الكرامة في نفوسهم، ووصله بالامر باتقاء يوم الدين والجزاء . وهذا أسلوب حكيم في الوعظ فينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه باحياء احساس الشرف وشعور

الكرامة في نفوس الموعوظين لتستعد بذلك لقبول الموعظة [ونجد من ذلك الاحساس معونة من العزيمة الصادقة التي هي من خصائص النفوس الكريمة على عوامل الهوى والشهوة ، فان النفس اذا استشعرت كرامتها وعلوها ونظرت إلى مافي الرذائل من الخسة أبى لها ذلك الشعور شعور العلو والرفعة أن تنحط إلى تعاطي تلائم الخسائس ، وكان ذلك من أقوى الوسائل لمساعدة الواعظ على بلوغ قصده من نفس من يوجه اليه وعظه، ثم إن في الوعظ مساً يؤلم نفس الموعوظ وجرحا يكاد يحملها على النفرة من تلقينه والاستنكاف من سماعه ، فذكر الواعظ لما يشعر بكرامة المخاطب ورفعة شأنه، وإباء ماينمي اليه من الشرف أن يدوم على مثل مايقترف، يقبل بالنفس على القبول كما يقبل الجريح على من يضمد جراحه ويسكن آلامه]

ألا وإن هذا الشعور شعور الشرف والرفعة ملازم للانسان لا يفارقه ولكنه قد يضعف حتى لا يظهر له أثر، وفي تحريك الواعظ له اعتراف ضمني بكرامة وفضل للموعوظ يشفعان له بما يستلزمه الوعظ من مظنة الاهانة فيسهل احتماله ويقرب قبوله

شعور العزة والكرامة أمر شريف يحييه الايمان في نفوس المؤمنين الصادقين بل يستلزمه على وجه أكمل لان صاحب الايمان الصحيح يرى أن له نسبة الى الرب العظيم خالق السموات والارض، وأنه سنده ومِمدّه، وعند ذلك تعلو نفسه وترتفع كما قيل:

قوم يخالجهم زهو بسيدهم　　والعبد يزهو على مقدار مولاه

من كان يشعر لنفسه بقيمة أو يجد لها حقا في أن تعز وتكرم تراه إذا خلا بنفسه وتذكر أنه ألمّ بنقيصة يتألم ويتململ ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .واذا تذكر المؤمن أن قلبه الذي تشرف بمعرفة الله تعالى [وأن شرف تلك المعرفة خلصه من العبودية لغيره وصيره مربوبا لرب العالمين وحده فهو في ذلك مع أرفع رفيع وأكرم كريم سواء ـ اذا ذكر ذلك لم ير من اللائق بمثل هذا الاختصاص أن يجاوره مايدنسه من الاستعباد لما يذله ، بل يرى أن ذلك الشعور الطاهر والعرفان الهادي الى مقامات الكرامة لا ينبغي أن يزاحمه في موطنه من القلب دنس من رجس الرذائل] فينفر من هـذه المزاحمة وتثقل عليه ويسهل عليه التزكي مما ألمّ به والانابة الى الله تعالى (قال) لهذا بدأ الله تعالى تذكير بنى اسرائيل بما بدأ وثنّى بما ثنى ،

وهو يتضمن من التقريع والتوبيخ مايشعر بغلظ طباعهم وفساد قلوبهم فان من لايتأدب باحياء احساس الكرامة، يؤدب بالتأنيب والاهانة

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشارة

فقوله تعالى ﴿ يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ مؤكد لمثله في الآية ٣٩ وتمهيد لما عطفه عليه من تفصيل الاجمال في الآية وما بعدها من الآيات، وما اقترن به من بيان كفرهم للنعم، وما تخللها من المواعظ والحجج، وأوله وأعلاه قوله ﴿ واني فضلتكم على العالمين ﴾ أي أعطيتكم من الفضل — وهو الزيادة فيما يحسن — مالم أعط غيركم من الشعوب حتى ذات المزايا الدنيوية كالمصريين وسكان البلاد المقدسة

قال الاستاذ الامام مامعناه: ناداهم باسم أبيهم الذي هو أصل عزهم وسؤددهم ومنشأ تفضيلهم، وأسند النعمة اليهم جميعا لا إليه وحده لان النعمة عمتهم والتفضيل شملهم، ثم طفق يفصل النعمة التي ذكرها مجملة فيما سبق بذكر أمهات أنواعها فذكر تفضيلهم على العالمين بمحض كرمه وفضله، فان بني اسرائيل كغيرهم من البشر. والتفضيل هو مناط الاخذ بالفضائل وترك الرذائل، لان الذي يرى نفسه رذلا خسيسا لايبالي ما يفعل. ومن يرى نفسه مفضلا مكرما فانه يترفع عن الدنايا والخسائس التي تدنس شرفه وتذهب بفضله. والحكمة في التذكير بالتفضيل أن يتذكروا أن الذي فضلهم له أن يفضل غيرهم كمحمد ﷺ وأمته، وتنبيههم الى عدم الذهول عن أنفسهم ليذكروها عند أمر الناس بالبر، ويعلموا أنهم أولى بأن يبروا ممن يأمرونهم بالبر، لانهم يتلون الكتاب الداعي اليه وهو آية تفضيلهم. والى أنهم أحق باستعمال الفكر في الآيات التي أوتيها النبي ﷺ وأجدر من جميع الشعوب بالايمان به، فان المفضل أولى بالسبق الى الفضائل ممن فضل هو عليه

ثم ان الفضل على العالمين ان كان بكثرة الانبياء فيهم فهو ظاهر على عمومه لانه لا يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم في هذه المزية. ولا تقضي هذه الفضيلة بأن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، ولا تنافي أن يفضلهم أخس الشعوب — بله غيره — اذا هم انحرفوا عن هدي أنبيائهم وتركوا سنتهم واهتدى اليها

ذلك الشعب الذي كان مفضولا . وان كان المراد من التفضيل هو القرب من الله تعالى بمرضاته فلا بد من تخصيصه بأولئك الانبياء والمهتدين بهم من أهل زمانهم والتابعين لهم فيه ، ومن تقييده بمدة الاستقامة على العمل الذي استحقوا به التفضيل

ثم قال تعالى ﴿ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ﴾ أي واحذروا يوماً عظيما أمامكم سيقع فيه من الحساب والجزاء مالا منجاة من هوله إلا بتقوى الله في جميع الاحوال ، ومراقبته في جميع الاعمال، فهو يوم لا تقضي فيه نفس مهما يكن قدرها عظيما عن نفس مهما يكن ذنبها صغيراً شيئا ما كحمل وزرها ، أو تكفير ذنبها ،(٣٥ : ١٨ ولا تزروا وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة الى حملها لايحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) وصف اليوم بهذا الوصف ولم يقل يوم القيامة مثلا للاشعار بأن التصرف في ذلك اليوم والامر كله لله ، فليس فيه ما اعتاد الناس في هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض. وعبر عن هذا المعنى في أول سورة بقوله (مالك يوم الدين) ثم وصفه هنا بوصف آخر يناسب الاول فقال ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (ولا تقبل) بالتاء، والمعنى لا يقبل منها أن تأتي بشفيع يشفع لها ولا يؤخذ منها فداء أو بدل ان هي استطاعت أن تأتي بذلك كما يظن أكثر الكفار ولن تستطيع . قال البيضاوي وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع أحد عن أحد العذاب من كل وجه محتمل، وفصل هذه الوجوه بما يشمل الثلاث المنفية، وجملة المعنى أنه يوم لا تأثير لأحد فيه ولا كسب، ولا ينطق فيه أحد إلا باذن الله تعالى . وقال (الجلال) أي ليس لها شفاعة فتقبل ، واستدل بقوله تعالى حكاية عن المجرمين في الآخرة (فما لنا من شافعين) الآية وفسر العدل بالفداء. قال ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي يمنعون من عذاب الله .

قال الاستاذ الامام ولا دليل في هذا على أن المراد ماذكره في مسألة الشفاعة وانما السياق في الآية وأمثالها يدل على أن المراد بيان أن ذلك اليوم يوم تتقطع فيه الاسباب، وتبطل منفعة الانساب، وتتحول فيه سنة هذه الحياة من انطلاق الانسان في اختياره يدفع عن نفسه بالعدل والفداء ، ويستعين على المدافعة بالشفاعة عند

السلاطين والامراء ، وقد يوجد له فيها أنصار ينصرونه بالحق وبالباطل على سواء . بل يكون له في ذلك اليوم شأن آخر مع ربه تضمحل فيه جميع الوسائل إلا ماكان من اخلاصه في عمله، قبل حلول أجله ، ورحمة الله العلي الكبير له ، لضعف حوله ، وضيق طوله ، وأنه يوم لايتحرك فيه عضو إلا باذن الله ، ولا يقدر أحد أن ينبس بكلمة إلا باذن الله (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله)

كان اليهود المخاطبون ببيان هذه الحقيقة كغيرهم من أمم الجاهلية وأهل الملل الوثنية كقدماء المصريين واليونان يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا فيتوهمون أنه يمكن تخلص المجرمين من العقاب بفداء يدفع بدلا وجزاء عنه - كما يستبدل بعض حكامهم منفعة مالية بعقوبة بدنية - أو بشفاعة من بعض المقربين إلى الحاكم يغير بها رأيه ويفسخ ارادته . ولقد اكتسح الاسلام هذه العقائد وآثارها العملية بالتوحيد الخالص، وأتى بنيانها من القواعد، ولكن المسلمين لم يسلموا منها فقد دخل في الاسلام أقوام يحملون أوزاراً مما كانوا عليه من الوثنية، ولم يلقنوا الدين من القرآن ولا كما أرشد القرآن، ولكنهم تقلدوه ممن لا يعرفه حق المعرفة، ولقنوه كما ترشد إليه كتب التقليد من مصطلحات مبتدعة ، فكانوا على بقية مما كان عندهم وعلى جهل بالاسلام، وجاء قوم آخرون تعمدوا الافساد فجعلوا بالتأويل الباطل حقاً، والكذب صدقا

وذكر الاستاذ الامام هنا بعض العادات المصرية التي لا تزال يعمل بها باسم الدين، وهي من إرث قدماء الوثنيين ، كاعطائهم لغاسل الميت شيئاً من النقد يسمونه «أجرة المعدية» أي أجرة نقله إلى الجنة. وغير ذلك مما يعملونه للأموات ، ولمن يعتقدون فيهم الولاية والقرب من الله، ومثله أكثر تقاليدهم في بناء المقابر واحتفالاتها

ثم ذكر المكفرات التي يعتقدها اليهود كقربان الاثم وقربان الخطيئة وقربان السلامة والمحرقة والاكتفاء ممن لم يجد القربان بحمامتين يكفر بهما عن ذنبه وقال : وكانوا يفهمون أن هذه الاشياء تكفر الذنوب بذاتها والحق أنها عقوبات لا مكفرات، فان من فهم التوراة حق فهمها يعلم أن المكفر الحقيقي هو التوبة والاقلاع عن الذنب ثم تقديم القربان يكون تربية وعقوبة . وقد أخبرهم الله تعالى في هذه الآية بأن يوم القيامة لا يقبل فيه عدل يفتدي الانسان به قال : وكانوا يعتقدون أنهم بانتسابهم

للانبياء لايدخلون النار أو لاتمسهم إلا أياما معدودة ، لأن لهم الجاه والتأثير يوم القيامة ولا يرضون أن يتركوا أبناءهم في العذاب ، ثم زادوا على ذلك شفاعة الاحبار لمن ينتسب اليهم . ومتى ضعف الدين يوجد من رؤسائه من يروج هذه العقائد في العامة لما تسوق اليهم من المنافع . وكذلك كان اليهود حتى جاء الاسلام بهذه الآية وأمثالها فمحا هذه العقيدة ليعلم المؤمنون به أنه لاينفع الانسان يوم القيامة إلا مرضاة الله تعالى بالايمان الخالص والعمل الصالح

في القرآن آيات ناطقة بنفي الشفاعة مطلقاً كقوله تعالى في وصف يوم القيامة (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وأخرى ناطقة بنفي منفعة الشفاعة كقوله عز وجل (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وآيات تقيد النفي بمثل قوله تعالى (إلا باذنه) وقوله (إلا لمن ارتضى) فمن الناس من يحكم الثاني بالاول ومنهم من يرى أنه لامنافاة بينهما فنحتاج إلى حمل أحدهما على الآخر لان مثل هذا الاستثناء (أي الاستثناء بالاذن والمشيئة) معهود في أسلوب القرآن في مقام النفي القطعي للاشعار بأن ذلك باذنه ومشيئته عز وجل كقوله تعالى(سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله) وقوله (خالدين فيها مادامت السموات والارض إلا ماشاء ربك) فليس في القرآن نص قطعي في وقوع الشفاعة ولكن ورد الحديث باثباتها فما معناها ؟

الشفاعة المعروفة عند الناس هي أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل أو ترك كان أراد غيره — حكم به أم لا — فلا تتحقق الشفاعة إلا بترك الارادة وفسخها لأجل الشفيع . فأما الحاكم العادل فانه لايقبل الشفاعة إلا اذا تغير علمه بما كان أراده أو حكم به كأن كان اخطأ ثم عرف الصواب ورأى أن المصلحة أو العدل في خلاف ما كان يريده أو حكم به . وأما الحاكم المستبد الظالم فانه يقبل شفاعة المقربين عنده في الشيء وهو عالم بأنه ظلم وأن العدل في خلافه ، ولكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرب منه على العدالة . وكل من النوعين محال على الله تعالى لأن ارادته تعالى على حسب علمه وعلمه أزلي لا يتغير

(قال شيخنا) فما ورد في اثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات وفيه يقضي مذهب السلف بالتفويض والتسليم ، وانها مزية يختص الله بها من يشاء

يوم القيامة عبر عنها بهذه العبارة «الشفاعة» ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة في لسان التخاطب العرفي

وأما مذهب الخلف في التأويل فلنا أن نحمل الشفاعة فيه على أنها دعاء يستجيبه الله تعالى[1] والاحاديث الواردة في الشفاعة تدل على هذا ففي رواية الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ يسجد يوم القيامة ويثني على الله تعالى بثناء يلهمه يومئذ فيقال له «ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع» وليس في الشفاعة بهذا المعنى أن الله سبحانه يرجع عن ارادة كان أرادها لاجل الشافع وانما هي اظهار كرامة للشافع بتنفيذ الارادة الازلية عقيب دعائه، وليس فيها أيضاً مايقوي غرور المغرورين الذين يتهاونون بأوامر الدين ونواهيه اعتماداً على شفاعة الشافعين، بل فيه أن الامر كله لله، وأنه لا ينفع أحداً في الآخرة إلا طاعته ورضاه (فما تنفعهم شفاعة الشافعين * فما لهم عن التذكرة معرضين؟ * ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)

---

(٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ

هذه الآية كالتي قبلها واللواتي بعدها تفصيل لنعمة الله على شعب اسرائيل التي ذكرت من قبل مجملة وابتدىء التفصيل بذكر التفضيل لما تقدم من الحكمة في ذكره وهو نهوض الهمة إلى التخلق بالاخلاق الفاضلة والترفع عن الرضا بمادون المقام الذي رفعهم الله اليه، وتوطين النفس لقبول الموعظة الخ ماتقدم . ثم ذكرهم بما حل بهم من البلاء والعقوبات جزاء على جرائمهم، وبلطف الله تعالى بهم وانجائهم من البلاء وتوبته عليهم المرة بعد المرة ليعرفهم مقدار فضله وعقوبته معاً

والآية معطوفة على ماقبلها من سلسلة التذكيرات فقوله ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ عطف تفصيل على الاجمال في قوله (اذكروا نعمتي) أي نعمي الكثيرة لأن المفرد المضاف يفيد العموم، أي واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون

«١» قال بمثل هذا شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره ولم يعدوه تأويلا .

وفرعون لقب لمن تولى ملك مصر قبل البطالسة ، وآله خاصته وقد يطلق على قومه قدماء المصريين . ولما كانت التنجية لاتكون إلا من ظلم أو شر بين ماتجاهم منه بقوله ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يكلفونكم ويبغونكم مايسوءكم ويذلكم من العذاب، ثم بين ذلك بقوله ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ أي يقتلون ذكران نسلكم ويستبقون إناثه أحياء لاضعافكم وإذلالكم المفضي الى قطع نسلكم وإبادتكم ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أي وفي ذلكم العذاب وفي التنجية منه — في كل منهما — بلاء وامتحان عظيم لكم من ربكم كما قال في آية أخرى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون)

(قال الاستاذ الامام) في هذه الآية بعد قراءة عبارة الجلال ما مثاله : خاطب الذين كانوا في زمن النبي ﷺ بما كان لآبائهم لان الانعام على أمة بعنوان أنها أمة كذا هو انعام شامل للامة من اصابه ذلك الانعام من أفرادها ومن لم يصبه ، ويصح الامتنان به على اللاحقين منهم والسابقين كما يصح الفخر به منهم أجمعين ، كما أن الانعام على شخص بشيء يختص بعضو من أعضائه كلبوس يلبسه ، أو لذيذ طعام يطعمه ، يكون انعاما على الشخص ، ولا يقال إنه انعام على لسان فلان ولا على رأسه ، أو يده أو رجله . ولان ماوصل إلى مجتمع بعنوان ذلك الاجتماع والرابطة التي ربطت أفراده بعضهم ببعض يكون له أثر في مجموع الافراد لاسيما اذا كان الواصل من نقمة أو نعمة مسبباً عن عمل الامة شراً أو خيراً، ويكون لذلك أثر في الامة يورثه السلفُ الخلفَ مابقيت الامة. وأنواع البلاء التي ذكر بها اليهود في القرآن كانت لشعب اسرائيل من حيث هو شعب اسرائيل لان الجرائم التي كان البلاء عقوبة عليها انما كانت من مجموع الشعب من حيث هو شعب اسرائيل ، ثم إن الله تعالى كان يتوب على الشعب بعد كل بلاء ويفيض عليه النعم فتكون العقوبة تربية وتعليما تفيد المعتبرين بها نعمة وسعادة

لاأقول إن هذا الخطاب إيماء أو اشارة للمخاطبين بأن يستحضروا تاريخ أمتهم الماضي ليتذكروا صنع الله تعالى فيهم فيعتبروا بما أصابهم من نعماء وضراء، وسعادة وشقاء ، ويتفكروا فيما حل بهم من بعدهم ، وما ينتظر أن يحل بهم، وإذا

الكلام نص صريح لايحتاج إلى التأويل . فالروابط الاجتماعية بين أفراد الامم وجماعاتها كالروابط الحيوية بين أعضاء الشخص الواحد بلا فرق . تعثر الرجل فتخدش أو توثأ والألم يلم بالشخص كله من حيث هو شخص حي بحياة واحدة تستوي فيها رجله وسائر أعضائه ، ولذلك يسعى بجملته لازالة ألم الرجل ويتوقى أسباب العثار بعد ذلك مستعيناً بكل أعضائه وقواه

علمنا الله تعالى هذا بما قص علينا من أخبار الامم وأنعم على أمتنا (التي لاتختص بشعب ولا جنس) بهذا القرآن الكريم فكان لهم به نعم لاتحصى تعرف من الكتاب والسنة. منها أنهم كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته اخواناً. ومنها أنهم كانوا مستضعفين فمكن لهم في الارض وأورثهم أرض الشعوب القوية وديارهم وجعل لهم السلطان عليهم . ومنها أنه جعلهم أمة وسطاً لاتفريط عندها ولا إفراط ، ليكونوا شهداء على الناس الذين غلوا وأفرطوا ، والذين قصروا وفرطوا، ثم لما كفرت بأنعم الله أنزل بها ألواناً من البلاء والنقم بعنوان الامة فان التتار انما نكلوا بها وتبروا ماعلوا تتبيراً لأنها الامة الاسلامية، ثم زحف عليها الغربيون أيام حروب الصليب وجاسوا خلال الديار لانها الامة الاسلامية ، ثم إن الفتن لاتزال تحل بديارها، وتنقصها من أطرافها، وسوط عذاب الله يصب عليها بعنوان الامة الاسلامية ، وقد مرت عليها قرون وهي لاتعتبر بما مضى ، ولا تتربى بما حضر ، بل جهلت الماضي فحارت في الحاضر، لاتعرف سببه ولا المخرج منه .

أليس من العجيب أن الجمهور الاعظم من المشتغلين بالعلم منها هم أجهلها بتاريخها ، لايعرفون شيئاً من ماضيها ولا حاضرها ؟ ولكنهم يعترفون بأن الامة في بلاء كبير ، ويعتذرون بالقضاء والقدر عن معرفة الاسباب ، ويكلون إلى القضاء والقدر النجاة منه أو البقاء فيه

إن هذه الامة أمة واحدة وإن اختلفت ديارها وتعددت أجناسها ، ولا يمكن أن تعرف حقيقتها الا بعد معرفة تاريخها الماضي ، فلابد من تتبع السواقي والجداول إلى الينبوع الاول الذي هو الاصل

كان سلفنا رضي الله تعالى عنهم يضبطون أحوال من قبلهم من أمور الدين والدنيا

بكل اعتناء ودقة حتى كانوا يروون البيت من الشعر أو النكتة بين العاشق ومعشوقته بالاسانيد المتصلة ، وليست هـذه المبالغة مما يؤخذ عليهم فانما لامة إنما تكون أمة بدينها ولغتها وأخلاقها وعاداتها، فاذا لم يحفظ خلفها عن سلفها هذه المقومات[1] بحفظ تاريخها تكون عرضة للتغير بتأثير حوادث الزمان وتقلبات شؤون الاجتماع مع جهل المتأخر بما كان عليه المتقدم وبكيفية حـدوث التغير الضار للجهل بالتاريخ . بهـذا تفعل فواعل الـكون بالامة الجاهلة أفاعيلها حتى تقلب كيانها ، وتقوض بنيانها ، وتقطع عرى الربط العامة بين أفرادها ، فلا يكون لهم عمل إلا للمصلحة الشخصية وهي لا حفاظ لهـا في مجموع الامة إلا بالمصلحة العـامة فاذا أهملت تكون الامة من الهالـكين

عنيت أمتنا بالتاريخ عناية لم تسبقها به أمة فلم تكتف بضبط الوقائع وتلقيها بالرواية كالسنة النبوية بل تفننت فيها فصنفت في تاريخ الاشخاص كما صنفت في تاريخ البلاد والشعوب ، ثم نوعت تاريخ الاشخاص فجعلت لـكل طبقة تاريخا فترى في المـكاتب طبقات المفسرين وطبقات المحدثين وطبقات النحويين وطبقات الاطباء وطبقات الشعراء الى غير ذلك . ثم اهتدى بعضهم الى استنباط قواعد العمران وأصول الاجتماع من التاريخ فصنف ابن خلدون في ذلك مقدمة تاريخه. ولو لم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك العهد لـكنا أتممنا ما بدأ به سلفنا ولـكننا تركناه وسبقنا غيرنا الى اتمامه واستثماره . فالتاريخ هو المرشد الا كبر للامم العزيزة اليوم الى ماهي فيه من سعة العمران ، وعزة السلطان ، وكان القرآن هو المرشد الاول للمسلمين الى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الامم منه وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسـيرة السلف هو المرشد الثاني الى ذلك فلما صار الدين يؤخذ من غير الـكتاب والسنة أهمل التاريخ بل صار ممقوتا عند أكثر المشتغلين بعلم الدين ، فان وجد من يلتفت اليه فانما يكون متبعا في ذلك سنة قوم آخرين ،

«١» المراد بالمقومات ما به قوام الأمة من صفاتها التي تفصلها عن غيرها كمقومات الفصول لانواع الجنس في اصطلاح المنطق، وقد سبقت الى استعمال هذا الاصطلاح في شؤون الامم هنا وفي المنار فيما أعلم ثم استعمله الكتاب

نكتفي الآن بهذا التنبيه ونعود الى اتمام تفسير الآية التي صرفتنا اليه بمخاطبة بني اسرائيل في زمن تنزيل القرآن بما كان من تعذيب آل فرعون لسلفهم وانعام الله عليهم بالانجاء من ذلك العذاب

أول من دخل مصر من بني اسرائيل هو يوسف عليه السلام وانضم اليه بعد ذلك اخوته ونما نسله ونسلهم فيها وكثر حتى قيل انهم كانوا يوم خرجوا من مصر ستمائة الف وهذا النمو كان في مدة أربعمائة سنة . وكان المصريون من آل فرعون لايحبون مساكنة الغرباء [1] فلما رأى فرعون نمو شعب اسرائيل خاف مغبة الامر لأنه كان يعلم أنهم اذا كثروا يتبسطون في الارض ويزاحمون المصريين فطفق يستذلهم ويكلفهم الاعمال الشاقة كصنع الطوب لبناء الهياكل والبرابي لعلمه بأن الذل يقلل النسل ويفضي بالامة الى الانقراض، ولكنهم ظلوا مع الاستذلال يتناسلون ويكثرون . فلما رآهم الحكام المصريون يزدادون نسلا وأنهم مع هذا محافظون على عاداتهم وتقاليدهم ولا يمازجون المصريين وعندهم الأثرة والاباء لاعتقادهم أنهم شعب الله وأفضل خلقه ، خافوا أن يقووا بالكثرة فيعدوا عليهم ويغلبوهم على بلادهم كلها أو بعضها، وانما كانوا يزدادون على الذل نسلا لان الذل لايؤثر الا في الزمن الطويل، ذلك بأن الذليل الذي لاتطلق إرادته في أعماله هو

«١» يوجد في المصريين الآن من يكتب ويخطب لاحياء سنة آل فرعون ببغض المهاجرين الى مصر ويبغض فيهم وإن كانوا على لغته ومن اتباع حكومته العثمانيـة وكذا من أهل الدين الذي ينتمي اليه . ويوجد شرذمة من المصريين تلغط بلفظ المصريين والدخلاء انخداعا بالدعوة الى السنة الفرعونيـة التي تبطل اذا نجحت «ولن تنجح» سنة القرآن الذى ارشد الى ان الله جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا ويتمازجوا وجعل اكرمهم اتقاهم وأنفعهم لعباده وقد اهتدى فلاسفة اوربا الى ان هذه السنة غاية كمال البشر اه من حاشية المنار سنة ١٣٢٠

وأقول الآن عند طبع هذا مستقلا في أوائل سنة ١٣٤٦ إن تلك النزعة قد قويت ووجد من القبط وزنادقة المسلمين من يجعلون الجنسية المصرية فوق الاسلام ومنهم من يدعون الى التفصي من الدين والجنسية العربيـة والى استبدال التفرنج بهما كما فعل الكماليون في الترك

بمنزلة الشخص الذي يضعف عن تناول الغذاء الذي يمد حياته فهو يذبل رويداً رويدا حتى ينحل ويموت. والقوة المعنوية التي تحفظ حياة الامم هي قوة الارواح والارادات لان الجسم محمول بالروح . والعمل النافع إنما يكون بالارادة فمتى خذلت النفوس بالتسلط على ارادتها تبعها الجسم فيضعف بضعفها. والضعيف يأتي بنتاج ضعيف ويكون نسل نتاجه أضعف من نسله ويتسلسل هكذا حتى يكون من لوازم ضعف النسل اسراع الموت الى صغاره قبل بلوغ سن الرشد . وبهذا ينقرض النسل كما حصل لهنود أمريكا وسكان شمالي أوستراليا .

استبطأ المصريون أثر الاستذلال في الاسرائيليين فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم واستحياء إناثهم فأمر فرعون القوابل بأن يقتلن كل ذكر لبني اسرائيل عند ولادته لان من سنة الله في الخلق أن قوام الشعوب والقبائل وحفظ الاجناس انما يكون بالذكور . وقال مفسرنا (الجلال) تبعا لغيره ان سبب العذاب وتقتيل الابناء دون البنات هو أن بعض الكهنة أخبر فرعون بأن سيولد من بني اسرائيل ولد ينزع منه ملكه ويكون على يديه هلكه (قال الاستاذ الامام) وليس لهذا القول سند صحيح ولا يعرف في التاريخ وما قلناه هو الذي يعرفه بنو اسرائيل ويتناقلونه في كتبهم المعروفة بالمقدسة وغير المقدسة وهو المعقول في نفسه أيضا .

---

(٥٠) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥١) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥٢) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٣) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

جاء في الآية السابقة ذكر تنجية بني اسرائيل من آل فرعون وهو على

كونه تفصيلا لما قبله من حيث التذكير بالنعم ، مجمل من حيث الانجاء فانه يشمل النجاة بجميع أنواعها من ذلك العذاب . وذكر في هذه الآية نعمته في طريق الانجاء بالتفصيل بعد الاجمال لبيان عناية الله تعالى بهم فيها اذ جعل وسيلته من خوارق العادات وجعل في طريقه هلاك عدوهم . وقد يقال ان هذه نعمة مستقلة من نعمه تعالى عليهم لا انها بيان لاجمال في التي قبلها

لما أرسل الله تعالى موسى عليه السلام الى فرعون وملئه يدعوهم الى توحيد الله وإلى أن يخلي بينه وبين شعب اسرائيل بعد اطلاقهم من ذلك الاستعباد والتعذيب لم يزدهم فرعون إلا تعذيبا وتعبيداً وفي سفر الخروج من تاريخ التوراة أن الله تعالى أنبأ موسى بانه يقسي قلب فرعون فلا يخفف العذاب عن بني اسرائيل ولا يرسلهم مع موسى حتى يريه آياته . وأنه بعد الدعوة زاد ظلما وعتواً فأمر الذين كانوا يسخرون بني اسرائيل في الاعمال الشاقة بأن يزيدوا في القسوة عليهم وأن يمنعوهم التبن الذي كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن (الطوب) ويكلفوهم أن يجمعوا التبن ويعملوا كل ما كانوا يعملونه من اللبن لا يخفف عنهم منه شيء . فأعطى الله تعالى موسى وأخاه هارون الآيات البينات فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة فلما آمن السحرة برب العالمين رب موسى وهارون لعلمهم أن ماجاء به ليس من السحر وانما هو تأييد من الله تعالى ورأى مارأى بعد ذلك من آيات الله لموسى سمح بخروج بني اسرائيل بل طردهم طرداً وفي سفر الخروج أنهم خرجوا في شهر أبيب وكانت اقامتهم في مصر ٤٣٠ سنة . ثم أتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأنجى الله بني اسرائيل وأغرق فرعون ومن معه ، وذلك قوله عز وجل:

﴿ واذ فرقنا بكم البحر ﴾ أي واذكروا من نعمنا عليكم إذ فرقنا بكم البحر فجعلنا لكم فيه طريقا يبساً سلكتموه في هربكم من فرعون ﴿ فأنجيناكم ﴾ بعبوره من جانب الى آخر ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ اذ عبروا وراءكم ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ ذلك بأعينكم ، ولولاه لعظم عليكم خبر غرقهم ولم تصدقوه .

(قال الاستاذ الامام) فلق البحر كان من معجزات موسى وقد قلنا في رسالة التوحيد ان الخوارق الجائزة عقلا أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولا

ارتفاعها لامانع من وقوعها بقدرة الله تعالى على يد نبي من الانبياء ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها ولا يمنعنا هذا الايمان من الاهتداء بسنن الله تعالى في الخلق واعتقاد أنها لاتتبدل ولا تتحول،كما قال الله في كتابه الذي ختم به الوحي، على لسان نبيه الذي ختم به النبيين ، فانتهى بذلك زمن المعجزات ، ودخل الانسان بدين الاسلام في سن الرشد ، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له الى الايمان وتقويم مايعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والاخلاق والاعمال كما كان في سن الطفولية (النوعية) بل أرشده تعالى بالوحي الاخير (القرآن) الى استعمال عقله في تحصيل الايمان بالله وبالوحي ثم جعل له كل ارشادات الوحي مبينة معللة مدللة حتى في مقام الادب (كما أوضحنا ذلك في رسالة التوحيد) فايماننا بما أيد الله تعالى به الانبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم الى فهم البرهان، لاينافي كون ديننا هو دين العقل والفطرة وكونه حتم علينا الايمان بما يشهد له العيان ، من أن سننه تعالى في الخلق لاتبديل لها ولا تحويل :

(أقول) وجملة القول أن الذي يمنعه العقل هو وقوع المحال فلا يمكن أن يؤيد نبي بما هو مستحيل عقلا لان المستحيل هو الذي لايمكن وقوعه وما وقع لايكون مستحيلا . ولذلك سمى المتكلمون المعجزات «خوارق العادات» ومنهم من يقول إن لها أسبابا خفية روحية لم يطلع الله الامم عليها ولكنه خص بها الانبياء عليهم السلام . والمشهور أن الله يخلقها بغير سبب لتدل على أن السنن والنواميس لاتحكم على واضعها ومدبرها، وانما هو الحاكم المتصرف بها ، وانما كان هذا هو المشهور لانه الظاهر، والا فمن ذا الذي يستطيع أن ينفي ذلك النفي المطلق عن عالم الغيب؟ وقد ذكر القولين الامام الغزالي وأشار اليهما الاستاذ الامام في رسالة التوحيد

(قال) وزعم الذين لايحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بني اسرائيل البحر كان في إبان الجزر فان في البحر الاحمر رقارق اذا كان الجزر الذي عهد هناك شديداً يتيسر للانسان أن يعبر ماشيا ولما اتبعهم فرعون بجنوده ورآهم قد عبروا البحر تأثرهم وكان المد تفيض ثوائبه (وهي المياه التي تجيء عقيب الجزر) فلما نجا بنواسرائيل كان المد قد طغى وعلا حتى أغرق المصريين ، تحقق انعام

الله على بني اسرائيل يتم بهذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم ولا ينافي الامتنان به عليهم كونه ليس آية لموسى عليه السلام فان نعم الله بغير طريق المعجزات أعم وأكثر ـ كذا قالوا ، قال شيخنا ولكن يدل على كونه آية له وصف كل فرق منه بالطود العظيم . واذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن فانه يتعسر تأويل قوله تعالى في سورة الشعراء (فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم) وهو الموافق لما في التوراة . اه

ويقول المأولون انهم لما عبروا انفرق بهم وكانوا لاستعجالهم واتصال بعضهم ببعض قد جعلوا ذلك الماء الرقارق فرقين عظيمين ممتدين كالطودين وأن هذه الآية تشعر بذلك فانه يقول (واذ فرقنا بكم البحر) ولم يقل: فرقنا لكم البحر: والظاهر أن الباء هنا للآلة كما تقول قطعت بالسكين : وأما قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفرق) فانه لاينافي أن الانفراق كان بهم كما في آية البقرة لا بالعصا ، وذلك أن الذي أوحاه الله تعالى الى موسى هو أن يخوض البحر بنبي اسرائيل وقد عهد أن من كان بيده عصا إذا أراد الخوض في ماء كترعة أو نهر فانه يضرب الماء أولا بعصاه ثم يمشي فهذه الآية معبرة عن هذا المعنى أي ألهمه الله عند ما وصل الى البحر أن يضرب به بعصاه ويمشي ففعل ومشى وراءه بنو اسرائيل بجمعهم الكبير فانفلق بهم البحر . وأما قوله تعالى (فكان كل فرق كالطود العظيم) فهو تشبيه معهود مثله في مقام المبالغة كقوله تعالى (وهي تجري بهم في موج كالجبال) وقوله (ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام) فالامواج والسفن الجواري لاتكون كالجبال الشاهقة ، والاعلام الباسقة، وانما تقضي البلاغة بمثل هذا التعبير ، لكمال التصوير وارادة التأثير

هذا ماينتهى اليه تأويل المأولين ولم يبسطه الاستاذ الامام في الدرس وانما قرر أن فرق البحر كان معجزة لموسى عليه السلام وحكى عن المتهورين من الذين لايحبون المعجزات خلافه وهو أنهم يزعمون أن عبور البحر كان في وقت الجزر وانما بسطنا تأويلهم لئلايتوهموا أننا لم نقل به لاننا لم نهتد لتوجيه مثلهم، ولا يهمنا أن ننازعهم في تأويل آية بخصوصها اذا علمنا أنهم يثبتون الآيات الكونية تأييداً

للانبياء عليهم الصلاة والسلام ، فاذا كانوا ينفونها كلها فالاولى لهم أن لا يتعبوا في تأويل جزئياتها ، فان منها مالا يقبل التأويل بحال من الاحوال ،وحينئذ يكون الكلام بيننا وبينهم لاثباتها أولا في قدرة الله وارادته ثم في اثبات أصل الوحي وارسال الرسل . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . ولنا أن نقول هنا إن الباء في قوله « بكم» سببية أو للملابسة لا للآلة .وقد أشار البيضاوي الى ذلك كله بقوله : فلقناه وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت فيه مسالك لسلوككم فيه أو بسبب إنجائكم أو متلبسا بكم . وأزيد الآن أنني رأيت بعد كتابة ماتقدم ببضع سنين جزءاً من تفسير الاصبهاني في خزانة كتب كوبريلي باشافي الآستانة فراجعت تفسير هذه الآية فيه فألفيته يذكر في الباء الوجهين ، أي ان فرق البحر حصل بهم أي بنفس عبورهم أو بسببهم. ومثله قول البغوي: قيل معناه فرقناه لكم وقيل : فرقنا البحر بدخولكم إياه

قال الاستاذ الامام بعد أن قرر نعمة الانجاء من استعباد الظالمين ، والبعد من فتنة القوم الضالين: ذكر النعمة التي وليتها، وذكرهم بما كان من كفرهم اياها، فقال ﴿ واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ وقد كانت هذه المواعدة لاعطائه التوراة.ولما ذهب لميقات ربه استبطؤه فاتخذوا عجلا من ذهب فعبدوه كما هو مفصل في غير هذه السورة (وسيأتي هناك تفسيره ان شاء الله تعالى) والمراد هنا التذكير بالنعمة وبيان كفرها ليظهر أن تكذيبهم بمحمد ﷺ ومعاندته ليس ببدع من أمرهم ، وانما هو معهود منهم مع رؤية الآيات وبعد اغداق النعم عليهم ،ولذلك اكتفي بالاشارة اليه بقوله ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ أي اتخذتموه إلهاً ومعبوداً ، وبعد أن ذكرهم بذلك الظلم ذكرهم بتفضله عليهم بالتوبة ثم بالعفو الذي هو جزاء التوبة فقال ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾ هذه النعمة بدوام التوحيد والطاعة

ثم قفى على هذا بذكر ايتائهم الكتاب وهو المنة الكبرى فقال ﴿ واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾ قال المفسر « الجلال » كغيره إن

الفرقان هو التوراة وقال بعض المفسرين إن الفرقان هو ما أوتيه موسى من الآيات والمعجزات وقال الاستاذ الامام بعد حكاية القولين ولكن ذكره بعد الكتاب معطوفا عليه دليل على أن المراد به ما في الكتاب من الشرائع والاحكام المفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام ، ومعنى قوله « لعلكم تشكرون . لعلكم تهتدون » أي ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر ويعدكم بهذه الاحكام والشرائع للاهتداء ويهيئكم للاسترشاد فلا تقعوا في وثنية أخرى. وان من كمال الاستعداد للهداية بفهم الكتاب أن يعرفوا أن ماجاء به محمد عليه الصلاة والسلام هو هدى ونور يرجعهم الى الاصل الذى تفرقوا عنه واختلفوا فيه، وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون ، وجاحده الرؤساء المستكبرون ، والمقلدون الذين لا يعقلون

---

(٥٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٥) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٦) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٧) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ : كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

في هذه الآيات ضرب من ضروب التذكير غير ماسبقه ، ومن البلاغة والحكمة أن يجيء تاليا له ومتأخراً عنه : مهد أولا للتذكير تمهيداً يسترعى السمع ، ويوجه الفكر ويستميل القلب ، وهو الابتداء بذكر النعمة مجملة والتفضيل على العالمين ولا يرتاح الانسان لحديث كحديث مناقب قومه ومفاخرهم - ثم طفق يفصل النعمة ويشرحها ، فبدأ بذكر فرد من أفرادها لا يقترن به ذكر سيئة من سيئاتهم وهو تنجيتهم من ظلم آل فرعون، ولكن ذكر معه أكبر ضروب ذلك الظلم وهو قتل

الابناء - : يخفض من عتو تلك النفوس المعجبة المتكبرة التي تعتقد أن الله لا يسوّد عليهم شعبا آخر، وهو مع هذا لا ينفر بها عن الاصغاء والتدبر ، لانه لم يفاجئها بشيء فيه نسبة التقصير وعمل السوء اليها . ثم ثنى بذكر نعمة خاصة خالصة تسكن النفس الى ذكرها ، إذ لا يشوب الفخر بها تنغيص من تذكر غضاضة تتصل بواقعتها ، وهي فرق البحر بهم ، وانجاؤهم ، واغراق عدوهم .

لاجرم أن نفوس الاسرائيليين كانت تهتز وتأخذها الاريحية عندما تلا عليهم النبي ﷺ هذه الآية لما فيها من الشهادة بعناية الله تعالى بهم ، ولا سيا اذا قارنوا بين هذا التذكير وبين تذكير مشركي العرب بتلك القوارع الشديدة ، لم يتركها بعد هذه الهزة تجمح في عجبها وفخرها ، وتتمادى في إبائها وزهوها ، بل عقب فذكر بعد هذه النعمة سيئة لهم هي كبرى السيئات التي ظلموا بها أنفسهم وكفروا نعمة ربهم وهي اتخاذ العجل إلهاً، وقدم على ذكرها خبر مواعدة موسى وهي من النعم ، وختمها بذكر العفو ، ثم قفى عليها بذكر نعمة إيتائهم الكتاب والفرقان ، وهذا ما يجعل أنفس السامعين الواعين قلقة يتنازعها شعور اعتراف المذكر الواعظ لها بالشرف ، وشعور رميه إياها بالظلم والسرف .

بعد هذا كله استعدت تلك النفوس لان تسمع آيات مبدوءة بذكر سيئاتها من غير تمهيد ولا توطئة فانتقل الكلام إلى هذا الضرب من التذكير مبدوءاً بقوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ أي واذكر أيها الرسول فيا تلقيه على بني اسرائيل وغيرهم إذ قال موسى لقومه الذين اتخذوا من حليهم عجلا عبدوه إذ كان يناجي ربه في الميقاتين الزماني والمكاني ﴿ ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ إلهاً عبدتموه . والقصة مفصلة في سورتي الاعراف وطه المكيتين لان قصة موسى فيهما مقصودة بالذات، وأما ماهنا فهو تذكير لبني اسرائيل بما تقدم وجهه في سياق دعوتهم إلى الاسلام ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ أي فتوبوا الى خالقكم الذي لا يجوز أن تعبدوا معه إلهاً آخر هو أدنى منكم ، وهو من خلقكم ، أي تمديركم وصنعكم ، وذلك بأن يقتل بعضكم بعضا ، فان قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه ، ويحتمل اللفظ أن يكون معناه ليبخع كل من عبد العجل نفسه انتحارا .

تكلم الاستاذ الامام في التوبة وقال انها محو أثر الرغبة في الذنب من لوح القلب والباعث عليها هو شعور التائب بعظمة من عصاه وما له من السلطان عليه في الحال ، وكون مصيره اليه في المآل ، لاجرم أن الشعور بهذا السلطان الالهي بعد مقارفة الذنب يبعث في قلب المؤمن الهيبة والخشية ويحدث في روحه انفعالا مما فعل وندما على صدوره عنه ، ويزيد هذا الحال في النفس تذكر الوعيد على ذلك الذنب ، وما رتبه الله عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة . هذا أثر التوبة في النفس، وهذا الاثر يزعج التائب إلى القيام بأعمال تضاد ذلك الذنب الذي تاب منه وتمحو أثره السيء (إن الحسنات يذهبن السيئات)

فمن علامة التوبة النصوح الاتيان بأعمال تشق على النفس وما كانت لتأتيها لولا ذلك الشعور الذي يحدثه الذنب . وهذه العلامة لاتتخلف عن التوبة سواء كان الذنب مع الله تعالى أو مع الناس . ألا ترى أن أهون مايكون من انسان يذنب مع آخر يباهي به أن يجيء معترفا بالذنب معتذراً عنه ؟ وهذا ذل يشق على النفس لامحالة ، وقد أمر بنو اسرائيل بأشق الاعمال في تحقيق التوبة من أكبر الذنوب وهو الرغبة عن عبادة من خلقهم وبرأهم إلى عبادة ماعملوا بأيديهم .وقد قال (فتوبوا الى بارئكم) لينبههم الى أن الاله الحقيقي هو الخالق الباريء ليتضمن الامر الاحتجاج عليهم والبرهان على جهلهم

ذلك العمل الذي أمرهم به موسى هو قتل أنفسهم والقصة في التوراة التي بين أيديهم الى اليوم : دعا موسى اليه من يرجع الى الرب فأجابه بنو لاوي فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضاً ففعلوا ، وقتل في ذلك اليوم « نحو ثلاثة آلاف » وقال مفسرنا (الجلال) كغيره إن الذين قتلوا سبعون ألفاً والقرآن لم يعين العدد ، والعبرة المقصودة من القصة لاتتوقف على تعيينه فنمسك عنه . كذا قال الاستاذ الامام ، وهذا مذهبه في جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعي لايتعداه ، ويثبت أن الفائدة لاتتوقف على سواه

قال تعالى ﴿ ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ لأنه يطهركم من رجس الشرك الذي دنستم به أنفسكم ويجعلكم أهلا لما وعدكم به في الدنيا ولمثوبته في الآخرة

وقوله ﴿ فتاب عليكم ﴾ من كلام الله تعالى لا تتمة لكلام موسى عليه السلام في الظاهر وهو معطوف على محذوف تقديره ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم ﴿ انه هو التواب الرحيم ﴾ أي انه هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها منهم، وان تعددت قبلها جرائمهم ، الرحيم بهم ، ولولا رحمته لعجل باهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى ولا سيما الشرك به .

﴿ واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ أي واذكروا اذ قلتم لنبيكم ياموسى لن نصدق بما جئت به تصديق اذعان واتباع حتى نرى الله عيانا جهرة فيأمرنا بالايمان لك ﴿ فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ أي فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون ذلك بأعينكم. وسيأتي بيان هذا بالتفصيل في سورة الاعراف ، فالقصة هنالك مقصودة بكل ما فيها من فائدة وعبرة ، وانما المراد بها هنا التذكير كما تقدم

قال الاستاذ الامام : سؤال بني اسرائيل رؤية الله تعالى واقعة مستقلة لا تتصل بمسألة عبادة العجل وهي معروفة عند بني اسرائيل ومنصوصة في كتابهم وذلك أن طائفة منهم قالوا لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله تعالى من دوننا . وانتشر هذا القول في بني اسرائيل وتجرأ جماعة منهم بعد موت هارون وهاجوا على موسى وبني هارون وقالوا لهم ان نعمة الله على شعب اسرائيل هي لاجل ابراهيم واسحاق فتشمل جميع الشعب ، وقالوا لموسى لست أفضل منا فلا يحق لك أن ترتفع وتسود علينا بلا مزية ، واننا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فأخذهم الى خيمة العهد فانشقت الارض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين، وهذه النار هي المعبر عنها هنا بالصاعقة، وهل ثمة من نار غير الاشتعال بالكهرباء وهو ما تحدثه الصاعقة التي تحدث الانشقاق في الارض أيضاً ؟ وقد أخذ هذا العذاب تلك الطائفة والآخرون ينظرون ، وهكذا كان بنو اسرائيل يتمردون ويعاندون موسى عليه السلام وكان سوط عذاب الله

يصب عليهم، فرموا بالامراض والاوبئة وسلطت عليهم الهوام وغيرها حتى أماتت منهم خلقا كثيراً . فمجاحدتهم ومعاندتهم للنبي ﷺ لم تكن بدعا من أعمالهم

قال تعالى ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ ذهب الاستاذ الامام الى أن المراد بالبعث هو كثرة النسل أي إنه بعد ماوقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها وظن أن سينقرضوا بارك الله في نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها

والعبرة الاجتماعية في الآيات أن الخطاب في كل ماتقدم كان موجها الى الذين كانوا في عصر التنزيل، وأن الكلام عن الابناء والآباء واحد لم تختلف فيه الضمائر حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالتوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار وبالشكر ، وما جاء الخطاب بهذا الاسلوب الا لبيان معنى وحدة الامة واعتبار أن كل مايبلوها الله به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنقم انما يكون لمعنى موجود فيها يصحح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع به ، ليعلم الناس أن سنة الله تعالى في الاجتماع الانساني أن تكون الامم متكافلة يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الافراد وشقاءه بشقائهم، ويتوقع نزول العقوبة به اذا فشت الذنوب في الامة وان لم يواقعها هو (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهذا التكافل في الامم هو المعراج الاعظم لرقيها لانه يحمل الامة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين

بعد هذا ذكر الله تعالى نعمة أخرى بل نعمتين من النعم التي منّ بها على بني اسرائيل فكفروا بها ولكنه لم يذكر ماكان به الكفران ، بل طواه وأشار اليه بما ختم به الآية من أنهم لم يظلموا الله تعالى بذلك الذنب المطوي وانما ظلموا أنفسهم وهذا أسلوب آخر من أساليب البيان في التذكير وضرب من ضروب الايجاز التي هي أقوى دعائم الاعجاز ،

أما النعمة الاولى فقوله تعالى ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ قال الاستاذ الامام : هذه نعمة مستقلة متصلة بما قبلها في سياق الذكرى ، منفصلة عنها في الوقوع ، فان التظليل استمر إلى دخولهم أرض الميعاد ، ولولا أن ساق الله اليهم الغمام يظللهم في

التيه لسفعتهم الشمس ولفحت وجوههم. وقال لامعنى لوصف الغمام بالرقيق كما قال المفسر (الجلال) وغيره : بل السياق يقتضي كثافته إذ لا يحصل الظل الظليل، الذي يفيداه حرف التظليل، إلا بسحاب كثيف يمنع حر الشمس ووهجها. وكذلك لاتتم النعمة التي بها المنة الا بالكثيف وهو المنقول المعروف عند الاسرائيليين أنفسهم

وأما النعمة الثانية ففي قوله تعالى ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ مامنح من الله تعالى يسمى ايجاده انزالا ومنه (وأنزلنا الحديد) على أن المن ينزل كالندى وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر مائعة ثم تجمد وتجف فيجمعها النـاس ، ومنها الترنجبين وبه فسر المن مفسرنا وغيره . وأما السلوى فقد فسروها بالسماني وهو الطائر المعروف فمعنى النزول يصح فيه على حقيقتـه أيضا . وظاهر أن قوله تعالى ﴿ كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾ مقدر فيه القول. وفي (سفر الخروج) أن بني اسرائيـل أكلوا المن أربعين سـنة وأن طعمه كالرقاق بالعسل وكان لهم بدلا من الخبز وليس المراد أنه لم يكن لهم أكل سواه إلا السلوى فقد كان معهم المواشي ولـكنهم كانوا محرومين من النبات والبقول كما يعلم مما يأتي

وفي قوله تعالى ﴿ وما ظلمونا ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ تقرير لقاعدة مهمة وهي أن كل مايطلبه الدين من العبد فهو لمنفعته، وكل ماينهاه عنه فانما يقصد به دفع الضرر عنه، ولن يبلغ أحد نفع الله فينفعه، ولن يبلغ أحد ضره فيضره ، كما ثبت في الحديث القدسي. فكل عمل ابن آدم له أو عليه (لها ماكسبت وعليها مااكتسبت)

---

(٥٠) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٩) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

المراد بالقرية المدينة، وهي في الاصل اسم لمجتمع الناس ومسكن النمل الذي يبنيه ومادتها تدل على الاجتماع ، ومنها قريت الماء في الحوض اذا جمعته. وأطلقت

على الامة نفسها. ثم غلب استعمالها في البلاد الصغيرة ولا يصح هنا فان الرغد لا يتيسر للانسان كما يشاء إلا في المدن الواسعة الحضارة، (قال شيخنا) ونسكت عن تعيين القرية كما سكت القرآن فقد أمر بنو اسرائيل بدخول بلاد كثيرة وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله خاضعين لأمره مستشعرين عظمته وجلاله ونعمه وافضاله وهو معنى السجود وروحه المراد هنا .

وأما صورة السجود من وضع الجباه على الارض فلا يصح أن تكون مرادة لانها سكون والدخول حركة وهما لا يجتمعان . والمراد بالحطة الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر النعم . وتبديل القول بغيره عبارة عن المخالفة كأن الذي يؤمر بالشيء فيخالف قد أنكر أنه أمر به وادعى أنه أمر بخلافه . يقال بدلت قولا غير الذي قيل . أي جئت بذلك القول مكان القول الاول

وهذا التعبير أدل على المخالفة والعصيان من كل تعبير خلافا لما يتراءى لغير البليغ من أن الظاهر أن يقال . بدلوا القول بغيره دون أن يقال : غير الذي قيل لهم ، فان مخالف أمر سيده قد يخالفه على سبيل التأويل مع الاعتراف به، فكأنه يقول في الآية انهم خالفوا الامر خلافا لا يقبل التأويل ، حتى كأنه قيل لهم غير الذي قيل . وليس المعنى أنهم أمروا بحركة يأتونها ، وكلمة يقولونها ، وتعبدوا بذلك وجعل سببا لغفران الخطايا عنهم فقالوا غيره وخالفوا الامر وكانوا من الفاسقين . وأي شيء أسهل على المكلف من الكلام يحرك به لسانه ، وقد اخترع أهل الاديان من ذلك سالم يكلفوا قوله لسهولة القول على ألسنتهم ، فكيف يقال أمر هؤلاء بكلمة يقولونها فعصوا بتركها ؟ انما يعصي العاصي اذا كلف ما يثقل على نفسه ويحملها على غير ما اعتادت ، وأشق التكاليف حمل العقول على أن تفكر في غير ماعرفت ، وحث النفوس على أن تتكيف بغير ماتكيفت

وذهب المفسر (الجلال) إلى ترجيح اللفظ على المعنى والصورة على الروح ففسر السجود ككثير من غيره بالانحناء ، وقال انهم أمروا بأن يقولوا «حطة» فدخلوا زحفا على أستاههم وقالوا : حبة في شعيرة : أي اننا نحتاج الى الاكل . ومنشأ هذه الاقوال الروايات الاسرائيلية ولليهود في هذا المقام كلام كثير

وتأويلات خدع بها المفسرون ولا نجيز حشوها في تفسير كلام الله تعالى

وأقول ان مااختاره الجلال مروي في الصحيح ولكنه لايخلو من علة اسرائيلية وسنبين ذلك في تفسير المسألة من سورة الاعراف مع المقابلة بين العبارات المختلفة في السورتين وبيان وجوهها ، وتحقيق معاني ألفاظها

ويدل قوله تعالى ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾ على أن هذا العصيان لم يكن من كل بني اسرائيل ، وأن هذا الرجز كان خاصا بالظالمين منهم الذين فسقوا عن الامر ولم يمتثلوه . وقد أكد هذا المعنى أشد التأكيد بوضع المظهر موضع المضمر فقال (فأنزلنا على الذين ظلموا) ولم يقل فأنزلنا عليهم : ولعل وجه الحاجة الى التأكيد الاحتراس من ايهام كون الرجز كان عاما كما هو الغالب فيه ، ثم أكده بتأكيد آخر وهو قوله ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ وفي هذا الضرب من المقابلة من تعظيم شأن المحسنين مافيه

وأقول الآن : القاعدة أن ترتيب الحكم على المشتق يدل على أن مصدره علة له كقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) فالسرقة علة للقطع. والموصول مع صلته هنا كذلك ، والمعنى (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء) بسبب ظلمهم ، ثم أكد هذا السبب الخاص العارض المعبر عنه بالفعل الماضي ببيان سبب عام يشمله ويشمل غيره هم يفعلونه دائما وهو قوله (بما كانوا يفسقون) أي بسبب تكرار الفسوق والعصيان منهم واستمرارهم عليه الذي كان هذا الظلم منه

(قال الاستاذ) ونسكت عن تعيين نوع ذلك الرجز كما هو شأننا في كل ماأبهمه القرآن . وقال المفسر وغيره إنه الطاعون ، واحتج بعضهم عليه بقوله تعالى (من السماء) وهو كما تراه . والرجز هو العذاب وكل نوع منه رجز . وقد ابتلى الله بني اسرائيل بالطاعون غير مرة ، وابتلاهم بضروب أخرى من النقم في إثر كل ضرب من ضروب ظلمهم وفسوقهم ، ومن أشد ذلك تسليط الامم عليهم ، وحسبنا ماجاء في القرآن عبرة وتبصرة فنعين ماعينه ، ونبهم ماأبهمه (والله يعلم وأنتم لاتعلمون)

(٦٠) وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

هذا بيان لحال آخر من أحوال بني اسرائيل في هجرتهم وعناية الله تعالى بهم فيها . أصابهم الظمأ فعادوا على موسى باللائمة أن أخرجهم من أرض مصر الخصبة المتدفقة بالامواه ، وكانوا عند كل ضيق يمنون عليه أن خرجوا معه من مصر ويجهرون بالندم . فاستغاث موسى بربه واستسقاه لقومه كما قصه الله تعالى علينا بقوله ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ أي طلب السقيا لهم من الله تعالى ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر ﴾ قال الاستاذ الامام : أمره أن يضرب بعصاه حجراً من حجارة تلك الصحراء بتلك العصا التي ضرب بها البحر فضربه ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ﴾ بعدد أسباطهم وذلك قوله عز وجل ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾

(قال) وكون هذا الحجر هو الذي روي أنه تدحرج بثوب موسى يوم كان يغتسل كما قال المفسر (الجلال) لا دليل عليه ، وقصة الثوب ليست في القرآن فيحمل تعريف الحجر على أنه المعهود في القصة ، وانما يفهم التعريف أن الحجر الذي ضرب فتفجرت منه المياه حجر مخصوص له صفات تميزه عندهم ككونه صلباً أو عظيما تتسع مساحته لتلك العيون ويصلح أن تكون منه موارد لتلك الامم [أو كونه يقع تحت أعينهم منفرداً عن غيره ليس في محلتهم سواه ، وقد يكون التعريف للدلالة على الجنس ليفيدنا بُعد المرغوب عن التناول، وعظمة القدرة الالهية وأثرها الجليل في تقريبه وتحصيله] وعبر عنه في سفر الخروج بالصخرة . ولو علم الله تعالى أن لنا فائدة في أكثر مما دل عليه هذا الخطاب من التعيين لما تركه

ثم أراد أن يصور حال بني اسرائيل في هذه النعمة واغتباطهم بما منحهم من العيش الرغد في مهاجرهم فقال ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ﴾ فعبر عن الحال الماضية

بالامر ليستحضر سامع الخطاب أولئك القوم في ذهنه ويتصور اغتباطهم بما هم فيه حتى كأنهم حاضرون الآن والخطاب يوجه اليهم . وهذا ضرب من ضروب إيجاز القرآن التي لاتجاري ولا تمارى ثم قال ﴿ ولا تعثوا في الارض مفسدين ﴾ أي لاتنشروا فسادكم في الارض وتكونوا في الشرور قدوة سيئة للناس . يقال عثا اذا نشر الشر والفساد وأثار الخبث فهو أخص من مطلق الافساد ولذلك مع كون « مفسدين » حالا من ضمير « تعثوا »

قال الاستاذ الامام : ان كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الامر بدخول تلك القرية فذكر هنا بعد تلك الوقائع . والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مراراً في قصص الانبياء والامم الواردة في القرآن . وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها وانما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها . وبيان النقم بعللها لتتقى من جهتها . ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وادعى إلى التأثير

إن الباحثين في التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلى هذا الاسلوب في التقديم والتأخير وقالوا ستأتي أيام يستحيل فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة الناس إلى معرفة سير الماضين ، وما كان لها من النتائج والآثار في حال الحاضرين . وقالوا ان الطريق الى ذلك هو أن ننظر في كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ ، فان ترتيب الوقائع هو من الزينة في وضع التأليف فلايتوقف عليه الاعتبار ، بل ربما يصدعنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه ـ فهذا ضرب من ضروب الاصلاح العلمي جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الانسان

هذا مانقوله إذا سلمنا أن الاستسقاء كان قبل التيه لا فيه ولنا أن نقول إن أرض التيه هي الارض الممتدة على ساحل البحر الاحمر من بيداء فلسطين مما يلي

حدود مصر وفيهـا كان الاستسقاء بلا خلاف (وفي سفر الخروج أنه كان في رفيديم التي انتقل اليها بنو اسرائيل من (سين) التي بين ايليم وسيناء . ويطلق التيه على ضلال بني اسرائيل أربعـين سنة في الارض . والعبرة في القصة على مايظهر من التوراة أن موسى كان يحاول نزع ما في قلوب قومه من الشرك الذي أشربوا عقائده في مصر ، وما في نفوسـهم من الذل الذي طبعه فيها استبداد المصريين وتعبيدهم اياهم ،ليكونوا أعلياء أعزاء بعبادة الله تعالى وحده ، وأن يدخل بهم أرض الميعاد وهي بلاد الشام التي وعد الله بها آباءهم . وكانوا لطول الاقامة في مصر قد ألفوا الذل وأنسوا بالشعائر والعادات الوثنية ، فكانوا لا يخطون خطوة الا ويتبعونها بخطيئة ، وكلما عرض لهم شيء من مشقات السفر يتبرمون بموسى ويتحسرون على مصر ويتمنون الرجوع اليها (كما سبق القول) ويستبطئون وعد الله فتارة يطلبون منه أن يجعل لهم إلهـاً غير الله ، وتارة يصنعون عجلا ويعبدونه، وتارة يفسقون عن أمر ربهم ويكفرون نعمه. ولما أمرهم بدخول البلاد المقدسة التي وعدهم الله أبوا واعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين لما استحوذ عليهم من الجبن الذي هو حليف الذل . وكان موسى أرسل كالبا ويوشع بن نون رائدين لينظروا حال البـلاد في القوة والضعف وأرسل غيرهما عشرة من بقيـة أسباط بني اسرائيل فأخبر هؤلاء بان في تلك الارض قوما جبارين فقال بنو اسرائيل: انا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . وأخبر يوشع وكالب بأن الارض كما وعد الله وان دخولها سهل والظفر مضمون بالاعتماد على الله تعالى والتوكل عليه، فلم يسمعوا لهما بل (قالوا انا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها) فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة لحـكمة بالغـة وهي ارادة انقراض أولئك القوم الذين تأشبت في نفوسهم عقائد الوثنية ، وزايلتها صفات الرجولية ، حتى فسد مزاجها ، وتعذر علاجهـا ، وخروج نشء جديد يتربى على العقائد الصحيحة، وأخلاق الشهامة والرجولية ، فتاهوا حتى انقرض أولئـك المصابون باعتلال الفطرة ، وبقي النشء الجـديد وبعض الذين كانوا عند الخروج من مصر صغاراً لا يقدرون على حمل السلاح ، وقضى الله أمراً كان مفعولا

(٦١) وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا. قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ؟ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ. وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ. ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ . ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ

هذا ضرب آخر مما ذكر الله تعالى به بني اسرائيل في سياق دعوتهم إلى الاسلام. قال صاحب الكشاف : كانوا قوما فلاحة فنزعوا الى عكرهم فأجموا ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء. اه وقال الاستاذ الامام في تفسيره ونقده ورده ما نصه: فلاحة بتشديد اللام جمع فلاح بمعنى الزراع ، وعكرهم بكسر العين أصلهم، وأجم الطعام من باب ضرب وعلم كرهه من المداومة عليه . وهو بيان لما بعثهم على أن يسألوا موسى أن يدعو ربه ليخرج لهم تلك الاشياء التي طلبوها والسبب في جبرهم بذلك وثورتهم عليه كأنه يقول: ان الحامل لهم على ذلك هو تمكن العادة من نفوسهم فلما خرجوا منها وجاءهم مالم يكونوا ألفوه نزعوا الى ما كانوا قد عودوه من قبل . ولو كان الامر كما قال لكان في ذلك للناس عذر لهم ، ولما عد الله هذا القول في خطاياهم ، بل ان السآمة من تناول طعام واحد قد يكون من لوازم الطباع البشرية إلا ماشذ منها العادة أو ضرورة ولا يعد ماهو من منازع الطباع جرما إذا لم يسقط ذلك في محظور . وسياق الآيات قبلها وما يلحق بعد ذلك من قوله تعالى (واذ أخذنا ميثاقكم) الخ كل ذلك يدل على أن ماعدد من أفاعيلهم مع تضافر الآيات بين أيديهم وتوارد نعم الله عليهم كله من خطاياهم ، ومن ذلك

قوله تعالى﴿ وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما

تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ﴾ ويؤكد ذلك إيراد تلك العقوبة الشديدة من ضرب الذلة والمسكنة واستحقاق غضب الله تعالى عقب مقالهم هذا .

والذي يقع عليه الفهم من الآية أن النزق قد استولى على طباعهم وملك البطر اهواءهم حتى كانوا يستخفون بذلك الامر العظيم الذي هيأهم الله له من التمكن في الارض الموعودة والخروج من الخسف الذي كانوا فيه. ومع كثرة ماشاهدوا من آيات الله القائمة على صدق وعده لهم لم تستيقنه أنفسهم ، بل كانوا على ريب منه، وكانوا يظنون أن موسى عليه السلام خدعهم باخراجهم من مصر وجاء بهم في البرية ليهلكهم ، فلذلك دأبوا على اعناته والاكثار من الطلب فيما يستطاع ومالا يستطاع ، حتى ييأس منهم فيرتد بهم الى مصر حيث ألفوا الذلة ، ولهم مطمع في العيش وأمل في الخلاص من الهلكة ، فماذكره الله عنهم في هذه الآية على على حد قولهم (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) ويرشد الى مافيه من الاعنات قولهم : لن نصبر على طعام واحد . فقد عبر عن مسألتهم بما فيه حرف النفي الذي يأتي لسلب الفعل في مستقبل الزمان مع تأكيده فكأنهم قالوا . اعلم أنه لم يبق لك أمل في بقائنا معك على هذه الحالة من التزام طعام واحد فان كانت لك منزلة عند الله كما تزعم فادعه يخرج لنا مايمكن معه أن نبقى معك إلى أن يتم الوعد الذي وعدك ووعدتنا ــ وهم يعلمون أنهم كانوا في برية غير منبتة ، وربما لم يكن قولهم هذا عن سآمة ولا أجم من وحدة الطعام ، ولكنه نزق وبطر كما بينا وطلب للخلاص مما يخشون على أنفسهم . ويؤيد ذلك ماهو معروف في أخبارهم. ووصفوا الطعام بالواحد مع أنه نوعان ــ المن والسلوى ــ لانهما طعام كل يوم ، والعرب تقول لمن يأكل كل يوم عدة ألوان لاتتغير : انه يأكل من طعام واحد . كأنهم ينظرون إلى أن مجموع الالوان هي غذاؤه الذي لايتغير فهي غذاء واحد فاذا تغيرت الالوان تغير نوع الغذاء فكان طعاما متعدداً

والبقل من النبات ماليس بشجر دِقٍّ ولا جِلٍّ كما ذكره ابن سيده . وقال أبو حنيفة ماينبت في بزرة ولا ينبت في أورمة ثابتة . وفرق مابين البقل ودقّ الشجر أن البقل اذا رعي لم يبق له ساق ، والشجر تبقى له سوق وإن دقت .

وأرادوا من البقل مايطعمه الانسان من أطايب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما مما يغري بالقضم ، ويعين على الهضم ، والقثاء هي أخت الخيار تسميها العامة « القتة » والعدس والبصل معروفان ، والفوم هو الحنطة . وقال الكسائي وجماعة : هو الثوم أبدلت الثاء فاء كما في جدث وجدف . وطلبهم للحنطة هو طلبهم للخبز الذي يصنع منها

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام تقريعاً لهم على أشرهم وانكاراً لتبرمهم ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذى هو خير ؟ ﴾ أي أتطلبون هذه الانواع الخسيسة بدل ماهو خير منها وهو المن والسلوى ؟ والمن فيه الحلاوة التي تألفها أغلب الطباع البشرية والسلوى من أطيب لحوم الطير وفي مجموعها غذاء تقوم به البنية وليس فيما طلبوه مايساويهما لذة وتغذية . أقول والادنى في اللغة الاقرب واستعير للأخس والأدون كما استعير البعد للرفعة : والاستبدال طلب شيء بدلا من آخر ، والباء تدخل المبدل منه المراد تركه. ثم قال ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ من الامصار ﴿ فان لكم ماسألتم ﴾ أي فانكم إن هبطتموه ونزلتموه وجدتم فيه ماسألتم . أما هذه الارض التي قضى الله أن تقيموا فيها إلى أجل محدود فليس من شأنها أن تنبت هذه البقول وإن الله جل شأنه لم يقض عليكم بالتيه في هذه البرية إلا لجبنكم وضعف عزائمكم عن مغالبة من دونكم من أهل الامصار ، فلو صح ماتزعمون من كراهتكم للطعام الواحد فأنتم الذين قضيتم به على أنفسكم بما فرط منكم فان أردتم الخلاص مما كرهتم فأقدموا على محاربة من يليكم من سكان الارض الموعودة ، فان الله كافل لكم النصر عليهم ، وعند ذلك تجدون مطلبتكم فالتمسوا الخير في أنفسكم وفي أعمالكم فان الله لايضيع أجر العاملين

قال تعالى ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ الذلة والذل خلق خبيث من أخلاق نفس الانسان يضاد الإباء والعزة ، وأصل المادة فيه معنى اللين فالذل بالكسر اللين وبالضم والكسر ضد الصعوبة ، واذا تتبعت المادة وجدتها لاتخلو من هذا المعنى . صاحب هذا الخلق لين ينفعل لكل فاعل ، ولا يأبى ضيم ضائم ، غير أن هذا الخلق الذي يهون على النفس قبول كل شيء لايظهر أثره غالباً على البدن وفي القول إلا عند الاستذلال والقهر ، وكثيراً مانرى الاذلاء تحسبهم

أعزاء ، يختالون في مشيتهم من الكبرياء ، ويباهون بما لهم من سلف وآباء ، وربما فاخروا من لا يخشون سطوته من الكبراء

وإذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

ولكن متى شعر الذليل بنية من نفس القاهر أو طاف بذهنه خيال يد تمتد إليه استخذى واستكان ، وظهر السكون على بدنه ، واشتمل الخشوع على قوله وفعله ، وهذا الأثر الذي يسطع من النفس على البدن هو الذي يسمى المسكنة ، وانما سمي الفقر مسكنة لان العائل المحتاج تضعف حركته ويذهب نشاطه فهو بعدم مايسد عوزه كأنه يقرب من عالم الجماد، فلا تظهر فيه حاجة الاحياء فيسكن. والمشاهدة ترشدنا إلى تحقيق ماعليه أهل المسكنة في أوضاع أعضائهم ، وما يبدو على وجوههم ، وما طبع في أقوالهم وأعمالهم . فضرب الذلة والمسكنة على اليهود هو جعل الذل وضعف العزيمة محيطين بهم كما تحيط القبة المضروبة بمن فيها ، أو إلصاقها بطباعهم كما تطبع الطغرى على السكة { وباؤا بغضب من الله } أي رجعوا به كما يقال رجع أو عاد بصفقة المغبون ـ إذا كان ذلك آخر شوطه ومنتهى سعيه . وكذلك كان آخر أطوار اليهود في بغيهم أيام ملكهم، والمراد به فقد الملك وما يتبعه. وقال شيخنا استحقوا غضبه ومن استحقه فقد أصابه، فقد غضب الله عليهم، وتنكير الغضب دلالة على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه { ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله } (أقول) أي ذلك العقاب بضرب الذلة والمسكنة وبالغضب الالهي بسبب ماجروا عليه من الكفر بآيات الله الخ فانهم باحراجهم لموسى عليه السلام وإعناتهم له في المطالب ، مع كثرة ماشاهدوا من العجائب ، وما أظهر الله لهم من الغرائب، قد دلوا على أن لا أثر للآيات في نفوسهم ، فهم بها كافرون في الحقيقة . ونسيان الآيات وعدها كأن لم تكن يعده الكتاب العزيز كفراً كما قال شيخنا { ويقتلون النبيين بغير الحق } مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الانبياء فضلا عنهم إلا بحقه المبين فيه ، كل ذلك دل فيهم على طباع بعيدة عن الكرم ، وقلوب غُلف دون الفهم، ومن كان هذا شأنه فالأجدر به أن يكون ذليلا مقهوراً ، ثم هو مهبط غضب الله ومحط نقمه ، لأن أشد الناس كفراً لنعمه ، وقوله (بغير الحق) مع

أن قتل النبيين لايكون إلا كذلك يزيد في شناعة حالهم ، ويصرح بأنهم لم يكونوا مخطئين في الفهم ، ولا متأولين للحكم ، بل ارتكبوا هذا الجرم العظيم عامدين ، وهم يعلمون أنهم بارتكابه مخالفون لما شرع الله تعالى لهم في كتاب دينهم

﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ قال الاستاذ : ذلك الذل وتلك الخلاقة بالغضب انما لزماهم لانهم عصوا الله فيما أمرهم أن يأخذوا به من الاحكام، ولانهم اعتدوا تلك الحدود التي حدها الله لهم في شرائع أنبيائهم، وقد كانت تلك الاحكام والحدود هي الوسيلة لاخراجهم من الذل وتمكين العز والسلطان لهم في الارض الموعودة لانها كانت الكافلة بنظامهم، الحافظة لبناء جماعتهم، فاذا أهملوها فسدت ألفتهم ، وانهدم بناؤهم ، وأسرعت إليهم الذلة التي لم تكن فارقتهم، إلا منهزمة من يدي سلطان الشريعة ، ولم يكن يصدها عنهم إلا معاقل النظام تحت رعايته ، ولزمتهم الذلة والمسكنة بعد هذا لزوم الطابع للمطبوع

والمتبادر وعده الاستاذ احتمالا أن ترجع الاشارة في (ذلك) إلى الثاني أي الكفر بآيات الله وقتل النبيين ، أي إن كفرهم وجراءتهم على النبيين بالقتل انما منشؤهما عصيانهم، واعتداؤهم حدود دينهم ، لان الذي يدين بدين أو شريعة أيا كانت يتهيب لأول الامر مخالفتها ،فاذا خالفها لاول مرة تركت المخالفة أثراً في نفسه ، وضعفت هيبة الشريعة في نظره ، فاذا عاد زاد ضعف سلطة الشريعة على ارادته، ولايزال كذلك حتى تصير المخالفة طبعاً ورينا ، وينسى ماقام على الشريعة من دليل وما كان لها من سيطرة ، ويضرى بالعدوان، كما يضرى الحيوان بالافتراس. وكل عمل يسترسل فيه العامل تقوى ملكته فيه خصوصاً ما اتبع فيه الهوى

---

(٦٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَـٰرَىٰ وَالصَّـٰبِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

أحاط القضاء في الآية السابقة باليهود فلم يدع منهم حاضراً ولا غائباً فألزم

الذل باطنهم ، وكسا بالمسكنة ظاهرهم ، وبوأهم منازل غضبه ، وجعل أرواحهم مساقط نقمه، فذلك الله الذي يقول (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله) سجلت الآية عليهم هذا العذاب الشديد بما كسبت أيديهم واستشعرت قلوبهم من كفر بآيات الله ، وانصراف عن العبرة ، واستعصاء على الموعظة ـ وخروج عن حدود الشريعة ، واعتداء على أحكامها . اقترف ذلك سلفهم ، وتبعهم عليه خلفهم ، فحقت عليهم كلمة ربك ، فلو قر الخطاب عندها ، ولم يتلها من رحمته ما بعدها ، لحق على كل يهودي على وجه الارض أن ييأس ، وأن لا يبقى عنده للأمل في عفو الله متنفس ، بل كان ذلك القنوط لازما لكل عاص، قابضاً على نفس كل معتد ، لا فرق بين اليهود وغيرهم ، فان سبب ما نزل باليهود انما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ما شرع الله لهم، وسنن الله في خلقه لا تتغير، وأحكامه العادلة فيهم لا تتبدل ، لهذا جاء قوله تعالى (إن الذين آمنوا) الخ بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة وانما ورد على هذا الاسلوب البديع متضمناً لجميع من تمسك بهدي نبي سابق وانتسب إلى شريعة سماوية ماضية ، ليدل على أن الجزاء السابق ـ وإن حكي على أنه من خطأ اليهود خاصة ـ لم يصبهم إلا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة، وهي الفسوق عن أوامر الله وانتهاك حرماته، فكل من أجرم كما أجرموا سقط عليه من غضب الله ما سقط عليهم، وعلى أن الله جل شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لامر يختص بهم على أنهم من شعب اسرائيل أو من ملة يهود بل (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) . وأما أنساب الشعوب وما تدين به من دين وما تتخذه من ملة فكل ذلك لا أثر له في رضاء الله ولا غضبه ، ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعتهم ، بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيري الدنيا والآخرة إنما هو صدق الايمان بالله تعالى بان يكون التصديق به سطوعا على النفس من مشرق البرهان ، أوجيشانا في القلب من عين الوجدان ، فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته خالياً من شوب التشبيه والتمثيل ، واليقين في نسبة الافعال اليه خالصا من وساوس الوهم والتخييل، ويكون المؤمن قد ارتقى بايمانه مرتقى يشعر فيه بالجلال الالهي . فاذا رفع بصره إلى الجناب الارفع اغضى هيبة وأطرق إلى أرض العبودية خشوعا ، وإذا أطلق نظره

فيما بين يديه ، مما سلطه الله عليه ، شعر في نفسه عزة بالله ، ووجد فيها قوة تصرفه بالحق فيما يقع تحت قواه ، لايعدو حداً ضرب له ، ولا يقف دون غاية قدر له أن يصل اليها ، فيكون عبدالله وحده ، سيداً لـكل شيء بعده .

كتب ماتقدم الاستاذ بقلمه إذ اقترحت أن يكتب تفسير الاية كما قرره في درسه واني أتمه على المنهج الذي جريت فأقول :

هذا هو الايمان المرضي عند الله تعالى الذي يكون أصلا لتهذيب أخلاق صاحبه ، ومصدراً للاعمال الحسنة عنه . وللايمان اطلاق آخر وهو التصديق بالدين في الجلة أي الايمان بالله وبأن ماجاء به فلان النبي مثلا هو صحيح غير مكذوب على الله تعالى ، ويدخل فيه أهل الفرق الضالة من كل دين من الاديان السماوية ، فهو اطلاق صحيح لغة وعرفا كما تقدم في تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) أي أنهم يصدقون بان للعالم إلها ، وبان بعد الموت بعثا ، ولكن هذا الايمان ليس مطابقا في تفصيله للاذعان الذي له السلطان الأعلى على النفوس في تزكيتها وتهذيبها وحملها على الاعمال الصالحة ، وهذا الاطلاق هو الذي عناه الاستاذ الامام بقوله : لا أثر له في رضا الله ولا غضبه الخ وهو كون الدين جنسية لمن ينتسب اليه فقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنو ﴾ مراد به المسلمون الذين اتبعوا محمداً ﷺ والذين سيتبعونه إلى يوم القيامة ، وكانوا يسمون المؤمنين والذين آمنوا . وقوله : ﴿ والذين هادوا والنصارى والصابئين ﴾ يراد به هذه الفرق من الناس التي عرفت بهذه الاسماء أو الالقاب من الذين اتبعوا الانبياء السابقين ، وأطلق على بعضهم لفظ يهود والذين هادوا ، وعلى بعضهم لفظ النصارى ، وعلى بعضهم لفظ الصابئين ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ﴾ هذا بدل مما قبله أي من آمن منهم بالله إيمانا صحيحا — وتقدم شرحه ووصفه آنفا — وآمن باليوم الآخر كذلك وقد تقدم تفسيرهما في أوائل السورة ، وعمل عملا صالحا تصلح به نفسه وشؤونه مع من يعيش معه ، وما العمل الصالح بمجهول في عرف هؤلاء الاقوام ، وقد بينته كتبهم أتم بيان ، ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أي إن حكم الله العادل سواء، وهو يعاملهم بسنة واحدة لا يحابي فيها فريقا ويظلم فريقا . وحكم هذه السنة أن لهم أجرهم المعلوم بوعد الله لهم على لسان رسولهم ولا خوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار مما يستقبلهم ولا هم يحزنون على شيء فاتهم . وتقدم هذا التعبير في الآية (٣٨) مع تفسيره

فالآية بيان لسنة الله تعالى في معاملة الامم تقدمت أو تأخرت فهو على حد قوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) فظهر بذلك أنه لا إشكال في حمل من آمن بالله واليوم الآخر الخ على قوله (إن الذين آمنوا) الخ ولا إشكال في عدم اشتراط الايمان بالنبي ﷺ ، لان الكلام في معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبي ووحي بخصوصها ، الظانة أن فوزها في الآخرة كائن لا محالة لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلا ، فالله يقول إن الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية وإنما يكون بايمان صحيح له سلطان على النفس، وعمل يصلح به حال الناس، ولذلك نفى كون الامر عند الله بحسب أماني المسلمين أو أماني أهل الكتاب ، وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الايمان الصحيح

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم : ديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن على دين ابراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا : وقالت النصارى مثل ذلك . فقال المسلمون كتابنا بعد كتابكم ونبينا ﷺ بعد نبيكم ، وديننا بعد دينكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم، فنحن خير منكم ، نحن على دين ابراهيم واسماعيل وإسحاق . ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا . فانزل الله تعالى (ليس بأمانيكم) الآية. وروي نحوه عن مسروق وقتادة. وأخرج البخاري في التاريخ من حديث أنس مرفوعاً ليس الايمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا ،

لو أحسنوا الظن لاحسنوا العمل » والحكمة في عناية الله تعالى بالنعي على المغترين بالانتساب الى الدين أيا كان ظاهرة فان هذا الغرور هو الذي صرفهم عن العمل به اكتفاء بالانتساب اليه وجعله جنسية فقط . وترك العمل لازم أو ملزوم لعدم الفقه في الدين أي عدم فهم حكمه وأسراره ، وتبع هذا في الامم السابقة ترك النظر فيما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأن المغرور بما هو فيه لاينظر فيما سواه نظراً صحيحا لاسيما إذا كان مخالفا له .

وذكر الاستاذ الامام في تفسير هذه الآية مسألة أهل الفترة والخلاف المشهور فيها وهو أن جمهور أهل السنة يقول انهم ناجون لأنه لاتكليف الا بشرع وهؤلاء لم تبلغهم دعوة، ومن قال إن بالعقل يدرك الواجب والمحرم والاعتقاد الصحيح والباطل عدهم غير ناجين وهذا رأي المعتزلة وجماعة من الحنفية . وجمهور الأشاعرة على أنه لايمكن إدراك ذلك إلا بالشرع ، ثم إن محل النظر في أهل الفترة من كان منهم كالعرب الذين كانوا يعتقدون نبوة أنبياء ولايجدون لديهم شيئا من أحكام دينهم خالصا من الشوائب سالما من النزغات الفاسدة . وأما مثل اليهود فلايصح أن يسموا أهل فترة فانهم على نسيانهم حظا مماذكروا به وتحريفهم بعض ماحفظوا قد بقي جوهر دينهم معروفا لم يغش أحكامه مايمنع الاهتداء بها والله تعالى يقول [وعندهم التوراة فيها حكم الله] وكذلك المسيحيون لايسمون أهل فترة لان عندهم في التوراة ووصايا الانبياء ماعند اليهود وزيادة مما حفظوا من وصايا المسيح وروح الدعوة موجود عندهم ، ولكنهم لايعملون بهذه الوصايا ولا يأخذون بتلك الاحكام ، ولا عذر لهم يحول دون العقوبة . وأما الصابئون فان كانوا فرقة من النصارى كما يظهر من الوفاق بينهما في كثير من التقاليد كالمعمودية والاعتراف وتعظيم يوم الاحد فالامر ظاهر أن حكمهم كحكمهم ، وإن كان الخلط عندهم أكثر ، والبعد عن الأصل أشد ، حتى انهم اعتقدوا تأثير الكواكب ، وأحاطت بهم البدع من كل جانب ، على أنهم أقرب إلى روح المسيحية من النصارى فان عندهم الزهد والتواضع اللذين يفيضان من كل كلمة

تؤثر عن المسيح عليه السلام ، والنصارى صاروا أشد أمم الارض عتواً وطمعا واسرافا في حظوظ الدنيا . ويقال ان الصابئة ملة مستقلة يؤمنون بكثير من الانبياء المعروفين ولكن قد اختلط عليهم الامر كما اختلط على الحنفاء من العرب ، الا أن عندهم من التقاليد والاحكام ما لم يكن عند العرب ، فان كانوا أقرب اليهم فلهم حكمهم ، والا فهم كاليهود والنصارى يسئلون عن العمل بدينهم بعد فهمه كما يجب حتى يأتيهم هدى آخر كأن تبلغهم دعوة الاسلام فان لم يفعلوا فهم مؤاخذون

علمنا أن أهل الفترة هم الذين لم تبلغهم دعوة صحيحة تحرك إلى النظر أو بلغهم أن بعض الانبياء بعثوا ولكن لم يصل اليهم شيء صحيح من شرائعهم ، فهم يؤمنون بهم إيمانا إجماليا كالحنفاء من العرب الذين كانوا يؤمنون بابراهيم واسماعيل ولا يعرفون من دينهما شيئا خاصا كما تقدم آنفا . وحجة الاشاعرة على عدم مؤاخذتهم آيات كقوله تعالى [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا] وقوله [لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل] وذهب كثير منهم إلى الاكتفاء ببلوغ دعوة أي نبي في ركني الدين الركينين وهما الايمان بالله وباليوم الآخر ، فمن بلغته وجب عليه الايمان بهذين الاصلين ، وإن لم يكن النبي مرسلا اليه

وذهب جمهور الحنفية وكذلك المعتزلة إلى أن أصول الاعتقاد تدرك بالعقل فلا تتوقف المؤاخذة عليها على بلوغ دعوة رسول ، وإنما يجيء الرسل مؤكدين لما يفهم العقل موضحين له ومبينين أموراً لا يستقل بادراكها كأحوال الآخرة وكيفيات العبادة التي ترضي الله تعالى . وأولوا آية [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا] بان المراد بالتعذيب هو الاستئصال في الدنيا بافناء الامة أو استذلالها ، والذهاب باستقلالها ، وينافيه مايدل عليه استعمال «وما كنا» من إرادة نفي الشأن الدال على عموم السلب ، ولهم في كتبهم أدلة ومناقشات ليس هذا من مواضعها

وعن الامام الغزالي أن الناس في شأن بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصناف ثلاثة ـ من لم يعلم بها بالمرة ـ أي كأهل أمريكا لذلك العهد ـ وهؤلاء ناجون حتما [أي إن لم تكن بلغتهم دعوة أخرى صحيحة] ومن بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر في أدلتها اهمالا أو عناداً واستكباراً ، وهؤلاء مؤاخذون حتما . ومن بلغته

على غير وجهها أو مع فقد شرطها وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر ، وهؤلاء في معنى الصنف الاول . هذا معنى عبارته المطابقة لأصول الكلام

[وأقول] عبارته في كتاب فيصل التفرقة في هذا الصنف هي : وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعته وصفته ، بل سمعوا منذ الصبا أن كذابا مدلساً اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المقفع [لعنه الله] تحدى بالنبوة كاذبا ، فهؤلاء عندي في معنى الصنف الاول فان أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه ، وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه ، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب . اه

وأقول في حل معنى الآية على هذا : إن أهل الاديان الالهية – وهم الذين بلغتهم دعوة نبي على وجهها و بشرطها – اذا آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الصحيح الذي بينه نبيهم وعملوا الاعمال الصالحة فهم ناجون مأجورون عند الله تعالى ، واذا آمنوا على غير الوجه الصحيح كالمتشبهة والحلولية والاتحادية وغيرهم فلا ينالهم من هذا الوعد شيء بل يتناولهم الوعيد المذكور في الآيات الاخرى ، وكذلك حال الذين يؤمنون بأقوالهم دون أعمالهم ، فان الايمان الصحيح هو صاحب السلطان الاعلى على القلب والارادة التي تحرك الاعضاء في الاعمال ، فان نازعه في سلطانه طائف من الشهوة فانه لا يلبث أن يقهره [إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون] ثم أزيد الآن على ما تقدم ان كل هذه الأقوال والتفصيلات انما هي في المؤاخذة على اتباع دعوة الرسل وعدمها. ولا يعقل أن يكون من لم تبلغهم الدعوة بشرطها أو مطلقا ناجين على سواء وأن يكونوا كلهم في الجنه كاتباع الرسل في الايمان الصحيح والعمل الصالح . إذ لو صح هذا لكان بعث الرسل شراً من عدمه بالنسبة الى أكثر الناس. والمعقول الموافق للنصوص ان الله تعالى يحاسب هؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة ما بحسب ما عقلوا واعتقدوا من الحق والخير ومقابلهما وستجد تفصيل هذا في موضع آخر من هذا التفسير

(٦٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا

ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٤) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ الْخَٰسِرِينَ

أطمع الله تعالى بالآية السابقة بني اسرائيل في رحمته بعد ماقرعهم بالنذر التي تكاد توقع اليأس في قلوبهم ، وبين لهم ولسائر الناس أن المنفذ إلى هـذا الطمع بل الباب الذي يؤدي إلى هذا الرجاء هو الجمع بين الامرين اللذين بعث لتقريرهما الانبياء عليهم السلام وهما الايمان الصحيح اليقيني والعمل الصالح . واشراك غير بنى اسرائيل في هذا الحكم لايقضي بانتهاء السياق ، بل لايزال الكلام في بني اسرائيل ، ولذلك عقب ذلك الاطماع بالتذكير ببعض الوقائع التي استحقوا فيها العقوبة فحالت دون وقوعها الرحمة فقال ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ وهو العهد الذي أخذه عليهم وتقدم الكلام فيه. وأما قوله ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ فقد ذكر المفسرون فيه قصة وهي أن الله تعالى ظلل بني اسرائيل بالطور وهو الجبل المعروف وخوفهم برفعه فوقهم ليذعنوا ويؤمنوا. ثم اعترض عليه بعضهم بأنه اكراه على الايمان وإلجاء اليه وذلك ينافي التكليف ، وأجيب بأجوبة منها أن مايفعل بالاكراه يعود اختياريا بعد زوال مابه الاكراه ، ومنها أن مثل هذا الالجاء والاكراه كان جائزاً في الامم السابقة ، ويزيد من قال هذا أن نفي الاكراه في الدين خاص بالاسلام لقوله تعالى [لاإكراه في الدين] وقوله [أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين]

قال الاستاذ الامام : لاحاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير مايدل عليه بأسلوبه الفصيح فهو لايحتاج في فهمه إلى إضافات ولا ملحقات ، وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بنى اسرائيل ولم يقل إنه أراد بذلك الاكراه على الايمان، وانما حكى عنهم في آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم فقد قال تعالى في سورة الاعراف [وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون] والنتق الزعزعة والهز والجذب والنفض ونتق الشيء ينتقه وينتقه ـ من بابي ضرب ونصر ـ نتقاً جذبه واقتلعه وقد يكون ذلك في الآية بضرب من الزلزال كما يدل عليه التعبير بالنتق وهو في الاصل بمعنى الزعزعة

والنفض، والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الايمان وعاهدوا موسى عليه. فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التي رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأجل أخذ ماأوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد لأن رؤية الآيات تقوي الايمان، وتحرك الشعور والوجدان، ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي تمسكوا به واعملوا بجد ونشاط، لايلابس نفوسكم فيه ضعف، ولا يصحبها وهن ولا وهم، ثم قال ﴿واذكروا مافيه﴾ أي بالمحافظة على العمل به، فان العمل هو الذي يجعل العلم راسخاً في النفس مستقراً عندها، ويؤثر عن أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه أنه قال: يهتف العلم بالعمل. فان أجابه وإلا ارتحل. وذلك أن العلم انما يحضر في النفس مجملا غير سالم من ابهام وغموض، فإذا برز للوجود بالعمل صار تفصيليا جليا، ثم ينقلب النظري منه بالتكرار والمواظبة بديهيا ضروريا، وبذلك يثبت فلا ينسى. وأما النسيان فانه حليف الكفر وانه ليصل بالانسان إلى حد يساوي فيه من لم تسبق له معرفة بالشيء قط لانه لاأثر له في النفس ولا في الظاهر. ولا فرق بين من بلغته دعوة الهداية فسلم بها وقبلها ثم ترك العمل بها حتى نسيها، وبين من لم تبلغه البتة ومن بلغته على وجه غير مقنع فلم يؤمن — إلا بما تكون الحجة به على الاول أظهر، وكونه بالمؤاخذة أجدر، والثاني معذور عند الجماهير، وكذلك الثالث اذا استمر على النظر من غير تقصير، فعلى هذا تكون منزلة الناسي هي التي تلي منزلة الجاحد المعاند، وهو خليق بأن يحشر يوم القيامة أعمى عن طريق النجاة والسعادة، حتى اذا لقي ربه قال (رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)

وأقول إن في هذا لحجة على قراء القرآن الذين ليس لهم منه إلا التغني بألفاظه وأفئدتهم هواء لاأثر فيها للقرآن، وأعمالهم لاتنطبق على ماجاء به القرآن، وهذا شر نوعي النسيان، وقد ضرب له أبو حامد الغزالي مثل عبيد أقطعهم سيدهم بستانا وكلفهم إصلاحه وعمارته، وكتب لهم كتابا يبين لهم فيه كيف يسيرون في هذا الاصلاح وكيف تكون حياتهم فيه، ووعدهم على الاحسان بمكافأة وأجر فوق مايستفيدونه من ثمرات البستان وغلاته، وتوعدهم على الاساءة في العمل بالعقوبة الشديدة

وراء مايفوتهم من خيرات البستان ، وما يذوقون من مرارة سوء المعاملة فيما بينهم؟ فكان حظهم من الكتاب تعظيم رقه وورقه ، والتغني بلفظه ، وتكرار تلاوته ، بدون مبالاة بالامر والنهي ولا اعتبار بالوعد والوعيد فيه ، بل عاثوا في أرض البستان مفسدين فأهلكوا الحرث والنسل، فهل يكون حظ هؤلاء من الكتاب غير أنه حجة عليهم ، وقاطع لألسنة العذر منهم ؟؟

أمرهم بالذكر الذي يثبت بالعمل، ووصله بذكر فائدته وهي إعداده النفس لتقوى الله عز وجل، فقال ﴿ لعلكم تتقون ﴾ فان المواظبة على العمل بما يرشد اليه الكتاب تطبع في النفس ملكة مراقبة الله تعالى فتكون بها تقية نقية ، راضية مرضية (والعاقبة للتقوى)

وبعد أن ذكر لهم تلك الآية ، وما اتصل بها من الهداية ، ذكرهم بما كان منهم من التولي عن الطاعة والاعراض عن القبول ، ثم امتنّ عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة ، والصفح عما يستحقونه من المؤاخذة والعقوبة ، فقال ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ أي ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة من بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات التي تؤثر في القلوب ، وتستكين لها النفوس ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ أي انكم بتوليكم استحققتم العقاب ، ولكن حال دون نزوله بكم فضل الله عليكم ورحمته بكم ، ولولا ذلك لخسرتم سعادة الدنيا وهو التمكن في الارض المقدسة التي تفيض لبناً وعسلا ، ثم خسرتم سعادة الآخرة وهي خير ثوابا وخير أملا . فمن فضله واحسانه أن وفقكم للعمل بالميثاق بعد ذلك

شايع الاستاذ الامام المفسرين على أن رفع الطور كان آية كونية ، أي أنه انتزع من الارض وصار معلقاً فوقهم في الهواء ، وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق ، وإن لم تكن ألفاظها نصاً فيه ، إذ الرفع والارتفاع هو جعل الشيء — أو أن يكون الشيء — رفيعا عاليا كما قال تعالى (فيها سرر مرفوعة) وقال (وفرش مرفوعة) فكل من السرر والفرش تكون مرفوعة وهي على الارض . وقوله تعالى في آية الاعراف (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) ليس نصاً أيضا في كون الجبل رفع في الهواء . فاصل النتق في اللغة الزعزعة و لزلزلة كما سبق . قال في حقيقة

الاساس : نتق البعير الرحل زعزعه ، ونتقت الزبد أخرجته بالمخض ، ونتق الله الجبل رفعه مزعزعا فوقهم اه والظلة كل ما أظلك سواء كان فوق رأسك أو في جانبك وهو مرتفع له ظل ، فيحتمل أنهم لما كانوا بجانب الطور رأوه منتوقا،أي مرتفعاً مزعزعا فظنوا أن سيقع بهم، وينقض عليهم،ويجوز أن ذلك كان في إثر زلزال تزعزع له الجبل،وقدسبق القول ببطلان كون ذلك إرهاباً للاكراه على قبول التوراة، واذا صح هذا التأويل ، لا يكون منكر ارتفاع الجبل في الهواء مكذبا للقرآن

(٦٥) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٦) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ

أباح الله تعالى لبني اسرائيل العمل في ستة أيام من الاسبوع وحظر عليهم العمل في يوم واحد وهو يوم السبت ، وفرض عليهم في هذا اليوم الاجتهاد في الاعمال الدينية إحياء للشعور الديني في قلوبهم ، وإضعافا لشرههم في جمع الحطام وحبهم للدنيا ، فتجاوز طائفة منهم حدود الله في السبت واعتدوها ، فكان جزاؤهم على ذلك جزاء من لم يرض نفسه بآداب الدين، وجزاء مثله هو الخروج من محيط الكمال الانساني ، والرتوع في مراتع البهيمية ، كالقرد في نزواته ، والخنزير في شهواته ، وقد سجل الله تعالى عليهم ذلك بحكم سنة الفطرة ، والنواميس التي أقام بها نظام الخليقة ، وذلك قوله عز وجل ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ أي وأقسم انكم لقد علمتم نبأ الذين تجاوزوا حدود حكم الكتاب في ترك العمل الدنيوي يوم السبت ـ وسيأتي نبؤهم مفصلا في سورة الاعراف ﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال : مامسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) ومثل هذا قوله تعالى (وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) والخسوء هو

الطرد والصغار . والامر للتكوين ، أي فكانوا بحسب سنة الله في طبع الانسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس . والمعنى أن هذا الاعتداء الصريح لحدود هـذه الفريضة قد جرأهم على المعاصي والمنكرات بلا خجل ولا حياء حتى صار كرام الناس يحتقرونهم ولا يرونهم أهلا لمجالستهم ومعاملتهم

وذهب جمهور المفسرين إلى أن تلك القرية إيلة وقيـل طبرية أو مدين وقالوا إن ذلك كان في زمن داود عليه السـلام ، والقرآن لم يعين المـكان ولا الزمان ، والعبرة المقصودة لاتتوقف على تعيين هذه الجزئيات ، فالحجة فيما ذكر قائمة على بني إسرائيل ومبينة أن مجاحدتهم ومعاندتهم للنبي ﷺ ليست بدعا من أمرهم . ثم إنهـا عبرة بينة لـكل من يفسق عن أمر ربه فيتخذ إلهه هواه ويعيش عيشة بهيمية . وذهب الجمهور أيضا إلى أن معنى [كونوا قردة] أن صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيين ، والآية ليست نصا فيه ولم يبق إلا النقل ولو صح لما كان في الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة ان الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الانسان ، إذ ليس ذلك من سننه في خلقه ، وانما العبرة الـكبرى في العـلم بأن من سنن الله تعالى في الذين خلوا من قبل أن من يفسق عن أمر ربه ، ويتنكب الصراط الذي شرعه له ، نزل عن مرتبة الانسان ، ويلتحق بعجماوات الحيوان. وسنة الله تعالى واحدة ، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ماعامل به القرون الخالية ، ولذلك قال ﴿ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ أي جعلنا هذه العقوبة نكالا وهو مايفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر غيره أي عبرة ينكل من يعلم بها أي يمتنع من اعتداء الحدود ، ومن هذه المادة (النكل) للقيد أو هو أصلها ومنها النكول عن اليمين في الشرع وهو الامتناع ، وما بين يديها يراد به من وقعت في زمنهم كما يراد بما خلفها من بعدهم إلى ماشاء الله تعالى

وأما كونها موعظة للمتقين فهو أن المتقي يتعظ بها في نفسـه بالتباعد عن الحدود التي يخشى اعتداؤها [تلك حدود الله فلا تقربوها] ويعظ بها غيره أيضا . ولايتم كون تلك العقوبة نكالا للمتقدمين والمتأخرين وموعظة للمتقين ، إلا إذا كانت جارية على السـنة المطردة في تربية الامم وتهذيب الطباع ، وذلك ماهو

معروف لاهل البصائر، ومشهور عند عرفاء الاوائل والاواخر، [وحديث المسخ والتحويل وان أولئك قد تحولوا من أناس إلى قردة وخنازير إنما قصد به التهويل والاغراب فاختيار ماقاله مجاهد هو الاوفق بالعبرة والاجدر بتحريك الفكرة]

وأقول إنه ليس في تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبي ﷺ نص فيه على كون ماذكر مسخا لصورهم وأجسادهم. وقد ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره قول مجاهد في أن المسخ معنوي وقول الآخرين إنه صوري، ثم قال والصحيح أنه معنوي صوري. فما مراده بذلك؟

---

(٦٧) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٧٠) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧١) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا. قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ. فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ

هذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بني اسرائيل في قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها. ومن وجوه الاعتبار أن التنطع في الدين والاحفاء في السؤال، مما يقتضي التشديد في الاحكام، فمن شدد شُدد عليه، ولذلك نهى الله تعالى هذه الامة عن كثرة السؤال بقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن

أشياء ان تبد لكم تسؤكم . وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم . عفا الله عنها والله غفور حليم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) وفي الحديث الصحيح « ويكره لكم قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » وقد امتثل سلفنا الامر فلم يشددوا على أنفسهم فكان الدين عندهم فطريا ساذجا وحنيفيا سمحا ، ولكن من خلفنا من عمد الى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكاما استنبطها باجتهاده ، وأكثروا منها حتى صار الدين حملا ثقيلا على الامة فسئمته وملت ، وألقته وتخلت .

قال الاستاذ الامام . جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق اليه ولم يلحق فيه ، فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة . وانما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك الفكر الى النظر تحريكا ، ويهز النفس للاعتبار هزاً . وقد راعى في قصص بني اسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله تعالى اياها ، وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها ، وما كان في أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات ، وابتلائهم بالحسنات والسيئات ، وكيف كانوا يحدثون في أثر كل عقوبة توبة ، ويحدث لهم في أثر كل توبة نعمة ، ثم يعودون الى بطرهم ، وينقلبون الى كفرهم .

كان في الآيات السابقة يذكر النعمة فالمخالفة فالعقوبة فالتوبة فالرحمة كالتفضيل على العالمين ، وأخذ الميثاق ، والانجاء من آل فرعون ، وما كان في أثر ذلك على ما أشرنا الآن وأجملنا ، وأوضحنا من قبل وفصلنا . وفي هذه القصة اختلف النسق فذكر المخالفة بعد في قوله (وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها) ثم المنة في الخلاص منها في قوله (فقلنا اضربوه ببعضها) الخ وقدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص وهي ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها [حيث لم يسبق في الكلام عهد لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرة ، فالمفاجأة بحكاية ما كان من ذلك الامر والجدال الذي وقع فيه يثير الشوق في الانفس الى معرفة السبب فتتوجه الفكرة باجمعها إلى تلقيه] اذ الحكمة في أمر الله أمة من الامم بذبح بقرة

خفيّة وجديرة بان يعجب منها السامع ويحرص على طلبها . لاسيما إذا لم يعتد فهم الاساليب الاخّاذة بالنفوس الهازّة للقلوب: وأقول قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والاساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر

يقول أهل الشبهات في القرآن: إن بني اسرائيل لايعرفون هذه القصة اذ لا وجود لها في التوراة فمن أين جاء بها القرآن؟ ونقول ان القرآن جاء بها من عند الله الذي يقول في بني اسرائيل المتأخرين انهم نسوا حظا مما ذكروا به . وانهم لم يؤتوا الا نصيبا من الكتاب . على أن هذا الحكم منصوص في التوراة وهو أنه اذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي، ثم يقولون إن أيدينا لم تسفك هذا الدم، اغفر لشعبك اسرائيل؛ ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هي السبب فيه . وماهذه بالقصة الوحيدة التي صححها القرآن، ولا هذا الحكم بالحكم الاول الذى حرفوه أو أضاعوه وأظهره الله تعالى . (قال الاستاذ) وقد قلت لكم غير مرة انه يجب الاحتراس في قصص بني اسرائيل وغيرهم من الانبياء وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين . فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم يقولون معنا إنه لا يوثق بشيء من تاريخ تلك الازمنة التي يسمونها أزمنة الظلمات الا بعد التحري والبحث واستخراج الآثار فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التي لا يوثق بها لحسن قصدهم ، ولكننا لا نعول على ذلك بل ننهى عنه ونقف عند نصوص القرآن لانتعداها ، وانما نوضحها بما يوافقها اذا صحت روايته

(وأقول) ان ما أشار اليه الاستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه :

(١) اذا وجد قتيل في الارض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا في الحقل لايعلم من قتله

(٢) يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون الى المدن التي حول القتيل

(٣) فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالنير

(٤) وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة الى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي

(٥) ثم يتقدم الكهنة بني لاوي لأنه اياهم اختار الاب الملك ليخدموه ويباركوا باسم الرب ، وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة

(٦) ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي

(٧) ويصرخون ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر

(٨) اغفر لشعبك اسرائيل الذي فديت يارب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك اسرائيل . فيغفر لهم الدم اه

فعلم من هذا أن الامر بذبح البقرة كان لفصل النزاع في واقعة قتل ويروون في قصته روايات منها أن القاتل كان أخ المقتول قتله لأجل الارث وأنه اتهم أهل الحي بالدم وطالبهم به. ومنها أنه كان ابن أخيه ، وغير ذلك مما لاحاجة اليه ، وكانوا طلبوا من موسى الفصل في المسألة وبيان القاتل ولما أمرهم بذبح البقرة استغربوه لما فيه من المباينة لما يطلبون، والبعد بينه وبين مايريدون ، فذلك قوله تعالى ﴿وإذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا﴾ أي سخرية يهزأ بنا، وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم وجهلهم بعظمة الله تعالى وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتثال ، وان لم تظهر حكمته بادي الرأي ، ولولا ذلك لامتثلوا وانتظروا النتيجة بعد ذلك . ولما كان في جوابهم هذا رمي لموسى عليه الصلاة والسلام بالسفه والجهالة ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ أي التجيء إلى الله وأعتصم بتأديبه إياي من الجهالة والهزء بالناس

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ أي ما الصفات المميزة لها ؟ قال الاستاذ الامام : ان السؤال بما هي ليس جاريا هنا على اصطلاح علماء

المنطق من جعله سؤالا عن حقيقة الماهية ، وانما هو على حسب أسلوب اللغة ، والعرب يسألون بما عن الصفات التي تميز الشيء في الجملة كالذي ذكره في الجواب ﴿ قال انها بقرة لافارض ﴾ أي غير مسنة انقطعت ولادتها ﴿ ولا بكر ﴾ لم تلد بالمرة والمراد بها التي لم تلد كثيراً ﴿ عوان بين ذلك ﴾ العوان النصف في السن من النساء والبهائم أي هي بين ماذكر من السنين الفارض والبكر فالمشار اليه بكلمة ذلك متعدد في المعنى. وان كان لفظه مفرداً. و « بين » من الكلم التي تختص بالمتعدد تقول جلست بينهم أو بينهما ولا تقول جلست بينه. واستعمال الاشارة والضمير المفردين فيما هو بمعنى الجمع على تقدير التعبير عنه بالمذكور أو « ماذكر » كثير في كلامهم ومنه قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق * كأنه في الجسم توليع البهق

ذكر هذا الوصف المميز للبقرة في الجملة وقال ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ وكان يجب عليهم الاكتفاء به والمبادرة بعده للامتثال ولكنهم أبوا الا تنطعا واستقصاء في السؤال ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ الفاقع الشديد الصفرة في صفاء بحيث لايخالطه لون آخر ، وبعض أهل اللغة لايخصه بالاصفر بل يجعله وصفا لكل لون صاف.

وكان يجب أن يكتفوا بهذه المميزات ولكنهم زادوا تنطعا اذ ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهي؟ ان البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ وقد أرادوا بهذا السؤال زيادة التمييز ككونها عاملة أو سائمة ﴿ قال انها بقرة ﴾ سائمة ﴿ لاذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث ﴾ أي غير مذللة بالعمل في الحراثة ولا في السقي ﴿ مسلمة ﴾ من العيوب أو من سائر الاعمال ﴿ لاشية فيها ﴾ أي ليس فيها لون آخر غير الصفرة الفاقعة . والشية مصدر كالعدة من وشى الثوب يشيه إذا جعل فيه خطوطا من غير لونه بنحو تطريز . ولما استوفى جميع المميزات والمشخصات ولم يروا سبيلا إلى سؤال آخر ﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ أي وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم ، وانقطع ما كان من تنطعهم وتعنتهم. روى ابن جرير في التفسير بسند صحيح عن ابن عباس موقوفا « لو ذبحوا

أي بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم » وأخرجه سعيد بن منصور في سننه عن عكرمة مرفوعا مرسلا : وههنا يذكر المفسرون قصة في حكمة هذا التشديد وهو المصير إلى بقرة معينة لشخص معين كان باراً بوالدته. وقد يكون هذا صحيحا غير أنه لا داعي اليه في التفسير وبيان المعنى . وقد يشتبه بعض الناس فيما ذكر بأن أحكام الله تعالى لاتكون تابعة لأفعال الناس العارضة ويرد هذه الشبهة أن التكليف كثيراً مايكون عقوبة لانه تربية للناس وقد وردت الاسئلة والاجوبة في هـذه القصة مفصولة غير موصولة بالفـاء وذلك مايقتضيه الاسلوب البليغ فقد تقرر في البلاغة أن القول إذا أشعر بسؤال كان مايأتي بعده مما يصح أن يكون جوابا للسؤال المقدر مفصولا عما قبله ، وقوله (وإذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) يشعر بسؤال كأنه قيل ماذا كان منهم بعد الامر فأجيب عنه بقوله (قالوا أتتخذنا هزواً) وهذا يشعر بسؤال أيضا كأنه قيل ماذا قال موسى اذ قالوا ذلك فأجاب (قال أعوذ بالله) الخ وهكذا ورد غـيرها من المراجعات في التنزيل كما ترى في قصة موسى وفرعون

---

(٧٢) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٣) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

هذا هو أول القصة المحتوية على المخالفة على ما أشرنا اليه وهي القتـل ثم التنازع في القاتل ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة وما كان من إلحاحهم في السؤال على ماسبق. فقوله تعـالى ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ﴾ أسند فيه القتل الى الامة وإن كان القاتل واحداً باعتبار ماتقـدم من كونها في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد . والتدارؤ تفاعل من الدرء وهو الدفع فمعناه التدافع وهو يدل على أنه كان خصام واتهام ، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعي البراءة ويتهم غـيره ، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ واهواء كتموا فيها

الحقيقة ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ من الايقاع بقوم برآء تتهمونهم بالقتل لاخفاء القاتل لانه لايخفى عليه مكركم

وأما قوله ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ﴾ فهو بيان لاخراج ما يكتمون . ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة . قيل ان المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها . . . . وقالوا انهم ضربوه فعادت اليه الحياة وقال : قتلني أخي أو ابن أخي فلان الخ ما قالوه ، والآية ليست نصا في مجمله فكيف بتفصيله والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل اذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره ، فمن غسل يده وفعل مارسم لذلك في الشريعة بريء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية . ومعنى احياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس أي يحييها بمثل هذه الاحكام . وهذا الاحياء على حد قوله تعالى (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) وقوله (ولكم في القصاص حياة) فالاحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين ثم قال ﴿ ويريكم آياته ﴾ بما يفصل بها في الخصومات، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات، فهو كقوله تعالى (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) وأكثر مايستعمل مثل هذا التعبير في آيات الله في خلقه الدالة على صدق رسله . وليس عندي شيء عن شيخنا في تفسير هذه الجملة ولكنه قال في تعليلها ما يرجح القول الاول وهو ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفقهون أسرار الاحكام وفائدة الخضوع للشريعة ، فلا تتوهمون أن ماوقع مختص بهذه الواقعة في هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله في كل وقت بالقبول من غير تعنت . قال تعالى :

---

(٧٤) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ

فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ . وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

(أقول) وصفهم الله تعالى بأنه قد طرأ عليهم بعد رؤية تلك الايات ما أزال أثرها من قلوبهم، وذهب بعبرتها من عقولهم، فقال ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ فالعطف بثم يفيد أن الاولين منهم قد خشعت قلوبهم لما رأوا في زمن موسى عليه السلام ما رأوا ثم خلف من بعدهم خلف كان أمر قسوتها ما وصفه عز وجل . والقسوة الصلابة وهي من صفات الاجسام ووصف القلوب بالقسوة مجاز تشبيه مما يسمونه الاستعارة بالكناية . ويصح في « أو » الترديد والتشكيك وهو بالنسبة إلى المخاطبين لا إلى المتكلم باعتبار ما يعهد في التخاطب العربي كأن عربيا يحدث آخر ويقول له: إن هذه القلوب في قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها . ويصح فيها التقسيم أي إن القسوة عمت قلوبكم فأقلها قسوة يشبه الحجر الصلد ، ومنها ما هو أشد منه قسوة . وأظهر منهما أن تكون للاضراب على طريقة المبالغة أي بل هي أشد قسوة من الحجارة ، إذ لا شعور فيها يأتي بخير ، ولا عاطفة تفيض منها بعبرة ، والحجارة ليست كذلك ، لأن منها ما يفيض بالخيرات ، ومنها ما يكون موضع ظهور آثار القدرة الالهية في الجمادات .

وصف الحجارة بالثلاث الصفات الآتية بعد أن شبه القلوب بها في الصلابة المطلقة ، وفرق بين القلوب وبينها بالاضراب والانتقال إلى أن القلوب أشد صلابة، وأراد أن يبين بهذه الصفات وجه ضعف الصلابة في الحجارة وشدتها في القلوب مكان الكلام يشبه أن يكون عذراً عن الحجارة دون القلوب ، والمراد بالقلوب ما اعتبرت عنوانا له وهو الوجدان والعقل، وأكثر ما تستعمل في الاول لأنه سائق الاقناع والاذعان ، ويطلق لفظ القلب على النفس الناطقة لان من شأن القلب أن يتأثر مما يتأثر منه الوجدان أو العقل أو الروح مطلقاً . وفي الكلام من المبالغة أن هذه القلوب فقدت خاصة التأثر والانفعال بما يرد عليها من المواعظ والآيات التي هي من خواص الروح الانساني حتى كأن أصحابها هبطوا من درجة الحيوان

إلى دركة الجماد كالحجارة ، بل نزلوا عن دركة الحجارة أيضاً ، وذلك ما أفاده قوله تعالى ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ التفجر تفعل من الفجر وهو الشق الواسع يكون للمطاوعة كفجرته فتفجر (بالتشديد فيهما) ويكون لتكرر الفعل وحصوله مرة بعد أخرى ، ومثله التشقق الا أنه أعم ، ولما في التفجر من معنى السعة عبر به عن خروج الانهار من الصخور الكبار وهو معهود في الجبال ، وعبر بالتشقق لخروج الماء الذي يصدق بالقليل منه .

والمعنى أن هذه الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء الرقيق اللطيف فيشقها وينفذ منها بقلة أو كثرة فيحيي الارض وينفع النبات والحيوان. وأما هذه القلوب فلم تعد تتأثر بالحكم والنذر ولا بالعظات والعبر ، فالحكم لا تقوى على شقها والنفوذ منها إلى أعماق الوجدان ، وأنوار الفطرة قد انطفأت فيها فلا يظهر شعاعها على انسان - ومن الحجارة ما يشقه الماء القليل كماء العيون والينابيع الحجرية، ومنها مالا يفجره إلا الماء القوي الغمر الذي يسمى نهراً (وإن منها لما يهبط من خشية الله) وهو ما ينحط من أعلى الجبل ومن أثنائه بسبب أثر من آثار القهر الالهي كالبراكين والصواعق التي تهبط بها الصخور وتندك الجبال ، وقد جعل هذا شبهاً للآيات الالهية التي أظهرها على يد عبده ونبيه موسى عليه السلام فهي حوادث عظيمة في الكون تفزع بها نفوس المؤمنين إلى الله، وتخشع لأمره ونهيه، لعظمتها وخفاء سر إيجادها، كما تفزع النفوس من حوادث البراكين والصواعق التي تدك الصخور وتدمر الحصون، وقد أصبحت تلك القلوب بعد مشاهدة الآيات لا تتأثر بها ولا تزداد إيماناً.

فملخص التشبيه أن قلوبكم تشبه الحجارة في القسوة بل قد تزيد في القساوة عنها ، فان الحجارة الصم تتأثر في باطنها بالماء اللطيف النافع بعضها بالقوى منه وبعضها بالضعيف ، ولكن قلوبكم لا تتأثر بالحكم والمواعظ التي من شأنها التأثير في الوجدان ، والنفوذ إلى الجنان ، والحجارة تتأثر بالحوادث الهائلة التي يحدثها الله في الكون كالصواعق والزلازل ، ولكن قلوبكم لم تتأثر بتلك الآيات الالهية

التي تشبهها ، فلا أفادت فيها المؤثرات الداخلية ولا المؤثرات الخارجية كما أفادت في الاحجار، فبذلك كانت قلوبكم أشد قسوة . ثم هددهم بقوله ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ أي فهو سيريكم بضروب النقم ، اذا لم تتربوا بصنوف النعم .

---

(٧٥) أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٦) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٧) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٨) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ

كان النبي (ص) وأصحابه (ر ض) يرون أن أولى الناس بالايمان وأقربهم منه اليهود لأنهم موحدون ومصدقون بالوحي والبعث في الجملة ولذلك كانوا يطمعون بدخولهم في الاسلام أفواجا لأنه مصدق لما معهم في الجملة ومجل لجميع شبهات الدين وحالّ لجميع إشكالاته بالتفصيل وواضع له على قواعد لا ترهق الناس عسراً (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم)

كان هذا الطمع في إيمانهم مبنياً على وجه نظري معقول لولا أنهم اكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية ، ولم يجعلوه هداية روحية ، ولذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء ، ويحرفون كلمه عن مواضعها بحسب الاهواء، وما أعذر الله المؤمنين في طمعهم هذا إلا بعد ماقص عليهم من نبأ بني اسرائيل الذين كانوا على عهد التشريع وشاهدوا الآيات ماعلم به أنهم في المجاحدة والمعاندة على عرق راسخ ونحيزة موروثة لا يكفي في زلزالها كون القرآن مبينا في نفسه لا يتطرق اليه ريب ، ولا يتسرب اليه شك ، ولذلك بدأ السورة بوصف الكتاب بهذا وكونه هدى للمتقين من أهل الكتاب وغيرهم . وثنى ببيان أن من الناس

من يعانده ويباهته ، ومنهم المذبذب الذي يميل مع الريحين ، فلا يثبت مع أحد الفريقين ، ثم أفاض في شرح حال بني اسرائيل الذين لم يؤمن منهم إلا قليل من أهل العلم والتقوى ، وكان الاكثرون أشد الناس استكباراً عن الايمان وإيذاء للرسول ولمن اتبعه من المؤمنين . وبعد هذا كله أنكر على المؤمنين ذلك الطمع بدخول اليهود في دين الله أفواجاء ووصل الانكار بحجة واقعة ناهضة ، تجعل تلك الحجة النظرية داحضة فعلم بهذا أن الكلام لايزال متصلا في موضوع الكتاب واصناف الناس بالنسبة إلى الايمان به وعدم الايمان . كلما بعد العهد جاء مايذكر به تذكيراً

قال تعالى ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون ﴾ كان الظاهر أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ولكن خاطب المؤمنين معه لأنهم كانوا يشاركونه في الالم من إيذائهم والطمع بهدايتهم فأشركهم بالتسلية كما سبق ، ولان طمع بعض المؤمنين بايمانهم كان يحملهم على الانبساط معهم في المعاشرة إلى حد الافضاء اليهم ببعض الشؤون الملية المحصة واتخاذهم بطانة ، وكان يعقب ذلك من الضرر مايعقب حتى نهاهم الله تعالى عن اتخاذ البطانة من دون المؤمنين إذا كانوا موصوفين بأوصاف هؤلاء ، وذلك قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) والآية الآتية تدل على هذا الافضاء أيضاً

أما الحجة التي وصلها بانكار الطمع بايمانهم للدلالة على أنه طمع في غير مطمع فهي تعمد تحريف كلام الله ممن سمعه منهم . وذلك أن موسى اختار بأمر الله سبعين رجلا من قومه لسماع الوحي ومشاهدة الحال التي يكلمه الله تعالى بها وقد سمعوا كلام الله تعالى على الوجه الذي لانعرفه ، وإنما نعرف أنهم صحبوه إلى حيث كان يناجي الله تعالى ، وكان من شأن الله تعالى معهم أن صدقوا بأن ماجاء به موسى عليه السلام هو وحي من الله تعالى . والتصديق بذلك لايتوقف على معرفة كيفيته وكنهه فان أكثر مانصدق به تصديق يقين لانعرف حقيقته وكنهه ولا كيفية تكوينه وإيجاده . وقد كان من أولئك المختارين أنهم لما رجعوا إلى

قومهم حرفوا كلام الله الذي حضروا وحيه وأذعنوا له بأن صرفوه عن وجهه بالتأويل — كما حققه ابن جرير الطبري وغيره — وهذا التحريف ثابت عندهم منصوص في التوراة والتاريخ الديني الذي يسمى التاريخ المقدس

فدل هذا وما سبقه على أن القسوة المانعة من التأثر والتدبر، ومكابرة الحق والتفصي من عقال الشريعة، كان شنشنة قديمة فيهم، ثم تأصل فصار غريزة مطبوعة، فاعراضهم عن القرآن لا يستلزم الطعن عليه، ولا القول بجواز تسلق شيء من الريب اليه، فانهم قد حرفوا وبدلوا، وعاندوا وجاحدوا، وهم يشاهدون الآيات الحسية، ويؤخذون بالعقوبات المعاشية، فكيف يستنكر بعد هذا أن يعرضوا عن دين دلائله عقلية، وآيته الكبرى معنوية، وهى القرآن المعجز بما فيه من علوم الهداية، ودقائق البلاغة، وأنباء الغيب على أنه من أمي عاش أربعين سنة لم يؤثر عنه فيها شيء من العلم، ولم يزاحم فحول البلاغة في نثر ولا نظم، وفهم تلك الدلائل انما يكون من ذوي العقول الحرة والقلوب السليمة، الذين لطف شعورهم، ورق وجدانهم وصحت أذواقهم.

قال ابن جرير: لو كان المراد بما هنا تحريف كلام التوراة المكتوب لما قال يسمعون كلام الله ثم يحرفونه فزيادة « يسمعون » هنا لابد لها من حكمة ولولا ذلك لجاء الكلام على نسق الآيات الاخرى التى ذكر فيها التحريف كأن يقول « وقد كان فريق منهم يحرف كلام الله » . وقوله تعالى « من بعد ماعقلوه » نص في التعمد وسوء القصد، وإبطال لما عساه يعتذر لهم به من سوء الفهم، ثم قال « وهم يعلمون » أي كانوا يفعلون فعلتهم الشنعاء في حال العلم بالصواب واستحضاره لأنهم كانوا على نسيان أو ذهول . وفي هذين القيدين من النعي والتشنيع عليهم مالا مزيد عليه . وكيف وقد بطل بهما عذر الخطأ والنسيان، وسجل عليهم تعمد الفسوق والعصيان .

ثم بعد هذا الاحتجاج انتقل إلى بيان بعض أحوال الذين كانوا في زمن التنزيل وقد غير الاسلوب هنا فانه كان يحكى سيئاتهم مبتدئا بكلمة (وإذ) لأنه تذكير بما كان في الزمان الماضي . والابتداء بكلمة (اذا) هنا هو المناسب في الحكاية عن حال واقعة في الحال، مستمرة في الاستقبال، والمراد من حكاية

أحوال الحاضرين ، بيان أنها مساوية لاحوال سلفهم الغابرين ، وأنه لايرجى من هؤلاء أفضل مما كان من أولئك . قال

﴿ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا . واذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ ﴾

ترشد هذه الآية إلى طور من أطوار البشر في زمن الاصلاح وهي أن جماهير الناس يقعون في الحيرة بين الهداية الجديدة والتقاليد القديمة . لا ينظرون إلى الحق فيتحروا اتباعه أين كان ، ولكنهم يفكرون في منفعتهم الخاصة . يقولون : نخشى أن نجهر بالجديد فيخذل حزبه ، ويتفرق شمله ، فنكون من الخاسرين . ولا نأمن إن بقينا على القديم أن يتقلص ظله ، ويذل أهله ، فنكون مع الضالين . فالحزم أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الآخر اذا هو علم بما كان منا إلى أن نتبين الفوز في أحد الفريقين : فيكونون هكذا مذبذبين كما قال تعالى « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم » الخ الضمير في قالوا الثانية غير الضمير في قالوا الاولى كما هو ظاهر من السياق ، ولا لبس فيه ولا اشتباه ، ومثله مستفيض في كلام البلغاء وفي التنزيل أيضاً كقوله تعالى (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن) فان المنهي عن العضل الاولياء لا المطلقون . والكلام في القرآن للمكلفين كافة فيوجه كل كلام الى صاحبه الذي يتعين أن يكون له بقرينة الحال أو المقال . فاذا وجه الخطاب بالطلاق الى الازواج لأنه لا يكون الا منهم فكذلك يوجه الخطاب بالنهي عن العضل - وهو منع المرأة من التزوج - الى الاولياء لأنه لا يكون الا منهم . وعلى هذه الطريقة يتخرج قوله (قالوا آمنا) وقوله (قالوا أتحدثونهم) فالكلام في مجموع اليهود ، ويوجه الاول الى الذين يلاقون المؤمنين (والثاني) الى الذين يلاقيهم هؤلاء من قومهم ويعذلونهم على الافضاء الى المؤمنين بما فتح الله عليهم

المراد بالفتح هنا الانعام بالشريعة والاحكام ، والبشارة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، شبه الذي يعطى الشريعة بالمحصور يفتح عليه فيخرج من الضيق . أو معنى (بما فتح الله عليكم) بما حكم به وأخذ به الميثاق عليكم من الايمان بالنبي

الذي يجيئكم مصدقا لما معكم ونصره . وقوله (ليحاجوكم به عند ربكم) معناه يقيمون به عليكم الحجة من كتاب ربكم وهو التوراة من حيث إن ماتحدثونهم به موافق لما في القرآن فلهم أن يقولوا : لولا أن محمداً نبي لما علم بهـذا الذي حكاه عنكم وقد كان مثلنا لا يعرف من أمر الكتاب شيئاً : هذا ماجرى عليه المحققون في تفسير (عند ربكم) وهو أنه بمعنى في كتابه فهو كقوله في أهل الافك (فاذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عندالله هم الكاذبون) أي في حكمه المبين في كتابه . وذهب مفسرنا (الجلال) الى أن معناه المحاجة في الآخرة والنظم لا يأباه ، ولكن فيه اعترافا من اللائمين المؤنبين بأن المسلمين على الحق الذي لا ينجي عندالله سواه . ومن اعتقد هـذا لا يجعله تعليلا للانكار على من يراه من قومه يحدث المؤمنين بما يوافقهم ويقوي حجتهم ، بل فيه أيضا ان ترك تحديثهم لا يمنعها في الآخرة .

مثل هـذه الذبذبة تكون من الامم في طور الضعف ولاسيا ضعف الارادة والعلم ، ولو كان لأولئك القوم ارادة قوية لثبتوا ظاهراً على مايعتقدونه باطنا ولم يصانعوا مخالفيهم من أهل الملة الاولى أو الملة الآخرة ، وقد وبخهم الله تعالى وأنكر عليهم هذا التلون والدهان في الدين ولقاء كل فريق بوجه يظهرون له مايسرون من أمر الآخر فقال ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون ﴾ يعني أيقول اللائمون أو المنافقون كلهم ماقالوا ، ويكتمون من صفات النبي ﷺ ماكتموا ، ويحرفون من كتابهم ماحرفوا ، ولا يعلمون ان الله يعلم مايسرون من كفر وكيد ، وما يعلنون من اظهار ايمان وود ، فان كانوا مؤمنـين باحاطة علمه تعالى فلم لا يحفلون باطلاعه على ظواهرهم ، واحاطته بما يجول في أطواء ضمائرهم ، وبما يترتب على علمه من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة

قال تعالى ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الـكتاب إلا أمانيّ وان هم الا يظنون﴾

ذلك الذى تقدم هو شأن علمائهم : يحرفون كتـاب الله ويخرجون من حكمه بالتأويل ، وهذا هو شأن عامتهم : لا علم لهم بشيء من الـكتاب ، ولامعرفة لهم بالاحكام ، وما عندهم من الدين فهو أمانيّ يتمنونها وتجول صورها في خيالاتهم ، وهذه الصور هي كل ماعندهم من العلم بدينهم ، وما هم على بينة منها ، وإنما هي ظنون

يلهون بها . وهذا هو محل الذم لا مجرد كونهم أميين، فان الامي قد يتلقى العلم عن العلماء الثقات ويعقله عنهم بدليله فيكون علمه صحيحا وهؤلاء لم يكونوا كذلك . فان قيل : لم سمي ما كانوا عليه من الاماني ظنا مع أنهم أخذوه عن رؤساء دينهم الموثوق بهم عندهم وسلموه تسليما فلم يكن في نفوسهم ما يخالفه ومثل هذا يسمى اعتقاداً وعلماً ؟ نقول انما العلم بالدليل ولا يسمي مثل ذلك علما الا من لا يعرف معنى العلم . على أنه لم يكن راجحا ومسلما الا لأن مقابله لم يخطر ببالهم ولو أورد عليهم لتزلزل ما عندهم ثم زال ، أو ظهر فيه الشك وتطرق اليه الاحتمال ، ويصح أن يقال في مثل هؤلاء ان الظن أو التردد كان نائما في نفوسهم وهو عرضة لان يوقظه نقيضه ويذهب به متى طرأ . ونوم الظن لا يصح ان يسمى اعتقاداً

قال الاستاذ الامام : هذه الاماني توجد في كل الامم في حال الضعف والانحطاط يفتخرون بما بين أيديهم من الشريعة وبسلفهم الذين كانوا مهتدين بها وبما لهم من الآثار التي كانت ثمرة تلك الهداية ، وتسول لهم الاماني أن ذلك كاف في نجاتهم وسعادتهم وفضلهم على سائر الناس . هكذا كان اليهود في زمن التنزيل وقد اتبعنا سننهم وتلونا تلوهم فظهر فينا تأويل الحديث الصحيح « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع » واننا نقرأ أخبارهم فنسخر منهم ولا نسخر من أنفسنا ، ونعجب لهم كيف رضوا بالاماني ونحن غارقون فيها

ثم إن الآية تدل على بطلان التقليد وعدم الاعتداد بايمان صاحبه وقد مضى على هذا إجماع الصدر الاول وأهل القرون الثلاثة وانما كان الجاهل يأخذ عن العالم العقيدة ببرهانها ، والاحكام بروايتها ، ولا يتقلد رأيه كيفما كان ، من غير بينة ولا برهان ، وفسر بعضهم الاماني بالاكاذيب ابتداء ومنهم من فسرها بالقراآت أي انهم لا حظ لهم من الكتاب الا قراءة الفاظه من غير فهم ولا اعتبار يظهر أثرهما في العمل . فهو على حد (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) وقد ورد التمني بمعني القراءة ومنه قول الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليله تمنيَ داود الزبور على رسل

وهذا النوع من التمني قد برَّز فيه المسلمون حتى سبقوا من قبلهم فقد أمسوا

اكثر الامم تلاوة لكتابهم وأقلهم فهما له واهتداء به

قال الاستاذ الامام : إنما يحسن تفسير هذه الآيات من كان على علم بتاريخ اليهود في ذلك العصر ووقوف على حالهم ، وإن كانت الانسخة من حال بعض الشعوب الموجودين الآن .... كانوا اكثر الناس مراء وجدالا في الحق وان كان بينا باهرا ، وأشد الناس كذبا وغرورا واكلا لاموال الناس بالباطل كالربا الفاحش وغشا وتدليسا وتلبيسا ، وكانوا مع ذلك يعتقدون أنهم شعب الله الخاص وأفضل الناس كما يعتقد أشباههم في هذا الزمان. فهذه هي الاماني التي صدتهم عن قبول الاسلام .

وأما اللفظ والنظم ففيه ان قوله تعالى «الا أماني» استثناء منقطع والعلم المنفي قاصر لا يشمل الأماني . ويصح أن يكون متعديا والآية على حد قولهم «ماعلمت فلانا الا فاضلا » ويكون المعنى أنهم انما يعلمون من الكتاب انه مجموعة أماني يعنونها أنفسهم ، فهم لا يأخذون منه الا ماهو لهم ويمدهم في غرورهم ، وأما ماينبههم على سيئات أعمالهم فكأنه غير معروف لهم من الكتاب . ثم قال جل ثناؤه

---

(٧٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ

قال المفسر (الجلال) انهم كانوا يكتبون الاحكام على خلاف ما هي عليه في الكتاب كآية الرجم ووصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . وقال الاستاذ الامام لو كان هذا هو المراد من هذه الاية لما بديء الكلام بالفاء وانما الآية وعيد على أن لبسوا على الناس بالكتابة وتأليف الكتب الدينية وإيهام العامة أن كل ما كتبوه فيها مأخوذ من كتاب الله كما يعتقد المقلدون من كل ملة بكتب الدين التي يؤلفها علماؤهم في الاصول والفروع حتى ان بعضهم يقول ان اختلافها لا ينافي كونها من عند الله خلافا لقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) . فهذه الكتب هي مثار الاماني والغرور ولذلك أنذر على

أصحابها الهلاك بعد ماذكر أصناف اليهود من منافقين ومحرفين وأميين فقال
﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ أقول:
أي ويل وهلاك عظيم لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتب بأيديهم ويودعونها
آراءهم ويحملون الناس على التعبد بها قائلين إن مافيها من عند الله ويمكن الاستغناء بها
عن كتاب الله الذي نفهم منه مالا يفهم غيرنا: يخطبون بتلك الكتب ميل العامة وودهم
ويبتغون الجاه عندهم ويأكلون أموالهم بالدين . ولذلك قال ﴿ ليشتروا به ثمنا قليلا ﴾
وكل ماياع به الحق ويترك لاجله فهو قليـل لان الحق أثمن الاشياء وأغلاها ،
وأرفعها وأعلاها ، ولذلك كرر الوعيد فقال ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم
وويل لهم مما يكسبون ﴾ فالهلاك والويل محيط بهم من أقطارهم ونازل بهم من
جانب الوسيلة ومن جانب المقصد

قال الاستاذ الامام : من شاء أن يرى نسخة ممـا كان عليه أولئك اليهود
فلينظر فيما بين يديه فانه يراها واضحة جلية . يرى كتبا ألفت في عقائد الدين
وأحكامه حرفوا فيها مقاصده وحولوها إلى مايغر الناس ويمنيهم ويفسد عليهم دينهم،
ويقولون هي من عند الله وماهي من عند الله . وانما هي صادة عن النظر في كتاب
الله والاهتداء به . ولا يعمل هذا إلا أحد رجلين : رجل مارق من الدين يتعمد
إفساده ويتوخى إضلال أهله فيلبس لباس الدين ويظهر بمظهر أهل الصلاح يخادع
بذلك الناس ليقبلوا ما يكتب ويقول . ورجل يتحرى التأويل ويستنبط الحيـل
ليسهل على الناس مخالفة الشريعة ابتغاء المال والجاه

ثم ذكر الاستاذ وقائع طابق فيها بين ما كان عليه اليهود من قبل وما عليه
المسلمون الآن ــ ذكر وقائع للقضاة والمأذونين، وللعلماء والواعظين، فسقوا فيها
عن أمر ربهم ، فمنهم من يتأول ويغـتر بأنه يقصد نفع أمته كما كان أحبار اليهود
يفتون بأكل الربا أضعافا مضاعفة ليستغني شعب إسرائيل ،ومنهم من يفعل مايفعل
عامداً عالما أنه مبطل ولـكن تغره أماني الشفاعات والمكفرات

(٨٠) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨١) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

هذا ضرب من ضروب غرورهم عطفه على ماقبله فقال ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ قيل هي أربعون يوما مدة عبادتهم العجل والذي عليه أكثر اليهود أنها سبعة أيام لان عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة فالاسرائيلي الذي لاتدركه الشفاعة يمكث في النار سبعة أيام عن كل الف سنة يوم . ومثل هذا الحكم لايمكن القول به إلا بعهد من الله تعالى مالك يوم الدين والجزاء وإلا كان افتئاتا عليه سبحانه وقولا عليه بغير علم وهذا مارد به عليهم ولله الحجة البالغة وأمر رسوله أن يخاطبهم به بقوله ﴿ قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ﴾ أي هل عهد الله إليكم ذلك ووعد به فكان حقاً لكم عنده ، لأن الله لايخلف عهده ؟ وقال ابن جرير وبعض المفسرين معناه هل اتخذتم عند الله عهداً باتباع شريعته اعتقاداً وائتماراً وانتهاء وتخلقا فأنتم واثقون بعهد الله في كتابه لمن كان كذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة ومغفرة ماعساه يفرط منه من السيئات أو العقوبة عليه مدة قصيرة ؟ ؟ والاستفهام للانكار أي لستم على عهد من الله تعالى ولذلك كذبهم بقوله ﴿ أم تقولون على الله مالا تعلمون ﴾ أي أم تقولون على الله شيئا ليس لكم به علم ، إذ العلم بمثله لايكون إلا بوحي منه يبلغه عنه رسله ، والقول على الله بغير علم جرأة وافتيات عليه وكفر به . والمعنى انه لابد من أحد الأمرين إذ لا واسطة بينهما : إما اتخاذ عهد عند الله ، وإما القول على الله بغير علم ، وإذ كان اتخاذ العهد لم يحصل تعين انكم تكذبون على الله بجهلكم وغروركم ، ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ الآية . بلى مبطلة لدعواهم ،

وقال الاستاذ : للسيئة هنا اطلاقها وخصها مفسرنا (الجلال) وبعض المفسرين بالشرك ولو صح هذا لما كان لقوله تعالى ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ معنى فان الشرك أكبر السيئات وهو يستحق هذا الوعيد لذاته كيفما كان . ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها وأخذها بجوانب إحساسه ووجدانه كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجا منها . يرى نفسه حراً مطلقا وهو أسير الشهوات، وسجين الموبقات ، ورهين الظلمات ؟ وإنما تكون الاحاطة بالاسترسال في الذنوب ، والتمادي على الاصرار ، قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أي من الخطايا والسيئات ففي كلمة « يكسبون » معنى الاسترسال والاستمرار ، وران عليه غطاه وستره أي، أن قلوبهم قد أصبحت في غلف من ظلمات المعاصي حتى لم يبق منفذ للنور يدخل اليها منه . ومن أحدث لكل سيئة يقع فيها توبة نصوحا وإقلاعا صحيحا لا تحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات . روى احمد والترمذي والحاكم وصححاه والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « ان العبد إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وان عاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله تعالى في القرآن (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) لمثل هذا كان السلف يقولون: المعاصي بريد الكفر

قوله ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ خبر (من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) أي هم أصحاب دار العذاب في الآخرة الاحقاء بها دون من لم يصل الى درجتهم في الدنيا وهو من في قلبه شيء من نور الايمان وتوحيد الله تعالى وما يتبعه من الخير

قال الاستاذ الامام : ومن المفسرين من ترك السيئة في الآية على إطلاقها فلم يؤولها بالشرك ولكنهم أولوا جزاءها فقالوا ان المراد بالخلود طول مدة المكث لان المؤمن لا يخلد في النار وان استغرقت المعاصي عمره وأحاطت الخطايا بنفسه فانهمك فيها طول حياته . أولوا هذا التأويل هروبا من قول المعتزلة : إن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ، وتأييداً لمذهبهم أنفسهم المخالف للمعتزلة، والقرآن فوق

المذاهب يرشد إلى أن من تحيط به خطيئته لايكون أو لا يبقى مؤمنا

(وأقول) ـ : ان فتح باب تأويل الخلود يجريء أصحاب استقلال الفكر في هـذا الزمان على الدخول فيه والقول بأن معـنى خلود الـكافرين في العذاب طول مكثهم فيه لأن الرحمن الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه ما كان ليعـذب بعض خلقه عذابا لانهاية له لانهم لم يهتدوا بالدين الذي شرعه لمنفتهم لا لمنفعته ولكنهم لم يفقهوا المنفعة، وإذا كان التقليد مقبولا عند الله كما يرى فاتحو الباب فقد وضح عذر الاكثرين لأنهم مقلدون لعلمائهم ـ الخ مايتكلم به الناس ولاسيما في هذا العصر فان هذه المسألة قديمة وهي أكبر مشكلات الدين. نعم ان العلماء يحتجون عليهم بالاجماع ولو سكوتيا ولـكن التأويل باب لايكاد يسده متى فتح شيء

ثم ذكر في مقابلة أهل النار اضدادهم أهل الجنـة على سنته في كتابه فقال ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وأما الذين جمعوا بين الايمان الصحيح وما يلزمه من الاعمال الصالحات ﴿ فأولئـك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أقول أي أولئك دون غيرهم أصحابها الحقيقون بها بحسب وعد الله تعالى وفضله هم خالدون فيها . وفيه دليل على ان الوعد على الايمان والعمل معا إذ لاينفك أحدهما عن الآخر، إلا من آمن فمات ولم يتسع له الوقت للعمل فهو من أهلها بمقتضى ايمانه الصحيح وما حال دونه من الاحال عذر لانه لا ذنب له فيه

---

(٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ

الآيات السابقة كانت تذكيراً بالنعم التاريخيـة الملية وبالتقصير في الشكر وعواقبه . وذلك كالتفضيل على العالمين الذي يرفع النفس، والانجاء من آل فرعون ومن الغرق ، وإيتاء موسى الكتاب والآيات البينات ، وتسهيل المعيشة عليهم في التيه بما ساق الله الـيـهم من المن والسلوى، ثم ماكان منهم في إثر كل نعمة وما أعقبه

كفر النعم من النقم . ولم يذكر فيما سبق من الاحكام العملية إلا ماجاء على سبيل لتبع لهذه الاصول. وفي هذه الآية وما بعدها التذكير بأمهات الاحكام في العبادات والمعاملات وما كان من إهمالها وترك العمل بها. هذا هو المراد أولا وبالذات على أن فيما يأتي إعادة الاشارة الى بعض ما مضى قضى بها ما كان عليه اليهود من سوء الفهم وغلظ القلوب وكثرة المشاغبات والمماراة فالخطاب معهم دائما في باب الاطناب

قال الاستاذ الامام : لاحظ بعض البلغاء والمفسرين أن القرآن يطنب ويبدىء ويعيد في خطاب اليهود خاصة وذلك لما كانت شحنت به أذهانهم مما يسمى علما أوقفها فأبعدهم عن أن يصل شعاع الحق الى ماوراء ذلك من نفوسهم ، ويكتفي بالايجاز بل بالاشارة الدقيقة في خطاب العرب لما كانوا عليه من سرعة الفهم ورقة الاحساس لقربهم من السذاجة الفطرية ، فالاشارة الى البرهان في ضمن تمثيل ، يغني عندهم عن الاسهاب والتطويل ، ولذلك خاطبهم بمثل قوله في الاصنام (وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)

قوله تعالى ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل ﴾ أي واذكر أيها الرسول اذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل وقد تقدم ذكر أخذ الميثاق عليهم في سياق خطابهم ولم يبينه لعلمهم به وقوله هنا ﴿ لا تعبدون الا الله ﴾ الخ بيان له أي للميثاق لا مقول قول محذوف كما قال المفسر . يقال : أخذت عليك عهدا تفعل كذا : كما تقول: أن تفعل كذا : سواء . وهو خبر بمعنى النهي للمبالغة والتأكيد ، يلاحظ فيه أن الامر والنهي قد امتثل فيخبر بوقوعه ، أو انه لتوثيقه والتشديد في تأكيده سيمتثل حتما فيخبر بانه كائن لامحالة . (أقول) وهذا النهي عن عبادة غير الله مستلزم للامر بعبادته تعالى ولم يصرح به لأنهم كانوا يعبدون الله وانما يخشى عليهم الشرك به كما وقع منهم في بعض الاجيال ومن غيرهم من الشعوب ، فالاصل الاول لدين الله على ألسنة جميع رسله هو أن يعبد الله وحده ولا يشرك به عبادة أحد سواه من ملك ولا بشر ولا مادونهما بدعاء ولا بغيره من أنواع العبادة كما قال (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) فالتوحيد لا يحصل إلا بالجمع بين الأمرين

قال تعالى ﴿ وبالوالدين احسانا ﴾ أي وتحسنون بالوالدين احسانا . والاحسان

نهاية البر فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية ، وقد أكد الله الامر باكرام الوالدين في التوراة حتى انه يوجد فيها الآن أن من يسب والديه يقتل . وقد قرن الامر بالاحسان بالوالدين الى الامر بالتوحيد أو النهي عن الشرك فهو كقوله تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا) وليست هذه العناية بامر الوالدين في الكتب السماوية لكونهما سبب وجود الولد كما يقول الناس ، فانه لا منة لهما على الولد بهذه السببية لانهما لم تكن اكراما له ولا عناية به ، كيف وهو لم يكن معروفا أو موجودا فيكرم ، وانما كانت بباعث الشهوة وارضاء النفس ، ومنهم من لم يكن يخطر بباله الولد الا بعد الزواج بزمن طويل ، ومنهم من كان يود ان لا يولد له ، أو أن يكون له ولد واحد أو ولدان فقط ، فيكون له أكثر . فاذا كان وجوب الاحسان بالوالدين معلولا لارادتهما الولد فينبغي أن يخص هذا الاحسان بولد لم يكن لهما من الزوجية حظ سواه بعينه ، وهو ما لا وجود له . ذلك كلام شعري والعلة الصحيحة في وجوب هذا الاحسان على الولد هي العناية الصادقة التي بذلاها في تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفا عاجزاً جاهلا لا يملك لنفسه نفعاً ولا يقدر أن يدفع عنها ضرراً ، إذ كانا يحوطانه بالعناية والرعاية ، ويكفلانه حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه ، فهذا هو الاحسان الذي يكون منهما عن علم واختيار ، بل مع الشغف الصحيح والحنان العظيم وما جزاء الاحسان الا الاحسان ، واذا وجب على الانسان أن يشكر لكل من يساعده على أمر عسير فضله ، ويكافئه بما يليق به على حسب الحال في المساعد وما كانت به المساعدة ، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى وهما اللذان كانا يسعدانه على كل شيء ، أيام كان يتعذر عليه كل شيء ؟؟

وكذلك حب الوالدين للولد ليست علته كما يقول الناس كونه جزءاً منهما وفلذة كبدهما ، هذا كلام شعري لا حقيقي أيضا ، فان جسم الانسان مركب من الاغذية النباتية والحيوانية ، فلو كانت العلة صحيحة لكان ينبغي أن يحب الحنطة والنم أكثر مما يحب والديه . وانما لحب الوالدين الولد منبعان (أحدهما) حنان فطري أودعه الله تعالى فيهما لاتمام حكمته (وثانيهما) ماجرت به سنة البشر من

التفاخر بالاولاد ومن الامل بالاستفادة منهم في المستقبل وليست الفائدة محصورة في المال والعون على المعيشة ، وانما تتناول الشرف والجاه أيضاً

وكم أب قد علا بابن له شرفا   كما علا برسول الله عدنان

ولما كان حب الوالدين للاولاد بمكانة من القوة لايخشى زوالها ترك النص على الاحسان بهم وثنى بالاحسان بمن دونهم في النسب فقال ﴿ وذي القربى ﴾ الاحسان هو الذي يقوي غرائز الفطرة ويوثق الروابط الطبيعية بين الأقربين حتى تبلغ البيوت في وحدة المصلحة درجة الكمال. والامة تتألف من البيوت (العائلات) فصلاحها صلاحها . وههنا قال الاستاذ كلمة جليلة وهي « من لم يكن له بيت لاتكون له أمة » وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون انما تكونان على أشدهما وأكملها في الفطرة بين الوالدين والاولاد ، ثم بين سائر الاقربين ، فمن فسدت فطرته حتى لاخير فيه لأهله فأي خير يرجى منه للبعداء والابعدين ؟ ومن لاخير فيه للناس لايصلح أن يكون جزءاً من بنية أمة، لانه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التي هي أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس ، فأي لحمة بعدها تصله بغير الاهل فتجعله جزءاً منهم يسره مايسرهم ، ويؤلمه مايؤلمهم ، ويرى منفعتهم عين منفعته، ومضرتهم عين مضرته، وهو مايجب على كل شخص لأمته . قضى نظام الفطرة بأن تكون نعرة القرابة أقوى من كل نعرة وصلتها أمتن من كل صلة ، فجاء الدين يقدم حقوق الاقربين على سائر الحقوق وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص

ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر النــاس فقال ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير وقد قدم الوصية به على الوصية بالمسكين ولم يقيدها بفقر ولامسكنة فعلم أنها مقصودة لذاتها

قال الاستاذ الامام : أكد الله تعالى الوصية باليتـيم وفي القرآن والسنة كثير من هذه الوصايا وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم وشـدد الوعيد على أكل ماله تشـديداً خاصا ولو كان السر في ذلك غلبة المسكنة على اليتامى لاكتفى هنـا بذكر المساكين . كلا ان السر في ذلك هو كون اليتيم لايجد في الغالب من تبعثه عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربيته والقيام بحفظ حقوقه،

والعناية بأموره الدينيـة والدنيوية ، فان الام إن وجدت تكون في الأغلب عاجزة ولاسيا إذا تزوجت بعد أبيه فأراد الله تعالى — وهو أرحم الراحمين — بما أكد من الوصية بالايتام أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم يربونهم تربية دينية دنيوية لئلا يفسدوا ويفسد بهم غـيرهم فينتشر الفساد في الامة فتنحل انحلالا . فالعناية بتربية اليتامى هي الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الاولاد . والتربية لاتتيسر مع وجود هذه القدوة ، فاهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الامة

وأما المساكين فلا يراد بهم هؤلاء السـائلون الشحاذون الملحفون الذين يقدرون على كسب مايفي بحاجاتهم أو يجدون ماينفقون ولو لم يكتسبوا إلا أنهم اتخذوا السؤال حرفة يبتغون بها الثروة من حيث لا يعملون عملا ينفع الناس، ولكن المسكين من يعجز عن كسب يكفيه

وأما قوله عز وجل ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ فهو كلام جديد له شأن مخصوص ولذلك تغير فيه الاسلوب فلم يرد على النسق الذي قبله مع دخوله في الميثاق فانه بين فيما سبق الحقوق العملية وعبر عنها بالاحسان ويستحيل أن يحسن الانسان بالفعل إلى جميع الناس لأنه لايمكن أن يعامل جميع الناس ، فالذين لابد له من معاملتهم هم أهل بيته وأقاربه الذين ينشأ فيهم ويتربى بينهم فجاء النص بوجوب الاحسان في معاملتهم لتصلح بذلك حال البيوت . ثم ان اليتامى والمساكين من قومه هم الذين لايستغنون عن إحسانه وإحسان أمثاله بالفعل، لانه لاقيم للاولين، ولا غناء عند الآخرين ، ففرض عليه أن يجعل لهم حظا منه . ثم بعد بيان مابه إصلاح البيوت من إعانة الأقربين ومابه صلاح بعض العـامة من معونة اليتامى والمساكين على إصلاح بيوتهم بقي بيان حقوق سائر الامة وهي النصيحة لهم، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم، فهذا هو معنى قوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) وليس معناه مجرد التلطف بالقول والمجاملة في الخطاب، فالحسن هو النافع في الدين أو الدنيا، وهو لايخرج عما ذكرنا، فلما كان هذا النوع من الحقوق مستقلا بذاته جاء بأسلوب آخر ولا شك أن في القيام بهذه الفرائض إصلاح الامة كلها

جاء الامر بالعبادة مجملا ليعـلم الانسان أنه مكلف بكل فرد من أفرادها

بحسب الطاقة ولكن من العبادة مالا يهتدي اليه الانسان إلا بهداية إلهية وأكبر ذلك النوع إقامة الصلاة لاصلاح نفوس الافراد وإيتاء الزكاة لاصلاح شئون الاجتماع لذلك قال تعالى بعد ماتقدم ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وإنما اقامة الصلاة بالاخلاص لله والصدق في التوجه اليه والخشوع لعظمته وجلاله والاستكانة لعزسلطانه ، ولا تكون بمجرد الاتيان بصورة الصلاة ورسومها الظاهرة ، ولو كان هذا هو المراد لما وصفهم بالتولي والاعراض عنه ، فانهم ما أعرضوا عن صورة الصلاة إلى ذلك اليوم الذي ذكرهم فيه بهذه الآيات وإلى هذا اليوم أيضا. وأما الزكاة فقد كان بعض أحبارهم يزعم أنها تلك المحرقات والقرابين المفروضة لتكفير الخطايا أو شكر الله تعالى على إخراجهم من مصر وغير ذلك من النعم . وليس الامر كذلك فان لهم زكوات مالية منها مال مخصوص يؤدى لآل هارون وهو إلى الآن في اللاويين . ومنها مال للمساكين . ومنها ما يؤخذ من ثمرات الارض . ومنها سبت الارض وهو تركها في كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع ، وكل مايخرج منها في تلك السنة فهو صدقة

قال تعالى ﴿ ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ﴾ أي ثم كان من أمركم بعد هذا الميثاق الذي فيه سعادتكم أن توليتم عن العمل به وأنتم في حالة الاعراض عنه وعدم الاكتراث له . وقد يتولى الانسان منصرفا عن شيء وهو عازم على أن يعود اليه ويوفيه حقه فليس كل متول عن شيء معرضا عنه ومهملا له على الدوام ، لذلك كان ذكر هذا القيد (وأنتم معرضون) لازما لا بد منه وليس تكراراً كما يتوهم وإنما هو متمم للمعنى ومؤكد للمبالغة في الترك المستفاد من التولي . قال الاستاذ الامام : ولا حاجة إلى مازاده المفسر من قوله : فقبلتم ذلك : ليعطف عليه (ثم توليتم) فالمقام مقام وعيد وزجر وتوبيخ وفي كلمة (ثم) نفسها مايفيد أن التولي لم يكن عقب أخذ الميثاق

وقد كان سبب ذلك التولي مع الاعراض ان الله أمرهم أن لا يؤخذوا الدين الا من كتابه فاتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله يحلون برأيهم ويحرمون ،

ويبيحون باجتهادهم ويحظرون ، ويزيدون في الاحكام والشرائع ، ويضعون ماشاءوا من الاحتفالات والشعائر ، فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله . فان الله هو الذي يضع الدين وحده وانما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه وماشرع على ألسنة رسله . وقد اتبع سنن اليهود فى هذا التشريع جميع من بعدهم من أهل الملل وحكم الجميع عند الله تعالى واحد لايختلف فهو لايحابي أحداً (ولا يظلم ربك أحداً) وكذلك كانوا قد قطعوا صلات القرابة ، وبخلوا بالنفقة الواجبة ، وتركوا النهي عن المنكر ، وفقدوا روح الصلاة ، ومنعوا الزكاة ، ولكنهم الآن عادوا إلى بعض ماتركوا ، ولم يعد الذين تشبهوا بهم ، أو اتبعوا بغير شعور سننهم ، والامر لله العلي الكبير

وأما قوله (الا قليلا منكم) فهو استثناء لبعض من كانوا في زمن سيدنا موسى عليه السلام أو في كل زمن فانه لاتخلو أمة من الامم من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم . والحكمة في ذكر هذا الاستثناء عدم بخس المحسنين حقهم وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الامة لايمنع عنها العقاب الالهي إذا فشا فيها المنكر وقل المعروف .

لو تدبر جهالنا هذه الآية لعلموا أنهم مغرورون بالاعتماد على الاقطاب والاوتاد والابدال في تحمل البلاء عنهم ، ومنع العذاب أن ينزل بالامة ببركتهم ، فلو فرض أن هؤلاء الاقطاب موجودون حقيقة فان وجودهم لايغني عن الامة شيئا ، وقد عصى الله جماهيرها ونقضوا ميثاقه الذي واثقهم به . فقد جرت سنته تعالى في خلقه بأن بقاء الامم عزيزة إنما يكون بمحافظة الجماهير فيها على الاخلاق والاعمال التي تكون بها العزة ويحفظ بها المجد والشرف . ومن لم يعتبر بآيات الله في كتابه ، لايعتبر بآياته وسننه فى خلقه ، فقد فتن المسلمون في دينهم ودنياهم وحل بجميع بلادهم ما حل من البلاء وهم لايعتبرون ، (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولا هم يذكرون)

(٨٤) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٥) ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ. أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ

كان التذكير في الآية السابقة بأهم المأمورات التي أخذ الله تعالى الميثاق على بني اسرائيل بها بعد توحيد الله تعالى وافراده بالعبادة وبيان أنهم نقضوا ميثاق الله تعالى ولم يأتمروا بها ، وفي هاتين الآيتين التذكير بأهم المنهيات التي أخذ الله تعالى الميثاق عليهم باجتنابها ، وبيان أنهم نقضوا ميثاقه ولم ينتهوا عنها ، وقد قال هناك (وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل) أي الذين نزلت عليهم التوراة ، ثم التفت إلى خطاب الحاضرين في زمن التنزيل فقال (ثم توليتم) وقال هنا ﴿ واذ أخذنا ميثاقكم ﴾ تماديا في سياق الالتفات وتذكيراً بوحدة الامة واعتبارها كالشخص الواحد يصيب الخلف أثر ماكان عليه السلف من خير وشر ما استنوا بسنتهم ، وجروا على طريقتهم ، كما تؤثر أعمال الشخص السابقة في قواه النفسية وطبع ملكاته بعد انحلال مادة تلك الاعضاء التي ابتدأت العمل وحلول مواد أخرى في محلها تتمرن على مثل ذلك العمل ، فما يفعله الشخص في صغره ، يبقى أثره في قواه في كبره ، فكذلك الامم

وقد أورد النهي عن سفك بعضهم دم بعض واخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد معنى وحدة الامة وتحدث في النفس أثراً شريفاً يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر ، ووجدان يتأثر ، فقال ﴿لا تسفكون دماءكم ﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الامة كأنه دم الآخر عينه حتى اذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده . وقال ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾على هذا النسق . وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن . فهذه الاحكام لاتزال محفوظة عند الاسرائيليين في الكتاب وإن لم يجروا عليها في العمل ، ولكن العبارة عنها عندهم لاتطاول هذه العبارة التي تدهش صاحب الذوق السليم ، والوجدان الرقيق ، فهذا ارشاد حكيم طلع من ثنايا الاحكام يهدي إلى أسرارها ويومي إلى مشرق أنوارها ، من تدبره علم أنه لاقوام للامم ، إلا بالتحقق بما تضمنته هذه الحكم ، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم ، لافرق في الاحترام بين الروح التي تجول في بدنه والدم الذي يجري في عروقه وبين الارواح والدماء التي يحيا بها اخوانه الذين وحدت بينه وبينهم الشريعة العادلة والمصالح العامة . هذا هو الوجه الوجيه في الآية ، وقيل معناها لاترتكبوا من الجرائم ماتجازون عليه بالقتل والاخراج من الديار .ويقال في قوله (لاتسفكون) كما قيل قبله في قوله (لاتعبدون إلا الله) من تضمن صيغة الخبر للتأكيد

وقوله تعالى ﴿ ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ فيه وجهان(أحدهما) أنه يخاطبهم بما كان من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى عليه الصلاة والسلام . و(ثانيهما) أن المراد الحاضرون أنفسهم ، أي أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم ، ولاتنكرونه بألسنتكم ، بل تشهدون به وتعلنونه ، فالحجة ناهضة عليكم به

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه لاينكرون منه شيئاً ذكر نقضهم إياه فقال ﴿ ثم أنتم هؤلاء ﴾ الحاضرون الشاهدون المشاهدون ﴿ تقتلون أنفسكم ﴾ أي يقتل بعضكم بعضاً كما كان يفعل من قبلكم مع اعترافكم

بأن الميثاق مأخوذ عليكم كما كان مأخوذاً عليهم: كان بنو قينقاع من اليهود أعداء بني قريظة اخوانهم في الدين وكان الاولون حلفاء الاوس ، والآخرون مع بني النضير حلفاء الخزرج . ثم افترقوا فبقي بنو النضير مع الخزرج وحالف بنو قريظة الاوس ، وكان الاوس والخزرج قبل الاسلام أعداء وكانوا يقتتلون ومع كل حلفاؤه ، فهذا ما احتج الله تعالى على بني اسرائيل بقتلهم أنفسهم في عصر التنزيل . ويتبع هذا القتال الاسر ، ومن لوازمه الاخراج من الديار ولذلك قال ﴿ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ﴾ والتظاهر التعاون وتظاهرون أصله تتظاهرون كما قرأ الجمهور، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بحذف احدى التائين للتخفيف وهو مقيس مشهور. كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على اخوانه من اليهود بالاثم كالقتل والسلب ، وبالعدوان كالاخراج من الديار .

ومن مثارات العجب أنهم كانوا اذا اتفقوا على فداء الاسرى يفدي كل فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه ويعتذرون عن هذا بأنهم مأمورون في الكتاب بفداء أسرى شعب اسرائيل . فان كانوا مستمسكين بالكتاب فلم قاتلوا شعب اسرائيل وأخرجوهم من ديارهم وهم منهيون عن ذلك في الكتاب؟ هذا لعب بالكتاب واستهزاء بالدين ولذلك قال تعالى ﴿ وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ بعد أن كنتم أسرتموهم وأخرجتموهم بالتظاهر عليهم مع العرب ﴿ وهو محرم عليكم اخراجهم ﴾ بميثاق أغلظ من طلب مفاداتهم ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب ﴾ وهو فداء الاسرى ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ آخر منه وهو النهي عن القتل والاخراج ؟ أليس من الحماقة والهزء والسخرية أن يدعي مدع مثل هذا الايمان بأهون الامور مع الكفر بأعظمها ؟ والايمان لا يتجزأ فالكفر بالبعض كالكفر بالكل

قال الاستاذ الامام : في التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل على ماسبق بيانه في معنى قوله تعالى (وأحاطت به خطيئته) فالقرآن يصرح هنا وفي آيات كثيرة بأن من يقدم على الذنب لاتضطرب نفسه قبل إصابته ، ولا يتألم ويندم بعد وقوعه فيرجع إلى الله تعالى تائباً ، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهي الله تعالى

عنه وتحريمه له، فهو كافر به، لان المؤمن بأن هذا شيء حرمه الله تعالى، المصدق بأنه من أسباب سخطه وموجبات عقوبته، لايمكن أن لايكون لايمان قلبه أثر في نفسه، فان من الضروريات أن لكل اعتقاد أثراً في النفس، ولكل أثر في النفس تأثيراً في الاعمال. وهذا هو الوجه في الاحاديث الصحيحة الناطقة بأنه « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن »

سمى الله الذنب ههنا كفراً لما تقدم وتوعد عليه بوعيد الكفر فقال ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾ الخ أوعدهم الله تعالى كما أوعد من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذي يجمعهم، والشريعة التي هي مناط وحدتهم، ورباط جنسيتهم، بالخزي العاجل، والعذاب الآجل، وقد دل المعقول، وشهد الوجود، بأنه مامن أمة فسقت عن أمر ربها، واعتدت حدود شريعتها، إلا وانتكث فتلها، وتفرق شملها، ونزل بها الذل والهوان، وهو الخزي المراد في القرآن، وهذه هي سنة الخليقة ذكرها ليعتبر بها من صرفته الغفلة عنها

وأما العذاب الآجل الذي عبر عنه بقوله ﴿ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾ فهو على كونه من عالم الغيب معقول المعنى، وهاد إلى حكمة عليا، ذلك أن النفوس البشرية اذا سحل مريرها، واختلت بفساد الاخلاق أمورها، وكثرت في هذا العالم شرورها، حتى سلبت ماأعده الله تعالى لمن حافظوا على الحقيقة، واستقاموا على الطريقة، تكون جديرة بأن تسلب في الآخرة ماأعده الله تعالى للارواح العالية، وما وعد به أصحاب النفوس الزاكية، فان سعادة الدار الدنيا لم تكن أجراً على أعمال بدنية، لاتتعلق بصلاح النفس في خلق ولا نية، وانما هي ثمرة تزكية النفس، التي يتوسل اليها بعمل الحس، فاذا كان هذا شأن سعادة الدنيا فكيف يكون نعيم الآخرة جزاء حركات جسدية، وهي الدار التي تغلب فيها الروحانية ؟؟؟ (ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها)

﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ بل هو محيط به لايخفى عليه منه شيء. وقد قرأ عاصم في رواية المفضل (تُردون) بالخطاب لمناسبة قوله (منكم) كما قرأ

الجمهور (تعلمون) بالخطاب لذلك ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر ويعقوب (يعلمون) على الغيبة لرجوع الضمير إلى (من يفعل)

ثم أكد الله تعالى ذلك الوعيد الشديد وبين سببه بقوله ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أي جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلاً من الآخرة بما فرطوا في جنب الله وأهملوا من شريعته حتى لم يتبعوا منها إلا مايوافق أهواءهم ولا يعارض شهواتهم كالحمية التي حملت كل حليف على الانتصار لمحالفه المشرك ومظاهرته إياه على قومه الذين تجمعه بهم رابطة الدين والنسب ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ لان علته ذاتية فيهم وهي ظلمة أرواحهم وفساد أخلاقهم ﴿ ولاهم ينصرون ﴾ بشفاعة شافع أو ولاية ولي من دون الله (من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه ؟) وأنى يأذن بالشفاعة لمن سجلت عليهم الشقاء أعمالهم باحاطة الخطايا بهم من كل جانب ، حتى أخذت عليهم طريق الرحمة ، وقطعت عليهم باختيارهم سبيل الرضوان الالهي ؟ فمن الجهل إهمالهم الامر والنهي ، ونقضهم ميثاق الله تعالى في أهم ماواثقهم به ، واعتمادهم مع هذا كله على الشفعاء (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون)

ومن مباحث الالفاظ في قوله (وهو محرم عليكم) أن الضمير للشأن عند المفسر والجماهير . وقال الاستاذ الامام : إن المعهود في كلام العرب أن الجملة التي تقضي الحال فيها بتقدم الاسم وتأخر الفعل أو مايشتق منه لابدّ أن تصدر بضمير تعتمد عليه ولهذا شواهد في كلام البلغاء يتفق فيها ذوقهم وإن اختلف النحاة في اعرابها

---

(٨٧) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٨) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ

عهد في سيرة البشر أن الامة توعظ وتنذر، فتتعظ وتتدبر، فاذا طال عليها الامد بعد النذير تقسو القلوب، ويذهب أثر الموعظة من الصدور، وتفسق عن أمر ربها، وتنسى مالم تعمل به مما أنذرت به، أو تحرفه عن موضعه بضروب التأويل، وزخرف القال والقيل، ولقد يكون للمتأخر منها بعض العذر لجهله بما فعل المتقدم وأخذه مايؤثر عنه بالتسليم لكمال الثقة وحسن الظن

بين الله تعالى هذه السنة الاجتماعية في سورة الحديد بقوله (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ولهذا كان تعالى يرسل الرسل بعضهم في إثر بعض حتى لايطول أمد الانذار على الناس فيفسقوا ويضلوا . ولا يعرف التاريخ شعباً جاءت فيه الرسل تترى كشعب اسرائيل، لذلك كانوا بمعزل عن صحة العذر بطول الامد على الانذار . وفي ناحية عما يرجى قبوله من التعلل والاعتذار، لهذا قال تعالى بعد كل ماتقدم

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ﴾ فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلا وكان فيه نبي مرسل أو أنبياء متعددون يأمرون وينهون كأنه يقول: اعلموا يابني اسرائيل أنه إن كان لطول الامد على النبوة وبعد العهد بالرسل يد في تغيير الاوضاع ونسيان الشرائع، وكان في ذلك وجه لاعتذار بعض المتأخرين، فان ذلك لايتناولكم، فان الرسل قد جاءتكم تترى ثم كان من أمركم معهم ماكان

ذكر رسل بني اسرائيل بالاجمال لبيان ماذكر، ثم خص بالذكر المسيح عليه السلام فقال ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ فأما البينات فهي مايتبين به الحق من الحجج القيمة والآيات الباهرة . وقال الاستاذ الامام: المراد بها مادعا اليه من أحكام التوراة . وأما روح القدس فهو روح الوحي الذي يؤيد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم ومعارفهم، وهو هو المراد بقوله تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) الآية . ويطلق عليه روح القدس لان التعليم الذي يكون به مقدس أو لانه يقدس النفوس كما يطلق عليه «الروح الامين» لان النبي الموحى إليه يكون على بينة من ربه فيه

يأمن معها التلبيس فيما يلقى إليه ، قال تعالى في القرآن (نزل به الروح الامين * على قلبك لتكون من المنذرين)

(ثم قال الأستاذ) : ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بروح القدس الملك المسمى بجبريل الذي ينزل على الانبياء ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى وهو على حد قولهم « حاتم الجود » وذكر بعضهم وجها آخر وهو أن المراد بها روح عيسى نفسه ووصفها بالقداسة والطهارة بمعنى إعاذته من الشيطان أن يكون له حظ فيه ، أو لأنه أنزل عليه الانجيل بالتعاليم التي تقدس النفوس ، بل قال بعضهم إن روح القدس هو الانجيل ، والمراد من الكل واحد وهو أن الله تعالى أرسل اليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين فيهم بعد موسى وأعطاه مالم يعط كل رسول من أولئك الرسل من الوحي أو من قوة الروح ، وزكاء النفس ، ومكارم الاخلاق ، ونسخ بعض الاحكام ، وقد كان حظه منهم مع ذلك منهم كحظ سابقيه الذين لم يؤتوا من المواهب مثلما أوتي

ماذا كان حظ أولئك الرسل من بني اسرائيل ؟ كان حظهم منهم ماأفاده الاستفهام التوبيخي في قوله ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ﴾ فاتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات ، وعصيتم الرسل واحتميتم عليهم أن أنذروكم ودعوكم إلى أحكام كتابكم ﴿ ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ كان المعهود في التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوي ثم يوبخون عليها ، ولكن طواها في الخطاب وأدمجها في الاستفهام لتفاجيء النفوس بقوة التشنيع والتقبيح ، وتبرز لها في ثوب الانكار والتوبيخ ، وفي ذلك الايماء إلى أن هذه المعاملة السوءى مما لايخفى خبرها ولا تغيب عن الافكار صورها ، فلا ينبغي الالماع اليها ، إلا في سياق تقريع مجترحيها ، وهذا من إيجاز القرآن ، الذي لايعرج إليه فكر الانسان ، وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التي تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة الفظيعة وتمثيلها للسامع حتى يمثلها في الخيال ، وإن مرت عليها القرون والاحوال ، لأنها أفاعيل لاتخلق جدتها ، ودماء لاتطير رغوتها ، وأن مثل هذا التعبير ليمثل

تلك الصورة المشوهة لان الالفاظ اذا قرعت الذهن بمفهومها يتناول الخيال فلك المفهوم ويصوره بالصورة اللائقة به ، فيكون له من التأثير مايناسبه ،

قتلوا من الانبياء المرسلين زكريا ويحيى عليهما السلام ، ويروى أنهم قتلوا في يوم واحد مئة وخمسين نبياً ، فان صح هذا فالمراد باولئك الانبياء من كانت نبوتهم محصورة في الدعوة إلى إقامة التوراة ، ودليلها محصوراً في الانباء ببعض المغيبات وكان هذا الفريق منتشراً في أسباط بني اسرائيل وكثيراً بكثرتهم

وفي هذه الآية حجتان للنبي ﷺ — حجة على بني اسرائيل وحجة على الذين يعجبون لعدم إيمانهم به واجابتهم دعوته ، وبيان أن المجاحدة والمعاندة من شأنهم ومما عرف من شنشنتهم ، وناسب بعد هذا أن يذكر ماكانوا يعتذرون به عن الايمان به ، والاهتداء بكتابه ، بعد تقرير الدعوة ، وإقامة الحجة ، فقال ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ الغلف بضم وسكون وبضمتين جمع أغلف ، وهو مايحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء . والمراد أننا لا نعقل قولك ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك فهو بمعنى قوله تعالى (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب)

وقد رد الله تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ أي أن قلوبهم ليست غلفاً لاتفهم الحق بطبعها ، وانما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالانبياء السابقين وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرفوه اتباعا لاهوائهم ، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه ، فكان ذلك سبباً في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى باجابة دعوة خاتم النبيين . هذا هو معنى اللعن وقد ذكرت معه علته ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى في الاسباب والمسببات وأن الله لم يظلمهم بهذا ، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر الذي يستتبع الكفر ، والعصيان الذي يجر إلى التمادي في العصيان ، كما هي السنة في أخلاق الانسان . ولما كان ذكر اللعن معللا بالكفر الذي هو نتيجة تأثير أعمالهم السابقة في أنفسهم ، وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين ، بل مؤمنين بالله وكتابه ورسله اليهم ، استدرك فقال ﴿ فقليلا مايؤمنون ﴾ وانما القلة في الايمان

باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة ، وبالنسبة إلى اليقين في الايمان ، وتحكيمه في الفكر والوجدان

ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة في الجملة وكما تعطيه ظواهر الالفاظ ، ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلا ، ولم يفقهوا حكمها وأسرارها ، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم ، ولم تكن هي المحركة لارادتهم في أعمالهم ، وانما كان يحركها الهوى والشهوة ، ويصرفها عامل اللذة ، فالايمان انما كان عندهم قولا باللسان ، وربما يلوح في الخيال ، تكذبه الاعمال ، وتطمسه السجايا الراسخة والخلال ، وهذا هو الايمان الذي لاقيمة له عند الله تعالى . ومن العجب أن نرى آيات القرآن تبطله بالحجج القيمة ، والاساليب المؤثرة ، وأهل القرآن عن ذلك غافلون ، فقليلا ما يعتبرون ويتذكرون .

ومن مباحث اللفظ في الآية أن كثيراً من المفسرين يزعمون أن «ما» زائدة وما هي بزائدة وفاقا لابن جرير الطبري ، وجلّ القرآن أن يكون فيه كلم زائدة وانما تأتي « ما » هذه لافادة العموم تارة ولتفخيم الشيء تارة ، ويقول ابن جرير انما يؤتي بها في مثل هذا المقام كمبتدأ كلام جديد يفيد العموم كأنه قال : فايمانا قليلا ذلك الذي يؤمنون به : وأما اتي لتفخيم الشيء فكقوله تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم) أي فبسبب رحمة عظيمة الشأن خصك الله بها لنت لهم على ما لقيت منهم ، وقد بين تعالى هذه الرحمة بقوله في وصفه ﷺ (بالمؤمنين رؤف رحيم) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

هذا ما اختاره الاستاذ الامام في تفسير قوله تعالى (فقليلا ما يؤمنون) وهناك وجه آخر أورده ابن جرير في تفسيره وهو أنه لا يؤمن بالنبي وما جاء به إلا قليل منهم . والاستدراك على هذا الوجه أظهر فانه لما بين أن كفرهم المستقر ، وعصيانهم المستمر ، كانا سببا في لعنهم وإبعادهم ، كان للوهم أن يذهب إلى أنهم قوم قد سجل عليهم الشقاء وعمهم حتى لامطمع في إيمان أحد منهم ، فجاء قوله تعالى (فقليلا ما يؤمنون) يبين ان هذا الوهم لا يصح أن ينطلق على إطلاقه ، وأن تأثير ما ذكر في مجموع الشعب لم يستغرق أفراده استغراقا وإنما غمر الاكثرين ، ويرجى أن

ينجو منه النفر القليل، وكذلك كان. أقول وفيه من دقة القرآن في الصدق وتحديد الحق مالا يعهد في كلام الناس

(٨٩) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٩٠) بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ. قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

قال الاستاذ الامام: إن قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم كتاب ﴾ الخ متصل بقوله قبله (فقليلا مايؤمنون) والمعنى أن إيمانهم كان قليلا حال كونهم كانوا ينتظرون نبياً وكتابا مصدقا لما معهم وكانوا يستفتحون به على المشركين فكيف لايكون قليلا، أو أقل بعد ماجاء ما كانوا ينتظرون وعرفوا أنه الحق ثم كفروا؟ فالجملة حالية: ويصح أيضاً هذا الاتصال الذي ذكره على الوجه الثاني في تفسير (فقليلا مايؤمنون) والكتاب هنا القرآن نكره للتفخيم وقوله ﴿مصدق لما معهم﴾ معناه أنه موافق له في التوحيد وأصول الدين ومقاصده، والاستفتاح في قوله ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ معناه طلب الفتح وهو الفصل في الشيء والحكم ويستعمل بمعنى النصر لانه فصل بين المتحاربين، وكانت اليهود تستفتح على مشركي العرب بالنبي المنتظر يقولون إنه سيظهر فينصر كتابه التوحيد الذي نحن عليه ويخذل الوثنية التي تنتحلونها ويبطلها، فيكون مؤيداً لدين موسى

(أقول) روى محمد بن اسحاق عن أشياخ من الانصار أن هذا نزل فيهم وفي يهود المدينة ، قالوا كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون إن نبيا سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم الخ وروى الضحاك عن ابن عباس في تفسير (يستفتحون) : يستنصرون يقولون نحن نعين محمداً عليهم الخ وتتمته في تفسير العماد ابن كثير . وشذ بعضهم كالبغوي في تفسيره فقال إنهم كانوا يقولون اذا حزبهم أمر أو دهمهم عدو: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة والانجيل - فكانوا ينصرون . وفيه روايات ضعيفة عن ابن عباس لم يعرج ابن كثير على شيء منها ولعله لأنها على ضعف روايتها ومخالفتها للروايات المعقولة شاذة المعنى بجعل الاستفتاح دعاء بشخص النبي ﷺ وفي بعض الروايات بحقه وهذا غير مشروع ولا حق لأحد على الله فيدعى به كما قال الامام أبو حنيفة وغيره . وكذلك فعل ابن جرير لم يذكر شيئا من روايات الدعاء بحقه والاستنصار بشخصه بل ذكر عدة روايات في أنهم كانوا يدعون الله بأن يبعثه ليقتل المشركين وفي بعضها أنهم كانوا يرجون أن يكون منهم . والكلام هنا في مجيء الكتاب لا في مجيء الرسول ﷺ الذي يأتي ذكر مجيئه قريبا ، على أنهما متلازمتان ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ﴾ أعاد فلما جاءهم وهي عين الاولى لطول الفصل ووصل به الجواب وهو « كفروا به » ذلك انه راعهم كونه بعث في العرب فحسدوه فحملهم الحسد على الكفر به جحوداً وبغيا، فسجلت عليهم اللعنة التي أصابتهم بكفرهم الاول بأن الكفر صار وصفا لازما لهم ولذلك قال ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ ولم يقل عليهم لأن المظهر أبلغ وأعم وأشمل

ثم ذكر علة هذا الكفر وسببه وبين فساد رأيهم فيه بقوله ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ﴾ أي بئس شيئا اشتروا به أنفسهم هو كفرهم بما أنزل الله مصدقا لما معهم كما كانوا ينتظرون . شرى الشيء واشتراه يستعمل كل منهما بمعنى باع الشيء وبمعنى ابتاعه لان الحرف يدل على المعاوضة . وقد ذهب جمهور المفسرين الى أن اشتروا هنا بمعنى باعوا أي أنهم بذلوا أنفسهم وباعوها بما حرصوا عليه من الكفر بغيا وحسداً للنبي ، وحبا في الرياسة واعتزازاً

بالجنسية ، وبما كان لكل من الرؤساء والمرءوسين من المنافع المتبادلة في المحافظة عليها، فهذا كله يعد ثمنا لأنفسهم التي خسروها بالكفر حتى كأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع . وذكر ابن جرير وجها آخر وهو ان اشتروا هنا بمعنى ابتاعوا أي أنهم جعلوا أنفسهم ثمنا للكفر الذي ذكرت علته آنفا . وفيه من الزيادة على معنى المعاوضة في الوجه الاول أنهم قد أنقذوا أنفسهم بذلك الكفر ،أي أنهم يزعمون ذلك ويدعونه في الظاهر ، وإن كانوا في الباطن قد عرفوا أن ماجاءهم هو الحق الذي كانوا ينتظرون ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يكتمون

وقد فهم مما تقدم معنى قوله تعالى ﴿ بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ فهو تعليل لكفرهم لا لشرائهم أي كفروا بمحض البغي الذي أثاره الحسد كراهة أن ينزل الله الوحي من فضله بمقتضى مشيئته ، وأي بغي أقبح من بغي من يريد أن يحجر على فضل الله ويقيد رحمته فلا يرضى منه أن يجعل الوحي في آل اسماعيل كما جعله في آل أخيه اسحاق ؟قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ينزل)بالتخفيف من الانزال والباقون بالتشديد من التنزيل وأما قوله﴿ فباءوا بغضب على غضب ﴾ فهو الغضب الذي استوجبوه حديثا بالكفر بالنبي ﷺ فوق ذلك الغضب الذي لحقهم من قبل باعنات موسى عليه السلام والكفر به ، وقد ذكر في قوله (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله) ثم توعدهم بعد الغضب المردوج فقال ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ أي مقرون بالاهانة والاذلال ، وبذلك صار بمعنى الآية السابقة فكأن الجزاء واحد تكرر بتكرر الذنب . وقال(وللكافرين) ولم يقل (ولهم) لما في المظهر من بيان التعليل بالوصف الذي سجله عليهم كما تقدم آنفا وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وقد تقدم أن ذنوب الامم تتبعها عقوبتها في الدنيا لأنها أثر طبيعي لها ، وانما جعلها الله كذلك لتكون عبرة يتأدب المتأخرون بما أصاب منها المتقدمين . وكذلك الحال في عقوبة الآخرة بالنسبة الى الافراد فان عذاب كل شخص انما يكون بحسب تأثير الجهل في عقله، وفساد الاخلاق وسوء الاعمال في نفسه

اعتذر بعض اليهود في عصر التنزيل عن عدم الايمان به بأن قلوبهم غلف

لم تفهم الدعوة ولم تعقل الخطاب فرد الله تعالى عليهم ببيان السبب الحقيقي في ترك الايمان ، وما استحقوه عليه من الغضب والهوان . ثم ذكر اعتذاراً آخر لهم مقرونا بالرد والابطال ، وإقامة الحجة عليهم به فقال ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾ صيغة الدعوة تشعر بوجوب الايمان بما أنزل الله تعالى لانه هو الذي أنزله لالأن المنزل عليه فلان ولذلك لم يقل : آمنوا بما أنزل على محمد . فان ما أنزل عليه لو أنزل على غيره لوجب الايمان به فان الوحيّ هو المقصود بالذات والانبياء إنما هم مبلغون، فتقييد الخضوع لوحي الله بكونه لابد أن يكون منزلا على شخص من شعب كذا بعينه تحكم على الله تعالى وقضاء عليه بأن تكون رحمته مقيدة بأهواء فريق من خلقه . فايراد الدعوة بما ذكر من الاطلاق مع إيراد الجواب مقيداً بقيد (نؤمن بما أنزل علينا) يشعر بقوة حجة الدعوة، ووهن مابني عليه الجواب من الشبهة . ثم صرح بالحقيقة وهي أنهم انما يدعون هذا الايمان بألسنتهم ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ من مدلول ولازم لاينفك عنه كالبشارة برسول من بني إخوتهم أي ولد اسماعيل ، وكون ماتثبت به نبوة محمد بمساواته لما تثبت به نبوة موسى يستلزم وجوب اتباع محمد كما اتبع موسى لأن المدلول يتبع دليله في كل زمن وكل موضوع . قال إنهم يكفرون بما وراء المنزل اليهم ﴿وهو الحق﴾ أي والحال أنه الحق الثابت في نفسه بالدليل حال كونه ﴿مصدقا لما معهم﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل وقد كان من مكابرتهم وعنادهم ما كان فلم يبق إلا إلزامهم الحجة بما اقترفوا من فحش المخالفة لما أنزل اليهم والفسوق عنه ليعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم ويحكمون شهواتهم بما أنزل اليهم وما أنزل على محمد ﷺ ، ولذلك قال ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين ﴾ بما أنزل اليكم وليس فيه الامر بقتل الانبياء بل فيه النهي الشديد عن قتل أنفسكم .

ومن مباحث اللفظ أو البلاغة أنه جاء بالجملة الحالية في بيان كون ما كفروا به هو الحق لان الجملة الحالية تدل على تقدم ثبوت مضمونها على حدوث ماجعلت قيداً له ، وما كفروا به كذلك هو الحق من قبل كفرهم. وهذا المعنى للجملة الحالية

هو ماحققه الامام عبد القاهر في دلائل الاعجاز ، ولم يشر اليه شيخنا هنا لانه لم يكن عند تفسير هذه الآيات قد قرأ دلائل الاعجاز ، وقوله (مصدقا لما معهم) حال مفردة مؤكدة والأصل فيها المقارنة لما هي قيد له ، وهو يتضمن إثبات كفرهم بالتوراة بالتبع لكفرهم بالقرآن المصدق لها ولو فيما صدقها فيه والكفر ببعضه كالكفر به كله كما تقدم بيانه قريبا . ومن مباحث اللفظ أيضا وضع المضارع (تقتلون) موضع الماضي (قتلتم) لما سبق بيانه في مثل هذا التعبير من إرادة استحضار صورة هذا الجرم الفظيع مبالغة في التقريع ، واغراقا في التشنيع ، ولما كانت هذه الصيغة تدل على الحال فتوهم أن الذين في زمن التنزيل كانوا لايزالون يقترفون هذه الجريمة على أنه لم يكن في ذلك العهد أنبياء الا من يبكتهم ويحتج عليهم — وصلها بقوله (من قبل) دفعا لذلك الوهم . والفاء في قوله (فلم) واقعة في جواب شرط دل عليه مابعده

وقد سبق القول غير مرة بان خطاب الخلف باسناد ما كان من سلفهم اليهم مقصود لبيان وحدة الامة وتكافلها وكونها في الاخلاق والسجايا المشتركة بين أفرادها كالشخص الواحد وبيان أن ما تبلى به الامم من الحسنات والسيئات إنما هو أثر الاخلاق الغالبة عليها والاعمال الفاشية فيها منبعثة عن تلك الاخلاق فما جرى من بني اسرائيل من المنكرات لم يكن من قذفات المصادفة ، وإنما كان عن أخلاق راسخة في الشعب تبع الآخرون فيها الاولين ، إما بالعمل وإما بالاقرار وترك الانكار . ولو أنكر المجموع ما كان من بعض الافراد لما تفاقم الامر ، ولما تمادى واستمر . فالحجة تقوم على الحاضرين بأن الغابرين قتلوا الانبياء فأقرهم من كان معهم ولم يعدوا ذلك خروجا من الدين ولا رفضا للشريعة ، وتبعهم من بعدهم على ذلك ، وفاعل الكفر ومجيزه واحد ، وقد سبق تقرير هذا غير مرة

---

(٩٢) وَلَقَدْ جَاءَكُم مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَـٰلِمُونَ (٩٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَـٰكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَأُشْرِبُوا فِي

قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٤) قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٩٥) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٩٦) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ

سبق التذكير باتخاذ العجل في قوله تعالى (واذ واعدنا موسى أربعين ليلة) ثم أعاده هنا بعبارة وأسلوب آخرين في سياق آخر . أما اختلاف العبارة والاسلوب فظاهر وأما السياق فقد كان أولا في تعداد النعم على بني اسرائيل وبيان ما قابلوها به من الكفران وهو هنا في ذكر الآيات ورد شبهاتهم المانعة بزعمهم من الايمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فهناك يقول ان النعم التي أسبغها الله عليكم لم يكن لها من شكر عندكم إلا اتخاذ عجل تعبدونه من دونه . وههنا يقول ان الآيات البينات على النبوة والوحدانية ، لم تزدكم إلا إيغالا في الشرك وانهماكا في الوثنية ، فكيف تعتذرون عن الايمان بمحمد بانكم لا تؤمنون إلا بما أنزل اليكم وهذا شأنكم فيه ؟ ومجموع الآيتين ينبيء بفساد قلوب القوم وفساد عقولهم حتى لا مطمع في هدايةأ كثرهم من جهة الوجدان ، ولا من ناحية العقل والجنان. وهذه البينات التي ذكرها ههنا قد كانت في مصر قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة وأما النعم التي ذكرها هناك فقد كانت في أرض الميعاد كما تقدم . ووجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها قد علم مما قلناه في السياق وفيه المقابلة بين معاملتهم لموسى عليه السلام ومعاملتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم اذ قالوا : قلوبنا غلف : وادعوا أنهم مأمورون بأن لا يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم خاصة . وقد علم من هذه

الحجج كلها بطلان شبههم وكذبهم في دعواهم وانه لا عذر لهم في ترك الايمان

قال ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ أي من بعد هذا المجيء لا من بعد موسى والمراد انه لم يكن لهم عذر في ذلك الاتخاذ فانه بعد بلوغ الدعوة ، وقيام الحجة ، ولذلك قال ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ وأي ظلم أعظم من الشرك بالله تعالى ؟ ولا تغفل عن الايجاز في قوله (من بعده) وحذف مفعول (اتخذتم) أي اتخذتموه إلها

ثم ذكرهم هنا أيضا بأخذ الميثاق ورفع الطور كما ذكرهم به في آية تقدمت ، وقد قال هناك (خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه) وقال هنا (خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) وأمرهم في تلك بالحفظ وأمرهم في هذه بالفهم والطاعة . وقلنا في تفسير (واذكروا) ان المراد الحث به على العمل فالعبارتان تتلاقيان في المعنى والمراد .

وفي اختلاف النظم والاسلوب حجة على الذين توهموا ان إعجاز القرآن في البلاغة انما هو في السبق إلى العبارة التي يتأدى بها المعنى على أكمل الوجوه الممكنة في نظم الكلمات العربية . رأى هؤلاء ان المعنى الذي يفيد علما بشيء ما له كلمات في اللغة تؤديه بوجوه من النظم وان الكلمات والوجوه محدودة فمن سبق الى أتمها أداء وأبلغها تأثيراً كان كالسابق الى انتقاء أكرم جوهرة من طائفة من الجواهر أمامه أو الى أنفس عقد وأحسنه نظما من عقود عرضت عليه . مثال ذلك قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاأن يقول ربي الله) قال علماء هذا الشأن انه يتألف من هذه الكلمات عشرة ضروب من النظم بالتقديم والتأخير ما من ضرب منها الا وهو منتقد بالخطل أو إبهام خلاف المراد أو الخطأ في الاعراب الا نظم الآية فهو الذي يؤدي المعنى على أكمل الوجوه ولا يتأتى نظم آخر يؤدي مؤداه . وزعم بعض الناس ان هذا الاعجاز ليس إلهيا

لو أخذ ما قالوه مسلما على إطلاقه لكان لنا أن نقول انه ليس في قدرة أحد من البشر أن يأتي بكلام طويل يتجلى له في كل جملة منه جميع الكلمات التي تدخل في تأدية المعنى المراد له وجميع ضروب النظم ووجوه الاساليب الممكنة في ترتيب تلك الكلمات وتأليفها فيختار الاحسن الابلغ منها . واذا لم يكن هذا في قدرة

البشر كما هو ظاهر فلا بد أن يكون من جاء به مؤيداً بعناية من الله تعالى . على انا لا نسلم بما قالوه على اطلاقه فانه لا يتجه الا في الفاظ معينة كألفاظ آية (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) الخ واذا نظرنا الى المعاني لا سيما الكلية نراها تتجلى في صور كثيرة من النظم الذي تختلف الفاظه . وأمامنا الآن معنى الآية التي نفسرها وهو ان الله أخذ العهد على بني اسرائيل بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وأن يعملوا بشريعته ووصاياه وكان أخذ هذا العهد في موقف رهبة وخشوع يعين على أخذه بالجد والعزيمة اذ كان الجبل مرفوعا فوقهم بصفة لم يعهدوها حتى ظنوا انه يريد أن يقع بهم ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الميثاق وتركوا العمل به وعبدوا العجل الذي صاغوه من حليهم بايديهم عن حب متمكن من النفس ، وغالب على العقل والحس ، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في كتابه غير مرة ولكن بعبارات مختلفة كالآية التي تقدمت وذكر هناك أنهم تولوا عن الميثاق بعد الامر بحفظه والعمل به رجاء التقوى ، وكآية الاعراف (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة) وتقدمت الاشارة اليها هنالك وكلاهما غاية في البلاغة

وذكره هنا بنظم آخر تنتهي اليه البلاغة في سياق آخر فقال ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ ثم التفت عن خطاب الحاضرين الى الحكاية عن الغابرين فقال ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ أي أنهم قبلوا الميثاق وفهموه ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعنتا وتأولا وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين (سمعنا وعصينا) بل المراد أنهم بمثابة من قال ذلك ومثل هذا التجوز معروف في عهد العرب وفي هذا العهد ـ يعبرون عن حال الانسان وغيره بقول يحكيه عن نفسه حتى حكي مثل ذلك عن الحيوانات والطيور وعن الجمادات أيضا وهو أسلوب أظن أنه يوجد في كل لغة أو في اللغات الراقية فقط . ثم ذكر أقبح أمثلة هذا العصيان بعبارة مدهشة في بلاغتها فقال ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ هذه الاستعارة من فرائد الاستعارات يتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن . واشراب الشيء الشيء مخالطته إياه وامتزاجه به ،

يقال بياض مشرب بحمرة ، أو هو من الشرب كأن الشيء المحبوب شراب يساغ فهو يسري في قلب المحب ويمازجه كما يسري الشراب العذب البارد في لهاته . وقد قدر الا كثرون هنا مضافا محذوفا فقالوا المراد «حب العجل» وذهب بعض الجامدين على الظواهر إلى أن المراد بالشرب هنا حقيقته وزعموا أن موسى لما سحق العجل وذراه في اليم طفقوا يشربون المسحوق مع الماء . وغفل صاحب هذا الزعم عن قوله تعالى (في قلوبهم) والشراب الحقيقي لا يكون في القلب . والشرب غير الاشراب . ولبعض المفسرين مزاعم وقصص في العجل لا يدل عليها وحي منزل ، ولا تاريخ صحيح ينقل ، والباء في قوله (بكفرهم) للسببية أي سبب هذا الحب الشديد لعبادة العجل هو ما كانوا عليه من الوثنية في مصر فقد رسخ الكفر في قلوبهم بطول الزمن وورثه الابناء عن الآباء

وأما السياق الذي وردت فيه هذه الآية بهذا النظم والاسلوب المخالفين لأسلوب تلك الآية مع الاتحاد في المعنى فهو إقامة الحجة على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ورد زعمهم أنهم مؤمنون بشريعة لا يطالبهم الله بالايمان بغيرها كما قلنا في التي قبلها ، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى مخاطبا للنبي عليه السلام ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشريعة - والايمان الحقيقي يقتضي العمل بما له من السلطان على الارادة - فبئسما يأمركم به ذلك الايمان من الاعمال التي منها عبادة العجل وقتل الانبياء ونقض الميثاق . لكن هذا الزعم مشكوك فيه بل يصح القطع بعدمه ، بدليل الاعمال التي يستحيل أن تكون أثراً له . ولا ينسى القاريء ما تقدم من ربط الايمان بالعمل الصالح في تفسير قوله تعالى (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) الآية

هذه حجة عليهم بطبيعة الايمان وأثره في عمل المؤمن . وتليها حجة أخرى تتعلق بفائدة الايمان ومثوبته في الحياة الأخرى وهي قوله عز وجل : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ المراد من الدار الآخرة ثوابها ونعيمها لان حال الانسان فيها لا يخلو من أحد الامرين - المثوبة بالنعيم المقيم ، والعقوبة بالعذاب الاليم ، واستغنى

عن التصريح بالنعيم أو الثواب بقوله (لكم) فانه يشعر بالمحذوف . وانما أوجز هنا في خطاب اليهود لأنه يحكي عن شيء يعرفونه في أنفسهم وقد أوضح المراد بقوله (خالصة من دون الناس) والخالصة هي السالمة من الشوائب .

﴿ قال الاستاذ الامام ﴾ فسر مفسرنا (الجلال) الخالصة بالخاصة وقالوا انه استعمال لم يعهد في الكلام الفصيح ، والتخصيص مفهوم من قوله (من دون الناس) . يقول إن صحت دعواكم وصدق قولكم انه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وأنكم شعب الله المختار فلن تمسكم النار إلا أياما معدودات لا تزيد على أيام عبادة العجل ولا تتجاوز عابديه فتمنوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم ، الذي لا منازع لكم فيه ولا مزاحم ، وإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين ،إذ لا يعقل أن يرغب الانسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها .

والتمني هو ارتياح النفس وتشوفها إلى الشيء توده وتحب المصير اليه وروي عن ابن عباس تفسير التمني بالسؤال والطلب ، وهو غير معروف عن غيره من العرب ، ولعله فسره باللازم فان من تمنى شيئاً طلبه بالقول أو الفعل أو بهما .وقد روي عن كثير من الصحابة عليهم رضوان الله تمني الموت عند القتال وبعد القتال يعبرون بألسنتهم عما في نفوسهم، وما هو إلا صدق الايمان بما أعد الله للمؤمنين في الدار الآخرة

(أقول) تفسير التمني بلازمه القولي كما نقل عن ابن عباس أو العملي كالتعرض للقتل في سبيل الايمان كما نقل عن غيره يدفع إيراد من يقول : إذا كان المراد بالتمني تمنى النفس فلا يظهر صدق قوله تعالى في الآية التي بعد هذه الآية (ولن يتمنوه) وقد ظهر صدقها على الوجه الاول فلم يتمن أحد من المخاطبين الموت ، وقد ورد انهم لو تمنوا الموت لماتوا رواه البخاري : وما قاله الاستاذ الامام في تفسير التمني بحقيقته يدفع كل ايراد فقد قال إن الكلام حجة على مدعي الايمان واستحقاق ما أعده الله لاهله في الآخرة تقنعهم في أنفسهم بأنهم إما صادقون في دعواهم وذلك اذا كانوا يتمنون في أنفسهم الموت والوصول الى الدار الآخرة ويبذلون أرواحهم في سبيل الله بارتياح اذا كان حفظ الحق يقتضي بذلها ، وإما كاذبون فيها وذلك إذا كانوا شديدي الحرص على هذه الحياة . وليس المراد به الحجة

الالزامية أمام الناس . ولذلك كانت العبرة في الآية عامة فهي واردة في سياق الاحتجاج على اليهود ويجب على المسلمين أن يتخذوها ميزانا يزنون به دعواهم اليقين في الايمان والقيام بحقوقه لان الله أنزلها لذلك

لو كان المراد بقوله ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ أنهم لن يقولوا . ياليتنا نموت : أو كلمة هذا معناها لكان الاحتجاج عليهم إنما هو بالتعجيز عن لفظ يحركون به السنتهم ولكان ذلك من الخوارق الكونية ولما صح تعليل نفي التمني بقوله ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ فان هذا التعليل صريح بان المانع لهم من تمني الموت هو انهم يعرفون من أنفسهم أنهم عاصون مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها العقوبة لا أن ألسنتهم عاجزة عن النطق بكلمة تدل على تمني الموت وان كذبا ، وكثيراً ما كانوا يكذبون،وقد أسند الفعل إلى الايدي لان أكثر الاعمال تزاول بها ولذلك جرى عرف اللغة على جعلها كناية عن الشخص باعتبار أنه عامل مطلقا . وقد ختم الآية بقوله ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ ليبين أنهم ظالمون في حكمهم بان الدار الآخرة خالصة لهم وان غيرهم من الشعوب محروم منها وأن كل من كان مثلهم مفتاتا على الله تعالى فهو ظالم مثلهم

ثم بين حقيقة حالهم في الاخلاد الى الارض، والفناء في حب البقاء ، وانهم ليسوا على بينة مما يدعون ، ولا ثقة لهم بانفسهم فيما يزعمون ، فقال ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ كذلك كانوا وكذلك هم الآن والظاهر من سيرتهم ونظام معيشتهم أنهم كذلك يكونون الى ما شاء الله وان كان الظاهر أن الكلام خاص بمن كانوا في عصر التنزيل يحاجهم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ويشاغبونه ويجاحدونه معتزين بشعبهم ، مغترين بكتابهم ، بل ذهب بعض المفسرين الى أن المراد علماؤهم فقط . ونكر الحياة للتحقير كأنه يقول انهم شديدو الحرص على الحياة وان كانت في بؤس وشقاء . ثم خص طائفة من الناس بالذكر عرفوا بشدة الحرص على الحياة وتمني طول البقاء في الدنيا لانهم لا يؤمنون بحياة بعدها فقال ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ أي إنهم أحرص الناس من جميع الناس حتى

من الذين أشركوا، ثم بين مثالا من هذا الحرص مستأنفا فقال ﴿ يود أحدهم لو يعمر الف سنة ﴾ أي يتمنى لو يعمره الله ويبقيه ألف سنة، أو أكثر فان لفظ الالف عند العرب منتهى أسماء العدد فيعبر به عن المبالغة في الكثرة لانه يعرف من نفسه أنه مخالف لكتابه ويتوقع سخط الله وعقابه فيرى أن الدنيا على ما فيها من المنغصات خير له من الآخرة وما يتوقعه فيها. قال تعالى ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ أي وما تعميره الطويل بمزحزحه أي منحيه ومبعده عن العذاب المعدّ له ولأمثاله فانه ميت مهما طال عمره وكل ماله حد فهو منته اليه ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ لا تخفى عليه خافية من أمرهم ولو عرفوه حق معرفته لعلموا أن طول العمر لايخرجهم من قبضته، ولا ينجيهم من عقوبته، فان المرجع اليه، والامر كله بيديه

ومن مباحث اللفظ أن الضمير في قوله (وما هو) مبهم يفسره ما بعده كما اختاره الاستاذ الامام وأكثر المفسرين على أن ما حجازية والضمير العائد على (أحدهم) اسمها وبمزحزحه خبرها والباء زائدة في الاعراب و (أن يعمر) فاعل مزحزحه

---

(٩٧) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٨) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٩) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (١٠٠) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

الكلام متصل بما قبله من ذكر تعلات اليهود واعتذارهم عن الايمان بالنبي عليه الصلاة والسلام وبما جاء به من البينات والهدى ـ زعموا أنهم مؤمنون بكتاب لا حاجة لهم بهداية في غيره، فاحتج عليهم بما ينقض دعواهم، وزعموا أنهم ناجون في الآخرة على كل حال لانهم شعب الله وأبناؤه فابطل زعمهم، ثم

ذكر لهم تعلة أخرى أغرب مما سبقها، وفندها كما فند ما قبلها، وهي أن جبريل الذي ينزل بالوحي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عدوهم فلا يؤمنون بوحي يجيء هو به. وقد جاء فى أسباب النزول روايات عنهم في ذلك منها أن عبد الله بن صوريا من علمائهم سأل النبي عليه السلام عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي فقال هو جبريل فزعم أنه عدو اليهود وذكر من عداوته انه أنذرهم خراب بيت المقدس فكان. ومنها أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) دخل مدراسهم فذكر جبريل فقالوا : ذاك عدونا ، يطلع محمداً على أسرارنا ، وانه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلم : الخ وهذا القول هراء وخطله بين، وانما عني القرآن بذكره ورده لانه مؤذن بتعنتهم وعنادهم ، وشاهد على فساد تصورهم وعدم تدبرهم ، ليعلم الذين كانوا ينتظرون ما يقول أهل الكتاب فيه أنه لا قيمة لاقوالهم ، ولا اعتداد بمرائهم وجدالهم.

قال تعالى ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله ﴾ أي قل لهم أيها الرسول حكاية عن الله تعالى : من كان عدواً لجبريل فان شأن جبريل كذا ـ فهو اذاً عدو لوحي الله الذي يشمل التوراة وغيرها ولهداية الله تعالى لخلقه وبشراه للمؤمنين على ما يأتي في بيان ذلك . قال شيخنا في تقييد تنزيله باذن الله : واذا كان يناجي روحك ويخاطب قلبك باذن الله لا افتياتا من نفسه فعداوته لا يصح أن تصد عن الايمان بك ، وليس للعاقل أن يتخذها تعلة وينتحلها عذراً ، فان القرآن من عند الله لا من عنده . فقوله (باذن الله) حجة أولى عليهم ثم قال ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ أي حال كونه موافقـا للكتب التي تقدمته في الاصول التي تدعو اليها من التوحيد واتباع الحق والعمل الصالح ومطابقا لما فيها من البشارات بالنبي الذي يجيء من أبناء اسماعيل ، كأنه يقول فآمنوا به لهذه المطابقة والموافقة لا لأن جبريل واسطة في تبليغه وتنزيله وهذه حجة ثانية ثم عززها بثالثة وهي قوله ﴿ وهدى ﴾ أي نزله هاديا من الضلالات والبدع التي طرأت على الاديان، فألقت أهلها في حضيض الهوان ، والعاقل لا يرفض الهداية التي تأتيه ، وتنقذه من ضلال هو فيه ، لان الواسطة في مجيئها كان عدواً له من

قبل، فان هذا الرفض من عمل الغبي الجاهل الذي لا يعرف الخير بذاته وانما يعرفه بمن كان سببا في حصوله : ثم أيد الحجج الثلاث برابعة فقال ﴿ وبشرى للمؤمنين ﴾ أي اذا كنتم تعادون جبريل لانه أنذر بخراب بيت المقدس فهو انما أنذر المفسدين، وقد أنزل هذا القرآن علي بشرى للمؤمنين فما لكم أن تتركوا هذه البشرى إن كنتم من أهل الايمان ، لان الذي نزل بها قد نزل بانذار أهل الفساد والطغيان

ومن مباحث اللفظ في الآية أن جبريل اسم أعجمي مركب من «جبر» ومعناه بالعبرانية أو السريانية القوة ومن « إيل » ومعناه الاله أي قوة الله وقيل معناه عبد الله . وفيه ١٣ لغة منها ثمان لغات قرىء بهن أربع في المشهورات : جبرئيل كسلسبيل قرأ بها حمزة والكسائي وجبريل بفتح الراء وحذف الهمزة قرأ بها ابن كثير والحسن وابن محيصن وجبرئل كجحمرش قرأ بها عاصم برواية أبي بكر ، وجبريل كقنديل قرأ بها الباقون . وأربع في الشواذ جبرإل وجبرائيل وجبرئل وجبرين.

ومنها أن قوله (نزله على قلبك) ورد على طريق الالتفات عن التكلم إلى الخطاب إذ كان مقتضى السياق أن يقول (نزله على قلبي) وقد قالوا في نكتته إنها حكاية ماخاطبه الله تعالى به . ولا أرى صاحب الذوق السليم إلا مستنكراً صيغة التكلم في هـذا المقام ، والعلة في ذلك لاتبعد عن الافهام ، ومنها أن الضمير المنصوب البارز في (نزله) للقرآن وهو لم يذكر فيما قبلها وإنما عينته قرينة الحال ، وذلك يدل على فخامة شأنه ، كأنه لشهرته قد استغني عن ذكره (قاله البيضاوي)

أقام الحجج على حماقتهم وسخفهم في دعوى عداوة جبريل وبيان أنها لا يصح أن تكون مانعة من الايمان بكتاب أنزله الله بتلك الصفات التي طويت فيها الحجج ثم بين في آية أخرى حقيقة حالهم في هـذه العداوة فقال ﴿ من كان عدواً لله ﴾ بكفره بما ينزله من الهداية ﴿ وملائكته ﴾ برفض الحق والخير الذي فطروا عليه وكراهة القيام بما يعهد به اليهم ربهم عز وجل ، لأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ﴿ ورسله ﴾ بتكذيب بعض وقتل بعض ﴿ وجبريل وميكال ﴾ بأن الاول ينزل بالآيات والنـذر ، ومن كان عدواً لجبريل فهو عدو لميكال لأن

فطرتهما واحدة وحقيقتهما واحدة من مقتها وعاداها في أحدهما فقد عاداها في الآخر ﴿ فان الله عدو للكافرين ﴾ أي من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين من الله الذين جعلهم رحمة لخلقه فان الله عدو له لأنه كافر بالله ومعاد له والله عدو للكافرين أي يعاملهم معاملة الاعداء للاعداء ، وهم الظالمون لأنفسهم إذ دعاهم فلم يقبلوا أن يكونوا مع الاولياء (ميكال) بوزن ميعاد قراءة أبي عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص، وقرأنافع ميكائل وحمزة والكسائي وابن عامر ميكائيل. وفي الشواذ ميكئل وميكئيل وميكاييل

﴿قال الاستاذ الامام﴾ هذا وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التي جاؤا بها وهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم ولكنهم كذلك في نفس الامر فأراد أن يبين حقيقة حالهم في الواقع ، وهي أنهم أعداء الحق واعداء كل من يمثله وينقله ويدعو اليه، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكال الذي يزعمون أنهم يحبونه وانهم كانوا يؤمنون بالنبي لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه . ومعاداة القرآن كمعاداة سائر الكتب الالهية لان الغرض من الجميع واحد . ومعاداة محمد ﷺ كمعاداة سائر رسل الله لان وظيفتهم واحدة . فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر وهذا من ضروب إيجاز القرآن التي انفرد بها .

وفي قوله تعالى (للكافرين) وضع للمظهر في موضع المضمر لبيان أن سبب عداوته تعالى لهم هو الكفر فان الله لايعادي قوما لذواتهم ولا لأنسابهم ، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو

(أقول) وقد تقدم غير مرة أن عذاب الله وانتقامه من الكفرة الفجرة لايشبه انتقام ملوك الدنيا وزعمائها وإنما قضت سنته تعالى بأن يكون لكل عمل يعمله الانسان في ظاهره أو في نفسه وضميره أثراً في نفس العامل يزكيها أو يدسيها وسعادة الانسان في الآخرة أو شقاؤه تابع لآثار اعتقاداته وأعماله في نفسه . ولذلك قال تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين)

ثم صرح بأن القرآن منزل من عند الله وحده ، وأنه في نفسه آيات بينات لايحتاج إلى آية أخرى تدينه وتشهد له ، فان ما كان بيناً في نفسه أولى بالقبول مما

يحتاج في بيانه إلى غيره ، فقال ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ وقد تقدم أن الوحي من الله للنبي يسمى تنزيلا وانزالا ونزولا لبيان علو مرتبة الربوبية لا أن هناك نزولا حسياً من مكان مرتفع إلى مكان منخفض .

قال هذا شيخنا : وعلو الله تعالى على خلقه حقيقة أثبتها لنفسه في كتابه ، لا حاجة إلى تأويلها بعلو مرتبة الربوبية على مرتبة المخلوقين هربا من استلزامها الحصر والتحيز في جهة واحدة ، فان التنزيه القطعي يبطل اللزوم . ومسألة الجهات نسبية لا حقيقية ، وإذ كان الرب تعالى بائناً من خلقه وهو من ورائهم محيط فهم أينما كانوا لا يتوجهون إليه إلا أنه فوقهم واذا كان الملائكة (يخافون ربهم من فوقهم) فماذا يقال فيمن دونهم ؟ وتوجه البشر إلى ربهم في جهة العلو وقبل السماء فطري معروف في جميع أهل الملل ، فهو فوق الخلق في جملته وفوق العباد أينما كانوا من أرض أو سماء ، وهنالك مقام الاطلاق الذي لا يتقيد بقيد ولا يحصر في حيز ، وانما الحيز والحصر من الامور النسبية والاعتبارية في داخل دائرة الخلق . وصح في الحديث أن الملائكة اذا سمعوا كلام الله في السموات عراهم ما عراهم مما أشير إليه في قوله تعالى (حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير) وشيخنا على دعوته إلى مذهب السلف كان لا يزال متأثراً بمذهب الاشعرية .

وأما كون آيات القرآن بينات فهي أنها باعجازها البشر وبقرن المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها ، والاحكام الادبية والعملية بوجوه منافعها ، لا تحتاج إلى دليل آخر يدل على أنها هداية من الله تعالى وأنها جديرة بالاتباع ، بل هي دليل على نفسها عند صاحب الفطرة السليمة كالنور يظهر الاشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى شيء آخر يظهره ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا في ظلمة التقليد فتركوا طلب الحق بذاته لاعتقادهم أن فطرتهم ناقصة لا استعداد فيها لادراكه بذاته على شدة ظهوره ، وانما يطلبونه من كلام مقلديهم — وكذا الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسداً لمن ظهر الحق على يديه وعناداً له

بعد هذا كله بين الله تعالى شأنين من شئون أهل الكتاب وهما أنه لا ثقة بهم

في شيء لما عرف عنهم من نقض العهود وأنه لارجاء في إيمان أكثرهم لأن الضلالة قد ملكت عليهم أمرهم إلا قليلا منهم ، فان كان ماتقـدم من الاعمال والاقوال قد صدر عن بعضهم — وإن كان نقض العهود قد وقع في كل زمن من فريق منهم دون فريق — فلا يتوهمن أحد أن أولئك هم الاقلون، كلا بل هم الا كثرون، ولذلك قال ﴿ أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ﴾ همزة الاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف أي أكفروا بالآيات وقالوا ماقالوا وكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟. النبذ طرح الشيء وإلقاؤه والمراد بالعهود هنا عهودهم للنبي (ص) ولما كان لفظ فريق يوهم العدد القليل وكان الواقع أن الذين كانوا يرون الوفاء له (ص) قليلون، والناقضين هم الأكثرون — أضرب عنه وقال ﴿ بل أكثرهم لايؤمنون ﴾ فهم لا أيمان لهم لانهم لا إيمان لهم ، أي لا عهود لهم . وفيه من خبر الغيب ان أكثر اليهود لايؤمنون بالنبي (ص) وكذلك كان وصدق الله العظيم

---

(١٠١) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ . وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ . وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ﴾ تقدم معناه في تفسير الآية ٤١ والآية ٨٩ وقوله ﴿ نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتب الله وراء ظهورهم ﴾ بيان لحال جديدة من أحوال أهل الكتاب يصح أن تكون علة لجميع ماصدر عنهم من الشناعات في معاداة النبي عليه السلام ومجاحدته ، وهي أن فريقاً منهم قد نبذوا كتاب الله الذي يفاخرون به ويحتجون بأنهم اكتفوا بالهداية به ، وأنه لاحاجة لهم بسواه ـ نبذوه أن جاءهم رسول مصدق له بحاله وصفاته لان البشارات التي فيه بالنبي الذي يجيء من آل اسماعيل لا تنطبق إلا على هذا الرسول ، ومصدق له بمقاله باعترافه بنبوة موسى عليه السلام وصدقه فيما جاء به من الهدى والشريعة، وتوبيخه اليهود على تحريف بعضها ونسيان بعض وترك العمل بما بقي لهم منها

(قال الاستاذ الامام) ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته ، وتركوا التصديق به في جملته وتفصيله ، وانما المراد أنهم طرحوا جزءاً منه وهو ما يبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته ويأمرهم بالايمان به واتباعه ، أي فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره بمن يلقي الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره . وترك الجزء منه كتركه كله لان ترك البعض يذهب بحرمة الوحي من النفس ويجريء على ترك الباقي (من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) (قال) ولا فرق في هذا الحكم بين اليهود والنصارى فكل منهما مبشر بالنبي عليه الصلاة والسلام في كتابه ، وكل منهما قد نبذ الكتاب فلم يعمل به . ولم يضر النبي ﷺ هذا الجحود من الفريق الجاحد لان دعوته قد قبلها الآخرون واهتدى بها من لا يحصى من الامتين ومن سائر الامم ، وانما يضر الجاحدين لأنهم تركوا كتابهم الذي يزعمون أنه المنجي والمخلص لهم وحرموا من هداية خاتم النبيين ، التي هي أكمل هداية أنعم الله بها على العالمين

قال تعالى بعد ماذكر نبذهم الكتاب ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ أي نبذوه نبذ من لا يعلم أنه كتاب الله ، يريد أنهم بالغوا في تركه واهماله ، ومن ترك شيئاً من أمر الله وهو يعلم أنه أمره ولكن طاف به طائف من الشيطان فغلب على أمره

فانه لايلبث أن يعود ، ولكن هذا الفريق النابذ لكتاب الله تعالى من حيث هو مبشر بالنبي وآمر باتباعه يتمادى بهم الزمان ولا يتوبون ولا يرجعون ، وما أحسن التعبير عن ذلك بنفي الحال والاستقبال دون نفي الماضي

مبحث السحر وهاروت وماروت

ثم ذكر تعالى أن أولئك الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم مجاحدة للنبي عليه الصلاة والسلام وحسداً له قد تبدلوا الكفر بالايمان واشتروا الضلالة بالهدى ﴿ واتبعوا ماتتلو الشياطين ﴾ من الانس في قصصها وأساطيرها ، أو من الجن في وسوستها أو منهما جميعاً ، على حد قوله تعالى (شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) ﴿على ملك سليمان﴾ أي ما كانت تتلو على عهده وفي أيام ملكه إذ زعموا أن ملكه قام على أساس السحر والطلسمات ، وأنه ارتد في آخر عمره وعبد الاصنام مرضاة لنسائه الوثنيات ﴿ وما كفر سليمان ﴾ وماسحر ﴿ ولكن ﴾ أولئك ﴿ الشياطين ﴾ الذين يسندون إليه ما انتحلوه من السحر ، وما تلبسوا به من الكفر ، هم الذين ﴿ كفروا ـ يعلمون الناس السحر ﴾ ليفتنوا به العامة ويضلونهم عن طلب الاشياء من أسبابها الظاهرة ومناهجها المشروعة

هذه الاوهام والاكاذيب على نبي الله سليمان عليه السلام مما افتجره بعض الدجالين من بني اسرائيل ووسوسوا به إلى بعض المسلمين فصدقوهم في بعض مازعموه من حكايات السحر ، وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر ، وانك لترى دجاجلة المسلمين إلى اليوم يتلون أقساما وعزائم ، ويخطون خطوطا وطلاسم ، ويسمون ذلك خاتم سليمان وعهوده ، ويزعمون أنها تقي حاملها من اعتداء الجن ومس العفاريت ، ولقد رأى كاتب هذا التفسير شيئا من ذلك وكان في أيام حداثته يصدق به ويعتقد فائدته

وقد زعم اليهود أن سليمان سحر ودفن السحر تحت كرسيه وأنه أضاع خاتمه الذي كان به ملكه فوقع في يد آخر وجلس مجلسه للحكم الخ ماخلطوا فيه التاريخ بالدجل . وروي عنهم أن سليمان هو الذي جمع كتب السحر من الناس ودفنها

تحت كرسيه ثم استخرجها الناس وتناقلوها . وفي رواية أخرى أنه انما دفن تحت كرسيه كتباً أخرى في العلوم فلما استخرجت أشاع الشياطين أنها كتب سحر ، وأنشأ الدجالون بعد ذلك ينتحلون ماشاؤا وينسبونه إلى تلك الكتب . ولاشك أن ماقالوه على سليمان وملكه من خبر السحر والكفر مكذوب افتراه أهل الاهواء وقد قصه الله تعالى علينا لنعتبر بما افتراه هؤلاء الناس على الانبياء ، وبترجيح فريق من خلفهم الاشتغال بذلك على الاهتداء بالنبي ﷺ حتى إنهم نبذوا كتابهم الذي بشر به وراء ظهورهم

ومن البديهي أن ذكر القصة في القرآن لايقتضي أن يكون كل مايحكى فيها عن الناس صحيحاً فذكر السحر في هذه الآيات لايستلزم اثبات مايعتقد الناس منه كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التي علمت من النفي لاتستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت في القرآن ولو لم يكن ذكرها في سياق النفي

(قال الاستاذ الامام مامثاله) بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الاخبار عند الغابرين ، وإنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار ، لاجل الموعظة والاعتبار ، فحكاية القرآن لاتعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية ، ولا بدّ أن يأتي في العبارة أو السياق وأسلوب النظم مايدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح . وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكي عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله (كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) وكقوله (بلغ مطلع الشمس) وهذا الاسلوب مألوف فاننا نرى كثيراً من كتاب العربية وكتاب الافرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لاسيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية. ويقول أهل السواحل غربت الشمس أو سقط قرص الشمس في البحر أو في الماء ، ولا يعتقدون ذلك وانما يعبرون به عن المرئي

جاء ذكر السحر في مواضع متعددة في القرآن وأكثره في قصة موسى وفرعون

وذكر هنا في الكلام عن اليهود . واذا أردنا فهمه من عرف اللغة وجدنا أن السحر عند العرب كل مالطف مأخذه ودق وخفي ، وقالوا سحره وسحّره بمعنى خدعه وعلله، وقالوا عين ساحرة وعيون سواحر، وفي الحديث الصحيح «إن من البيان لسحراً» والسحر بالفتح وبالتحريك الرئة وهي أصل هذه المادة والرئة في الباطن فما لطف مأخذه ودق صنعه حتى لايهتدي إليه غير أهله فهو باطن خفي ومنه الخداع وهو أن يظهر لك شيئاً غير الواقع في نفس الامر فالواقع باطن خفي ، وتأثير العيون في عشاق الحسان، والكلام البليغ في عشاق البيان ، مما يخفى مسلكه ويدق سببه، حتى يعسر على أكثر الناس الوقوف على العلة في تأثيره .

وقد وصف الله السحر في القرآن بأنه تخييل يخدع الاعين فيريها ماليس بكائن كائناً فقال (يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) والكلام في حبال السحرة وعصيهم وفي آية أخرى (فسحروا أعين الناس واسترهبوهم) وفي هذه الآية التي نفسرها أن السحر كان يؤخذ بالتعليم والتاريخ يشهد بهذا ، وقد كان المصريون يطلقون لقب الساحر على العالم كما يؤخذ من قوله تعالى (وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك) ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الاكثرون فيسمون العمل بها سحراً لخفاء سببه ولطف مأخذه ، ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الانسانية في نفس أخرى لمثل هذه العلة . وقد قال المؤرخون إن سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على اظهار الحبال والعصي بصور الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى

وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للمعاش أن يستعينوا بكلام مبهم وأسماء غريبة اشتهر عند الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجان وأنهم يحضرون اذا دعوا بها ويكونون مسخرين للداعي. ولمثل هذا الكلام تأثير في اثارة الوهم عرف بالتجربة ، وسببه اعتقاد الواهم أن الشياطين يستجيبون لقارئه ويطيعون أمره، ومنهم من يعتقد أن فيه خاصية التأثير وليس فيه خاصية وانما تلك العقيدة الفاسدة تفعل في النفس الواهمة مايغني منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته. وهذا هو السبب في اعتقاد الدهماء أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب

وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء في حقيقة السحر وفي أحكامه وعده بعضهم من خوارق العادات، وفرقوا بينه وبين المعجزة، ولم يذكروا في فروقهم أن السحر يتلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل فهو أمر عادي قطعاً بخلاف المعجزة

(قال الاستاذ الامام)في قوله تعالى(يعلمون الناس السحر) وجهان(أحدهما) أنه متصل بقوله (ولكنّ الشياطين كفروا) أي إن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر (والثاني) وهو الاظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وأن الكلام في الشياطين قد انتهى عند القول بكفرهم . وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهوراً في زمن التنزيل ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم . أي إن فريقاً من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان . وههنا يقول القائل بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان في رميه بالكفر وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التي كانت تحت كرسيه ؟ فأجاب على طريق الاستئناف البياني (يعلمون الناس السحر) الخ، ونفي الكفر عن سليمان وإلصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض فعلم أيضاً أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الفرية أيضاً . وانما كان القصد إلى وصف اليهود بتعليم السحر لأنه من السيئات التي كانوا متلبسين بها ويضرون بها الناس خداعاً وتمويها وتلبيساً

ثم قال ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ فأجمل بهذه العبارة الوجيزة خبر قصة كانوا يتحدثون بها كما أجمل في ذكر تعليم السحر فلم يذكر ماهو؟ أشعوذة وتخييل، أم خواص طبيعية، وتأثيرات نفسية ؟ وهذا ضرب من الاعجاز في الايجاز انفرد به القرآن — يذكر الامر المشهور بين الناس في وقت من الاوقات لأجل الاعتبار به فينظمه في أسلوب يمكن لكل أحد أن يقبله فيه مهما يكن اعتقاده لذلك الشيء في تفصيله . ألا ترى كيف ذكر السحر هنا وفي مواضع أخرى بأساليب لا يستطيع أن ينكرها من يدعي أن السحر حيلة وشعوذة أو غير ذلك مما ذكرناه ولا يستطيع أن يردها من يدعي أنه من خوارق العادات

والحكمة في ذلك أن الله عز وجل قد وكل معرفة هذه الحقائق الكونية إلى

بحث الانسان واشتغاله بالعلم لأنه من الامور الكسبية ، ولو بين مسائلها بالنص القاطع لجاءت مخالفة لعلم الناس واختبارهم في كل جيل لم يرتق العلم فيه إلى أعلى درجة ، ولكانت تلك المخالفة من أسباب الشك أو التكذيب فاننا نرى من الناس من يطعن في كتب الوحي لتفسير بعض تلك الامور المجملة بما يتراءى لهم وإن لم تكن نصاً ولا ظاهراً فيه ، ويزعمون أن كتاب الدين جاء مخالفاً للعلم وان كان ذلك يطلقون عليه اسم العلم ظنياً أو فرضياً

في (الملكين) قراءتان فتح اللام وكسرها فالاولى قراءة الجمهور والثانية قراءة ابن عباس والحسن وأبي الاسود والضحاك . وحمل بعضهم قراءة الفتح على قراءة الكسر ويؤيده ما قيل إن المراد بهما داود وسليمان عليهما السلام . وقيل بل هما رجلان صاحبا وقار وسمت فشبها بالملائكة، وكان يؤمهما الناس بالحوائج الاهلية ويجلونهما أشد الاجلال فشبها بالملوك ، وتلك عادة الناس فيمن ينفرد بالصفات المحمودة يقولون : هذا ملك وليس بانسان : كما يقولون فيمن كان سيداً عزيزاً يظهر الغنى عن الناس من حيث يحتاجون اليه : هذا سلطان زمانه : جلت حكمة الله في خلقه فقد قدّ هؤلاء الآدميين من أديم واحد ، كان الناس على عهد هاروت وماروت ــ الذين كان يتحدث بخبرهما ولا يحدد تاريخهما ــ على مثالهم اليوم لا يقصدون للفصل في شئونهم الاهلية من الجهة الروحانية إلا إلى أهل السمت والوقار اللابسين لباس أهل التقوى والصلاح ، هذا مانشاهدهم عليه في زماننا وهذا ماحكى الله تعالى عنهم في الزمن القديم ، وقال الاستاذ الامام : لعل الله تعالى سماهما ملكين (بفتح اللام) حكاية لاعتقاد الناس فيهما وأجاز أيضا كون إطلاق لفظ الملكين عليهما مجازاً كما قال بعض المفسرين . قال تعالى في اليهود (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل) والظاهر من العطف أن ما أنزل عليهما هو غير السحر ضم اليه لأنه من جنسه في كون تعليمه سيئة مذمومة أو هو لتغاير الاعتبار أو النوع . وليس معنى الانزال عليهما أنه وحي من الله كوحيه للانبياء فيشكل عده من الشر والباطل الذي يذم تعلمه فان كلمة أنزل تستعمل في مواضع لا صلة بينها وبين وحي الانبياء . قالوا: أنزلت حاجتي على كريم ، وأنزل لي عن هذه الابيات :

ويقال : قد أنزل الصبر على قلب فلان : وقال تعالى (وأنزلنا الحديد) وقال (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) . ولعل التعبير عما أوتياه من العلم بالانزال لانه لم يكن يعرف له مأخذ غيرهما يراد أنهما ألهماه إلهاما واهتديا اليه من غير أستاذ ولا معلم . ويصح أن يسمى مثل هذا وحيا لخفاء منبعه وليس الوحي وإلهام الخواطر خاصاً في عرف اللغة ولا عرف القرآن بالانبياء ولا بما يكون موضوعه خيراً أو حقا فقد قال تعالى (وأوحى ربك الى النحل) وقال (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه) وقال (شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) وقال الشاعر :

رأس الغواية في العقل السقيم فما فيه فأ كثره وحي الشياطين

وذكر ابن جرير الطبري وجها آخر في تفسير « وما أنزل على الملكين) ونقله كثير من المفسرين وهو أن (ما) نافية أي إن اليهود يعلمون الناس السحر ويرتقون بسنده إلى الملكين ببابل وما أنزل السحر على الملكين فكيف كانوا يعلمونه بني إسرائيل . وقد ضعفوه بأن الثابت في الواقع أن بني إسرائيل كانوا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين . وقد أجاز هذا التضعيف الاستاذ الامام . على أنه يمكن أن يراد به نفي الانزال خاصة أي أن ذلك السحر الذي ينسبونه إلى الملكين لم ينزل عليهما إنزالا من الله فينظمه اليهود في سلك العلوم المحمودة ويزعمون أنه حق وإنما هو شيء افتجراه واخترعاه من عند أنفسهما

ثم قال ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ أي إن ما عندنا هو أمر يبتلي به الله الناس ويختبرهم فلا تعلم ماهو كفر. فان أصر علماه . هذا ماعليه الجمهور واقتصر عليه الاستاذ الامام في الدرس . وقال البيضاوي : وما يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويقولا له : إنما نحن ابتلاء من الله فمن تعلم منا وعمل به كفر ، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الايمان ، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به ، وفيه دليل على أن تعلم السحر ومالا يجوز اتباعه غير محظور وإنما المنع من اتباعه والعمل به اه . ويجوز أن يكون المعنى إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك أتشكر أم تكفر وننصح لك بأن لاتكفر . ولعلهما يقولان هذا للمحافظة

على حسن اعتقاد الناس بفضلهما إذ كانوا يقولون هما ملكان . وانّنا نسمع الدجاجلة الذين ينتحلون مثل هذا ويوهمون الناس أنهم روحانيون يقولون لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض نوصيك بأن لا تكتب هذا لجلب امرأة متزوجة إلى حب رجل غير زوجها ، ولا تكتب لأحد الزوجين بأن يبغض الآخر ، وأن تخص هذه الفوائد بالمصلحة كالحب بين الزوجين ، والتفريق بين العاشقين الفاسقين : وإنما يقولون هذا ليوهموا الناس أن علومهم إلهية ، وأن صناعتهم روحانية ، وانهم صحيحو النية . وقد كان اليهود يسندون سحرهم إلى ملكين ببابل ونرى دجاجلة المسلمين من المغاربة وغيرهم يسندون خزعبلاتهم إلى « دانيال النبي » وهذا المعنى يصح على القول بأن قوله «وما أنزل» نفي بحسب توجيهنا السابق وقال البيضاوي إن معناه على وجه النفي: انما نحن مفتونون فلا تكن مثلنا :

قال تعالى ﴿ فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ صيغة المضارع في هذه الجملة وما قبلها لتصوير ما كان كأنه كائن فالكلام تصوير للقصة لا حكم بمضمونها أي انهم كانوا يتعلمون منهم ماوضع لاجل التفريق بين الزوجين وهو نحو مايسميه الدجاجلة الآن « كتاب البغضة » وليس في العبارة مايدل على أن ما يتعلمونه لهذا الغرض هو مؤثر فيه بطبعه أو بسبب خفي أو بخارقة لا تعقل لها علة ولا أنه غير مؤثر ، وليس فيها بيان لما يتعلمونه هل هو كتابة تمائم ، أو تلاوة رقى وعزائم ، أو أساليب سعاية ، أو دسائس تنفير ونكاية ، أو تأثير نفساني ، أو وسواس شيطاني ، وأي شيء من ذلك ثبت علما كان تفصيلا لما أجمله القرآن في الواقع . ولا يجوز لنا أن نتحكم بتفصيل ما أجمله القرآن فنحمله على أحد ماذكر أو على غيره . ولو علم الله أن الخير لنا في بيان ذلك لبينه كما قلناه في مثله مرار .

لم يبين القرآن ذلك الاجمال ولا حقيقة ذلك العلم لانه موكول الى بحث البشر وارتقائهم في العلم كما تقدم ، ولكنه لم يهمل مايتعلق بالعقائد وبيان الحق فيها ولذلك قال بعد حكاية السحر عنهم ﴿ وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله ﴾ أي انهم ليس لهم قوة غيبية وراء الاسباب التي ربط الله بها المسببات فهم يفعلون بها ما يوهمون الناس أنه فوق استعداد البشر ، وفوق مامنحوا من القوى والقدر ،

فاذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم فانما ذلك باذن الله أي بسبب من الاسباب التي جرت العادة بان تحصل المسببات من ضر ونفع عند حصولها باذن الله تعالى . وهذا الحكم التوحيدي هو المقصد الاول من مقاصد الدين فالقرآن لايترك بيانه عند الحاجة بل عند كل مناسبة وربما ترد في القرآن قصة مثل هذه القصة لاجل بيان الحق في مسألة اعتقادية كهذه المسألة لان ايراد الاحكام في سياق الوقائع أوقع في النفس وأعصى على التأويل والتحريف

ثم قال بعد نفي القوة التي وراء الاسباب عنهم ﴿ ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ﴾ يضرهم لانه سبب في الاضرار بالناس وهو محرم يعاقب الله تعالى عليه في الآخرة ومن عرف بايذاء الناس يمقته الناس ويكونون عليه . ولما كان بعض الضار من جهة نافعا من جهة أخرى وربما كانت منفعته أكبر من اثمه نفى المنفعة بعد اثبات المضرة، فهذا النفي واجب في قانون البلاغة لا بد منه. وقد صدق الله تعالى فانا نرى منتحلي السحر وما في معناه أفقر الناس وأحقرهم، ولو عقل السفهاء الذين يختلفون اليهم يلتمسون المنافع لانفسهم والايقاع بأعدائهم لعلموا أن الشقي في نفسه لايمكن أن يهب السعادة لغيره، لان فاقد الشيء لا يعطيه . هذه حالهم في الدنيا فكيف يكونون في الآخرة يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون؟ لا جرم أنها تكون حالا سوءى واليهود يعلمون ذلك كما قال ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ﴾ أي إنهم يعلمون أن من اختار هذا واستبدله بما آتاه الله من أصول الدين الحق وأحكام الشريعة العادلة الموصلين إلى سعادة الدنيا والآخرة فليس له نصيب في نعيم الآخرة ، وذلك أن التوراة قد حظرت تعليم السحر وجعلته كعبادة الاوثان وشددت العقوبة على فاعله وعلى اتباع الجن والشياطين والكهان ، ولاينافي هذا العلم قوله ﴿ ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ فان العلم علمان ــ علم تفصيلي متمكن من النفس متسلط على إرادتها يحركها الى العمل، وعلم اجمالي خيالي يلوح في الذهن مبهما عند مايعرض ما يذكر به ككتاب وإلقاء سؤال، وهو يقبل التحريف والتأويل، وليس له منفذ الى الارادة ولاسبيل؛ فقد كانوا يستحلون أكل السحت كالرشوة [illegible] التأويل كما يفعل غيرهم اليو[illegible]

وقبل اليوم . ولو كانوا يعلمون حرمة ماذكر علما تفصيليا يستغرق جميع جزئيات المحرم ويفقهون علة التحريم وسره ويصدقون بما توعد الله مرتكبه من العقوبة في الآخرة تصديقا جازما ويتذكرونه وقت العمل بما للعقيدة من السلطان على الارادة لما ارتكبوا ما ارتكبوه مع الاصرار عليه، ولكنهم فقدوا هذا النوع من العلم ولم يغن عنهم تصور أن السحر والخداع كلاهما حرام كالربا والرشوة لان في الكتاب عبارة تدل على ذلك فان العبارة تحتمل ضروبا من التأويل ككون النهي خاصا بمعاملة شعب إسرائيل وكانوا يقولون (ليس علينا في الاميين سبيل) اذا أكلنا أموالهم بالباطل، وكاشتراط الضرر في السحر مع ادعاء أن ما يأتونه منه نافع غير ضار وغير ذلك

وإننا نرى كثيراً من الحرمات قد انتهكت في المسلمين بمثل تلك التأويلات حتى جوز بعض المشتغلين بالفقه هدم ركن من أعظم أركان الاسلام بالحيلة وهو ركن الزكاة الذي يحارب تاركوه شرعا، وترى هذه الحيل قد أثرت في الامة أسوأ التأثير فقلما يوجد فيها غني يؤدي الزكاة. ولا يعتقد المتمسك بالدين من هؤلاء الاغنياء أنه متعرض لمقت الله وعقوبته، وأنه قد فسق عن أمر ربه، لانه يمنع الزكاة بحيلة يسميها شرعية، وقد أخذها عمن يسمون فقهاء ، ويفتخرون بأنهم ورثة الانبياء ، ثم إن الحيل على التزوير وأكل أموال الناس بالباطل لها في بعض الكتب وعلى ألسنة كثيرين من أصحاب العمائم مجال واسع وميدان فسيح ، ولها أقبح التأثير في إفساد العامة واستباحتهم المحظورات، ولقد صارت هذه الحيل على الله عز وجل والتأويلات الباطلة الهادمة لدينه معدودة من علم الدين حتى إنه ليأتيها من لامنفعة له في إتيانها ممن يعدون صالحين ، ومن أعجب ذلك أن بعض أهل العلم الصالحين يشهد الزور بمثل هذه التأويلات، وقد نقل الثقات أن طالب الشهادة يستعطفه ويستميل قلبه بالشكوى من الظلم وإرادة الاستعانة بشهادته على دفع المظلمة والتخلص من الاذى فيأمر الشيخ بأن تطوى الورقة المشتملة على قول الزور بحيث يحجب سواد الكتابة فلا يراه ويضع توقيعه وختمه في ذيلها كأنه وضعهما على ورقة خالية ، وهو يعلم أنها ليست خالية من الكتابة ، ويعرف مافيها من الكذب . فهل تقول إنه غير عالم بقوله تعالى (والذين لا يشهدون الزور) وقوله (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون)

وبما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ قال وكان متكئا : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الاشراك بالله وعقوق الوالدين - ثم قعد فقال - ألا وقول الزور وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . وبما روياه من حديث أبي هريرة مرفوعا أيضاً « آية المنافق ثلاث إذ حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » وفي رواية لغيرهما « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إني مسلم » وذكرهن - بلى إنه عالم بكل ذلك ولكنه التأويل أفسد على كل أهل دين دينهم .

أقول أشار الاستاذ الامام إلى ما كان من إقدام هذا العالم العابد على شهادة الزور واستحلالها بتلك الحيلة السخيفة وذكر أمثلة أخرى وقد تذكرت عند كتابة الحديث في المنافقين أن بعض شيوخ الازهر المعروفين كان وعدني وعداً وأخلف فسألته به فقال : ان فقهاءنا الحنفية قالوا بأن الوفاء بالوعد غير واجب ، فقلت وقد تميزت من الغيظ : إن من يقول هذا القول بعد ماورد من النصوص الصريحة في الوفاء وفي الوعيد على تركه فهو مخطىء وقوله مردود كما ورد في الصحيح (بل قلت أكثر من هذا) وانني أبرىء الأئمة من القول بحل إخلاف الوعد من غير عذر صحيح ولكنني أعذر الفقهاء اذا قالوا بأنه ليس للقاضي أن يحكم على من وعد بالوفاء ويلزمه ذلك إلزاما ، ولا أعذر من يقول إن الوفاء مستحب وتركه جائز وإن كان هو المعروف في أكثر كتب الفقه المتداولة .

ولقد صار العالم المسلم عاجزاً في أكثر بلاد المسلمين عن إنكار مايخالف هدي الكتاب والسنة من كتب الميتين لاسيما إذا اشتهروا باختيار كتبهم للتدريس. وحجة هؤلاء المقلدين على نصر كتب الميتين وترجيحها على كتاب الله وسنة رسوله هي أن القادرين على الاهتداء بهما قد انقرضوا فوجب على المسلمين ترك العمل بهما والاعتماد على كتب العلماء المتأخرين الذين استنبطوا من قواعد أئمتهم جميع مسائل الدين ، فعلينا أن نأخذ بكل ماقالوا، وأن لاننظر في الكتاب والسنة إلا للتبرك بهما، فان رأينا خلافا بين قول الله ورسوله وقول الفقيه لايحتمل التأويل فعلينا أن نتهم عقولنا وأفهامنا وننزه فهم الفقيه الميت وعقله ونعمل بقوله مكابرين

أنفسنا التي سجل عليها الحرمان من فهم الكتاب المبين والسنة البيضاء التي وصفها صاحبها بأن ليلها كنهارها أي لا يشتبه فيها أحد !!!. هذا ماعليه جماهير المسلمين، ولم يبعد من قبلهم عن كتاب ربهم أشد من هذ البعد، وسيعودون اليه بعد حين، فقد أخذهم العذاب على تركه (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)

ثم قال تعالى ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير ﴾ أي لو أنهم استبدلوا الايمان بماجاء به النبي ﷺ بهذا السحر الخادع واتباع نزغات الشياطين أو لو آمنوا بكتابهم إيمانا حقيقيا ومنه البشارة بالنبي والامر باتباعه واتقوا بالعمل به والمحافظة على حدوده مغبة ماينتظره المجرمون من العقوبة على العصيان — لكان ثواب الله لهم على الايمان الصحيح والعمل الصالح خيراً لهم من جميع ماتوهموه في المخالفة من المنافع . ثم قال ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي إنهم في كل ماهم عليه من الاباطيل، ومن زعمهم أنها ترجع الى الكتاب بضروب من التأويل، يتبعون الظنون ويعتمدون على التقليد، وليسوا على شيء من العلم الصحيح — ولو كانوا يعلمون علما صحيحا لظهر أثره في أعمالهم ولآمنوا بالنبي عليه السلام واتبعوه فكانوا من المفلحين

ومن مباحث اللفظ في الآيات أن بابل بلدة قديمة كانت في سواد الكوفة (قبل الكوفة) في أشهر أقوال المفسرين ويؤخذ من بعض كتب التاريخ أنها كانت في الجانب الشرقي من نهر الفرات بعيدة عنه ويقال ان أصل اشتقاقها في العبرانية يدل على الخلط اشارة الى مايرويه العبرانيون من اختلاط الالسنة هناك. وهاروت وماروت اسمان أعجميان ولو كانا مشتقين من الهرت والمرت كما زعم بعضهم لما منعا من الصرف . و« من » في قوله تعالى (وما يعلمان من أحد) لاستغراق النفي وتأكيده وقد شدد الاستاذ الامام كعادته الانكار على من قال انها زائدة وقال انما الزائد مايذكر للتحلية ولا يكون له معنى ما وفاقا لكثير من المفسرين. والمثوبة الثواب و (لمثوبة) خبر (لو) قال الاستاذ أي لكانت مثوبة من الله خيراً . وقد قدروا لها فعلا فقالوا: الأصل لأثيبوا مثوبة فحذف الفعل وركب الباقي جملة اسمية ليدل على ثبات المثوبة ونكرت لبيان أنها مهما قلت فهي خير لهم وأصلها الثوب بمعنى الرجوع كأن المحسن يثوب الى من أحسن اليه بعد الاعراض

(١٠٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٥) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

أقول هـذا خطاب للمؤمنين في أمر له علاقة بما كان بينهم وبين اليهود فهو متعلق بماضي السياق الخاص ببني اسرائيل ، وبدء انتقال منه الى سياق مشترك بين المؤمنين واليهود والنصارى جميعا في أمر الدين. و«راعنا» كلمة كانت تدور على ألسنة الصحابة في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى المتبادر منها لغة هو : راعنا سمعك وهو كأرعنا سمعك أي اسمع لنا ما نريد أن نسأل عنه ونراجعك القول فيه لنفهمه عنك ، أو راقبنا وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تلقيه علينا وفهمه . قال في مجاز الاساس : « وراعيت الامر ــ نظرت الام يصير ، وأنا أراعي فلانا ــ أنظر ماذا يفعل ، وأرعيتــه سمعي وأرعني سمعك وراعني سمعك اهـ ولكن الله تعالى نهى المؤمنين عن قول هذه الـكلمة والمشهور في كتب التفسير أن سبب ذلك هو أن اليهود سمعوها فافترصوها وصاروا يخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم لاوين ألسنتهم بها لتوافق كلمة شتم بلسانهم العبراني قيل كانوا ينطقون بها « راعينا » وقيل كانوا يريدن بتحريفها نسبته الى الرعونة. وفي سورة النساء (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ــ ليا بألسنتهم وطعنا في الدين) الآية .

﴿ الاستاذ الامام ﴾ ان هذا النهي له صلة وارتباط بشأن اليهود لامحالة لان الكلام لايزال في شؤونهم مع النبي (ص) والمؤمنين، ولكن هذا لا يستلزم أن يكون سبب النهي هو كون الكلمة تستعمل للشتم في العبرانية ولا أقول بهذا إلا بنقل صحيح

ممن يعرف هذه اللغة ، وللمفسرين وجوه أخرى في تعليل النهي فعن مجاهد وغيره أن معنى الكلمة « خلاف » والمراد لاتخالفوه كما يفعل أهل الكتاب ، ولكن اعترض على هذا الوجه بأن ليس له شاهد من اللغة . والمعروف في اللغة أن « راعنا » من المراعاة وهي تقتضي المشاركة في الرعاية أي أرعنا نرعك ، وفي خطاب النبي بذلك من سوء الادب ماهو ظاهر ، فالنهي عنه تأديب كقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) كأنه يقول لاتكونوا كهؤلاء الغلاظ القلوب الذين قصصنا عليكم خبرهم أو الذين عرفتم سوء أدبهم مع الانبياء ، بل اجمعوا بين الطاعة والادب

(قال) وههنا وجه آخر وهو أنه يقال في اللغة : راعى الحمار الحمر اذا رعى معها ، فيجوز أن اليهود كانوا يحرفون الكلمة بصرفها إلى هذا المعنى فنهى الله المسلمين عن هذه الكلمة وشنع على اليهود باظهار سوء قصدهم فيها . وقد رضوا بصرف اللفظ إلى هذا المعنى وإن كان يتضمن أنهم حمر لان السباب يسب نفسه كما يسب غيره فهو على حد قول القائل :

أقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي

قال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ﴾ نهاهم تعالى عن كلمة كانوا يقولونها وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ماكانوا يريدونه منها . فكلمة انظرنا تفيد معنى كلمة « راعنا » فان فيها معنى الانظار والامهال ويؤيد هذا المعنى قراءة « انظرنا » من الانظار وفيها معنى المراقبة وهو مايستفاد من النظر بالعين . تقول : نظرت الشيء ونظرت اليه ، اذا وجهت إليه بصرك ورأيته وتقول نظرته بمعنى انتظرته ومنه (ماينظرون إلا صيحة واحدة) أذن الله تعالى لهم بهذه الكلمة « أنظرنا » وأمرهم بالسماع للنبي ليعوا عنه مايقول من الدين وهو

أمر يتضمن الطاعة والاستجابة . ثم ختم الآية بقوله ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ لبيان أن ماصدر عن اليهود من سوء الادب في خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذي يعذبون عليه العذاب الموجع أشد الايجاع ، والتنبيه على أن التقصير

في الادب معه عليه السلام ذنب مجاور للكفر يوشك أن يجر إليه فيجب الاحتراس منه بترك الالفاظ الموهمة للمساواة ، بله الالفاظ المنافية للآداب

أقول أن لاشك من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل يقل احترامه له وتزول هيبته من نفسه حتى تقل الاستفادة منه أو تعدم . واذا لم تزل الاستفادة منه من حيث كونه معلما فانها تقل وتزول لامحالة من حيث كونه مربيًا لان المدار في التربية على التأسي والقدوة ، ومن أراه مثلي لاأرضاه إماما وقدوة لي ، فان رضيته بالمواضعة والتقليد وكذبتني المعاملة فأي قيمة لهذا الرضى والعبرة بما في الواقع ونفس الامر وهو أن من اعتقد أن امرءاً فوقه علماً وكمالا وأنه في حاجة للاستفادة من علمه وإرشاده ومن أخلاقه وآدابه ، فانه لايستطيع أن يساوي نفسه به في المعاملة القولية ولا الفعلية ، إلا مايكون من فلتات اللسان ومن اللمم ، وعن مثل هذا نهى الصحابة رضي الله عنهم لئلا يجرهم الانس به عليه السلام وكرم أخلاقه إلى اعتداء حدود الادب الواجب معه الذي لاتكمل التربية إلا بكماله ، وهو تعالى يقول (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) الآية

﴿ الاستاذ الامام ﴾ انما كان عدم الاصغاء لما يقوله الرسول عليه الصلاة والسلام وخطابه خطاب الاكفاء والنظراء مجاوراً للكفر لانه يتكلم عن الله عز وجل لسعادة من يسمع ويعقل ويأخذ مايؤمر به بالادب ويسأل عما لايفهمه بالادب ، ومن فاتته هذه السعادة فهو الشقي الذي لايعدل بشقائه شقاء . ومعنى هذه المجاورة أن سوء الادب بنحو ماحكي عن اليهود في سورة النساء هو من الكفر الصريح ولذلك قال بعده (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلايؤمنون إلاقليلا) فالالفاظ التي تحاكي الالفاظ التي توعدوا عليها بهذا الوعيد على أنها كفر اذا صدرت من المؤمن غير محرفة ولا مقصوداً بها ماكانوا يقصدون تسمى مجاورة لالفاظ الكفر لأنها موهمة وخارجة عن حدود الادب اللائق بالمؤمنين

(قال) إن لمن جاء بعد الرسول حظا من هذا التأديب وليس هو خاصاً

بمن كان في عصره من المؤمنين فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم وكان يجب الاستماع له والانصات لاجل تدبره ، هو الذي يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شيء وهو كلام الله الذي به كان الرسول رسولا تجب طاعته والاهتداء بهديه ، فما هذا الادب الذي يقابله به الاكثرون ؟ إنهم يلغطون في مجلس القرآن فلا يستمعون ولا ينصتون ، ومن أنصت واستمع فانما ينصت طربا بالصوت واستلذاذاً بتوقيع نغمات القاريء ، وانهم ليقولون في استحسان ذلك واستجادته مايقولونه في مجالس الغناء ، ويهتزون للتلاوة ويصوتون بأصوات مخصوصة كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق ، ولا يلتفتون إلى شيء من معانيه إلا مايرونه مدعاة لسرورهم في مثل قصة يوسف عليه السلام مع الغفلة عما فيها من العبرة واعلاء شأن الفضيلة ولا سيما العفة والامانة . أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالادب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها ، وتتوعد على تركه بجعله مجاوراً للكفر الذي يسوق صاحبه إلى العذاب الاليم (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون)

ثم قال تعالى ﴿ مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ يقول تعالى للمؤمنين ان هؤلاء الذين علمتم شأنهم مع أنبيائهم حسدة لايلتفت إلى تكذيبهم ولا يبالى بعدوانهم ، ولا يضركم كفرهم وعنادهم ، فهم لحسدهم لايودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم ، والقرآن أعظم الخيرات لانه النظام الكامل ، والفضل الشامل ، والهداية العظمى ، والآية الكبرى ، جمع به شملكم ، ووصل حبلكم ، ووحد شعوبكم وقبائلكم ، وطهر عقولكم من نزغات الوثنية ، وزكى نفوسكم من أدران الجاهلية ، وأقامكم على سنن الفطرة ، وشرع لكم الحنيفية السمحة ، فكيف لايحرق الحسد عليه أكبادهم ، ويخرج أضغانهم عليكم وأحقادهم ؟

(أقول) الود محبة الشيء وتمني وقوعه يطلق على كل منهما قصداً وعلى الآخر تبعاً ويكون مفعول الاول مفرداً والثاني جملة ونفيه بمعنى الكراهة فالمعنى

مايحب الذين كفروا من اليهود والنصارى ولا من المشركين أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم . أما اهل الكتاب ولا سيما اليهود فنحسدهم للعرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوة وهوما كانوا يحتكرونه لأنفسهم ، وأما المشركون فلأن في التنزيل المرة بعد المرة من قوة الاسلام ورسوخه وانتشاره ماخيب آمالهم في تربصهم الدوائر بالنبي ﷺ وانتهاء أمره .

ثم ان الله تعالى رد عليهم بما يبين جهلهم وجهل جميع الحاسدين فقال ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أي أن الحاسد لغباوته وفساد طويته يكون ساخطاً على الله تعالى ومعترضاً عليه أن أنعم على المحسود بما أنعم ، ولا يضر الله تعالى سخط الساخطين ، ولا يحول مجاري نعمه حسد الحاسدين ، فالله يختص برحمته من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم ـ أسند كلاً من هذين الأمرين الى اسم الذات الأعظم لبيان انهما حقه لذاته فليس لأحد من عبيده أدنى تأثير في منحهما ولا في منعهما

(١٠٦) مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٧) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٨) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ

قال أئمة اللغة ان أصل النسخ النقل سواء كان نقل الشيء بذاته كما يقال : نسخت الشمس الظل : أي نقلته من مكان إلى مكان ، أو نقل صورته كما يقال: نسخت الكتاب : اذا نقلت عنه صورة مثل الاولى وورد: نسخت الريح الاثر: أي أزالته . وأصل النسيان الترك أو هو غايته اللازمة له ، ومنه قوله تعالى (أتتك

آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى) أي تركتها بترك العمل بها فجزاؤك أن تُترك في العذاب فاحفظ المعنى اللغوي

﴿ الاستاذ الامام ﴾ للمفسرين في تفسير هذه الآية طريقان أحدهما أنها على حد قوله تعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر) فالنسخ هنا بمعنى التبديل أي اذا جعلنا آية بدلا من آية فاننا نجعل هذا البدل خيراً من المبدل منه أو مثله على الاقل فالآية عند هؤلاء في نسخ التلاوة، وقالوا ان المراد بالنسيان هو أن يأمر الله تعالى بعدم تلاوة الآية فتنسى بالمرة . (قال) وهذا بمعنى التبديل فما هي الفائدة في عطفه عليه بأو ؟ وهل هو الا تكرار يجل كلام الله عنه ؟

وثانيهما ان المراد نسخ حكم الآية وهو عام يشمل نسخ الحكم وحده ونسخه مع التلاوة وهذا هو القول المختار للجمهور ، وقالوا في توجيهه انه لامعنى لنسخ الآية في ذاتها ولا حاجة اليه وانما الاحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان والاحوال ، فاذا شرع حكم في وقت لشدة الحاجة اليه ثم زالت الحاجة في وقت آخر فمن الحكمة أن ينسخ الحكم ويبدل بما يوافق الوقت الآخر فيكون خيراً من الاول أو مثله في فائدته من حيث قيام المصلحة به . وقالوا إن المراد بالانساء إزالة الآية من ذاكرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد اختلف في هذا أيكون بعد التبليغ أم قبله فقيل بعده كما ورد في أصحاب بئر معونة (*) وقيل

(*) بئر معونة موضع بين الحرمين قيل لهذيل وقيل لسليم وهناك اغتيل جماعة من الصحابة اكثرهم قراء فحزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه عليهم، وروى البخاري وغيره انه نزل فيهم وحي منه حكاية عنهم « بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه » وليس كل وحي قرآنا فان للقرآن احكاما ومزايا مخصوصة وقد ورد في السنة كثير من الاحكام مسندة الى الوحي ولم يكن النبي (ص) ولا اصحابه يعدونها قرآنا، بل جميع ماقاله عليه السلام على انه دين فهو وحي عند الجمهور واستدلوا عليه بقوله (وما ينطق عن الهوى، ان هو إلا وحي يوحى) وأظهره الاحاديث القدسية . ومن لم يفهم هذه التفرقة من العلماء وقعت لهم أوهام في بعض الاحاديث رواية ودراية وزعموا أنها كانت قرآنا ونسخت

قبله حتى ان السيوطي روى في أسباب النزول ان الآية كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلا فينساها نهاراً فحزن لذلك فنزلت الآية . قال الاستاذ الامام : ولا شك عندي في أن هذه الرواية مكذوبة وان مثل هذا النسيان محال على الانبياء عليهم السلام لانهم معصومون في التبليغ والآيات الكريمة ناطقة بذلك كقوله تعالى (ان علينا جمعه وقرآنه) وقوله (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) : وقد قال المحدثون والاصوليون ان من علامة وضع الحديث مخالفته للدليل القاطع عقليا كان أو نقليا كأصول الاعتقاد وهذه المسألة منها فان هذا النسيان ينافي العصمة المجمع عليها

وقالوا في تفسير قوله تعالى بعد ماذكر ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ انه ورد مورد الاستدلال على القدرة على النسخ بالمعنى الذي قالوه أي انه لا يستنكر على الله كما زعم اليهود لانه مما تناله قدرته ثم استدل على ذلك بقوله ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض ﴾ الآية . والخطاب في (تعلم)للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد به غيره من المؤمنين الذين ربما كانوا يتمضضون من كلام اليهود وغيرهم من المعترضين على النسخ ، وضعيف الايمان يؤثر في نفسه أن يعاب ما يأخذ به فيخشى عليه من الركون الى الشبهة أو الحيرة فيها ففي الكلام تثبيت لمن كان كذلك من الضعفاء ودعم لايمانهم ، وتوجيه الكلام الى شخص يراد غيره شائع في كلام العرب والمولدين ولذلك قال بعض العلماء : نزل القرآن على طريق قولهم « اياك أعني واسمعي ياجاره » : واذا كان هذا الملك العظيم لله وحده فلا شك انه لا يعجزه أن ينسخ حكما من الاحكام . ومن آية ارادة الامة بالخطاب الالتفات عن الافراد الى الجمع بقوله ﴿ ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أي ان وليكم وناصركم هو الله تعالى وحده فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به ، ولا ينبغي أن يستهويكم انكارهم فيميلكم عن دينكم فانه لا قيمة له ولا للمنكرين اذ ليس في استطاعتهم أن يضروكم أو ينفعوكم اذا كان الله هو مولاكم وناصركم . واذا أراد الله بكم سوءا فلا يملكون أن يدفعوه عنكم

ثم قال تعالى ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾

وهذا كلام جديد منقطع عما قبله وقالوا ان (أم) هنا للاستفهام لا للاضراب لان أم التي تستعمل بمعنى (بل) يقصد بها الاضراب عن الكلام السابق ولا يظهر الاضراب هنا . هذا ما اختاره الاستاذ الامام من قولهم (قال) واستشهدوا لأم الاستفهامية بقول الشاعر :

فوالله لا أدري أهند تقولت أم القوم أم كل اليّ حبيب

وبعض المفسرين يقولون ان أم هذه منقطعة للاضراب عن عدم علمهم بالسابق إلى الاستفهام عن اقتراحهم فهي تتضمن الاضراب والاستفهام معاً ، وتجد الجلالين يقدران ذلك في تفسيرهما وقد قدرا فيه هنا « بل أتريدون » والحاصل أن المعنى هنا أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تبرما واعناتا ؟ يحذر المسلمين مافعل أولئك وقد أتبع التحذير بالوعيد فقال ﴿ ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي إن ترك الآيات الموجودة والاعراض عنها لاعنات النبي ﷺ بسؤال غيرها لتكون بدلا منها هو من اختيار الكفر على الايمان واستحباب العمى على الهدى . وبدل وتبدل واستبدل يدل على جعل شيء في موضع آخر بدلا منه والباء تقرن بالمبدل منه لا بالبدل كما أشرنا إليه في تفسير (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير).

﴿ الاستاذ الامام ﴾ هذا تقرير ماجرى عليه المفسرون في الآيات . واذا وازنا بين سياق آية (ماننسخ) وآية (واذا بدلنا آية مكان آية) نجد أن الاولى ختمت بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) والثانية بقوله (والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر) ونحن نعلم شدة العناية في أسلوب القرآن بمراعاة هذه المناسبات . فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء في الآية الثانية يقتضي أن يراد بالآيات فيها آيات الاحكام

وأما ذكر القدرة والتقرير بها في الآية الاولى فلا يناسب موضوع الاحكام ونسخها ، وانما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة فلو قال (ألم تعلم أن الله عليم حكيم) لكان لنا أن نقول انه أراد نسخ آيات الاحكام لما اقتضته الحكمة من انتهاء الزمن أو الحال التي كانت فيها تلك الاحكام موافقة للمصلحة . وقد تحير العلماء في فهم

الانساء على الوجه الذي ذكروه حتى قال بعضهم أن معنى (ننسها) نتركها على ماهي عليه من غير نسخ وأنت ترى أن هذا وإن صح لغة لايلتئم مع تفسيرهم إذ لامعنى للاتيان بخير منها مع تركها على حالها غيرمنسوخة(قال) والمعنى الصحيح الذي يلتئم مع السياق إلى آخره أن الآية هنا هي مايؤيد الله تعالى به الانبياء من الدلائل على نبوتهم أي (مانتسخ من آية)"نقيمها" دليلا على نبوة نبي من الانبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فاننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتي بخير منها في قوة الاقناع وإثبات النبوة أو مثلها في ذلك . ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه. والآية في أصل اللغة هي الدليل والحجة والعلامة على صحة الشيء وسميت جمل القرآن آيات لانها باعجازها حجج على صدق النبي ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحي من الله عز وجل ، من قبيل تسمية الخاص باسم العام .

ولقد كان من يهود من يشكك في رسالته عليه السلام بزعمهم أن النبوة محتكرة لشعب اسرائيل ، وقد تقدمت الآيات في تفنيد زعمهم هذا وقالوا (لولا أوتي مثلما أوتي موسى) أي من الآيات ؟ فرد الله تعالى عليهم في مواضع منها قوله عز وجل بعد حكاية قولهم هذا (أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل) الخ ومنها هذه الآيات والخطاب فيها للمؤمنين الذين كان اليهود يريدون تشكيكهم كأنه يقول ان قدرة الله تعالى ليست محدودة ولا مقيدة بنوع مخصوص من الآيات أو بآحاد منها لاتتناول غيرها ، وليست الحجة محصورة في الآيات السابقة لاتتعداها ، بل الله قادر على أن يأتي بخير من الآيات التي أعطاها موسى وبمثلها، فانه لايعجز قدرته شيء ، ولا يخرج عن ملكه شيء ، كما أن رحمته ليست محصورة في شعب واحد فيخصه بالنبوة، ويحصر فيه هداية الرسالة ، كلا ان رحمته وسعت كل شيء ، كما أن قدرته تتصرف بكل شيء من ملك السموات والارض الذي لا يشاركه فيه مشارك ، ولا ينازعه فيه منازع، فيكون وليا ونصيراً لمن كفر بنعمه وانحرف عن سننه

أنظر كيف أسفرت البلاغة عن وجهها في هذا المقام فظهر أن ذكر القدرة

وسعة الملك انما يناسب الآيات بمعنى الدلائل دون معنى الاحكام الشرعية والاقوال الدالة عليها من حيث هي دالة عليها لا من حيث هي دالة على النبوة . ويزيد هذا سفوراً ووضوحا قوله عقبه (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل؟) فقد كان بنو اسرائيل لم يكتفوا بما أعطي موسى من الآيات وتجرءوا على طلب غيرها (وقالوا يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وكذلك كان فرعون وقومه كلما رأوا آية طلبوا غيرها حتى رأوا تسع آيات بينات ولم يؤمنوا . وقوله تعالى (كما سئل موسى) يشمل كل ذلك

قد أرشدنا الله تعالى بهذا إلى أن التفنن في طلب الآيات وعدم الاذعان لما يجيء به النبي منها والاكتفاء به بعد العجز عن معارضته هو دأب المطبوعين على الكفر الجامدين على المعاندة والمجاحدة ، فانه قال بعد انكاره هذا الطلب (ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) ويوضح هذا قوله تعالى في آية أخرى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون) والمراد الآيات المقترحة بدليل السياق وهو اتفاق بين المفسرين . ولو كان الموضوع موضوع طلب استبدال أحكام بأحكام تنسخها لما كان للتوعد بالكفر وجه وجيه . وقوله تعالى (فقد ضل سواء السبيل) معناه أنه أخطأ وسط الجادة ومال إلى أحد الجانبين ، ومتى انحرف السائر في سيره عن الوسط يخرج عن المنهج ويبعد عنه كلما أوغل في السير فيهلك دون الوصول إلى المقصد . والمراد بسواء السبيل الحق والخير اللذان تكفل الفطرة بالاستقامة على السير في طريقهما ، ومن مال على الحق وقع في الباطل لامحالة (فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟)

هذا هو التفسير الذي تتصل به الآيات ويلتئم بعضها مع بعض على وجه يتدفق بالبلاغة، وهو الذي يتقبله العقل ويستحليه الذوق إذ لا يحتاج إلى شيء من التكلف في فهم نظمه ولا في توجيه مفرداته كالانساء والقدرة والملك[1] وقد اضطر القائلون بأن المراد بالنسخ نسخ الاحكام — مع ما علمت من التكلف — الى القول بجواز

(١) بعد نشر هذا التحقيق في المنار بزمن طويل علمت ان الشيخ محي الدين بن عربي سبق الى مثله فذكره مختصراً في تفسير له كتبه على طريق المفسرين دون الصوفية

نسيان الوحي ، وطفقوا يلتمسون الدلائل على ذلك حتى أوردوا قوله عز وجل (واذكر ربك اذا نسيت) وليس من هذا الموضوع ولا المخاطب به النبي عليه الصلاة والسلام وانما جاء على طريق الحكاية[1] وأما قوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله) فهو يؤكد عدم النسيان لأن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار كما في قوله تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) أي غير مقطوع . وقوله (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ماشاء الله) والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الامور الثابتة الدائمة انما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعتها في نفسها ولو شاء الله تعالى أن يغيرها لفعل، وهذا الاعتقاد من مهمات الدين فلا غرو أن تزاح عنه الاوهام في كل مقام يمكن أن تعرض فيه . فليس امتناع نسيان الوحي طبيعة لازمة للنبي ، وانما هو تأييد ومنحة من الله تعالى ، وليس خلود أهل الجنة في الجنة واجب عقلي أو طبيعي وانما هو بارادة الله تعالى ومشيئته

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (أو ننسأها) أي نؤخرها ولا يظهر هذا المعنى في مقام نسخ الاحكام كما يظهر في نسخ الآيات والمعجزات المقترحة على الانبياء فان الآية التي تقترح على نبي لأنها كانت لنبي قبله قد تنسخ بآية جديدة خير منها أو مثلها وقد تؤخر بالآية الجديدة ثم تعطى في وقت آخر بعد الاقتراح ولكن تأخير آيات الاحكام ليس له معنى ظاهر

---

(١٠٩) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١١٠) وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

«١» الاول لا نزاع فيه والثاني رأي الاستاذ دون الجمهور

بين الله تعالى في الآية الاولى من هاتين الآيتين أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم لم يكتفوا بكفرهم بالنبي ﷺ والكيد له ونقض ماعاهدهم عليه حسداً له ولقومه على نعمة النبوة بل هم يزيدون على ذلك ماقصه تعالى بقوله ﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الاسلام التي عرفوا أنها الحق وأن وراءها السعادة في الدارين، ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفاراً كما كانوا ، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به فكيف اذا كان يعلم أن تلك النعمة اذا تمت وثبتت يكون من آثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل وقد جاء هذا التنبيه تتمة لقوله تعالى قبل آيات (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) وقد بين الله لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب وتحيلهم على تشكيك المسلمين في دينهم كقول بعضهم لبعض بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره لعلّ ضعفاء الايمان يرجعون عن الاسلام اقتداء بهم كما سيأتي في سورة آل عمران، وفي هذه الآية وما بعدها إشارة إلى أن لذلك بعض الاثر في نفوس بعض المسلمين .

وفائدة هذا التنبيه أو التنبيهات أن يعلم المسلمون أن مايبدو من أهل الكتاب أحيانًا من إلقاء الشبه على الاسلام وتشكيك المسلمين فيه انما هو مكر السوء يبعث عليه الحسد لا النصح الذي يبعث عليه الاعتقاد . وقال (حسداً من عند أنفسهم) ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرة على حق يعتقدونه ، وانما هو خبث النفوس وفساد الاخلاق والجمود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق ، ولذلك قفاه بقوله ﴿ من بعد ماتبين لهم الحق ﴾ أي بالآيات التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام وبانطباق مايحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الاخلاق فقال ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ ولم يقل فاعفوا واصفحوا عنهم لارادة

العموم، أي عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو فان هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين (الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)

أقول العفو ترك العقاب على الذنب (ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) والصفح الاعراض عن المذنب بصفحة الوجه فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب.

(قال الاستاذ الامام) وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة لان الصفح انما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول: لايغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فانكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق ، فعاملوهم معاملة القوي العادل ، للقوي الجاهل (قال) وفي انزال المؤمنين على ضعفهم منزل الاقوياء ، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء ، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الالهية ، وأن العزة لهم ماثبتوا على حقهم ، ومهما يتصارع الحق والباطل فان الحق هو الذي يصرع الباطل كما قلنا غير مرة ، وانما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه . ثم قال تعالى ﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾ فوعدهم بأن سيمدهم بمعونته ، ويؤيدهم بنصره ، ثم أحالهم بقوله ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ على قدرته النافذة التي لايشذ عنها شيء في العالمين تأييداً للوعد وكشفاً لشبهة من عساه يقول : أنى لهذه الشرذمة القليلة العدد ، الضعيفة القوى ، أن تنتحل لنفسها وصف الملوك العالين ، وتقف مع الامم القوية موقف العافين قادرين ؟ فجاء الجواب يقول لمثل هذا المشتبه: إن الذي أوقفها هذا الموقف ، ومنحها هذا الوصف ، هو القادر على أن يهبها من القوة ماتتضاءل دونه جميع القوى ، وهو مايؤيد به سبحانه من يقوم بالحق ويثبت عليه (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) وقد فعل

(أقول) جعل شيخنا الأمر في الغاية التي قيد بها العفو والصفح واحد الأمور إذ فسره بالنصر وأكثر المفسرين جعلوه واحد الأوامر وهو الأمر بقتالهم ويعبر بعضهم بآية السيف ويعنون آية التوبة التي فيها حكم الجزية . وقال بعضهم المراد هنا الامر بقتل بني قريظة واجلاء بني النضير ، وقالوا انه توقيت لايصح أن يسمى منسوخا أي في عرف الأصوليين وإن روي عن ابن عباس

وغيره . وذلك أن النبي (ص) كان عاهد جميع اليهود المجاورين له في المدينة عهداً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم فغدروا ونقضوا العهد بموالاة المشركين عليه مراراً وكان يعفو عنهم ويصفح حتى أذن الله له بقتالهم وإجلائهم.

(قال الاستاذ) ثم بعد الوعد بالنصر والارشاد الى الاعتماد فيه على القدرة دلهم على بعض وسائل تحققه وهي الصلاة التي توثق عروة الايمان وتعلي الهمة وترفع النفس بمناجاة الله العلي الكبير، وتؤلف بين القلوب بالاجتماع لها، والتعارف في مساجدها، والزكاة التي تصل بين الاغنياء والفقراء فتتكون بانصالهم وحدة الامة حتى تكون كجسم واحد ، فقال ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ ولم تذكر اقامة الصلاة وايتاء الزكاة في موضع من الكتاب الحكيم الا والمقام يقتضي الذكر لبيان فائدة خاصة لهذا الامر لا يمكن أن تستفاد من ذكرهما في موضع آخر

وقد تقدم أن اقامة الصلاة ليست عبارة عن أدائها مطلقا ، وانما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية وذلك بالتوجه الى الله تعالى ومناجاته والانقطاع اليه عما عداه واشعار القلب عظمته وكبرياءه فبهذا الشعور ينمو الايمان وتقوى الثقة بالله ، وتتنزه النفس أن تأتي الفواحش والمنكرات ، وتستنير البصيرة فتكون أقوى نفاذاً في الحق وأشد بعداً عن الاهواء ، فنفوس المصلين جديرة بالنصر لما تعطيها الصلاة من القوة المعنوية ومن الثقة بقدرة الله تعالى ، فاذا كان قوله تعالى بعد الوعد بالنصر (إن الله على كل شيء قدير) دليلا أيد به الوعد فقوله (وأقيموا الصلاة) هداية إلى طريق الاقتناع التام بهذا الدليل حتى يكون وجداناً للنفس لا تزلزله الشبهات ، ولا تؤثر فيه المشاغبات والمجادلات

وقد مضت سنة القرآن بقرن الزكاة بالصلاة لان الصلاة لاصلاح نفوس الافراد ، والزكاة لاصلاح شئون الاجتماع . ثم ان فيها من معنى العبادة ما في الصلاة فان المال — كما يقولون — شقيق الروح فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله تعالى كان بذله مزيداً في إيمانه فهي إصلاح روحي أيضاً .

وبعد أن أمر بالصلاة والزكاة في سياق كشف شبهة من يشتبه من ضعفاء الايمان في نصر الله المؤمنين ، وجعل السلطان لهم على الكافرين ، وبيان أن إقامة

هذين الركنين من وسائل النصر والسلطان في الدنيا بيّن لهم أنهما من أسباب السعادة في الآخرة فقال ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عندالله ﴾ ولكن البيان جاء في صورة عامة وهذا من الاساليب التي لا تكاد تجد لها في غير القرآن نظيراً — ينتقل من بيان حكم إلى آخر فيكون الثاني قائماً بنفسه وشاملا للأول بعمومه وتكون صلة العموم والخصوص هي الرابط في النظم . وقوله تعالى (تجدوه) هو كقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وقالوا ان المراد أنه يرى ويجد جزاءه ، ولكن لما كان الجزاء مبنياً على أثر العمل في نفس العامل وارتقائها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه . ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الاحسان فيه ويدل على تحققه فقال ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ فلا يخفى عليه منه شيء فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئاً

﴿ الاستاذ الامام ﴾ هذه الآيات هي آخر ماأدب الله تعالى به المؤمنين في هذا المقام على مايخامر البعض منهم وما يعنّ له من الشبه في مستقبل الاسلام وتأييده تعالى لنبيه وإعزازه لحزبه وكان أولها قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا) وكأن منشأ تلك الخواطر هو مايرونه في التنزيل المرة بعد المرة وما يشاهدونه من عمل النبي عليه الصلاة والسلام من الجزم بأن الاسباب مقرونة بمسبباتها وأن حوادث الكون جارية على سنن مطردة ، وما كان هذا الفريق من المؤمنين يعلم قبل إعلام الله تعالى إياهم بأن الايمان الصحيح الذي يتوكل صاحبه بعد اتخاذ الاسباب والوسائل على القدرة الالهية والعناية الغيبية ، وعمل الصالحات الذي يصلح النفوس، ويؤلف مع الاعتقاد بين القلوب، هما أكبر أسباب القوة ، وأقرب وسائل السيادة والسعادة ، وقد جاء هذا الارشاد والتأديب في سياق الكلام على أهل الكتاب لان مكرهم السيء كان مثاراً لبعض الخواطر في المسلمين فالكلام تأديب للمؤمنين ورد على اليهود . ثم انتقل إلى الكلام على أهل الكتاب عامة وما يلام عليه الفريقان منهم ـ اليهود والنصارى ـ فقال

---

(١١١) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى . تِلْكَ

أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١٢) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ. كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

هذا بيان لحالين آخرين من أحوال أهل الكتاب في غرورهم بدينهم ما كان المسلمون قبل نزول الآيات يعرفونها ـ أما الاولى فما بينه تعالى بقوله ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ وهو عطف على قوله (ودّ كثير من أهل الكتاب) أي قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى كذلك في أنفسهم، وهو اختصار بديع غير مخل، وهذه عقيدة الفريقين إلى اليوم ولا ينافي انسحاب حكمها على الآخرين أن نفراً من الاولين قالوا ذلك بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام كما يروى. وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لاحجة له في كتبهم المنزلة فقال ﴿ تلك أمانيهم . قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ والاماني جمع أمنية وهي مايتمناه المرء ولا يدركه . وهذا القول ناطق بأمنية واحدة ولكنها تتضمن أماني متعددة هي لوازم لها كنجاتهم من العذاب وكوقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم ، ولهذا ذكر الاماني بالجمع ولم يقل تلك أمنيتهم . وقد انفرد بهذا الوجه الاستاذ الامام وهناك وجوه أخرى وهي أن الاشارة بتلك أمانيهم لقوله (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب) الآية وقوله (ود كثير) وقوله (وقالوا لن يدخل الجنة) وقيل ان في الكلام مضافا محذوفا أي أمثال تلك الامنية أمانيهم ، ثم طالبهم تعالى بالبرهان على دعواهم فقرر لنا قاعدة لاتوجد في غير القرآن من الكتب السماوية وهي أنه لا يقبل من أحد قول لادليل عليه ، ولا

يحكم لاحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها ، ذلك أن الامم التي خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر ومعرفة الامور بأدلتها وبراهينها ولذلك اكتفي منهم بتقليد الانبياء فيما يبلغونهم وإن لم يعرفوا برهانه، فهم مكلفون أن يفعلوا مايؤمرون سواء عرفوا لماذا أمروا أم لم يعرفوا ، ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقد فسروا البصيرة بالحجة الواضحة، ويستدل على قدرة الله وارادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية وهي كثيرة جداً في القرآن، وبالادلة النظرية والعقلية كقوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وغير ذلك ، ويستدل على الاحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات والافضاء إلى المنافع

علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة ، لانه أقامهم على سواء المحجة ، وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه اليه . وعلى هذا درج سلف هذه الامة الصالح قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل ونهوا عن الاخذ بشيء من غير دليل ، ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد ، وأمر بالتقليد ، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد ، حتى كأن الاسلام خرج عن حده ، أو انقلب إلى ضده ، وصار الذين يعلمون ان الاسلام امتاز عن سائر الاديان بابطال التقليد ، وبالمطالبة بالبرهان والدليل، وعلم الناس استقلال الفكر، مع المشاورة في الامر، يطالبون المسلمين بالرجوع إلى الدليل ، ويعيبون عليهم الاخذ بقال وقيل، ويا ليته كان الاخذ بقال الله ، وقيل فيما يروى عن رسول الله ، ولكنه الاخذ بقال فلان وقيل عن علان (ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)

قال تعالى رداً عليهم ﴿ بلى ﴾ وهي كلمة تذكر في الجواب لاثبات نفي سابق فهي مبطلة لقولهم (لن يدخل الجنة) الخ ، أي بلى انه يدخلها من لم يكن هوداً ولا نصارى لان رحمة الله ليست خاصة بشعب دون شعب ، وانما هي مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، وهو ما بينه سبحانه وتعالى بقوله ﴿ من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ﴾ اسلام الوجه لله هو التوجه اليه وحده وتخصيصه

بالعبادة دون سواه كما أشار الى ذلك في قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وغيرها من الآيات : وقد عبر هنا عن اسلام القلب وصحة القصد الى الشيء باسلام الوجه كما عبر عنه بتوجيه الوجه في قوله تعالى حكاية عن ابراهيم (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض) لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه لا يوليه دبره، فلما كان توجيه الوجه إلى شيء له جهة تابعاً لقصده واشتغال القلب به عبر عنه به وجعل التوجه بالوجه إلى جهة مخصوصة (وهي القبلة) بأمر الله مذكراً باقبال القلب على الله الذي لا تحدده الجهات، فالانسان يتضرع ويسجد لله تعالى بوجهه وعلى الوجه يظهر أثر الخشوع . وظاهر أن المراد من اسلام الوجه لله توحيده بالعبادة والاخلاص له في العمل، بأن لا يجعل العبد بينه وبينه وسطاء يقربونه اليه زلفى، فانه أقرب إليه من حبل الوريد . ومن هنا يفهم معنى الاسلام الذي يكون به المرء مسلماً

ذكر التوحيد والايمان الخالص ولم يحمل عليه الوعد بالأجر عند الله تعالى واستحقاق الكرامة في دار المقامة إلا بعد أن قيده باحسان العمل فقال (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) وتلك سنة القرآن تقرن الايمان بعمل الصالحات كقوله (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) وهذا في معنى الآيات التي نفسرها. نفى أماني المسلمين كما نفى أمانيّ أهل الكتاب ، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطا بالايمان والعمل الصالح معاً . وكقوله (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) الآية

ثم بعد أن أثبت للمسلم وجهه إلى الله والمحسن في عمله الاجر عند الله نفى عنه الخوف الذي يرهق الكافرين والمسيئين في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة والحزن الذي يصيبهم فقال ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ولا شك أن المخاوف والاحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية ، وأساؤا أعمالهم بالاعراض عن الهداية الدينية

ترى أصحاب النزغات الوثنية في خوف دائم مما لا يخيف لأنهم يعتقدون

بثبوت السلطة الغيبية القاهرة لكل مايظهر لهم منه عمل لايهتدون إلى سببه ولا يعرفون تأويله ، يستخذون للدجالين والمشعوذين ، ويرتعدون من حوادث الطبيعة الغريبة ، اذا لاح لهم نجم مذنب تخيلوا أنه منذر يهددهم بالهلاك ، واذا أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد توهموا أنها من تصرف بعض العباد ، وتراهم في جزع وهلع من حدوث الحوادث ، ونزول الكوارث ، لايصبرون في البأساء والضراء ، ولا ينفقون في الرخاء والسراء (إن الانسان خلق هلوعاً * اذا مسه الشر جزوعاً * واذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) هـذه حال من فقد التوحيد الخالص وحرم من العمل الصالح في هذه الحياة الدنيا (ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون) وانما كان صاحب النزغات الوثنية في خوف ممايستقبله ، وحزن مما ينزل به ، لأن مااخترعه له وهمه من السلطة الغيبية لغير الله التي يحكمها في نفسه ، ويجعلها حجابا بينه وبين ربه ، لايمكنه أن يعتمد في الشدائد عليها ، ولا يجد عندها غناء اذا هو لجأ اليها ، وما هو من سلطتها على يقين ، وانما هو من الظانين أو الواهمين

وأما ذو التوحيد الخالص فهو يعلم أنه لافاعل إلا الله تعالى وأنه من رحمته قد هدى الانسان إلى السنن الحكيمة التي يجري عليها في أفعاله ، فاذا أصابه مايكره بحث في سببه واجتهد في تلافيه من السنة التي سنها الله تعالى لذلك ، فان كان أمراً لامرد له سلم أمره فيه إلى الفاعل الحكيم ، فلا يحار ولا يضطرب لان سنده قوي عزيز ، والقوة التي يلجأ اليها كبيرة لايعجزها شيء ، فاذا نزل به سبب الحزن أو عرض له مقتضي الخوف لايكون أثرهما إلا كا يطيف الخاطر بالبال ، ولا يلبث أن يعرض له الزوال (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فكأنه تعـالى يقول لأهل الكتاب : لاتغرنكم الاماني ولا يخدعنكم الانتساب الباطل إلى الانبياء ، فهذه هي طريق الجنة ، أسلموا وجوهكم لله تسلموا ، واعملوا الصالحات تؤجروا ، وقد أفرد الضمير في قوله (فله أجره) مراعاة للفظ (من) وجمعه في قوله (ولا خوف عليهم) الخ مراعاة لمعناها

بعد أن ذكر تزكية كل فريق من أهل الكتاب نفسه وحكمه بحرمان غيره

من رحمة الله كيفما كانت حاله ذكر طعن كل فريق منهما بالآخر خاصة فقال ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ من الدين حقيقي يعتد به ، فالشيء في اللغة هو الموجود المتحقق والاعتقادات الخيالية التي لا تنطبق على موجود في الخارج لا تسمى شيئاً فكفروا عيسى وهم يتلون التوراة التي تبشر به وتذكر من العلامات ماينطبق عليه ، ولا تزال اليهود إلى اليوم تدعي أن المسيح المبشر به في التوراة لما يأت وتنتظر ظهوره وإعادته الملك إلى شعب اسرائيل ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ من الدين حقيقي يعتد به لانكارهم المسيح المتمم لشريعتهم، يقول كل فريق منهم مايقول ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أي يتلو كل منهم كتابه فكتاب الاولين (التوراة) يبشر برسول منهم ظهر ولم يؤمنوا به فهم مخالفون لكتابهم ، وكتاب الآخرين (الانجيل) يقول بلسان المسيح انه جاء متمما لناموس موسى لا ناقضاً له وهم قد نقضوه ، فدينهم واحد ترك بعضهم أوله وبعضهم آخره فلم يؤمن به كله أحد منهم، والكتاب الذي يقرءون حجة عليهم

ثم قال تعالى ﴿كذلك﴾ أي نحو ذلك السخف والجزاف ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ من مشركي العرب وغيرهم من أهل الملل ﴿مثل قولهم﴾ تعصب كل لملته التي جعلها جنسية وزعم أنها هي المنجية لكل من وسم بها ، ورضي باسمها ولقبها، والحق وراء جميع المزاعم لا يتقيد بأسماء ولا ألقاب، وانما هو إيمان خالص وعمل صالح ، ولو اهتدى الناس إلى هذا لما تفرقوا في الدين واختلفوا في أصوله ولكنهم تعصبوا وتحزبوا لاهوائهم ، فتفرقوا واختلفوا في آرائهم ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فانه هو العليم بما عليه كل فريق من حق وباطل . ولم يبين لنا تعالى هنا بماذا يحكم . وقال بعض المفسرين إنه يكذبهم جميعاً ثم يلقيهم في النار ، ولكن الذي يدل عليه القرآن أنه يحق الحق ويجعل أهله في النعيم ، ويبطل الباطل ويلقي بأهله في الجحيم

هذا هو معنى الآية ويروى في سبب نزولها أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبي ﷺ فقال كل فريق منهم ماقال في انكار حقيقة دين

الآخر . قال الاستاذ الامام : ان فهم الآية لايتوقف على هذه الرواية فالآية تحكي لنا اعتقاد كل طائفة بالاخرى سواء قال ذلك من ذكر أو لم يقله . على أن مايروى في أسباب النزول من مثل ذلك هو من تاريخ الآيات وما فيها من الوقائع ، وما روي في أسباب النزول عندنا غير كاف في ذلك فلا بدّ لنا من البحث والاطلاع على تاريخ الملل والامم التي تكلم عنها القرآن لأجل أن نفهمه تمام الفهم ونعرف مايحكيه عنهم من العقائد والشئون والاعمال هل كان عاما فيهم أو كان في طائفة منهم وأسند إلى الامة لما نبهنا عليه مراراً من ارادة تكافلها ومؤاخذة الجميع بما يصدر عن بعض الافراد لأنهم كلفوا إزالة المنكر والتناهي عنه؟

والعبرة في الآية أن أهل الكتاب في تضليل بعضهم بعضاً واعتقاد كل واحد في الآخر أنه ليس على شيء حقيقي من أمر الدين مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى ، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود ، قد صاروا الى حال من التهافت واتباع الاهواء لايعتد معها بقول أحد منهم فى نفسه ولا في غيره، فطعنهم في النبي عليه الصلاة والسلام واعراضهم عن الايمان به لاينهض حجة على كونهم علموا أنه مخالف للحق ، بل لايصلح شبهة على ذلك لانهم أهل أهواء ، وتعصب للمذاهب المبتدعة والآراء ، فاذا كانت اليهود كفرت بعيسى وأنكرته وهو منهم وهم ينتظرونه لاعادة مجدهم وتجديد عزهم ، واذا كانت النصارى قد رفضت التوراة وكفرت أهلها وهي حجتهم على دينهم ، فكيف يعتد بكفر هؤلاء وهؤلاء بمحمد ﷺ وهو من شعب غير شعبهم ، وقد جاء بشريعة ناسخة لشرائعهم ، وهم لايفهمون من الدين إلا أنه جنسية دنيوية لهم ؟ ؟

وفي الآية إرشاد إلى بطلان التقليد مؤيد لما في الآية التي تطالب المدعي بالبرهان ، وإلى النعي على المقلدين المتعصبين لآرائهم ، المتبعين لاهوائهم ، وإلى التحري في الحكم على الشيء يعتقد الحاكم بطلانه لأنه مخالف لما يعتقده ، فلا ينبغي للعاقل أن يحكم على شيء إلا بعد البحث والتحري ومعرفة مكان الخطأ والتزييل بينه وبين ماعساه يكون معه صوابا . ألم تر أن سياق الآيات ناطق بانكار حكم كل من الفريقين على الآخر من غير بينة ولا برهان ، ولا فصل ولا فرقان ، مع

أن كل واحد منهم على شيء من الحق وشيء من الباطل لان أصل دينه حق ثم طرأت عليه نزغات الوثنية والبدع وعرض له التحريف والتأويل ، فتجريده من كل حق لم يكن إلا تعصباً للتقاليد من غير بينة ولا تمحيص ، وأنى للمقلدين بذلك؟ وانظر كيف ألحق التقليدُ أهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الالهي بالمشركين الذين لا يعلمون منه شيئاً ؟ هذا ما فعله التقليد بهم وبمن بعدهم لأنه عدو للعلم في كل زمان وكل مكان

---

(١١٤) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٥) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٦) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٧) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

الكلام في أهل الكتاب عامة ومن على شاكلتهم ، فقوله تعالى ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ﴾ الآية فيه وجوه (أحدها) أنه يشير إلى حادثة وقعت بعد المسيح بسبعين سنة وهي دخول تيطس الروماني بيت المقدس وتخريبها حتى صارت المدينة تلا من التراب ، وهدمه هيكل سليمان عليه السلام حتى لم يبق منه إلا بعض الجدر المدعثرة ، وإحراقه ما كان عند اليهود من نسخ التوراة ، وكان المسيح عليه السلام قد أوعد اليهود بذلك . وقال بعض المفسرين إن أتباع المسيح هم الذين هيجوا الرومانيين وأغروهم بهذا العمل

قال الاستاذ الامام: ولا أدري هل يصح هذا الخبر أم لا فان قائليه لم يأتوا عليه بأدلة ولا بنقول تاريخية ، ولكنني أعلم أن المسيحيين على قلتهم وتشتتهم

واستخفائهم من اضطهاد اليهود كانوا قد وصلوا إلى (رومية) وكانوا يودون الايقاع باليهود الذين اضطروهم إلى الخروج من بلادهم انتقاما منهم وتحقيقا لوعيد المسيح ، وأن الرومانيين - وإن كانوا وثنيين يرون أن اليهود ليسوا على شيء - لم تكن حروبهم دينية وانما كانوا يحاربون اليهود وغيرهم لشغبهم وفتنهم أو للطمع في بلادهم وذلك لا يقضي بهدم المعبد واحراق كتب الدين. فهذه قرائن ترجح أنه كان للمسيحيين يد في اغارة تيطس، ولكن لايجزم به الا اذا وجد نقل تاريخي صحيح يؤيد الخبر

ومن الغريب أن ابن جرير الطبري قال في تفسيره إن الآية في اتحاد المسيحيين مع بختنصر البابلي على تخريب بيت المقدس مع أن حادثة بختنصر كانت قبل وجود المسيح والمسيحية بست مئة وثلاث وثلاثين سنة . ولو لم يكن مؤرخا من أكبر المؤرخين لالتمس له العذر بحمل قوله على حادثة أدرينال الروماني الذي جاء بعد المسيح بمئة وثلاثين سنة ، وبنى مدينة على اطلال أورشليم وزينها وجعل فيها الحمامات، وبنى هيكلا للمشتري على أطلال هيكل سليمان، وحرم على اليهود دخول هذه المدينة وجعل جزاء من يدخلها القتل، فلذلك كان اليهود يسمونه بختنصر الثاني لشدة ماقاسوا من ظلمه واضطهاده . ولكن هذا لايصح أن يكون عذراً للمؤرخ

(الثاني) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) نزل في منع مشركي العرب النبي وأصحابه من دخول مكة في قصة عمرة الحديبية وقالوا إن حادثة الرومانيين كانت قد طال عليها الامد فلا مناسبة لارادتها بالآية . واعترض هذا القول بأن مشركي العرب ماسعوا في خراب الكعبة ، بل كانوا عمروها في الجاهلية وكانوا يعظمونها ويرونها مناط عزهم ومحل شرفهم وفخرهم . وقال (الاستاذ الامام) يصح أن تكون الآية في الامرين على التوزيع فالذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم مشركو مكة والذين سعوا في خرابها هم مشركو الرومانيين . ويكون قرن ماعمل المشركون من منع البيت الحرام أن يذكر فيه اسم الله بزيارة النبي وأصحابه بما عمل من قبلهم من مشركي الرومانيين من التخريب من قبيل الاشارة إلى تساوي الفعلين في القبح

(الثالث) أن الكلام في أهل الكتاب وأن الآية ليست منبئة بأمر وقع ،

ولكن بأمر سيقع ، وهو ماكان بعـد ذلك من اغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين وصدهم إياهم عن المسجد الاقصى وتخريبهم كثيراً من المساجد

(الرابع) وهو مبني أيضاً على أن الآية منبئة عن أمر سيقع أن المراد بها حادثة القرامطة الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منهـا وهدموا كثيراً من المساجد . كأنه بعد أن ذكر حال أهل الكتاب في طعن اليهود منهم بالنصارى وقولهم فيهم إنهم ليسوا على شيء من الدين وطعن النصارى في اليهود كذلك وبعد قوله في المشركين الذين لايعلمون الكتاب انهم قالوا مثل قولهم لم يبق إلا ماسيقع للمسلمين وفي المسلمين فأنبأ الله تعالى بهذه الحادثة من الاخبار بالغيب فوقعت وكانت حادثتهم من أكبر الاحداث في المسلمين فانهم استولوا على جزء كبير من ممالك الاسلام وهدموا المساجد وعاثوا في الارض فساداً ولم يكن في أيام الحروب الصليبية على طولها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة مثلما كان على عهد القرامطة فالآيات على هذا مبينة لاحوال جميع الملل

(قال شيخنا) سواء كانت الآية في حادثة واقعة أو منتظرة أم كانت وعيداً للذين لايحترمون المعابد على الاطلاق ، هي على كل حال ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح وبتحريم السعي في خراب المعابد ، وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون في خرابها - أي هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها - بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من استفهام الانكار لان المنع من ذكر الله تعالى وابطال شعائر المعابد التي تذكر به وتشعر القلوب عظمته انتهاك لحرمة الدين يفضي إلى نسيان الناس الرقيب المهيمن عليهم فيمـون كالهمل وتفشو فيهم المنكرات والفواحش ، وانتهاك الحرمات ، وهضم الحقوق ، وسفك الدماء . وعبادة الله تعالى بذكره والصلاة له تنهى بطبيعتها عن الفحشاء والمنكر ، ولا ينافي ذلك ماعساه يطرأ على العبادة أو يوجد في المساجد من الاشياء المبتدعة التي لم يأمر بها الكتاب . فمن علم بهذه البدع فعليه أن ينكرها ويسعى في إزالتها ولا يجوز له السعي في إزالة المعابد من الارض لما في ذلك من الفساد الذي أشرنا اليه . وهذا هو السر في حكم الشريعة الاسلامية باحترام كنائس أهل الكتاب

وبيعهم وصوامعهم وعبادهم واحترام معابد الذين لهم شبهة كتاب أيضاً كالمجوس والصابئين ، بل الاستاذ الامام يعد الصابئين من أهل الكتاب . وأما الوثنيون الخلص الذين اتخذوا من دون الله أولياء ويبنون المساجد لذكر غيره والتقرب إلى سواه فهؤلاء لم يتعرض لذكرهم ولم يتوعد من يمنعهم من سخفهم

(أقول) لكن ذكر بعض الفقهاء أنه يجب هدم ما بني من المساجد والقباب على قبور كثير من الائمة آل البيت وأئمة الفقه وغيرهم من الصالحين ، وارتكبوا فيها المحظورات الكثيرة التي يعد بعضها من الشرك الصريح وبعضها من البدع والمعاصي ولا سيما المعاصي التي تفعل تديناً وتقربا وتوسلا إلى الله تعالى كما ترى في كتاب الزواجر للفقيه ابن حجر من فقهاء الشافعية وغيره من كتبهم وفي كثير من كتب الحنابلة ويحتجون بهدم النبي صلى الله عليه وسلم لمسجد الضرار ، وانما يعني شيخنا بتعطيل المساجد هنا ابطال التدين والعبادة مطلقا كما يعلم مما يأتي لا ابطال البدع التي شوهت الاسلام

ثم قال تعالى في شأن المعتدين على المساجد ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ أي فكيف يدخلونها مفسدين ومخربين ، ولا ينبغي للعاقل أن يقدم على أمر إلا بعد النظر فيه والعلم بدرجة نفعه أو ضره . وما كانت عبادة الله تعالى إلا نافعة وما كان تركها إلا ضاراً . وما عساه يوجد في عبادات الامم من الخرافات الضارة فانما المكروه منه ما فيه مما يبعد عن عبادة الله تعالى ويوقع في اشراك غيره فيها . على أن العبادة الممزوجة بنزغات الوثنية ، أهون من التعطيل القاضي بالجحود المطلق ، لذلك توعد الله تعالى أولئك المعتدين الظالمين بقوله ﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ فأما خزي الدنيا فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران ، المفضي إلى الذل والهوان، وناهيك بظلم يحل القيود ، ويهدم الحدود ، ويغري الناس بالفواحش والمنكرات ، ويسهل عليهم سبل الشرور والموبقات ، وهو ظلم ابطال العبادة من المساجد ، والسعي في خراب المعابد ، اذا وقع هذا الظلم كان الحاكم الظالم مخذولا في حكمه، والفاتح الظالم غير أمين في فتحه ، واذا أردت

تطبيق ذلك على من نسب اليهم هذا الظلم فانظر ماذا حل بالرومانيين، وماذا كانت عاقبة العرب المشركين ، وبماذا انتهي عدوان الصليبيين ، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين، وأما عذاب الآخرة فالله أعلم به ونحن بوعده ووعيده من المؤمنين

ثم قال تعالى ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ ذهب المفسر (الجلال) إلى أن المراد بالمشرق والمغرب الارض كلها لانهما ناحيتاها وقال في قوله ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ أي أيّ مكان تستقبلونه في صلاتكم فهناك وجه القبلة التى أمر الله بأن يتوجه اليها . ووجه الاستاذ الامام هذا بقوله إن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ولما كان سبحانه منزهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيلا شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم اياه وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى . ثم قال :

هذه الآية متصلة بما قبلها وهو قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله)الخ وأكثر المفسرين على خلاف ماقال الجلال في تفسير المشرق والمغرب : قالوا إن المراد بهما الجهتان المعلومتان لكل أحد ولذلك خصهما بالذكر فهو كقوله تعالى (رب المشرقين ورب المغربين) وهو يستلزم ماقاله الجلال فان المراد على كل حال: أية جهة استقبلت وتوجهت اليها في صلاتك فأنت متوجه إلى الله تعالى لان كل الجهات له ﴿ إن الله واسع ﴾ لايتحدد ولا يحصر فيصح أن يتوجه اليه في كل مكان ﴿ عليم ﴾ بالمتوجه اليه أينما كان، أي فاعبد الله حيثما كنت، وتوجه اليه أينما حللت ، ولا تتقيد بالامكنة فان معبودك غير مقيد . أقول بل هو فوق كل شيء بائنا منه

وأزيد على ذلك أن بعض رواة المأثور قالوا إن هذه الآية نزلت قبل الامر بالتوجه الى قبلة معينة وقال آخرون إنها نزلت في تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، ولكن هذا فيه آيات مفصلة ستأتي في أول الجزء الثاني من هذه السورة وقال بعضهم إنها نزلت في صلاة التطوع في السفر لايشترط فيها استقبال القبلة . وقال آخرون انهـا فيمن يجتهدون في القبلة فيخطئون فان صلاتهم صحيحة لان إيجاب استقبال جهة معينة إنما هو للمعنى الاجتماعي في الصلاة ووحدة الامة فيها . والتعليل يصح في كل قول من هذه الاقوال ، فانه أينما توجه المصلي في

صلاته الصحيحة فهو متوجه الى الله تعالى لا يقصد بصلاته غيره وهو تعالى مقبل عليه راض عنه . ومن المعلوم أن أهل الكتاب يلتزمون في صلاتهم جهة معينة كالتزام النصارى جهة المشرق وأن استقبال المسلمين الكعبة يقتضي أن يصلي أهل كل قطر الى جهة من الجهات الاربع فهم يصلون الى جميع الجهات ، ولا ينافي ذلك توجههم الى الله تعالى . والوجه هنا قيل إنه بمعنى الجهة وهو صحيح لغة ، والمعنى فهناك القبلة التي يرضاها لكم . وقيل انه على حد (مايكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم)

ووجه المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها ظاهر على هذا التفسير فان فيها ابطال ما كان عليه أهل الملل السابقة من اعتقاد أن العبادة لله تعالى لا يصح أن تكون الا في الهيكل والمعبد المخصوص ، وفي ابطال هذا ازالة ماعساه يتوهم من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه من أنه وعيد على ابطال العبادة في المواضع المخصوصة لانه ابطال لها بالمرة اذ لا تصح الا في تلك المواضع فهذه الآية تنفي ذلك التوهم من حيث تثبت لنا قاعدة من أهم قواعد الاعتقاد وهي أن الله تعالى لا تحده الجهات ، ولا تحصره الامكنة ، ولا يتقرب اليه بالبقاع والمعاهد ، ولا تنحصر عبادته في الهيا كل والمساجد ، وانما ذلك الوعيد لانتهاك حرمات الله وابطال نوع من أنواع عبادته وهو العبادة الاجتماعية التي يجتمع لها الناس في أشرف المعاهد على خير الاعمال التي تطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم

وهذا الضرب من البيان مما امتاز به القرآن على سائر الكلام فانك لترى فيه فنونا من الاستدراك والاحتراس قد جاءت في خلال القصص وسياق الاحكام ، تقرأ الآية في حكم من الاحكام ، أو عظة من المواعظ ، أو واقعة تاريخية فيها عبرة من العبر ، فتراها مستقلة بالبيان ، ولكنها باتصالها بما قبلها قد أزالت وهما ، أو تممت حكما ، وكان ينبغي لاهل العربية أن يقتبسوا هذه الضروب من البيان ، ويتوسعوا بها في أساليب الكلام ، فان القرآن قد اطلق لهم اللغة من عقالها ، وعلمهم من الاساليب الرفيعة ما كانت تستحليه أذواقهم ، وتنفعل له قلوبهم ، وتهتزله نفوسهم ، وتتحرك به أريحتهم ، ولكنهم لم يوفقوا لاقتباس هذه الاساليب

الجديدة ، على أن ملكتهم في حسن البيان ، قد ارتقت بعد نزول القرآن ، .

(قال الاستاذ الامام) وسنعطي هذا الموضوع حقه من البيان في موضع تكون مناسبته أقوى من هذه المناسبة

ثم عاد الكتاب الى النسق السابق في تعداد مخازي أهل الكتاب والمشركين بعد ما ذكر من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ما ذكر وبين انه يعبد في كل مكان فقال جل وعز ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا ﴾ فهذا عطف على قوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى) وقوله (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء) الخ ويصح أن ينسب هذا الى اليهود والنصارى والذين لا يعلمون جميعا والى فرقة واحدة منهم . ووجه العموم أن الله تعالى أخبرنا في مواضع من كتابه بان اليهود قالت : عزير ابن الله : وان النصارى قالت: المسيح ابن الله : وأن المشركين قالوا : إن الملائكة بنات الله . ولا فرق في الاحكام التي تسند الى الامم بين كونها صدرت من جميع أفراد الامة أو صدرت من بعضهم فان مثل هذا الاسناد منبيء بتكافل الامم كما تقدم غير مرة. وقد نقل أن كلمة : عزير ابن الله : قالها بعض اليهود لا كلهم و كذلك اعتقاد كون الملائكة بنات الله لم يكن عاما في مشركي العرب وانما عرف عن بعضهم . ثم رد على مدعي اتخاذ الولد بقوله ﴿ سبحانه بل له ما في السموات والارض كل له قانتون ﴾ نزه تعالى نفسه بكلمة (سبحانه) التي تفيد التنزيه ، مع التعجب مما ينافيه ، كأن الذي يعرفه تعالى لا ينبغي أن يصدر عنه مثل هذا القول الذي يشعر بان له تعالى جنسا يماثله ، فان قائل ذلك لا يكون على علم بالله تعالى وانما يكون زاعما فيه المزاعم وظانا فيه الظنون ، أي تنزيها له أن يكون له ولد كما زعم هؤلاء الجاهلون الظانون بالله غير الحق ، فانه لا جنس له فيكون له ولد منه، وهذا الولد الذي نسبوه اليه تعالى لا بد أن يكون من العالم العلوي وهو السماء أو من العالم السفلي وهو الارض ، ولا يصلح شيء منهما أن يكون مجانسا له عز وجل ، لان جميع ما في السموات والارض ملك له قانت لعزته وجلاله ، أي خاضع لقهره مسخر لمشيئته، فاذا كانوا سواء في كونهم مسخرين له بفطرتهم ، منقادين لارادته

بطبيعتهم واستعدادهم ، فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب اليه وجعله ولدا مجانسا له (ان كل من في السموات والارض إلا آتي الرحمن عبدا) نعم ان له سبحانه أن يختص من شاء بما شاء كما اختص الانبياء بالوحي ولكن هذا التخصيص لا يرتقي بالمخلوق إلى مرتبة الخالق ، ولا يعرج بالموجود الممكن الى درجة الوجود الواجب ، وإنما يودع سبحانه في فطرة من شاء ما يؤهله لما شاء منه (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وليست شبهة الذين اتخذوا بعض البشر آلهة بأمثل من شبهة الذين اتخذوا بعض الكواكب آلهة إذ التفاوت بين الشمس والقمر أظهر مثلا من التفاوت بين المسيح وبين سائر الناس الذين عبدوه وقالوا هو ابن الله أو هو الله

وقد غلب في الملكية ما لا يعقل فقال (له ما في السموات) الخ لان المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار لا التسخير الشرعي المعبر عنه بالتكليف الذي يفعله الكاسب باختياره . ويستوي في التسخير الطبيعي العاقل وغيره ولكنه في غير العاقل أظهر . ولما ذكر القنوت له تعالى جمعه بضمير العاقل فغلب فيه العقلاء لان من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بوجبه ويفعله باختياره ، وإن كان لغير العاقل قنوت يليق به . وجملة القول ان الآية ناطقة بأن ما في السموات والارض ملك لله تعالى ومسخر لارادته ومشيئته لا فرق بين العاقل وغيره ، فقد حكم على الجميع بالملكية وبالقنوت الذي يراد به التسخير وقبول تعلق الارادة والقدرة ، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التي تستعمل غالبا في غير العاقل وهي كلمة (ما) لان المعهود في ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل ، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء لانه من أعمالهم ومما يعهد منهم ويسند اليهم لغة وعرفا . وهذا كما ترى من أدق التعبير وألطفه ، وأعلى البيان وأشرفه

ثم زاد هذين الحكمين بيانا وتأكيدا فقال ﴿ بديع السموات والارض ﴾ قال المفسرون ان البديع بمعنى المبدع فهو مشتق من الرباعي «أبدع» واستشهدوا ببيت من كلام عمرو بن معدي كرب جاء فيه (سميع) بمعنى مسمع ، وقالوا قد تعاقب

فعيل ومفعل في حروف كثيرة كحكيم ومحكم وقعيد ومقعد وسخين ومسخن .
وقالوا إن الابداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سبق وهو لا يقتضي سبق المادة ، وأما الخلق فمعناه التقدير وهو يقتضي شيئا موجودا يقع فيه التقدير. وإذا كان هو المبدع للسموات والارض والمخترع لهما والموجد لجميع ما فيهما فكيف يصح أن ينسب اليه شيء منهما على أنه جنس له ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا

وكان الاصمعي ينكر فعيلا بمعنى مفعل لان القياس بناؤه من الثلاثي ويقول ان بديعا صفة مشبهة بمعنى لا نظير له ، وبديع السموات معناه البديعة سمواته وفي هذا ترك للقياس الذي قضى في الصفة المشبهة التي تضاف إلى الفاعل أن تكون متضمنة ضميرا يعود على الموصوف ، والحق ان تحكيم القياس فيما ثبت من كلام العرب تحكيم جائر ، فما كان للدخيل في القوم أن يعمد إلى طائفة من كلامهم فيضع لها قانونا يبطل به كلاما آخر ثبت عنهم ويعده خارجا عن لغتهم بعد ثبوت نطقهم به . فاذا كان كل واحد من الوجهين صحيح المعنى حكمنا بصحة كل منهما ، والاول أظهر ، وشواهده المسموعة أكثر

وأما قوله ﴿ واذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ﴾ فمعناه انه إذا أراد إيجاد أمر واحداثه فانما يأمره أن يكون موجودا فيكون موجودا ، فكن ويكون من كان التامة . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا ضرب من التمثيل أي أن تعلق إرادته تعالى بايجاد الشيء يعقبه وجوده كأمر يصدر فيعقبه الامتثال فليس بعد الارادة الا حصول المراد . وقال بعضهم بل هو قول حقيقي . قال الاستاذ الامام وقد وقع هذا الخلاف من أهل السنة وغيرهم وعجيب وقوعه منهم ، فان عندهم مذهبين في المتشابهات التي يستحيل حملها على ظاهرها وهما مذهب السلف في التفويض ، ومذهب الخلف في التأويل ، وظاهر أن هذا من المتشابه ، والقاعدة في تأويل مثله معروفة ومتفق عليها وهي ارجاع النقلي الى العقلي لانه الاصل ، وههنا يقولون ان الامر بمعنى تعلق الارادة وأن معنى (يكون) يوجد

وأقول إن الامر بكلمة كن هنا هو الاصل فيما يسمونه أمر التكوين، ويقابله أمر التكليف ، فالاول متعلق صفة الارادة ، والثاني متعلق صفة الكلام ،

وأمر التكليف يخاطب به العاقل فيسمى المكلف ، ولا يخاطب به غيره فضلا عن المعدوم ، وأمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود ، إذ المراد به جعله موجوداً ، وانما يوجه اليه لأنه معلوم فالله تعالى يعلم الشيء قبل وجوده وأنه سيوجد في وقت كذا . فتتعلق إرادته بوجوده على حسب ما في علمه فيوجد . وشيخ الاسلام ابن تيمية يسميه الامر القدري الكوني ، ويسمى مقابله الأمر الشرعي

قرأ الجمهور (يكون) في كل موضع بضم النون على تقدير فهو يكون كما أراد وقرأه ابن عامر بفتحها في كل موضع إلا في آل عمران والانعام بناء على أن جواب الامر بالفاء يكون منصوبا

ذلك شأنه تعالى في الايجاد والتكوين وهو أغمض أسرار الالوهية فمن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع الاول وذلك مالا مطمع فيه . وقد عبر عن هذا السر بهذا التعبير الذي يقرب به من الفهم ، بما لا يتشعب فيه الوهم ، ولا يوجد في الكلام تعبير آخر أليق به من هذا التعبير : يقول للشيء « كن » فيكون ، فالتوالد محال في جانبه تعالى لان مايعهد في حدوث بعض الاشياء وتولدها من بعض فهو لا يعدو طريقين ـ الاستعداد القهري الذي لا مجال للاختيار فيه كحدوث الحرارة من النور وتولد العفونة من الماء يتحد بغيره ، والسعي الاختياري كتولد الناس بالازدواج الذي يساقون اليه مع اختياره والقصد اليه . واذا كان كل واحد من الامرين محالا على الله تعالى وكان تعالى هو المبدع لجميع الكائنات وهي بأسرها ملكه ومسخرة لارادته فلا معنى لاضافة الولد اليه (سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين)

---

(١١٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ . قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٩) إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ (١٢٠) وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

قلنا إن السياق قد انتقل من الكلام في بني اسرائيل تجاه القرآن ودعوة الاسلام ورسوله إلى الكلام في شئون المؤمنين معهم ومع النصارى والوثنيين. وشيخنا لايزال يجعل السياق واحداً غير ملتفت في التناسب بين الآيات إلى هذا التفصيل لذلك المجمل، وقد قال هنا مامثاله:

الكلام لايزال في القرآن ،وما كان من أمر الناس في الايمان به وعدم الايمان، ذكر في الآيات المتقدمة آنفاً من شأن أهل الكتاب ماتبين به أن عدم إيمانهم بالنبي وما جاء به غير قادح فيه، ولا ينهض شبهة عليه، وأن مطاعنهم فيه متهافتة منقوضة بطعنهم في أنفسهم، وتخبطهم في أمر كتبهم، ثم انتقل إلى ذكر شبهة مشركي العرب وبين أنهم جروا فيها على الاصل المعهود من أمثالهم المشركين الذين سبقوهم بالضلال فقال ﴿ وقال الذين لايعلمون ﴾ أي الجاهلون بالكتاب والشرائع من مشركي العرب. وقال الجلال ان المراد بالذين لايعلمون كفار مكة خاصة ولا دليل على التخصيص ويرجح العموم كون الآية مدنية ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ كما كلم هذا الرسول مع أنه بشر مثلنا ﴿ أو تأتينا آية ﴾ من الآيات التي اقترحناها، يعنون ماحكاه الله تعالى عنهم بمثل قوله (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا) الآيات ﴿ كذلك قال الذين خلوا من قبلهم مثل قولهم ﴾ أي مثل هذا القول قال الكفار الذين أرسل الله اليهم الرسل من قبلهم في معناه وهو أنهم أنكروا على الرسل الاختصاص بالوحي من دونهم واقترحوا عليهم الآيات تعنتاً وعناداً ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ لان الطغيان قد ساوى بينهم حتى كأنهم تواصوا بما يقولون كما قال في سورة الطور (أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون) ويشبه هذا ماورد من أن الكفر ملة واحدة وذلك أن الحق واحد ومخالفته هي الباطل أو الضلال وهو واحد وإن تعددت طرقه واختلفت وجوهه. وآثار الشيء الواحد الكلي تتشابه فيمن تصدر عنهم وإن اختلفت الجزئيات. والتشابه

هنا انما هو في مكابرة الحق واستبعاد كون واحد من البشر رسولا يوحى إليه واقتراح الآيات تعنتا وعناداً

ومثال الاختلاف في الجزئيات طلب قوم موسى رؤية الله جهرة ، وطلب قوم محمد أن يرقى في السماء أمامهم فيأتيهم بكتاب يقرأونه . والطلب الذي مصدره العناد والتعنت لاتفيد إجابته لان صاحبه لايقصد به معرفة الحق ولذلك قال تعالى [1] (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) والدليل المعقول على هذا أنه ما من نبي إلا وقد جاء بآية أو آيات كونية أو عقلية وكانوا مع ذلك يصفونهم بالسحر ثم يقترحون عليهم الآيات ولذلك قال تعالى بعد حكاية شبهة هؤلاء الجاهلين ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ أي اننا لم ندعك يامحمد بغير آية بل بينا الآيات على يديك بيانا لايدع للريب طريقاً إلى نفس من يعقلها . وقدقال (بينا الآيات) ولم يقل أعطيناك الآيات للتفرقة والفصل بين آيات القرآن التي هي من علم الله وكلامه يظهر بها الحق بطريق معقول بين لايشتبه فيه الفهم ، ولا يحار فيه الذهن ، وبين الآيات الكونية التي هي من صنعه يستخذي لها العقل ويخضع لها لشعوره بأنها من قوة فوق قوته . وللناس فيما يرونه فوق ما يعقلون طريقان معهودان : منهم من يسنده الى القوة الغيبية العليا سواء كان له سبب خفي في الواقع أم لا ومنهم من يسنده إلى الاسباب الخفية التي يسمونها السحر ؛ وإن كان فوق قدرة البشر ، ولذلك ضلت الامم في آيات الانبياء السابقين وليس لأحد أن يضل في آيات القرآن لانها بينة معقولة ولذلك قال (ذلك الكتاب لاريب فيه)

نعم إن الآيات العلمية لايعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين . ولذلك قال (لقوم يوقنون) قال الاستاذ الامام : الذين يوقنون هم الذين خلصت نفوسهم من كل رأي وتقليد وتوجهوا إلى طلب الحق في الامور الاعتقادية ، وأخذوا على أنفسهم العهد أن يطلبوه بدليله وبرهانه ، فهم اذا قام عندهم البرهان اعتقدوا

(١) راجع تفسيره في سورة الانعام) من الجزء السابع

وأيقنوا إيقانا ، وإنما يتوقع اليقين من مثلهم لامن قوم يعتقدون الشيء أولا بلا دليل ولا برهان، ثم يلتمسون له الدليل لان مقلديهم قالوا بوجوب معرفة الدليل فاذا أصابوه موافقا لما اعتقدوا رضوا به وإن كان ظنيا ، واذا نهض لهم مخالفا تقاليدهم رفضوه وتعللوا بالتعلات المنتحلة ، وهؤلاء هم الجماهير من الناس الذين وصفوا في الاثر بأنهم أتباع كل ناعق : والعبرة في خطاب الشرع بأهل اليقين الذين صفت نفوسهم، ومحصت أفكارهم ،فسلموا من علة العنادوالمكابرة المانعين لشعاع الحق أن ينفذ إلى العقول ، ولحرارته أن تخترق الصدور إلى القلوب ، هؤلاء هم أنصار الحق لانهم بيقينهم لايستطيعون المروق منه ، ولا السكوت عن الانتصار له ، ألم تر أن كبار الصحابة كانوا يراجعون النبي عليه الصلاة والسلام فيما لم يظهر لهم دليله لانهم طبعوا على معرفة الحق بالدليل . هؤلاء هم الناس الذين تنزل الشرائع لأجلهم، ولولا استعدادهم لها لما شرعت أولما نجحت[1] وأماسائر الناس فتبع لهم وعيال عليهم

ثم قال تعالى ﴿ انا أرسلناك بالحق ﴾ أي بالشيء الثابت المتحقق الذي لا يضل من يأخذ به ولا تعبث به رياح الاباطيل والاوهام ، بل يكون الآخذ به سعيداً بالطمأنينة واليقين . قال الاستاذ الامام ان الحق في هذا المقام يشمل العلوم الاعتقادية وغيرها فهو يقول : إنا أرسلناك بالعقائد الحق المطابقة للواقع ،والشرائع الصحيحة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿ بشيراً ﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين ﴿ ونذيراً ﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزي الآخرة ﴿ ولا تسئل عن أصحاب الجحيم ﴾ أي فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يسافون بجحودهم إلى الجحيم لأنك لم تبعث ملزما لهم ولا جباراً عليهم فيعدّ عدم إيمانهم تقصيراً منك تسئل عنه ، بل بعثت معلماً وهاديا بالبيان والدعوة ، وحسن الأسوة ، لا هاديا بالفعل ولا ملزما بالقوة ، (ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدي من يشاء) وفي الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام لئلا يضيق صدره كما تدل على ذلك آيات أخرى .

---

(١) راجع مقالة « الاصلاح والاسعاد على قدر الاستعداد » في مجلد المنار رابع

وفي الآية من العبرة أن الانبياء بعثوا معلمين لا مسيطرين ، ولا متصرفين في الانفس ولا مكرهين، فاذا جاهدوا فانما يجاهدون دفاعا عن الحق لا إكراها عليه . وفيها أن الله تعالى لا يطالب الناس بأن يأخذوا عنهم إلا العلم الذي يهديهم إلى معرفة حقوق الله وحقوق العباد وفي قراءة نافع ويعقوب (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) بالنهي، أي لا تسأل عما سيلاقون من الانتقام فانه عظيم ، فمثل هذا النهي مستعمل في التهويل لا في حقيقته وهو استعمال معروف بين الناس حتى اليوم

وزعم بعض المفسرين أن النهي على حقيقته وأنه خاص بنهي النبي ﷺ عن السؤال عن أبويه ورووا في ذلك أنه سأل جبريل عن قبريهما فدله عليهما فزارهما ودعا لهما وتمنى لو يعرف حالهما في الآخرة وقال « ليت شعري مافعل أبواي » فنزلت الآية في ذلك . والحديث قال الحافظ العراقي إنه لم يقف عليه ، وقال السيوطي لم يرد في ذلك إلا أثر معضل ضعيف الاسناد . قال الاستاذ الامام وقد فشا هذا القول ولولا ذلك لم نذكره ، وإنما نريد بذكره التنبيه على أن الباطل صار يفشو في المسلمين بضعف العلم والصحيح يهجر وينسى . ولا شك أن مقام النبي عليه الصلاة والسلام في معرفة أسرار الدين ، وحكم الله في الاولين والآخرين، ينافي صدور مثل هذا السؤال عنه ، كما أن أسلوب القرآن يأبى أن يكون هو المراد منه .

ثم قال عز وجل ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ فعاد إلى ذكر أهل الكتاب على ماعهدنا في أساليب القرآن من ضروب الانتقال بالمناسبات الدقيقة . وقد قال الاستاذ الامام غير مرة إن القرآن لم يأت على طريقة المنشئين والمؤلفين الذين يخصون كل طائفة من الكلام بموضوع معين ويسمونها فصلا أو بابا ، ولكن للقرآن أغراضا يبرزها بصور مختلفة ، فكلما لاحت المناسبة لذكر شيء منها أو الاحتجاج عليه أو الدفاع عنه ، جاء به يجذب إليه الاذهان ، ويسارق به خطرات القلوب ، مع مراعاة التناسق ، وحفظ الاسلوب البليغ ، لهذا يتكرر فيه المعنى الواحد بعبارات متعددة ، ويتجلى الروح الواحد في أشكال متنوعة ، فلم يذكر هنا المشركين إلا لما بينهم وبين أهل الكتاب من التناسب والتقارب في المجاحدة والمعاندة ، فكان ذكرهم من متممات الحجة على أهل الكتاب من حيث

أدى غرضاً مقصوداً في ذاته . ولما كان ذكرهم في عرض الكلام كالجملة الاعتراضية كان الرجوع إلى سرد شؤون أهل الكتاب مع النبي عليه السلام رجوعاً إلى أصل الموضوع

وقال في معنى الآية :من شأن الانسان ان يتألم من القبيح أشد التألم اذا وقع ممن لا يتوقع منه فكان النبي عليه الصلاة والسلام يرجو ان يبادر أهل الكتاب الى الايمان به وان لا يرى منهم المكابرة والمجاحدة والعناد ، ولهذا كبر عليه أن رأى من إعراض اليهود والنصارى عن اجابة دعوته، واسرافهم في مجاحدته، أشد مما رأى من مشركي العرب الذين جاء لجحوديهم من الارض ، مع موافقته لاهل الكتاب في أصل دينهم ومقصده من توحيد الله تعالى والاخلاص له وتقويم عوج الفطرة الانسانية الذي طرأ عليها بسبب التقاليد ، وترقية المعارف الدينية الى أعلى ما استعدله الانسان من الارتقاء العقلي والادبي ، ولذلك كان يخاطبهم بمثل قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) الآية وغيرها من الآيات . ولقد كان من الصعب لولا إعلام الله تعالى أن تعرف درجة تلك التقليد بعقول أهل الكتاب وإفساد الاهواء لقلوبهم ، لذلك سلى الله تعالى نبيه عما كان يجده من عنادهم وإيذائهم بآيات كثيرة عرفه فيها حقيقة حالهم ، منها هذه الآية الناطقة بأن كلا من اليهود والنصارى على اتحادهم في أصل الدين قد تعصب لتقاليده واتخذ الدين جنسية لا يرضيه من أحد شيء إلا الدخول فيها وقبول لقبها فقوله تعالى (حتى تتبع ملتهم) مراد به ماهم عليه من التقاليد والاهواء التي غيروا بها وجه الدين الواحد حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض كما تقدم في الآيات السابقة

ثم أمره تعالى في مقابلة ذلك بقوله ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ أي اجهر بقول الحق وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذي أنزله على أنبيائه دون ما أضافه اليه اليهود والنصارى بآرائهم وأهوائهم ففرقوا دينهم وكانوا شيعا كل شيعة تكفر الاخرى وتقول أنها ليست على شيء ، أي فان أردت استرضاءهم، فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم ، ﴿ ولئن اتبعت اهواءهم ﴾ التي أضافوها على كتبهم ، وجعلوها أصولا وفروعا لدينهم ، ﴿ بعد الذي جاءك من العلم ﴾

اليقين ، بالوحي الالهي المبين ، الذي بين ما كان منهم من تحويل اقول عن معناه بالتأويل ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه ، ونسيانهم حظا مما ذكروا به ، ﴿ مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾ أي فانك لن تنجح ولن تصل إلى حقك بمجاراتهم على باطلهم ، لان الله لا ينصرك على ذلك إذ لا يرضيه أن يكون اتباع الهوى ، طريقا الى الهدى ، والضال لا يرضيه إلا موافقته على ضلاله ، ومجاراته على فساده ، واذا لم يكن الله هو الذي يتولى شئونك وينصرك بمعونته فمن ذا الذي ينصرك ويتولاك من بعده ؟

(أقول) ومفهوم هـذا المصرح به في آيات أخرى ان ثباته على هدى الله المؤيد بالعلم هو الذي يكون سببا لتوليه تعالى له ونصره اياه عليهم . ومن المعلوم أن شرط إن لا يقتضي الوقوع فهو لا يدل على أن اتباع أهوائهم متوقع منه ﷺ وانما هو فرض لبيان مضمونه الذي ذكرنا ، وفيه أن من سنن الله تأييد متبعي الهدى على علم صحيح وأنهم هم الغالبون المنصورون ، وهو ما يعبر عنه علماء الاجتماع ببقاء الأمثل في كل تنازع بينه وبين مادونه

﴿ الاستاذ الامام ﴾ من تدبر هذا الانذار الشديد الموجه من الله تعالى إلى نبي الرحمة ، المؤيد منه بالكرامة والعصمة ، علم أن المراد به الوعيد والتشديد على الامة ، على حد « إياك أعني واسمعي ياجاره » فان الله تعالى يخاطب الناس كافة في شخص النبي ﷺ كما جرى عرف التخاطب مع الرؤساء والزعماء فقد يقال للملك : إذا فعلت هذا كانت عاقبته كذا : والمراد اذا فعلته دولتك أو أمتك وقد تقدم غير مرة إسناد عمل بعض الافراد إلى الامة كلها ولكن قوله (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم) وهو يعلم جل شأنه أنه لا يتبع أهواءهم في حال من الاحوال ، وقد عصمه من الزيغ والضلال ، إنما جاء على هـذا الاسلوب ليرشد من يأتي بعده ممن يتبع سنته ويأخذ بهديه . فهو يرشدنا بهذا التهديد العظيم إلى الصدع بالحق والانتصار له وعدم المبالاة بمن يخالفه مهما قوي حزبهم ، واشتد أمرهم ، وانه لتهديد ترتعد منه فرائص الذين يخشون ربهم ، ولا سيما إذا آنسوا من أنفسهم ضعفا في الحق كأن تركوا الجهر به أو الدفاع عنه خوفا من انكار العامة عليهم ، وانغاظ الناس بهم ، فمن عرف الحق وعرفه

أن الله تعالى ولي أهله وناصرهم لايخاف في تأييده لومة لائم ، ولا يغترن أحد بمن يسميهم الناس علماء وعارفين في سكوتهم عن الحق ، ومجاراتهم لاهل الباطل، فانهم ليسوا على شيء من العلم الحقيقي ؟ وان هي الا كلمات يتلقفونها ، وعادات يتقلدونها ، لاحجة للاحياء فيها ، سوى قولهم ان الميتين درجوا عليها ، (قال) « وليس هذا هو العلم الذي جاء به النبي ﷺ وانما هو شيء كان يلقب بالعلم عند الضالين من أهل الكتاب والمشركين كذلك ، وقد نفى عنه كونه علما على الحقيقة بمثل قوله (إن يتبعون الا الظن) وبقوله (لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون) فمن أخذ بقول القائلين ، واتبع ماوجد عليه السابقين ، بدون بينة يعرف بها وجه الحق من ذلك - وكتاب الله بين يديه لاينظر فيه ولا يرجع اليه ، فقد اتبع الهوى بعد الذي جاء من العلم الى النبي ﷺ وباء بالخزي في الدنيا وبالنكال في الآخرة ولم يكن ولن يكون له من الله ولي ولا نصير ، اللهم أعنا على الجهر بالحق بعدما عرفناه ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا :

---

(١٢١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢٢) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٣) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ

الصلة بين قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) الآية وبين ما قبلها واضحة جلية وهي أن هذه جاءت في موضع الاستدراك على ما سبقها من إيئاس النبي والمؤمنين من أهل الكتاب فقد علمنا أن آية (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى) قد سلبت ماكان يخالج النفوس من الرجاء بايمان أهل الكتاب كلهم ، وهذه الآية تنطق بان منهم من يرجى إيمانه وهم الذين وصفهم بما هو علة الرجاء ومناط

الامل وهو تلاوة كتابهم حق تلاوته ، وعدم الجمود على الظواهر والتقاليد ، والا كتفاء بالاماني والظنون ، كأنه يقول إن كانت نفسك تحدثك بان أهل الكتاب أقرب إلى الايمان بما جئت به لانه يشبه ما عندهم ويصدق أنبياءهم وأصول شرائعهم من حيث يقتلع جذور دين الوثنيين ويمحوه محوا فيكون الوثنيون أجدر من أهل الكتاب بمعاندتك ومجاحدتك — فاعلم أن هؤلاء قد ألحقوا بدينهم من التقاليد والمخترعات ، وألصقوا به من البدع والعادات ، ما غرهم في دينهم بغير فهم ، وجعلهم يتعصبون له بغير عقل ، فكانوا بذلك أبعد عن حقيقة الايمان من أولئك الذين يعبدون الاوثان ، وذلك أنهم اتخذوا الدين جنسية فليس لهم منه إلا الجمود على عادات صارت مميزة للمنتسبين اليه ، ولكن لا يزال فيهم نفر يرجى منهم تدبر الشيء والتمييز بين الحق والباطل وهم ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ أي يفهمون أسراره ويفقهون حكمة تشريعه ، وفائدة توط التكليف به ، لا يتقيدون في ذلك بآراء من سبقهم فيه، ولا بتحريفهم كلمه عن مواضعه ، ﴿ أولئك ﴾ هم الذين يقدرون ما جئت به من الترقي في الدين ، وإقامة قواعده على الاساس المتين ، و ﴿ يؤمنون به ﴾ بعد العلم بأنه الحق الذي يزيل ما بينهم من الخلاف ويهديهم الى طريق السعادة في الدنيا والآخرة ﴿ ومن يكفر به ﴾ من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين وهم الاكثرون، ﴿ فاولئك هم الخاسرون ﴾ لهذه السعادة ، المحرومون مما يكون للمؤمنين من المجد والسيادة ، سواء كان كفرهم تحريفه ليوافق مذاهبهم التقليدية ، أم باهماله اكتفاء بقول علمائهم ، ويجوز أن يكون الضمير في قوله (به) للهدى الذي ذكر في الآيات السابقة .

﴿ الاستاذ الامام ﴾ عبر عن التدبر والفهم بالتلاوة حق التلاوة ليرشدنا إلى أن ذلك هو المقصود من التلاوة التي يشترك فيها أهل الاهواء والبدع مع أهل العلم والفهم . والتعبير يشعر بأن أولئك الذين حكم بنفي رضاهم عن النبي ﷺ نفيا مؤكداً لاحظ لهم من الكتاب إلا مجرد التلاوة وتحريك اللسان بالالفاظ ، لا يعقلون عقائده، ولا يتدبرون حكمه ومواعظه ، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه ، لأنهم استغنوا عنه بتقليد بعض الرؤساء والاكتفاء بما يقولون ، فلا عجب إذا أعرضوا عما جاء به

النبي ولا ضرر في إعراضهم . وأما الآخرون فانهم لتدبرهم وفهمهم أسرار الدين ، وعلمهم بوجوب مطابقتها لمصالح المكلفين ، يعقلون ان ماجاء به هو الحق الذي يتفق مع مصلحة البشر في ترقية أرواحهم ، وفي نظام معايشهم ، فيؤمنون به وانما ينتفع بايمان أمثالهم

وجملة القول ان هذا التعبير أفاد حكما جديدا وإرشاداً عظيما وهو ان الذي يتلو الكتاب لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً فلا حظ له من الايمان بالكتاب لانه لايفهم أسراره ولا يعرف هداية الله فيه . وقراءة الالفاظ لاتفيد الهداية وان كان القارىء يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها[1] لان هذا الفهم من قبيل التصور ، وما التصور إلا خيال يلوح ويتراءى ، ثم يغيب ويتناءى ، وانما الفهم فهم التصديق والاذعان ممن يتدبر الكتاب مستهديا مسترشداً ملاحظا انه مخاطب به من الله تعالى ليأخذ به فيهتدي ويرشد ، والمقلدون محرومون من هذا فلا يخطر لهم ببال انهم مطالبون بالاهتداء بكتاب الله تعالى وانما الهداية عندهم محصورة في كلام رؤسائهم الدينيين ، ولاسيا إذا كانوا ميتين ،

وإذا كنا نعتبر بما قص الله تعالى علينا من خبر أهل الكتاب ، كقال (لقد

(١) يؤيد هذا ماذكره الامام الغزالي في بحث التحلي عن موانع فهم القرآن عند التلاوة وهو ان حجب الفهم أربعة (أولها) أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل »... (ثانيها) أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول اليه ببصيرة ومشاهدة ، فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفا على مسموعه ، فان لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تخالف مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله ، ولمثل هذا قالت الصوفية : ان العلم حجاب . وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد او بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها اليهم » اه المراد منه بنصه (راجع الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن في الاحياء)

كان في قصصهم عبرة لأولي الباب) ،فاننا نعرف حكم أهل القرآن عنده تعالى مما ذكره عن أهل التوراة والانجيل كما نعرفه من مثل قوله عز وجل (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وقوله (كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب) فكل هذه الآيات والعبر لم تحل دون اتباع هذه الامة سنن من قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما أنبئت للتحذير ، والقرآن حجة عليها كما ورد في الحديث « والقرآن حجة لك أو عليك » [1] ولا شك أن من يتلو ألفاظ القرآن وهو معرض عن هدايته غير معتبر بوعده ووعيده فهو كالمستهزيء بربه

سأل سائل من المقلدين حاضري الدرس بأن العلماء قالوا :ان القرآن يتعبد بتلاوته :فقال الاستاذ الامام نعم ولكنهم لم يقولوا انه أنزل لذلك وكيف يقولون ذلك والله الذي أنزله يقول انه أنزله (ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب) فالقرآن وكذلك السنة يصرحان في مواضع كثيرة بخلاف هذا القول إذا أخذ على إطلاقه وجعل معناه أو من معناه ان الله تعالى يطالب عباده بقراءة القرآن بدون تدبر ولا تذكر . وقد جاء من الاحاديث مايصف حال قوم يأتون بعد « يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم » وقد سماهم شرار الخلق ، فهؤلاء الاشرار قد اتخذوا القرآن من الاغاني والمطربات ، وإذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالاثم واحتج عليك بكلمة قالها فلان أو حلم رآه فلان ، وهكذا انقلب على المسلمين وضع الدين ، ثم هم يتعجبون مع ذلك كيف حرموا من وعد الله في قوله (وكان حقا علينا نصر المؤمنين * أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) وضرب الاستاذ مثلا رجلا يرسل كتاباً إلى آخر فيقرأه المرسل اليه هذرمة أو يترنم به ولا يلتفت الى معناه ولا يكاف نفسه اجابة ماطلب فيه ثم يسأل الرسول أو غيره : ماذا قال صاحب الكتاب فيه وماذا يريد منه ؟ أيرضى المرسل من المرسل اليه بهذا أم يراه استهزاء به ؟ فالمثل ظاهر وان كان الحق لا يقاس على الخلق ، فان الكتاب لا يرسل لاجل ورقه ولا لاجل نقوشه

---

(١) جملة من حديث رواه مسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي مالك الاشعري مرفوعا

ولا لاجل أن تكيف الاصوات حروفه وكلمه ولكن ليعلم مراد المرسل منه ويعمل به[١]

﴿الاستاذ الامام﴾ ان الاستهداء بالقرآن، واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان، فعلى كل قاريء أن يتلو القرآن بالتدبر وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك ان كل من له معرفة ولو قليلة باللغة العربية فانه يفهم من القرآن مايهتدي به، ومن كان أميا أو عجميا فانه ينبغي له أن يسأل القارئين أن يقرؤا له القرآن ويفهموه معناه، وقد تقدم التنبيه على هذا في مقدمة تفسير سورة الفاتحة. بل قال الاستاذ في هذا المقام اني أعتقد انه يجب على كل مسلم أن يقرأ القرآن أو يسمعه كله ولو مرة واحدة في عمره، ومن فوائد ذلك أن يأمن من إنكار شيء منه إذا عرض عليه أو سمعه مع التشكيك فيه

أقام الله تعالى الحجج الدامغة على أهل الكتاب ثم ناداهم ودعاهم إلى ترك أسباب الغرور المانع من الايمان فقال﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴾ وقد سبق التذكير بهذه النعمة في أول المحاجة، ثم أعيد هنا للمناسبة الظاهرة، وهي أنه بعد ما ذكر أن الاعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به، ذكرهم بانه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بايتائه الكتاب أن يكون حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفارا. فاذا كان ابتدأ العظة والدعوة بذكر هذا التفصيل لتتوجه اليها الانظار وتصغى اليها الاسماع كما تقدم في تفسير الآية الاولى (٤٧) فلا غرو أن يذكر هذا التفضيل ثانيا بعد

---

١) سبق الامام الغزالي إلى مثل هذا المثل فذكره في الاحياء غير مرة وهذه عبارة له فيه قال «مثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثل من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب اليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء والمقت» اه من الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن. ونقول ان الاحاديث التي وردت في الترغيب بالتلاوة من غير ذكر التدبر تحمل على اعتبار التدبر المعلوم من الآيات والاحاديث الاخرى. على ان حفظ ألفاظ القرآن مقصوده لينقل بالتواتر ولا ينافي هذا كونه حجة على القاريء الذي لا يهتدي ولا يعتبر به كما في الحديث الصحيح

التوبيخ والتقريع ، لازالة ما ربما يحدثه ذلك من الاستياء الذي يتوقع أن يكون من أسباب التنفير عما في الآية التالية ، وليس هذا من التكرار الذي يتحاماه البلغاء وإنما هو من إعادة الشيء لافادة ما لا يستفاد بدونه . كأن هذه الآية تمهيداً لما بعدها وهو فذلكة القصة ، والمقصود من إقامة الحجة

ذلك قوله تعالى ﴿ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ﴾ فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الاعراض عن فهم كتاب الله بان بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه ، وانكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن تفهموا وتتدبروا ، فانه يوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئا . ويؤيد الآية حديث الصحيحين «يافاطمة يا بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا » الخ واذا كان لا يجزي فهم سلفكم عنكم أنكم أعرضتم عن هداية كتابه فلا تنفعكم شفاعتهم أيضا ، كما انه لا يقبل منكم عدل وفداء تفتدون به وتجعلونه معادلا لما فرطتم فيه كما قال ﴿ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ﴾ وكانوا يعتقدون بالمكفرات تؤخذ عدلا عما فرطوا فيه وبشفاعة أنبيائهم فأخبرهم الله تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه شيء آخر ثم قطع حبل رجائهم من كل ناصر ينصرهم فقال ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي انه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين ولا من غيرهما .

وقد تقدم في تفسير الآيات الاولى ما يغني عن الاطالة هنا وليس في هذه زيادة في المعنى إلا أن التعبير قد اختلف تفننا ففي الآية الاولى تقدم ذكر الشفاعة منفية القبول، وتأخر ذكر العدل غير مأخوذ ، وفي هذه الآية نفي قبول العدل أولا ثم نفي نفع الشفاعة ثانيا . وكأنه يشير بهذا التفنن إلى أنه لا فرق بين الفداء والشفاعة في الجواز والمنع فمن منع العوض في الآخر لزمه منع الشفاعة فان جوزها جوزه

---

(١٢٤) وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي . قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّـٰلِمِينَ

أقول : بعد أن أقام الله الحجة على أهل الكتاب وبين شؤونهم في الكفر

بالنبي الذي كانوا ينتظرونه لبشارة رسلهم به وشؤونهم في التلاعب بدينهم وشؤونهم مع المؤمنين - بين في هذه الآيات وما بعدها ما يستند اليه الاسلام ونبي الاسلام من اصل ونسب يجله أهل الكتاب والعرب جميعا وهو ملة ابراهيم ونسبه ، فهو في هذا السياق يبين لاهل الكتاب ولاسيما اليهود المحتكرين للوحي في قومهم والمفضلين لانفسهم على العرب بنسبهم أن هذا لو كان حجة لما قامت هذه الحجة على محمد ﷺ وقومه إذ الملة في الاصل واحدة والنسب واحد ولكنهم كفروا النعمتين بما تقدم ذكره من أعمالهم فجاء النبي الموعود به لاصلاح حالهم وحال غيرهم وسيأتي قوله تعالى في هذا السياق (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وجرى شيخنا في الدرس على طيته في التناسب بين هذا السياق وماقبله فقال مامثاله

كان الكلام من أول السورة الى هذه الآية باسلوب واحد في سياق واحد : ذكر حقية الكتاب وكونه من نصوع البرهان بحيث يدفع ريب المرتابين أن يدنو منه أو يتسامى اليه ، ثم ذكر أصناف الناس في أمر الايمان به وعدم الايمان به وأطال الحجاج والمناظرة في خطاب أهل الكتاب خاصة لما تقدم من أنهم كانوا موضع الرجاء في المبادرة الى الايمان بالنبي وماجاء به لانه وافقهم في أصل الدين وصدق أنبياءهم ، وكتبهم وذكرهم بما نسوا ، وعلمهم ماجهلوا ، وأصلح لهم ماحرفوا ، وزادهم معرفة باسرار الدين وحكمته ، كما أنهم كانوا في موضع الشبهة عند المشركين والمنافقين بما كفروا ، وفي موضع الحجة عليهم بما آمنوا ، قال تعالى في الاحتجاج على المشركين « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل » وقد جاءت محاجة أهل الكتاب على طريقة الاطناب لما كانوا عليه من جمود القرائح والبعد عن البلاغة كما حكى عنهم أنهم قالوا « قلوبنا غلف » ومن فساد الاذهان بالتعود على التأويل والتحريف ، فكان يبدأ لهم المعنى ويعاد ، ويساق اليهم القول بطرق بديعة ، ويؤكد بضروب من التأكيد تبعد به عن قبول التأويل والتحويل ، وكان مما حجوا به التذكير بحال سلفهم الانبياء وبحالهم معهم من عصيانهم وإيذائهم بل قتلهم في عهدهم ، والغرور بانتظار شفاعتهم والاستغناء بها من بعدهم

ثم إن الكلام في هذه الآية « واذا ابتلى ابراهيم ربه » وما بعدها موجه الى

مشركي العرب ، ووجه الاتصال بينها وبين ماقبلها أن ذلك كان يتضمن الاحتجاج على أهل الكتاب بسلفهم الصالح ، وهذا يتضمن الاحتجاج على مشركي قريش وأمثالهم بسلفهم الصالح ، فانهم ينتسبون الى اسماعيل وابراهيم ويفتخرون بأنهما بنيا لهم الكعبة ،معبدهم الاكبر ، وكانوا في عهد التنزيل قداختلطوا بالامم المجاورةالتي تعرف لهم هذا النسب .

وإنك لترى الكلام هناجاريا على طريقةالايجاز و لاشارة لماكان عليه العرب من حدة الفكر وصفاء الاذهان ، ودقة الفهم ورقة الوجدان ، على أن هذه الآيات تصلح حجة على الفريقين لان أهل الكتاب كافة يجلون ابراهيم عليه الصلاة والسلام ويعتقدون نبوته ، والاسرائيليون منهم ينتسبون اليه ، ولكن الخطاب في قصته موجه الى العرب أولا وبالذات ، فتلك حجج القرآن على أهل الكتاب الذي جاء لاصلاح دينهم وترقيتهم فيه ودين الله واحد في جوهره ، وهذه حججه على أهل الشرك والوثنية الخاصة التي جاء لمحوها من الارض واثبات نقيضها وهو التوحيد والتنزيه واثبات البعث والنشور ، وقد أقام الحجج على هذين الاصلين من الطرق العقلية والكونية في مواضع كثيرة ولاسيما في السور المكية

قال تبارك اسمه ﴿وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ أقول أشهر الاقوال وأظهرها في متعلق «إذ» هنا قولان (١) أنه مقدر معلوم من السياق ومن أمثاله وهو « اذكر » وإذا جعل الخطاب للرسول ﷺ أي «واذكر» لاهل الكتاب ولقومك وغيرهم (إذ ابتلى إبراهيم ربه) الخ وإذا جعل الخطاب للمكلفين (واذكروا) وتقدم نظيره في خطاب بني اسرائيل (٢) أنه متعلق بقوله (قال إني جاعلك للناس إماما) والكلمات جمع كلمة وتطلق على اللفظ المفرد وعلى الجمل المفيدة من الكلام. والمراد منها هنا مضمونها من أمر ونهي ، روى عكرمة عن ابن عباس قال : لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله الا ابراهيم ابتلاه الله بثلاثين خصلة من خصال الاسلام.. واستنبطها ابن عباس بالعدد من أربع سور ليس فيها خطاب له عليه الصلاة والسلام. وقال شيخنا في الدرس :جعل التكليف بالكلمات لأنها تدل عليها وتعرف بها عادة ولم يذكر الكلمات ماهي ولا الاتمام كيف كان لان العرب تفهم المراد بهذا الابهام والاجمال

وأن المقام مقام إثبات ان الله تعالى عامل ابراهيم معاملة المبتلي أي المختبر له لتظهر حقيقة حاله ويترتب عليها ماهو أثر لها، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله باتمامه ماكلفه الله تعالى إياه وإتيانه به على وجه الكمال . هذا هو المبادر ولكن المفسرين لم يألوا في تفسير الكلمات والخبط في تعيينها فقال بعضهم إنها مناسك الحج ، وقال آخرون إنها خصال الايمان واستخرجوها من آيات من القرآن ، وذهب بعضهم الى أن الاشارة بالكلمات الى الكوكب والقمر والشمس التي رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى ، وكأن قائل هذا يعتقد أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان يظن أن هذه الكواكب أربابا وحاش لله ما كان منه إلا أن قال (هذا ربي) تمهيداً للحجة والبرهان ولذلك قال تعالى بعد حكاية ذلك عنه (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) وذهب قوم الى أن المراد بها جعل الله إياه اماما وتكليفه باقامة البيت وتطهيره وأن بقية الآية مفسر للابهام فيها . وادعى بعضهم أن المراد أمره في المنام بذبح ولده وانما هذا الامر كلمة واحدة فكيف جعلوها عشراً ؟ وزعم آخرون أن الكلمات هي الخصال العشر التي تسمى خصال الفطرة وهي قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وتقليم الاظفار وحلق العانة والختان ونتف الابط والاستحداد وقيل غير ذلك .

قال (الاستاذ الامام) عند ايراد قول المفسر (الجلال) في تفسير الكلمات إنها الخصال العشر : ان هذا من الجراءة الغريبة على القرآن ولا شك عندي في أن هذا مما أدخله اليهود على المسلمين ليتخذوا دينهم هزؤا ، وأي سخافة أشد من سخافة من يقول إن الله تعالى ابتلى نبيا من أجل الانبياء بمثل هذه الامور وأثنى عليها باتمامها وجعل ذلك كالتمهيد لجعله إماما للناس وأصلا لشجرة النبوة — وان هذه الخصال لو كلف بها صبي مميز لسهل عليه إتمامها ولم يعد ذلك منه أمراً عظيما — ؟ والحق أن مثل هذا يؤخذ كما أخبر الله تعالى به ولا ينبغي تعيين المراد به الا بنص عن المعصوم

هذا ملخص ماقاله شيخنا في الدرس وهو صفوة الحقيقة ، ولكن كتب اليه رجل من المشتغلين بالعلم في سورية كتابا عقب قراءته ذلك في المنار يقول فيه إن

وتفسير الكلمات بخصال الفطرة مروي عن ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما فكيف يخالفه فيه وشدد النكير في ذلك وأطنب في مدح ابن عباس ، وقد أرسل اليّ الاستاذ كتابه عند وصوله وكتب عليه : الشيخ رشيد يجيب هذا الحيوان ... فكتبت اليه وكان صديقا لي كتابا لطيفا كان مما قلته فيه على ما اتذكر إننا لم نر أحداً من المفسرين ولا من أئمة العلماء التزم موافقة ابن عباس في كل ما يروى عنه وان صح سنده عنده فكيف اذا لم يصح ، وقد قال الشيخ محمد عبده إنه يجل ابن عباس عن هذه الرواية ولا يصدقها ، ولما كانت مثل هذه الشبهة أو الطعن في أي عالم بأنه خالف فلانا الصحابي أو الامام فلانا مما يروج في سوق العوام نذكر هنا ما قاله شيخ المفسرين ابن جرير الطبري بعد ذكر رواياته المختلفة في تفسير (الكلمات) عن ابن عباس وغيره من مفسري السلف ونقله عنه ابن كثير مقرا له ، قال هذا: قال أبو جعفر ابن جرير ماحاصله أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين الا بحديث أو اجماع (قال) ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له اه المراد منه وهو عين ماذهب اليه شيخنا وهذه الحجة يدلي بها ابن جرير في مواضع كثيرة من تفسيره وهي الحق

ذكر تعالى أن ابراهيم أتم الكلمات وانه تعالى ﴿قال﴾ له ﴿إني جاعلك للناس إماما﴾ وقد فصلت الجملة عما قبلها لأنها جواب عن سؤال مقدر تدل عليه القرينة قال شيخنا ولم يقل: فقال إني جاعلك: للاشعار بأن هذه الامامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات فان الامامة هنا عبارة من الرسالة وهي لا تنال بكسب الكاسب . وليس في الكلام دليل على أن الابتلاء كان قبل النبوة . وأما فائدة الابتلاء فهي تعريف ابراهيم عليه السلام بنفسه وانه جدير بما اختصه الله به ، وتقوية له على القيام بما يوجه اليه ، وقد تحققت إمامته للناس بدعوته إياهم إلى التوحيد الخالص - وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم - فقام على عهده بالحنيفية وهي الايمان بتوحيد ا. والبراءة من الشرك وإثبات الرسالة ، وتسلسل ذلك في ذريته خاصة فلم ينقطع منها دين التوحيد ، ولذلك وصف الله الاسلام بأنه ملة ابراهيم .

وماذا قال ابراهيم لما بشره الله تعالى بجعله اماما للناس ﴿قال ومن ذريتي﴾ أي قال واجعل من ذريتي ائمة للناس ، وهو ايجاز في الحكاية عنه لا يعهد مثله الا في القرآن . وقد جرى ابراهيم صلى الله عليه وآله وسلم على سنة الفطرة في دعائه هذا فان الانسان لما يعلم من ان بقاء ولده بقاء له يحب أن تكون ذريته على أحسن حال يكون هو عليها ليكون له حظ من البقاء جسدا وروحا . ومن دعاء ابراهيم الذي حكاه الله عنه في السورة المسماة باسمه (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) وقد راعى الادب في طلبه فلم يطلب الامامة لجميع ذريته بل لبعضها لانه الممكن وفي هذا مراعاة لسنن الفطرة أيضا وذلك من شروط الدعاء وآدابه فمن خالف في دعائه سنن الله في خليقته أو في شريعته فهو غير جدير بالاجابة بل هو سيء الادب مع الله تعالى لانه يدعوه لان يبطل لاجله سنته التي لا تتبدل ولا تتحول أو ينسخ شريعته بعد ختم النبوة وإتمام الدين .

وبماذا أجاب الله ابراهيم حين دعاه هذا الدعا . ؟ ﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ أي انني أعطيك ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ولكن عهدي بالامامة لا ينال الظالمين لأنهم ليسوا بأهل لان يقتدى بهم ، ففي العبارة من الايجاز ما يناسب ما قبلها . وإنما اكتفى في الجواب بذكر المانع من منصب الامامة مطلقا وهو الظلم لتنفير ذرية ابراهيم من الظلم وتبغيضه اليهم ليتحاموه وينشئوا أولادهم على كراهته ، ويربوهم على التباعد عنه لكيلا يقعوا فيه فيحرموا من هذا المنصب العظيم الذي هو أعلى المناصب وأشرفها ، ولتنفير سائر الناس من الظالمين وترغيبهم عن الاقتداء بهم ، فان الناس قد اعتادوا الاقتداء بالرؤساء والملوك الظالمين لانفسهم ولغيرهم بالخروج عن الشريعة الا مايوافق أهواءهم ، ويحرفون أو يأولون الاحكام لتطابق شهواتهم ، وقد درجوا على ذلك في كل عصر ماعدا عصر النبوة وماقاربه كعصر خلافة النبوة كما يعلم من شهادة التاريخ التي لا ترد

أقول وذهب بعض المفسرين الى أن المراد بالظلم هنا أشد أنواعه قبحا وضررا وهو الشرك والكفر ومنه (ان الشرك لظلم عظيم * والكافرون هم الظالمون) ولكن لادليل هنا على الحصر أو القصر ، ومن يظلم الناس من الموحدين المقرين

بالرسالة غير أهل لامامتهم لانه قدوة باطل وشر يفسد عليهم دينهم ودنياهم . واذا كان فقهاؤنا يقولون بأن الامام لاينبذ عهده الا بالكفر الصريح دون الظلم والفسق فانما يقولون ذلك خوفا من وقوع الفتنة ، لا لان الظالم أهل للامامة ، ألم تر أنهم يشترطون في اختياره وبيعته العدالة ، ومن قواعدهم أنه لايغتفر في البقاء والاستمرار مالا يغتفر في الابتداء ، وليس هذا في كل شيء أيضاً

(قال الاستاذ) الامامة الصحيحة والاسوة الحسنة هي فيما تكون عليه الارواح من الصفات الفاضلة والملكات العلمية التي تملك على صاحبها طرق العمل فتسوقه إلى خيرها وتزعه عن شرها ، ولا حظ للظالمين في شيء منها ، وانما هم أصحاب الرسم وأهل الخداع والانخداع بالظاهر ، ولذلك يصفون أعمالهم وأحكامهم بالرسمية . وقد جعل الله ابراهيم إماما للناس وذكر لنا في كتابه كثيراً من صفاته الجليلة كقوله تعالى (إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً) الآيات وقوله (إن ابراهيم لحليم أوّاه منيب) ولم يذكر لنا شيئاً من زيه وصفة ثيابه ، ولا وصف أنواع طعامه وشرابه ، بل أرشدنا إلى أن دعوته الصالحة لايدخل فيها ولا ينتفع بها أحد من ذريته إلا من اجتنب الظلم لنفسه وللناس

قال : وقد أخذوا من هذه الآية حكماً أصولياً وهو أن الظالم لايجوز أن يولى منصب الامامة العظمى ، واشترطوا لصحة الخلافة فيما اشترطوا العلم والعدل ، ونقل أن أباحنيفة (رح) كان يفتي سراً بجواز الخروج على المنصور ويساعد علياً بن الحسن على ماكان ينزع اليه من الخروج عليه · اكتفى الاستاذ الامام من الدرس بهذا القدر من الاستشهاد . ومن الناس من يعلل إباء أبي حنيفة وغيره من الائمة منصب القضاء في زمن المنصور وأمثاله من الامراء باعتقاد عدم صحة إمامتهم ، وعدم انعقاد ولايتهم ، ويروى أن أبا حنيفة كان يرى يومئذ أن الامامة يجب أن تكون للعلويين خاصة

ثم ذكر الاستاذ الامام هنا أئمة العلم وقال : إن الناس لم يرعووا عن الاقتداء بالظالمين حتى بعد هذا التحذير الذي أوحاه الله إلى ابراهيم ثم أعلم به محمداً عليهما

الصلاة والسلام فانهم ظلوا على دين ملوكهم وهم اليوم وقبل اليوم يدعون الاقتداء بالائمة الاربعة رضي الله عنهم وهم كاذبون في هذه الدعوى فانهم ليسوا على شيء من سيرتهم في التخلق بأخلاق القرآن، وتحري اتباع الكتاب والسنة في جميع الاعمال :

اكتفى الاستاذ الامام بهذه الاشارة في الدرس ونزيدها إيضاحا فنقول: قد غلبت على الناس أهواء السلاطين والحكام الظالمين، حتى ان هؤلاء الائمة الاربعة لم يسلموا من أولئك الظالمين ، فقد سجن أبو حنيفة وحاولوا اكراهه على قبول القضاء لما رأوا من اقبال الناس على الاخذ عنه فلم يقبل ، فضربوه وحبسوه ولم يقبل كما هو مشهور . وضرب الامام مالك سبعين سوطاً لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان ، نقله ابن خلكان عن شذور العقود لابن الجوزي ، ونقل عن الواقدي أنه لم يكن في آخر عهده يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة وكان يقول ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره : وسعي به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس (رضي الله عنهما) وهو عم أبي جعفر المنصور وقالوا له انه لايرى أيمان بيعتكم هذه بشيء : فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمراً عظيما . وخبر طلب هارون الرشيد الشافعي للقضاء وابائه واختفائه ثم هربه مشهور وسببه الورع ،وأشهر منه محنة الامام أحمد وحبسه وضربه الضرب المبرح ليقول بخلق القرآن . فهكذا عامل الملوك الظالمين هؤلاء الائمة وبلغوا منهم ومن الناس بظلمهم ما أرادوا من افساد الدين والدنيا

وكلنا يعلم أن أولئك الذين ظلموا الائمة الذين يدعي الامراء والحكام اليوم اتباعهم كانوا أقل توغلا واسرافا في الظلم من أكثر الملوك والامراء المتأخرين ، وانك لترى أكثر الناس تبعاً لأهواء هؤلاء الرؤساء إلا من وفقه الله وهداه وقليل ماهم بل هم الغرباء في الارض

والعبرة في مثل ماأشرنا اليه من الاحداث أن الظالمين من حكام هذه الامة بدأوا بتحكيم أهوائهم السياسية في الدين وأهله من القرن الاول ، وكانوا اذارأوا الناس قد أقبلوا على رجل من رجال الدين استمالوه ، فان لم يمل اليهم آذوه وأهانوه. ولكن كان الدين وطلب الحق غالباً على أمر المسلمين ، فقد نقل المؤرخون أن

الامام مالكا لم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة ، وكأنما كانت تلك السياط حليا حلي به . ولو أمر أحد السلاطين المتأخرين بضرب عالم من أعلم أهل العصر لأنه لا يرى عهد بيعته صحيحا أو لأنه أفتى بما لا يوافق غرضه (كما نقل عن مالك) لما رأيت له رفعة ولا احتراما عند الناس ، ولأعرض الجميع عنه . فأما العقلاء العارفون بفضله فيعرضون عنه بوجوههم ، وأما الغوغاء من العامة ومن في حكمهم فيعرضون عنه بقلوبهم ووجوههم ، ويعتقدون كفره أو فسقه وابتداعه

ذلك أن الظالمين من الامراء قد استعانوا بالظالمين من الفقهاء على اقناع العامة بأنهم أئمة الدين الذين يجب اتباعهم حتى في الامور الدينية وحالوا بينهم وبين كتاب الله الذي ينطق بأن عهد الله بالامامة لا ينال الظالمين . وغشوهم بان أئمة الفقه الاربعة يحكمون بذلك ، ولو عرف الناس سيرتهم مع خلفاء زمنهم لما تيسر غشهم ـ هذا وان الحاكمين على عهدهم كانوا على علم بالكتاب والسنة واتباع لهما في أكثر أعمالهم وأحكامهم . وأما المتأخرون فلا يعرفون من ذلك اكثر مما يعرفه السوقة ويعملون بخلاف ما يعلمون ، بل يشرعون للناس أحكاما جديدة يأخذونها من قوانين الامم تخالف الشريعة ولا توافق مصلحة الامة ويلزمون عمالهم وقضاتهم الحكم بها باسمهم لا باسم الله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)

---

(١٢٥) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٦) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

قوله تعالى ﴿ واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾ معطوف على ما قبله

والمعنى واذكر أيها الرسول ـ أو أيها الناس ـ إذ جعلنا البيت الحرام مثابة للناس وأمنا أي ذا أمن، بأن خلقنا بما لنا من القدرة في قلوب الناس من الميل الى حجه والرحلة اليه المرة بعد المرة من كل فج وصوب ما كان به مثابة لهم، ومن احترامه وتعظيمه وعدم سفك دم فيه ما كان به أمنا، ولفظ البيت من الاعلام الغالبة على بيت الله تعالى الحرام بمكة كالنجم على الثريا، كان كل عربي يفهم هذا من اطلاق الكلمة.

يذكر الله تعالى العرب بهذه النعمة أو النعم العظيمة وهي جعل البيت الحرام مرجعا للناس يقصدونه ثم يثوبون اليه ، ومأمنا لهم في تلك البلاد بلاد المخاوف التي يتخطف الناس فيها من كل جانب ، وبدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام للبيت وأهله المؤمنين ، وفي هذا التذكير مافيه من الفائدة في تقرير دعوة النبي ﷺ وبيان بنائها على أصول ملة ابراهيم الذي يحترمه قريش وغيرها من العرب.

وقد اختار المثابة على نحو المقصد والمزار لأن لفظ المثابة يتضمن هذا وزيادة فانه لا يقال ثاب المرء الى الشيء إلا اذا كان قصده أولا ثم رجع اليه . ولما كان البيت معبداً وشعاراً عاما كان الناس الذين يدينون بزيارته والقصد اليه للعبادة يشتاقون الرجوع اليه ، فمن سهل عليه أن يثوب اليه فعل، ومن لم يتمكن من الرجوع اليه بجثمانه ، رجع اليه بقلبه ووجدانه ، وكونه مثابة للناس أمر معروف في الجاهلية والاسلام، وهو يصدق برجوع بعض زائريه اليه ، وحنين غيرهم وتمنيهم له عند عجزهم عنه . وكذلك جعله أمنا معروف عندهم فقد كان الرجل يرى قاتل أبيه في الحرم فلا يزعجه على ماهو معروف عندهم من حب الانتقام والتفاخر بأخذ الثار

(الاستاذ الامام) قد يقال ماوجه المنة على العرب عامة بكون البيت أمنا للناس والفائدة فيه انما هي للجناة والضعفاء الذين لا يقدرون على المدافعة عن أنفسهم ؟ والجواب عن هذا أنه مامن قوي إلا ويوشك أن يضطر في يوم من الايام إلى مفزع يلجأ اليه لدفع عدو أقوى منه أو لهدنة يصطلح في غضونها مع خصم يرى سلمه خيراً من حربه ، وولاءه أولى من عدائه ، فبلاد كلها أخطار ومخاوف لاراحة فيها لأحد . وقد بين الله المنة على العرب إذ جعل لهم مكانا آمنا بقوله في سورة العنكبوت (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من

حولهم ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟)

قال تعالى ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ قرأ نافع وابن عامر (واتخذوا) بفتح الخاء على أنه فعل ماض معطوف على جعلنا والباقون بكسرها على أنه أمر أي وقلنا اتخذوا أو قائلين اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى . فحذف القول للايجاز ، وفائدته أن يستحضر ذهن التالى أو السامع المأمورين حاضرين والامر يوجه اليهم ، فهو تصوير الماضي بصورة الحاضر ليقع في نفوس المخاطبين بالقرآن أن الامر يتناولهم ، وأنه موجه اليهم كما وجه إلى سلفهم في عهد أبيهم ابراهيم ، وهم ولده اسماعيل وآل بيته ومن أجاب دعوتهما إلى حج البيت ، لا أنه حكاية تاريخية سيقت للفكاهة والتسلية بل شريعة ودين . وهذا القول أحسن من قول بعضهم إن (اتخذوا) أمر لامة محمد ﷺ لان ذلك القول يقتصر على معنى صيغة الامر وما قلنا يتضمن مع ذلك معنى الدلالة بصيغة الماضي الدالة على أن ابراهيم ومن من معه قد اتخذوا منه مصلى ، ولانه أبلغ لما فيه من تحريك شعور الخلف بشرف عمل السلف وبعثهم على الاقتداء بهم

ومقام اسم مكان من القيام ، وقد اختلف المفسرون في مقام ابراهيم فقال بعضهم إنه الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة قاله ابن عباس وجابر وقتادة وغيرهم ورواه البخاري وعليه مفسرنا (الجلال) وقال آخرون إنه الحرم كله وهو مروى عن النخعي ومجاهد . وروي عن ابن عباس وعطاء أنه مواقف الحج كلها ، وقال الشعبي انه عرفة ومزدلفة والجمار . واختلفوا أيضا في تفسير المصلى فقال من فسر المقام بالحجر انه مكان الصلاة أي صلاتنا المخصوصة وعليه (الجلال) واستدلوا له بحديث جابر عند مسلم قال : إن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام ابرهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ الآية : وذهب الآخرون إلى أن المراد بالمصلى [illegible] الدعاء [illegible] إلى الله تعالى و[illegible] ذكر من دليله أن الحجر لا يسع الصلاة [illegible] فكيف يتخذ منه محل [illegible] مقام ابراهيم

بانه ليس فيهما مايدل على أن الحجر هو المراد بمقام ابراهيم في الآية دون غيره وإنما صلاته تدل على أن الصلاة هناك مشروعة . على أن في سند حديث أبي نعيم مقالا والخطاب في الاصل للمؤمنين في زمن ابراهيم عليه السلام ولم تكن صلاتنا هذه صلاتهم فحمل المقام على جميع شعائر الحج التي قام فيها ابراهيم والصلاة على معناها اللغوي الذي يشمل صلاة إبراهيم ومن كان معه على عبادته كما يشمل صلاتنا ومناسكنا أظهر كما قال الاستاذ الامام . والصلاة عند العرب وغيرهم من الامم تشمل الدعاء والثناء على الله والتوسل اليه بكل قول وعمل يدل على التوجه اليه سبحانه ، ويقول المحققون من الفقهاء حيثما صليت من المسجد فثم مقام ابراهيم . والناس يتحرون صلاة ركعتي الطواف خلف البناء المرتفع الذي وضع فيه الحجر الذي فيه أثر قدم إبراهيم ﷺ إن أمكن والمروي أنه كان ملاصقا للكعبة فأخره إلى ذلك المكان عمر (رض) كما رواه عبد الرزاق بسند قوي عندهم وروى ابن مردويه عن مجاهد بسند ضعيف أن النبي ﷺ هو الذي أخره. وسيأتي في تفسير آل عمران من أول الجزء الرابع مزيد كلام في هذا المقام

قال تعالى ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي ﴾ الخ عهد اليه بالشيء وصاه به والمراد أن الله كلفهما أن يطهرا ذلك المكان الذي نسبه اليه وسماه بيته لانه جعله معبداً يعبد فيه العبادة الصحيحة . ولم يذكر مايجب أن يطهراه منه ليشمل جميع الرجس الحسي والمعنوي كالشرك وأصنامه واللغو والرفث والتنازع .

وتخصيص الله تعالى ذلك البيت بالنسبة إلى ذاته المنزهة عن صفات الاجسام ليس لخصوصية في موقعه ولا في أحجاره وإنما كان بيتا لله لان الله تعالى سماه بيته وأمر بأن يتوجه اليه المصلون وبان يعبد فيه عبادة خاصة . والحكمة في ذلك أن البشر يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبي مطلق لا يتقيد بمكان ولا ينحصر في جهة وهم في حاجة الى التوجه الى خالقهم وشكره والتوسل اليه والثناء عليه واستمداد رحمته ومعونته لما في ذلك من الفائدة لهم لانه يعلي مداركهم عن التقيد في دائرة الاسباب المعروفة على ضيقها وعن الاستخذاء لما لا يعرفون له سببا ، ويرفع نفوسهم عن الرضى بالحياة الحيوانية . فله الحمد والمنة أن عين لهم مكانا نسبه اليه فسماه بيته

رمزاً إلى أن ذاته المقدسة تحضره ، فاذا كان الحضور الحقيقي محالا عليها ، فانها تحضره رحمته الالهية ، ولذلك كان التوجه اليه بمنزلة التوجه إلى تلك الذات العلية ، لو وجد العبد إلى ذلك سبيلا . ولو كلف الله عباده بعبادته مطلقا ـ وقد علمهم بنظر العقل وإرشاد الشرع أنه ليس كمثله شيء لوقعوا في الحيرة والاضطراب لايدرون كيف يتوجهون إلى ذات غيبية مطلقة . ولو اختار بعضهم لنفسه عبادة تليق بهذا التنزيه الذي أرشد اليه الكتاب وصدقه العقل لما اهتدى اليه الآخرون وبذلك يفقد المؤمنون الجامعة التي تجمعهم على أفضل الاعمال التي تؤلف بين قلوبهم ، لذلك قلنا إن الله رحمهم إذ جعل لنفسه بيتا يقصدونه ويثوبون اليه عند الامكان ، ويتوجهون اليه في صلاتهم و'ن بعد المكان ، ولايخشى على المؤمن توهم الحلول في ذات الله بنسبة البيت اليه بعدما نفى سبحانه كل إيهام بقوله (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) أقول ولا يرد على هذا كون السماء قبلة الدعاء لاشارها بعلوه تعالى على جميع خلقه للفرق الظاهر بين الصلاة والدعاء .

وقوله تعالى ﴿ للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ يؤيد مارجحه الاستاذ الامام من جعل المصلى بالمعنى العام أي المعبد فانه بعد أمر الناس باتخاذ مقام ابراهيم مصلى ، بين لنا أن ابراهيم واسماعيل طهراه بأمره لاداء أنواع من العبادات فيه كالطواف وفي معناه السعي بين الصفا والمروة والعكوف في المسجد والركوع والسجود وهما من أعمال الصلاة . والركع السجود جمع الراكع والساجد والآية تدل على أن ابراهيم كان مأموراً هو ومن آمن به بهذه العبادات ، ولكن لادليل فيها على أنهم كانوا يؤدونها على الوجه المشروع عندنا

﴿ واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا ﴾ هذه الآية معطوفة على ماقبلها مسوقة لبيان منة أو منن أخرى على أهل الحرم وهي ماتضمنه دعاء ابراهيم من جعل البلد آمنا في نفسه ، وهو غير ماسبقت به المنة من جعل البيت آمنا . وقد فسر الجلال (آمنا) بقوله ذا أمن : مع أن المعنى ظاهر وهو أن يكون محفوظا من الاعداء الذين يقصدون بالسوء ، وهو غير معنى كونه ذا أمن ، أي أن من يكون فيه يكون آمنا

ممن يسطو عليه فيظلمه أو ينتقم منه . وقد استجاب الله دعاء ابراهيم في ذلك ، ومن تعدى على البيت لم يطل زمن تعديه بحيث يقال إنه قد مر زمن طويل لم يكن البيت فيه آمنا، بل لم ينجح أحد تعدى عليه لذاته ، وانما كان التعدي القصير هو التعدي العارض على بعض من اعتصم فيه ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ فسر الجلال الرزق من الثمرات بنقل جبريل (الطائف) من حوران في بلاد الشام أو من فلسطين الى مكانه الآن في أرض الحجاز مع أن الكلام في البيت و بلده (مكة) لا في الطائف . ورزق أهل هذا البلد الامين من الثمرات ظاهر معروف بالمشاهدة والاخبار المصدقين لما جاء به الكتاب في سورة القصص بقوله (أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء) فالثمرات تجبى وتجمع من حيث تكون وتساق الى مكة ، ولا فرق في ذلك بين كونها من الطائف أو من الشام أو مصر أو الروم مثلا ، وكونها تجمع من أقطار متفرقة أظهر في صدق الآية وأدل على التسخير . وحديث نقل الطائف لا يصح ولكنهم ألصقوه بكتاب الله وجعلوه تفسيراً له وهو بريء منه وغير محتاج في صدقه اليه

وقد خص ابراهيم بدعائه المؤمنين كما هو اللائق به ولكن الله واسع الرحمة وقد جعل رزق الدنيا عاما للمؤمن والكافر (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً) ، ولكن نعيم الكافر محدود بهذا العمر القصير ، ومصيره في الآخرة الى شر مصير ، وذلك جواب الله تعالى لابراهيم قال ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير ﴾ أي وأرزق من كفر أيضا فأمتعه بهذا الرزق قليلا وهو مدة وجوده في الدنيا ثم أسوقه الى عذاب النار سوقا اضطراريا لا يقصده هو ولا يعلم أن كفره ينتهي به اليه ، وذلك أن لجميع أعمال البشر الاختيارية غايات وآثاراً اضطرارية تفضي وتنتهي اليها بطبيعتها بحسب نظام الاسباب والمسببات [illegible] الاسراف في الشهوات أو التعب أو الراحة الى بعض الامراض في الدنيا . فالكفار والفساق مختارون في كفرهم وفسقهم فعقابهم عليها انما هو عقاب على أعمال اختيارية ، وهو أن كفرهم بآيات الله مسوق الى عذاب [illegible]

فأساسها أن علم الانسان وأعماله النفسية والبدنيـة لها الاثر الذي يفضي به إلى سعادته أو شقائه اضطراراً ، ولما كانت هذه السنة بقضاء الله وتقديره صح أن يقال إن الله قد اضطر الكافر إلى العذاب وألجأه إليه إذ جعل الارواح المدنسة بالعقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة محل سخطه وموضع انتقامه في الآخرة كما جعل أصحاب الاجساد القذرة عرضة للأمراض في الدنيا ،

ولما كانت هذه العقائد والمعارف والاخلاق والاعمال كسبية وكان الانسان متمكنا من اختيار الحق على الباطل والطيب على الخبيث وقد هداه الله الى ذلك بما أعطاه من العقل ، وما نزله من الوحي ، — صح أن يقال انه ظلم نفسه وعرضها للعذاب والشقاء بأعماله التي مبدأها كسبي ، وأثرها ضروري

وفي قوله تعالى (ومن كفر) الخ إيجاز بالعطف على محذوف علم منه أنه تعالى استجاب دعاء ابراهيم في المؤمنين فجعل لهم هذا الخير في الدنيا وأعد لهم ماهو أفضل منه في الآخرة . وهو إيجاز لم يكن يعهد في غير القرآن جار على الاصل الذي تقدم بيانه في خطاب القرآن للعرب خاصة دون ما كان يخاطب به بني اسرائيل ، وان كان كل مافي القرآن عبرة عامة لجميع المعتبرين ، كما تكرر عن الاستاذ الامام

---

(١٢٧) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٩) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

ذكر الله تعالى العرب أولا بنعمته عليهم بهذا (البيت) أن جعله مثابة للناس وأمنا ، وبدعاء ابراهيم عليه الصلاة والسلام للبيت واستجابة الله تعالى دعاءه

اذ جعله بلداً آمنا تجبى اليه الثمرات من البلاد البعيدة فيتمتع أهله بها ، وهي نعم يعرفونها لاينكرها أحد ، وانتقل منها الى التذكير بالنعم المعنوية فذكر عهده إلى ابراهيم واسماعيل بأن يطهرا بيتـه للطائفين والعاكفين والركع السجود لينبههم باضافة البيت الى نفسه أنه لايليق أن يعبد فيه غيره وبتطهيره لأجـل الطواف والاعتكاف والصلاة أنه يجب تنزيهه عن الاصنام والتماثيل وعبادتها الفاسدة وعن سائر الاعمال الذميمة كطواف العريان وكانوا يفعلونه

ثم ذكرهم بعد هذا بأن ابراهيم هو الذي بنى هذا البيت بمساعدة ابنه اسماعيل وذكر لهم من دعائهما هنالك مايرشدهم الى العبادة الصحيحة والدين الحق ويجذبهم الى الاقتداء بذلك السلف الصالح الذي ينتمون اليه ويفاخرون به ، فان قريشا كانت تنتسب الى ابراهيم واسماعيل بحق وتدعي أنها على ملة ابراهيم ولذلك كانت ترى أنها أهدى من الفرس والروم . وسائر العرب تبع لقريش

قوله تعالى ﴿ وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ﴾ ظاهر في انهما هما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالى في تلك البلاد الوثنية ولكن القصاصين ومن تبعهم من المفسرين جاونا من ذلك بغير ماقصه الله تعالى علينا وتفننوا في رواياتهم عن قدم البيت وعن حج آدم ومن بعده من الانبياء اليه وعن ارتفاعه الى السماء في وقت الطوفان ثم نزوله مرة أخرى ، وهـذه الروايات يناقض أو يعارض بعضها بعضاً فهي فاسدة في تناقضها وتعارضها ، وفاسدة في عدم صحة أسانيدها ، وفاسدة في مخالفتها لظاهر القرآن ، ولم يستح بعض الناس من ادخالها في تفسير القرآن وإلصاقها به وهو بريء منها . ومن ذلك زعمهم أن الكعبة نزلت من السماء في زمن آدم ووصفهم حج آدم اليها وتعارفه بحواء في عرفة بعد ان كانت قد ضلت عنه بعد هبوطهما من الجنة، وحاولوا تأكيد ذلك بتزوير قبر لها في جدة. وزعمهم أنها هبطت مرة أخرى الى الارض بعد ارتفاعها بسبب الطوفان وحليت بالحجر الاسود ، وأن هذا الحجر كان ياقوتة بيضاء — وقيل زمردة — من يواقيت الجنة أوزمردها وأنها كانت مودعة في باطن جبل أبي قبيس فتمخض الجبل فولدها ، وأن الحجر انما اسود لملامسة النساء الحيض له وقيل لاستلام المذنبين إياه ، وكل

هذه الروايات خرافات اسرائيلية بثها زنادقة اليهود في المسلمين ليشوهوا عليهم دينهم وينفروا أهل الكتاب منه

(الاستاذ الامام) لو كان أولئك القصاصون يعرفون الالماس لقالوا إن الحجر الاسود منه لانه أبهج الجواهر منظراً وأكثرها بهاء وقد أراد هؤلاء أن يزينوا الدين ويرقشوه برواياتهم هذه ولكنها إذا راقت للبله من العامة فانها لا تروق لاهل العقل والعلم الذين يعلمون أن التشريف هذا الضرب من الشرف المعنوي هو ما شرفه الله تعالى فتشرف هذا البيت إنما هو بتسمية الله تعالى إياه بيته ، وجعله موضعا لضروب من عبادته لا تكون في غيره كما تقدم ، لا بكون أحجاره تفضل سائر الاحجار ، ولا بكون موقعه يفضل سائر المواقع ، ولا بكونه من السماء ، ولا بانه من عالم الضياء ، وكذلك شرف الانبياء على غيرهم من البشر ليس لمزية في أجسامهم ولا في ملابسهم وانما هو لاصطفاء الله تعالى إياهم ، وتخصيصهم بالنبوة التي هي أمر معنوي ، وقد كان أهل الدنيا أحسن زينة وأكثر نعمة منهم

وقد أفصح عن هذا المعنى الذي قرره الاستاذ الامام امير المؤمنين ومشيد دعائم الاسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إذ قال عند استلام الحجر الاسود : اما والله اني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ماقبلتك : ثم دنا فقبله رواه أبو بكر بن أبي شيبة والامام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم من عدة طرق وروى ابن أبي شيبة والدار قطني في العلل عن عيسى بن طلحة عن رجل رأى النبي ﷺ وقف عند الحجر فقال : « اني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » ثم قبله ، ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا إني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ماقبلتك : وحديث عمر يؤيد الرواية المرفوعة وإنما قدمناه لانه أصح سنداً . وما روي من مراجعة علي لعمر في ذلك غير صحيح فلا يعول عليه . والحديث يرشدنا الى أن الحجر لا مزية له في ذاته فهو كسائر الحجارة ، وانما استلامه أمر تعبدي في معنى استقبال الكعبة وجعل التوجه اليها توجها الى الله الذي لا يحده مكان ولا تحصره جهة من الجهات ، على

أنه قد غرز في طبائع البشر تكريم البيوت والمعاهد ، والآثار والمشاهد، التي تنسب للاحياء ، أو تضاف الى العظماء

أمر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا

وانما يكون التعظيم والتكريم للديار ، في حال غيبة الساكن والدّيار ، لان النفس إذا حرمت من المشاهدة التي تذكي نار الحب ، وتهيج الاحساس والشعور بلذة القرب ، تحاول أن تذكي تلك النار ، بالتعلل بالاطلال والآثار ، ولا يقال لماذا خصص الحجر الاسود بالتقبيل؟ فان كل مشعر من تلك المشاعر قد خص بمزية تثير شعوراً دينيا خاصاً يليق به فلا يقال : لماذا كان الوقوف والاجتماع، وتعارف أهل الآفاق والاصقاع ، مخصوصا بعرفة دون غيرها من البقاع : ولهذه المشاعر والشعائر معان وأسرار أخرى عند بعض الخواص ، لا ينبغي شرحها لعامة الناس

وقد جهل القصاص تلك الاحاديث والآثار ، وهذه المعاني والاسرار ، وجعلوا مزية البيت الحرام ومشاعره وحجره المكرم محصورة في مخالفتها لسائر الحجارة وكون أصلها من جواهر الجنة التي هي من عالم الغيب ، ولو كان ذلك صحيحاً لبقيت حجارتها كما كانت عند ما نزلت من الجنة بزعمهم وقد راجت بضاعتهم المزجاة عند أهل العلم والعقل عند من لا يعرف من الدين إلا هذه الرسوم الظاهرة، ومنها كسوة الكعبة الحريرية المزركشة فانها عند عامتنا في هذه الازمنة من أعظم شعائر الدين، وان حرّم حضور احتفالها أو رؤيتها بعض علماء الازهر المتأخرين، (كالباجوري) وليس هذا التحريم لذاتها فانها مشروعة بل لما في الاحتفال بها من البدع وما عليه العوام من اعتقاد البركة فيها وفي جملها الذي يقبل مقوده الامراء والوزراء ورؤساء العلماء الرسميين المدهنين لهم ، وهكذا كل واحد يفهم الدين، ويأخذ من كتب الأولين والآخرين ، ما يناسب استعداد عقله ، ويحسن في نظر جيرانه وأهله، حتى يخرج المسلمون من هذه الفوضى في الدين والعلم، ويدير شئونهم الاجتماعية أهل الحكمة والفهم ، فيضعون لهم نظاما يتبع في تعميم التربية والتعليم (ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

ومن مباحث اللفظ في الجملة ان القواعد جمع قاعدة وهي ما يقعد ويقوم عليه البناء من الاساس أو من الساقات ورفعها اعلاء البناء عليها أو اعلاؤها نفسها على الخلاف و«من البيت» قال الجلال انه متعلق بيرفع وهذا إنما يصح اذا أريد بالبيت العرصة أو البقعة التي وقع فيها البناء ،والاكثرون على أن (من) للبيان وعليه يكون البيت بمعنى نفس البناء والجدران،وهناك قول ثالث وهو أن (من) للتبعيض بناء على أن البيت مجموع العرصة والبناء ، قال الاستاذ الامام : وفي الكلام نكتة لطيفة وهي أن ذكر القواعد أولا ينبه الذهن ويحركه الى طلب معرفة القواعد ما هي وقواعد أي شيء هي ؟ فاذا جاء البيان بعد ذلك كان أحسن وقعا في النفس، وأشد تمكنا في الذهن ، وأما النكتة في تأخير ذكر اسماعيل عن ذكر المفعول مع أن الظاهر أن يقال : وإذ يرفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت:فهي الالماع الى كون المأمور من الله ببناء البيت هو ابراهيم وانما كان اسماعيل مساعداً له وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة

وقوله تعالى ﴿ربنا تقبل منا﴾ الخ حكاية لدعاء ابراهيم واسماعيل عند البناء وهو أنهما كانا يقولان ذلك ، حذف القول للايجاز الذي عهد من القرآن في خطاب العرب كما تقدم وجملة القول بيان لحالهما وقتئذ . وتقبل الله العمل قبله ورضي به ﴿ انك أنت السميع ﴾ لاقوالنا ﴿ العليم ﴾ بأعمالنا وبنيتنا فيها

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ المسلم والمسلم والمستسلم واحد وهو المنقاد الخاضع والمراد بالكلمة ما يشمل التوحيد والاخلاص لله تعالى في الاعتقاد والعمل جميعا ومعنى الاول ـ أي الاخلاص في الاعتقاد ـ أن لا يتوجه المسلم بقلبه الا الى الله ولا يستعين باحد فيما وراء الاسباب الظاهرة الا بالله ، ومعنى الثاني أن يقصد بعمله مرضاة الله تعالى لا اتباع الهوى وإرضاء الشهوة ، وانما يرضيه تعالى منا ان تزكى نفوسنا بمكارم الاخلاق ، وترقى عقولنا بالاعتقاد الصحيح المؤيد بالبرهان، فبذلك نكون محل عنايته تعالى ومستودع معرفته وموضع كرامته ، ومن يقصد بأعماله ارضاء شهوته واتباع هواه لا يزيد نفسه الا خبثاً ، وبذلك يكون بعيداً عن الاسلام ويصدق عليه قوله تعالى (أفرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) .

وقد يقال : إن الانسان يندفع لمعظم الاعمال بسائق طلب المنفعة واللذة وهو سائق فطري فكيف ينافيه الاسلام وهو دين الفطرة . ومثاله طلب الغذاء لقوام الجسم يسوق اليه التلذذ بالطعام، ومثل ذلك طلب اللذات العقلية والأدبية فكيف يمكن أن يكون مايطلب للذة خالصاً لله وحده ؟؟ والجواب ان الاسلام قد حلّ هذه المسأله حلا لايجده الانسان في ديانة أخرى ، ذلك أنه لم يحرم علينا إلا ماهو ضارّ بنا ، ولم يوجب علينا إلا ماهو نافع لنا، وقد أباح لنا مالا ضرر في فعله ولا في تركه من ضروب الزينة واللذة اذا قصد بها مجرد اللذة ، وأما اذا قصد بها مع اللذة غرض صحيح وفعلت بنية صالحة فهي في حكم الطاعات التي يثاب عليها ، ومن نية المرء الصالحة في الزينة والطيب أن يسر اخوانه بلقائه، وأن يظهر نعم الله عليه، وأن يتقرب الى امرأته ويدخل السرور عليها، وانما الهوى المذموم في الاسلام هو الهوى الباطل كأن يتزين الرجل ويتطيب للمفاخرة والمباهاة أو ليستميل اليه النساء الاجنبيات عنه، وبذلك تكون الزينة مذمومة شرعا «وانما الاعمال بالنيات»

دعا هذان النبيان العظيمان لأنفسهما بحقيقة الاسلام ثم دعوا بذلك لذريتهما فقالا ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ أي واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك كاسلامنا ليستمر الاسلام لك بقوة الامة وتعاون الجماعة . قال الاستاذ الامام : أضافا الذرية الى ضمير الاثنين للدلالة على ان المراد الذرية التي تنسب اليهما معاً وهي مايكون من ولد اسماعيل ، واللفظ ظاهر في هذا المعنى ويرجحه الحال والمحل الذي كانا فيه وعزم ابراهيم على أن يدع اسماعيل في بلاد العرب داعياً الى توحيد الله ، وإسلام القلب اليه، ويرجع هو الى بلاد الشام ، وكذلك الدعاء لهذه الذرية بأن يبعث الله فيهم رسولا منهم كما سيأتي . وقد استجاب الله تعالى دعاء ابراهيم وولده عليهما السلام ، وجعل في ذريتهما أمة الاسلام ، وبعث فيها منها خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، والى هذا الدعاء الاشارة بقوله تعالى في سورة الحج (ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل)[1] وعلم مما تقدم ان المراد بالاسلام

(١) ظاهر استشهاد شيخنا بالآية انه كان يفهم أن الضمير في قوله (هو سماكم المسلمين) يرجع إلى ابراهيم والتحقيق أنه يرجع إلى الله تعالى

معناه الذي شرحناه فمن قام به هذا المعنى فهو المسلم في عرف القرآن وليس المراد به اسم في حكم الجامد يطلق على أمة مخصوصة حتى يكون كل من يولد فيها أو يقبل لقبها مسلماً ذلك الاسلام الذي نطق به القرآن، ويكون من الذين تنالهم دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد جرى ابراهيم وولده على سنة الفطره في هذا الدعاء أيضاً فخصاه ببعض الذرية لانه قد يكون منها من لا يتناول الاسلام

﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أي علمنا إياها علما يكون كالرؤية البصرية في الجلاء والوضوح ، والمناسك جمع منسك بفتح السين في الأفصح من النسك (بضمتين) ومعناه غاية العبادة ، وغلب استعمال النسك في عبادة الحج خاصة ، والمناسك في معالمه أو أعماله ﴿ وتب علينا ﴾ أي وفقنا للتوبة لنتوب ونرجع اليك من كل حال أو عمل يشغلنا عنك . ويدل عليه قوله تعالى (ثم تاب عليهم ليتوبوا) أو المعنى اقبل توبتنا، ومنه الحديث « ويتوب الله على من تاب » وتاب (بالمثناة) كثاب (بالمثلثة) ومعناه رجع . ويقال : تاب العبد الى ربه أي رجع اليه لأن اقتراف الذنب اعراض عن الله أي عن طريق دينه وموجبات رضوانه ، ويقال : تاب الله على العبد : لأن التوبة من الله تتضمن معنى الرحمة والعطف كأن الرحمة الالهية تنحرف عن المذنب باقترافه أسباب العقوبة فاذا تاب عادت اليه ، وعطف ربه عليه، والتوبة تختلف باختلاف درجات الناس فعبدك يتوب اليك من ترك ما أمرته بفعله ، أو فعل ما أمرته بتركه ، وصديقك يتوب اليك ويعتذر اذا هو قصر في عمل لك فيه فائدة عما في امكانه واستطاعته ، وولدك يتوب اذا قصر في أدب من الآداب التي ترشده اليها ليكون في نفسه عزيزاً كريما . وكذلك تختلف توبات التائبين الى الله تعالى باختلاف درجاتهم في معرفته ، وفهم أسرار شريعته ،فعامة المؤمنين لا يعرفون من موجبات سخط الله تعالى وأسباب عقوبته الا المعاصي التي شددت الشريعة في النهي عنها ، واذا تابوا من عمل سيء فانما يتوبون منها، وخواص المؤمنين يعرفون ان لكل عمل سيء لوثة في النفس تبعد بها عن الكمال، ولكل عمل صالح أثراً فيها يقربها من الله وصفاته ، فالتقصير في الصالحات يعد عند هؤلاء من الذنوب التي تهبط بالنفس وتبعدها عن الله تعالى ، فهي اذا

قصرت فيها تتوب، واذا شمرت لا تأمن النقائص والعيوب، ويختلف اتهام هؤلاء الابرار لانفسهم باختلاف معرفتهم بصمات النفس وما يعرض لها من الآفات في سيرها ، ومعرفتهم بكمال الله جل جلاله ومعنى القرب منه واستحقاق رضوانه ، ولذلك قال بعض العارفين : حسنات الابرار سيئات المقربين ، ومن هنا نفهم معنى التوبة التي طلبها ابراهيم واسماعيل ، عليهما وعلى آلهما الصلاة والتسليم .

﴿ انك أنت التواب الرحيم ﴾ أي انك أنت وحدك الكثير التوب على عبادك وان كثر تحولهم عن سبيلك بتوفيقهم للتوبة اليك وقبول توبتهم منهم الرحيم بالتائبين

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ أي من أنفسهم ويتضمن هذا الدعاء لهم بالارتقاء الذي يؤهلهم ويعدهم لظهور النبي منهم . وقد أجاب الله تعالى هذه الدعوة بخاتم النبيين والمرسلين ﷺ كما ورد في حديث أحمد « أنا دعوة ابراهيم وبشارة عيسى » الخ ، ثم وصف هذا الرسول بقوله ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ الدالة على وحدانيتك وتنزيهك وعظمة شأنك ، والدالة على صدق رسلك الى خلقك، فالمراد بالآيات الآيات الكونية والعقلية ، أو المراد آيات الوحي التي تنزلها عليه فتكون دليلا على صدقه ، ومشتملة على تفصيل آيات الله في خلقه ، كبراهين التوحيد والتنزيه، ودلائل النبوة والبعث، وتلاوتها ذكرها المرة بعد المرة لترسخ في النفس ، وتؤثر في القلب

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ (قال الاستاذ الامام) فسروا الكتاب بالقرآن والحكمة بالسنه والثاني غير مسلم على عمومه ، أما الاول فله وجه وعليه يكون المراد بالآيات فيما سبق دلائل العقائد وبراهينها كما تقدم فيما سبق دون الوحي وإلا كان مكرراً . وفيه وجه ثان وهو أن المراد بالكتاب مصدر كتب يقال : كتب كتابا وكتابة : وانما الدعاء لامة أمية لا بدّ في اصلاحها وتهذيبها من تعليمها الكتابة وقد كانت الامم المجاورة لها من أهل الكتاب فلا يتيسر لها اللحاق بها أو سبقها، حتى تكون من الكاتبين مثلها . وأما الحكمة فهي في كل شيء معرفة سره وفائدته والمراد بها أسرار الاحكام الدينية والشرائع ومقاصدها ، وقد بين النبي ﷺ ذلك بسيرته في المسلمين ، وما فيها من الفقه في الدين، فان أرادوا من السنة هذا

المعنى في تفسير الحكمة فهو مسلم ،وهو الذي كان يفهم من اسمها في الصدر الاول، وإن أرادوا بالسنة مايفسرها به أهل الاصول والمحدثون فلا تصح على اطلاقها فالحكمة مأخوذة من الحكمة (بالتحريك) وهي ماأحاط بحنكي الفرس من اللجام وفيها العذاران، وفي ذلك معنى مايضبط به الشيء ومن ذلك إحكام الامر واتقانه . وما كل من يروي الاحاديث يحقق له هذا المعنى ، ولكن الذي يتفقه في الدين ويفهم أسراره ومقاصده يصح أن يقال : إنه قد أوتي الحكمة التي قال الله فيها (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) ولن يكون أحد داخلا في دعوة ابراهيم حتى يقبل تعليم الحكمة من هذا النبي الكريم

علم ابراهيم واسماعيل عليهما السلام أن تعليم الكتاب والحكمة لا يكفي في اصلاح الامم واسعادها ، بل لابدّ أن يقرن التعليم بالتربية على الفضائل والحمل على الاعمال الصالحة بحسن الاسوة والسياسة فقالا ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يطهر نفوسهم من الاخلاق الذميمة ، وينزع منها تلك العادات الرديئة ، ويعودها الاعمال الحسنة التي تطبع في النفوس ملكات الخير ، ويبغض اليها الاعمال القبيحة التي تغريها بالشر ثم ختما الدعاء بهذا الثناء ﴿ انك أنت العزيز الحكيم ﴾ العزيز هو القوي الغالب على أمره فلا ينال بضيم ، ولا يغلب على أمر ، والحكيم هو الذي يضع الاشياء أحسن وضع ، ويتقن العمل ويحسن الصنع ، والسر في ذكر هذين الوصفين هنا ازالة ماربما يعلق بالذهن ، أو يسبق الى الوهم ، من أن هذه الامور التي دعي بها للعرب منافية لطبائعهم ، بعيدة من أحوالهم ومعايشهم ، فانهم جمدوا على بدواتهم، وألفوا غلظتهم وخشونتهم ، فهم أعداء العلم والحكمة ، خصماء التهذيب والتربية ، لايخضعون لنظام، ولا يؤخذون بالاحكام ،ولا استعداد فيهم للمدنية والحضارة، التي هي أثر تعليم الكتاب والحكمة ، وتزكية أفراد الامة ، فكان يتوقع أن يقول قائل: من يقدر أن يغير طباع هذه الامة المعروفة بالخشونة والقسوة ، فيجعلها من أهل العلم والمدنية والحكمة ؟ لولا أن علم أن المدعوّ والمسئول هو العزيز الذي لامرد لأمره، والحكيم الذي لامعقب لحكمه

(١٣٠) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرٰهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اَصْطَفَيْنٰهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِينَ (١٣١) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰلَمِينَ (١٣٢) وَوَصّٰى بِهَا إِبْرٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٣) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟ قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰهًا وٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٤) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

الكلام في هذه الآيات متصل بما سبقه من ابتداء قوله (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) فقد ذكر أنه تعالى ابتلى ابراهيم بكلمات فأتمهن وانه جعله اماما للناس وجعل من ذريته أئمة وانه عهد اليه ببناء بيته وتطهيره لعبادته ففعل ، وكان يومئذ يدعو بما علم منه ماهي ملته ، وان هي الا توحيد الله واسلام القلب اليه والاخلاص له بالاعمال ، وتعظيم البيت بتطهيره واقامة المناسك فيه عن بصيرة بأسرارها تجعل المعنى المتصور، كالمحسوس المبصر. ثم قال بعد هذا ﴿ ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ أي امتهنها واستخف بها . كأنه تعالى يقول : هذه هي ملة أبيكم ابراهيم الذي تنتسبون اليه وتفخرون به ، فكيف ترغبون عنها وتنتحلون لانفسكم أولياء لا يملكون لكم نفعا ولا ضراً ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشوراً لا بالذات ولا بالوساطة .

قال ﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا ﴾ بهذه الملة فجعلناه اماما للناس وجعلنا في ذريته الكتاب والنبوة ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ لجوار الله بعمله بهذه الملة ودعوته اليها وارشاده الناس بها . فملة جعلت لابراهيم هذه المكانة عند الله

تعالى في الدنيا والآخرة لا يرغب عنها الا من سفه نفسه، وجني على ادراك عقله، فاستحب العمى على الهدى ، وان خسر الآخرة والاولى

ومن مباحث اللفظ في الآية قول الجلال في تفسير (سفه نفسه) أي جهل أنها مخلوقة لله : قال الاستاذ الامام ولم يقل بهذا أحد من المفسرين الذين يعتد بهم والسياق لا يقتضيه ، وسفه يستعمل لازما ومتعديا ومعنى المتعدي استخف وامتهن وأخره الجلال وهو الراجح . وفي الكشاف أن (نفسه) تمييز لفاعل (سفه)ولا يمنع من ذلك الاضافة الى الضمير لأنه تعريف لفظي، والمعنى أنه لا يرغب عن ذلك الا من سفهت نفسه أي حمقت . وقدم هذا القول كأنه رجحه على ماقبله اه

(وأقول) سفه بالضم (كضخم) سفاهة صار سفيها، وسفه بالكسر (كتعب) سفها هو الذي قيل انه يستعمل لازما ومتعديا ، وقيل بل هو لازم دائما وإن أصل سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز كسفه نفساً فأضيفت النفس الى ضميره كما تقدم ومثله غبن رأيه . وسيأتي توضيح معناه في تفسير (سيقول السفهاء)

﴿ إذ قال له ربه أسلم ﴾ أي اصطفاه إذ دعاه إلى الاسلام بما أراه من آياته، ونصب له من بيناته ، فأجاب الدعوة و ﴿ قال أسلمت لرب العالمين ﴾ والجلال قدر كلمة (اذكر) متعلقاً للظرف (إذ) كما هي عادته في مثله وإن وجد في الكلام مايتعلق به كقوله هنا (اصطفيناه) وقد نشأ ابراهيم ﷺ في قوم يعبدون الكواكب ويتخذون الاصنام ، فأراه الله حجته ، وأنار بصيرته ، فنفذت أشعتها من العالم الشمسي ، وأدركت أن لجميع العالمين رباً واحداً منفرداً بالخلق والتدبير، وحاجه قومه فبهرهم ببرهانه ، وأفحمهم ببيانه ، وقد قصّ الله تعالى خبره معهم في سورة الانعام وسيأتي تفسير الآيات إن شاء الله تعالى

﴿ ووصى بها ﴾ أي بالملة أو الخصلة التي ذكرت أخيراً ﴿ ابراهيم بنيه ويعقوب ﴾ بنيه أيضاً إذ قال كل منهما لولده ﴿ يابنيّ ان الله اصطفى لكم الدين ﴾ أي اختاره لكم بهدايتكم اليه وجعل الوحي فيكم ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أي لحافظوا على الاسلام لله والاخلاص في الانقياد إليه بحيث لا تتركوا ذلك لحظة

واحدة لئلا تموتوا فيها فتموتوا غير مسلمين ، فان الانسان لا يضمن حياته بين الشهيق والزفير . ويتضمن هذا النهي إرشاد من كان منحرفا عن الاسلام إلى عدم اليأس ، وأن يبادر بالرجوع اليه والاعتصام بحبله لئلا يموت على غيره

وفي هذه الآية انتقال إلى اشراك أهل الكتاب وغيرهم من العالمين مع العرب في التذكير والارشاد إلى الاسلام ولذلك ذكرت وصية يعقوب ، واختلف الاسلوب ، فقد كان جاريا على طريقة الايجاز ، فانتقل إلى طريقة الاطناب والالحاح ، لما تقدم الالماع إليه من مراعاة (الاولى) في خطاب العرب (والثانية) في خطاب أهل الكتاب ، الذين لا يكتفون بالاشارة والعبارة المختصرة لجمود أذهانهم واعتيادهم على التأويل والتحريف . وفصل بين العاطف والمعطوف بالمفعول ولم يقل : ووصى بها ابراهيم ويعقوب بنيهما ، لئلا يتوهم أن الوصية كانت منهما في وقت واحد أو أنها خاصة بأبنائهما معاً وهم أولاد يعقوب على نحو ماتقدم في تفسير (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)

ذكر ملة ابراهيم وحكم الراغب عنها ووصيته بنيه بها ووصية حفيده يعقوب بنيه بها أيضاً ، وذلك يشعر بأن بني ابراهيم كانوا يوصون بما أوصاهم أبوهم ، فان يعقوب أخذ الوصية عن أبيه اسحاق . وذلك من ضروب الايجاز الدقيقة . ثم أراد أن يقرر أمر هذه الوصية ويؤكدها ويقيم الحجة بها على أهل الكتاب

فقال ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي ﴾

أقول هذا اضراب عما قبله وانتقال إلى استفهام انكاري وجه إلى اليهود عن وصية جدهم يعقوب لآبائهم الاسباط ، ويجوز أن يكون معناه أكنتم غائبين أم كنتم شهداء إذ احتضر يعقوب فسأل بنيه عما يعبدون من بعده سؤال تقرير ليشهدوه على أنفسهم بالتوحيد الخالص والسؤال بما أعمّ من السؤال بمن لأن هذا خاص بمن يعقل وما نزل منزلته بسبب يجيز ذلك والسؤال بكلمة «ما» يعم العاقل وغيره ، وتتعين مافي السؤال عن العاقل اذا أريد وصفه نحو (قال فرعون وما رب العالمين؟) وهذا الاصطلاح للنحاة لايدل على جواز وصف الله تعالى بلفظ «العاقل» شرعا

لأن أسماءه وصفاته تعالى توقيفية ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل

واسحق ﴾ عرفوا الاله بالاضافة إلى آبائه لأنهم هم الذين انفردوا بعبادة رب العالمين خالق السموات والارض وحده ، ودعوا الامم إلى ذلك في وقت فشت فيه عبادة آلهة كثيرين من الكواكب والاصنام والحيوانات وغيرها ، ولذلك قال سحرة موسى عند ما آمنوا (آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون) واسماعيل عم يعقوب ذكر مع آبائه للتغليب أو لتشبيه العم بالاب كما في حديث « عم الرجل صنو أبيه » رواه الشيخان . والجمع بين الحقيقة والمجاز جائز يكثر في القرآن وفاقا للشافعي وابن جرير الطبري وخلافا لجمهور الاصوليين ﴿ إلها واحداً ﴾ أي نعبده حال كونه إلها واحداً ، أو نخص بالعبادة إلها واحداً لا نشرك معه أحداً بدعاء ، ولا توجه في قضاء حاجة ولا غير ذلك من العبادات ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي والحال أننا نحن منقادون مذعنون مستسلمون له وحده دون غيره كما يدل عليه تقديم الظرف « له » وقال الاستاذ الامام في الآية مامعناه :

خلاصة هذه الوصية عقيدة الوحدانية في العبادة واسلام القلب لله تعالى والاخلاص له . وتكرار لفظ (الاسلام) في هذه الآيات يراد به تقرير حقيقة الدين. ذلك أن العرب كانت تدعي أن لها ديناً خاصاً بها وأنه الحق ، وإن اختلفت فيه القبائل والشعوب ، ومنهم من كان ينتمي إلى ابراهيم على وثنيتهم ، وكذلك اليهود والنصارى كل يدعي ديناً خاصاً به وأنه الحق ، فبينت هذه الآيات أن هذه الدعاوى من التعصب للتقاليد وأن دين الله تعالى واحد في حقيقته ، وروحه التوحيد والاستسلام لله تعالى والخضوع والاذعان لهداية الانبياء ، وبهذا كان يوصي أولئك النبيون أبناءهم وأممهم . فتبين أن دين الله تعالى واحد في كل أمة وعلى لسان كل نبي ، ولذلك قال في آية أخرى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا إليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فالتفرق في الدين ماجاء الا من الجهل والتعصب للاهواء ، والمحافظة على الحظوظ والمنافع المتبادلة بين المرءوسين والرؤساء ، فالقرآن يطالب الجميع بالاتفاق في الدين والاجتماع على أصليه العقلي وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، والقلبي وهو الاسلام والاخلاص لله في جميع الاعمال .

وعلم من هذا أن لفظ الاسلام والمسلمين في كلام ابراهيم واسماعيل ويعقوب يراد به معناه الذي تقدم ، فمن لم يكن متحققا بهذا المعنى فليس بمسلم أي ليس على دين الله القيم الذي كان عليه جميع أنبياء الله . وأما لفظ الاسلام في عرفنا اليوم فهو لقب يطلق على طوائف من الناس لهم مميزات دينية وعادية تميزهم عن سائر طوائف الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى . ولا يشترط في اطلاق هذا اللقب العرفي عند أهله أن يكون المسلم خاضعا مستسلما لدين الله مخلصا له أعماله ، بل يطلقونه أيضا على من ابتدع فيه، ماليس منه أو ماينافيه، ومن فسق عنه واتخذ إلهه هواه . ومعنى الاسلام الذي دعا اليه القرآن تقوم به الحجة على المشركين ، ويعترف به اليهود والنصارى لأنه روح كل دين، وهو الذي دعا اليه النبي ﷺ، والدعوة الى اللقب لامعنى لها . قال (الاستاذ الامام) بعد تقريره هذا المعنى وبه يظهر خطأ من خصص الرغبة عن ملة ابراهيم بالميل الى اليهودية أو النصرانية

ومن مباحث اللفظ في الآية أن (أم) تستعمل في الاستفهام اذا كان مبنيا على كلام سابق كما هنا لما فيها من الاشعار بالانتقال ففيها معنى الاضراب

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾

أقول الامة هنا الجماعة من الناس والمشار اليه يعقوب وآباؤه وأبناؤه . واذا بدأت بالافضل قلت ابراهيم وأولاده وأحفاده المذكورون في الآية السابقة . «قد خلت» مضت وذهبت من هذا العالم — لها ما كسبت من عمل تجزى به ، ولكم ما كسبتم من عمل تجزون به، ولا يجزى أحد بعمل غيره ، ولا تسئلون يوم الحساب والجزاء عما كانوا يعملون سؤال حساب وجزاء، ولا يسئلون عما تعملون كذلك، بل كل يسئل عن عمله ويجازى به دون عمل غيره ، فلا ينتفع أحد بعمل غيره ولا يتضرر به من حيث هو عمله، الا أنه قد ينتفع أو يتضرر بعمل غيره اذا كان هو سببا له لأنه أرشده اليه وكان قدوة له فيه

(الاستاذ الامام) جاءت هذه الآية الكريمة بعد الكلام عن وصية ابراهيم بنيه واسماعيل واسحاق ويعقوب لبنيهم استدراكا على ماعساه يقع في أذهان ذراري هؤلاء الانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام من أن هذا السلف الذي له

عند الله هذه المكانة يشفع لهم فينجون ويسعدون يوم القيامة بمجرد الانتسأب اليهم. فبين الله في هذه الآية أن سنته في عباده أن لايجزى أحد إلا بكسبه وعمله، ولا يسئل الا عن كسبه وعمله . وقد بين في سورة النجم أن هذه القضية من أصول الدين العامة التي جاء بها الانبياء من قبل (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى * أن لاتزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للانسان إلا ماسعى) الخ ، وبين في آيات متعددة ، في سور متفرقة أن المرسلين لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن بهم وعمل بما يرشدون اليه كان ناجيا وإن بعد عنهم في النسب، ومن أعرض عن هديهم كان هالكا وإن أدلى اليهم بأقرب سبب ،(قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح) واذا لم تنتفع بهم ذرياتهم الذين لم يقتدوا بهم فكيف ينتفع بهم أولئك البعداء الذين ليس بينهم وبينهم صلة إلا الاقوال الكاذبة التي يعبر عنها أهل هذا العصر (بالمحسوبية) ويقولون في مخاطبة أصحاب القبور عند الاستغاثة بهم « المحسوب كالمنسوب » وما أحسن قول الامام الغزالي : اذا كان الجائع يشبع اذا أكل والده دونه، والظمآن يروى بشرب والده وإن لم يشرب، فالعاصي ينجو بصلاح والده . والآيات التي تؤيد هذه الآية كثيرة جداً فهي أصل من أصول الدين الالهي لايفيد معها تأويل المغرورين ، ولا غرور الجاهلين

---

(١٣٥) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٦) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٧) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٨) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ

بين في الآيات السابقة حقيقة ملة ابراهيم في سياق دعوة العرب الى الاسلام ثم أشرك معهم أهل الكتاب لأنهم أقرب الى الايمان بابراهيم وأجدر باجلاله واتباعه ، وانتقل الكلام بهذه المناسبة الى بيان وحدة الدين الالهي واتفاق النبيين في جوهره وبيان جهل أهل الكتاب بهذه الوحدة وقصر نظرهم على ما يمتاز به كل دين من الفروع والجزئيات أو التقاليد التي أضافوها على التوراة والانجيل فبعد بها كل فريق من الآخر أشد البعد ، وصار الدين الواحد كفراً وايمانا ،كل فريق من أهله يحتكر الايمان لنفسه ويرمي الآخر بالكفر والالحاد، وإن كان نبيهم واحداً وكتابهم واحداً

فقوله تعالى ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ بيان لعقيدة الفريقين في التفرق في الدين والضمير في (وقالوا) لاهل الكتاب و « أو » للتوزيع أو التنويع أي إن اليهود يدعون الى اليهودية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها والنصارى يدعون الى النصرانية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها ـ وهذا الاسلوب معهود في اللغة ـ ولو صدق أيّ واحد منهما لما كان ابراهيم مهتديا لانه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، وكيف وهم متفقون على كونه امام الهدى والمهتدين ، لذلك قال تعالى ملقنا لنبيه البرهان الاقوى في محاجتهم ﴿قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان المشركين ﴾ أي بل نتبع أو اتبعوا ملة ابراهيم الذي لا نزاع في هداه ولا في هديه فهي الملة الحنيفية القائمة على الجادة بلا انحراف ولا زيغ ، العريقة في التوحيد والاخلاص بلا وثنية ولا شرك ،

والحنيف في اللغة المائل وانما أطلق على ابراهيم لان الناس في عصره كانوا على طريقة واحدة وهي الكفر فخالفهم كلهم وتنكب طريقتهم ولا يسمى المائل حنيفا الا اذا كان الميل عن الجادة المعبدة وفي الأساس : من مال عن كل دين اعوج . ويطلق على المستقيم وبه فسر الكلمة بعضهم وأورد له شاهداً من اللغة وهو أقرب . ومن التأويلات البعيدة ماروي من تفسير الحنيف بالحاج ووجه القول به انه مما حفظ من دين ابراهيم

الاستاذ الامام : قال بعض المشتغلين بالعربية من الافرنج إن الحنيفية هي

ما كان عليه العرب من الشرك واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى في زمن الجاهلية « ان فعلت هـذا أكون حنيفيا » وانها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة وقد ناظرت بعض الافرنج في هذا فلم يجد مايحتج به الا عبارة ذلك النصراني وهو الآن يجمع كل مانقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها، ولا دليل في كلمة النصراني العربي على أن الـكلمة تدل لغة على الشرك وانما مراده بكلمته البراءة من دين العرب مطلقا . ذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الحنفاء وينتسبون الى ابراهيم ويزعمون أنهم على دينه ، وكان الناس يسمونهم الحنفاء أيضا والسبب في التسمية والدعوى أن سلفهم كانوا على ملة ابراهيم حقيقة ثم طرأت عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيـدتهم وأنستهم أحكام ملتهم وأعمالها ـ نسوا بعضها بالمرة وخرجوا ببعض آخر عن أصله ووصفه كالحج، ونفي الشرك عن ابراهيم في آخر الآية احتراس من وهم الواهين ، وتكذيب لدعوى المدعين ،

أقول لابدع أن ينسى الاميون ما كانوا عليـه فان أهل الـكتاب خرجوا بدينهم عن وضعه الاول فنسوا بعضا وحرفوا بعضا وزادوا فيه ونقصوا منه . فاليهود أضافوا التلمود الى ماعنـدهم من التوراة وسموا مجموع ذلك مع تفاسيره وآراء أحبارهم فيـه باليهودية . وأما النصارى فقد ظهر دينهم بشـكل لو رآه الحواريون الذين أخذوا الدين عن المسيح مباشرة لماعرفوا أي دين هو . وهؤلاء المسلمون على حفظ كتابهم في الصدور والسطور يعملون باسم الدين اعمالا يظنها الجاهلون بدينهم أعظم أركان الدين، وما هي من الدين وإنما هي بدع المضلين، فالافرنج يكتبون في رحلاتهم ان رقص المولوية ، من أعظم العبادات الاسلامية ، وأن مايكون في جامع القلعة في ليالي المولد والمعراج ونصف شعبان من الرقص والعزف بالطبول والدفوف وغيرها من أهم الشعائر الاسـلامية ، وسماها بعضهم (الصلاة الـكبرى) ولولا أن القرآن محفوظ وسنة الرسول وسيرة السلف الصالح مدونتان في الـكتب لنسينا الاصل واكتفينا بهذه البدع فان مئات الالوف التي تحج مشاهد أهل البيت والجيلاني بالعراق والبدوي وأمثاله بمصر كل عام لا يقيم الصلاة

ويؤتي الزكاة ويحج البيت منهم إلا أقلهم، ولهم في عبادتهم الباطلة أخشع منهم في عبادتهم المشروعة ، ولكن الله أراد بقاء هذا الدين وحفظه وسيرجع إلى كتابه الراجعون ، ويهتدي به المهتدون ولو كره المقلدون ، وعند ذلك تنقشع ظلمات هذه البدع التي هم فيها يتخبطون ،

وقد توهم بعض العلماء أن هذا الجواب « بل ملة ابراهيم » الخ جاء على طريقة الاقناع وليس حجة حقيقية ووجهوه بقولهم ان أهل الكتاب يعاندون الحق ويكابرون في معجزة النبي عليه السلام فأمر الله نبيه بأن يلزمهم بالدلائل الاقناعية التي لايقدرون على مكابرتها والمراء فيها . والحق أن هذا الجواب حجة حقيقية وقد أشرنا إلى وجهها الوجيه أول الكلام في تفسير الآية . وقد تجرأ كثير من العلماء على مثل هذا الكلام في كثير من الآيات التي احتج بها القرآن حتى في إثبات الوحدانية . والسبب في ذلك افتتانهم بالطريقة النظرية التي أخذوها عن كتب اليونان ، ولقد اهتدى بحجج القرآن الالوف وألوف الالوف وقلما اهتدى بتلك الادلة النظرية المحضة أحد من الناس . وإنما تفيد في دفع شبهاتهم التي يوردونها على العقائد ولا فائدة فيها سوى المراء والجدل ، وقد محيت في عصرنا تلك الشبهات، ورغب الناس عن هاتيك النظريات، وقام بناء العلم على أسس الوقائع والحوادث والمجربات ،

وقال الجلال ان الآية نزلت في يهود المدينة ونصارى نجران فهم القائلون ماذكر. والتحقيق أن الآية في بيان طبيعة أهل الملتين كما تقدم ، وقول يهود المدينة ونصارى نجران ماذكر ـ ان صح ـ لايقتضي التخصيص فانهم ماقالوا إلا ماهو لسان حال ملتهم . وغيرهم يقول مثل قولهم ، أو يصدق القائلين باعتقاده وسيرته

أمر الله النبي بان يدعو إلى اتباع ملة ابراهيم ثم أمر المؤمنين بمثل ذلك فقال

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط ﴾ أي لاتكن دعوتكم إلى شيء خاص بكم يفصل بينكم وبين سائر أهل الاديان السماوية بل انظروا إلى جهة الجمع والاتفاق، وادعوا إلى أصل الدين وروحه الذي لاخلاف فيه ولا نزاع ، وهو التسليم بنبوة جميع الانبياء والمرسلين ، مع

الاسلام لرب العالمين ، لا نعبد إلا الله ، ولا نفرق بين أحد من رسل الله ،

والاسباط أولاد يعقوب والفرق أو الشعوب الاثنى عشر المتشعبة منهم . قال تعالى (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما) وقد ورد أن أولاد يعقوب كانوا أنبياء ولم يرد أنهم كانوا مرسلين فان صح هذا كما يفهم من إطلاق الاستاذ الامام في الدرس فالمراد بالاسباط الاطلاق الاول وإلا كان في الكلام تقدير مضاف أي أنبياء الاسباط كأنه قال وسائر أنبياء بني إسرائيل وهو المختار ولم يصح في نبوة غير يوسف من أبناء يعقوب شيء

﴿ وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ﴾ قال الاستاذ الامام: وههنا نكتة دقيقة في اختلاف التعبير عن الوحي الذي منحه الله الانبياء إذ عبر بأنزل تارة وبأوتي تارة أخرى وهي ان التعبير بأنزل ذكر هنا في جانب الانبياء الذين ليس لهم كتب تؤثر ولا صحف تنقل ، وذلك ان انزال الوحي على نبي لا يستلزم اعطاءه كتابا يؤثر عنه، وهذا ظاهر إذا كان النبي غير مرسل فان الوحي اليه يكون خاصاً به ويكون إرشاده للناس أن يعملوا بشرع رسول آخر ان كان بعث فيهم رسول وإلا كان قدوة في الخير ومعداً للنفوس لبعثة نبي مرسل، وأما النبي المرسل فقد يؤمر بالتبليغ الشفاهي ولا يعطى كتابا باقياً وقد يكتب ما يوحى اليه في عصره فيضيع من بعده ؛ فهؤلاء الرسل الكرام الذين عبر عنهم بقوله (وما أنزل على ابرٰهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط) لا يؤثر عن أحد منهم كتاب بسند صحيح ولا غير صحيح واننا نؤمن بأنهم كانوا أنبياء، وان ما نزل عليهم هو دين الله الحق وانه موافق في جوهره وأصوله لما أنزل على من بعدهم . وما ذكر الله من ملة ابراهيم بالنص هو روح ذلك الوحي كله . وقد جاء في سورة النجم وسورة الاعلى ذكر صحف لابراهيم. وقال الجلال هنا انها عشر. فنؤمن انه كان له صحف ولا نزيد على ما ورد شيئاً، وأما اسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط فلم يثبت أن لهم صحفاً ولا كتباً ، فنؤمن بما أنزل اليهم بالاجمال ونعتقد انه عين ملة ابراهيم وجاء التعبير عن وحي الذين كان لهم كتب تؤثر بقوله (وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم) فهو يشير بالايتاء إلى أن ما أوحي

اليهم له وجود يمكن الرجوع اليه والنظر فيه فان أقوامهم يأثرون عنهم كتبا
وأقول الآن: ان المراد الايمان بما أنزل الله تعالى وما أعطاه لأولئك النبيين والمرسلين إجمالا وانه كان وحياً من الله فلا نكذب أحداً منهم بما ادعاه ودعا اليه في عصره ، بصرف النظر عما طرأ عليه من ضياع بعضه وتحريف بعض ، فان ذلك لايضرنا لأن الايمان التفصيلي والعمل مقصور على ما أنزل إلينا ، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة ان أهل الكتاب كانوا يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام فقال النبي (ص) لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا (آمنا بالله) الآية. وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن معقل بن يسار مرفوعا « آمنوا بالتوراة والانجيل والزبور وليسعكم القرآن » وأما ماذكره شيخنا من نكتة اختلاف التعبير فيشكل بقوله في أول الآية (وما أنزل الينا) أي معشر المسلمين وهو القرآن وقوله بعد (وما أوتي النبيون) ولم يعلم انه كان لغير داود منهم كتاب منزل . على ان عدم العلم بكتب أنزلت على ابراهيم واسماعيل وإسحق لايدل على عدم تلك الكتب . ولعل نكتة اختلاف التعبير أن يشمل ما أوتي موسى وعيسى تلك الآيات التي أيدهما بها كما قال (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وقال (وآتينا عيسى بن مريم البينات) ثم قال (وما أوتي النبيون من ربهم) ليدل على أن ذلك لم يكن خاصاً بموسى وعيسى والله أعلم .

وقال بعد ما ذكر الفريقين ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ أي سواء منهم من له كتاب يؤثر ومن ليس له ذلك ، نؤمن بالجميع إجمالا ونأخذ التفصيل عن خاتمهم الذي بين لنا أصل ملتهم التي كانوا عليها وزادنا من الحكم والاحكام ، مايناسب هذا الزمان وما بعده من الازمان ، والعمدة في الدين على إسلام القلب لله تعالى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي مذعنون منقادون كما يقتضي الايمان الصحيح ، ولستم كذلك أهل الكتاب وانما أنتم متبعون لأهوائكم وتقاليدكم لا تحولون عنها

﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ قال صاحب الكشاف ان الآية تعريض بأهل الكتاب وتبكيت لهم ، وقال الجلال ان لفظ مثل زائد واستنكر الاستاذ الامام ذلك واستكبره كعادته فانه يخطيء كل من يقول ان في القرآن كلمة

زائدة أو حرفا زائداً ، وقال ان لمثل هنا معنى لطيفا ونكتة دقيقة وذلك ان أهل الكتاب يؤمنون بالله وبما أنزل على الانبياء ولكن طرأت على ايمانهم بالله نزغات الوثنية وأضاعوا لباب ما أنزل على الانبياء وهو الاخلاص والتوحيد وتزكية النفس والتأليف بين الناس وتمسكوا بالقشور وهي رسوم العبادات الظاهرة ونقصوا منها وزادوا عليها ما يبعد كلا منهم عن الآخر ويزيد في عداوته وبغضائه له ، ففسقوا عن مقصد الدين من حيث يدعون العمل بالدين . فلما بيّن الله لنا حقيقة دين الانبياء وانه واحد لاخلاف فيه ولا تفريق، وأن هؤلاء الذين يدعون اتباع الانبياء قد ضلوا عنه فوقعوا في الخلاف والشقاق ، أمرنا سبحانه وتعالى أن ندعوهم الى الايمان الصحيح بالله وبما أنزل على النبيين والمرسلين بأن يؤمنوا بمثل مانؤمن نحن به لا بما هم عليه من ادعاء حلول الله في بعض البشر، وكون رسولهم الهاً أو ابن الله ، ومن التفرق والشقاق لاجل الخلاف في بعض الرسوم والتقاليد . فالذي يؤمنون به في الله ليس مثل الذي نؤمن به ، فنحن نؤمن بالتنزيه ، وهم يؤمنون بالتشبيه ، وعلى ذلك القياس ، فلو قال : فان آمنوا بالله وبما أنزل على أولئك النبيين وما أوتوه فقد اهتدوا . لكان لهم أن يجادلونا بقولهم أننا نحن المؤمنون بذلك دونكم ، ولفظ مثل هو الذي يقطع عرق الجدل

على ان المساواة في الايمان بين شخصين بحيث يكون ايمان أحدهما كايمان الآخر في صفته وقوته وانطباقه على المؤمن به وما يكون في نفس كل منهما من متعلق الايمان يكاد يكون محالا فكيف يتساوى ايمان أمم وشعوب كثيرة مع الخلاف العظيم في طرق التعليم والتربية والفهم والادراك . ولو كانت القراءة: فان آمنوا بما آمنتم به . كما روي عن ابن عباس في الشواذ لكان الاولى أن يقدر المثل فكيف تقول وقد ورد لفظ مثل متواتراً إنه زائد ؟

﴿ وإن تولوا ﴾ أي أعرضوا عما تدعوهم اليه من الرجوع إلى أصل دين الانبياء ولبابه بايمان كايمانكم ﴿ فانما هم في شقاق ﴾ أي إن أمرهم محصور في العداوة والمشاقة أي الايذاء والايقاع في المشقة أو شق العصا بتحري الخلاف والتعصب لما يفصلهم ويبينهم منكم ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ أي يكفيك إيذاءهم ومكرهم

السيء ويؤيد دعوتك ، وينصر أمتك ، فهذا الوعد بالكفاية عام للمؤمنين وإن كان الخطاب خاصاً فان أهل الكتاب وغيرهم ماشاقوا النبي لذاته وما كان لهم حظ في مقاومة شخصه، فالايذاء كان متوجهاً اليه من حيث هو نبي يدعو إلى دين غير ماكانوا عليه. وقد أنجز الله وعده للنبي والمؤمنين عند ما كانوا على ذلك الايمان وكان الناس يقاومونهم لأجله، فلما انحرفوا من بعدهم عنه خرجوا عن الوعد ، ولو عادوا لعاد الله عليهم بالكفاية والنصر (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)

﴿ صبغة الله ﴾ أي صبغنا بما ذكر من ملة ابراهيم صبغة الله وفطرنه فطرنا عليها وهي ماصبغ الله به أنبياءه ورسله والمؤمنين من عباده على سنة الفطرة فلا دخل فيه للتقاليد الوضعية ولا لآراء الرؤساء وأهواء الزعماء ، وانما هو من الله تعالى بلا واسطة متوسط ولا صنع صانع . والصبغه في أصل اللغة صيغة للهيئة من صبغ الثوب اذا لونه بلون خاص ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ أي لا أحسن من صبغته فهي جماع الخير الذي يؤلف بين الشعوب والقبائل ، ويزكي النفوس ويطهر العقول والقلوب ، وأما ماأضافه أهل الكتاب إلى الدين من آراء أحبارهم ورهبانهم فهو من الصنعة الانسانية ،والصبغة البشرية ، قد جعل الدين الواحد مذاهب متفرقة مفرقة ، والامة الواحدة شيعاً متنافرة متمزقة ﴿ ونحن له ﴾ وحده ﴿ عابدون ﴾ فلا نتخذ أحبارنا وعلماءنا أربابا يزيدون في ديننا وينقصون ، ويحلون لنا بآرائهم ويحرمون، ويمحون من نفوسنا صبغة الله الموجبة للتوحيد ، ويثبتون مكانها صبغة البشر القاضية بالشرك والتنديد .

قال الاستاذ الامام : والآية تشير إلى أنه لاحاجة في الاسلام إلى تمييز المسلم من غيره بأعمال صناعية كالمعمودية عند النصارى مثلا ، وانما المدار فيه على ماصبغ الله به الفطرة السليمة من الاخلاص وحب الخير والاعتدال والقصد في الامور (فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون)

---

(١٣٩) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٤٠) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤١) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

هذا ضرب آخر من محاجة أهل الكتاب جار على نسق سابقه مؤتلف معه متصل به غير منقطع ولا نازل في واقعة خاصة للرد على كلمات قالها اليهود كما ذهب اليه (الجلال) وغيره إذ قالوا إن اليهود قالوا يجب أن يكون جميع الناس تابعين لنا في الدين لأن الانبياء منا والشريعة نزلت علينا ولم يعهد في العرب أنبياء ولا شرائع . نعم لاننكر صدور هذا القول من اليهود فانهم كانوا يقولون مثله دائما ، وانما نقول إن الآيات متناسقة مع ماقبلها متممة له مزيلة لشبهات كانت فاشية في القوم في كل مكان ، لاخاصة برد قول لاحد يهود الحجاز

الآيات السابقة بينت أن الملة الصحيحة هي ملة ابراهيم وهي لم تكن يهودية ولا نصرانية ، وانما هي صبغة الله التي لاصنع لاحد فيها ، بل هي بريئة من اصطلاحات الناس وتقاليد الرؤساء ، فهي الجديرة بالاتباع ، ولكن التقاليد والاوضاع قد طمستها بعد ماجرى الانبياء عليها، وحلت تلك التقاليد محلها ، حتى ذابت هي فيها وخفيت فلم تعد تعرف ، ولذلك جاء محمد عليه الصلاة والسلام ببيانها ، ودعوة الناس إلى الرجوع اليها ، فبين تعالى بتلك المحاجة الحق الذي يجب التعويل عليه ، ثم أخذ في هذه الآيات يزيل الموانع ويبطل الشبهات المعترضة في طريق ذلك الحق ، فأمر نبيه بما ترى من الحجة في قوله :

﴿ قل أتحاجوننا في الله ﴾ بدعواكم الاختصاص بالقرب منه وزعمكم أنكم أبناء الله وأحباؤه ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، ومن أين جاءكم هذا القرب والاختصاص بالله دوننا ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ ورب العالمين فنسبة

الجميع اليه واحدة : هو الخالق وهم المخلوقون ، وهو الرب وهم المربوبون ، وانما يتفاضلون بالاعمال البدنية والنفسية ﴿ ولنا أعمالنا ﴾ التي تختص آثارها بنا إن خيراً فخير وان شراً فشر ﴿ولكم أعمالكم﴾ كذلك وروح الاعمال كلها الاخلاص فهو وحده الذي يجعلها مقربة لصاحبها من الله تعالى ووسيلة لمرضاته ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ من دونكم فانكم اتكلتم على أنسابكم وأحسابكم ، واغتررتم بما كان من صلاح آبائكم وأجدادكم ، واتخذتم لكم وسطاء وشفعاء منهم تعتمدون على جاههم ، مع انحرافكم عن صراطهم ، وماهو إلا التقرب إلى الله تعالى باحسان الاعمال، مع الاخلاص المبني على صدق الايمان، وهو ماندعوكم اليه الآن، فكيف تزعمون أن الإدلاء إلى ذلك السلف الصالح بالنسب، والتوسل اليهم بالقول هو الذي ينفع عند الله تعالى ، وأن الاستقامة على صراطهم المستقيم والتوسل إلى الله تعالى بما كانوا يتوسلون اليه به من صالح الاعمال والاخلاص في القلب لا ينفع ولا يفيد، وما كان سلفكم مرضياً عند الله تعالى إلا به ؟ هل كان ابراهيم مقربا من الله تعالى بأبيه آزر المشرك أم كان قربه وفضله باخلاصه واسلام قلبه إلى ربه ؟ فكما جعل الله النبوة في ابراهيم وجعله إماما للناس في الاسلام والاخلاص جعلها كذلك في محمد ، فاذا صح لكم إنكار نبوة محمد لأنه لم يكن في سلفه العرب أنبياء فأنكروا نبوة ابراهيم ، فان العلة واحدة فكيف لا يتحد المعلول ؟

وحاصل معنى الآية ابطال معنى شبهة أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنه لا ينجو من كان على غير طريقتهم وإن أحسن في عمله وأخلص في قصده ، وأنهم هم الناجون الفائزون وإن أساؤا عملا ونية ، لأن أنبياءهم هم الذين ينجونهم ويخلصونهم بجاههم، فالفوز عندهم بعمل سلفهم، لا بصلاح أنفسهم ولا أعمالهم . وهذا الاعتقاد هدم لدين الله الذي بعث به جميع أنبيائه ودرج عليه من اتبع سبيلهم فان روح الدين الالهي وملاكه هو التوحيد والاخلاص المعبر عنه بالاسلام. وكل عمل أمر به الدين فانما الغرض منه إصلاح القلب والعقل بسلامة الاعتقاد وحسن القصد ، فاذا زال هذا المعنى وحفظت جميع الاعمال الصورية فانها لا تفيد شيئاً ، بل إنها تضر بدونه لانها تشغل الانسان بما لا يفيد وتصده عن المفيد

ولا شك أن أهل الكتاب كانوا قد أزهقوا هـذا الروح الالهي من دينهم فسواء كان ماحفظوه من التقاليد والاعمال مأثوراً عن أنبيائهم أم غير مأثور ، إنهم ليسوا على دين الله ، ومن كان على بصيرة منهم عرف أن ما جاء به محمد ﷺ هو إحياء لروح الدين، الذي كان عليه جميع الانبياء والمرسلين . وتكميل لشرائعه وآدابه بما يصلح لجميع البشر في كل زمان ومكان

ثم إن من تأمل هذا وتأمل حال المسلمين يظهر له أنهم قد اتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع ، وسيرجع من يريد الله بهم الخير إلى دين الله تعالى بالرجوع إلى كتابه الذي حرم عليهم تقليد آراء النـاس فجازوه بأن حرموا العمل به ، كما رجع الالوف وألوف الالوف من أهل الكتاب إلى ذلك في القرون الأولى من ظهور الاسلام وسيرجع غيرهم من سائر البشر اليه فيهم العالمين (ولتعلمن نبأه بعد حين)

﴿ أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أم نصارى ؟ ﴾ قال الاستاذ الامام : ان (أم) هنا معادلة لما قبلها خلافا للجلال ومن على رأيه القائلين انها بمعنى بل — كأنه قال : أتقولون إن هـذا الامتياز لكم علينا والاختصاص بالقرب من الله دوننا هو من الله والحال أنه ربنا وربكم الخ ؟ أم تقولون إن امتياز اليهودية أو النصرانية التي أنتم عليها بأن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا عليها ؟ إن كنتم تقولون هذا فان الله يكذبكم فيه وأنتم تعلمون أيضاً أن اسمي اليهودية والنصرانية حدثا بعد هؤلاء ، بل حدث اسم اليهودية بعد موسى واسم النصرانية بعد عيسى كما حدث لليهود تقاليد كثيرة صار مجموعها مميزاً لهم . وأما النصارى فجميع تقاليدهم الخاصة بهم المميزة للنصرانية حادثة ، فان عيسى عليه السلام كان عدو التقاليد ، ولهذا كان النصارى على كثرة ما أحدثوا أقرب إلى الاسلام لانهم لم ينسوا جميعاً كيف زلزل روح الله تقاليد اليهود الظاهرة ماكان منها في التوراة ومالم يكن ، ولكن الذين ادعوا اتباعه زادوا عليهم من بعده في ابتداع التقاليد والرسوم

وزعم بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في الرد على اليهود إذ كانوا يقولون إن ابراهيم كان يهوديا وعلى النصارى إذ كانوا يقولون إنه كان نصرانيا . قال

الاستاذ الامام وهذا غير صحيح . كلا ان الآية نزلت في إقامة الحجة عليهم بأنهم يعتقدون أن ابراهيم كان على الحق وأن ملته هي الملة الالهية المرضية عند الله تعالى وإذا كان الامر كذلك وكانت هذه التقاليد التي تقلدوها غير معروفة على عهد ابراهيم فما بالهم صاروا ينوطون النجاة بها ويزعمون أن ماعداها كفر وضلال ؟ فهو لا يثبت لهم القول بأن ابراهيم كان يهوديا أو نصرانيا وإنما يقول انهم لا يقدرون على القول بذلك لان البداهة قاضية بكذبهم فيه ولذلك قال لنبيه ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ أي اذا كان الله قد ارتضى للناس ملة ابراهيم باعترافكم وتصديق كتبكم وذلك قبل وجود اليهودية والنصرانية فلماذا لا ترضون أنتم تلك الملة لانفسكم ؟ أأنتم أعلم بالمرضيّ عند الله أم الله أعلم بما يرضيه ومالا يرضيه ؟ لاشك أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، وقد صرح ابن جرير الطبري بان قراءة (أم يقولون) بالتحتية شاذة وعلى القول بانها سبعية يكون في الكلام التفات. ١ (وأقول) قراءة التاء هي لابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وهي للخطاب وقراءة الياء للباقين فلا عبرة بعدّ ابن جرير إياها شاذة

﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ في هذا الاستفهام وجهان أحدهما أنه متمم لما قبله من اقامة الحجة بملة ابراهيم ، يقول ان عندكم شهادة من الله بان ابراهيم كان على الحق وكان مرضيا عند الله تعالى فاذا كتمتم ذلك لاجل الطعن بالاسلام فقد كتمتم شهادة الله وكنتم أظلم الظالمين ، واذا اعترفتم به فاما أن تقولوا انكم أنتم أعلم من الله بما يرضيه ، واما أن تقوم عليكم الحجة وتحق عليكم الكلمة ان لم تؤمنوا بما تدعون اليه من ملة ابراهيم ، وأحد الامرين ثابت ، لا يقبل مراوغة مباهت ،

والوجه الثاني - وهو أظهر - أن الشهادة المكتومة هي شهادة الكتاب المبشرة بأن الله يبعث فيهم نبيا من بني اخوتهم وهم العرب أبناء اسماعيل وكانوا ولا يزالون يكتمونها بالانكار على غير المطلع على التوراة وبالتحريف على المطلع ، فهو يبين هنا - بعد إقامة الحجة بابراهيم على أن زعمهم حصر الوحي في بني إسرائيل باطل - أن هناك شهادة صريحة بأن الله سيبعث فيهم نبيا من العرب فكان هذا دليلا ثالثا وراء الدليل العقلي المشار اليه بقوله (وهو ربنا وربكم) والدليل الالزامي المشار اليه بقوله (أم تقولون إن ابراهيم وإسماعيل) الخ فكأنه يقول :

إن هؤلاء الا مجادلون في الحق بعد ماتبين ، مباهتون للنبي مع العلم بانه نبي ، اذ ما كان لهم أن يشتبهوا في أمره بعد شهادة كتابهم له ، فاذا كان ظلمهم أنفسهم قد انتهى بهم الى آخر حدود الظلم وهو كتمان شهادة الله تعالى تعصبا لجنسيتهم الدينية التي ارتبط بها الرؤساء بالمرؤسين بروابط المنافع الدنيوية من مال وجاه فكيف ينتظر منهم أن يصغوا الى بيان ، أو يخضعوا لبرهان ، ؟ والاستفهام هنا يتضمن التوبيخ والتقريع المؤكدين بالوعيد في قوله ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وانما الجزاء على الاعمال. ثم ختم المحاجة بتأكيد أمر العمل وعدم فائدة النسب فقال:

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون ﴾ وانما تسئلون عن أعمالكم وتجازون عليها، فلا ينفعكم ولا يضركم سواها. وهذه قاعدة يثبتها كل دين قويم ، وكل عقل سليم ، ولكن قاعدة الوثنية القاضية باعتماد الناس في طلب سعادة الآخرة وبعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين تغلب مع الجهل كل دين وكل عقل ، ومنبع الجهل التقليد المانع من النظر في الادلة العقلية والدينية جميعا ، اللهم الا مكابرة الحس والعقل ، وتأويل نصوص الشرع ، تطبيقا لها على مايقول المقلدون المتبعون (بفتح اللام والباء) وقد أول المأولون نصوص أديانهم تقريراً لاتباع رؤسائهم والاعتماد على جاههم في الآخرة لذلك جاء القرآن يبالغ في تقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل والكسب وتبيينها ونفي الانتفاع بالانبياء والصالحين لمن لم يتأس بهم في العمل الصالح ، ولذلك أعاد هذه الآية بنصها في مقام محاجة أهل الكتاب المفتخرين بسلفهم من الانبياء العظام ، المعتمدين على شفاعتهم وجاههم وإن قصروا عن غيرهم في الاعمال . وفائدة الاعادة تأكيد تقرير قاعدة بناء السعادة على العمل دون الآباء والشفعاء ، بحيث لا يطمع في تأويل القول طامع ، والاشعار بمعنى يعطيه السياق هنا وهو أن أعمال هؤلاء المجادلين المشاغبين من أهل الكتاب مخالفة لاعمال سلفهم من الانبياء فهم في الحقيقة على غير دينهم

وقد سبق القول بأن الآية أفادت في وضعها الاول أن ابراهيم وبنيه وحفدته قد مضوا إلى ربهم بسلامة قلوبهم واخلاصهم في أعمالهم ، وانقطعت النسبة بينهم وبين من جاء بعدهم ، فتنكب طريقهم وانحرف عن صراطهم ، وإن أدلى اليهم بالنسب

فكل واحد من السلف والخلف مجزي بعمله لا ينفع أحداً منهم عمل غيره من حيث هو عمل ذلك الغير ولا شخصه بالاولى ، وذلك أنها جاءت عقب بيان ملة ابراهيم وايصاء بعضهم بعضا بها وبيان دروجهم عليها. ثم جاء بعد ذلك الاحتجاج على القوم بمن يعتقدون فيهم الخير والكمال وكونهم لم يكونوا على هذه اليهودية ولا هذه النصرانية اللتين حدثتا بعدهم ، فجاءت قاعدة الاعمال في هذا الموضع تبين أن المتخالفين في الاعمال والمقاصد لا يكونون متحدين في الدين ولا متساوين في الجزاء ، فأفادت هنا مالم تفده هناك . وللمسلمين أن يحاسبوا أنفسهم ، ويحكموا قاعدة العمل والجزاء بينهم وبين سلفهم، ولا يغتروا بالتسمية ان كانوا يعقلون

وأزيد على ماتقدم أن انتفاع الناس بعضهم ببعض في الدنيا انما يكون بمقتضى سنن الله تعالى في الاسباب والمسببات، ومن المعلوم شرعاً وعقلا ان الميت ينقطع عمله بخروجه من عالم الاسباب الى البرزخ من عالم الغيب ، وأما الآخرة فلا كسب فيها،وأمرها الى الله وحده ظاهراً وباطنا كما قال تعالى (يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله)

﴿ استدراكات وبيان لأغلاط معنوية في هذا الجزء ﴾

(١)

في أواخر ص٤٨ : أقول ان هذه الأمثلة تؤيد ماقاله الاستاذ الامام إلخ وهذا القول لايصح على إطلاقه فان كلام ابن القيم مخالف لكلام شيخنا من بعض الوجوه كما يعلم من بياننا لكل منهما وزد على ذلك أن اسم الرحمن جاء في التنزيل ثانيا لاسم الذات (الله) فهو لا يلاحظ فيه تعلق الرحمة بالمرحومين فعلا كما يدل عليه استعماله في مقامات ليست من موضوع الرحمة بل بعضها عام وبعضها في موضوع العذاب كقوله تعالى في حكاية إنذار ابراهيم لأبيه (ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) وقوله (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) وقوله (وخشي الرحمن بالغيب) وقوله (ان يردن الرحمن بضر) ومن الآيات التي موضوعها عام ماورد في الرد على من قالوا اتخذ الله ولداً فحكى قولهم باسم الرحمن كما حكاه باسم الله

(٢)

أشرنا في ص ٥٤ إلى حديث الاجر على حروف القرآن في التلاوة ولم نذكر تخريجه كعادتنا وهو في الترمذي من حديث عبدالله بن مسعود مرفوعا من طريق محمد بن كعب القرظي بلفظ « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . ثم قال وروى من غير هذا الوجه عن أبي الاحوص عن ابن مسعود رفعه بعضهم ووقفه بعض . اه (أقول) وهو في مستدرك الحاكم بلفظ « ان هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم . ان هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فان الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما اني لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف ولام وميم » قال الحاكم هذا حديث صحيح ولم يخرجاه بصالح بن عمر اه (أقول) رواه من طريق صالح بن عمر عن ابراهيم بن مسلم الهجري (بفتح الهاء والجيم) قال الحافظ الذهبي في تلخيصه صالح ثقة خرج له مسلم ولكن ابراهيم بن مسلم ضعيف اه أقول ومما أخذ عليه رفع عدة أحاديث موقوفة

وفي ص ٥٨ الاستشهاد بحديث « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » من سياق شيخنا غير مخرج وهو في الكبير للطبراني من حديث ابن عباس وسنده ضعيف

(٣)

قولنا في القاعدة الاولى (في ص ١١١) ولكنه في الدنيا اضافي مطرد في الامم الخ فيه ضعف وإبهام اجمال ، والمراد به الوعد بسعادة متبع هدى الله عز وجل باعتبار متعلقه ، اعني ان الامم المهتدية بالدين تكون سعيدة بالنسبة الى الامم غير المهتدية باطراد وأما الافراد فتكون سعادتهم حتى بالاضافة الى غير المهتدين غير مطردة فان منهم من يصيبه من الأمراض وشدة الفقر والبؤس ما يكون به أسوأ حالا من بعض غير المهتدين ، الا أن يعتبر في المقابلة بين كل فردين من المهتدين وغير المهتدين تساويهما في الاحوال البدنية والاجتماعية والمعاشية فحينئذ يكون المهتدي أسعد من غيره بالحالة النفسية لانه يكون أصبر على البؤس والضراء من غير المهتدي : وهذا أمر خفي لا تظهر به سعادة بعض الافراد على بعض للناس ، ويراجع ما يدل على هذه القاعدة من هذا الجزء بالاستعانة بالفهرس العام ككلمة السعادة في حرف السين وكلمة الدين في حرف الدال

(٤)

قولنا في السطر الرابع من ص ١٢٠ « وكماله من ثمرات الايمان » جملة خبرية معترضة بين قولنا « ان الايمان » وما عطف عليه وبين خبر أن الذي هو « سببان من أسباب نصر العدد القليل على العدد الكثير » وقولنا في السطر الثامن من هذه الصفحة « ومنها تعليل تحريم الربا » خطأ صوابه ومن أدلتها تعليل الخ وقولنا في السطر العاشر « فان الذي يقرض المحتاج » الخ صوابه فان الذي كان يقرض المحتاج الى أجل كان يقول له اذا حل الاجل : إما أن تمضي الخ

(٥)

في ص ٢٠٩ إيراد في ادعاء كهنة أهل الكتاب أن كتبهم المقدسة سالمة من التعارض والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة والجواب عنه ولكن الجواب لم يبين فيه كل ما يجب بيانه ولا أهمه وهو أن علماء اللاهوت لا يدعون ما ذكر في الايراد بل يصرحون بأن فيها مسائل كثيرة مخالفة لما هو مقرر في العلوم والفنون والتاريخ ولكن هذه المخالفة لا تنافي عندهم صحة الدين ولا قداسة هذه الكتب لأن المسائل المذكورة ليست من أمور الدين التي تتعلق بها عصمة الأنبياء عليهم السلام . وقد طرقنا أبواب هذا البحث في (المنار) مراراً وتغلغلنا فيها أحياناً. ومن ذلك مقال نشرناه في الجزء الثاني من المجلد السادس (صفحة ٣٢١) عقب ما كتب في شأن عثور بعض علماء الآثار العادية من الالمان على شريعة حمورابي منقوشة على عمود من صم الصفا في العراق ، فقد ظهر لهم ان معظم شريعة التوراة موافقة لهذه الشريعة كما ظهر لبعض المحققين منهم ان اسفار هذه التوراة مشتملة على المئات أو الالوف من الالفاظ البابلية المحضة فجزم الاحرار من هؤلاء الباحثين بان التوراة مقتبسة ليست وحيا من الله تعالى . وقد صرح بذلك العلامة اللاهوتي الاثري (دليتش) أحد أعضاء جمعية الشرق في خطبة له (محاضرة) حضرها قيصر المانية (غليوم الثاني) والقيصرة وجماهير العلماء والكبراء وقد صرح هذا العالم الألماني الكبير في خطبته ـ أو محاضرته ـ هذه بما استنتجه مما ذكر وهو انه لا حاجة الى دين وراء وجدان الخير المغروس في الفطرة قائلا « إننا نضع أيدينا على قلوبنا ولا نحتاج الى وحي غير الوحي الذي يصدر عنها » وقد أنكرت الصحف الدينية عليه طعنه، وعلى القيصر المشهور بالتدين أنه جالسه بعد

القاء الخطبة ولاطفه ولم ينكر عليه هدمه اصرح الدين من أساسه فكتب القيصر الى صديقه الاميرال (هولمن) كتابا طويلا يثبت فيه تمسكه بالدين كما اشتهر عنه ومما قاله فيه:

« من البديهي عندي ان التوراة تحتوي على عدة فصول تاريخية وهي من البشر لا من وحي الله ومن ذلك الفصل الذي ورد فيه أن الله أعطى موسى على جبل سيناء شريعة بني اسرائيل فانني أعتقد انه لا يمكن اعتبار تلك الشريعة موحى بها من الله الا اعتباراً شعريا رمزيا لأن موسى قد نقل تلك الشرائع عن شرائع أقدم منها على الارجح وربما كان أصلها مأخوذاً من « شرائع حموربي » ـ الى أن قال ـ : واني أستنتج مما تقدم ما يأتي :

« (١) انني أؤمن باله واحد (٢) اننا معشر الرجال نحتاج في معرفة هذا الاله الى شيء يمثل ارادته ، وأولادنا أشد احتياجا منا الى ذلك (٣) ان الشيء الذي يمثل ارادة الله عندنا هو التوراة التي وصلت الينا بالتقليد . واذا فندت المنكشفات الاثرية بعض رواياتها وذهبت بشيء من رونق تاريخ الشعب المختار ـ شعب اسرائيل ـ فلا ضير في ذلك لان روح التوراة يبقى سليما مهما يطرأ على ظاهرها من الاعتلال والاختلال . وهذا الروح هو الله وأعماله

« ان الدين لم يكن من محدثات العلم فيختلف باختلاف العلم والتاريخ، وانما هو فيضان من قلب الانسان ووجدانه بما له من الصلة بالله» اه المراد منه

وقد بينا في تعليقنا على كتاب القيصر هذا وفي مقالات أخرى في المنار وفي تفسيرنا هذا بأن مجموع ما ثبت عند علماء التاريخ والآثار العادية وسائر العلوم في شأن التوراة ـ وكذا الانجيل ـ يؤيد حكم القرآن فيهما وفي أهلهما وهو ان الفريقين أوتوا نصيباً من الكتاب الالهي لا الكتاب كله ، وانهم نسوا حظا عظيما منه ، وانهم حرفوا ما عندهم منه . فعلماء الافرنج وعلماؤهم المتدينون يرون ان ما بقي فيه من النور والهدى وسيرة الانبياء تجب المحافظة عليه والاهتداء به ، ولولا الجهل بحقيقة الاسلام من بعضهم والعصبية السياسية من بعض لآمنوا بالقرآن الذي سبقهم كلهم الى تصفية سيرة أولئك الانبياء الكرام من الشوائب وبيانه لخلاصة هداهم وطرحه ما عدا ذلك ثم تكميله للهدى والنور المأثور عنهم حتى كانت النسبة بين نورهم ونوره كالنسبة بين نور سراج الزيت ونور الكهرباء بل نور الشمس على انه أوحي الى رجل أمي لم يقرأ من تلك الكتب ولا غيرها شيئا

الله أكبر ان دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا

لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفيء القنديلا

على انهم سيلحقون أو سوف يأوون الى حظيرة الاسلام ونور القرآن على حين نرى مقلدتهم من ملاحدة المسلمين يمرقون من الاسلام تقليدا لاحرارهم الذين مرقوا من النصرانية بعد أن عجزوا عن التوفيق بين حقائق العلم ونصوص كتبهم فانظر الى هذا العمى والارتكاس في قوم يسدون الدين الذي أيده العلم والتاريخ عما يعد معجزة له، تقليدا لقوم يسدون دينهم لمخالفة العلم والتاريخ له

عمى القلوب عموا عن كل فائدة لانهم كفروا بالله تقليدا

(وليراجع القاريء في هذا البحث نفسه ص ٢١٢-٢١٤ من هذا الجزء نفسه)

(٦)

ذكرت في ص ٢٩٤ ما قاله الاستاذ الامام في تفسير (واركعوا مع الراكعين) بعد الامر باقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وفاتني أن أذكر ما أبهمه أما في هذا الامر بعد الامرين وهو أنه أمر بصلاة الجماعة أي وصلوا مع المصلين لا فرادى، وهو يؤيد بظاهره قول من قال بوجوبها. ويصح الجمع بينه وبين ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى ويأتي مثله في أمر مريم عليها السلام بذلك وحينئذ لا يحتاج الى بيان حكمة أو نكتة لقوله (مع الراكعين) دون الراكعات لان تغليب الذكور في صلاة الجماعة أظهر من تغليبهم في الصلاة مطلقاً

(٧)

تكرر في هذا الجزء ويتكرر في سائر الأجزاء الكلام في جعل الدين عصبية جنسية ورابطة من الروابط السياسية وأن اليهود والنصارى قد جعلوا هذا من قبل فاتبع المسلمون سننهم فيه . وان هذا لا ينفع أصحابه في الآخرة وقد يضرهم إذا خالفوا الحق أو اتبعوا الباطل لمحض العصبية وانما ينفعهم هنالك الايمان الصحيح والعمل الصالح ونزيد على ذلك ان الجمع بين هذا وبين التمسك بالجنسية الدينية بالحق لا بالعصبية الجاهلية ما تتم به قوة الحق والدين . والله يتولى المتقين

(تم طبع الجزء الاول بفضل الله وحمده في شهر جمادى الاولى سنة ١٣٤٦)

وكان قد نشر مختصراً متفرقا في مجلدات المنار من الثالث (كما تقدم في فاتحتنا) الى الجزء الثاني من المجلد السابع الذي صدر في غرة صفر سنة ١٣٢٢ ثم قد ظهر لنا بعد طبعه بعض الخطأ والابهام فبيناه فيما ترى